ماريو بارغاس يوسا

المدينة والكلاب

ترجمها عن الإسبانية: مارك جمال

مكتبة

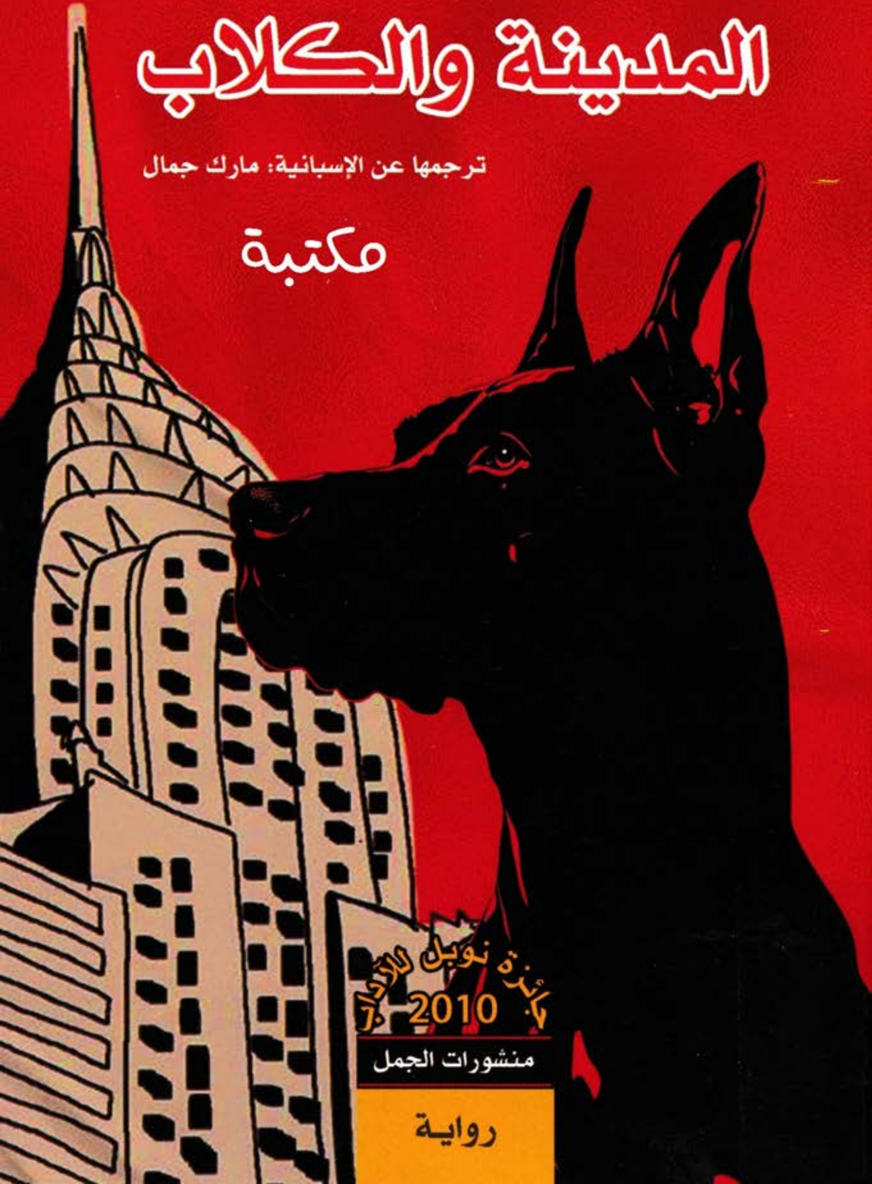

المدينة والكلاب

ماريو بارغاس يوسا

سجل في مكتبة

اضغط! الصفحة

SCAN QR

مكتبة
t.me/soramnqraa

ماريو بارغاس يوسا: **المدينة والكلاب**، رواية، الطبعة الأولى
ترجمها عن الإسبانية: مارك جمال
كافة حقوق النشر والاقتباس باللغة العربية
محفوظة لمنشورات الجمل، الشارقة - بغداد ٢٠٢٥
ص.ب: ٨٠٠٣٢ - الشارقة - الإمارات العربية المتحدة

Mario Vargas Llosa: *La ciudad y los perros*, roman
© Mario Vargas Llosa, 1962

© *Al-Kamel Verlag* 2025
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

DIRECCIÓN GENERAL
DEL LIBRO
Y FOMENTO DE LA LECTURA

Esta obra ha sido publicada con una subvención del Ministerio de Cultura y Deporte de España.

نُشِر هذا العمل بدعم من وزارة الثقافة والرياضة الإسبانيَّة.

ماريو بارغاس يوسا

مكتبة
t.me/soramnqraa

المدينة والكلاب

رواية

ترجمها عن الإسبانية: مارك جمال

منشورات الجمل

مُقدِّمة المؤلف

مكتبة
t.me/soramnqraa

بدأتُ أكتب «المدينة والكلاب» في خريف ١٩٥٨، بمدينة مدريد، في حانة تُدعَى إلخوتيه، تطلّ على منتزه إلريتيرو وتقع في شارع مينينديث پِلايو، ثم فرغتُ من كتابتها خلال شتاء ١٩٦١، في عليَّة بمدينة باريس.

وحتى أبتكرَ قصةَ الرواية، اقتضَت الضرورةُ أولًا، وأنا في طور الطفولة، أن يكون في نفسي شيءٌ من ألبِرتو والنَّمِر، من كابا الجَبَلي والعَبْد. واقتضَت الضرورةُ أن ألتحق بمدرسة ليونسيو پرادو العسكرية، وأن أكون من أبناء ميرافلوريس، ومن سُكَّان باريو أليغري، ومن جيران لاپِرلا في كاياو. وكان لا بدّ لي، وأنا في طور المراهقة، أن أقرأ كثيرًا من كتب المغامرات، وأن أؤمن بنظرية سارتر في الأدب الملتزم، وأن ألتهم روايات مالرو[1]، وأن أُعجَب بكُتَّاب الرواية الأمريكيين مِن «الجيل الضائع»[2] إعجابًا لا يحدّه شيء، كلهم، وعلى رأسهم فوكنر.

---

(١) أندريه مالرو (١٩٠١-١٩٧٦): روائي فرنسي. (جميع الهوامش الواردة في الكتاب للمترجم).

(٢) «الجيل الضائع»: الجيل الذي بلغ طور النضج إبان الحرب العالمية الأولى، وسبق ما عُرِف باسم «الجيل الأعظم».

من تلك الأشياء يتألَّف الطين الذي شكَّلتُ به روايتي الأولى، مُضافًا إليها شيء من الخيال، وآمال الصبا، والانضباط الفلوبيري[١].

أما مخطوط الرواية، فلقد مضى هائمًا كالروح المُعذَّبة مِن دار نشرٍ إلى أخرى، حتى وصل -بفضل صديقي الفرنسي، الباحث في الدراسات الهِسبانية، كلود كوفون- إلى يدَيْن من برشلونة، هما يَدَا كارلوس بارّال، مدير دار سيش بارّال آنذاك، الذي عمل جاهدًا حتى يحصل المخطوط على جائزة بيبليوتيكا بريبي، وتآمر لكي تتخطَّى الروايةُ رقابةَ فرانكو[٢]، وروَّج لها، وكان صاحب الفضل في ترجمتها إلى لغات كثيرة.

إن «المدينة والكلاب» هو الكتاب الذي قدَّم إليَّ أكبر عدد من المفاجآت، والكتاب الذي بدأتُ أشعر بفضله أن الحلم الذي قد راودني، منذ كنتُ صبيًّا بالسروال القصير، في سبيله إلى التحقُّق: أن أُصبحَ كاتبًا ذات يوم.

ماريو بارغاس يوسا

فوشل، أغسطس ١٩٩٧[٣]

---

(١) نسبةً إلى الروائي الفرنسي غوستاف فلوبير (١٨٢١-١٨٨٠).

(٢) فرانثيسكو فرانكو (١٨٩٢-١٩٧٥): ديكتاتور عسكري انتصر في الحرب الأهلية الإسبانية وحكم إسبانيا حتى موته.

(٣) جدير بالذكر أن الرواية قد صدرَت لأول مرة عام ١٩٦٣، وأن المُؤلِّف قد أضاف هذه المُقدِّمة في طبعات لاحقة.

كلمة المترجم

لطالما كتمَت الكتبُ العظيمةُ أسرارها إلى حين، وأبَت أن تكشفها دفعةً واحدة. و«المدينة والكلاب» من أعظم روايات ماريو بارغاس يوسا، وآداب أمريكا اللاتينية واللغة الإسبانية بوجه العموم.

وعلى كثرة ما قيل عن «المدينة والكلاب» -أول عمل روائي لصاحب نوبل البيروفي، الذي يُترجَم الآن إلى اللغة العربية بعد مضي أكثر من ستة عقود على صدوره- وما يمكن أن يُقال عن مدى استثنائية الكتاب ومواطن الغموض والجمال فيه، فلقد آثرنا الاكتفاء بتذييل الرواية بالكلمة التي ألقاها الكاتب في الأكاديمية الملكية الإسبانية عام ٢٠١٢، وتطرَّق خلالها إلى كثير من المفاتيح المهمة لفهم الرواية في سياقها التاريخي والاجتماعي والأدبي والوقوف على شيء من أسرارها.

ربما كان من المُستحَبّ أن يطَّلع القارئ على كلمة المُؤلِّف المُشَار إليها قبل قراءة المتن أو في أثناء ذلك. ولكن يُرجَى الحرص على تجنُّب المقطع الأخير منها، الذي أوردناه بالعنوان الفرعي «تأويلات»، إلى حين الانتهاء من المتن أولًا، نظرًا إلى احتوائه معلومات من شأنها أن تكشف بعض التفاصيل المهمة والمحورية التي لا يُرفَع عنها الستار إلَّا قرب الختام.

المترجم

الجزء الأول

«كين: نلعب دورَ الأبطال لأننا جبناء، ونلعب دورَ القديسين لأننا أشرار. نلعب دورَ القتلة لأننا نتحرَّق لهفةً إلى قتل الأقرباء. نلعب أدوارًا لأننا كَذَبةٌ بالميلاد».

جان پول سارتر

١

- أربعة. -قال النَّمِر.

لانَت الوجوه تحت البريق المُتراقِص الذي ألقاه المصباح في أرجاء المكان، من خلال الرقع النظيفة القليلة في الزجاج: الآن تلاشى الخطر وصاروا بمنجاة منه، إلَّا پورفيريو كابا. استقرّ حجرا النرد، فأشار أولهما إلى رقم ثلاثة وثانيهما إلى رقم واحد، بينما تجلَّى التفاوت بين بياض النرد وقذارة الأرض.

- أربعة. -كرَّر النَّمِر- مَن؟

- أنا. -غمغم كابا- قلتُ أربعة.

- أسرِعْ. -أجاب النَّمِر- كما تعرف، الثاني إلى اليسار.

أحسّ كابا بالبرودة. كانت الحمامات تخلو من النوافذ، وتقع في القسم الخلفي مِن الثكنات، حيث لا يفصل بينهما سوى باب رقيق من الخشب. في أعوام سابقة، كان الشتاء لا يصل إلى مهاجع الطُلَّاب إلَّا مُتسلِّلًا من خلال الزجاج المكسور وخصاص النوافذ. أما في العام الجاري، فلقد أقبل الشتاء عنيفًا، وكادَت الريح لا ترحم ركنًا واحدًا في المدرسة، بل إنها صارت تخترق حتى دورات المياه ليلًا، فتُبدِّد النتن المتراكم طوال النهار، وتفتِّت الأجواء الفاترة. وُلِد كابا وعاش في الجبال، وألِف الشتاء: ولكن الخوف هو الذي أرسل تلك القشعريرة إلى بدنه.

- هل انتهى الأمر؟ هل يمكنني أن أنام؟ -سأل كوبرا: الذي لا يبدو جسده ملائمًا لصوته، وهو صاحب الرأس البارز المُكلَّل بشعرٍ دهني، والوجه الدقيق، والعينَيْن الغائرتَيْن المُثقلتَيْن بالنعاس. فغر فمه، فتدلَّت من شفته السفلى البارزة نتفةٌ من التبغ. رمقه النَّمِر مرة أخرى.

- أتسلَّمُ دورية الحراسة في الساعة الواحدة. -قال كوبرا- أودُّ أن أحصل على قسطٍ من النوم أولًا.

- اذهبا. -قال النَّمِر- سوف أوقظكما في الخامسة.

خرج كوبرا ومَوْجَة[1]. تعثَّر أحدهما وهو يتجاوز عتبة الباب، فانطلق لاعِنًا.

- أيقظني حالما تعود. -أصدر النَّمِر أمره- ولا تتأخَّر كثيرًا، فالساعة تكاد تشير إلى الثانية عشرة.

- حسنًا. -قال كابا، وقد ظهر الإجهاد على وجهه الذي عادةً ما يبدو عصيًّا على الاختراق- سوف أرتدي ثيابي.

خرجوا من الحمام والثكنة غارقة في الظلام، ولكن كابا لم يكُن في حاجة إلى الرؤية حتى يجد طريقه بين صفَّي الأسِرَّة المُتراصّة، فهو يحفظ الثكنة الواسعة التي يرتفع سقفُها عاليًا عن ظهر قلب. والآن غمر المكانَ هدوء صامت، يقطعه غطيط أو همسات لا تدوم

---

(١) رُوعِي نقل ألقاب الشخصيات مع الحفاظ على وقعها وموسيقاها ودلالتها في الثقافة واللغة الأصليتَيْن، والالتزام بمعنى الكلمة ما استوفَى الاعتبارات المذكورة (مثال: «النَّمر» و«الشَّاعِر» و«العَبْد» و«الجرذ»...). وإن لم نلتزم بالترجمة الحرفية في حالات بعينها، إذ وُجِد أنها قد تخلُّ بموسيقى الكلمة أو تقصُر عن استيفاء المدلول الثقافي والحمولة الاجتماعية، فاستعضنا عنها بمعانٍ مشابهة رأيناها أوفى للصورة كما وردَت في النصّ الأصلي وأقرب من المعنى المُراد (مثال: «كوبرا» و«مَوْجَة» و«رِيشَة»...).

أطول من لحظات قليلة. وصل إلى سريره، السُّفلِي، الثاني إلى اليمين، الذي يبعُد عن المدخل مترًا واحدًا. وبينما راح يتلمَّس الطريق بيدَيْه حتى يُخرِج من خزانته السروال والقميص الكاكي والبيادة[1]، أحسّ بأنفاسٍ مُخضَّبة بالتبغ قريبة من وجهه، أنفاس بايانو النائم في السرير العلوي. وفي العتمة، تبيَّن صفَّيْن من الأسنان الضخمة شاهقة البياض في فم النيغرو، فخطر على باله أحد القوارض. مضى يخلع البيجامة الزرقاء في غير صخب، ببطء، ثم ارتدى ملابسه. وألقى السترة الصوف على كتفَيْه. راح يخطو ببطء لأن البيادة تُحدِث صريرًا، ومشى إلى سرير النَّمِر الذي يقع في أقصى الطرف المقابل من الثكنة، إلى جوار الحمام.

- يا نَمِر.

- نعم. إليك.

مدّ كابا يده، فلمس شيئَيْن كلاهما بارد، أحدهما خشن الملمس. ظلَّ ممسكًا بالكشاف، بينما احتفظ بالمبرد في جيب السترة.

- مَن يتسلَّم دورية الحراسة؟ -سأل كابا.

- الشَّاعِر وأنا.

- أنت؟

- سوف يحلّ العَبْد محَلّي.

- ومَن يتسلَّم دورية الحراسة في باقي الأقسام؟

- هل أنت خائف؟

لم يردّ كابا. وإنما تسلَّل على أطراف أصابعه نحو الباب، ثم فتح أحد مصراعَيه، مُتوخِّيًا الحذر، ولكنه لم يتمكَّن من كبح الصرير.

---

(١) بيادة: حذاء عسكري.

- لصّ! -صاح أحدهم في قلب العتمة-: اقتله أيها الحارس!

لم يميِّز كابا الصوت. نظر إلى الخارج: تراءى الفناء خاويًا، وقد أضاءته الأنوار الواهنة المنبعثة من المصابيح الكهربائية في منصة العرض التي تفصل بين الثكنات والأرض المفروشة بالحشائش. ذوَّب الضبابُ محيطَ المربعات الإسمنتية الثلاثة التي تضمّ طُلَّاب الفرقة الخامسة، وأسبغ عليها مظهرًا لاواقعيًّا. خرج كابا. ثم وقف مكانه ساكنًا بضع لحظات، من دون أن يفكِّر في شيء، وظهره ملتصق بجدار الثكنة. لم يعُد في وسعه الاعتماد على أحد، كائنًا من كان. حتى النَّمِر صار بمأمن مِن الخطر. شعر بالغيرة من الطُلَّاب النائمين، وضُبَّاط الصفّ، والجنود المستغرقين في سبات في المهجع القائم على الجانب الآخر من الإستاد. أدرك أنه لو لم يتحرَّك لَشَلّ الخوفُ أطرافه. أخذ يحسب المسافة: يجب عليه أن يقطع الفناء ومنصة العرض. بعد ذلك يمضي في كنف الظلال التي تغشى الأرض الخلاء، ويدور حول قاعة الطعام والمكاتب ومهاجع الضبَّاط، ويتجاوز فناء ثانيًا، صغيرًا، من الإسمنت، ينتهي عند البناء الذي يضمّ الفصول، هناك حيث يزول الخطر: لأن الدورية لا تصل إلى هناك. وبعد ذلك تأتي رحلة العودة. مُشوَّشًا، مضى يتمنَّى لو فقد الإرادة والمخيلة، ونفَّذ المُخطَّط كالآلة العمياء. كان يقضي أيامًا كاملة تاركًا نفسه للروتين الذي يتَّخذ القرارات نيابةً عنه، مدفوعًا برفقٍ إلى أفعال يكاد لا ينتبه إليها. أما الآن، فلقد اختلف الأمر، إذ فُرِض عليه مُخطَّط الليلة فرضًا. أحسَّ بصفاء ذهنٍ لم يعهده.

بدأ يتقدَّم وظهره إلى الجدار. بدلًا من عبور الفناء، أخذ يدور بامتداد الجدار المنحني، جدار ثكنات الفرقة الخامسة. وصل إلى أقصى طرف الفناء، وهناك نظر بلهفة: تراءت منصة العرض غامضة، لانهائيّة، مُطوَّقة بالمصابيح الدائرية التي يتراكم حولها الضباب.

وخارج مجال الضوء، تبيَّن الأرضَ الخلاء المفروشة بالحشائش وسط كتلة الظلال. كانت من عادة الحرس المناوبين أن يستلقوا هناك، إما للنوم وإما لتجاذب أطراف الحديث بصوت خفيض في غير أوقات البرد. وثق بأن لعبةَ قمار قد جمعَتهم ليلتذاك في إحدى دورات المياه. مشى بخطى حثيثة، غارقًا في ظلال الأبنية المترامية إلى يساره، وهو يتجنَّب الرقع المضيئة. أخمد وقعَ البيادةِ صوتُ تلاطمِ الأمواج وهديرُ البحرِ المترامي عند سفح الجرف، الذي تطلّ عليه المدرسة. وصل إلى بناء الضبَّاط، فارتجف، ومضى يحثّ الخطى. ثم قطع المنصة سائرًا في خطٍّ مائل، وغاص في عتمة الأرض الخلاء. وإذا بحركة قريبة، غير مُرتقَبة، تردّ لجسده الخوفَ وكأنه لكمة، بعد أن بدأ يتغلَّب عليه. تردَّد لحظةً: وعلى بعد متر واحد، كانت عينا الفِكّونة[1]، البرَّاقتان كاليراعات، العذبتان، الخجولتان، تتأمَّلانه. «اذهبي!»، قال غاضبًا. وإن ظلّ الحيوان غير مكترث. «تلك الملعونة لا تنام أبدًا»، فكَّر كابا. «ولا تأكل أيضًا. لماذا لا تموت؟». سار مبتعدًا. قبل عامَيْن ونصف، عندما وفد إلى مدينة ليما لإتمام دراسته، أدهشه أن يجد ذلك الحيوان -الذي لا يعيش إلَّا في الجبال حصرًا- سائرًا هناك، غير حافل بشيء، خلف أسوار مدرسة ليونسيو پرادو العسكرية، تلك الأسوار الرمادية التي التهمَتها الرطوبة. مَن جاء بالفِكّونة إلى المدرسة؟ ومِن أي مكان مِن جبال الأنديز؟ كان الطُلَّاب يتراهنون في مباريات تصويب على الفِكّونة، ويرمونها بالأحجار: فتكاد لا تضيق بالأحجار التي ترتطم بجسدها. كل ما في الأمر أنها تبتعد عن الرُماة ببطء، وبتعبير محايد. «إنها تشبه الهنود»، فكَّر كابا، الذي مضى يصعد الدَّرَج

---

(١) الفِكّونة: حيوان يعيش في أمريكا الجنوبية ويشبه الجمل واللاما.

المُؤدِّي إلى الفصول. الآن لم يعُد وقع البيادة يشغل باله، فلا أحد هناك، بل إن المكان قد خلا إلَّا من المقاعد ومكاتب الطُلَّاب، الريح والظلال. قطع الرواق العلوي بخطى واسعة. ثم توقَّف حين ظهرَت النافذة أمامه على خيط الضوء الخافت الآتي من الكشَّاف. «الثانية إلى اليسار»، هكذا قال له النَّمِر. بالفعل، كانت النافذة هشَّة. أخذ يزيل الصمغ عن إطار النافذة بالمبرد، ويلملمه باليد الأخرى. أحسّ بأنه مُبلَّل. نزع الزجاج بحذر، ثم وضعه أرضًا. وراح يتلمَّس الخشب حتى عثر على المزلاج. انفتحَت النافذة، على مصراعَيْها. تسلَّل إلى الداخل، وشرع يجيل الكشَّاف في كل الاتجاهات. استقرَّت ثلاث أكوام من الورق على إحدى طاولات الحجرة، بالقرب من آلة النسخ. قرأ فيها: «اختبار الكيمياء المُقرَّر كل شهرَيْن. الفرقة الخامسة. مدة الاختبار: أربعون دقيقة». طُبِعَت الأوراق مساء ذلك اليوم، وما زال الحبرُ برَّاقًا. عجَّل بنسخ الأسئلة في دفترٍ، من دون أن يفهم ما جاء فيها. ثم أطفأ الكشَّاف عائدًا إلى النافذة، التي تسلَّقها وقفز منها إلى الخارج. وإذا بالزجاج يتفتَّت ويغدو شظايا تحت البيادة، فتعالى ألفُ صوتٍ في آنٍ واحد. «سحقًا!»، تأوَّه. ظلَّ رابضًا، مذعورًا. ولكن أذنَيْه لم تلتقطا الصخبَ الهادر الذي كان يتوقَّعه، صيحات الضُبَّاط التي تنهمر كوابل الرصاص: إن هو إلَّا صوت أنفاسه التي جاءت مُتهدِّجةً تحت وطأة الخوف. ظلّ يترقَّب لحظات أخرى. ثم لملم شظايا الزجاج المُنتثِر على البلاط كيفما تسنَّى له، واحتفظ بها في السترة، ناسيًا أن يستخدم الكشَّاف. عاد أدراجه إلى الثكنة، مُتخلِّيًا عن الحذر. أراد أن يصل إلى هناك سريعًا، ثم يأوي إلى الفراش، ويغمض عينَيْه. خدش يدَيْه وهو يتخلَّص من شظايا الزجاج في الأرض الخلاء. وقف على باب الثكنة، وأحسّ بأنه مُستنزَفَ القوى، فاعترض سبيله خيال.

مكتبة
t.me/soramnqraa

- هل فعلتها؟ -سأل النَّمِر.

- نعم.

- هيَّا نذهب إلى الحمام.

تقدَّم النَّمِر. دخل إلى الحمام دافعًا الباب بكلتا يدَيْه. وعلى الضوء الأصفر المنتشر في المكان، تأكَّد لكابا أن النَّمِر حافي القدمَيْن. كانت قدماه ضخمتَيْن، شاحبتَيْن، تنتهيان بأظافر طويلة، قذرة، وتنبعث منهما رائحةٌ نتنة.

- لقد كسرتُ زجاجًا. -قال من دون أن يرفع صوته.

وإذا بيدَي النَّمِر تنطلقان صوبه كشهابَيْن كلاهما أبيض، فتعلَّقَتا بياقة السترة التي تجعَّدَت. ترنَّح كابا في مكانه، غير أنه لم يحوِّل عينَيْه عن عينَي النَّمِر المفعمتَيْن بالكراهية، الشاخصتَيْن إليه من خلال أهدابه المُقوَّسة.

- جَبَلي![1] -غمغم النَّمِر، ببطء- مُجرَّد جَبَلي! لو كشفوا أمرنا، أقسمُ لك إنني...

ظلَّ ممسكًا بياقته طوال الوقت. وضع كابا يدَيْه فوق يدَي النَّمِر، مُحاوِلًا إبعادهما، في غير عنف.

- أنزلْ يدَيْك! -قال النَّمِر، فأحسّ كابا على وجهه بوابلٍ من المطر الخفي- جَبَلي!

أنزل كابا يدَيْه.

- كان الفناء خاليًا. -همس كابا- لم يرَني أحد.

أفلته النَّمِر، وأخذ يعضّ ظاهر يده اليمنى.

(١) جَبَلي: نسبة إلى جبال الأنديز. ولا يخفى على القارئ أن الكلمة تنطوي على قدر كبير من الازدراء والعنصرية في هذا السياق، نظرًا إلى اقترانها بالفقر والمجتمعات الريفية ومجتمعات السكّان الأصليّين في بيرو.

- أنا لستُ نذلًا يا نَمِر. -غمغم كابا- لو كشفوا الأمر، دفعتُ الثمن وحدي، وقُضِي الأمر.

رمقه النَّمِر بنظرة من أعلى إلى أسفل. وضحك.

- جَبَلي جبان! -قال- لقد تبوَّلتَ على نفسك من فرط الخوف. انظر إلى سروالك.

*

لقد نسِي بيتَ جادةِ سالابيري، في ماغدالينا نويبا، البيت الذي انتقل إليه تلك الليلة، ليلةَ جاء إلى مدينة ليما لأول مرة. كما نسِي الرحلةَ التي استمرَّت ثماني عشرة ساعة بالسيارة، ونسي موكبَ القرى الخربة، متبوعة بالكثبان الرملية، فالوديان متناهية الصغر، فالبحر الذي يتراءى مِن آنٍ إلى آخر، فحقول القطن، فالقرى، فالكثبان الرملية. مضى وقد ألصق وجهه بالنافذة، وشعر بالحماسة تنهش جسده: «سوف أرى ليما». كانت أمّه تضمّه إليها بين حينٍ وآخر هامسةً: «ريتشي، ريكارديتو[1]». بينما هو يتساءل: «لماذا تبكي؟». أما باقي المسافرين، فكانوا بين نائم ومستغرقٍ في القراءة، بينما أخذ السائق يدندن المقطع الموسيقي نفسه في بهجة، ساعة تلو أخرى. ظلّ ريكاردو يغالب النومَ طوال النهار والمساء وأول الليل، فلم يحوِّل عينَيْه عن الأفق. ظلَّ يترقَّب أن تسطع أنوار المدينة فجأة وكأنه موكب من المشاعل. رويدًا رويدًا، كان التعبُ يبثّ في أطرافه نعاسًا وفي حواسه خدرًا. من قلب الضباب، جعل ريكاردو يردِّد بفمٍ مُطبَق: «لن أنام». وإذا بأحدهم يهزّه بعذوبة فجأة: «لقد وصلنا،

---

(١) تصغير اسم ريكاردو. ولقد رُوعِي الحفاظ على تصغير الأسماء كما جاء في النص الأصلي. ولصيغة التصغير باللغة الإسبانية أكثر من دلالة، من بينها التدليل أو إظهار المودَّة أو الألفة. وغالبًا ما تكون صيغة التصغير بإضافة مقطع «يتو» للمذكَّر، و«يتا» للمُؤنَّث. مثل «ريكارديتو» و«تيريسيتا».

ريتشي، استيقظ». كان جالسًا على تنورة أمّه، مُستنِدًا برأسه إلى كتفها. أحسّ بالبرودة. لامسَت فمَه شفتان مألوفتان. وحدَّثه انطباع بأنه قد تحوَّل إلى قطّ صغير في أحلامه. والآن مضَت السيارة تتحرَّك ببطء: رأى بيوتًا مبهمة، وأنوارًا، وأشجارًا، وجادةً أطول من شارع تشيكلايو الرئيسي. استغرق بضع ثوانٍ حتى أدرك أن باقي المسافرين قد ترجَّلوا عن الحافلة. والآن بات السائق يدندن من دون حماسة. «كيف تكون؟»، تساءل. ومرة أخرى، أحسّ بلهفة جامحة، شأنه قبل ثلاثة أيام، عندما انتحَت به أمّه جانبًا لئلّا تسمعهما الخالة آديلينا، وقالت له: «أبوك لم يمُت، إنها أكذوبة. لقد عاد قبل قليل من رحلة طويلة جدًّا. وهو الآن ينتظرنا في ليما». «لقد وصلنا»، قالت أمّه. «جادة سالابيري، صحيح؟»، رفع السائق صوته سائلًا. «نعم، رقم ثمانية وثلاثون»، أجابت الأمّ. أما هو فأغمض عينَيْه مُتظاهِرًا بالنوم. قبَّلَته أمّه. «لماذا تطبع قبلةً على فمي؟»، تساءل ريكاردو وقد تشبَّثَت يمينه بالمقعد. توقَّفَت السيارة أخيرًا، بعد منعطفات كثيرة. ظلَّ مغمض العينَيْن، منزويًا على نفسه إلى جوار الجسد الذي ضمّه إليه. تصلَّب جسد أمّه فجأة. «بياتريس»، نادى صوتٌ، وفتح أحدهم الباب. أحسَّ ريكاردو بأحدهم يحمل جسده ويُنزله على الأرض، حيث لم يعُد مُستنِدًا إلى شيء. فتح عينَيْه: فوجد أمّه والرجل يتبادلان القبلات على الشفاه، ويعانق كلٌّ منهما الآخر. أمسك السائق عن الغناء. كان الشارع خاليًا، ساكتًا. أخذ يتفرَّس فيهما وهو يعدّ ويحسب الزمن بشفتيْه. ثم ابتعدَت أمّه عن الرجل، والتفتَت إليه قائلة: «ريتشي، إنه أبوك. قبِّله». ومرة أخرى رفعَته عن الأرض ذراعا رجلٍ، ذراعان مجهولتان. اقترب وجهٌ ناضج من وجهه. وهمس صوتٌ باسمه. ضغطَت شفتان جافتان على وجنته. بينما ظلّ هو جامدًا.

كما نسِي البقية الباقية من تلك الليلة، نسي برودةَ ملاءات ذلك الفراش العدواني، والعزلةَ التي حاول أن يبدِّدها مُفتِّشًا بعينَيْه حتى يعثر على شيء وسط العتمة، على بريقٍ ما، بينما غاصَت الهموم في روحه كالنصل الأليم. «عندما يقبل الليل، تنطلق ثعالب صحراء سيتشورا في العواء كالأرواح الشريرة. أتدري لماذا؟ حتى تكسر الصمت الذي يروِّعها»، سبق أن قالت له الخالة آديلينا ذات مرة. نازعته رغبةٌ في الصراخ حتى تنبعث الحياة في تلك الحجرة، هناك حيث تراءى كل شيء ميتًا. قام: حافي القدمَيْن، شبه عارٍ، وهو يرتجف من فرط الخزي والارتباك اللذين سوف يشعر بهما لو دخل أحدُهم إلى الحجرة فجأةً ووجده واقفًا. مشى إلى الباب، وألصق وجهه بالخشب، فلم يسمع شيئًا. عاد إلى فراشه، وبكى كاتمًا فمه بكلتا يدَيْه. تسلَّل الضوء إلى الحجرة، وصار الشارع مأهولًا بالأصوات، وهو لا يزال فاتحًا عينَيْه، مرهف السمع. بعد مضي وقت طويل، سمع صوتهما. كانا يتحدَّثان بصوت خفيض، ولم تصله إلَّا همهمة عصية على الفهم. سمع ضحكات، وتحرُّكات. وفي وقتٍ لاحق، أحسّ بأحدهم يفتح الباب، أحسّ بخطوات، وحضور، ويدَيْن مألوفتَيْن تشدّان الملاءات إلى عنقه، وأنفاسٍ دافئة على وجنتَيْه. فتح عينَيْه: فابتسمَت له أمّه. «صباح الخير»، قالت بحنان. «ألن تقبِّل أمَّك؟»، سألَته، فأجابها: «لن أقبِّلها».

*

«يمكنني أن أذهب وأطلب منه أن يعطيني عشرين صولًا. أعرف أن عينَيْه سوف تمتلئان بالدموع، وأنه سوف يعطيني أربعين أو خمسين، ولكني لو فعلتُ فكأني أقول له بذلك: لقد سامحتُك على ما فعلتَ بأمّي، ويمكنك أن تستمر في انحرافك ما دمتَ تدفع لي الإكراميات السخية». مضَت شفتا ألبِرتو تتحرَّكان بلا صوت خلف

وشاح الصوف الذي أهدَته أمّه إياه قبل شهور. احتمى مِن البرد بالسترة والقبعة التي غاصَت حتى أذنَيْه. تعوَّد جسدُه حمل البندقية، التي يكاد لا يحسّ بها الآن. «يمكنني أن أذهب وأقول لها: ماذا نربح لو لم نقبل المساومة، دعيه يرسل إلينا شيكًا كل شهر حتى يندم على خطاياه ويعود إلى البيت، ولكنني أعرف أنها سوف تجهش بالبكاء قائلةً إن من واجب كل امرئ أن يحمل صليبه ويسلِّم أمره، كما فعل الرَّب. حتى لو قبلَت، فكَم يمرّ من الوقت قبل أن يتصالحا، وفي تلك الأثناء، لن أحصل على العشرين صولًا غدًا».

تنصُّ اللائحة على ضرورة أن يجوب الحارس المناوب فناء فرقته ومنصة العرض، ولكن ألبِرتو يقضي ورديته في السير خلف الثكنات، قرب السياج المرتفع الباهت الذي يحمي واجهة المدرسة الرئيسية. ومن موقعه، يرى الطريقَ من خلال القضبان وكأنه خصر حمارٍ وحشي، ذلك الطريق المُعبَّد الذي يتلوَّى بامتداد السياج، على حافة الجرف. يسمع هدير البحر. وحين لا يخيِّم الضباب كثيفًا، يرى عن بُعْد ممشى شاطئ لاپونتا الذي يخترق البحر كالرُّمح البرَّاق، مثل كاسر الأمواج، بينما تأتلق ميرافلوريس(١)، المنطقة التي ينتمي إليها، على هيئة مروحة يد في أقصى الطرف الآخر، وترسم نهايةَ ذلك الخليج الخفي. يتحقَّق الضابط المناوب من الحرس كل ساعتَيْن: عند تمام الواحدة، سوف يجده الضابط في موقعه. ولكن في هذه الأثناء، يخطِّط ألبِرتو لإجازة السبت. «ربما كان هناك نحو عشرة فتيان يحلمون بذلك الفيلم. الآن وقد رأوا نساء كثيرات بالثياب

---

(١) كاسر الأمواج: لسان أو ممشى مُمتَدّ في البحر.
ميرافلوريس: مقاطعة تقع على الساحل، تميَّزت بالحراك الثقافي والنشاط التجاري ومناطق الجذب السياحي.

الداخلية، وبطونًا كثيرة، وسيقانًا كثيرة، كثيرة، فربما طلبوا مني الأقاصيص، ولكن هل يدفعون الثمن مُقدَّمًا؟ ولكن متى أكتبها واختبار الكيمياء غدًا؟ يجب عليَّ أن أدفع للنَّمِر مقابل أسئلة الاختبار، ما لم يقبل بايانو أن يلقِّنني إجابات الاختبار مقابل الرسائل التي أكتبها من أجله، ولكن من ذا الذي يثق بأسوَد. لعلّهم يطلبون مني أن أكتب الرسائل مِن أجلهم، ولكن مَن يدفع نقدًا في هذا اليوم من الأسبوع، ما دام يوم الأربعاء لا يأتي إلَّا وقد أنفق الجميع آخر ما يملكون في لاپِرليتا وعلى ألعاب القمار. ربما أمكنني الحصول على عشرين صولًا لو طلب مني الطُّلَّاب المحرومون مِن الإجازة أن أُحضِر إليهم السجائر مِن الخارج، ويمكنني أن أردّ إليهم النقود على شكل رسائل أو أقاصيص، لك أن تتخيَّل العواقب، أو لعلّني أجد عشرين صولًا في حافظة ضائعة، أو في قاعة الطعام، أو الفصول، أو المراحيض. أو لعلّني أتسلَّل في هذه اللحظة إلى ثكنة الكلاب، فأفتح الخزائن وأفتِّش فيها حتى أجد عشرين صولًا. أو ربما كان الأفضل أن أختلس من كل واحد خمسين سنتًا، هكذا يغدو الأمر أقل وضوحًا، وكل ما أحتاج إليه أن أفتح أربعين خزانة من دون أن أوقظ أحدًا، شريطة أن أجد في كلِّ واحدة منها خمسين سنتًا. لعلّني أتوجَّه إلى ضابط صفٍّ أو ملازم، وأقول له أقرضني عشرين صولًا، فحتى أنا أريد أن أذهب إلى ذات القدمَيْن الذهبيتَيْن، لقد صرتُ رجلًا، ومَن هذا الوغد الذي يصيح هناك...».

يستغرق ألبِرتو وقتًا طويلًا حتى يتعرَّف صاحبَ الصوت، ويتذكَّر أنه حارس مناوب بعيد عن موقعه. مرة أخرى، يسمع أحدهم يسأل بصوت أقوى، «ماذا جرى لذلك الطالب؟»، وفي هذه المرة يتجاوب بالروح والجسد. يرفع رأسه، وكما لو أنه في دوَّامة، يتبيَّن بعينَيْه أسوارَ نقطة الحراسة، وعددًا من الجنود الجالسين على إحدى

الذكك، وتمثالَ البطل الذي يتوعَّد الضبابَ والظلالَ بسيفه المُجرَّد من غمده. يتخيَّل اسمَه مكتوبًا في قائمة المحرومين مِن الإجازة، فيخفق قلبه كالمجنون، ويتملَّكه الذعر، بينما يتحرَّك لسانه وشفتاه حركةً تكاد لا تُدرَك، ويرى الملازمَ ريميخيو أوارينا واقفًا بينه وبين البطل البرونزي، مِن حيث يراقبه واضعًا يدَيْه على خصره، على مسافة تقلّ عن الخمسة أمتار.

- ماذا أنت فاعل هنا؟

يتقدَّم الملازم نحو ألبِرتو، الذي يرى بقعة من الأشنيات خلف كتفَي الضابط، يراها تسبغ دكنةً على الكتلة الحجرية التي استقرّ فوقها البطل، أو بالأحرى يخمِّن وجود تلك البقعة، لأن أضواء نقطة الحراسة خافتة، بعيدة. أو لعلّه يراها بعين الخيال: فمن الوارد أن يكون الجنود المناوبون قد كشطوا قاعدة التمثال ونظفوها يومذاك.

- وماذا إذن؟ -يسأل الملازم، واقفًا في مواجهته- ما الخطب؟

يقف ألبِرتو جامدًا، مُتيبِّسًا، وقد انغرزت يمينه في القبعة، وتنبَّهَت حواسه كلها. يظلّ ساكتًا في وجه ذلك الرجل الضئيل الذي يتراءى ضبابيًّا، ويترقَّب جامدًا بدوره، من دون أن يُنزِل يدَيْه عن خصره.

- أودّ أن أطلب مشورتك، سيدي الملازم. -يقول ألبِرتو. «يمكنني أن أقسم له إنني أكاد أموت من شدّة المغص، إنني أريد قرص أسبرين أو شيئًا من هذا القبيل، إن أمّي في حالة شديدة الخطورة، إنهم قد قتلوا الفِكّونة، يمكنني أن أتوسَّل إليه. . .»- أقصد، لديّ استشارة معنوية، سيدي الملازم.

- ماذا قلت؟

- لديَّ مشكلة. -يقول ألبِرتو، جامدًا. «أو يمكنني أن أقول له إن والدي جنرال، عقيد في البحرية، مُشير، وأقسم له إن ترقيته

سوف تتأخَّر عامًا عن كل نقطة تُخصَم مني، يمكنني أن. . .»- إنها مسألة شخصية، سيدي الملازم. -يقطع ألبِرتو حديثه، ويتردَّد لحظةً، ثم يردف كاذبًا-: لقد قال الكولونيل ذات مرة إن في وسعنا استشارة الضُبَّاط. أقصد، بشأن المشكلات الحميمية.

- الاسم والقسم. -يقول الملازم. أنزل يدَيْه عن خصره، والآن صار يبدو أكثر هشاشةً وضآلة. يقطع خطوة إلى الأمام. وعن كثب، يرى ألبِرتو خطمَه، وعينَيْه المُقطَّبتَيْن، الخاليتَيْن من الحياة، عينَي الضفدع، ويرى وجهه المستدير الذي يتجهَّم في لفتة أراد لها أن تبدو شديدة القسوة، ولكنها لا تعدو أن تكون مثيرةً للشفقة، إنها اللفتة نفسها التي تبدو عليه حين يفرض العقوبات بالقرعة، ذلك الاختراع الذي تفتَّق عنه ذهن الملازم أوارينا: «أيها الرقباء[1]، اخصموا ست نقاط لكل من يحمل رقم ثلاثة ومضاعفات الرقم ثلاثة».

- ألبِرتو فِرنانديس، الفرقة الخامسة، القسم الأول.

- ادخلْ إلى صلب الموضوع. -يقول الملازم- إلى صلب الموضوع مباشرة.

- أعتقد بأنني مريض، سيدي الملازم. أعني، مريض الرأس، لا الجسد. تراودني الكوابيس كل ليلة. -يسبل ألبِرتو أجفانه، مُتظاهِرًا بالتواضع، ويتكلَّم ببطء شديد، بذهن خاوٍ، تاركًا شفتَيْه ولسانه يؤدِّيان المهمة وحدهما، وينسجان خيوط العنكبوت، ويرسمان متاهةً لتضليل الضفدع- إنها أشياء مُروِّعة، سيدي الملازم. في بعض الأحيان أحلم بأنني أقتل، وبأن حيوانات لها وجوه بشرية

---

(١) الرقيب: الطالب الذي يقع عليه الاختيار لتولِّي قيادة القسم والإشراف عليه وما إلى ذلك، في سياق الرواية تحديدًا.

تطاردني، فأستيقظ من الحلم وجسدي يرتجف ويتفصَّد عرقًا. إنه شيء مُروِّع سيدي الملازم، أقسمُ لك.

يتفرَّس الضابط في وجه الطالب، ويكتشف الطالب أن الحياة قد دبَّت في عينَي الضفدع. يطلُّ الارتياب والمفاجأة من حدقتَيْه، وكأنهما نجمتان تحتضران. «يمكنني أن أضحك، أبكي، أصرخ، أركض». ينتهي الملازم أوارينا من فحصه. وإذا هو يخطو خطوةً إلى الوراء، صائحًا بحدَّة:

- أنا لست كاهنًا، سحقًا! اذهبْ واطلبْ مشورة أبيك أو أمّك بشأن أمورك المعنوية!

- لم أقصد أن أزعجك، سيدي الملازم. -يتلعثم ألبِرتو.

- مهلًا، ما هذا السوار حول معصمك؟ -يسأل الضابطُ مُقرِّبًا فمه وعينَيْه المُتَّسعتَيْن- هل أنت في دورية حراسة؟

- نعم، سيدي الملازم.

- ألا تعلم أن المرء لا يتخلَّى عن الخدمة أبدًا، ما لم يكُن جثةً هامدة؟

- بلى، سيدي الملازم.

- استشارات معنوية! أنت مُختَلّ. -يحبس ألبِرتو أنفاسه: تلاشى التجهُّم عن وجه الملازم ريميخيو أوارينا، وانفرج فمه، واتَّسعَت عيناه، وظهرَت على جبينه بضعة خطوط. وإذا به ينفجر ضاحكًا-: أنت مُختَلّ، سحقًا! اذهب لتؤدِّي خدمتك في الثكنة. وكُن مُمتنًّا لأنني لن أعاقبك.

- عُلِم، سيدي الملازم.

يؤدِّي ألبِرتو التحية، ويدور على عقبَيْه. في جزء من الثانية يرى جنود نقطة الحراسة وقد انكمشَت أجسادهم على الدكة. يسمع صوتًا وراءه يقول: «وكأننا كهنة، سحقًا!». على الجانب الأيسر، تنتصب

أمامه ثلاث كتل من الإسمنت: الفرقة الخامسة، تليها الفرقة الرابعة، وأخيرًا الفرقة الثالثة[1]، ثكنات الكلاب. وفي ما وراء ذلك، يمتدّ الإستاد، حيث يقع ملعب كرة القدم غارقًا وسط الحشائش البرية، ومضمار ألعاب القوى الذي تنتشر فيه الحفر والفجوات، والمُدرَّجات الخشبية التي أتلفَتها الرطوبة. وعلى الطرف الآخر من الإستاد، بعد ذلك البناء الخرب الذي يضمّ مهجع الجنود، يرتفع سورٌ ضارب إلى اللون الرمادي، هناك حيث ينتهي العالَم العسكري، عالَم مدرسة ليونسيو پرادو، وتبدأ الأراضي الخلاء الكبرى في لاپِرلا. «وماذا لو كان أوارينا قد خفض رأسه ورأى بيادتي، ماذا لو لم يحصل النَّمِر على اختبار الكيمياء، ماذا لو أنه قد حصل عليه ولكنه يرفض أن يبيعني إياه بالدَّين، ماذا لو وقفتُ أمام ذات القدمَيْن الذهبيتَيْن وقلتُ لها إنني من مدرسة ليونسيو پرادو وإنها أول مرة لي، وسأجلب لكِ حسن الحظّ، وماذا لو عدتُ إلى الحيّ وطلبت عشرين صولًا من أحد أصدقائي، وماذا لو رهنتُ ساعتي، وماذا لو لم أحصل على اختبار الكيمياء، لو لم أجد رباطًا للبيادة قبل التفتيش على الثياب غدًا لنُغِّص عيشي بحقّ». يتقدَّم ألبِرتو بخطى وئيدة، وهو يجرِّر قدمَيْه قليلًا. ومع كل خطوة، تهدِّد بيادته، التي صارت بلا رباط منذ أسبوع، بأن تفارق قدمَيْه. قطع نصف المسافة التي تفصل بين الفرقة الخامسة وتمثال البطل. كان توزيع الثكنات مختلفًا قبل عامَيْن. إذ شغل طُلَّابُ الفرقة الخامسة الثكنات المجاورة للإستاد آنذاك، بينما شغل الكلابُ الثكنات الأقرب إلى نقطة الحراسة. أما

(١) في سياق الرواية، تبدأ الدراسة في المدرسة العسكرية بالسنة الثالثة مِن المرحلة الثانوية، وتنتهي بالسنة الخامسة. ولذا يُلاحَظ أن المُستجدّين هم طُلَّاب الفرقة الثالثة (التي تعادل السنة الثالثة مِن المرحلة الثانوية)، أما القدامى فهم طُلَّاب الفرقة الخامسة (التي تعادل السنة الخامسة).

الفرقة الرابعة، فلطالما شغلَت الثكنات الوسطى، بين عدوّيْها. وحين تبدَّل مدير المدرسة، استقرّ الكولونيل الجديد على التوزيع الحالي، الذي فسَّره في خطابٍ له قائلًا: «لا بدّ أن يكتسب المرء الحقَّ في النوم قريبًا من البطل الذي سُمِّيَت المدرسة تيمُّنًا باسمه. مِن الآن فصاعدًا، يشغل طُلَّابُ الفرقة الثالثة الثكنات الخلفية. ثم يقتربون من تمثال ليونسيو پرادو شيئًا فشيئًا على مرّ الأعوام. ومتى خرجتم مِن هذه المدرسة، آملُ أن تتشبَّهوا قليلًا به، وهو الذي حارب من أجل حرية البلد، بل إن ذلك البلد الذي حارب من أجل حريته لم يكُن بيرو. أيها الطُلَّاب، لا بدّ من احترام الرموز في الجيش، سحقًا».

«وماذا لو سرقتُ الرباط من بيادة أروسپيدي، لا بدّ أن أكون بائسًا حتى أنغِّص عيش فتى من ميرافلوريس مع أن القسم حافل بأولئك الجَبَليين الذين يقضون عامهم محبوسين وكأنهم يخافون من الشارع، بل وربما يخافون منه بحقّ، فلنبحث عن شخص آخر. وماذا لو سرقتُ رباطًا من أحد أفراد الحَلْقَة، من مَوْجَة، أو من ذلك الكوبرا الهمجي، ولكن ماذا عن الاختبار، ليتني لا أرسب في الكيمياء مرةً أخرى. وماذا لو سرقتُه من العَبْد، يا له من شيء طريف، هكذا قلتُ لبايانو وتلك هي عين الحقيقة، تحسب نفسك في غاية الشجاعة إن ضربتَ جثةً هامدة، ما لم تكُن يائسًا. وشَت عيناه بالجُبْن، شأنه شأن السود جميعًا، يا لعينَيْه، ويا للرعب، ويا لها من قفزات، سأقتل ذلك الذي سرق بيجامتي، سأقتل ذلك الذي. . .، ها هو الملازم آتٍ، وها هم ضُبَّاط الصفّ قادمون، ردّوا لي البيجامة فلا بدّ أن أخرج هذا الأسبوع، لا أقول إنني سوف أتحدَّاه، أو ألعن أمّه، أو أسبّه، بل إنني على الأقلّ سوف أقول له: ماذا دهاك، أو شيء من هذا القبيل، أما أن تُسرَق بيجامتي من بين يدَي في أوج التفتيش، من دون أن أعترض بكلمة واحدة، فذلك شيء لن أسمح

به. يحتاج العَبْد إلى أن يُنفَض الخوف عنه، سوف أسرق الرباط من بايانو».

وصل إلى الرواق المُؤدِّي إلى فناء الفرقة الخامسة. في تلك الليلة الرطبة، مُتأثِّرًا بهدير البحر، مضى ألبِرتو يتخيَّل الظلمات المتراكمة التي تلفّ الثكنات بما حوَت من أجساد منكمشة في الأسِرَّة، خلف الإسمنت. «لا بدّ أنه في الثكنة، لا بدّ أنه في الحمام، لا بدّ أنه وسط الحشائش، لا بدّ أنه قد مات، أين ذهبتَ أيها النَّمِر الصغير». يبدو الفناء المهجور، الذي تضيئه أنوار المصابيح الخافتة الآتية من المنصة، وكأنه ميدان في إحدى القرى. لا يُرى حارس واحد على مدّ البصر. «لا بدّ أن هناك لعبة قمار الآن، لو كانت لديّ قطعة نقود، قطعة واحدة لعينة، فلربما ربحتُ العشرين صولًا في لعبة القمار، أو ربما أكثر. لا بدّ أنه يقامر، وأتمنَّى أن يبيعني بالدَّين، أعرضُ عليك أن أكتب الرسائل والأقاصيص مِن أجلك. مع أنه، في حقيقة الأمر، لم يطلب مني أن أكتب له شيئًا واحدًا طوال الأعوام الثلاثة الماضية، سحقًا، أعرف أنني سوف أرسب في اختبار الكيمياء». يجوب الرواق كاملًا، فلا يلتقي أحدًا. يدخل إلى ثكنات القسمَيْن الأول والثاني. كانت الحمامات خالية، بينما انبعثَت من أحدها رائحة كريهة. يفتِّش الحمامات الواقعة في ثكنات أخرى. يقطع المهاجع في صخب مُتعمَّد، ولكن وتيرة الأنفاس لا تتبدَّل في واحدٍ منها، أنفاس الطُّلَّاب التي تنبعث إما هادئة وإما محمومة. يتوقَّف في القسم الخامس، قبل أن يصل إلى باب الحمام بقليل. أحدُهم يهذي: في غمرة الكلمات المُشوَّشة، لا يميِّز ألبِرتو سوى اسم امرأة. «ليديا. ليديا؟ يبدو أن الفتاة التي يواعدها ذلك الطالب الآتي من آريكيبا تُدعَى ليديا، ذلك الطالب الذي كان يُطلِعني على الرسائل والصور المُرسَلَة إليه، ويبوح

لي بآلامه، اكتبْ إليها رسائل جميلة فأنا أحبّها كثيرًا، أنا لستُ كاهنًا، سحقًا، أنت مُختَلّ. ليديا؟». في القسم السابع، بالقرب من المباول، ترتسم دائرة من الأجساد المنكمشة، الملتحفة بالسترات الخضراء، كلّهم يبدو أحدب الظهر. تترامى ثماني بنادق على الأرض، بينما تستقرّ بندقية واحدة مُسنَدةً إلى الجدار. يراهم ألبِرتو عن بعد، من خلال باب الحمام المفتوح، وهو لا يزال عند باب الثكنة. يتقدَّم، فيعترض طريقه أحد الظلال.

- ماذا هناك؟ من القادم؟

- الكولونيل. ألديكم تصريح بالمقامرة؟ المرء لا يتخلَّى عن الخدمة أبدًا، ما لم يكُن جثةً هامدة.

يدخل ألبِرتو إلى الحمام، فتنظر إليه دزينة من الوجوه المتعبة. يغشى الدخانُ المكانَ وكأنه خيمة تظلِّل رؤوس الحرس المناوبين. لا يعرف ألبِرتو أيًّا من تلك الوجوه: المتطابقة، القاتمة، الغليظة.

- هل رأيتم النَّمِر؟

- لم يأتِ.

- ماذا تلعبون؟

- البوكر. أتلعب؟ يجب عليك أن تراقب الطريق لربع ساعة أولًا.

- لا ألعب مع جَبَليين. -يقول ألبِرتو واضعًا يده على عضوه، مُصوِّبًا إياه إلى اللاعبين- بل أضاجعهم وحسب.

- اغربْ عن وجوهنا أيها الشَّاعِر. -يقول أحدهم- لا تزعجنا.

- سأرفع تقريرًا إلى سيادة الرائد. -يقول ألبِرتو وهو يدور على عقبَيْه- الجَبَليون يقامرون بكل ما لديهم في مباراة بوكر خلال أوقات الخدمة.

يسمعهم وهم يكيلون له السباب. يعود إلى الفناء من جديد.

يتردَّد بضع ثوانٍ، ثم يتَّجه إلى الأرض الخلاء. «وماذا لو أنه نائم وسط الحشائش، وماذا لو أنه يسرق الاختبار، خلال ورديتي، ذلك الوغد، وماذا لو أنه قد هرب قفزًا من فوق السور، وماذا لو. . .». يتجاوز الأرض الخلاء وصولًا إلى سور المدرسة الخلفي، كان الطُلَّاب يهربون قفزًا من فوق ذلك السور، لأن الأرض مستوية على الجانب الآخر، وهكذا لا يجازف الهارب بأن تنكسر ساقه. في حقبة سابقة، كانت تُرَى الظلال التي تقفز فوق السور من ذلك الموضع كل ليلة، ثم تعود فجرًا. ولكن المدير الجديد قد طرد أربعة طُلَّاب من الفرقة الرابعة، عقابًا لهم لأنهم قد ضُبِطوا وهم يهربون من المدرسة، ومنذ ذلك الحين تجوب المنطقةَ الواقعة خارج المدرسة دوريةٌ مُؤلَّفة من جنديَّيْن طوال الليل. شهد عدد الهاربين انخفاضًا، ولم يعُد الطُلَّاب يقفزون من تلك الرقعة. يدور ألبِرتو حول نفسه. يتراءى فناء الفرقة الخامسة في الخلفية ضبابيًّا، خاويًا. يتبيَّن ألبِرتو شعلةً خافتة، زرقاء اللون، في الأرض الخلاء الوسطى، فيتوجَّه إليها.

- النَّمِر؟

لا يتلقَّى جوابًا. يُبرِز ألبِرتو الكشَّاف -الذي يتزوَّد به الحرس المناوبون إلى جانب البندقية والسوار الأرجواني- ثم يضيئه. وعلى ضوء الكشَّاف يظهر وجهٌ ضامر، له بشرة ناعمة ملساء، وعينان نصف مغمضتَيْن تنظران على استحياء.

- أنت؟ ماذا تفعل هنا؟

يرفع العَبْدُ يده ليحتمي بهما مِن الضوء، فيطفئ ألبِرتو الكشَّاف.

- لقد تسلَّمتُ وردية الحراسة.

ألبِرتو. . . هل يضحك ألبِرتو؟ يتذبذب صوته في العتمة وكأنه يتجشَّأ، ثم ينقطع بضع لحظات، وإذا بسيل من الازدراء المحض يتدفَّق من جديد، عنيدًا، خاليًا مِن البهجة.

- لقد حللتَ محلَّ النَّمِر في الوردية. -يقول ألبِرتو- أشفقُ عليك.

- وأنت تقلِّد ضحكة النَّمِر. -يقول العَبْد، برقَّة- لا بدّ أن هذا أولى بالشفقة.

- لا أقلِّد أحدًا سوى أمّك. -يقول ألبِرتو. ثم ينزع البندقية ويضعها فوق الحشائش. يرفع ياقة سترته ويفرك يدَيْه، ثم يجلس إلى جوار العَبْد- ألديك سيجارة؟

تلمس يدَه يدٌ أخرى مُتعرِّقة، لا تلبث أن تبتعد تاركةً له سيجارةً لينة، يخلو طرفاها من التبغ. يشعل ألبِرتو عود ثقاب. «حذار»، يهمس العَبْد. «ربما لمحك أفراد الوردية». «سحقًا»، يقول ألبِرتو. «أحرقتُ يدي». تترامى منصة العرض مضيئة أمامهما وكأنها جادة كبرى في مدينة يلفّها الضباب.

- ماذا تفعل حتى لا ينفد رصيدك من السجائر بسرعة؟ -يسأل ألبِرتو- لا يأتي يوم الأربعاء إلَّا وقد نفدَت سجائري، في أقصى تقدير.

- أدخِّنُ قليلًا.

- لماذا أنت مُخنَّث هكذا! -يسأل ألبِرتو- ألا تخجل من نفسك لأنك قد حللتَ محلّ النَّمِر؟

- أنا أفعلُ ما أريد. -يجيب العَبْد- هل يهمُّك ذلك؟

- يعاملك كما لو كنتَ عَبْدًا. -يقول ألبِرتو- كلهم يعاملونك كما لو كنتَ عَبْدًا، اللعنة. لماذا تخاف إلى هذا الحدّ؟

- لا أخاف منك.

يضحك ألبِرتو. ثم تنقطع ضحكته بحدّة.

- إنها حقيقة. -يقول- صرتُ أضحك كما يضحك النَّمِر. لماذا يقلِّده الجميع؟

- أنا لا أقلّده. -يقول العَبْد.

- تبدو وكأنك كلبه الخاص. -يقول ألبِرتو- لقد نال منك.

يلقي ألبِرتو عقب السيجارة، فتحتضر الجذوة لبضع ثوانٍ بين قدمَيْه، فوق الحشائش، ثم تختفي. ما زال فناء الفرقة الخامسة مهجورًا.

- أجل. لقد نال منك. -يقول ألبِرتو. يفتح فمه ويطبقه. يرفع يده إلى طرف لسانه، ثم يلتقط بإصبعَيْه نتفةً من التبغ، ويمزِّقها بأظافره. يضع على شفتَيْه ذرَتَيْن من التبغ في منتهى الصغر، ثم يبصق- لم يسبق لكَ أن خضتَ شجارًا قطّ، أليس كذلك؟

- مرة واحدة فحسب. -يقول العَبْد.

- هنا؟

- كلّا. في الماضي.

- لهذا السبب ينغِّصون عيشك. -يقول ألبِرتو- كلهم يعرفون أنك خائف. لا بدّ أن توسع أحدهم ضربًا بين حين وآخر حتى تكتسب احترام الآخرين. وإلّا، بقيتَ مُنغَّصًا مدى الحياة.

- لن أصبح عسكريًّا.

- ولا أنا. ولكنك عسكري ما دمتَ هنا، شئتَ أم أبيت. والمهم في الجيش أن يكون المرء فحلًا، أن يكون له قلب من حديد، أتفهم؟ إما تأكل وإما تُؤكَل، لا يوجد حلٌّ وسط. وأنا لا يروقني أن أُؤكَل.

- لا تروقني الشجارات. -يقول العَبْد- أو بالأحرى، لا أعرف كيف أخوضها.

- ليس هذا بالشيء الذي يتعلَّمه المرء. -يقول ألبِرتو- بل إنها مسألة قلب شجاع.

- هكذا قال الملازم غامبوا ذات مرة.

- إنها عين الحقيقة، أليس كذلك؟ لا أريد أن أصبح عسكريًّا. ولكن في هذا المكان يغدو المرء أشدّ رجولةً، ويتعلَّم الدفاع عن النفس، ويختبر الحياة.

- أنت لا تخوض شجارات كثيرة. -يقول العَبْد- ومع ذلك، لا ينغِّصك الآخرون.

- أتصنَّعُ الجنون. أعني، أتصنَّعُ الحماقة. إنها حيلة أخرى كيلا يسيطر عليك أحد. إن لم تدافع عن نفسك بالأظافر والأسنان، اعتلى الآخرون ظهرك.

- هل ستصبح شَاعِرًا؟ -يسأل العَبْد.

- هل أنت أبله؟ سأكون مهندسًا. سوف يرسلني أبي للدراسة في الولايات المُتَّحِدة. أكتبُ الرسائل والأقاصيص مِن أجل الآخرين حتى أشتري بثمنها السجائر. ولكن هذا لا يعني شيئًا. وماذا عنك، ماذا تريد أن تكون؟

- كنتُ أريد أن ألتحق بسلاح البحرية. -يقول العَبْد- أما الآن، فلم أعُد أرغب في ذلك. لا تروقني الحياة العسكرية. ربما أصبحتُ مهندسًا أنا أيضًا.

يشتدّ الضبابُ كثافةً، فتبدو مصابيح المنصة أصغر حجمًا، وأضواؤها أكثر خفوتًا. يفتِّش ألبِرتو في جيوبه. نفدَت سجائره قبل يومَيْن، ولكن يدَيْه تكرِّران اللفتة بحركة آلية كلَّما راودَته رغبةٌ في التدخين.

- أما زالت لديك سجائر؟

لا يحير العَبْد جوابًا، ولكن ما هي إلَّا ثوانٍ حتى يحسّ ألبِرتو بذراعٍ قريبة من بطنه. يلمس يد الآخر، التي تمدّ إليه علبةً شبه ممتلئة. يلتقط منها سيجارة، ويضعها بين شفتَيْه. يتلمَّس اللفافة المُحكَمة اللاذعة بطرف لسانه. ثم يضرم عود ثقاب، ويقرِّب من

وجه العَبْد شعلةَ اللهب التي تختلج برقةٍ في الصَّدَفة الصغيرة التي يشكِّلها بيدَيْه.

- أيّ سبب لعين يجعلك تبكي الآن؟ -يسأل ألبِرتو بينما يفتح يدَيْه تاركًا عود الثقاب يسقط على الأرض- لقد أحرقتُ نفسي مرة أخرى، سحقًا.

يضرم عود ثقاب آخر، ويشعل السيجارة. يتنشَّق الدخان ثم ينفثه من الفم والأنف.

- ماذا بك؟ -يسأل.

- لا شيء.

يتنشَّق ألبِرتو الدخان مرة أخرى، فتتوهَّج الجذوة، ويختلط الدخان بالضباب الذي انخفض بشدة حتى كاد يصل إلى مستوى الأرض. تلاشى فناء الفرقة الخامسة، وصار بناء الثكنات مُجرَّد بقعة ضخمة جامدة.

- ماذا فعلوا بك؟ -يسأل ألبِرتو- يجب على المرء ألَّا يبكي أبدًا يا رجل.

- سترتي. . . -يقول العَبْد- لقد أفسدوا عليَّ الإجازة.

يلتفت ألبِرتو إليه برأسه، فيجد العَبْد يرتدي كنزة كستنائية اللون، بلا أكمام، فوق القميص الكاكي.

- كنتُ سأخرج غدًا. -يقول العَبْد- ولكنهم قد أفسدوا عليَّ الأمر.

- أتعرف من فعلها؟

- كلّا. لقد سُرِقَت سترتي من خزانة الثياب.

- سوف تُخصَم منك مئة صول. أو ربما أكثر.

- ليسَت تلك هي المشكلة. لدينا تفتيش غدًا. سوف يعاقبني غامبوا بالحرمان من الإجازة. وأنا لم أخرج منذ أسبوعَيْن.

- كم الساعة الآن؟

- الواحدة إلَّا ربعًا. -يقول العَبْد- يمكننا الذهاب إلى الثكنة.

- مهلًا. -يقول ألبِرتو وهو ينهض- ما زال أمامنا مُتَّسع من الوقت. دعنا نسرق سترة.

يهبّ العَبْد واقفًا كالزنبرك، غير أنه يبقى مكانه، فلا يقطع خطوة واحدة، وكأنه رهنٌ بأمر وشيك، لا رادّ له.

- أسرع. -يقول ألبِرتو.

- الحرس... -يهمس العَبْد.

- اللعنة. -يقول ألبِرتو- ألا ترى أنني أجازف بإجازتي حتى أحصل على سترة من أجلك؟ يصيبني الجبناء بالغثيان. الحرس في حمام القسم السابع. يقامرون.

يسير العَبْد في أثره. يمضيان صوب الثكنات الخفية، وسط الضباب الذي يشتدّ كثافةً أكثر فأكثر. تمزِّق مسامير البيادةِ الحشائش الرطبة، والآن يمتزج هديرُ البحرِ الموزون بصفيرِ الريح التي تداهم حجرات البناء القائم بين الفصول ومهاجع الضبَّاط، تلك الحجرات الخالية من الأبواب والنوافذ.

- دعنا نذهب إلى القسم العاشر أو التاسع، فالأقزام يستغرقون في النوم كالأموات[١]. -يقول العَبْد.

- أتنقصك سترة أم صدرية؟ -يسأل ألبِرتو- دعنا نذهب إلى القسم الثالث.

يصلان إلى رواق الفرقة. تدفع يد ألبِرتو البابَ برفق، فينزاح مِن

(١) في سياق الرواية، يُرتَّب طُلَّاب كل فرقة مِن الأطول إلى الأقصر. فنجد أفراد الأقسام الأولى مِن الفرقة هم الأطول، وأفراد الأقسام الأخيرة هم الأقصر قامةً.

دون أن يُحدِث صوتًا. يدسّ رأسه وكأنه حيوان يتشمَّم كهفًا: أما الثكنة الغارقة في الظلمات، فيسودها صوتٌ هادئ. يُوصَد الباب خلفهما. «وماذا لو انطلق راكضًا، لشدّ ما يرتجف جسده، وماذا لو أجهش بالبكاء، لشدّ ما يركض، وماذا لو صدَق ما قيل مِن إن النَّمِر يضاجعه، لشدّ ما يتفصَّد جسده عرقًا، وماذا لو أُضيئت المصابيح الآن، فكيف أهرب؟».

«في الخلف»، يهمس ألبِرتو، وتلامس شفتاه وجه العَبْد. «هناك خزانة ثياب، بعيدًا عن الأسِرَّة». «ماذا؟»، يسأل العَبْد من دون أن يتحرَّك. «سحقًا»، يقول ألبِرتو. «تعالَ». يقطعان الثكنة بالتصوير البطيء، وكلاهما يجرِّر قدمَيْه ويتلمَّس الطريق بيدَيْه مُتفادِيًا العقبات. «وماذا لو كنتُ أعمى وأخرجتُ عينَيَّ الزجاجيتَيْن من محجرَيْهما وقلتُ لذات القدمَيْن الذهبيتَيْن أعطيكِ عينَيَّ مقابل أن تقدِّمي إليَّ خدماتك بالدَّين، كفاكَ عاهرات يا أبي، كفاك، فالمرء لا يتخلَّى عن الخدمة أبدًا، ما لم يكُن جثةً هامدة». يتوقَّفان قرب خزانة الثياب. تمرّ أصابع ألبِرتو على الخشب. يدسّ يده في جيبه الذي يستخرج منه خطافًا، وبيده الأخرى يحاول تحديد موقع القفل، بينما يغمض عينَيْه، ويكزّ على أسنانه. «وماذا لو قلتُ: أقسمُ لكَ سيدي الملازم إنني قد جئتُ لآخذ كتابًا حتى أدرس الكيمياء وإلّا رسبتُ غدًا، أقسم لك إنني لن أسامحك أبدًا على دموع أمّي أيها العَبْد، ولن أسامحك لأنهم قد نغَّصوا عيشي بسبب سترة». يخدش الخطافُ معدن القفل، ويخترق الفتحة، ثم يتعلَّق بشيء. يتحرَّك إلى الخلف وإلى الأمام، يمينًا ويسارًا، يتوغَّل أكثر قليلًا، يتجمَّد، يُصدِر طَرقةً مكتومة، وينفتح القفل. يهزّ ألبِرتو الخطاف إلى أن يستردّه. يتحرَّك باب خزانة الثياب. ومن أحد المواقع في الثكنة، يهذر صوتٌ ساخط بكلام غير مُترابِط، فينشب العَبْد أصابعه في ذراع ألبِرتو. «اهدأ»، يهمس

ألبِرتو. «وإلّا قتلتُك». «ماذا؟»، يسأل الآخر. تستكشف يد ألبِرتو جوف الخزانة، بحذر، على بُعْد ميليمترات من سطح السترة المزغب، وكأنه يداعب وجه عشيقته أو يملّس شعرها، مُتذوِّقًا لذة القرب، فلا يلمس إلّا الهالة المحيطة بها والدفء المنبعث منها. «انزع الأربطة عن إحدى البيادات»، يقول ألبِرتو. «أحتاج إليها». يفلت العَبْد ذراع ألبِرتو، ويحني رأسه، ثم يبتعد زاحفًا. ينتزع ألبِرتو السترة من المشجب. ثم يضع القفل مكانه ضاغطًا بيده كاملةً حتى يكتم الصوت. وينسلّ مُتَّجِهًا إلى الباب. يصل العَبْد، فيلمسه مرةً أخرى. في هذه المرة يلمس كتفه. يخرجان من الثكنة.

- هل تحمل علامة؟

- يتفحَّص العَبْدُ السترةَ بتأنٍّ، على ضوء كشّافه.

- كلّا.

- اذهبْ إلى الحمام وتأكَّدْ أنها خالية من البقع. وتحقَّق من الأزرار أيضًا، حذار أن تكون بلون مختلف.

- الساعة قاربت الواحدة. -يقول العَبْد.

يومئ ألبِرتو برأسه. وحين يصل إلى باب القسم الأول، يلتفت إلى رفيقه سائلًا:

- وماذا عن الأربطة؟

- لم أحصل إلّا على رباط فردة واحدة. -يقول العَبْد. ويتردَّد لحظةً-: آسف.

ينظر إليه ألبِرتو مليًّا، ولكنه لا يسبّه ولا يضحك منه. وإنما يكتفي بهزّ كتفَيْه.

- أشكرك. -يقول العَبْد. ومرة أخرى، يضع يده على ذراع ألبِرتو ناظرًا إلى عينَيْه بوجهه الخجول الذليل الذي أشرق باسمًا.

- أفعلُها من أجل التسلية. -يقول ألبِرتو، ولا يلبث أن يردف

قائلًا-: هل حصلتَ على أسئلة الاختبار؟ لا أعرف حرفًا واحدًا في الكيمياء.

- كلّا. -يقول العَبْد- ولكن لا بدّ أن أفراد الحَلْقَة قد حصلوا عليها. لقد خرج كابا في طريقه إلى الفصول منذ بعض الوقت. لا بدّ أنهم يبحثون الآن عن الإجابات الصحيحة للأسئلة.

- لا أملكُ نقودًا. والنَّمِر لصٌّ.

- أتريد أن أقرضك؟ -يسأل العَبْد.

- ألديك نقود؟

- القليل.

- أيمكنك أن تقرضني عشرين صولًا؟

- عشرين صولًا، نعم.

يربِّت ألبِرتو على كتفه قائلًا:

- رائع، رائع. لقد أفلستُ تمامًا. إن شئت، يمكنني أن أردّ لك النقود على شكل أقاصيص.

- كلّا. -يقول العَبْد، خافضًا عينَيْه- بل على شكل رسائل.

- رسائل؟ ألديك عشيقة؟ أنت؟

- ليس بعد. -يقول العَبْد- ولكن ربما صارت لديّ عشيقة.

- حسنًا يا رجل. سأكتب عشرين رسالة من أجلك. ولكن يجب عليك أن تُطلِعني على رسائلها. حتى أعرف أسلوبها.

تبدو الثكنات وكأنما قد دبَّت فيها الحياة. ومن شتى أقسام الفرقة يتناهى إليهما دبيب أقدام وأصوات خزائن، وبعض الشتائم أيضًا.

- الآن تتبدَّل دوريات الحراسة. -يقول ألبِرتو- هيَّا بنا.

يدخلان إلى الثكنة، فيتَّجه ألبِرتو إلى سرير بايانو. ينحني منتزعًا الرباط من إحدى فردتَي بيادة بايانو النيغرو، ثم يهزّه بكلتا يدَيْه.

- ملعونة أمّك، ملعونة أمّك. -يصيح بايانو في هياج.

- الساعة الآن الواحدة. -يقول ألبِرتو- حان موعد ورديتك.

- لو أيقظتَني قبل الواحدة، هشَّمتُ رأسك.

وعلى الجانب الآخر من الثكنة، يصرخ كوبرا في العَبْد الذي أيقظه من فوره.

- إليك البندقية والكشاف. -يقول ألبِرتو- استمرّ في النوم إن شئت. ولكن دعني أنبِّهك إلى أن الدورية قد وصلَت إلى القسم الثاني.

- حقًّا؟ -يسأل بايانو وهو يجلس في الفراش.

يذهب ألبِرتو إلى سريره، ويخلع ثيابه.

- الجميع هنا في منتهى الطرافة. -يقول بايانو- في منتهى الطرافة!

- ماذا بك؟ -يسأل ألبِرتو.

- لقد سرقوا مني رباطًا.

- صمتًا! -يصيح أحدهم- أيها الحارس، فليصمت أولئك المخنثون.

يحسّ ألبِرتو بأن بايانو يسير على أطراف أصابعه. ثم يسمع صوتًا كاشفًا.

- أحدهم يسرق رباطًا! -يصيح.

- سوف أهشِّم وجهك أيها الشَّاعِر ذات يوم. -يقول بايانو مُتثائبًا.

ما هي إلَّا دقائق حتى يجرح الليلَ صفيرُ الضابط المناوب. ولكن ألبِرتو لا يسمعه: بل إنه يستغرق في النوم.

*

يقلّ طول شارع دييغو فيرّيه عن ثلاثمئة متر، ولذا فربما حسبه

الغريبُ عن المكان زقاقًا مسدودًا. وبالفعل، يرى الناظرُ -من مفرق جادة لاركو، هناك حيث يبدأ الشارع- واجهةَ بيتٍ من طابقَيْن، له حديقة صغيرة يحرسها سورٌ أخضر، تسدّ الطرف الآخر من الزقاق، على بُعْد مُربَّعَيْن سكنيَّيْن. أما ذلك البيت الذي يبدو للناظر عن بعد أنه يسدّ شارع دييغو فيرّيه، فينتمي إلى شارع پورتا الضيق، الذي يمتدّ إلى الجادة، فيقطعها ويتمِّمها. يقطع جادةَ دييغو فيرّيه شارعان متوازيان، يقعان بين شارع پورتا وجادة لاركو: كولون وأوتشاران، الشارعان اللذان ينتهيان بغتة، حالما يعبر المرء شارع دييغو فيرّيه، على مسافة مئتي متر غربًا، عند ممشى لاريسيربا، ذلك الممشى الملتوي الذي يطوِّق ميرافلوربس بحزام من الطوب الأحمر، ويرسم أقصى حدود المدينة، ذلك أنه قد شُيِّد على حافة الجرف، من حيث يشرف على ذلك البحر الهادر الرمادي النقي، بحر خليج ليما.

بين جادة لاركو والممشى وشارع پورتا، تقوم نصف دزينة من المربعات السكنية: بها نحو مئة بيت، ومتجران أو ثلاثة متاجر للأطعمة، وصيدلية، ومنصة لبيع المُرطِّبات، ومشغل أحذية (يكاد يتوارى عن الأنظار في موقعه بين مرأب السيارات والسور البارز)، وأرض مُسوَّرة تمارس فيها نشاطها مغسلةٌ سريَّة. تحفّ الأشجار تلك الشوارع الخلفية على الجانبَيْن. أما جادة دييغو فيرّيه، فلا تحفّها الأشجار. يقع ذلك القسم بالكامل في نطاق الحيّ الذي لا اسم له. ولذا تقدَّم فتيان الحيّ لبطولة كرة القدم السنوية التي يقيمها نادي تيرَّاساس باسم «فريق باريو أليغري». ولكن ما إن انتهَت البطولة حتى هُجِر الاسم. أضفْ إلى ذلك أن مُراسِلي الحوادث يستخدمون اسم «باريو أليغري» إشارةً إلى طريق أواتيكا دي لابيكتوريا، شارع العاهرات، الأمر الذي يمثِّل تشابهًا مخزيًا. ولذا اكتفى الصِبيةُ بالتحدُّث عن «الحي». أما لو سأل أحدُهم «أي حي؟» -لتمييزه عن

باقي أحياء ميرافلوريس: الثامن والعشرون من يوليو، وريدوكتو، وشارع فرنسا، وألكانفوريسَ- فيقول عنه الفتيان إنه: حَيّ دييغو فيرّيه.

يعيش ألبِرتو في ثالث بيوت المُربَّع السكني الثاني بجادة دييغو فيرّيه، على الرصيف الأيسر. ولقد تعرَّف بذلك البيت ليلًا، بعد أن نُقِلَت غالبية قطع الأثاث من بيته السابق، في سان إسيدرو، إلى هذا البيت الذي بدا له أكبر حجمًا. كما وجد فيه ألبِرتو ميزتَيْن كلتاهما واضحة: بُعْد حجرة نومه عن مخدع والدَيْه بمسافة أكبر؛ واحتمال أن يسمح له والداه بتربية كلب، لأن لهذا البيت حديقة داخلية. وعلى الرغم من ذلك، فلم يخلُ البيت الجديد من العيوب أيضًا: إذ كان والد أحد الزملاء في سان إسيدرو يأخذه إلى مدرسة لاسال مع ابنه كل صباح. ولكن من الآن فصاعدًا يغدو لزامًا عليه أن يستقلّ الإكسپريس[1]، ثم ينزل في جادة ويلسون، ومن هناك يقطع ما لا يقل عن عشرة مربعات سكنية وصولًا إلى جادة آريكا، إذ تقع لاسال في قلب حي برينيا، الذي يعجّ بالعُمَّال والسامبو[2]، مع أنها مدرسة لأطفال العائلات المرموقة. من الآن فصاعدًا، يُضطَرّ إلى القيام من النوم في وقت أبكر، والخروج إلى المدرسة حالما ينتهي من تناول الفطور. فضلًا عن ذلك، كان مالك المكتبة الواقعة أمام بيت سان إسيدرو يسمح له بقراءة مجلات پينيكا وبيليكين المُصوَّرة خلف

(١) الإكسپريس: هكذا سُمِّيَت الحافلة التي كانت تقلّ الركَّاب من وسط مدينة ليما إلى قلب ميرافلوريس في تلك الحقبة.

(٢) سامبو: تُستخدَم الكلمة في بيرو بمعنى هجين من السكان الأصليين والإفريقيين أصحاب البشرة السوداء. لا يخفى على القارئ أن الكلمة تنطوي على قدر مِن الازدراء والتحقير، وتقترن في سياق الرواية بالجريمة والفقر والطبقات الدنيا مِن المجتمع.

منضدة البيع، ويعيره إياها يومًا كاملًا في بعض المرات، مُحذِّرًا ألبِرتو كيلا يجعِّدها أو يلوِّثها. كما يحرمه الانتقالُ إلى بيت آخر مِن وسيلة ترفيه مثيرة: الصعود إلى السطح ومراقبة بيت آل نجار الذين كانوا يلعبون التنس في الصباح، ويتناولون الفطور في الحديقة، تحت المظلَّات المُلوَّنة، ما دامَت الشمس ساطعة، ويرقصون في الليل، فيتسنَّى له أن يختلس النظر إلى العُشَّاق الذين يتسلَّلون إلى ملعب التنس حتى يتبادلوا القبلات خلسةً.

يومَ انتقل إلى البيت الجديد، استيقظ من النوم مُبكِّرًا، وذهب إلى المدرسة رائق المزاج. ثم عاد إلى البيت الجديد مباشرةً عند منتصف النهار. نزل من الإكسپريس في محطة منتزه سالاسار -وهو ما زال لا يعرف اسم ذلك المنتزه المفروش بالعشب، المُعلَّق فوق البحر-، ومضى صعودًا عَبْر شارع دييغو فيرّيه الخالي، ثم دخل إلى البيت: حيث كانت أمّه تتوعَّد الخادمة بأن تطردها لو انصرفَت إلى الحياة الاجتماعية مع طاهيات الحيّ وسائقيه في البيت الجديد أيضًا. ما إن فرغ الأب من تناول الغداء حتى قال: «يجب عليَّ أن أخرج. لديّ أمرٌ مهم»، فصاحت الأم: «أتخدعني؟ كيف تجرؤ على النظر إلى عينَيّ». ثم بدأت الأمّ تفتيشًا دقيقًا، برفقة الخادم والخادمة، للتحقُّق من أن شيئًا لم يتلف أو يَضِع في أثناء الانتقال. صعد ألبِرتو إلى حجرته، واستلقى في الفراش، حيث مضى يرسم الخربشات على أغلفة كتبه، شارد الذهن. بعد قليل سمع أصوات فتيان تصل إليه عَبْر النافذة. كانت الأصوات تنقطع، كلَّما ارتطمَت الكرةُ بأحد الأبواب، فيطغى عليها وقعُ الصدمة، والطنين، والدويّ. وما هي إلَّا ثانية حتى تنبثق الأصوات من جديد. قفز من الفراش، وأطلّ مِن الشرفة. كان أحد الفتيَيْن يرتدي قميصًا صارخًا، تتخلَّله خطوط باللونَيْن الأحمر والأصفر، والآخر يرتدي قميصًا من الحرير الأبيض، مفتوح الأزرار.

كان أولهما أطول قامةً، أشقر، ينمّ صوته ونظرته ولفتاته عن الجرأة، أما ثانيهما فقصير القامة، مكتنز البدن، شعره داكن، مُجعَّد، وحركته في غاية الخفَّة. تولَّى الأشقر حراسة باب المرأب الذي اتَّخذاه مرمى، بينما راح الأسمر يسدِّد كرةً جديدة قائلًا: «پلوتو، صدّ هذه الرمية»، فكان پلوتو يتربَّص مُقطّب الجبين، بلفتات تمثيلية، ماسحًا أنفه وجبينه بكلتا يدَيْه، مُتظاهِرًا بالارتماء، ثم يضحك بصوت هادر كلَّما صدّ ركلة جزاء. «تركل الكرة وكأنك امرأة عجوز»، قال له. «أستطيع أن أصدّ ركلاتك مغمض العينَيْن». كان الفتى الأسمر يستوقف الكرة بمهارة، ويضعها في الموقع الملائم، ثم يحسب المسافة، ويركلها، فيسجِّل هدفًا مضمونًا في كل مرة تقريبًا. «يداك مثقوبتان»، أخذ تيكو يسخر من الآخر. «أيها المُخنَّث، إليك هذه الكرة مُرفَقة بتحذير، سوف أركلها إلى الزاوية اليمنى كالصاروخ». في البدء، مضى ألبِرتو ينظر إليهما بفتور، بينما تظاهر الآخران بأنهما لا يريانه. رويدًا رويدًا، بدأ ألبِرتو يُظهِر علامات الاهتمام الرياضي حصرًا، ويومئ برأسه كالخبير، من دون أن يبتسم، كلَّما سجَّل تيكو هدفًا، أو كلَّما صدّ پلوتو رمية. ثم بدأ ينتبه إلى دعابات الفتيَيْن، ويُقلِّد التعابير المُرتسِمة على وجهَيْهما. مضى اللاعبان يرسلان إشارات تنطوي على إقرار منهما بوجوده للحظات: فيلتفتان إليه، وكأنهما ينصِّبانه حَكَمًا. سرعان ما نشأت صلة تواطؤ قوية بالنظرات والابتسامات وإيماءات الرأس. وفجأة، صدّ پلوتو رمية تيكو بقدمه، فانطلقَت الكرة بعيدًا. ركض تيكو خلفها، بينما رفع پلوتو عينَيْه إلى ألبِرتو.

– مرحبًا. –قال.

– مرحبًا. –أجاب ألبِرتو.

وضع پلوتو يدَيْه في جيبَيْه، ومضى يقفز قفزات قصيرة في مكانه، كما يفعل اللاعبون المحترفون للإحماء قبل المباراة.

- هل ستسكن هنا؟ -سأل پلوتو.

- أجل. لقد انتقلنا اليوم.

أومأ پلوتو برأسه، بينما اقترب تيكو وهو يمسك الكرة بإحدى يدَيْه فوق كتفه. نظر إلى ألبِرتو، فتبادلا ابتسامة. ثم نظر پلوتو إلى تيكو قائلًا:

- لقد انتقل إلى هذا البيت. سوف يعيش هنا.

- حسنًا. -قال تيكو.

- أتعيشان هنا؟ -سأل ألبِرتو.

- يعيش هو في دييغو فيرّيه. -قال پلوتو- في المُربَّع السكني الأول. وأنا في أوتشاران، عند المنعطف.

- لقد ربح الحيُّ فتى جديدًا. -قال تيكو.

- ينادونني باسم پلوتو. وهذا تيكو. إنه يركل الكرة وكأنه امرأة عجوز.

- هل والدك رجل طيب؟ -سأل تيكو.

- نوعًا ما. -قال ألبِرتو- ولكن لماذا؟

- لأنهم يطردوننا من كل مكان نذهب إليه في الشارع. -قال پلوتو- ويأخذون منا الكرة. ولا يسمحون لنا باللعب.

بدأ تيكو ينطِّط الكرة، كما يفعل لاعبو كرة السلة.

- انزل. -قال پلوتو- دعنا نسدِّد ركلات الجزاء. وعندما يحضر الآخرون، سوف نلعب مباراة كرة قدم.

- حسنًا. -قال ألبِرتو- ولكن دعني أخبرك بأنني لا أجيد كرة القدم.

*

قال لنا كابا: هناك دجاج خلف عنبر الجنود. غير صحيح، أنت كاذب أيها الجَبَلي. أقسمُ إنني قد رأيتُ الدجاج. وهكذا ذهبنا إلى

هناك بعد تناول الطعام. درنا حول المكان كيلا نمرّ بالثكنات، ومضينا نزحف كما نفعل في التدريبات الميدانية. هل رأيت؟ هل رأيتم؟ راح الوغد اللعين يقول، إليكم قنًّا أبيض اللون حافلًا بالدجاج المُلوَّن، وماذا تريدون أكثر ذلك؟ أتريدون أكثر من ذلك؟ هل نضاجع الدجاجة السوداء أم الصفراء؟ الصفراء أكثر امتلاء. ماذا تنتظر أيها الأحمق؟ ها أنا قد أمسكتُ بجناحَيْها. أطبقْ منقارها يا كوبرا. وكأن الأمر بتلك السهولة. لم يستطِع. لا تهربي أيتها الدجاجة الصغيرة، تعالي، تعالي. تخاف الدجاجة منه، وتنظر إليه شزرًا، يُبدِي إليها عضوه، انظروا، أخذ يقول الوغد اللعين. ولكن الحقيقة أنها راحت تنقر أصابعي. هيا بنا نذهب إلى الإستاد، أما هذه فأطبقوا منقارها إلى الأبد من أجلي. وماذا لو أن مَوْجَة يضاجع الفتى؟ أفضل حلّ أن نربط ساقَيْها ومنقارها، هكذا قال النَّمِر. وماذا عن جناحَيْها؟ وماذا لو أخصَت الدجاجةُ أحدهم ضربًا بجناحَيْها؟ ما قولكم في ذلك؟ الدجاجة لا تريدك أن تلمسها يا كوبرا. هل أنت مُتأكِّد، أيها الجَبَلي، أنت أيضًا؟ كلّا، ولكني رأيتُه بعينَي. بِمَ أربطها؟ يا لكم من وحوش، يا لكم من وحوش، على الأقل الدجاجة صغيرة الحجم، تبدو وكأنها لعبة، ولكن حيوان اللاما! وماذا يحدث لو أن مَوْجَة يضاجع ذلك الفتى؟ كنا ندخِّن في حمام الفصول، اخفضوا نيرانكم أيها الوطاويط. مضى النَّمِر يحاول جاهدًا، حتى بدا وكأن روحه على وشك أن تفارقه، وكأن أحدهم يضاجعه. هل فعلتَها يا نَمِر؟ هل فعلتَها؟ هل فعلتَها؟ اصمتوا فأنتم تقاطعونني، يجب عليَّ أن أركِّز؟ هل فعلتَها، هل فعلتَها؟ هل أدخلتَ طرفه؟ وماذا لو ضاجعنا ذلك الفتى البدين؟ سأل مَوْجَة. مَن؟ ذلك البدين، مِن القسم التاسع. ألم تقرص بشرته قطّ؟ أوف! لا بأس بهذه الفكرة، ولكن، هل يتركنا؟ أم أنه لن يتركنا؟ لقد أخبرني

أحدهم بأن لانياس يضاجعه عندما يتسلَّم الخدمة. أوف، أخيرًا! هل فعلتَها، هل فعلتَها؟ الوغد اللعين. ومَن يفعلها أولًا؟ لأنني قد فقدتُ الرغبة من فرط ما صاحت الدجاجة. إليكم حبلًا لربط منقارها. أيها الجَبَلي، لا تفلتها وإلَّا فربما حلَّقَت في الهواء. هل مِن مُتطوِّع؟ تأبَّطها كابا، بينها راح مَوْجَة يتوسَّل إليها، أرجوكِ لا تحرِّكي منقاركِ، لأنهم سوف يدسّونه في مُؤخِّرتك على كل حال. أما أنا فربطتُ ساقَيْها. إذن، فالأفضل لنا أن نقترع، مَن لديه أعواد ثقاب؟ اقطعْ رأس واحدٍ منها، وأرِني باقي أعواد الثقاب، فأنا أكبر عمرًا من أن يخدعني أحدهم. سيفوز مَوْجَة بالقرعة. اسمع، أتعرف إن كان ذلك الفتى قد يتركنا نفعل به ذلك؟ أنا لا أعرف. تلك الضحكة التي تنطلق مثل الوخزة. أوافق يا مَوْجَة، ولكن على سبيل اللهو فحسب. وماذا لو أنه لم يتركنا؟ اصمتوا، فأنا أشمّ رائحة ضابط صفٍّ في الهواء، مِن حسن الحظّ أنه قد مرّ بعيدًا، أنا في غاية الفحولة. وماذا لو ضاجعنا ضابطَ الصفّ؟ ما دام كوبرا يضاجع كلبة، قال الوغد اللعين، فلماذا لا نضاجع الفتى البدين وهو مِن البشر. إنه محروم مِن الإجازة، لقد رأيتُه الآن في قاعة الطعام وهو يشاغب الكلاب الثمانية الجالسين إلى مائدته. لعلّه لا يتركنا. مَن تكلَّم عن الخوف؟ هل تكلَّم أحدُكم عن الخوف؟ سوف أضاجع قسمًا كاملًا من السمان، واحدًا تلو آخر، من دون أن يرفّ لي جفن. هيا نضع مُخطَّطًا، قال النَّمِر، شريطة أن يكون سهل التنفيذ. مَن فاز بالقرعة؟ استقرَّت الدجاجة على الأرض، هادئة، فاتحة منقارها. فاز كابا الجَبَلي بالقرعة، ألا ترون أنه قد بدأ يداعب نفسه بيده؟ يلذّ له ذلك، لقد ماتَت، الأفضل أن يتولَّى كوبرا المهمة، ينتصب كوبرا حتى وهو يتقدَّم بالخطوة العسكرية. لقد اقترعنا، ولم يعُد هناك ما يمكن فعله، إما تضاجعها وإما نضاجعك مثل حيوانات اللاما في قريتك. أليسَت لديكم

أقصوصة إباحية؟ وماذا لو جئنا بالشَّاعِر حتى يحكي له واحدة من تلك الأقاصيص التي تجعل العضو ينتصب؟ إنها مُجرَّد خرافات أيها الرفقاء، فأنا أنتصب عن طريق التركيز، إنها مسألة إرادة. اسمع، وماذا لو أُصِبتُ بالعدوى؟ ماذا حدث لك، يا حياتي؟ ماذا دهاك أيها الجَبَلي الصغير؟ منذ متى وأنت تتقهقر؟ أتعرف أن كوبرا صار أوفر صحةً من أمّك منذ بدأ يضاجع رِيشَة؟ احكِ لي ذلك الهذيان أيها المقمل، ألم يخبرك أحد بأن الدجاجات أنظف وأنقى من الكلبات؟ اتفقنا إذن، سوف نضاجعه حتى لو مُتنا مُتلبِّسين. وماذا عن الدورية؟ لقد تسلَّم الخدمة أوارينا، ذلك المزعج، دورية السبت لا قيمة لها. وماذا لو وجَّه إلينا أصابع الاتهام؟ اجتماع الحَلْقَة: طالبٌ مُنتهَكٌ واشٍ. ولكن، هل تقول إنهم قد ضاجعوك؟ هيا بنا إلى الخارج، فبوق الصمت على وشك الانطلاق. وأخفضوا نيرانكم، اللعنة. فعلًا، قال الوغد اللعين، ها هو قد انتصب من تلقاء نفسه، مرِّروها إليّ. أمسكها أنت. أنا؟ نعم أنت. هل أنت مُتأكِّد أن للدجاجات ثقوبًا؟ نعم، ما لم تكُن هذه الغبية عذراء. إنها تتحرَّك، انظروا، ربما كانت ديكًا مُخنَّثًا. لا تضحكوا ولا تتكلَّموا، من فضلكم. من فضلكم. تلك الضحكة شديدة الخبث. ألا ترون، ألا ترون هذه اليد الخليقة بجَبَلي؟ إنك تتحسَّسها، أيها الوغد. إنني أفتِّش عن الثقب، لا تجعلوني أتحرَّك، فها قد عثرتُ عليه. ماذا قلتَ أيها الرفيق؟ بالفعل، للدجاجة ثقب، اهدؤوا من فضلكم، أستحلفكم بالقديسين جميعًا ألَّا تضحكوا وإلَّا نام خرطوم الفيل. يا لك من همجي. إن الجَبَليين لئام، أخبث الناس، هكذا قال أخي. إنهم خونة، جبناء، فاسدون حتى النخاع. أطبقْ منقارها، يا ابن العاهرة الكبيرة! سيدي الملازم غامبوا، أحدهم يضاجع الدجاجة هنا. الساعة الآن العاشرة، أو قاربَت العاشرة، قال مَوْجَة، بل إنها قد تجاوزَت

العاشرة والربع. هل تحقَّقتم من خلوّ المكان من الحرس؟ سأضاجع حارسًا أيضًا. أنت تضاجع كل شيء، وفق ما يبدو لي، شهيتك مفتوحة عن آخرها، أقسمْ إنك لا تضاجع أمَّك الطاهرة. لم يكُن في الثكنة طُلَّاب آخرون مُعاقَبون بالحرمان من الإجازة، ولكن في القسم الثاني طُلَّابًا مُعاقَبين. خرجنا حفاة الأقدام. أكاد أتجمَّد من فرط البرودة، وربما أُصِبتُ بالزكام. أعترفُ بأنني سوف أنطلق راكضًا لو سمعتُ صفيرًا. دعونا نتسلَّق الدَّرَج برؤوس محنية، كيلا يرانا أحد من نقطة الحراسة. حقًّا؟ ندخل إلى الثكنة ببطء، بينما أخذ النَّمِر... يا لذلك الوغد، لقد قال لنا إن في الثكنة طالبَيْن محرومَيْن مِن الإجازة، لا أكثر، وإذا بعشرة أقزام يغطّون في نومهم أمامنا. إذن، فهل تهربون؟ مَن هو الطالب المقصود؟ أنت الذي تعرف أين يقع فراشه، تقدَّم المسير، لا نريد أن نضاجع الفتى الخطأ. إنه الفراش الثالث، ألا ترون كيف تنبعث منه رائحة الفتى الشهي البدين؟ تتساقط ريشات الدجاجة، ويبدو لي أنها تلفظ أنفاسها الأخيرة. هل انتهيتَ، أم ليس بعد؟ قلْ لي، هل تنتهي بهذه السرعة دائمًا، أم أنك هكذا مع الدجاج وحسب؟ انظروا إلى هذه العاهرة، أعتقد بأن الجَبَلي قد أرداها قتيلةً. أنا؟ انقطعَت أنفاسها. وانسدَّت كل ثغراتها. تكاد تتحرك، أقسمُ إنها تتظاهر بالموت. أتعتقدون بأن الحيوانات قادرة على الشعور؟ وبمَ تشعر أيها الأحمق؟ أتعتقدون بأن للحيوانات روحًا؟ أقصد، هل تستمتع بذلك، مثل النساء؟ تستمتع رِيشَة بذلك، مثل النساء. يا كوبرا، أنت تصيبني بالغثيان. يا للأشياء التي يراها المرء! اسمع، ها هي العاهرة الصغيرة تقوم. لقد راقها ذلك، وتريد المزيد، ما رأيكم؟ تسير مخمورة، تسير مخمورة. والآن، هل نلتهمها بحقّ؟ يبدو أن أحدهم سوف يحمل، لا تنسوا أن الجَبَلي قد ترك في داخلها قذيفةً ضخمة. لا أدري كيف تُقتَل الدجاجات.

اخرس، النار تقتل الميكروبات كلها. تُقتَل الدجاجات بإمساك العنق وليِّه في الهواء. أحكمْ إمساكها يا كوبرا، سوف أبدأ بنفسي، أمسكْ بها. أجل، سيدي، لقد فعلتَها، وأحسنت وضع هذه الساق. الآن ماتت بحق، بل إنها قد تمزَّقَت تمامًا، سحقًا. سحقًا، لقد تمزَّقَت تمامًا، ومن يأكلها وهي على تلك الحال، تنبعث منها رائحة الغبار والقذارة. أقسمْ لي إن النار تقتل الميكروبات. دعنا نشعل موقدًا، ولكن بالأعلى، خلف السور، فالمكان هناك أشدّ خفاء عن العيون. اصمتْ، وإلَّا مزَّقتُك أربعًا. هيًا، عليك أن تعتليه الآن، فهو الآن مُكبَّلٌ بإحكام، أيها الأحمق. لشدّ ما انطلق يركل ذلك القزم، لشدّ ما انطلق يركل، وماذا تنتظر حتى تعتلي جسده، ألا ترى أنه ينام عاريًا كما ولدَته أمه. اسمع يا كوبرا، لا تكمِّم وجهه بهذه الطريقة وإلَّا اختنق. إنه يتملَّص مني وأنا لم أحتكّ به إلَّا قليلًا، مضى يقول مَوْجَة، لا تتحرَّك وإلَّا قتلتُك، وسحقتُك، ماذا تريد أكثر من هذا وأنا أقصفك، أيها الوغد. هيا بنا نهرب فالأقزام يستيقظون، لقد قلتُ لك، اللعنة، الأقزام كلهم يستيقظون والدماء سوف تجري أنهارًا. كان ذلك الذي أضاء المصباح شجاعًا. حتى ذلك الذي صرخ وقال إنهم يضاجعون زميلنا، إلى المعركة يا فتيان، كان شجاعًا أيضًا. لقد أفسدوا عليَّ الأمر بإضاءة المصابيح، ألهذا السبب أفلتُّ فمه؟ أنقذوني يا رفقاء. لم أسمع صرخةً كهذه إلَّا حين ألقَت أمّي كرسيًّا على أخي. وأنتم أيها الأقزام، هل دعاكم أحد إلى التدخُّل؟ ما بالكم مستيقظون؟ رباه، هل طلب منكم أحد أن تضيئوا المصابيح؟ هل كان ذلك هو رقيب القسم؟ لن نسمح لكم بأن تفعلوا شيئًا كهذا للفتى، أيها المُخنَّثون. هل جُننتُ أم أنني أحلم! منذ متى يمكن أن يتحدَّث أحدهم بهذه الطريقة إلى طالب أقدم منه، انتباه! وأنت، لماذا تصرخ؟ ألا ترى أنها دعابة. انتظروا، لأنني سوف أسحق بعض

الأقزام. وظلَّ النَّمِر يضحك. أتذكَّرُ ضحكته التي دوَّت وأنا أضرب الأقزام. سوف نذهب الآن، ولكن أنصتوا جيدًا ولا تنسوا: لو فتح أحدكم فمه، لضاجعنا الثكنة بكل من فيها حقًّا. يجب على المرء ألَّا يورِّط نفسه مع الأقزام، فكلهم مُعقَّدون ولا يفهمون المزاح. هل نحني رؤوسنا مرة أخرى في أثناء النزول على الدَّرَج. أوف، مضى مَوْجَة يقول وهو يمصّ العظام، أما اللحم فلقد احترق تمام الاحتراق وعلق به شعرٌ كثيف.

٢

تهبّ ريح الفجر على لاپِرلا، فتزجّي الضبابَ نحو البحر، وتبدِّده. عندئذ تصفو أجواء مدرسة ليونسيو پرادو العسكرية وكأنها حجرة مُعبَّأة بالدخان انفتحَت نوافذها فجأة. يظهر جنديٌّ مجهول، يتثاءب عند باب المهجع، ثم يمضي إلى ثكنات الطُلّاب وهو يفرك عينَيْه. يتأرجح البوق الذي يحمله الجندي مع حركة جسده، ويتلألأ في الضوء المبهم. يصل إلى الفرقة الثالثة، ويقف وسط الفناء، على مسافة واحدة من الزوايا الأربع للبناء الذي يحيط به. مُتلفِّعًا بالزيّ العسكري الضارب إلى الخضرة الذي طمسَته آخر بقايا الضباب، يتراءى الجندي كالشبح. يزول الجمود عن الجندي ببطء، وتدبّ فيه الروح. يفرك يدَيْه، ويبصق. ثم ينفخ. تتناهى إلى سمعه أصداء البوق الذي يطلقه، وما هي إلّا ثوانٍ حتى يسمع لعنات الكلاب إذ يصبّون عليه جام الغضب الذي يثيره في نفوسهم انقضاء الليل. يتوجَّه نافخ البوق إلى ثكنات الفرقة الرابعة، ترافقه اللعنات البعيدة. يخرج بعض حراس الدورية الأخيرة إلى الأبواب، وقد أنبأهم بوق الصباح المُوجَّه إلى الكلاب بقرب وصوله: يسخرون منه، ويسبّونه، حتى إنهم يرمونه بالأحجار في بعض الأحيان. يمشي الجندي في طريقه إلى الفرقة الخامسة وقد أفاق الآن تمامًا، وصارت خطواته أكثر نبضًا بالحياة. وهناك، لا يتلقَّى ردَّ فعل، فالطُلّاب القدامى يعرفون أن

لديهم خمس عشرة دقيقة بين بوق الصباح وصفَّارة الطابور، يمكن استغلال نصفها في الفراش. يعود الجندي إلى العنبر وهو يفرك يدَيْه ويبصق. لا يخيفه سخط الكلاب، ولا المزاج السيئ لطُلَّاب الفرقة الرابعة: بل إنه يكاد لا يوليهم انتباهًا، إلَّا في أيام السبت، التي توافق التدريبات الميدانية، حين ينطلق بوق الصباح قبل الموعد المعهود بساعة. يخشى الجنودُ دوريةَ الخدمة أيام السبت، ففي الساعة الخامسة لا يزال الليل مُدلهمًّا، والطُلَّاب سكارى بالنعاس والغضب، ما يجعلهم يقصفون الجندي نافخ البوق بكل صنوف المقذوفات. ولهذا يخرق نافخُ البوق اللائحةَ في أيام السبت: ويطلق بوقَ الصباح مِن منصة العرض، بعيدًا عن الفناء، في عجالة.

في أيام السبت، لا يملك طُلَّاب الفرقة الخامسة أن يبقوا في الفراش أطول من دقيقتَيْن أو ثلاث دقائق منذ انطلاق بوق الصباح، إذ لا تبقى أمامهم إلَّا ثماني دقائق، بدلًا من خمس عشرة دقيقة، للاغتسال وارتداء الثياب وترتيب الأسِرَّة والاصطفاف. أما ذلك السبت، فكان استثنائيًّا. إذ أُعفِيَت الفرقة الخامسة من التدريبات الميدانية بمناسبة اختبار الكيمياء. وبينما يسمع الطُلَّاب القدامى بوق الصباح في السادسة، يمضي طابور الكلاب وطُلَّاب الفرقة الرابعة عَبْر باب المدرسة في طريقهم إلى الأرض القفار التي تصل بين لا پِرلا وكاياو.

*

بعد أن انطلق بوق الصباح بثوانٍ معدودة، يفكِّر ألبِرتو وهو لم يزَل مغمض العينَيْن: «اليوم يحين موعد الخروج». يقول أحدهم: «الساعة الآن السادسة إلَّا ربعًا. لا بدّ أن نرمي ذلك الملعون بالأحجار». ومرة أخرى، تغرق الثكنة في الصمت. يفتح عينَيْه: ومن خلال النوافذ يتسلَّل إلى الحجرة ضوء مبهم، رمادي. «لا بدّ أن

تسطع الشمس أيام السبت». ينفتح باب الحمام، فيرى ألبِرتو وجه العَبْد الشاحب: يبدو وكأن الأسِرَّة العلوية تبتر رأسه بينما هو يمضي في طريقه إلى الأمام. يأتي حليق الذقن، مُصفَّف الشعر. «يقوم قبل انطلاق بوق الصباح حتى يصل إلى الطابور أولًا»، يفكِّر ألبِرتو. يغمض عينَيْه. يحسّ بالعَبْد الذي يقف قرب فراشه، ويلمس كتفه. تنفرج عيناه نصف انفراجة: فيرى رأسَ العَبْد يُكلِّل جسده النحيل كالهيكل العظمي، الذي تبتلعه البيجامة الزرقاء.

- لقد تسلَّم الملازمُ غامبوا الخدمة.

- أعرف. -يجيب ألبِرتو- ما زال أمامي بعض الوقت.

- حسنًا. -يقول العَبْد- ظننتُك نائمًا.

يرسم على وجهه ابتسامةً ويمضي مبتعدًا. «يريد أن يكون صديقي»، يفكِّر ألبِرتو. يعاود إغماض عينَيْه، ويبقى مُتوتِّرًا: يتلألأ بلاط شارع دييغو فيرّيه بفعل الرطوبة. وتكتسي أرصفة شارعَي پورتا وأوتشاران بالأوراق التي تساقطَت من الأشجار في مهبِّ الريح الليلية. يسير شابٌّ أنيق في تلك الأنحاء وهو يدخِّن سيجارة تشيسترفيلد. «أقسمُ إنني سوف أذهب إلى فتيات الليل اليوم».

- سبع دقائق! -يصيح بايانو ملء صدره، وهو على أعتاب الثكنة. يعمّ الاضطراب. تُحدِث الأسِرّة الصدئة أزيزًا، وتُطلِق أبواب الخزائن صريرًا. تقرع كعوب البيادات البلاط. تتلامس الأجساد أو تتصادم، فتُصدِر أصواتًا مكتومة. ولكن الشتائم واللعنات تطغى على أي صوت سواها، كألسنة النار وسط الدخان. ينطلق وابل السباب مُتعاقِبًا من حنجرة جماعية، بَيْد أنه لا ينطلق مُصوَّبًا إلى هدف مُحدَّد: وإنما إلى أهداف مُجرَّدة، كالإله أو الضابط أو الأمّ، فيبدو أن الطُلَّاب يلجؤون إلى تلك الشتائم منجذبين إلى موسيقاها أكثر منهم إلى معانيها.

يقفز ألبِرتو من الفراش، فيلبس الجورب وينتعل البيادة التي ما زالت بلا رباط. يلعن. ينتهي من وضع الرباط في البيادة، بعد أن رتَّب أغلب الطُلَّاب أسِرَّتهم وشرعوا يرتدون ثيابهم. «أيها العَبْد!»، يصيح بايانو. «ارفعْ صوتك بالغناء مِن أجلي. يروقني أن أستمع إليك وأنا أغتسل». «أيها الحارس»، يصيح أروسبيدي. «لقد سرقوا مني رباطًا. أنت المسؤول». «سوف تُعاقَب أيها النذل». «العَبْد هو الذي فعلها»، يقول أحدهم. «أقسمُ لكم. لقد رأيتُه بنفسي». «لا بدّ من إبلاغ الرائد عنه»، يقترح بايانو. «لا نريد لصوصًا في الثكنة». «آي!»، يصرخ أحدهم بصوت رفيع. «النيغريتا الصغيرة تخاف اللصوص». «آي، آي»، يصيح عدة طُلَّاب. «آي، آي، آي»، تنطلق الثكنة كاملة في العواء. «كلكم أولاد عاهرات»، يؤكِّد بايانو. ثم يخرج صافقًا الباب خلفه. ارتدى ألبِرتو ثيابه. يهرول إلى الحمام. وأمام الحوض المجاور ينتهي النَّمِر من تصفيف شعره.

- أحتاج إلى خمسين نقطة في اختبار الكيمياء. -يقول ألبِرتو وقد امتلأ فمه بمعجون الأسنان- كَم تطلب في المقابل؟

- سوف ترسب أيها الشَّاعِر. -ينظر النَّمِر إلى صورته على صفحة المرآة، وعبثًا يحاول أن يملِّس شعره: فهو ما إن يمرِّر المشط حتى تنتصب تلك الأسلاك الشائكة الشقراء العنيدة مرة أخرى-: لم نحصل على الاختبار. لم نذهب.

- ألم تحصلوا عليه؟

- لم نحاول حتى ذلك.

تنطلق صفَّارة، فيشتدّ الطنين الهادر المنبعث من دورات المياه والثكنات، ثم يخمد فجأة، حين يتعالى صوت الملازم غامبوا آتيًا من الفناء كهزيم الرعد:

- أيها الرقباء، دوِّنوا أسماء الثلاثة الأواخر!

وإذا بالطنين يتفجَّر مرة أخرى، مكتومًا. ينطلق ألبِرتو راكضًا: فيضع فرشاة الأسنان والمشط في جيبه، ويلفّ خصره بالمنشفة، بين السترة والقميص، كما يُشَدّ الزنار. اكتمل نصف التشكيل. يرتطم بالطالب الواقف أمامه، بينما يتشبَّث به القادم من الخلف. يتعلَّق ألبِرتو بخصر بايانو، ويقفز قفزات قصيرة مُتجنِّبًا الركلات التي يسدِّدها الواصلون حديثًا في محاولةٍ لتفريق تكتُّلات الطُّلَّاب حتى يحتلّوا مواقعهم. «لا تعبث معي أيها الوغد»، يصيح بايانو. رويدًا رويدًا، يسود النظام في مُقدِّمة الصفّ، ويبدأ الرقباء في عدّ الحضور. بينما يستمرّ العنف والفوضى في آخر الطابور، ويسعى أواخر الواصلين للفوز بموقع في الصف، بين تهديدات وضربات بالمرافق. يراقب الملازمُ غامبوا التشكيل من مكانه على حافة منصة العرض. للملازم غامبوا بنيان متين، وقوام فارع. يضع القبعة مائلةً على رأسه، بجرأة. يحرِّك رأسه ببطء شديد، من جانب إلى آخر، راسمًا على وجهه ابتسامة ساخرة.

- اصمتوا! -يصيح.

يخرس الطُّلَّاب. بينما يضع الملازم يدَيْه على خصره. يُنزل يدَيْه، فتسكنان بعد أن تتأرجح كلتاهما لحظةً إلى جوار جسده. يسير في اتجاه الفوج. يتصلَّب وجهه الجاف، شديد السمرة. يمضي في أثره ضُبَّاط الصف باروا ومورتي وپيسوا، على بعد ثلاث خطوات. يتوقَّف غامبوا، وينظر إلى ساعته.

- ثلاث دقائق. -يقول. ثم يجيل عينَيْه من طرف إلى آخر، وكأنه راعٍ يتأمَّل القطيع- يصطفّ الكلاب في دقيقتَيْن ونصف!

تُزلزِل الفوجَ موجةٌ من الضحكات المكتومة. يرفع غامبوا رأسه، مقطبًا حاجبَيْه: فلا يلبث الصمت أن يعمّ من جديد.

- أقصد: طُلَّاب الفرقة الثالثة.

تنطلق موجةٌ أخرى من الضحكات، أشدّ جرأةً في هذه المرة. تظلّ وجوه الطُلَّاب مُتجهِّمة، بينما تنبثق الضحكات من البطون، وتموت على حواف الشفاه، فلا تختلج النظرات ولا القسمات. سرعان ما يرفع غامبوا يده إلى خصره: فيعمّ الصمت مرة أخرى، مُفاجِئًا كطعنة السكين. ينظر ضُبَّاط الصفّ إلى غامبوا كالمسحورين. «إنه في مزاج رائق»، يغمغم بايانو.

- أيها الرقباء. -يقول غامبوا- قدِّموا كشف حضورٍ عن كل قسم.

يشدِّد على الكلمة الأخيرة، وينطق بها مُتمهِّلًا، بينما تنسدل أجفانه قليلًا. تنطلق زفرة ارتياح من آخر الفوج. فلا يلبث غامبوا أن يقطع خطوة إلى الأمام، مخترقًا بعينَيْه صفوف الطُلَّاب الجامدين.

- ودوِّنوا أسماء الثلاثة الأواخر. -يردف.

ومن آخر الفوج ينبثق طنين في غاية الخفوت. يخترق الرقباء صفوف الأقسام ممسكين بالأوراق وأقلام الرصاص. يختلج الطنين وكأن سربًا من الحشرات يجاهد للفكاك من مصيدة مُضمَّخة بالشمع. يحدِّد ألبِرتو ضحايا القسم الأول بطرف عينه: أوريوستي، نونييس، ريبيا. يتناهى إلى سمعه صوت ثالثهم كالهمس: «مونو، أنت محروم من الإجازة شهرًا كاملًا، ما حاجتك إلى ست نقاط؟ اتركْ لي موقعك». «عشرة صولات»، يقول مونو. «لا أحمل نقودًا. إن شئت، دفعتُ إليك لاحقًا». «كلّا، الأفضل أن تضاجع نفسك».

- مَن يتكلَّم هناك؟ -يصيح الملازم، والطنين لا يزال طافيًا في الهواء، مُتلاشِيًا، مُحتضِرًا- صمتًا! صمتًا، اللعنة! -يهدر غامبوا.

يُطاع أمره. يخرج الرقباء من بين الصفوف، ويتَّخذون وضع الانتباه على بعد مترَيْن من ضبَّاط الصف، يضرب كلٌّ منهم أحد

كعبَيْه بالآخر، ويؤدِّي التحية. يسلِّمون كشف الحضور، ثم يغمغم كلٌّ منهم قائلًا: «ألتمسُ الإذن في العودة إلى التشكيل، سيدي ضابط الصفّ»، فيومئ ضابط الصفّ برأسه ويجيب: «تفضَّل». يعود الطُلَّاب كلٌّ إلى قسمه، بالخطوة السريعة. ثم يسلِّم ضُبَّاط الصفّ كشف الحضور إلى غامبوا، الذي يضرب أحد كعبَيْه بالآخر ببراعة، وهو الذي تميَّز بطريقته الخاصة في أداء التحية: إذ لا يرفع يده إلى الصدغ، وإنما إلى الجبين، حتى تكاد راحة اليد تحجب عينه اليمنى. يتأمَّل الطُلَّاب تسليم كشف الحضور وقد تيبَّسوا في أمكنتهم. تتأرجح الأوراق في يدَي غامبوا كمروحة اليد. لماذا لا يُصدِر أمره بالتقدُّم؟ تختلس عيناه النظر إلى الفوج لاهيتَيْن. ثم يبتسم فجأة.

- ست نقاط، أم زاوية قائمة؟ -يسأل.

وإذا بموجة من التصفيق تنطلق. بينما يصيح بعضهم: «يعيش غامبوا».

- هل فقدتُ عقلي، أم أن أحدهم يتكلَّم في الطابور؟ -يسأل الملازم، فيخرس الطُلَّاب. يتمشَّى غامبوا أمام الرقباء، ويداه على خصره.

- فليحضر الثلاثة الأواخر مِن كل صفٍّ إلى هنا. -يصيح- بسرعة. وبترتيب الأقسام.

يترك أوريوستي ونونييس وريبيا مواقعهم راكضين. وعند مرورهم، يقول لهم بايانو: «مِن حسن حظكم أن غامبوا هو الذي تسلَّم دورية الخدمة، أيها المُخنَّثون». يتَّخذ الطُلَّاب الثلاثة وضعَ الانتباه أمام الملازم.

- كما تفضِّلون. -يقول غامبوا- إما زاوية قائمة وإما ست نقاط. لكم حرية الاختيار.

يجيب ثلاثتهم: «زاوية قائمة»، فيومئ الملازم برأسه، ويهزّ كتفَيْه. «أعرفكم كما تعرفكم أمّهاتكم»، تهمس شفتاه، بينما يبتسم نونييس وأوريوستي وريبيا في امتنان. يُصدِر غامبوا أمره:

- وضع الزاوية القائمة.

تنطوي الأجساد الثلاثة على نفسها كما تنثني مفصلات الأبواب، حتى يغدو النصف العلوي من كل جسد موازيًا للأرض. يراقبهم غامبوا، ويخفض رأسَ ريبيا بمرفقه قليلًا.

- ليغطِّ كلٌّ منكم خصيتَيْه. -يصدر تعليماته- بكلتا يدَيْه.

ثم يشير إلى ضابط الصفّ پيسوا، ذلك الهجين، مفتول العضلات، ضئيل القوام، صاحب الفكّ الضخم الخليق بآكلات اللحوم. برع پيسوا في كرة القدم، وتميَّز بتسديد ركلات في منتهى العنف. يقف پيسوا على مسافة، ثم يميل قليلًا: وإذا بومضة تنطلق من الأرض لتصيب مُؤخِّرة ريبيا، الذي تندّ عنه آهةٌ. يشير غامبوا إلى الطالب حتى يعود إلى موقعه.

- ها! -يقول- لقد ضعفتَ يا پيسوا. لم تزعزعه من مكانه خطوةً واحدة.

يمتقع ضابط الصفّ، مُحدِّقًا بعينَيْه المائلتَيْن إلى نونييس. وفي هذه المرة يسدِّد ركلته بزخم، بطرف البيادة، فينطلق الطالب صارخًا كالقذيفة. يتعثَّر لمسافة مترَيْن تقريبًا، ثم ينكفئ على وجهه. يفتِّش پيسوا بلهفة عن وجه غامبوا، الذي يبتسم، كما يبتسم الطُّلَّاب. حتى نونييس، الذي يقوم وهو يحكّ مُؤخِّرته بكلتا يدَيْه، يبتسم. يتأهَّب پيسوا للركل مُجدَّدًا. أوريوستي أقوى طالب في القسم الأول، وربما كان الأقوى في المدرسة بأسرها. يفتح ساقَيْه قليلًا حتى يحافظ على توازنه بشكل أفضل. لا تكاد الركلة تزعزعه من مكانه.

- القسم الثاني. -يطلق غامبوا أمره- الثلاثة الأواخر.

يتقدَّم الأواخر مِن باقي الأقسام تباعًا، دفعةً تلو أخرى. أما أواخر الأقسام الثامن والتاسع والعاشر، قصار القامة، فترسلهم ركلات ضُبَّاط الصفّ إلى منصة العرض وهم يتدحرجون أرضًا. لا ينسى غامبوا أن يسأل أيًّا منهم إن كان يفضِّل الزاوية القائمة أم الست نقاط، ويقول لكل طالب: «لك حرية الاختيار».

يولِّي ألبِرتو انتباهه إلى الزوايا القائمة الأولى. ثم يحاول أن يتذكَّر دروس الكيمياء الأخيرة. تسبح في ذاكرته بعض المعادلات المُشوَّشة، وبعض الأسماء المُبعثَرة. «هل استذكر بايانو دروسه؟». يقف النَّمِر إلى جواره، بعد أن احتلّ موقع طالب آخر. «يا نَمِر»، يهمس ألبِرتو. «أعطِني ولو عشرين نقطة. كَم تطلب في المقابل؟». «هل أنت أحمق؟»، يجيب النَّمِر. «قلتُ لك إننا لم نحصل على الاختبار. لا تأتِ على ذكر المسألة مرة أخرى. لمصلحتك».

- اصطفّوا بترتيب الأقسام. -يطلق غامبوا أمره.

*

يتفكَّك التشكيل والطُلَّاب في طريقهم إلى داخل قاعة الطعام. يخلعون قبعاتهم وهم يتكلَّمون صياحًا بينما يتَّجه كلٌّ إلى موقعه. تتَّسع كل مائدة لعشرة أفراد. يتصدَّر طُلَّاب الفرقة الخامسة المكان. وحين يدخل طُلَّاب الفرق الثلاثة، يُطلِق الرائد الذي تسلَّم الخدمة الصفير الأول، فيلزم الطُلَّاب مواقعهم وقوفًا أمام المقاعد في وضع الثبات. ينطلق الصفير الثاني، فيجلسون. في أوقات الطعام، تغمر مُكبِّرات الصوت تلك القاعة الهائلة إما بالمارشات العسكرية وإما بالموسيقى البيروفية، من قبيل الفالس والمارينيرا الساحلية وموسيقى الأواينو الجَبَلية. أما وجبات الفطور، فلا يُسمَع خلالها إلَّا صوت الطُلَّاب، تلك الفوضى التي لا تنتهي.

«أقولُ إن الأمور تتبدَّل، وإلَّا، سيدي الكاديت[1]، هل تأكل هذه الشريحة مِن اللحم كاملةً، اتركْ لنا ولو نتفةً، ولو نسيلة، سيدي الكاديت. أقول إنهم يعانون معنا. اسمع يا ألبِرتو فِرنانديس، لماذا تقدِّم إليَّ أقل القليل من الأرز، وأقل القليل من اللحم، وأقل القليل من الجيلاتين، اسمع، لا تبصق في الطعام، اسمع، هل ترى وجهي اللعين، أيها الكلب لا تعبث معي. أقول إنه لو سال ريق كلابي في الحساء، لأرغمناهم أنا وأروسپيدي على أن يمشوا مشية البطة، وهم عراة، حتى تنقطع أنفاسهم من فرط الإعياء. إنهم كلاب مُهذَّبون، أقول، سيدي الكاديت، أتريد المزيد مِن اللحم، مَن يرتِّب فراشي اليوم، أنا سيدي الكاديت، مَن يدعوني إلى سيجارة اليوم، أنا سيدي الكاديت، مَن يدعوني إلى إنكا كولا في لاپِرليتا، أنا سيدي الكاديت، من يلحس ريقي، أقول، مَن...».

يدخل طُلَّاب الفرقة الخامسة ويجلسون في مقاعدهم. ما زالت ثلاثة أرباع الموائد خالية، ولذا تبدو قاعة الطعام أكثر اتساعًا. يشغل أفراد القسم الأول ثلاث موائد. ومن خلال النوافذ تُرَى الأرضُ الخلاء برَّاقةً، والفِكّونة جامدة فوق الحشائش، بأذنَيْها المنتصبتَيْن، وعينَيْها الواسعتَيْن الرطبتَيْن الشاردتَيْن في الخواء.

«تحسب أنني لم أرَك، ولكنني قد رأيتُك تضرب بمرفقك كما يضرب الرجال حتى تجلس إلى جواري. تحسب غير ذلك، ولكن عندما قال بايانو مَن يقدِّم الطعام صاحوا جميعًا: العَبْد. وقلتُ لهم

---

(١) كاديت: رتبة الطالب في المدرسة العسكرية، وهي أولى الرُّتَب العسكرية وأدناها منزلةً. ولقد راوحنا بين «كاديت» و«طالب» في ترجمة المصطلح بما يلائم السياق، مع مراعاة استخدام «كاديت» في حالة ضمير المُخاطَب في أغلب الأحوال.

لماذا لا تقدِّمه أمّهاتكم، لماذا، فانطلقوا يصيحون آي، آي، آي، ورأيتُك تخفض يدك حتى كدتَ تلامس ركبتي».

ما زالت ثمانية أصوات رفيعة تُطلِق الآهات الأنثوية. تستبدّ الحماسة ببعض الطُلّاب، فيجعل كلٌّ منهم أصابعه على شكل ثقبٍ، بضمِّ السبابة إلى الإبهام، ويقرِّبون تلك الثقوب من ألبِرتو. «أنا؟ أتقولون عني إنني مُخنَّث؟»، يسأل ألبِرتو. «وماذا لو أنزلتُ سروالي أمامكم؟». «آي، آي، آي». يقف العَبْد، ويملأ الأكواب. فتتوعَّده الجوقة: «لو قدَّمتَ إلينا قدرًا قليلًا من الحليب لأخصيناك». يلتفت ألبِرتو إلى بايانو:

- يا نيغرو، أتعرف شيئًا عن الكيمياء؟

- كلّا.

- هلَّا لقَّنتني الإجابات؟ كَم تطلب في المقابل؟

يتلفَّت بايانو حوله، مُلقِيًا نظرة ارتياب بعينَيْه الجاحظتَيْن الوثَّابتَيْن. يخفض صوته قائلًا:

- خمس رسائل.

- وماذا عن أمّك؟ -يسأل ألبِرتو- كيف حالها؟

- بخير. -يقول بايانو- إن كان هذا يناسبك، فأخبرني.

يجلس العَبْد. تمتدّ إحدى يدَيْه إلى الخبز، فيصفع أروسپيدي يده: يسقط الخبز على المائدة، ومنها إلى الأرض. ينحني أروسپيدي حتى يلتقط الخبز وقد انفجر ضاحكًا. وإذا بالضحك ينقطع. يطلّ وجهه مرة أخرى وقد ارتسمَت عليه أمارات الجدية. ينهض، وإذا به يمدّ ذراعه، ويحكم قبضته حول عنق بايانو. «وحدهم الأغبياء لا يميِّزون الألوان في مثل هذا الضوء الساطع. أو أصحاب الحظّ التعيس، حظّ الكلاب. حتى يسرق المرء، فلا بدّ له أن يتحلَّى بالذكاء، وإن لم يسرق أكثر من رباط، أو قطعة من الوسخ. ماذا

يحدث الآن لو سحقك أروسپيدي ضربًا برأسه، الأسود والأبيض، ماذا يحدث». «لم أنتبه إلى لون الرباط الأسود»، يقول بايانو وهو ينتزع رباط البيادة، فيتلقَّاه أروسپيدي، وقد هدأ. «إن لم تعطِني الرباط، لطحنتُ عظامك يا نيغرو»، يقول. تنفجر الجوقة بأصوات حادّة ناعمة، موزونة: «آي، آي، آي». «كلام فارغ»، يقول بايانو. «أقسم إنني سوف أفرغ خزانتك من محتوياتها قبل أن ينتهي العام. والآن، أحتاج إلى رباط. كابا، بِعني رباطًا، فأنت مُهرِّب. أنت، ألا ترى أنني أتحدَّث إليك؟ ماذا دهاك أيها المقمل؟». يرفع كابا عينَيْه بحدّة عن الكوب الخاوي ناظرًا إلى بايانو وقد استحوذ عليه الرعب. «ماذا؟»، يسأل. «ماذا؟». يميل ألبِرتو إلى العَبْد سائلًا:

- هل أنت مُتأكِّد أنك قد رأيتَ كابا ليلة أمس؟

- نعم. -يقول العَبْد- مِن المُؤكَّد أنه هو الذي رأيتُه.

- الأفضل ألّا تخبر أحدًا بأنك قد رأيتَه. لقد وقع شيء ما. يقول النَّمِر إنهم لم يحصلوا على الاختبار. ولكن، انظرْ إلى وجه كابا الجَبَلي.

يسمعون صوت الصفير، فيهبّ جميع الطُلّاب وقوفًا، ويخرجون مهرولين إلى الأرض الخلاء، حيث ينتظرهم غامبوا عاقدًا ذراعَيْه على صدره، والصفَّارة في فمه. وأمام ذلك الاجتياح، تنطلق الفِكّونة مذعورةً. «سأقول لها، ألا ترين أنني قد رسبتُ في اختبار الكيمياء من أجلك؟ ألا ترين أنني قد مرضتُ من أجلك، يا ذات القدمَيْن الذهبيتَيْن، ألا ترين؟ إليك العشرين صولًا التي أقرضني العَبْدُ إياها، وإن شئت كتبتُ الرسائل من أجلك، ولكن لا تسيئي معاملتي، لا تخيفيني، لا تتركيني أرسب في اختبار الكيمياء، ألا ترين أن النَّمِر لا يريد أن يبيعني ولو نقطة واحدة، ألا ترين أنني أشدّ فقرًا من رِيشَة». مرة أخرى، يعدّ الرقباء الحضور، ويقدِّمون كشف حضور إلى ضُبَّاط

الصف، الذين يقدِّمونه بدورهم إلى الملازم غامبوا. بدأ يتساقط رذاذ في غاية الخفّة. يلمس ألبِرتو ساق بايانو بقدمه، فينظر إليه الآخر بطرف عينه.

- ثلاث رسائل، يا نيغرو.

- أربع رسائل.

- حسنًا، أربع رسائل.

يومئ بايانو وهو يمسح شفتَيْه بلسانه مُفتِّشًا عن فتات الخبز الأخيرة.

*

يقع فصل القسم الأول في الطابق الثاني من البناء الجديد -الذي بهت وتلطَّخ بفعل الرطوبة-، ذلك البناء المسقوف الكبير، القريب من قاعة العرض، الذي يضمّ دِككًا ريفية، هناك حيث تُعرَض الأفلام للطُّلَّاب مرة واحدة كل أسبوع. تحت قطرات الرذاذ، تحوَّلَت منصة العرض إلى مرآة بلا قرار. تسير البيادات فوق السطح البرَّاق، فتعلو وتهبط على إيقاع الصفَّارة. وعندما يصل التشكيل إلى الدَّرَج، تغدو المسيرة ركضًا. تنزلق البيادات على الأرض، وينطلق ضبَّاط الصفّ لاعنين. لو نظر أحدُهم من الفصول لرأى الفناء الإسمنتي قائمًا على أحد الجانبَيْن، هناك حيث كان طُلَّاب الفرقة الرابعة وكلاب الفرقة الثالثة، في مثل هذا الموعد من أي يوم آخر يصطفّون مُتَّجهين إلى أجنحتهم، تحت وابل من البصاق والمقذوفات التي يطلقها عليهم طُلَّاب الفرقة الخامسة. ذات مرة، ألقى بايانو النيغرو قطعةً من الخشب، فإذا بصرخةٍ تدوّي، وكلب يقطع الفناء كالصاعقة مُغطِّيًا أذنه بكلتا يدَيْه: سال خيطٌ من الدم بين أصابعه، فتشبَّعَت به السترة حتى ظهرَت عليها بقعة داكنة. تقرَّر عقاب القسم بالحرمان مِن الإجازة أسبوعَيْن، ولكن الفاعل لم يُكتشَف قطّ. وفي أول إجازة بعد

انتهاء العقاب، أحضر بايانو علبتَي سجائر لكل فردٍ من طُلّاب القسم الثلاثين. «هذا كثير، اللعنة»، قال النيغرو مُحتَجًّا. «تكفي علبة واحدة لكل رأس». فحذَّره النَّمِر وأتباعه: «إما علبتان، وإما انعقدَت الحَلْقَة».

- عشرون نقطة فحسب. -يقول بايانو- لن أزيد عليها نقطة واحدة. ولن أجازف برأسي من أجل بضع رسائل.

- كلّا. -يجيبه ألبِرتو- ثلاثون نقطة على الأقل. كما أنني سوف أشير بإصبعي إلى الأسئلة. ولن تملي عليَّ الأجوبة. بل يجب عليك أن تريني ورقتك.

- سوف أملي عليك الأجوبة.

تتراصّ مكاتب الطُلّاب اثنين اثنين. يجلس ألبِرتو وبايانو في الصفّ الأخير، وأمامهما كوبرا وكابا، بظهرَيْهما العريضَيْن، وكأنهما ساتران يحجبان عنهما أنظار المراقب.

- كما فعلتَ في المرة السابقة؟ حين تعمَّدتَ أن تملي عليَّ الأجوبة الخاطئة.

يضحك بايانو.

- أربع رسائل. -يقول- كل رسالة مِن صفحتَيْن.

يظهر ضابط الصفّ پيسوا عند الباب مُمسِكًا برزمة أوراق الاختبارات. ينظر إليهم بعينَيْه الدقيقتَيْن الخبيثتَيْن. بين حين وآخر، يبلِّل طرف شاربه الرفيع بلسانه.

- مَن أخرج كتابًا أو نظر إلى زميل، أُلغِي اختباره. -يقول- وخُصِمَت منه ست نقاط أيضًا. أيها الرقيب، وزِّع الاختبارات.

- جرذ!

ينتفض ضابط الصفّ وقد تضرَّج وجهه. تبدو عيناه كالندبتَيْن. وتعتصر يده الصبيانية قميصه.

- الاتفاق لاغٍ. -يقول ألبِرتو- لم أعرف أن الجرذ هو المراقب. في هذه الحالة، أفضِّلُ النقل من الكتاب مباشرةً.

يوزِّع أروسپيدي أوراق الاختبار. بينما ينظر ضابط الصفّ إلى ساعته.

- الساعة الآن الثامنة. -يقول- أمامكم أربعون دقيقة.

- جرذ!

- ليس بينكم رجل واحد! -يزمجر پيسوا- أريد أن أرى وجه ذلك الشجاع الذي يقول: جرذ.

تدبّ الحياة في المكاتب، فيرتفع كلٌّ منها بضعة سنتيمترات ثم يسقط أرضًا، بحركات فوضوية في أول الأمر، ثم بحركات متناغمة، بينما تردِّد الأصوات: «جرذ، جرذ».

- اصمتوا أيها الجبناء! -يصيح ضابط الصفّ.

وعلى باب الفصل يظهر الملازم غامبوا ومعه مُعلِّم الكيمياء، ذلك الرجل النحيف الهيَّاب. إلى جوار غامبوا، الرياضي، فارع القوام، يتراءى مُعلِّم الكيمياء تافهًا بثيابه المدنية التي تبدو أوسع كثيرًا مما يلائم جسده.

- پيسوا، ماذا يجري؟

يؤدِّي ضابط الصفّ التحية.

- يحسبون أنفسهم ظرفاء، سيدي الملازم.

يخيِّم الجمود على كل شيء. ويسود صمتٌ مطبق.

- آه، حقًّا؟ -يقول غامبوا- پيسوا، اذهب أنت إلى القسم الثاني. وسوف أعتني بأولئك الفتيان بنفسي.

يؤدِّي پيسوا التحية مرة أخرى، ثم ينصرف. يمضي مُعلِّم الكيمياء في أثره. يبدو مذعورًا وسط كل هذه الثياب العسكرية.

- بايانو. -يهمس ألبِرتو- الاتفاقُ سارٍ.

يهزّ النيغرو رأسه من دون أن ينظر إليه، ويمرِّر إحدى أصابعه على عنقه كالمقصلة. ينتهي الرقيب أروسپيدي من توزيع أوراق الاختبار. يميل الطُلَّاب برؤوسهم إليها. «حاصل جمع خمسة عشر وخمسة، وثلاثة، وخمسة، فراغ، وثلاثة، فراغ، سحقًا، فراغ، وثلاثة، كلّا، فراغ، إذن فالناتج... كَم؟ واحد وثلاثون. وكأنه يقف في حلق المرء. ليته يغادر في منتصف الاختبار، ليته يتلقّى استدعاء، عسى أن تقع حادثة فيُضطَرّ إلى الخروج مهرولًا، يا ذات القدمَيْن الذهبيتَيْن». يجيب ألبِرتو عن الأسئلة، ببطء، بخطٍّ مطبعي. يتعالى صوت كعبَي غامبوا على البلاط. وكلَّما رفع أحد الطُلَّاب عينَيْه عن الاختبار، وجد عينَي الملازم الهازئتَيْن، وسمع صوته يقول:

- أتريد مني أن ألقِّنك الأجوبة؟ أخفضْ رأسك. لا أحد ينظر إليَّ سوى زوجتي وخادمتي.

ينتهي ألبِرتو من الإجابة عن النقاط التي يعرفها، فينظر إلى بايانو: ينهمك النيغرو في الكتابة بأقصى سرعة، وهو يعضّ لسانه. يستكشف الفصلَ بحذرٍ لامتناهٍ. يمرِّر بعض الطُلَّاب أقلامهم في الهواء، على ارتفاع ميليمترات من الورق، مُتظاهرين بالكتابة. يعاود قراءة أسئلة الاختبار، ويجيب عن سؤالَيْن آخرَيْن، مُخمِّنًا الإجابة على نحو مبهم. ينطلق صوتٌ آتٍ من بعيد، مِن جوف الأرض. بينما يتحرَّك الطُلَّاب في مقاعدهم وهم لا يهدأ لهم بال. تشتدّ الأجواء كثافةً. بينما يطفو شيء خفيٌّ فوق الرؤوس المائلة، مادة فاترة عصية على الإمساك، ضباب، إحساس هوائي، ندى. كيف يملك المرء الفكاك من ذلك الحضور، من رقابة الملازم، ولو لبضع ثوانٍ؟

يضحك غامبوا. يتوقَّف عن السير، ويقف وسط الفصل، عاقدًا ذراعَيْه، فتبرز عضلات جسده تحت قميصٍ بلون القشدة، بينما

تكشف عيناه الطُلّاب جميعًا بنظرة واحدة، كما هو شأنه في التدريبات الميدانية، حين يُطلِق كتيبته وسط الوحل، ويرغم أفرادها على الزحف وسط الحشائش والأحجار بمُجرَّد حركة من يده، أو صفير قاطع: لطالما افتخر الطُلّاب تحت إمرته كلَّما وقعَت أبصارهم على ضُبَّاط الكتائب الأخرى وطُلّابها وهم يتميَّزون من الغيظ بعد أن تجرَّعوا هزيمةً نكراء، أو وقعوا تحت الحصار، أو سقطوا في كمين. يشير غامبوا بإصبعه إلى ساترٍ عالٍ من الآجر، بينما تلتمع خوذته في الصباح. وبهدوء، من دون أن يهاب العدو الخفي الذي يحتلّ القمم والتلال المجاورة، ويحتلّ حتى لسان الشاطئ المُترامِي تحت الأجراف، يصيح غامبوا قائلًا: «أيتها الطيور، اعبري الساتر!»، وإذا بطُلّاب الكتيبة الأولى ينطلقون كالشهب، وقد جرَّدوا حراب البنادق من أغمادها، وصوَّبوها إلى السماء، بقلوبٍ تملؤها شجاعةٌ لا يحدّها شيء، فيعبرون البِرَك الضحلة ويضربون الحقول بأقدامهم في ضراوة -آه لو كانت تلك رؤوس التشيليين أو الإكوادوريين، آه لو تناثرَت دماؤهم تحت نعال البيادات، آه لو لقي الأعداء حتفهم!- ثم يصل الطُلّاب إلى قاعدة الساتر وهم يتصبَّبون عرقًا، ويطلقون اللعنات، فيعلِّقون البنادق على ظهورهم بالأحزمة، ويمدّون أيديهم المُتورِّمة، وينشبون أظافرهم في الشقوق، ويتعلَّقون بالجدار، ويزحفون إلى أعلى، بعيون شاخصة إلى الحافة التي تقترب، يقفزون، فتنكمش أجسادهم في الهواء، ويسقطون أرضًا، لا يسمعون سوى الشتائم التي يطلقونها وصوت جريان الدماء المُتفجِّرة المُتلهِّفة لشقّ طريقها إلى الضوء عَبْر الأصداغ والصدور. ولكن ها هو ذا غامبوا في الطليعة، بجسده الذي لم يكَد يُصاب بخدش واحد، فوق صخرة شاهقة، حيث يتشمَّم الرياح البحرية، ويُجرِي حساباته. يراقبه الطُلّاب وقد أقعوا في جلوسهم أو مدَّدوا أجسادهم على الأرض:

وإذا الحياة والموت رهنٌ بشفتَيْه. يصوِّب نظرته الغاضبة إليهم فجأة، لأن الطيور قد انمسخَت وباتت يرقات. «تفرَّقوا، فأنتم مُكَدَّسون كالعناكب!». تنهض اليرقات، وتنتشر. أما ثياب التدريبات الميدانية العتيقة، المرفوة ألف مرة، فتنتفخ في مهبِّ الريح، بينما تتراءى الرُّقَع ومواضع الرتق كالقشور والجروح. ومرة أخرى، يخوضون الوحل ويختلطون بالحشائش، ولكن العيون ما زالت شاخصة إلى غامبوا، مُتوسِّلة، وادعة، كما تعلَّقَت به العيون في تلك الليلة البغيضة، ليلةَ قضى الملازمُ على الحَلْقَة.

كانت الحَلْقَة قد وُلِدَت مع بداية حياتهم طُلَّابًا في المدرسة العسكرية، بعد تخلّيهم عن الثياب المدنية بثمان وأربعين ساعة، بعد أن تساوَت رؤوسهم بآلات حلّاقي المدرسة التي تركَت شعرهم شديد القِصَر، بعد أن ارتدوا الثياب العسكرية ذات اللون الكاكي التي كانت حديثة العهد آنذاك، واصطفّوا في الإستاد لأول مرة مُلبِّين صوت الصفير ونداء الأصوات الرصاصية. كان ذلك آخر أيام الصيف، حين تلبَّدَت سماء ليما بالغيوم بعد أن توهَّجَت ثلاثة أشهر فوق الشطآن كما يتوهَّج الجمر، حتى تستغرق في سبات رمادي طويل. جاؤوا من أركان بيرو كلها. لم يسبق لهم اللقاء، والآن صاروا يشكِّلون كتلةً مُحكَمة، مُصطفَّةً أمام الأبنية الإسمنتية التي لا يعرفونها من الداخل. أعلن لهم صوت الرائد غارّيدو أن حياتهم المدنية قد انتهَت لثلاثة أعوام، وأنهم سوف يصبحون رجالًا في هذا المكان، وأن الروح العسكرية تتألَّف من ثلاثة عناصر بسيطة: الطاعة، والعمل، والشجاعة.

أما الحَلْقَة، فلقد تشكَّلَت في وقتٍ لاحق، بانتهاء أول غداء لهم في المدرسة، بعد أن تحرَّروا من مراقبة الضُبَّاط وضُبَّاط الصفّ

أخيرًا، حين خرجوا من قاعة الطعام واختلطوا بطُلَّاب الفرقتَيْن الرابعة والخامسة، الذين مضوا يرمقونهم بنظرات ارتياب لم يخلُ من الفضول، بل ومن اللطف أيضًا.

كان العُبْد وحيدًا. وبينما هو ينزل دَرَج قاعة الطعام، ماضيًا في طريقه إلى الأرض الخلاء، أمسكَت كلّابتان بذراعه، وهمس صوتٌ في سمعه قائلًا: «تعالَ معنا، أيها الكلب»، فابتسم وتبعهم في وداعة. ومِن حوله، كان كثيرٌ من الزملاء الذين تعرَّف بهم صبيحة ذلك اليوم قد أُمسِك بهم واقتيدوا هم أيضًا إلى ثكنات الفرقة الرابعة عَبْر الحقل المفروش بالحشائش. لم يتلقَّ الطُّلَّابُ دروسًا يومذاك. وهكذا ظلَّ الكلابُ بين أيدي طُلَّاب الفرقة الرابعة بين الغداء والعشاء، قرابة ثماني ساعات. لا يذكر العَبْد إلى أي قسم اقتيد، ولا مَن الذي ساقه إلى هناك. ولكن الثكنة كانت مُعبَّأةً بالدخان والثياب العسكرية، حافلةً بالضحكات والصيحات. ما كاد يتجاوز الباب، والابتسامة لا تزال على شفتَيْه، حتى أحسّ بضربة تنهال على ظهره. سقط، وتدحرج، ثم استقرّ مُمدَّدًا على بطنه. حاول النهوض، فلم يستطِع: لأن قدمًا قد استقرَّت فوق معدته. وكانت عشرة وجوه لامبالية تحجب السقف عن عينَيْه، وتتأمَّله كالحشرة. قال له أحد الأصوات:

- في البدء، غنِّ لنا «أنا كلب» مئة مرة، على إيقاع موسيقى الكوريدو المكسيكية.

لم يستطِع. كان في ذهول من أمره، وكادَت عيناه تخرجان من محجرَيْهما، والتهبَت حنجرته. ضغطَت القدم على معدته ضغطًا خفيفًا.

- لا يريد. -قال الصوت- الكلب لا يريد أن يغنِّي.

وإذا بالوجوه تفتح أفواهها وتبصق عليه، لا مرة واحدة، بل مرات كثيرة، حتى اضطُرّ إلى إغماض عينَيْه. وعندما انقطع وابل البصاق، كرَّر الصوتُ المجهول، ذلك الصوت الذي يدور كالمسمار:

- غنِّ لنا «أنا كلب» مئة مرة، على إيقاع موسيقى الكوريدو المكسيكية.

في هذه المرة أذعن للأمر. وبصوتٍ أجشّ، انطلقَت حنجرته تغنّي العبارة التي أُمِر بغنائها على موسيقى أغنية «هناك في المزرعة الكبيرة». وجد صعوبة في ذلك: فما إن تجرَّد اللحن من الكلمات الأصلية حتى صار أشبه بالصراخ الحاد. لم يبدُ عليهم أنهم يكترثون لذلك، فمضوا ينصتون إليه بانتباه.

- كفى. -قال الصوت- والآن، غنِّها على إيقاع موسيقى البوليرو.

بعد ذلك أُمِر بغنائها على إيقاع المامبو والفالس الكريولي. ثم صدر إليه أمرٌ آخر:

- قف.

وقف على قدمَيْه وهو يمسح وجهه بيده، وينفض مُؤخِّرته. فسأله الصوت:

- هل أمرك أحد بأن تنظِّف وجهك؟ كلّا، لم يأمرك أحد بذلك.

انفرجَت الأفواه من جديد، فأغمض عينَيْه تلقائيًّا، وظلَّ مُغمض العينَيْن حتى انقطع البصاق. ثم قال له الصوت:

- أيها الكلب، إن هذين الواقفَيْن إلى جوارك طالبان. قفْ في وضع الثبات. هكذا، أحسنت. لقد تراهن هذان الطالبان، وستكون أنت القاضي الذي يحكم بينهما.

ضربه الطالب الواقف إلى اليمين أولًا، فأحسّ العَبْد بنار تسري في ساعده. وما لبث الطالب الواقف إلى اليسار أن ضربه أيضًا.

- حسنًا. -قال الصوت- أيهما ضرب بقوة أكبر؟

- الأيسر.

- أوه، حقًّا؟ -أجاب صوتٌ مختلف- إذن، فأنا مُجرَّد وغد بائس؟ دعنا نرَ إذن، هيا نجرِّب من جديد، انتبه جيدًا.

ترنَّح العَبْد تحت وطأة الصدمة، غير أنه لم يسقط: إذ احتوَته أيدي الطُلَّاب المحيطين به، وردّوه إلى مكانه.

- والآن، ما رأيك؟ أيهما يضرِب بقوة أكبر؟

- كلاهما يضرب بالقوة نفسها.

- تقصد أنه تعادل. -أوضح الصوت- إذن، فلا بدّ مِن الاستمرار حتى يتفوّق أحد الخصمَيْن على الآخر.

وما هي إلَّا لحظة حتى سأل الصوت الذي لا يكلّ:

- بالمناسبة، أيها الكلب، أتؤلمك ذراعاك؟

- كلّا. -قال العَبْد.

قالها صادقًا، وهو الذي فقد الإحساس بالجسد والزمن. أما روحه، فمضَت ترنو مخمورةً إلى البحر الخالي من الأمواج في پويرتو إتين، مصغيةً إلى صوت أمّه وهي تقول له: «احترس من أسماك الرقيطة يا ريكارديتو»، وتمدّ إليه ذراعَيْها الطويلتَيْن الحاميتَيْن، تحت شمسٍ لا تلين.

- كاذب. -قال الصوت- ما دمتَ لا تتألَّم، فلماذا تبكي، أيها الكلب؟

قال في نفسه: «لقد انتهوا مني». ولكنهم قد بدؤوا من فورهم.

- أكلب أنت أم بشر؟ -سأل الصوت.

- كلب، سيدي الكاديت.

- إذن، فماذا تفعل واقفًا على قدمَيْك؟ الكلاب تمشي على أربع.

أحنى رأسه، ولكنه ما إن وضع يدَيْه على الأرض حتى سرَت في ذراعَيْه نارٌ مُتَّقِدة. التقَت عيناه فتى آخر إلى جواره، يمشي على أربع هو أيضًا.

- حسنًا. -قال الصوت- عندما يلتقي كلبان في الشارع، فماذا يفعلان؟ أجِبني، أيها الكاديت. أتحدَّث إليك.

تلقَّى العَبْد ركلة في مُؤخِّرته، فسارع بالردّ:

- لا أدري، سيدي الكاديت.

- يتعاركان. -قال الصوت- ينبحان. ينقضّ كلٌّ منهما على الآخر وينهشه.

لا يتذكَّر العَبْدُ وجه الفتى الذي نال المعموديَّة[1] معه. لا بدّ أنه كان مِن الأقسام الأخيرة، نظرًا إلى قِصَر قامته. تراءى وجهه مُشوَّهًا تحت وطأة الخوف. ما كاد يسكت الصوت حتى انقضّ عليه الفتى الآخر نابحًا، والزبد يسيل من فمه. وفجأة، أحسّ العَبْد في كتفه بعضّةِ كلبٍ مسعور. عندئذ تفاعل جسده كاملًا. وبينما انطلق ينبح ويعضّ، حدَّثه يقينٌ بأن بشرته قد اكتسَت بالفراء الكثيف، وبأن فمه قد استحال خطمًا مُدبَّبًا، وبأن ذيله صار يضرب كالسوط فوق ظهره.

- كفى. -قال الصوت- أنت الفائز. ولكن هذا القزم قد

---

(١) المعمودية أو التعميد: أول أسرار الكنيسة ومن أهم طقوس المسيحية، وبها ينضمّ المؤمن إلى الكنيسة ويبدأ حياة الإيمان. وتُستخدَم الكلمة في هذا السياق مجازًا، وكأنها «مراسم استقبال» تُقام على شرف الطُلَّاب المُستجَدّين. ولقد رُوعِي نقل الكلمة كما جاءت في الأصل بكل ما تحمله من دلالات دينية وثقافية.

خدعنا، فهو ليس كلبًا، وإنما كلبة. أتعرفان ماذا يحدث عندما يتلاقى في الشارع كلبٌ وكلبةٌ؟

- كلّا، سيدي الكاديت. -قال العَبْد.

- يلحس كلٌّ منهما الآخر. يتشمَّمان بعضهما بعضًا بلطفٍ في أول الأمر، ثم يلحس كلٌّ منهما الآخر.

بعد ذلك مضوا به إلى خارج الثكنة، واقتادوه إلى الإستاد. لا يذكر إن كان الوقتُ لا يزال نهارًا أم أن الليل قد أقبل آنذاك. وهناك، جرَّدوه من ثيابه، وأمره الصوت أن يسبح على ظهره، فوق مضمار السباق، حول ملعب كرة القدم. ثم رجعوا به إلى واحدة من ثكنات الفرقة الرابعة، حيث رتَّب أسِرَّة كثيرة، وغنَّى، ورقص فوق إحدى خزائن الثياب، وقلَّد مُمثِّلي سينما، ولمَّع بيادات كثيرة، وكنس بلاطةً بلسانه، وضاجع الوسادة، وشرب البول، وإن كان الأمر برمّته دوارًا محمومًا. وإذا به يظهر فجأةً في القسم الذي ينتمي إليه، ويجد نفسه مستلقيًا على فراشه، مُفكِّرًا: «أقسمُ إنني سوف أهرب. غدًا قَبل بعد غد». ران على الثكنة صمتٌ. بينما راح الفتيان ينظرون بعضهم إلى بعض. ومع أنهم قد ضُرِبوا، وبُصِق عليهم، وتلوَّثَت أجسادهم، التي تبوَّل عليها الآخرون، فلقد أظهروا رصانة، وروحًا مراسمية. وفي الليلة نفسها، بعد أن انطلق بوق الصمت، وُلِدَت الحَلْقَة.

استلقى كلٌّ على سريره، ولكن أحدًا لم ينَم. كان نافخ البوق قد غادر الفناء قبل قليل. وفجأة، هبط خيالٌ من أحد الأسِرَّة، ثم قطع الثكنة ودخل إلى الحمام: ظلَّ مصراعا الباب يتأرجحان حينًا. وما هو إلَّا قليل حتى دوَّت تشنُّجات المعدة متبوعة بالقيء الذي جاء صاخبًا، هائلًا. قفز أغلبهم عن الأسِرَّة مهرولين إلى دورة المياه، حفاة الأقدام: فوجدوا بايانو يقف في منتصف الحجرة المصفرة وهو

يحكّ معدته، بقامته الطويلة، الهزيلة. لم يقترب منه أحد، بل إنهم راحوا يراقبون ذلك الوجه الأسوَد المحتقن وهو يفرغ جوفه. وأخيرًا، ذهب بايانو إلى الحوض، وغسل فمه. عند ذاك بدؤوا يتحدَّثون في فوضى واضطراب عظيمَيْن، ويكيلون السباب لطُلّاب الفرقة الرابعة بأقذع الألفاظ.

- لا يمكن أن نبقى على هذه الحال. لا بدّ أن نفعل شيئًا. - قال أروسپيدي، وقد برز وجهه الأبيض وسط الفتية أصحاب البشرة النحاسية والقسمات الحادة. تملَّكه غضبٌ عارم، وأخذَت قبضته ترتجف في الهواء.

- دعونا ننادِ ذلك الذي يلقِّبونه النَّمِر. -اقترح كابا.

كانت تلك أول مرة يسمعون فيها لقبه. «مَن؟»، سأل بعضهم. «أهو مِن هذا القسم؟».

- نعم. -قال كابا- لقد أوى إلى سريره. السرير الأول، إلى جوار الحمام.

- ولماذا النَّمِر؟ -سأل أروسپيدي- ألا نكفي؟

- لم أقصد ذلك. -قال كابا- إنه مختلف. لم يتمكَّنوا من تعميده. لقد رأيتُه بنفسي. لم يترك لهم فرصة واحدة. لقد اقتيد معي إلى الإستاد، هناك، خلف الثكنات، فانطلق يضحك في وجوههم قائلًا: «إذن، فأنتم تريدون أن تعمِّدوني؟ سنرى، سنرى». أخذ يضحك في وجوههم. مع أنهم كانوا عشرة تقريبًا.

- وماذا بعد؟ -سأل أروسپيدي.

- راحوا ينظرون إليه في ما يشبه الذهول. -قال كابا- مع أنهم كانوا عشرة تقريبًا، تصوَّروا! وعندما اقتادونا إلى الإستاد جاء آخرون، نحو عشرين، أو أكثر، عدد هائل من طُلّاب الفرقة الرابعة.

ولكنه راح يضحك في وجوههم قائلًا: «إذن، فأنتم تريدون أن تعمِّدوني؟ عظيم، عظيم!».

- وماذا بعد؟ -سأل ألبِرتو.

«هل تحسب نفسك مشاغبًا أيها الكلب؟»، سأله الآخرون. وإذا به ينقضّ عليهم، تصوَّرا. انقضّ عليهم وهو يضحك. أؤكِّد لكم أن عشرة أو عشرين طالبًا أو ربما أكثر قد تجمَّعوا هناك، لا أدري. غير أنهم لم يتمكَّنوا من الإمساك به. بعضهم استلّ الأحزمة، وشرعوا يضربونه بها عن بعد. ولكن أقسمُ لكم إن أحدًا لم يقترب منه. أقسمُ بالعذراء إن الكل قد خاف منه، وأقسمُ إنني قد رأيتُ كثيرين منهم يسقطون أرضًا، لا أدري كم واحدًا، كان الطالب منهم يقع ممسكًا بخصيتَيْه، أو يسقط جريح الوجه، تصوَّروا! بينما انطلق هو يضحك في وجوههم صارخًا: «إذن، فأنتم تريدون أن تعمِّدوني؟ عظيم، عظيم».

- ولماذا تسمِّيه النَّمِر؟ -سأل أروسپيدي.

- لستُ أنا. -قال كابا- بل إنه هو الذي يسمِّي نفسه النَّمِر. أحاط به الآخرون، ناسيين أمري. أخذوا يهدِّدونه بالأحزمة، فبدأ يكيل السباب لهم ولأمهاتهم وللناس جميعًا. عندئذ قال أحدهم: «لا بدّ أن نُحضِر غامبارينا لهذا الوحش». استدعوا طالبًا ضخم الجرم، فظّ الوجه، يُقال إنه يرفع الأثقال.

- ولماذا جِيء بذلك الطالب؟ -سأل ألبِرتو.

- ولكن لماذا يسمّونه النَّمِر؟ -ألحّ أروسپيدي في السؤال.

- جِيء به حتى يتعارك هو والنَّمِر. -قال كابا- قالوا له: «اسمع أيها الكلب، أتحسب نفسك شجاعًا؟ إليك مَن يليق بك». أما هو فأجابهم: «اسمي النَّمِر. إياكم وأن تنعتوني بالكلب!».

- وهل ضحكوا؟ -سأل أحدهم.

- كلّا. -قال كابا- بل إنهم قد أفسحوا لهما المكان. بينما ظلّ هو يضحك طوال الوقت. حتى في أثناء الشجار، تصوَّروا!

- وماذا بعد؟ -سأل أروسپيدي.

- لم يستمرّ الشجار طويلًا. -قال كابا- وأدركتُ لماذا يسمَّى النَّمِر. لأنه في غاية الرشاقة، في منتهى الرشاقة. لا تحسبوا أنه شديد القوة، ولكنه مرنٌ كالجيلاتين، كادت عينا غامبارينا تغادران محجرَيْهما من فرط اليأس، لأنه لم يتمكَّن من الإمساك به. أما الآخر، فانطلق يضربه برأسه ويركله بقدمَيْه، مرة تلو أخرى تلو أخرى، من دون أن يُصاب بخدش واحد. إلى أن قال غامبارينا: «كفانا تمرينات رياضية، فلقد تعبت». ولكننا قد رأيناه جميعًا وهو يتلقَّى ضربًا مبرحًا.

- وماذا بعد؟ -سأل ألبِرتو.

- لا شيء. -قال كابا- تركوه يعود، وبدؤوا يعمِّدونني أنا.

- نادِه. -قال أروسپيدي.

أقعوا في جلوسهم مُتحلِّقين على شكل حلقة. بينما أشعل بعضهم السجائر، وراحوا يمرِّرونها من يدٍ إلى يد. بدأت الحجرة تمتلئ بالدخان. دخل النَّمِر إلى الحمام، وفي أثره كابا، فأدرك جميعهم أن كابا قد كذب: فهاتان الوجنتان، وهذا الذقن، وحتى هذا الأنف العريض، أنف البولدوغ. . . كل تلك المواضع قد تلقَّت ضربات شديدة. وقف في وسط الحلقة ناظرًا إليهم من خلال أهدابه الطويلة الشقراء، بعينَيْن غريبتَيْن في الزرقةِ والعنف. تراءت زمّةُ فمه مفتعلة، مثل وقفته الوقحة، وذلك البطء المحسوب الذي مضى يراقبهم به، واحدًا تلو الآخر. حتى ضحكته المقتضبة الجارحة المباغتة التي

راحت تهدر في المكان. ولكن أحدًا لم يقاطعه. بل إنهم ظلّوا يترقَّبون في جمود ريثما ينتهي من الضحك والنظر إليهم مليًّا.

- يُقال إن المعمودية تستمرّ شهرًا. -قال كابا- لا نستطيع أن نقبل بتكرار ما جرى كل يوم.

أومأ النَّمِر برأسه.

- صحيح. -قال- يجب علينا أن ندافع عن أنفسنا. سوف ننتقم من طُلَّاب الفرقة الرابعة، ونجعلهم يدفعون ثمن أفعالهم غاليًا. الأهم أن نتذكَّر الوجوه، ولو أمكن، الأقسام والأسماء أيضًا. لا بدّ أن نتحرَّك في مجموعات دائمًا. سوف نجتمع ليلًا، بعد انطلاق بوق الصمت. ودعونا نختار للعصابة اسمًا.

- الصقور؟ -ألمح أحدهم، على استحياء.

- كلّا. -قال النَّمِر- يبدو هذا الاسم خليقًا بلعبة. سوف نسمِّيها: الحَلْقَة.

بدأت الدروس في صباح اليوم التالي. وفي أوقات الاستراحة، كان طُلَّاب الفرقة الرابعة ينقضّون على الكلاب ويرغمونهم على المشاركة في سباق البطّ: حيث يصطفّ عشرة طُلَّاب أو خمسة عشر طالبًا في خطٍّ واحد، وبانطلاق إشارة البداية يركض كل طالب مع ثني الساقَيْن ووضع اليدَيْن على الجانبَيْن، مُقلِّدًا مشية البطّة وصوتها. أما الخاسرون، فيوقَّع عليهم عقاب الزاوية القائمة. أضفْ إلى ذلك عمليات التفتيش وسرقة النقود والسجائر التي تعرَّض لها الكلاب، فضلًا عن المُشهِّيات المُكوَّنة من شحم البنادق والزيت والصابون التي كان طُلَّاب الفرقة الرابعة يعِدّونها من أجلهم ثم يأمرون ضحاياهم بتناولها دفعةً واحدة، حاملين الكأس بأسنانهم. بدأت الحَلْقَة تمارس نشاطها بعد يومَيْن، بعد الانتهاء من تناول الطعام بقليل. خرجَت الفرق الثلاث من قاعة الطعام في صخب، وتفرَّق

الطُلَّاب كما تنتشر البقعة في أرجاء الأرض الخلاء. وإذا بوابل من الأحجار ينهمر فجأة على الرؤوس المكشوفة، فأصيب طالب من الفرقة الرابعة، وتدحرج على الأرض صارخًا. ثم شُوهِد الجريح محمولًا إلى المستوصف على أكتاف زملائه، بعد أن اصطفّ الطُلَّاب. وفي الليلة التالية، كان أحد الحرس المناوبين من الفرقة الرابعة مستغرقًا في النوم فوق العشب، فتعرَّض لهجوم ظلالٍ مُقنَّعة: ثم عَثَر عليه نافخُ البوق عند الفجر مُجرَّدًا من الثياب، مشدود الوثاق، مصابًا بكدمات شديدة في جسده الذي كان يرتجف من شدة البرد. كما تعرَّض آخرون للضرب وقذائف الأحجار. أما الضربة الأشدّ جرأة، فكانت عندما اقتحم أفرادُ الحَلْقَة المطبخَ حتى يفرغوا أكياسًا من الغائط في قدور الحساء الخاصة بالفرقة الرابعة، ما أفضى بكثيرٍ من طُلَّاب الفرقة إلى المستوصف تحت وطأة المغص. ثارت ثائرتهم بسبب أعمال الانتقام مجهولة الفاعل، فاستمرّ طُلَّابُ الفرقة الرابعة في تعميد الكلاب بوحشية. وظلَّت جلسات الحَلْقَة تُعقَد كل ليلة لدراسة شتّى المشروعات، التي ينتقي النَّمِر من بينها واحدًا، ويضع فيه اللمسات الأخيرة، مُدلِيًا بتعليماته. مرّ شهر الحبس الإجباري سريعًا، وسط هياجٍ لا يحدّه شيء. وإذا باضطراب جديد يُضاف إلى ذلك التوتُّر الناشئ عن معمودية الطُلَّاب الجدد وأنشطة الحَلْقَة: إذ اقتربَت أول إجازة، وبدأ إعداد الزي الأزرق النيلي من أجل الطُلَّاب، كما أفرد الضُبَّاط ساعةً يومية يحاضرونهم فيها عن سلوك الطالب بالزي العسكري في الشارع.

– الزي العسكري يجتذب النساء كالعسل. -قال بايانو وهو يدير عينَيْه في محجرَيْهما بنهم.

«لم يكُن الأمر سيئًا كما قيل، ولا كما تراءى لي آنذاك، دعْ عنك ما حدث عندما دخل غامبوا إلى الحمام بعد بوق الصمت، لا

يمكن أن يُقارَن ذلك الشهر بأيام الأحد التي حُرِمنا خلالها من الإجازات، لا يمكن ذلك مُطلَقًا». في تلك الآحاد، كان طُلَّاب الفرقة الثالثة يفرضون سيادتهم على المدرسة، حيث يُعرَض فيلم عند منتصف النهار، وتحضر العائلات للزيارة في المساء: فيتجوَّل الكلاب مُحاطين بالأحباء في منصة العرض والأرض الخلاء والإستاد والأفنية. قبل أول إجازة بأسبوع واحد، جرَّب الطُلَّاب الزيّ المصنوع من الصوف: السروال النيلي والسترة السوداء ذات الأزرار الذهبية والقبعة البيضاء. نما الشعر ببطء فوق الرؤوس، وتزايد معه الاشتياق إلى الشارع. وفي القسم، بعد اجتماعات الحَلْقَة، أخبر الطُلَّاب بعضهم بعضًا بمُخطَّطات الإجازة الأولى. «وكيف عرف؟ هل عرف بمحض الصدفة، أم أن واشيًا قد أخبره؟ وماذا لو كان أوارينا في الخدمة، أو الملازم كوبوس؟ أجل، ليس بهذه السرعة على الأقل، أعتقد بأنه لو لم يُكتشَف أمر الحَلْقَة لما استحال القسم مكبًّا للقمامة، وما انتهى أمرنا بهذه السرعة، بل إننا كنا سنظلّ مفعمين بالحيوية والنشاط». كان النَّمِر واقفًا، يصف لهم طالبًا من الفرقة الرابعة، رقيبًا، بينما أنصت الآخرون وقد أقعوا في جلوسهم، كعادتهم، وراحت أعقاب السجائر تنتقل من يد إلى يد، والدخان يتصاعد حتى يصطدم بالسقف، ثم يهبط إلى الأرض، ويدور في الحجرة وكأنه مسخ هوائي، شفاف. «ولكن ماذا فعل ذلك الطالب؟ لا نريد أن نتسبَّب في سقوط قتيل يا نَمِر»، قال بايانو. «الانتقام رائع، ولكن يجب ألَّا يتمادى المرء فيه إلى هذا الحدّ»، قال أوريوستي، «الشيء الذي يروِّعني في ذلك المُخطَّط أنه قد يفقد إحدى عينَيْه»، قال باياستا. «العين بالعين»، قال النَّمِر، «وكان الأفضل أن نُصيبه. ماذا فعل، وأيهما جاء أولًا، صوت الباب المُدوِّي أم الصرخة؟». لا بدّ أن الملازم غامبوا قد ضرب الباب

بكلتا يدَيْه، أو فتحه بركلة من قدمه. وإذا بالرعب يستحوذ على الطُلَّاب، ليس لسماعهم دويّ الباب، أو صرخة أروسپيدي، بل لمرأى الدخان الراكد وهو ينسلّ من فجوة باب الثكنة المعتمة، التي كاد يسدّها الملازم غامبوا بجسده، بينما أمسك الباب بكلتا يدَيْه. سقطَت أعقاب السجائر أرضًا، والدخان ينبعث منها. كان الطُلَّاب حفاة الأقدام، فلم تواتِهم الجرأة على إطفائها. أخذ كل واحد منهم ينظر إلى الأمام، متماديًا في الالتزام بالسلوك العسكري. دهس غامبوا السجائر بقدمه. ثم أحصى عدد الطُلَّاب.

- اثنان وثلاثون. -قال- القسم كاملًا. مَن الرقيب في هذا القسم؟

تقدَّم أروسپيدي خطوةً إلى الأمام.

- فسِّرْ لي هذه اللعبة بأدق التفاصيل. -قال غامبوا، بهدوء- من البداية. ولا تنسَ شيئًا واحدًا.

نظر أروسپيدي بطرف عينه إلى رفقائه، بينما ظلّ الملازم غامبوا يترقَّب، ساكنًا، كالأشجار. «بدا أروسپيدي وكأنه على وشك أن يبكي أمامه. وبعد ذلك، صرنا جميعًا مثل أبنائه حين أجهشنا بالبكاء، يا للخزي سيدي الملازم، ليس لك أن تتخيَّل كيف عمَّدونا، أليس من شيم الرجال أن يدافعوا عن أنفسهم؟ يا للخزي، لقد ضربونا، سيدي الملازم، وآذونا، وسبّوا أمهاتنا، انظرْ كيف صارت مُؤخِّرة مونتيسينوس من كثرة ما تلقَّى من الزوايا القائمة سيدي الملازم. أما هو فلم يبدُ عليه أدنى قدر من التأثُّر، يا للخزي، لم يقُل لنا كلمة واحدة، وإنما اكتفى بالسؤال، وماذا أيضًا، أريد وقائع مُحدَّدة، تجنَّبوا التعقيبات، تحدَّثوا واحدًا تلو آخر، لا تثيروا الصخب وإلَّا أزعجتم باقي الأقسام، ويا للخزي، بدأ يتلو علينا بنود اللائحة، لا بدّ أن أطردكم جميعًا، ولكن الجيش متسامح، ويتفهَّم

الجِراء الذين ما زالوا يجهلون الزَّمالةَ والحياةَ العسكرية واحترامَ الأعلى مرتبةً، أما هذه اللعبة فلقد انتهَت، عُلِم سيدي الملازم، ولن أرفع تقريرًا بهذا الشأن لأنها المرة الأولى والأخيرة، عُلِم سيدي الملازم، سوف أكتفي بحرمانكم من الإجازة الأولى، عُلِم سيدي الملازم، دعونا نرَ، لعلّكم تصبحون رجالًا، عُلِم سيدي الملازم، واعلموا أنكم لو عدتم إلى هذا الشأن من جديد فلن أتوقَّف حتى تصل المسألة إلى مجلس الضبَّاط، عُلِم سيدي الملازم، واحفظوا اللائحة عن ظهر قلب لو أردتم الخروج من المدرسة يوم السبت القادم، أما الآن فاخلدوا إلى النوم، وليعُد الحرس المناوبون إلى مواقعهم، وليقدِّموا إليَّ كشف حضور في غضون خمس دقائق، عُلِم سيدي الملازم».

لم يجتمع أفراد الحَلْقَة مرة أخرى. ولكن في وقت لاحق أطلق النَّمِر الاسم نفسه على مجموعته الخاصة. في ذلك اليوم، يومَ السبت، الأول من شهر يونيو، وقف طُلَّاب القسم منتشرين بطول السياج الصدئ يراقبون كلابَ باقي الأقسام وهم يجتاحون جادة لاكوستانيرا كالسيول، بعجرفةٍ وغطرسة، ويصبغونها بالثياب العسكرية البرَّاقة، وبياض القبعات الشاهق، والحقائب الجلدية اللامعة. رأوهم يجتمعون على كاسر الأمواج المُتآكِل، والبحر يهدر خلفهم، رأوهم وهم يترقَّبون حافلةَ ميرافلوريس-كاياو، أو يتقدَّمون في منتصف الطريق إلى جادة لاسپالميراس، وصولًا إلى جادة پروغريسو (التي تخترق عددًا من الأراضي وتتخلَّل مدينة ليما مرورًا ببرينيا، أو تمضي نزولًا في الاتجاه المعاكس وتنحني عند منعطفٍ خفيف شديد الاتساع وصولًا إلى بيابيستا وكاياو). رأوهم يختفون عن الأنظار. ولمَّا عاد الأسفلت مهجورًا، رطبًا بفعل الضباب، كان طُلَّاب القسم لا يزالون هناك، ينظرون من خلال السياج وقد دسّوا

أنوفهم بين القضبان. في وقت لاحق، تناهى إلى أسماعهم صوت البوق الذي انطلق إيذانًا بالغداء، فمضوا سائرين ببطء، في صمت، إلى ثكنات الفرقة، مبتعدين عن البطل الذي قد تأمَّل بحدقتَيْه العمياوَيْن فورةَ السعادة التي غمرَت المُغادِرين، وتعاسة المحرومين من الإجازة، أولئك الذين اختفوا عن الأنظار وسط الأبنية الرصاصية.

في الأمسية نفسها، وفيما هم يغادرون قاعة الطعام، أمام نظرات الفِكّونة المُتراخِية، نشب أول شجار في القسم. «وهل كنتُ لأسمح بذلك لو أنني مكانه؟ هل كان بايانو ليسمح لذلك؟ كابا؟ أروسپيدي؟ مَن يسمح بذلك؟ لا أحد. إلَّا هو. لأن النَّمِر ليس إلهًا. كان كل شيء ليختلف لو بدر منه ردّ واحد، كان كل شيء ليختلف لو أنه قد خاض شجارًا، أو التقط حجرًا، أو رفع عصا، حتى لو انطلق راكضًا كان كل شيء ليختلف. أما أن يرتجف كما فعل، فكلّا يا رجل، هذا شيء لا يجوز». كان طُلَّاب القسم لا يزالون على الدَّرَج، مُكدَّسين، وفجأةً عمَّت الفوضى، وسقط اثنان وهما يتعثَّران فوق الحشائش. نهض الساقطان، وثلاثون زوجًا من العيون تتأمَّلهما مِن مكانهم فوق الدَّرَج وكأنهم جُلُوس على المُدرَّجات. لم يجد أحدٌ مُتَّسعًا من الوقت ليتدخَّل أو حتى ليدرك ماذا حدث، فلقد انتفض النَّمِر وكأنه قطٌّ يتَّخذ وضع الدفاع، وإذا به يضرب الآخر في وجهه مباشرةً، بلا أي تحذيرات، ثم انقضّ عليه وظلّ يضرب وجهه ورأسه وظهره. بينما الطُّلَّاب يراقبون هاتَيْن القبضتَيْن اللتين لا تكلَّان، فلم يسمعوا حتى صيحات الآخر، «أنا آسف يا نَمِر، لم أتعمَّد أن أدفعك، أقسم لك إنني لم أتعمَّد ذلك». «ما كان ينبغي له أن يجثو على ركبتَيْه، فهذا لا يجوز. ولا كان ينبغي له أن يضمّ يدَيْه، فلقد بدا أشبه بأمّي في الصلاة التساعية، أشبه بطفلٍ يتلقَّى المناولة الأولى في

الكنيسة[1]، وكأنما النَّمِر أسقفٌ، وكأن الآخر يعترف ماثلًا بين يدَيْه، أتذكَّرُ ما جرى، فيقشعرّ بدني يا رجل»، قال روسپيغليوسي. وقف النَّمِر وقبضته لا تزال مرفوعة عاليًا، وكأنه على وشك أن ينهال بها مرة أخرى على ذلك الوجه الشاحب، ومضى ينظر باحتقار إلى ذلك الفتى الذي ركع على ركبتَيْه. بينما لم يحرِّك الباقون ساكنًا. «تصيبني بالغثيان»، قال له النَّمِر. «أنت بلا كرامة، وبلا شيء. أنت مُجرَّد عَبْد».

*

- الساعة الآن الثامنة والنصف. -يقول الملازم غامبوا- أمامكم عشر دقائق.

للحظات، تُسمَع في الفصل أصواتٌ أشبه بالغطيط، وتسري رجفة في المكاتب. «سوف أذهب إلى الحمام لأدخِّن سيجارة»، يفكِّر ألبِرتو وهو يوقِّع ورقة الاختبار. في تلك اللحظة تسقط كُرِيَّةٌ من الورق على سطح المكتب، وتتدحرج بضعة سنتيمترات تحت عينَيْه، ثم تستقرّ مُلاصقةً لذراعه. يلقي نظرة دائرية حوله قبل أن يلتقطها، ثم يرفع عينَيْه: فيجد الملازم غامبوا مُبتسِمًا له. «هل انتبه إلى ما حدث؟»، يتساءل ألبِرتو خافضًا عينَيْه في اللحظة التي يقول فيها الملازم:

- أيها الكاديت، هلَّا أعطيتَني هذا الشيء الذي هبط على مكتبك من فوره؟ وليصمت باقي الطُّلَّاب!

ينهض ألبِرتو. يتلقَّى غامبوا كُرِيَّة الورق من دون أن ينظر إليها.

---

(١) الصلاة التساعية: صلاة تُقام على مدار تسعة أيام في بعض المجتمعات المسيحية.
المناولة الأولى: من طقوس الكنيسة الكاثوليكية، وغالبًا تُقام للأطفال ما بين السابعة والثانية عشرة من العمر.

بعد ذلك يفردها، ويرفعها قبالة الضوء عاليًا. يقرأ، وفي تلك الأثناء تغدو عيناه جرادتَيْن تقفزان وتتنقَّلان بين الورقة والمكاتب.

- أتعرف محتوى هذه الورقة أيها الكاديت؟ -يسأل غامبوا.

- كلّا، سيدي الملازم.

- إنها معادلات الاختبار، لا أكثر ولا أقل. ما رأيك؟ أتعرف مَن أرسل إليك هذه الهدية؟

- كلّا، سيدي الملازم.

- إنه ملاكك الحارس. -يقول غامبوا- أتعرف مَن هو؟

- كلّا، سيدي الملازم.

- اذهبْ واجلسْ في مكانك، وسلّم الاختبار. -يمزِّق غامبوا الورقة، ويضع نتف الورق البيضاء في أحد المكاتب، ثم يردف قائلًا-: الملاك الحارس أمامه ثلاثون ثانية حتى يقف.

ينظر الطُلّاب بعضهم إلى بعض. مكتبة سُر مَن قرأ

- مرَّت خمس عشرة ثانية. -يقول غامبوا- قلتُ: ثلاثون.

- أنا، سيدي الملازم. -يقول صوتٌ هشّ.

يلتفت ألبِرتو: فيجد العَبْد واقفًا، وقد امتقع وجهه بشدّة. لم يبدُ عليه أنه قد انتبه إلى ضحكات الآخرين.

- الاسم. -يقول غامبوا.

- ريكاردو آرانا.

- أتعرف أن الاختبارات فردية؟

- نعم، سيدي الملازم.

- حسنًا. -يقول غامبوا- إذن، فأنت تعرف أيضًا أن واجبي يحتِّم عليَّ أن أحرمك من الإجازة يومَي السبت والأحد. هكذا هي الحياة العسكرية، لا تجامل أحدًا، حتى الملائكة. -ينظر إلى ساعته، ويردف-: حان الوقت. سلِّموا الاختبار.

٣

كنتُ في ساينس پينيا، التي أعود منها سائرًا على قدمَي. في بعض الأحيان، كنتُ ألتقي إغيراس، الذي جمعَته صداقةٌ بأخي قبل أن يلتحق پيريكو بالجيش. لطالما سألني إغيراس: «ماذا تعرف عنه؟». «لا شيء، لم يكاتبني قطّ منذ أن أُرسِل إلى الأدغال». «إلى أين أنت ذاهب بهذه السرعة؟ دعنا نتجاذب أطراف الحديث لبعض الوقت». كنتُ أريد العودة إلى بيابيستا في أقرب وقت ممكن، ولكن إغيراس يكبرني سنًّا، ويسدي إليَّ معروفًا حين يعاملني وكأنني مِن أقرانه. كان يأخذني إلى إحدى الحانات الرخيصة ويسألني: «ماذا تشرب؟». «لا أدري، أي شيء، سأشرب ما تشربه أنت»، فيقول إغيراس النحيل: «حسنًا. أيها الصيني، أحضرْ لنا كأسَيْن!». ثم يربِّت على كتفي: «حذار، لا تسكر». كان شراب الپيسكو يترك حلقي ملتهبًا وعينَيّ دامعتَيْن، فيقول لي إغيراس: «اعصرْ قليلًا من الليمون في فمك. هكذا تخفّ حدّة الشراب. ودخّنْ سيجارة أيضًا». كنا نتحدَّث عن كرة القدم، والمدرسة، وأخي. حكى لي أمورًا كثيرة عن پيريكو، الذي حسبتُه مسالمًا، فاتَّضح أنه كالديك المُصارِع. ذات ليلة، خاض شجارًا بالسكاكين من أجل امرأة. إذن فهو عاشق أيضًا. مَن كان يتوقَّع شيئًا كهذا! حكى لي إغيراس أن أخي قد ترك فتاةً حبلى، وكاد يُرغَم على الزواج منها، فاستغرقتُ في الصمت.

«أجل»، قال لي، «لديك ابن أخ، لا بدّ أنه قد قارب الرابعة من العمر. ألا تشعر بأنك قد كبرت في العمر؟». كان يستبقيني معه لبعض الوقت، ثم أفتِّش عن أي عذر للذهاب. وحين أدخل إلى البيت، يتملَّكني توتُّر شديد. لو ارتابت أمي في أمري، فيا للخزي! كنتُ آخذ كتبي قائلًا: «أنا ذاهب لأستذكر دروسي في الجوار»، فلا تحير أمي جوابًا، وإنما تهزّ رأسها قليلًا. حتى ذلك الردّ لا أتلقَّاه منها في بعض الأحيان. كان البيت المجاور أكبر من بيتنا، ولكنه موغل في القِدم أيضًا. كنتُ أفرك يدَيّ حتى يغدو لونهما أحمر قبل أن أطرق الباب، ولكن حتى بهذه الطريقة لا يتوقَّف العرق. في بعض الأيام، كانت تيري هي التي تفتح الباب، فلا أكاد أراها حتى يجتاحني شعورٌ بالحماسة. ولكن في أغلب الأحيان تفتح خالتها، التي لم تحبّني على الرغم من الصداقة التي جمعَتها بأمي. يُقال إنني قد أزعجتُها كثيرًا في طفولتي. كانت تسمح لي بالدخول ممتعضةً: «استذكرا دروسكما في المطبخ، المكان هناك أسطع إضاءة»، فنقبل نحن على الدراسة بينما تعدّ الخالة الطعام، ويمتلئ المطبخ برائحة البصل والثوم. لطالما فعلَت تيري كل شيء بنظام دقيق، ما جعل دفاترها وكتبها المُغلَّفة بعناية شديدة وخطّها الدقيق المتساوي مثارًا للإعجاب. لم يحدث يومًا أن تركَت بقعة واحدة. كانت تضع تحت كل عنوان خطًّا مزدوجًا بلونَيْن، فأقول لها «سوف تصبحين رسَّامة» حتى أُضحِكها، لأنها تقابل كلَّ كلمة أقولها بضحكات عصيةً على النسيان، حقيقية، قوية، وتصفِّق بيدَيْها. في بعض الأحيان، كنتُ ألتقيها عائدةً من المدرسة، فتبدو لي مختلفةً عن سائر الفتيات، بشعرها الذي لا يبدو متناثرًا ويدَيْها اللتين لا يلوِّثهما الحبر أبدًا. أحببتُ وجهها أكثر ما أحببت. بدَت ساقاها نحيلتَيْن، في حين لم يبرز صدرها بعد، أو لعلّه قد برز، ولكني أعتقد بأنني لم أفكِّر في

ساقَيْها ولا صدرها قطّ، لم أفكِّر إلَّا في وجهها. كنتُ أشعر بالخزي إن تذكَّرتُها في الليل فجأةً، وأنا منهمك في الاستمناء على الفراش، وعند ذاك أذهب إلى الحمام حتى أتبوَّل. ومع ذلك، فلطالما راودَتني فكرةُ أن أقبِّلها. كنتُ أغمض عينَيّ، في أي وقت، فأراها ماثلة أمامي، أرى كلينا معًا، وقد كبرنا في العمر، وتزوَّجنا. عكفنا على استذكار دروسنا معًا كل مساء قرابة ساعتَيْن، أو أكثر في بعض المرات. لطالما كذبتُ قائلًا: «عندي أكوام من الواجبات»، حتى نبقى معًا في المطبخ وقتًا أطول. وإن قلتُ لها أيضًا: «لو تعبتِ، سأذهب إلى بيتي»، غير أنها لم تتعب قطّ. حصلتُ على تقديرات ممتازة في المدرسة عامئذ، فلقيتُ معاملة طيبة من المُعلِّمين الذين راحوا يضربون بي المثل، ويطلبون مني الوقوف أمام السبورة والإشراف على الآخرين في بعض الأحيان، حتى قال عني الزملاء في مدرسة ساينس پينيا إنني أحشو رأسي بالدروس. لم تجمعني بزملائي علاقة طيبة، فهم يودِّعونني حالما نخرج من المدرسة، وإن تجاذبنا أطراف الحديث في أثناء الدروس. لم أقضِ وقتًا مع أحد سوى إغيراس، الذي ألتقيه عند ناصية ميدان بيابيستا، فلا يكاد يراني حتى يحضر إليّ. آنذاك، لم أفكِّر إلَّا في قدوم الساعة الخامسة، ولم أكره شيئًا سوى يوم الأحد، لأننا ظللنا نستذكر دروسنا معًا حتى في أيام السبت، أما في أيام الأحد فكانت تيري تذهب مع خالتها إلى بيت أقرباء لها في ليما، بينما أمضي أنا يومي حبيسًا، أو أذهب إلى پوتاو لمشاهدة مباريات فرق الدرجة الثانية. لم تعطِني أمي نقودًا قطّ، ولطالما تحسَّرَت أسفًا للمعاش الذي تركه أبي بموته قائلةً: «أسوأ ما في الأمر أنه قد خدم الحكومة ثلاثين عامًا. لا أشدّ جحودًا من الحكومة». لم يكفِ المعاش لأكثر مِن الطعام وإيجار البيت. سبق لي أن تردَّدتُ إلى السينما بضع مرات، مع زملاء المدرسة. ومع

ذلك، أعتقد بأنني في ذلك العام لا حضرتُ فيلمًا واحدًا في السينما ولا ذهبتُ لمشاهدة كرة القدم، ولا فعلتُ شيئًا. في العام التالي، توفَّرَت لي النقود. ولكني كلَّما تذكَّرتُ كيف كنتُ أستذكر دروسي مع تيري كل مساء، شعرتُ بالمرارة.

*

ولكن فتاة السينما أفضل كثيرًا مِن الدجاجة، ومِن ذلك القزم. اهدئي يا رِيشَة، فلقد وخزتِني بأسنانك. أفضل كثيرًا. كنا في الفرقة الرابعة آنذاك، بعد أن قضى الملازم غامبوا على الحَلْقَة الكبرى بعام كامل، ومع ذلك، ظلّ النَّمِر يقول: «سوف يعودون جميعًا إلى الحظيرة ذات يوم، وعند ذاك نغدو نحن الأربعة قادتهم». أصبح الوضع أفضل من ذي قبل، لأن الحَلْقَة قد اقتصرَت على القسم عندما كنا كلابًا، أما في تلك المرة فصارَت الحَلْقَة وكأنها تضمّ الفرقة كاملة، وأصبحنا نحن الآمرين الناهين بحقّ، ولا سيما النَّمِر. حتى عندما انكسرَت إصبع ذلك الكلب، ثبت أن القسم يقف معنا ويدعمنا. «تسلَّق السلَّم أيها الكلب»، أمره مَوْجَة، «أسرعْ وإلَّا ثارت ثائرتي». بأي نظرة رمقنا الفتى، أي نظرة. «سادتي الكاديت، تصيبني الأمكنة المرتفعة بالدوار». انطلق النَّمِر يتلوَّى من فرط ما ضحك، بينما استشاط كابا غضبًا: «أتعرف بمن تستهزئ أيها الكلب؟». من سوء الحظّ أنه قد صعد السلَّم. لا بدّ أنه كان يرتعد خوفًا. «تسلَّقْ، تسلَّقْ يا فتى»، قال مَوْجَة. «والآن، غنِّ مِن أجلنا»، قال النَّمِر، «ولكن، غنِّ كالفنَّان، مُلوِّحًا بيدَيْك». تعلَّق الفتى كالقرد، بينما جعل السلَّم يطقطق فوق البلاط. «وماذا لو سقطتُ عن السلَّم، سادتي الكاديت؟». «لو سقطتَ سقطت، وانتهى الأمر»، قلتُ له. وقف مرتجفًا، وبدأ يغنِّي. «الآن يتهشَّم رأسه»، قال كابا، والنَّمِر يكاد يسقط من شدة الضحك. ولكنها كانت سقطة هينة، لا تُذكَر، فأنا قد

قفزتُ من ارتفاعات أعلى في أثناء التدريبات الميدانية. لماذا تعلَّق الطالب بالحوض؟ «أعتقد بأنه قد كسر إصبعه»، قال النَّمِر حين رأى كيف تسيل الدماء من يده. «يُحرَم طُلَّاب القسم من الإجازة شهرًا أو أكثر»، قال الرائد، «حتى يظهر الفاعل». ظلّ أفراد القسم أوفياء، فقالَ لهم النَّمِر: «لماذا لا تريدون الانضمام إلى الحَلْقَة مرة أخرى ما دمتم فحولًا هكذا؟». يعيب الكلاب أنهم في غاية الوداعة. أما معاركنا ضدّ طُلَّاب الفرقة الخامسة، فكانت أفضل من المعمودية، على جثتي أن أنسى ذلك العام، وبخاصة ما حدث في السينما. تفجَّرَت الواقعة بسبب النَّمِر، الذي جاء موقعه في المقعد المجاور، حيث كادوا يقصمون ظهري. لقد ابتسم الحظُّ للكلاب يومذاك، لأننا لم نلمسهم في تلك المرة، بل انشغلنا كثيرًا بطُلَّاب الفرقة الخامسة. الانتقام حلو المذاق، وأنا لم أتلذَّذ في حياتي بقدر ما فعلتُ في الإستاد يومذاك، حين وجدتُ نفسي وجهًا لوجه أمام واحد من أولئك الذين عمَّدوني عندما كنتُ كلبًا. كدنا نُطرَد من المدرسة، ولكن الأمر يستحقّ العناء، أقسمُ إنها حقيقة. ما يحدث بين الفرقة الرابعة والثالثة مُجرَّد لهو. أما المنافسة الحقيقية فتشتعل بين الفرقتَيْن الرابعة والخامسة. مَن ينسى المعمودية التي جرَّعونا إياها؟ جاء موقعنا في السينما بين الفرقة الخامسة والكلاب، وذلك شيء مُتعمَّد لإشعال الفوضى. حتى حيلة القبعات قد ابتكرها النَّمِر بنفسه: فلو رأيتُ أحد طُلَّاب الفرقة الخامسة قادمًا أتركه يقترب مني، ثم أرفع يدي إلى رأسي عندما يصبح على مسافة متر واحد وكأنني أهمّ بأداء التحية العسكرية، ولكني لا أكاد أراه يؤدِّي التحية أمامي حتى أخلع قبعتي. «أتسخر مني؟». «كلّا، سيدي الكاديت، بل إنني أحكّ عنقي، فلديّ قشور كثيرة». اشتعلَت الحرب، كما تجلَّى بكل وضوح في مباراة شدّ الحبل، وقبل ذلك في السينما. حتى الحرارة قد

ارتفعَت يومذاك، مع أن الوقت شتاء، ولكن ذلك شيء منطقي بالنظر إلى السقف المصنوع من الصفيح وتزاحُم أكثر من ألف شخص في المكان. كدنا نختنق. لم أرَ وجهه حين دخلنا، كل ما في الأمر أنني قد سمعتُ صوته. أراهنُ أنه جَبَلي. «ما أضيق المكان! أردافي أكبر من أن تتَّسع هذه الدكة الصغيرة لها»، قال النَّمِر، الذي جاء موقعه في آخر صفّ الفرقة الرابعة. بينما كان الشَّاعِر يحصِّل أجرَه مِن أحدهم، «اسمعْ، أتحسب أنني أعمل مجانًا؟ أم مِن أجل جمال عينَيْك؟». خيَّمَت العتمة على المكان، وأخذوا يتوعَّدونه قائلين: «اخرسْ وإلَّا اندلعَت الفوضى». مِن المُؤكَّد أن النَّمِر لم يتعمَّد أن يحجب الرؤية عن الجالس خلفه حين وضع الآجر على المقعد، كل ما في الأمر أنه أراد أن يجلس فوق الآجر حتى يرى بصورة أوضح. وبينما خفضتُ رأسي لأشعل عود ثقاب، سمعتُ صوت ذلك الطالب من الفرقة الخامسة، سقطَت السيجارة من يدي، فنزلتُ على ركبتَيّ مُفتِّشًا عنها. وإذا بالحضور كلهم يبدؤون في الحركة. «اسمع، أيها الكاديت، اطرح هذا الآجر عن مقعدك لأنني أريد مشاهدة الفيلم». «هل تتحدَّث إليَّ أنا، أيها الكاديت؟»، سأله النَّمِر. «كلّا، بل أتحدَّث إلى جارك». «أنا؟»، سأله النَّمِر. «إلى مَن أتحدَّث إن لم تكُن أنت؟». «أسدِ إليّ معروفًا»، قال النَّمِر، «اخرسْ ودعني أشاهد رعاة البقر هؤلاء». «ألن تطرح هذا الآجر عن المقعد؟». «أعتقد بأنني لن أفعل»، قال النَّمِر. عند ذاك جلستُ مكاني، وتخلَّيتُ عن البحث، فمَن يعثر على سيجارة هناك؟ أوشكَت الفوضى أن تندلع في هذا المكان، وخير لي أن أشدّ حزامي قليلًا. «ألا تريد أن تطيع الأوامر؟»، سأل طالب الفرقة الخامسة. «كلّا»، قال النَّمِر، «لماذا؟»، أخذ يسخر منه كما يحلو له. وعند ذاك بدأ الجالسون في الخلف يصفِّرون. وانطلق الشَّاعِر يصيح بصوت رفيع: «آي، آي،

آي»، فتبعه أفراد القسم كلهم. «أتسخرون مني؟»، سأل طالب الفرقة الخامسة. «يبدو ذلك، أيها الكاديت»، قال له النَّمِر. سوف تندلع الفوضى تحت جنح الظلام، إنه لشيء جدير بأن يُحكَى في الشوارع والميادين. معركة في قاعة العرض، تحت جنح الظلام. شيء لم يُرَ له مثيل في أي وقت مضى. يقول النَّمِر إنه هو البادئ. ولكن ذاكرتي لا تخون. كان الآخر هو البادئ، أو لعلّ أحد أصدقائه قد تدخَّل مدافعًا عنه. لا بدّ أنه قد استشاط غضبًا، فانقضّ على النَّمِر بوحشية، حتى آلَمَتني أذناي من شدة الصراخ. هبّ جميع الحضور وقوفًا، ورأيتُ ظلالًا فوق رأسي، وبدأت تنهال عليَّ الركلات. أما الفيلم فلا أذكر منه شيئًا، لأنه كان في أوله. وماذا عن الشَّاعِر؟ هل أوسعوه ضربًا بحقّ؟ أم أنه قد انطلق في الصراخ مُتظاهِرًا بالجنون؟ سُمِعَت صيحات الملازم أوارينا، «المصابيح، يا ضابط الصفّ، المصابيح، هل صمّت أذناك؟». وإذا بالكلاب ينطلقون صائحين: «المصابيح، المصابيح»، لم يدركوا ماذا يجري، وخُيِّل إليهم أن طُلَّاب الفرقتَيْن الأكبر سنًّا سوف ينقضّون عليهم مُستَغِلِّين العتمة. تطايرَت السجائر، في محاولة من جميع الطُلَّاب للتخلُّص منها، فلا يمكن السماح لهم بأن يضبطونا ونحن ندخِّن. من المعجزات أن النيران لم تشبّ في المكان. يا لها من معركة، أيها الفتيان، لا تتركوا فردًا سليمًا بينهم، لقد حانت لحظة الانتقام. سحقًا، لا أدري كيف خرج النَّمِر حيًّا. انطلقَت تمرّ إلى جواري ظلال تلو ظلال، حتى آلَمَتني يداي وقدماي من فرط ما أوسعتُهم ضربًا. مِن المُؤكَّد أنني قد ضربتُ بعض طُلَّاب الفرقة الرابعة أيضًا، ومَن كان ليستطيع أن يميِّز أحدًا في تلك الظلمات! «ماذا جرى للمصابيح اللعينة، يا ضابط الصفّ باروا؟»، صاح الملازم أوارينا، «ألا ترى أن أولئك الحيوانات يقتتلون؟». اندلعَت الفوضى في كل مكان، تلك هي عين الحقيقة، مِن حسن

الحظّ أنه لم تقع خسائر في الأرواح. وعندما أُضيئَت المصابيح، لم يعُد يُسمَع إلّا صوت الصفير. لم يُرَ لأوارينا أدنى أثر، وإن شُوهِد ملازمو الفرقة الخامسة والفرقة الثالثة وضُبَّاط الصفّ هناك. «أفسحوا الطريق، أيها الأوغاد، أفسحوا الطريق»، عسى ألَّا يفسح أحدٌ ذلك الطريق اللعين. يا لهم من وحوش، في النهاية ثارَت ثائرتهم، وانطلقوا يسدِّدون الضربات كيفما اتَّفق، كيف أنسى وقد سدَّد الجرذُ لكمةً مباشرة إلى صدري، فانقطعَت أنفاسي. رحتُ أفتِّش عنه بعينَيّ، وأقول لنفسي إنني سوف أجعلهم يدفعون الثمن لو أنهم قد أصابوه بسوء، وإذا به هناك، أشدّ حيوية من الجميع، يضرب بيدَيْه ذات اليمين وذات اليسار، ويكاد يسقط من شدة الضحك. له مِن الحيوات أكثر مما للقطط. وكم تكتَّم الطُلَّاب حقيقة ما حدث لاحقًا. كلهم رائعون متى كان الغرض تنغيص حياة الملازمين وضبَّاط الصف. لم يحدث شيء هنا، كلنا أصدقاء، لا أعرف كلمة واحدة عما جرى، وبالمثل فعل طُلَّاب الفرقة الخامسة، لا بدّ أن نتوخَّى الإنصاف. بعد ذلك اقتيد الكلاب إلى الخارج وهم في ذهول من أمرهم، تلاهم طُلَّاب الفرقة الخامسة. أما نحن فبقينا وحدنا في قاعة العرض، وبدأنا نصيح «آي، آي، آي». «أعتقد بأنني جعلتُه يبتلع الآجر الذي أزعجه إلى هذا الحدّ»، قال النَّمِر. وبدأ الجميع يقول: «طُلَّاب الفرقة الخامسة يستشيطون غضبًا، لقد استهزأنا بهم أمام الكلاب، والليلة سوف يداهمون ثكنات الفرقة الرابعة». انطلق الضُبَّاط يركضون من جانب إلى آخر كالفئران، ويسألون: «كيف بدأت هذه الفوضى؟»، «إما تتكلَّمون وإما يُزَجّ بكم في الزنزانة». غير أننا لم نسمع لطُلَّاب الفرقة الخامسة صوتًا واحدًا. إنهم قادمون، إنهم قادمون، لا يمكننا السماح لهم بأن يباغتونا في الثكنات، سوف نخرج وننتظرهم في الأرض الخلاء. وقف النَّمِر فوق خزانة الثياب،

ومضى الحضور جميعًا ينصتون إليه كما في سابق عهدنا، عندما كانت جلسات الحَلْقَة تُعقَد في الحمام لوضع مُخطَّطات الانتقام، ونحن لا نزال كلابًا. لا بدّ أن يدافع المرء عن نفسه، والرجل الحذِرُ خير من رجلَيْن، فليذهب الحرس المناوبون إلى منصة العرض، وليراقبوا الوضع. أطلقوا الصيحات حالما ترونهم قادمين، وسوف نخرج لملاقاتهم. أعدّوا القذائف، لفّوا ورق المرحاض واجعلوه مضغوطًا في أيديكم، هكذا تصبح اللكمة وكأنها رفسة الحمار، ثبِّتوا شفرات الحلاقة في أطراف البيادات كالديكة في حلبة المصارعة، املؤوا جيوبكم بالأحجار، ولا تنسوا أحزمة الوقاية، فخصيتا الرجل أولى مِن روحه بالحماية. أطاع الجميع بينما انطلق مَوْجَة يقفز فوق الأسِرَّة شأنهم عندما كانت الحَلْقَة قائمة، ولكن الفرقة كاملة قد شاركَت في هذه المرة، أنصتوا، إنهم يعدّون العدة للمعركة الكبرى في باقي الثكنات أيضًا. «لا يوجد ما يكفي من الأحجار، سحقًا»، قال الشَّاعِر، «دعونا ننتزع بضع بلاطات». مضى الحضور جميعًا يدعون بعضهم بعضًا إلى السجائر، ويتعانقون. أوينا إلى الأسِرَّة ونحن نرتدي الثياب العسكرية، بل إن بعضنا لم يخلع حتى البيادة. هل جاؤوا؟ هل جاؤوا؟ هدِّئي من روعكِ يا رِيشَة، لا تنشبي أسنانك في جسدي، ملعونة أنت. حتى الكلبة قد اضطربَت، وطفقَت تنبح وتقفز، مع أنها عادةً ما تكون في غاية الهدوء، يجب عليكِ أن تذهبي للنوم مع الفِكّونة يا رِيشَة، أما أنا فيجب عليَّ أن أعتني بهؤلاء حتى لا يسحقهم طُلَّابُ الفرقة الخامسة.

*

للبيت القائم على ناصية شارعَي دييغو فيرّيه وأوتشاران -في آخر المُربَّع السكني الثاني- سورٌ أبيض، يبلغ ارتفاعه مترًا، ويمتدّ بطول عشرة أمتار في كلا الشارعَيْن. وفي تلك النقطة بالتحديد، هناك

حيث يتلاقى طرفا السور، يقوم عمود إنارة على حافة الرصيف. كان الفريق الفائز بالقرعة يتَّخذ لنفسه مرمى على الخطّ الواقع بين عمود الإنارة والسور الموازي. أما الفريق الذي يخسر القرعة فيُضطَرّ إلى بناء مرماه على بُعْد خمسين مترًا، في شارع أوتشاران، وتحديده بوضع حجرٍ أو كومةٍ من الكنزات والسترات على حافة الرصيف. ومع أن المرمى لا يتجاوز الرصيف، فلقد امتدّ الملعبُ إلى الشارع كاملًا. كانوا يلعبون كرة القدم بالأحذية الرياضية، شأنهم في ملعب نادي تيرَّاساس. ولقد حرصوا على ألَّا تمتلئ الكرة عن آخرها بالهواء، حتى لا تنطلق بعيدًا. كانوا يلعبون على الأرض في أغلب الأوقات، فيمرِّرون الكرة تمريرات خفيضة، في غاية القصر، ويصوِّبونها عن مسافة قريبة جدًّا، من دون عنف. كانت حدود المرمى تُرسَّم بالطبشور، ولكن ما هي إلَّا دقائق قليلة من اللعب والمرور بالأحذية والكرة حتى ينمحي الخطّ ويحتدم الجدال بشأن مشروعية الهدف. كانت المباراة تمضي وسط أجواء من الترقُّب والخوف. وفي بعض الأحيان، على الرغم من الاحتياطات التي يتَّخذونها، لا يملك أحدٌ أن يمنع پلوتو أو لاعبًا مُتحمِّسًا غيره مِن ركل الكرة أو ضربها بالرأس ضربةً قوية، وعندئذ تحلِّق الكرة فوق أحد أسوار البيوت المجاورة، وتتسلَّل إلى الحديقة، حيث تسحق أزهار الغرنوقي، أو تنطلق بزخم شديد، فترتطم بالباب في صخب مُدوٍّ، ولكن الشيء الخطير أن تصطدم بالنافذة، فتهزّها بقوة، أو تحطِّم الزجاج، وعندئذ يولِّي اللاعبون هاربين في جلبة عارمة، ناسين الكرة إلى الأبد، بينما يصيح پلوتو راكضًا: «إنهم قادمون خلفنا، إنهم قادمون خلفنا». ولكن أحدًا لا يلتفت برأسه مُتحقِّقًا من صحة كلامه، بل يسارع الجميع بالهرب وهم يردِّدون: «أسرعوا، إنهم قادمون خلفنا، لقد اتَّصلوا بالشرطة»، وفي تلك اللحظة يصرخ

ألبِرتو، الذي يتصدَّر العدَّائين، مُتقدِّمًا على الآخرين، بأنفاس مُتقطِّعة من شدة الجهد: «إلى الجرف، هيا بنا نذهب إلى الجرف!»، فيمضي الباقون في أثره مُردِّدين: «أجل، أجل، إلى الجرف»، بينما يسمع ألبِرتو صوت الأنفاس اللاهثة من حوله، أنفاس پلوتو الهائلة الحيوانية، وأنفاس تيكو القصيرة المُتَّصِلة، وأنفاس بيبيه التي تبتعد شيئًا فشيئًا لأنه أبطأهم، وأنفاس إميليو الهادئة الخليقة برياضي يحسب الجهد المبذول بالمعادلات العلمية ويلتزم بمبدأ الشهيق من الأنف والزفير من الفم، وأنفاس پاكو وسوربينو والآخرين كلهم. كان ذلك الصوت الحيوي المكتوم يعانقه ويحثّه على الإسراع في المُربَّع السكني الثاني بشارع دييغو فيرّيه حتى يصل إلى ناصية شارع كولون، ثم ينعطف يمينًا وهو يكاد يلاصق الجدار اختصارًا للمنعطف. وبعد ذلك تغدو المسيرة أيسر، نظرًا إلى انحدار شارع كولون، ولأنهم يرون من ذلك الموضع، على بعد أقلّ من مُربَّع سكني واحد، الآجرَ الأحمر الذي يتألَّف منه كاسر الأمواج، وخلفه البحر الرمادي الممزوج بالأفق، البحر الذي يبلغون ضفافه بعد قليل. سخر فتيان الحيّ من ألبِرتو لأنه، كلَّما جلسوا مُمدَّدين في ذلك المستطيل الصغير الذي يكسوه العشب، المُرفَق ببيت پلوتو، وشرعوا يضعون المُخطَّطات، سارع مبادرًا بالاقتراح: «هيَّا بنا نذهب إلى الجرف». كانت الرحلات إلى الجرف طويلة، شاقة، فهم يقفزون فوق سور الآجر عند شارع كولون، ويخطِّطون للنزول إلى رقعة صغيرة من الأرض، ويتأمَّلون الأخدود الرأسي الذي يتخلَّل الجرف نزولًا بعيون رصينة خبيرة، ويتناقشون بشأن الطريق الملائم للمضي قدمًا. ومن مكانهم بالأعلى، يرصدون العقبات التي تفصلهم عن الشاطئ المفروش بالحصى. كان ألبِرتو هو الخبير الاستراتيجي الأكثر شغفًا، الذي يحدِّد المسار بعبارات مُقتضَبة، من دون أن يحوِّل

عينَيْه عن الهاوية، مُقلِّدًا لفتات أبطال الأفلام وإيماءاتهم: «مِن هنا، إلى هذه الصخرة أولًا، الصخرة التي يتناثر فوقها الريش، إنها راسخة. ومِن هناك، يجب علينا أن نقفز مِن ارتفاع متر واحد فحسب، انتبهوا، ثم نمرّ على الصخور السوداء المستوية، فالمشي هناك أيسر، كما أن الجانب الآخر مفروش بالطحالب وربما زلَّت أقدامنا، انتبهوا، فهذا الطريق يؤدِّي إلى الشاطئ الصغير الذي لم يسبق لنا أن ذهبنا إليه». أما لو احتجّ أحدهم (مثل إميليو، صاحب النزعة القيادية)، فيدافع ألبِرتو عن نظريته دفاعًا ناريًّا، وينقسم فتيان الحيّ إلى فرقتَيْن، وتندلع مناقشات نابضة بالحياة، تبثّ الدفء في نهارات ميرافلوريس الرطبة. بينما يمرّ خلفهم طابورٌ لا ينتهي من السيارات على كاسر الأمواج. في بعض الأحيان يطلّ أحد الركّاب برأسه مِن النافذة لمراقبتهم، فتمتلئ عيناه غيرةً ما دام الناظرُ صبيًّا. عادةً ما يخرج ألبِرتو مِن تلك المناقشات مُنتصِرًا، لأنه يخوضها بإصرار واقتناع يصيبان باقي الفتيان بالإعياء. كانوا ينزلون ببطء شديد، ويتلاشى كل أثر للجدل بينهم، فتجمعهم أخوَّةٌ مُطلَقة، تتجلّى في النظرات والابتسامات وكلمات التشجيع المُتبادَلة، فكلَّما تخطّى أحدُهم عقبةً أو حالفه التوفيق في وثبة خطيرة قابله الآخرون بالتصفيق. كان الوقت يمضي بطيئًا جدًّا، مشحونًا بالتوتُّر، بينما تمتلئ نفوسهم بالشجاعة كلَّما اقتربوا من الهدف، ويسمعون ذلك الصوت الفريد قريبًا للغاية، ذلك الصوت الذي يتناهى إليهم ليلًا وهم في أسِرَّتهم بميرافلوريس، والآن يهدر بصخبٍ عارم آتيًا من الماء والأحجار. تتشمَّم أنوفهم رائحة الملح والأصداف شديدة النقاء. ولا يلبثون أن يصلوا إلى الشاطئ الذي يترامى على شكل مروحة يدٍ صغيرة بين الضفة والتلة، هناك حيث يتكتَّلون، ويسخرون من صعوبات الهبوط متظاهرين بالتدافع في ما بينهم، وسط جلبة

عارمة. أما في النهارات التي لا تشتدّ خلالها البرودة، أو الأمسيات التي تسطع خلالها الشمس الدافئة في السماء الرمادية فجأةً، فكان ألبِرتو يخلع الحذاء والجورب، ويشمِّر السروال إلى ما فوق ركبتَيْه، ثم يقفز إلى الشاطئ تحثّه صيحات الآخرين، فيحسّ بالمياه الباردة وملمس الأحجار المصقولة. عند ذاك يرفع ألبِرتو السروالَ بإحدى يدَيْه، وينثر الماء بيده الأخرى على الفتيان الذين يحتمون بعضهم خلف بعض، إلى أن يخلعوا أحذيتهم مثله، ويذهبوا لملاقاته، وينثروا الماء على جسده، فتندلع المعركة. وفي وقت لاحق، بعد أن تبتلّ أجسادهم تمامًا، يجتمعون على الشاطئ مرة أخرى، ويستلقون على الأحجار، ويبحثون مسألة الصعود الشاق، الوعر. كانوا يصلون إلى الحي في وقت لاحق، فيمدِّدون أجسادهم في حديقة بيت پلوتو، ويدخِّنون سجائر ڤيسروي التي يشترونها مِن الدكان القائم على الناصية مع حلوى النعنع لإزالة رائحة التبغ.

أما حين لا يلعبون كرة القدم، ولا يهبطون الجرف، ولا يتسابقون حول المُربَّع السكني بالدرَّاجات، فكانوا يتردَّدون إلى السينما، إذ تعوَّدوا الذهاب معًا لحضور العروض الصباحية أيام السبت في سينما إكسلسيور أو ريكاردو پالما، حيث يجلسون في الصفّ الأول من الطابق العلوي أغلب المرات، فيثيرون الجلبة ويلقون أعواد الثقاب المضرَمة إلى الصالة، ويعقِّبون على أحداث الفيلم صياحًا. أما في أيام الأحد، فتختلف الحال، إذ يُضطَرّون إلى حضور القدَّاس الإلهي بمدرسة شامپانيات في ميرافلوريس. وحدهما إميليو وألبِرتو كانا يدرسان في ليما. جرَت العادة على أن يتقابلوا في العاشرة صباحًا في منتزه سنترال، وهم لا يزالون بالزيّ، فيراقبون الوافدين إلى الكنيسة من مكانهم على إحدى الدكك، أو بينما هم يخوضون مباريات الملاكمة اللفظية ضد فتيان الأحياء الأخرى. ثم

يذهبون إلى السينما في المساء، فيجلسون في الصالة هذه المرة وقد ارتدوا الثياب الأنيقة وصفَّفوا شعرهم، بينما تخنقهم ربطات العنق والأقمصة ذات الياقات الصلبة التي يرغمهم الأهل على ارتدائها. كان بعضهم يُضطَرّ إلى مرافقة شقيقاته، فيتتبَّعهم الآخرون عَبْر جادة لاركو، وينعتونهم بـ«المربِّيات» و«المُخنَّثين». بالمثل كانت فتيات الحيّ -اللاتي ضاهَيْن الفتيان عددًا- يشكِّلن مجموعةً مترابطة، بينها وبين مجموعة الفتيان عداوة مشتعلة، وصراع دائم. كان الفتيان إذا لمحوا إحدى الفتيات يسارعون إليها ويجذبون شعرها حتى تجهش بالبكاء، ويسخرون من شقيقها الذي يحتجّ قائلًا: «الآن تخبر أبي، فيعاقبني لأنني لم أدافع عنها». وبالمثل كانت الفتيات، إذا مرّ أحد الفتيان وحيدًا أمامهن، يُخرِجن له الألسنة وينعتنه بكل صنوف الألقاب، فيُضطَرّ إلى تحمُّل الإهانات وقد تضرَّج وجهه خجلًا، ولكنه يتعمَّد ألَّا يسرع الخطى حتى يثبت لهن أنه ليس بالجبان الذي يخاف من النساء.

*

ولكنهم لم يأتوا، لقد خافوا مِن الضُبَّاط، لا بدّ أن ذلك هو السبب. حسبناهم قادمين، فقفزنا عن الأسِرّة، ولكن الحرس المُناوبين قد استوقفونا: «اهدؤوا، إنهم الجنود». لقد أيقَظوا الجَبَليين والليل ينتصف، ومضوا بهم إلى منصة العرض، مُدجَّجين بالسلاح، وكأنهم ذاهبون إلى الحرب، حتى الملازمون وضُبَّاط الصفّ كانوا هناك، وكأنهم قد تشمَّموا رائحة أمر وشيك. ولكن طُلَّاب الفرقة الخامسة قد بيَّتوا النية على المجيء، لاحقًا عرفنا أنهم قد أمضوا ليلتهم وهم يعدّون العدة، بل ويُقال إنهم قد تسلَّحوا بالمقاليع وزجاجات الأمونيا. لشدّ ما رحنا نكيل السباب للجنود. فاستشاطوا غضبًا، مُلوِّحين لنا بحراب البنادق. لن ينسى دورية

الخدمة يومذاك، يُقال إن الكولونيل كاد يضربه، أو لعلّه قد ضربه بالفعل، «أوارينا، أنت كارثة». لقد نلنا منه أمام الوزير، أمام السفراء، يُقال إنه كاد يجهش بالبكاء. كان مِن الممكن أن ينتهي كل شيء هناك، لو لم يوافق اليومُ التالي ذلك الاحتفال. أحسنتَ سيدي الكولونيل، كيف تعرضنا كما تُعرَض القرود، تشكيلات عسكرية بالسلاح أمام رئيس الأساقفة ثم غداء زَمَالة، وألعاب جمباز وقفزات أمام الجنرالات الوزراء ثم غداء زَمَالة، موكب بالزيّ الرسمي وخطابات ثم غداء زَمَالة أمام السادة السفراء، أحسنت صنعًا، أحسنت صنعًا. عرف الجميع أن شيئًا على وشك أن يقع، لأن رائحة الأمر قد فاحت في الهواء، مضى النَّمِر يقول: «الآن يجب علينا أن نهزمهم في كل المنافسات التي سوف تُقام في الإستاد، لا نستطيع أن نخسر مباراة واحدة، لا بدّ من الفوز عليهم فوزًا كاسحًا، في سباق الجوالات، وسباق العدو، وكل شيء». لم يكَد يحدث شيء. ولكن الأمر برمّته قد بدأ مع مباراة شدّ الحبل، ما زالت ذراعاي تؤلمانني من فرط ما رحتُ أشدّ، كم راحوا يصرخون: «هيَّا يا كوبرا»، «اجذب بقوة يا كوبرا»، «بقوة، بقوة»، «مرحى، مرحى». في الصباح، جاؤوا إلينا أنا وأوريوستي والنَّمِر قبل الفطور وقالوا لنا: «شدّوا الحبل بقوة، حتى الرمق الأخير، إياكم والتراجع، افعلوها من أجل القسم». وحده أوارينا لم يتوقَّع أن يحدث شيئًا، ذلك الأبله. أما الجرذ، فلديه حاسة شمّ قوية: «إياكم وأن يرتكب أحدكم حماقة أمام الكولونيل، إياكم وأن يسخر أحدكم مني في وجهي، فأنا ضئيل القامة، ولكن بطولات الجودو التي فزتُ بها تُعَد ولا تُحصَى». اهدئي أيتها الكلبة، انزعي أسنانكِ اللعينة يا رِيشَة. عجّ المكان بالناس، وجاء الجنود بالكراسي من قاعة الطعام، أو ربما كان ذلك في مناسبة أخرى، ولكن دعنا نقُل إن المكان قد ازدحم بالناس،

وصار تمييز الجنرال ميندوسا وسط هذا العدد من الثياب العسكرية ضربًا من محال. إنه صاحب أكبر عدد من النياشين. أكاد أموت ضحكًا كلَّما تذكَّرتُ الميكروفون، إنها قمة الحظّ التعيس، كم تسلَّينا آنذاك، أكادُ أتبوَّل على نفسي من فرط الضحك، أقطع رأسي إن لم يكُن غامبوا هناك، أكاد أنفجر من فرط الضحك كلما تذكَّرت الميكروفون. مَن كان يحسب الأمر قد يبلغ هذا الحدّ مِن الجدية، انظر إلى طُلَّاب الفرقة الخامسة ماذا يفعلون، ينظرون إلينا شزرًا، ويحرِّكون شفاههم لاعنين أمهاتنا. فبدأنا نحن أيضًا نكيل السباب لأمهاتهم، بصوت خفيض، ببطء يا رِيشَة. جاهزون أيها الكاديت؟ انتبهوا إلى صفَّارة البداية. «تشكيلات عسكرية بلا أوامر»، قال الميكروفون، «تنويعات على الخطوة العسكرية وتغيير الاتجاه»، «إلى الأمام، سِرْ». ها هم لاعبو الجمباز، أتمنَّى أن يكونوا قد غسلوا أجسادهم بعناية، أولئك القذرون. واحد، اثنان، ثلاثة، تقدَّموا بخطى خفيفة، وأدّوا التحية. ما أبرع ذلك القزم في لعبة الجمباز، يكاد جسده يخلو من العضلات، ولكنه في غاية الرشاقة. حتى الكولونيل لم نرَه، ولم تكُن بنا حاجة إلى ذلك، أعرفه عن ظهر قلب، لماذا يغمر رأسه بكميات كبيرة من المُثبِّت ما دام له مثل هذا الشعر، لا تحدِّثوني عن السلوك العسكري عندما أفكِّر في الكولونيل، ذلك الذي يرخي حزامه فينسكب بطنه على الأرض، كم بدَت تعابير وجهه مُضحِكة. أعتقد بأنه لا يحبّ شيئًا سوى العروض والمواكب، انظروا إلى فتياني، انظروا إلى صفوفهم كم تبدو متساوية، تارام، تارام، فليبدأ السيرك، والآن، أقدِّم إليكم كلابي المُدرَّبة، وبراغيثي، وأفيالي التي تسير على الحبل، تارام، تارام. يا لصوته الرفيع، لو كنتُ مكانه لعكفتُ على التدخين دائمًا حتى يشتدّ صوتي غلظةً، ليس هذا بالصوت العسكري. لم يسبق لي أن رأيته في التدريبات الميدانية

قطّ، كما أنني لا أتخيَّله في الخندق، ولكنه يحرص على تقديم المزيد والمزيد من العروض، واحدًا تلو آخر، الصفّ الثالث مائل أيها الكاديت، المزيد من الانتباه أيها الضُبَّاط، الحركات ينقصها التناغم والطابع الحربي والرصانة، يا لك من أحمق كبير، أي تعابير ارتسمَت على وجهك عندما حدث ما حدث خلال مباراة شدّ الحبل. يُقال إن الوزير قد تصبَّب عرقه غزيرًا، وقال للكولونيل: «هل جُنّ جنون أولئك الأوغاد أم ماذا؟». وقفنا وجهًا لوجه، الفرقة الخامسة أمام الفرقة الرابعة، وبيننا ملعب كرة القدم. كم راحوا يتمايلون في مقاعدهم كالأفاعي من جانب إلى آخر، بينما كان الكلاب على الجانب الآخر ينظرون من دون أن يفهموا أي شيء. انتظروا لحظة، ولسوف ترون بحقّ. مضى أوارينا يحوم حولنا سائلًا: «أتعتقدون بأنكم قادرون على الفوز؟». «إن لم نفُز، فلك أن تحرمني من الإجازة عامًا كاملًا»، قال له النَّمِر. ولكني لم أكُن موقنًا من الفوز إلى هذه الدرجة، فلديهم حيوانات ضارية، غامبارينا، ريسوينيو، كارنيرو، إنها لحيوانات مُتوحِّشة. ومن فرط الانفعال، بدأت تؤلمني ذراعاي حتى قبل أن تبدأ المباراة. «فليقف النَّمِر في الصدارة»، «كوبرا، أنت أملنا»، تعالَت صيحات الطُلَّاب في المُدرَّجات. بدأ طُلَّاب القسم يصيحون «آي، آي، آي»، فاستغرق أوارينا في الضحك، حتى أدرك أنهم يصيحون لاستفزاز طُلَّاب الفرقة الخامسة، وإذا به يشدّ شعره: «ماذا أنتم فاعلون أيها الهمج، الجنرال ميندوسا والسفير والكولونيل حاضرون، ماذا أنتم فاعلون»، صاح ولعابه يسيل من عينَيْه. أضحكُ كلَّما تذكَّرتُ عندما قال الكولونيل: «لا تحسبوا شدّ الحبل مسألة عضلات، لأنه فوق ذلك رهنٌ بالذكاء والحذق والاستراتيجية الجماعية. كما أن تنسيق الجهود ليس بالأمر الهين»، أكاد أموت ضحكًا. صفَّق لنا الفتيان تصفيقًا حارًّا لم أسمع له مثيلًا،

خليقًا بأن يحرِّك مشاعر السامع كائنًا من كان، ما دام له قلب ينبض. وصل طُلَّاب الفرقة الخامسة بالثياب الرياضية السوداء، فقُوبِلوا بالتصفيق هم أيضًا. رسم أحد الملازمين خطًّا، وبدا كما لو أن المباراة قد اشتعلَت وبلغَت ذروتها. كم انطلقوا يصرخون في المُدرَّجات: «الفرقة الرابعة، الرابعة، الرابعة»، «إن شئتم أم أبيتم، طُلَّاب الرابعة أعمامكم». «يمين أم يسار، لفريقنا الانتصار». «وأنت، كيف تصيح هكذا؟»، سألني النَّمِر، «ألا ترى أن هذا قد يستنفد قواك؟»، ولكن الأمر كان في غاية الإثارة: «هنا ضربة قويَّة، وهنا ضربة قويَّة، وللفرقة الرابعة تحيَّة، عاش، عاش، عاش». «لقد حان الوقت»، قال أوارينا، «حان دوركم. أدّوا واجبكم كما ينبغي، وارفعوا اسم الفرقة عاليًا أيها الفتيان»، ولكنه لم يرتَب حتى في ما سوف يحدث. اركضوا يا شباب، النَّمِر إلى الأمام، مرحى، مرحى، أوريوستي، مرحى، مرحى، كوبرا، إلى الأمام، إلى الأمام يا روخاس، هيَّا، هيَّا، تورِّيس، هيَّا، هيَّا، ريوفريو، باياستا، پيستانا، كويباس، ساپاتا، مرحى، مرحى، على جثثنا التنازل عن ميليمتر واحد. إلى الأمام، ولا تفتحوا أفواهكم، المُدرَّجات قريبة، ربما رأينا وجه الجنرال ميندوسا، لا تنسوا أن ترفعوا أذرعتكم عندما يقول تورِيس: ثلاثة. عدد الحضور أكبر مما يبدو، وما أكثر رجال العسكرية، لا بدّ أنهم مساعدو الوزير، أودُّ لو رأيت وجوه السفراء، كم انطلقوا يصفِّقون لنا، ونحن ما زلنا لم نبدأ بعد. هو ذاك، والآن، دوروا على أعقابكم، لا بدّ أن يجهِّز الملازم الحبل، يا أبانا الذي في السموات اجعله يشد عقدًا مُحكَمة، لشدّ ما راح طُلَّاب الفرقة الخامسة ينظرون إلينا شزرًا، لا ترهبوني وإلَّا ارتعدتُ من فرط الخوف، قفوا. «هيَّا، هيَّا، عاش، عاش، عاش». عندئذ اقترب غامبارينا قليلًا، ومن دون أن يلقي أدنى بالٍ إلى الملازم الذي فرد

الحبل وأخذ يصنع العقد، قال غامبارينا: «أتريدون أن تعبثوا معنا؟ حذار وإلَّا أخصيناكم». «وأمّك، كيف حالها؟»، سأله النَّمِر. «لاحقًا نتحدَّث أنا وأنت»، قال غامبارينا. «كفاكم مزاحًا»، قال الملازم، فليحضر قائدا الفريقَيْن إلى هنا، اصطفّوا، ابدؤوا في الشدّ عند سماع الصفير. حالما يتجاوز أحدكم الخطّ إلى جهة الخصم سوف أطلق صفيرًا إيذانًا بانتهاء الجولة، عندئذ توقَّفوا عن الشدّ. الفائز هو الفريق الذي يتفوَّق على الخصم بفارق نقطتَيْن. ولا تأتوا إليَّ مُحتَجّين، فأنا رجلٌ عادل». رياضة، رياضة، قفزات قصيرة مع إطباق الفم، رباه، هل تصيح المُدرَّجات باسم كوبرا، كوبرا، أكثر مما تصيح باسم النَّمِر، أم أنني قد جُنِنت. ماذا ينتظر حتى يطلق صفَّارة البداية. «استعدّوا يا شباب»، قال النَّمِر، «قدَّموا أرواحكم في سبيل الفوز». أفلت غامبارينا الحبلَ مُلوِّحًا لنا بقبضته، إنهم في غاية التوتُّر، فكيف لا يخسرون. ولكن أكثر من شجَّعنا هم الفتيان، حتى غاصت صيحاتهم في رأسي، وذراعَيّ، وزوَّدَتني بقوة جارفة، أيها الإخوة، واحد، اثنان، ثلاثة، كلّا، يا أبي، رباه، أيها القديسون، أربعة، خمسة، ينزلق الحبل كالأفعى، كنتُ أعرف أن تلك العُقَد ليست سميكة بالقدر الكافي، لأن اليدَيْن، ستة، تنزلقان، سبعة، سأموت إن لم نحرز تقدُّمًا، لم يروا حتى صدري، هكذا يسيل عرق الفتيان، تسعة، مرحى، مرحى، تحمَّلوا ثانية أخرى يا شباب، أوف، أوف، انطلقَت الصفَّارة، اقتلني. وإذا بطُلَّاب الفرقة الخامسة يصرخون، «إنهم يغشّون في اللعب سيدي الملازم»، «لم نتجاوز الخطّ سيدي الملازم»، مرحى، يقوم طُلَّاب الفرقة الرابعة ويخلعون قبعاتهم، وإذا ببحر من القبعات يموج، أيصيحون باسم كوبرا؟ ينطلقون في الغناء، والبكاء، والصياح، عاشت بيرو أيها الفتيان، والموت للفرقة الخامسة، لا تنظروا إلينا هذه النظرات الخبيثة وإلَّا انفجرتُ

ضاحكًا، مرحى، عاش. «لا تتباكوا»، قال الملازم، «النتيجة واحد مقابل صفر لصالح الفرقة الرابعة. واستعدّوا للجولة الثانية». مرحى، يا رفقاء، ما أقوى تشجيع طُلَّاب الفرقة الرابعة، إنها زمجرة حقيقية، أراك يا كابا الجَبَلي، أراك يا مَوْجَة، اصرخوا فإن الصراخ يبثّ حرارةً في العضلات، يتصبَّب العرق من جسدي أنهارًا، لا تفلتي من يدي أيتها الأفعى، ابقي هادئة، ولا تنشبي أسنانك يا رِيشَة. الأقدام، ذلك أسوأ ما في الأمر، تنزلق الأقدام على الأعشاب كالزلَّاجات، أعتقد بأن شيئًا على وشك أن ينكسر في جسدي، والعروق تكاد تنفجر في عنقي، مَن هذا الذي أرخى الحبل، لا تنحنِ، ولكن مَن هذا الخائن الذي يرخي الحبل، تشبَّثوا بالأفعى، فكِّروا في فرقتنا، أربعة، ثلاثة، أوف، ماذا جرى للمُدرَّجات، اللعنة يا نَمِر، لقد تعادلوا. ولكنهم وجدوا مشقةً أكبر في الفوز بالجولة، بل إنهم قد ركعوا وراحوا يشدّوننا على الأرض فاتحين أذرعتهم، لاهثين كالحيوانات، والعرق يتفصَّد مِن أجسادهم غزيرًا. «تعادل الفريقان»، قال الملازم، «لا تبالغوا في الانفعال، تبدون كالنساء». وعند ذاك بدؤوا يسبّوننا لتحطيم روحنا المعنوية. «ما إن تنتهي المباراة حتى نقضي عليكم»، «لقد سحقناهم وربّ السماء»، «أطبقوا أفواهكم وإلَّا هجمنا عليكم في هذه اللحظة». «أيها الملاعين الطائشون»، قال الملازم، «ألا ترون أن الشتائم تصل إلى المُدرَّجات، سوف أجعلكم تدفعون الثمن غاليًا». وكأنه لم يقُل شيئًا، كيف حال أمّك، مرحى، اسأل أمّك، عاش، عاش، عاش. كانت تلك الجولة أسرع، وأكثر طرافة، إذ بدأ كل واحد يزمجر من بطنه، وقد انتفخَت أوداجه، وبرزَت عروقه الأرجوانية. «الفرقة الرابعة، الرابعة، صفّروا، فووووووو، بوم، الرابعة!»، «إن شئتم أم أبيتم، طُلَّاب الرابعة أعمامكم». لم تعُد تنقصنا إلَّا شَدة واحدة حتى نجعلهم يسفّون تراب

الهزيمة. وإذا بالنَّمِر يقول: «سوف ينقضّون علينا، ولن يهمّهم امتلاء المُدرَّجات بالجنرالات. سوف تكون معركة القرن. أرأيتم كيف ينظر إليَّ غامبارينا؟». حلَّقَت الشتائم الآتية من المُدرَّجات في سماء الملعب. ومِن بعيد، شُوهِد أوارينا وهو يقفز من جانب إلى آخر، لقد سمع الكولونيل والوزير كل شيء، أيها الرقباء، سجِّلوا أسماء أربعة طُلَّاب، خمسة، عشرة طُلَّاب مِن كل فرقة، واحرموهم من الإجازة شهرًا، شهرَيْن. شدّوا يا فتيان، هيَّا نقطع الميل الأخير، دعونا نثبت لهم مَن هم أبناء ليونسيو پرادو الأصليون، الفحول كالثيران. رحنا نشدّ الحبل، وإذا بي أرى بقعةً، بقعةً كبيرة باللون البنّي تتناثر فيها النقاط الحمراء، بقعة تنزِل من مُدرَّجات الفرقة الخامسة، فتكبر وتكبر، حتى تصبح بقعة هائلة الحجم، «طُلَّاب الفرقة الخامسة قادمون»، انطلق النَّمِر صارخًا، «دافعوا عن أنفسكم يا فتيان»، أفلت غامبارينا الأفعى، فسقط باقي طُلَّاب الفرقة الخامسة الذين كانوا يشدّون الحبل، وانكفؤوا على وجوههم، وتجاوزوا الخطّ، لقد فزنا، انطلقتُ صارخًا، بينما اشتبك النَّمِر وغامبارينا على الأرض، في حين مرّ أوريوستي وساپاتا إلى جواري وقد أبرز كلٌّ منهما لسانه وشرعا يسدِّدان الضربات إلى طُلَّاب الفرقة الخامسة، أخذَت البقعة تكبر وتكبر، وعند ذاك خلع پاياستا كنزته، ومضى يلوِّح بيده إلى مُدرَّجات الفرقة الرابعة، تعالوا يا فتيان، إنهم يريدون القضاء علينا، أراد الملازم أن يفضّ المعركة بين النَّمِر وغامبارينا، ولكنه لم يرَ سيل الطُلَّاب المُتدفِّق خلف ظهره، ملاعين، ألا ترون أن الكولونيل هناك؟ ثم بدأت بقعة أخرى في النزول، ها هم رفقاؤنا قادمون، وإذا بطُلَّاب الفرقة الرابعة كلهم ينضمّون إلى الحَلْقَة، أين أنت أيها الخلاسي كابا، يا أخي مَوْجَة، هيَّا بنا إلى المعركة، وليحمِ كلٌّ منا ظهر الآخر، ها قد عادوا إلى الحظيرة جميعًا، وأصبحنا نحن

قادتهم. وإذا بصوت الكولونيل الرفيع يتعالى فجأةً في كل مكان، السادة الضُبَّاط، السادة الضُبَّاط، عليكم بوضع حدّ لهذه الفضيحة، يا لها من وصمة عار على جبين المدرسة. وفيما هو على تلك الحال، تراءى لي وجه الطالب الذي عمَّدني، فرأيتُه ينظر إليَّ بخطمه الغليظ الأرجواني، مهلًا يا فتى، فلدينا حساب مُعلَّق، لو كان أخي قد رآني حينذاك، وهو الذي قد أضمر كراهية شديدة للجَبَليين، بتلك الأفواه الفاغرة، وذلك الخوف الجَبَلي... وإذا بضربات السياط تنهمر فجأةً، لأن الضُبَّاط وضُبَّاط الصف قد خلعوا أحزمتهم، وقيل إن بعض الضُبَّاط المدعوين الحاضرين في المُدرَّجات قد انضمّوا إليهم وخلعوا أحزمتهم أيضًا، وحدهم الوقحون يفعلون شيئًا كهذا، علمًا أنهم ليسوا حتى من ضُبَّاط المدرسة، أعتقد بأنهم لم يضربوني بجلد الحزام، وإنما بالمشبك المعدني، فتمزَّق ظهري مِن شدة الضربة الأليمة. «إنها مؤامرة سيدي الجنرال، ولكني لن أتهاون»، «أي مؤامرة وأي لغو فارغ، افعل شيئًا حتى يكفّ أولئك الأوغاد عن الشجار»، «سيدي الكولونيل، أخفض الذراع، فالميكروفون مفتوح»، صفير وسياط، كل أولئك الضُبَّاط، ولكني لا أراهم في مرمى البصر، ضربات السياط تلهب الظهور، بينما تشابك النَّمِر وغامبارينا كما تتشابك الأخطبوطات فوق العشب. ولكن الحظّ قد ابتسم لنا، يا رِيشَة، أبعدي أسنانك أيتها الجرباء. وعندما اصطففنا، بدأتُ أحسّ بحريقٍ في ظهري، أي إحساس بالتعب قد أدركني آنذاك، وأي رغبة عارمة حدَّثَتني بأن أستلقي هناك، في ملعب كرة القدم، حتى أنال قسطًا من الراحة. لم يتكلَّم أحد، لا يُعقَل أن يخيِّم مثل هذا الصمت، بينما الصدور تعلو وتهبط، مَن كان يفكّر في الإجازة آنذاك، أقسمُ إن أحدًا منهم لم يفكِّر إلَّا في الذهاب إلى الفراش حتى يأخذ القيلولة. الآن قد نُغِّص عيشنا بحقّ، سوف يحرمنا الوزير من

الإجازة حتى نهاية العام، ولكن أطرف ما في الأمر كانت وجوه الكلاب، لماذا يخافون وهم لم يقترفوا ذنبًا واحدًا؟ اذهبوا إلى بيوتكم، ولا تنسوا ما رأيتم، ولكن الملازمين كانوا أشدّ خوفًا، أوارينا، لقد اصفرّ وجهك، انظرْ إلى صورتك في المرآة تشعرْ بالأسى لمنظر وجهك. أما مَوْجَة، الذي وقف إلى جواري، فقال: «أيكون الجنرال ميندوسا هو ذلك البدين إلى جوار المرأة ذات الثوب الأزرق؟ ظننتُه من سلاح المشاة، ولكن الوغد يتقلّد نياشين حمراء اللون، لأنه قد خدم في سلاح المدفعية». فضلًا عن الكولونيل الذي كاد يلتهم الميكروفون التهامًا، ولم يدرِ حتى من أين يبدأ حديثه، فانطلق يصرخ «أيها الكاديت»، ثم يقطع حديثه ويكرِّر «أيها الكاديت»، تهدَّج صوته، بينما راودَتني رغبةٌ في الضحك، أيتها الكلبة الصغيرة، لقد وقفوا جميعًا، وتسمَّروا في أمكنتهم، وخرسَت أفواههم، وارتجفَت أجسادهم. ماذا قال، يا رِيشَة؟ أعني، بخلاف النداء الذي مضى يكرِّره: «أيها الكاديت، أيها الكاديت، أيها الكاديت»، سوف نصلح ما جرى في ما بيننا، فما هي إلَّا كلمات للاعتذار بالنيابة عن الجميع، بالنيابة عنكم أنتم، وعن الضُبَّاط، وبالأصالة عن نفسي، نقدِّم أحرّ اعتذار. أما المرأة، فلقد استحقَّت أن نصفِّق لها طوال خمس دقائق، يُقال إنها قد أجهشَت بالبكاء من فرط ما تأثَّرَت عندما رأت أيدينا تكاد تلتهب ونحن نصفِّق لها بحرارة، بدأت تلقي القبلات إلى جميع الحضور، مِن المُؤسِف أن موقعها قد جاء في غاية البعد، فلم أتحقَّق مما إن كانت دميمة أم جميلة، شابة أم عجوزًا. ألم يقشعر بدنكِ يا رِيشَة، حين قال صوتٌ: «فليذهب طُلَّاب الفرقة الثالثة لارتداء زيّ الخروج، وليبقَ طُلَّاب الفرقتَيْن الرابعة والخامسة في الداخل»؟ أتدرين لماذا لم يتحرَّك أحد، أيتها الكلبة، لا الضُبَّاط ولا الرقباء ولا المدعوون ولا

الكلاب؟ لأن الشيطان موجود. وإذا بالمرأة تهبّ قائلة، «كولونيل»، «سيدتي المُوقَّرة»، مضوا يتحرَّكون جميعًا، ولكن ماذا يجري، «أرجوك، سيدي الكولونيل»، «سيدتي المُبجَّلة، سعادة السفيرة، لا أجد الكلمات المناسبة»، «أطفئوا الميكروفون»، «أتوسَّل إليك، سيدي الكولونيل»، كم استمرّ ذلك، يا رِيشَة؟ غمضة عين، مضى الحضور جميعًا ينظرون إلى البدين، وإلى الميكروفون، وإلى المرأة، أخذا يتحدَّثان في آن واحد، وأدركنا أنها أمريكية، «هلَّا أسديتَ إليَّ هذا المعروف، سيدي الكولونيل؟»، طفا الموت في سماء الملعب، بينما وقفنا جميعًا في وضع الثبات. «أيها الكاديت، أيها الكاديت، دعونا ننسَ هذه الفوضى، ولكن إياكم أن تعاودوا الكرة من جديد، الفضل يرجع إلى طيبة سعادة السفيرة اللامتناهية»، يُقال إن غامبوا قد عقَّب على ما جرى في وقت لاحق بقوله: «يا للخزي، النساء يصدرن الأوامر في الثكنات، وكأنها مدرسة للراهبات»، كونوا مُمتَنِّين لفخامتها، مَن تراه قد ابتكر طريقة التصفيق الخاصة بالمدرسة، وكأنه صوت قاطرة تنطلق ببطء، بوم، واحد اثنان ثلاثة أربعة خمسة، بوم، واحد اثنان ثلاثة أربعة، بوم، واحد اثنان ثلاثة، بوم، واحد اثنان، بوم، واحد، بوم، بوم، بوووووم، ومرة أخرى، بوم بوم بوم، فأخرى، كان طُلَّاب مدرسة غوادالوبيه يشدّون شعرهم غضبًا من تشجيعنا في بطولة الألعاب الرياضية، عندما انطلقنا نهتف بوم بوم بوم، لا بدّ أننا قد هتفنا للسفيرة: مرحى، عاش. حتى الكلاب شرعوا يصفِّقون، وأمَرَنا الضُبَّاط وضُبَّاط الصفّ بالاستمرار، لا تتوقَّفوا، استمرّوا، بوم بوم بوم، ولا ترفعوا عيونكم عن الكولونيل، تغادر السفيرة ومعها الوزير، فيتجهَّم وجه الكولونيل من جديد، ويقول لنا تحسبون أنفسكم في غاية الدهاء، ولكني سوف أمسح بكم البلاط، وإذا هو ينفجر ضاحكًا، ومعه الجنرال ميندوسا،

والسفراء، والضُبَّاط، والمدعوون، بوم بوم بوم، ما أروعنا جميعًا، آه يا عزيزي، آه يا عزيزتي، بوم بوم بوم، كلنا أبناء مدرسة ليونسيو پرادو قلبًا وقالبًا، تحيا بيرو أيها الكاديت، لسوف ينادينا الوطن يومًا، ومتى نادَى الوطن لبَّينا النداء، الفِكْرُ في الأعالي راقٍ والقلبُ في الثبات باقٍ، «أين هو غامبارينا حتى أطبع قبلةً على فمه؟»، سأل النَّمِر، «أقصد، أما زال على قيد الحياة بعد كل الضرب الذي أوسعتُه إياه؟»، تستغرق المرأة في البكاء مُتأثِّرةً بالتصفيق، يا رِيشَة، إن حياة المدرسة شاقة، حافلة بالتضحيات، ولكنها تعوِّض المرء أحيانًا، مِن المُؤسِف أن الحَلْقَة لم تعُد ما كانت عليه فيما مضى، لقد كان قلبي يخفق بشدّة في صدري كلَّما اجتمعنا نحن الطُلَّاب الثلاثين في الحمامات، لطالما دسَّ الشيطان قرونه المُشعِرة في كل شيء، وماذا يحدث لو انتهى أمرنا جميعًا بسبب كابا الجَبَلي، لو فُصِل مِن المدرسة، لو فُصِلنا نحن أيضًا، بسبب زجاج تعيس، أستحلفكِ بأمكِ الطاهرة ألَّا تنشبي أسنانكِ في جسدي يا رِيشَة، أيتها الكلبة.

*

حتى الأيام التالية، الأيام الرتيبة، المُهينة، قد نسيها. كان يستيقظ مُبكِّرًا، فيحسّ بجسده مُتألِّمًا مِن فرط السهر، ويهيم في أرجاء الحجرات التي لم يكتمل فرشها بعد، في هذا البيت الغريب. وجد كومةً مِن الصحف والمجلات فوق سطح البيت، في ما يشبه العلية، فبات يقضي نهارات وأمسيات كاملة وهو يتصفَّحها شاردًا. ظلَّ يتجنَّب أبوَيْه، فلم يتحدَّث إليهما إلَّا بكلمات مقتضبة. «ما رأيك في بابا؟»، سألَته أمّه ذات يوم. «لا شيء»، قال، «ليس لي رأي». وفي يوم آخر سألَته: «ريتشي، هل أنت سعيد؟». «كلّا». في اليوم الذي أعقب مجيئهما إلى ليما، ذهب أبوه إلى فراشه، باسمًا، ومدّ إليه وجهه، فقال له ريكاردو: «صباح الخير». من دون أن يتحرَّك.

وإذا بظلٍّ يلبِّد عينَي أبيه. وفي اليوم نفسه بدأت الحرب الخفية. لم يكُن ريكاردو يغادر فراشه حتى يسمع صوت أبيه وهو يوصد الباب المُؤدِّي إلى الشارع خلفه. أما حين يلتقيه في موعد الغداء، فيقول له «مساء الخير» على عجل، ويهرول إلى العلية. في بعض الأمسيات، كان أبواه يخرجان معه في نزهةٍ، فيتصنَّع ريكاردو الاهتمام المفرط بالمنتزهات والجادات والميادين، بينما يجلس وحيدًا في مقعد السيارة الخلفي. صار لا يفتح فمه، على الرغم من سمعه المرهف لكل ما ينطق به والداه. في بعض الأحيان، كانت تستغلق عليه معاني تلميحات بعينها، فيستحوذ عليه أرقٌ محموم في تلك الليلة. بات شديد الحذر، فلا يكاد أحدهم يبادره بالكلام فجأةً حتى يجيبه: «كيف؟ ماذا؟». ذات ليلة سمع صوتهما وهما يتحدَّثان بشأنه في الحجرة المجاورة. «إنه لم يتجاوز الثامنة»، قالت أمّه. «سوف يتعوَّد». «كان لديه ما يكفي ويفيض من الوقت حتى يتعوَّد»، أجاب والده وقد تبدَّل صوته: وبات جافًا، قاطعًا. «لم يسبق له أن قابلك»، أصرَّت أمّه، «إنها مسألة وقت». «لقد دلَّلتِه»، قال أبوه. «بسببكِ أنتِ صار هكذا. أشبه بالفتاة». ثم غابت الأصوات في همهمة مكتومة. ما هي إلَّا أيام حتى انتفض قلبه: إذ تبنَّى والداه أسلوبًا غامضًا، وصارت أحاديثهما ملغزة. أمعن في التجسُّس عليهما، فما عادَت تفوته أدنى لفتة أو حركة أو نظرة. وعلى الرغم من ذلك، لم يتمكَّن من حلّ اللغز بنفسه. ذات صباح، سألَته أمّه وهي تعانقه: «وماذا لو أصبحَت لك أخت صغيرة؟»، فأخذ يفكِّر: «لو قتلتُ نفسي، فهما المذنبان، وسوف يذهبان إلى الجحيم». كانت تلك آخر أيام الصيف، فامتلأ قلبه لهفةً، لأنه في شهر أبريل يلتحق بالمدرسة، حيث يمضي وقتًا طويلًا من اليوم خارج البيت. وذات مساء، بعد طول تأمُّلٍ في العلية، ذهب إلى أمِّه قائلًا: «ألا يمكنكما أن ترسلاني

إلى مدرسة داخلية؟». خُيِّل إليه أنه يتكلَّم بصوت طبيعي، ولكن أمّه نظرَت إليه بعينَيْن ملؤهما الدموع. دسّ يدَيْه في جيبَيْه وأردف قائلًا: «لا أحبّ الدراسة كثيرًا، تذكَّري ما قالت الخالة آديلينا في تشيكلايو. لن يروق لبابا هذا الشيء. ولكن المدارس الداخلية ترغم الطالب على أن يدرس عنوة». أخذَت أمّه تلتهمه بعينَيْها التهامًا، فوقعَت نفسه في حيرة. «ومَن يبقى مع أمّك؟». «هي»، أجاب ريكاردو من دون أن يتردَّد، «أختي الصغيرة». تلاشى الغمُّ مِن وجه أمه، والآن تجلَّى في عينَيْها شعورٌ بالإحباط. «لن تكون لك أخت صغيرة»، قالت، «نسيتُ أن أخبرك بذلك». أمضى يومه كاملًا وهو يفكِّر بأنه لم يحسن التصرُّف، ويتعذَّب لأنه قد فضح أمره بنفسه. ليلتذاك، ظلَّ فاتحًا عينَيْه بشدة في الفراش، وأخذ يدرس الطريقة الملائمة لتصويب الخطأ الذي وقع فيه: سوف يقلِّص الكلمات التي يلقيها على أبوَيْه إلى الحدّ الأدنى، ويقضي وقتًا أطول في العلية. وإذا بصوتٍ هادر يدوِّي في البيت فجأة، فانقطع حبل أفكاره، وامتلأت الحجرة بذلك الصوت، وبكلمات لم يسبق له أن سمعها في أي وقت مضى. شعر بالخوف، وأمسك عن التفكير. تناهَت إليه الشتائم بصفاء مُروِّع، وللحظات، ميَّز صوت أمّه الواهي المُتوسِّل، الذي جاء غارقًا وسط الصرخات والشتائم الذكورية. توقَّف الصوت لبضع ثوان، ثم دوَّت صفعة رنانة. وحين صرخَت أمّه باسمه، «ريتشي!»، كان هو قد نهض مُهروِلًا إلى الباب، ثم فتحه مُقتحِمًا الغرفة الأخرى: «لا تضرب أمي». وجد مُتَّسعًا من الوقت لرؤية أمّه بثياب النوم، وقد تراءى وجهها مُشوَّهًا على ضوء المصباح غير المباشر. سمعها تتلعثم بشيء، وإذا بخيال أبيض عظيم ينبثق أمام عينَيْه، فقال في نفسه: «إنه عارٍ من الثياب». تملَّكه شعور بالرعب. انهال عليه أبوه براحة يده المفتوحة، فسقط من دون صراخ. غير أنه

ما لبث أن نهض: وكل شيء يدور حوله بنعومة. كاد يقول إن أحدًا لم يضربه قطّ، وإن ذلك غير ممكن، ولكن أباه عاجله بضربة أخرى قبل أن ينبس بكلمة واحدة، فسقط على الأرض مرة ثانية. غرق في دوامة بطيئة، من حيث رأى أمَّه وهي تقفز من الفراش، ورأى أباه يستوقفها في منتصف الطريق، ويدفعها بسهولة إلى الفراش، ثم رآه يدور على عقبَيْه ويتَّجه إليه صارخًا، فأحسّ بنفسه في الهواء. وإذا به في حجرته فجأة، تحت جنح الظلام. برز جسد الرجل من العتمة السوداء، ثم ضربه على وجهه مرة أخرى. تجاوزَت أمّه الباب، فأسعفه الوقت لرؤية الرجل يحول دونه ودونها، ويمسك بإحدى ذراعَيْها، ويسحلها كما لو كانت من قماش. ثم أُقفِل الباب. أما هو، فغرق في كابوس كالدوامة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

٤

ترجَّل عن الحافلة في محطة ألكانفوريس، وقطع المُربَّعات السكنية الثلاثة بخطى واسعة في طريقه إلى البيت. رأى مجموعة من الصبية وهو يعبر الشارع. جاء صوتٌ ساخر من الخلف سائلًا: «أتبيع الشكولاتة؟». ضحك الآخرون. قبل أعوام، كان هو وفتيان الحي أيضًا يصيحون على طُلَّاب المدرسة العسكرية وينعتونهم «باعة الشكولاتة». بدَت السماء رصاصية، وإن لم يكُن الجو باردًا. تراءَت منطقة ألكانفوريس مهجورة. فتحَت أمّه الباب. وقبَّلَته.

- وصلتَ مُتأخِّرًا. -قالَت له- لماذا تأخَّرتَ يا ألبِرتو؟

- يمرّ ترام كاياو مرة واحدة كل نصف ساعة، ويزدحم بالركَّاب دائمًا يا أمي.

استحوذَت أمّه على الحقيبة والقبعة، ومضَت في أثره إلى حجرته. كان البيت صغيرًا، من طابق واحد، ولكنه يبدو ناصعًا. خلع ألبِرتو السترة وربطة العنق، ثم ألقى بهما إلى أحد المقاعد، فالتقطَتهما أمّه وطوَتهما بحرص.

- هل تريد أن تتناول الغداء أخيرًا؟

- سوف أغتسل أولًا.

- هل افتقدتَني؟

- كثيرًا يا أمّي.

خلع ألبِرتو القميص. ثم ارتدى الروب قبل أن يخلع السروال أيضًا: لم ترَه أمّه عاريًا منذ أصبح طالبًا في العسكرية.

- سوف أكوي الزيّ العسكري من أجلك. لقد علق به تراب كثير.

- صحيح. -قال ألبِرتو. انتعل الخفّ، ثم فتح جارور الخزانة، وأخرج قميصًا بياقةٍ، وثيابًا داخلية، وجوربًا. ثم أخرج من الصوان حذاء أسود لامعًا.

- لقد لمَّعتُه صباح اليوم. -قالت أمّه.

- سوف تؤذين يدَيْك. كان عليكِ ألَّا تفعلي ذلك يا أمّي.

- مَن يكترث ليدَيّ، وأنا امرأة مسكينة مهجورة؟ -قالَت وهي تتنهَّد.

- صباح اليوم خضتُ اختبارًا شديد الصعوبة. -قاطعها ألبِرتو- وكان أدائي سيئًا.

- آه... -قالت الأمّ- أتريد أن أملأ المغطس من أجلك؟

- كلّا. الأفضل أن أغتسل بالدشّ.

- حسنًا. سأعدّ الغداء.

دارَت على عقبَيْها مُتَّجِهةً إلى الباب.

- ماما.

توقَّفَت على أعتاب الحجرة. كانت ذات قوام ضئيل، وبشرة شاهقة البياض، وعينَيْن غائرتَيْن متراخيتَيْن. خلا وجهها من الزينة وبدا شعرها مبعثرًا. بينما شدَّت على تنورتها مئزرًا باليًا. تذكَّر ألبِرتو تلك الحقبة القريبة نسبيًّا: عندما كانت أمّه تذهب إلى صالون تصفيف الشعر كل مساء، وتقضي ساعات أمام المرآة وهي تطمس التجاعيد بالزينة، فتجعل عينَيْها أشدّ اتساعًا، وتنثر على بشرتها المساحيق.

كانت تحار في اختيار الثوب الملائم وتتوتَّر أعصابها كلَّما همَّت بالخروج. ولكن حالها قد تبدَّلَت منذ غادر الأب.

- ألم تري بابا؟

تنهَّدَت مرة أخرى، وتضرَّجَت وجنتاها.

- تصوَّر أنه قد حضر يوم الثلاثاء. -قالَت- فتحتُ له الباب وأنا لا أدري من الطارق. لم يعُد لديه أدنى شعور بالخجل يا ألبِرتو. ليس لك أن تتخيَّل حاله الآن. يريد منك أن تذهب للقائه. عرض عليَّ النقود مرة أخرى. لقد عقد العزم على أن يقتلني من فرط الألم. -أغمضَت عينَيْها نصف إغماضة وخفضَت صوتها-: يجب عليك أن تسلِّم أمرك يا بني.

- أنا ذاهب لأغتسل. -قال- جسدي في غاية القذارة.

مرَّ أمامها. وربَّت على شعرها مُفكِّرًا: «لن نحصل على سنت واحد مِن الآن فصاعدًا». استغرق وقتًا طويلًا تحت الدشّ. دهن جسده بالصابون بحرص شديد، ثم جعل يفركه بكلتا يدَيْه، مُراوِحًا بين الماء الساخن والماء البارد عدّة مرات. «وكأنني أزيل الخمار عن رأسي»، فكَّر. ارتدى ملابسه، فاستغرب الثياب المدنية مفرطة النعومة، كما هو شأنه باقي أيام السبت. أحسّ وكأنه قد تعرَّى من الثياب: وافتقدَت بشرته ملمسَ القماش الخشن. كانت أمّه تنتظره في حجرة الطعام. تناول الغداء في صمت. بينما راحت أمّه تمدّ إليه سلة الخبز بلهفة كلَّما أتى على قطعة:

- هل أنت خارج؟

- نعم يا أمّي، حتى أوصل رسالة من زميل محروم من الإجازة. سأعود مُبكِّرًا.

فتحَت الأمّ عينَيْها وأغمضَتهما عدة مرات، فخاف ألبِرتو أن تجهش بالبكاء.

- لا أراك أبدًا. -قالَت- كلّما خرجتَ من المدرسة، أمضيتَ اليوم كاملًا في الشارع. ألا تشفق على أمّك؟

- لن أستغرق أطول من ساعة واحدة يا أمي. -قال ألبِرتو، في ضيق- وربما أقل.

كان جائعًا حين جلس إلى المائدة، والآن صار الطعام يبدو له بلا نهاية، ولا مذاق. يمضي ألبِرتو الأسبوع كاملًا وهو يحلم بالإجازة، ولكنه لا يكاد يدخل إلى البيت حتى يشعر بالانزعاج: إذ ضاق بالعناية المفرطة التي تغمره بها أمّه بقدر ما ضاق بالحبس. زدْ على ذلك أمرًا جديدًا: يتمثَّل في الصعوبة التي وجدها في التعوّد. كانت أمّه في الماضي تتذرَّع بأي حجة كي ترسله إلى الشارع، حتى تقضي وقتًا طيبًا مع صديقاتها الكثيرات اللاتي يحضرن للعب الورق كل مساء. أما الآن، فصارت تتشبَّث به، مُطالِبةً بأن ينذر لها أوقات الإجازة كاملة، وأن ينصت إليها وهي تنعى مصيرها المأساوي لساعات وتستغرق في نوبة: تبتهل خلالها إلى الرَّب وتصلّي بصوت مسموع. لأنها قد تبدَّلَت من تلك الناحية أيضًا. إذ كانت أمّه فيما مضى تنسى القدّاس الإلهي أحيانًا كثيرة، بل إن ألبِرتو قد سمعها هي وصديقاتها يتهامسن وينتقدن الكهنة والنساء التقيّات عدة مرات. أما الآن، فصارَت تذهب إلى الكنيسة كل يوم تقريبًا، واتَّخذَت لنفسها مرشدًا روحيًّا يسوعيًّا، أطلقَت عليه «الرجل القديس»، وأصبحَت تحضر الصلوات التاسعية بصنوفها كافة. وذات سبت، اكتشف ألبِرتو في خزانتها سيرة القديسة روسا دي ليما.

راحت أمّه ترفع الصحون وتلملم بيدها فتات الخبز المتناثرة على المائدة.

- سأعود قبل الخامسة. -قال.

- لا تتأخَّر يا بني. -أجابت- سوف أشتري الكعك لتناوله مع الشاي.

*

كانت المرأة بدينة، مشحمة، قذرة، ينسدل شعرها الأملس على جبينها طوال الوقت، فتزيحه إلى الوراء بيسارها، وتغتنم الفرصة لحكّ رأسها، بينما هي تروِّح على الشعلة المُتأرجِحة بقطعةٍ مُربَّعة من الورق المُقوَّى أمسكَتها بيدها الأخرى. يتشبَّع الفحم بالرطوبة ليلًا، ولذا تنبعث منه الأدخِنة حين تضرم فيه النار: تراءى وجه المرأة مُلطَّخًا بالرماد، وجدران المطبخ سوداء. «سوف أفقد بصري»، غمغمَت. ملأ الدخان والشرار عينَيْها بالدموع. كما تورَّمَت أجفانها طوال الوقت.

- ماذا تقولين؟ -سألَت تيريسا مِن مكانها في الحجرة الأخرى.

- لا شيء. -تأفَّفت المرأة مائلةً بجسدها إلى القدر: بينما لم يصل الحساء إلى درجة الغليان بعد.

- ماذا؟ -سألَت الفتاة.

- هل صمَّت أذناك؟ أقول إنني سوف أفقد بصري.

- أتريدين مني أن أساعدك؟

- لا تعرفين كيف تساعدينني. -قالت المرأة، بجفاء. والآن مضَت تحرِّك القدر بإحدى يدَيْها، وتنبش أنفها بالأخرى- لا تتقنين أي شيء. لا الطهو، ولا الخياطة، ولا أي شيء. مسكينة.

أما تيريسا، التي عادَت مِن العمل قبل قليل، وأخذَت ترتِّب البيت، فلم تردّ. كانت خالتها تتولَّى تلك المهمة خلال الأسبوع. ثم يحين دور تيريسا في ترتيب البيت يومَي السبت والأحد. لم تكُن بالمهمة الشاقة، فالبيت يقتصر على مطبخ وحجرتَيْن: إحداهما للنوم

والأخرى تتخذّانها حجرةَ طعامٍ وصالةً ومشغلَ خياطة. كان بيتًا عتيقًا متهالكًا، يكاد يخلو من قطع الأثاث.

- مساء اليوم تذهبين إلى بيت أخوالك. -قالت المرأة- ليتهم لا يبخلون عليكِ كما فعلوا في الشهر الماضي.

بدأت صفحةُ القدرِ تموج وقد تخلّلَتها بعض الفقاعات: بينما اشتعلَت في حدقتَي المرأة جذوتان صغيرتان.

- غدًا أذهب. -قالت تيريسا- اليوم لا أستطيع.

- لا تستطيعين؟

أخذَت المرأة تهزّ قطعة الورق المُقوَّى التي جعلَت منها مروحة يد بحركة محمومة.

- لا أستطيع، فلديّ موعد.

جمُد الورق المُقوَّى في منتصف الطريق، بينما رفعَت المرأة عينَيْها. لم يطُل شرودها أكثر من بضع ثوانٍ. ثم تفاعلَت وانتبهَت إلى النار مرة أخرى.

- موعد؟

- أجل. -توقَّفَت الفتاة عن الكنس، فظلَّت المكنسة مُعلَّقة في الهواء، على ارتفاع سنتيمترات عن الأرض- تلقَّيتُ دعوة إلى السينما.

- السينما؟ مَن؟

أخذ الحساء يهدر، بينما ظهر على المرأة أنها قد نسيَت أمره. التفتَت إلى الحجرة المجاورة، وظلَّت تترقَّب أن تجيبها تيريسا، في جمودٍ ولهفة، في حين تهدَّلَت الخصلات على جبينها.

- مَن دعاك؟ -كرَّرَت سؤالها. وبدأت تروِّح على وجهها باستعجال شديد.

- ذلك الفتى الذي يسكن على الناصية. -قالت تيريسا وهي تضع المكنسة على الأرض.

- أي ناصية؟

- في بيت الآجر ذي الطابقَيْن. اسم عائلته آرانا.

- أهذا هو اسم تلك العائلة؟ آرانا؟

- نعم.

- ذلك الذي يرتدي الزي العسكري؟ -ألحَّت المرأة في السؤال.

- أجل. إنه في المدرسة العسكرية. لديه إجازة اليوم. سوف يمرّ بي في السادسة.

اقتربَت المرأة من تيريسا، وقد فتحَت عينَيْها المنتفختَيْن بشدّة.

- إنها أسرة موسرة. -قالت لها- يرتدون ثيابًا أنيقة. ويمتلكون سيارة.

- أجل. -قالت تيريسا- سيارة زرقاء.

- هل ركبتِ سيارته؟ -سألَت المرأة بحدَّة.

- كلا. كل ما في الأمر أنني قد تحدَّثتُ إلى ذلك الفتى مرة واحدة، منذ أسبوعَيْن. كان يُفترَض به أن يحضر يوم الأحد الماضي، ولكنه لم يستطِع. أرسل إليَّ رسالة.

وإذا بالمرأة تدور على عقبَيْها وتهرول إلى المطبخ فجأة. كانت النيران قد انطفأت، ولكن الحساء ما زال يغلي.

- قريبًا تبلغين السابعة عشرة من العمر. -قالت المرأة، وهي تستأنف معركتها ضدّ الخصلات المُتمرِّدة- ولكنكِ لم تنتبهي إلى وضعنا. إن لم تفعلي شيئًا، فقدتُ بصري، ومُتنا جوعًا. لا تتركي هذا الشاب يفلت من بين يدَيْك. من حسن حظّكِ أنه قد انتبه إليك.

لقد حبلتُ وأنا في مثل عمرك. لماذا يعطيني الرب أبناء، ما دام سيأخذهما مني لاحقًا!

- حسنًا يا خالتي. -قالَت تيريسا.

وبينما راحت تكنس، تأمّلَت حذاءها الرمادي ذا الكعب العالي: كان قذرًا، مهترئًا. وماذا لو أخذها آرانا إلى عرضٍ أول في السينما؟

- أهو في الجيش؟ -سألَت المرأة.

- كلّا. بل إنه في ليونسيو پرادو. مدرسة كغيرها من المدارس، كل ما في الأمر أن مديريها من رجال العسكرية.

- في المدرسة؟ -سألَت المرأة، في سخط- لقد حسبتُه رجلًا. كلام فارغ. لا يهمّكِ أن أتقدَّم في العمر. لا تريدين شيئًا سوى التخلُّص مني إلى الأبد.

*

مضى ألبِرتو يهندم ربطة العنق. أهو صاحب ذلك الوجه الحليق الذي لا تشوبه شائبة، وذلك الشعر النظيف المُصفَّف، وذلك القميص الأبيض، وتلك الربطة الزاهية حول عنقه، وتلك السترة الرمادية، وذلك المنديل الذي يطلّ من جيبه العلوي؟ أهو ذلك الكائن المُهندَم الأنيق الذي تظهر صورته على صفحة المرآة في الحمام؟

- تبدو في غاية الوسامة. -قالت أمّه من مكانها في الصالة. ثم أردفَت بحزن-: تشبه أباك.

خرج ألبِرتو من الحمام. وانحنى مُقبِّلًا أمّه، التي مدَّت له جبينها. كانت تصل إلى كتفَيْه، وأحسَّ ألبِرتو بأنها في غاية الهشاشة. كاد شعرها يكتسي باللون الأبيض. «لم تعُد تصبغ شعرها»، فكَّر. «يبدو أنها قد تقدَّمَت في العمر كثيرًا».

- إنه هو. -قالت الأمّ.

وبالفعل، ما هي إلَّا ثانية حتى دقّ الجرس. «لا تفتح الباب»، قالَت الأمّ حين تقدَّم ألبِرتو نحو الباب المُؤدِّي إلى الشارع، ولكنها لم تفعل شيئًا لتمنعه من ذلك.

- مرحبًا، بابا. -قال ألبِرتو.

كان رجلًا مُهندَمًا، قصير القوام، متينه، زحف الصلع إلى رأسه بعض الشيء. جاء بثياب زرقاء اللون. طبع ألبِرتو قبلةً على وجنته، فتسلَّل إلى أنفه عطر نفَّاذ. ربَّت الأب على كتفه مرتَيْن، باسمًا، وألقى نظرة على الحجرة. وقفَت الأمّ في الطرقة المُؤدِّية إلى الحمام وقد تبنَّت سلوكًا ينمّ عن التسليم: فأحنَت رأسها، وأغمضَت أجفانها نصف إغماضة، وضمَّت يدَيْها إلى تنورتها، في حين مدَّت عنقها إلى الأمام قليلًا، وكأنها تُسهِّل مهمةَ الجلَّاد.

- كارميلا، صباح الخير.

- لماذا جئت؟ -همسَت الأم، من دون أن تبدِّل وقفتها.

أوصد الرجل الباب، بلا أدنى قدر من الحرج، ثم ألقى حقيبة من الجلد على أحد المقاعد وهو لا يزال باسمًا مُنطلِقًا طوال الوقت. جلس على أحد المقاعد مشيرًا بيده إلى ألبِرتو حتى يجلس إلى جواره. نظر ألبِرتو إلى أمّه: فوجدها لا تزال جامدة.

- كارميلا. -قال الأب مبتهجًا- تعالي يا امرأة، دعينا نتجاذب أطراف الحديث لبعض الوقت. يمكننا أن نتكلَّم أمام ألبِرتو، لقد أصبح رجلًا في مقتبل العمر.

شعر ألبِرتو بالرضا عن نفسه. بخلاف أمّه، تراءى والده أصغر عمرًا، وأوفر حظًّا من الصحة والقوة. كان في لفتاته وصوته وتعابير وجهه شيءٌ لا يمكن احتواؤه، شيء يسعى جاهدًا إلى الانطلاق. أتراه سعيدًا؟

- ليس لدينا ما نتحدَّث بشأنه. -قالت الأمّ- ولا كلمة واحدة.

- هدِّئي من روعك. -قال الأب- نحن مُتحضِّرون. كل شيء يمكن أن يُحَلّ بهدوء.

- أنت بائس، ساقط! -صرخَت الأمّ وقد تبدَّلَت حالها فجأة: فكشَّرَت عن قبضتَيْها، وتطاير الشرر من عينَيْها. بينما تضرَّج وجهها بحمرة قانية، وزال عنه كل أثر للوداعة- اخرجْ من هنا! إنه بيتي أنا، الذي أنفق عليه من مالي الخاص.

سدّ الأب أذنَيْه، لاهيًا. نظر ألبِرتو إلى ساعته. في حين أجهشَت الأمّ بالبكاء، وأخذ جسدها ينتفض مع كل تنهيدة. لم تمسح الدموع التي سالت على وجنتَيْها كاشفةً عن الزغب الأشقر.

- كارميلا. -قال الأب- هدّئي من روعك. لا أريد الشجار. قليلًا من السلام. لا يمكن أن تستمرّي هكذا، إنه ضرب من العبث. يجب عليكِ أن تغادري هذا البيت الرثّ، وتتَّخذي لنفسك خادمات، وتُقبِلي على الحياة. لا يمكنكِ أن تهجري نفسك. افعليها من أجل ابنك.

- اخرجْ من هنا! -زمجرَت الأمّ- إن هذا البيت طاهر، وأنت لا تملك الحقّ في تدنيسه. اذهبْ إلى أولئك النساء الساقطات، لا نريد أن نعرف عنك شيئًا. احتفظ بمالك لنفسك، فما أملكه يكفي ويفيض لتربية ابني.

- تعيشين كالشحاذة. -قال الأب- هل فقدتِ كرامتك؟ أي شيطان يجعلكِ ترفضين أن أعطيكِ معاشًا؟

- ألبِرتو. -صرخَت الأمّ، في حنق- لا تسمح له بأن يسبّني. لا يكفيه أنه قد أهانني أمام ليما بأسرها، الآن يريد أن يقتلني. افعل شيئًا يا بني!

- أبي، أرجوك. -قال ألبِرتو، من دون حماس- لا تتشاجرا.

- اصمتْ. -قال الأب وقد ارتسم على وجهه تعبير رصين،

استعلائي- ما زلتَ في مقتبل العمر. سوف تفهم ذات يوم. الحياة ليسَت بهذه البساطة.

شعر ألبِرتو برغبة في الضحك. ذات مرة، رأى أباه في وسط ليما ومعه امرأة شقراء بارعة الجمال. رآه الأب بدوره، ولكنه أشاح عنه بعينَيْه. في تلك الليلة ذهب إلى حجرة ألبِرتو، وقد رسم على وجهه التعابير التي يُبديها الآن، وقال له الكلمات نفسها.

- جئتُ أقدِّم إليكِ عرضًا. -قال الأب- أنصتي إليَّ لحظة.

مرة أخرى، بدَت المرأة وكأنها تمثالٌ مأساوي. وعلى الرغم من ذلك، لمحها ألبِرتو وهي تختلس النظر إلى أبيه من خلال أهدابها، بعينَيْن حذرتَيْن.

- أنتِ منشغلة بأمر الشكليات. -قال الأب- وأنا مُتفهِّم. ينبغي للمرء أن يراعي الأعراف الاجتماعية.

- منافق! -صرخَت الأمّ، وتربَّصَت مرة أخرى.

- لا تقاطعيني يا امرأة. إن شئتِ، يمكننا أن نعيش معًا من جديد، وأن نسكن بيتًا لائقًا، هنا، في ميرافلوريس، ربما عدنا إلى ذلك البيت الذي يقع في شارع دييغو فيرّيه، أو ربما انتقلنا إلى بيت في شارع سان أنطونيو. على كل حال، فلنسكن حيثما شئتِ أنت. ولكني، في المقابل، أطالب بحرية مطلقة. أريد أن أمتلك حياتي. -مضى يتكلَّم من دون أن يشدِّد على الكلمات، في هدوء، وقد سطع في عينَيْه ذلك البريق الذي فوجئ به ألبِرتو- دعينا نتجنَّب هذه المواقف، فنحن من عائلة كريمة.

الآن راحت الأمُّ تبكي صارخةً، وتقطع نشيجها لتسبّ الأب وتنعته بـ«الزاني»، «الفاسد»، «جوال الأوساخ»، فقال ألبِرتو:

- معذرة يا أبي. يجب عليَّ أن أخرج لتوصيل رسالة. هل أستطيع الذهاب؟

بدا الأب حائرًا، غير أنه ابتسم في مودّة وهو يومئ برأسه.

- أجل يا فتى. -قال- سوف أحاول إقناع أمّك. إنه الحل الأمثل. ولا تشغل بالك. اجتهد في دراستك، فأمامك مستقبل مشرق. وكما تعرف، لو حصلتَ على درجات جيدة في الاختبارات، أرسلتُك إلى الولايات المُتَّحِدة في العام المقبل.

- سوف أتولَّى مستقبل ابني بنفسي. -صاحَت الأمّ.

قبَّل ألبِرتو أبوَيْه، ثم خرج وأوصد الباب خلفه، في عجالة.

*

غسلَت تيريسا الصحون بينما كانت خالتها تستريح في الحجرة المجاورة. ثم أخذَت المنشفة والصابون، وخرجَت إلى الشارع على أطراف أصابعها. كان البيت المجاور ضيقًا، أصفر الجدران. طرقَت تيريسا الباب، ففتحَت لها فتاة صغيرة باسمة، شديدة النحافة.

- مرحبًا، تيري.

- مرحبًا، روسا. هل أستطيع أن أغتسل؟

- ادخلي.

قطعا رواقًا معتمًا، عُلِّقَت على جدرانه قصاصات من الصحف والمجلَّات لمُمثِّلي السينما ولاعبي كرة القدم.

- أرأيتِ هذه الصورة؟ -سألَتها روسا- لقد تلقَّيتُها هديةً صباح اليوم. إنه غلين فورد. هل شاهدتِ أحد أفلامه؟

- كلّا، ولكني أتمنَّى ذلك.

كانت في نهاية الرواق حجرةُ طعام، حيث أخذ والدا روسا يتناولان الغداء في صمت. خلا المقعد الذي شغلَته المرأة مِن مسند الظهر. رفع الرجل عينَيْه عن الصحيفة المفتوحة بالقرب من الصحن ناظرًا إلى تيريسا.

- تيريسيتا. -قال ناهضًا.

- صباح الخير.

ابتسم لها الرجل -الذي كان على أعتاب الشيخوخة، ببطنه الضخم، وساقَيْه المتباعدتَيْن، وعينَيْه الناعستَيْن- ومدّ إحدى يدَيْه إلى وجه الفتاة بلفتة مودّة، فتراجعَت تيريسا خطوةً إلى الوراء، وظلَّت اليد مُعلَّقة في الهواء.

- سنيوره، كنتُ أودّ أن أغتسل. -قالت تيريسا للمرأة- أتسمحين لي بذلك؟

- نعم. -قالت المرأة، بجفاء- مقابل صول واحد. أتحملين نقودًا؟

مدَّت تيريسا يدها. لم تبدُ القطعة المعدنية لامعة. كان ذلك الصول باهتًا، لا حياة فيه، تناقلَته الأيدي كثيرًا.

- لا تستغرقي طويلًا. -قالَت المرأة- الماء قليل.

كان الحمام قاتمًا، تبلغ مساحته مترًا مُربَّعًا واحدًا، على أرضه لوحٌ مثقوب تنتشر فيه الطحالب. أما الدشّ، فيقوم مقامه أنبوب بارز من الجدار، غير مرتفع. أوصدَت تيريسا الباب، ثم علَّقَت المنشفة من المقبض، وحرصَت على أن تسدّ المنشفةُ ثقبَ المفتاح. خلعَت ثيابها. كان لها قوام رشيق، وجسد خطوطه مرسومة في تناغم، وبشرة شديدة السمرة. فتحَت الصنبور: فنزل الماء باردًا. وبينما هي تغسل جسدها بالصابون، سمعَت صياح المرأة: «اخرج مِن هناك، أيها العجوز القذر». ابتعدَت خطوات الرجل، في حين سمعَت تيريسا صوتهما وهما يتجادلان. ارتدَت ثيابها، ثم خرجَت. كان الرجل جالسًا إلى المائدة، وما إن رأى الفتاة حتى غمز لها بعينه، فقطَّبَت المرأة جبينها وغمغمت:

- إنكِ تبلّلين الأرض.

- سأذهب حالًا. -قالت تيريسا- شكرًا جزيلًا، سنيوره.

- إلى اللقاء، تيريسيتا. -قال الرجل- ارجعي متى شئت.
رافقَتها روسا إلى الباب. وفي الرواق، قالت لها تيريسا بصوت خفيض:
- روسيتا، أسدي إليَّ معروفًا، أعيريني شريطكِ الأزرق، ذلك الذي عصبتِ به شعركِ يومَ السبت. الليلة أردّه إليك.
أومأت الفتاة الصغيرة برأسها، ورفعَت إحدى أصابعها إلى فمها بغموض. غابَت في نهاية الرواق، ثم عادَت بعد قليل وهي تسير في تكتُّم.
- إليك. -قالت. ونظرَت إليها بعينَيْن متواطئتَيْن- لماذا تريدين الشريط؟ إلى أين تذهبين؟
- لديّ موعد. -قالت تيريسا- دعاني أحد الفتيان إلى السينما.
التمعَت عيناها، وبدَت مسرورة.

*

تساقط الرذاذ ببطء شديد، ومضى يؤرجح أوراق الشجر في شارع ألكانفوريس. دخل ألبِرتو إلى الدكان القائم على الناصية، حيث اشترى علبة سجائر، ثم مشى إلى جادة لاركو: مرَّت سيارات كثيرة، بعضها مِن أحدث طراز، أسقفها مُلوَّنة بألوان حية تبدو على النقيض من الهواء الرمادي. كثُر المشاة في الطريق. أخذ ألبِرتو يتأمَّل فتاةً فارعة القوام، رشيقة، ترتدي سروالًا أسود، حتى غابَت عن ناظريه. تأخَّر الإكسپريس. لمح ألبِرتو فتيَيْن باسمَيْن، فاستغرق بضع ثوانٍ قبل أن يتعرَّفهما. احمرّ وجهه، وهمس قائلًا «مرحبًا»، في حين انطلق الفتَيان صوبه وقد فتح كل منهما ذراعَيْه.
- أين غبتَ عن الأنظار كل هذا الوقت؟ -سأل أحدهما. كان يرتدي بدلة رياضية، وقد رفع مُقدَّم شعره بطريقة جعلَته يبدو مثل عرف الديك- غير معقول!

- حسبنا أنك لم تعُد تسكن في ميرافلوريس. -قال الآخر. كان قصير القوام، ممتلئًا، ينتعل حذاء موكاسين وجوربًا مُلوَّنًا- لم تذهب إلى هناك منذ قرون.

- الآن أعيش في ألكانفوريس. -قال ألبِرتو- والتحقتُ بمدرسة ليونسيو پرادو الداخلية. لا أخرج سوى أيام السبت.

- المدرسة العسكرية؟ -سأل الفتى الذي رفع مُقدَّم شعره- ماذا فعلتَ حتى يُزَجّ بك في تلك المدرسة؟ لا بدّ أنها مُروِّعة.

- ليسَت مُروِّعة إلى هذا الحدّ. يألف المرء الحال، فلا يعود شاقًّا إلى هذا الحدّ.

وصل الإكسپريس ممتلئًا، فوقف ثلاثتهم ممسكين بالمسند. فكَّر ألبِرتو في الناس الذين يلتقيهم أيام السبت على متن حافلة لاپِرلا أو ترام ليما-كاياو: بربطات العنق الصارخة ورائحة العرق والوسخ. أما في الإكسپريس، فتبدو ثياب الركاب نظيفة، ووجوههم لائقة، باسمة.

- وماذا عن سيارتك؟ -سأل ألبِرتو.

- سيارتي؟ -قال صاحب الحذاء الموكاسين- تقصد سيارة أبي. لم يعُد يعيرني إياها، لأنني قد صدمتُها.

- ماذا؟ ألم تعرف؟ -قال الآخر بحماسة جارفة- ألم تعرف بسباق كاسر الأمواج؟

- كلّا، لم أعرف شيئًا.

- أين تعيش يا رجل؟ إن هذا التيكو فتى جامح. -بدأ الآخر يبتسم، راضيًا عن نفسه- لقد تراهن هو وخوليو المجنون، الذي يسكن في شارع فرنسا، أتذكره؟ تسابقا إلى الممشى، إلى كاسر الأمواج. كانت الأمطار قد تساقطَت، ولكنهما طائشان. جلستُ إلى جوار هذا الفتى وهو يقود السيارة. أمسك رجال الدورية بالمجنون،

بينما لذنا بالهرب. كُنا في طريق العودة من إحدى الحفلات، لك أن تتخيَّل.

- وماذا عن الحادثة؟ -سأل ألبِرتو.

- وقعَت في وقت لاحق. خطر لتيكو أن ينعطف وهو عائد بالسيارة إلى الخلف، في أتوكونغو، فارتطم بعمود إنارة. أترى هذه الندبة التي أُصِبتُ بها؟ في حين لم يُصَب هو بخدش واحد. ليس هذا عدلًا. يا له من محظوظ!

ابتسم تيكو ملء فمه، سعيدًا.

- يا لك من فتى جامح. -قال ألبِرتو- كيف حال أبناء الحي؟

- بخير. -قال تيكو- لا نلتقي في أيام الدراسة حاليًا. تمرّ الفتيات بفترة اختبارات، ولا يخرجن إلّا في أيام السبت والأحد. لقد تبدَّلَت الحال، وصار يُسمَح لهن بالخروج معنا إلى السينما والحفلات. كما تحضَّرَت الأمهات، وسمحن لبناتهن بالمواعدة. وأصبح پلوتو يواعد إيلينا، هل كنت تعرف ذلك؟

- أنت تواعد إيلينا؟ -سأل ألبِرتو.

- غدًا نتمّ شهرنا الأول معًا. -قال صاحب الشعر المرفوع، وقد احمرّ وجهه.

- وهل يُسمَح لها بالخروج معك؟

- طبعًا يا رجل. تدعوني أمّها إلى الغداء في بعض الأحيان. صحيح، لقد كنتَ مُعجَبًا بها، أليس كذلك؟

- أنا؟ -قال ألبِرتو- لم أُعجَب بها قطّ.

- بلى! -قال پلوتو- بالطبع كنتَ مُعجَبًا بها. بل إنك قد أحببتَها إلى حدّ الجنون. ألا تذكر تلك المرة حين علَّمناك الرقص في بيت إميليو؟ وعلَّمناك الطريقة الملائمة لتطلب منها مواعدتك؟

- يا لها مِن أيام! -قال تيكو.

- مُجرَّد خرافات. -قال ألبِرتو- لا أساس لهذا من الصحة.

- مهلًا. -قال پلوتو مُنجذِبًا إلى شيء في آخر الإكسپريس- أترَيان ما أراه أيها الشقيَّان؟

مضى يشقّ طريقه إلى المقاعد الخلفية، فتبعه تيكو وألبِرتو. انتبهَت الفتاة إلى الخطر، فأخذَت تنظر إلى أشجار الجادة مِن خلال النافذة. كانت فتاة جميلة، ممتلئة. كاد أنفها الذي اختلج كأنف الأرنب الصغير يلتصق بالزجاج، فتركه مُغبَّشًا بالبخار.

- مرحبًا يا قلبي. -رفع پلوتو عقيرته بالغناء.

- لا تزعج خطيبتي. -قال تيكو- وإلّا انتزعتُ روحك.

- لا يهمّ، فروحي فداء لها. -قال پلوتو فاتحًا ذراعَيْه كالمُنشِد- لأنني أحبُّها.

استغرق تيكو وپلوتو في القهقهة. بينما ظلَّت الفتاة تنظر إلى الأشجار.

- لا تلقي إليه بالًا يا حلوتي، فهو همجي. -قال تيكو- پلوتو، اعتذرْ إلى السنيوريتا.

- أنت على حقّ. -قال پلوتو- أنا همجي، ولقد ندمتُ على ما فعلت. أرجوك، تقبَّلي اعتذاري. قولي لي إنك قد تقبَّلتِ اعتذاري وإلّا أثرتُ فضيحة.

- هل أنتِ بلا قلب؟ -سأل تيكو.

نظر ألبِرتو أيضًا مِن خلال النافذة: بدَت الأشجار رطبة، والأرصفة لامعة. بينما اصطفّ رتلٌ من السيارات في الاتجاه المعاكس. مضى الإكسپريس تاركًا خلفه أورانتيا والمنازل مُتعدِّدة الألوان، مترامية الأطراف. والآن صارت البيوت أصغر حجمًا، بنية اللون.

- إنه شيء مُخزٍ. -قالت إحدى السيدات- اتركوا هذه الفتاة الصغيرة وشأنها!

ظلّ تيكو وپلوتو يضحكان. بينما رفعَت الفتاة عينَيْها عن الجادة للحظة، وتلفَّتَت حولها بنظرة مفعمة بالحيوية، نظرة سنجاب. مرَّت بوجهها ابتسامة عابرة، ثم تلاشَت.

- بكل سرور، سنيوره. -قال تيكو. ثم أردف مُلتفِتًا إلى الفتاة-: نعتذر إليك، سنيوريتا.

- سوف أنزل هنا. -قال ألبِرتو وهو يمدّ إليهما يده- إلى اللقاء.

- تعالَ معنا. -قال تيكو- نحن في طريقنا إلى السينما. ولدينا فتاة من أجلك. لا بأس بها.

- لا أستطيع. -قال ألبِرتو- لديّ موعد.

- لديك موعد في منطقة لينسيه؟ -سأل پلوتو، في خبث- آه! إذن، فلديك مُخطَّط أيها الشقي! هنيئًا لك. ولا تغِب عنا، مُرّ بالحي، كلنا نتذكَّرك.

*

«كنتُ أعرف أنها دميمة»، أخذ يفكِّر حالما رآها على أول سلمة في دَرَج البيت. سرعان ما قال لها:

- مساء الخير. هل تيريسا هنا؟

- أنا تيريسا.

- أحمل إليكِ رسالة مِن آرانا. ريكاردو آرانا.

- تفضَّل. -قالت الفتاة، في خجل- تفضَّلْ بالجلوس.

جلس ألبِرتو على حافة الكرسي، وظلّ مُتيبِّسًا. هل يتحمَّله المقعد؟ ومِن خلال فتحة الستار الذي يفصل بين الحجرتَيْن، رأى

طرف سرير، وقدمَي امرأة ضخمتَيْن، داكنتَيْن. جلسَت الفتاة إلى جواره.

- لم يتمكَّن آرانا مِن الخروج. -قال ألبِرتو- مِن سوء الحظّ أنه قد حُرِم مِن الإجازة صباح اليوم. أخبرني بأن لديه موعدًا معك، وطلب مني أن أحضر حتى أعتذر إليكِ نيابة عنه.

- حُرِم من الإجازة؟ -سألَت تيريسا وقد شفّ وجهها عن خيبة أمل. ضمَّت شعرها بالشريط الأزرق عند مستوى العنق. «أتراه قد قبَّل شفتَيْها؟»، تساءل ألبِرتو.

- ذلك أمر شائع، يحدث للجميع. -قال- إنها مسألة حظّ. سوف يحضر للقائك في الأسبوع المقبل.

- مَن هناك؟ -سأل صوتٌ يشي بمزاج عكر. نظر ألبِرتو: اختفَت القدمان. وما هي إلَّا ثوانٍ، حتى أطلّ وجهٌ مشحم مِن خلف الستار. هبّ ألبِرتو واقفًا.

- إنه صديق آرانا. -قالت تيريسا- اسمه...

قدَّم ألبِرتو نفسه. وأحسّ في يده بيدٍ سمينة، رخوة، يسيل منها العرق: مِن الرخويات. ابتسمَت له المرأة ابتسامةً مسرحية، وطفقَت تثرثر بلا انقطاع. فجاء سيل الكلمات حافلًا بنسخ كاريكاتورية من المجاملات التي سمعها ألبِرتو في طفولته، مُطعَّمًا بصفاتٍ رنَّانة مجانية. لاحظ أنها تخاطبه بلقب «سنيور» أحيانًا وبلقب «دُون» أحيانًا، وتستجوبه مِن غير أن تنتظر منه ردًّا. وإذا به يجد نفسه مُحاطًا بقشرة كلامية، ضائعًا في متاهة صوتية.

- تفضَّل بالجلوس، تفضَّل بالجلوس. -قالت المرأة وهي تشير إلى الكرسي وتنحني أمامه انحناءةَ كائنٍ ضخم من الثدييات- لا تلقِ إلى حضوري بالًا، فهذا بيتك، إنه بيت فقير ولكنه شريف، أتدري، سنيور؟ لقد أمضيتُ حياتي وأنا أجني قوتي كما أمر الرَّب، بعرق

الجبين، أشتغلُ في الخياطة، ولقد استطعتُ أن أوفِّر تعليمًا لائقًا لتيريسيتا، ابنة أختي العزيزة، لأن المسكينة قد تيتَّمَت، تصوَّر، إنها تدين لي بكل شيء، تفضَّل بالجلوس سنيور ألبِرتو[1].

- آرانا محروم من الإجازة. -قالت تيريسا، وهي تتجنَّب النظر إلى ألبِرتو وإلى خالتها- لقد جاء السنيور يحمل إليَّ رسالةً منه.

«السنيور؟»، تساءل ألبِرتو. مضى يفتِّش عن عينَي الفتاة، ولكنها كانت شاخصة إلى الأرض. فردَت المرأة ظهرها تاركةً ذراعَيْها إلى جانبَيْها. تجمَّدَت الابتسامة على وجهها، وإن ظلَّت ثابتةً على وجنتَيْها، وأنفها العريض، وعينَيْها الضيقتَيْن بفعل الجلد المُتورِّم حولهما.

- مسكين. -قالت- يا للفتى المسكين، ويا لمعاناة أمّه. أنا أيضًا قد أنجبتُ وأعرف الألم الذي تحسّ به الأمّ، لأن أبنائي قد ماتوا، إنها مشيئة الرب، وخير للمرء ألّا يحاول أن يفهم. ولكنه سوف يخرج في الأسبوع المقبل، الحياة تقسو على الجميع، أدركُ ذلك الشيء تمام الإدراك، خير لكما ألَّا تفكِّرا حتى في ذلك، فأنتما في مقتبل العمر. قُلْ لي، إلى أين تأخذ تيريسيتا؟

- خالتي! -قالت الفتاة وقد انتفض جسدها- لقد جاء يحمل إليَّ رسالة، ولم. . .

- لا تشغلا بالكما بشأني. -أردفَت المرأة، بنبرة تنمّ عن طيبة، وتفهُّم، وتضحية- يجد الشباب قدرًا أكبر من الراحة وهم وحدهم، حتى أنا كنتُ شابة ذات يوم، والآن صرتُ عجوزًا، هكذا هي الحياة، ولكن لاحقًا تأتيكما المشاغل، فالمرء يصل إلى سنّ الشيخوخة حتى يحمل الهموم، هل تعلم أنني أكاد أفقد بصري؟

---

(١) يُلاحَظ أن خالة تيريسا تخطئ في استخدام لقب «سنيور»، الذي تُدلِي به متبوعًا بالاسم الأول بدلًا من اسم العائلة.

- خالتي... -كرَّرَت الفتاة- أرجوك...

- إن سمحتِ لنا، يمكننا أن نذهب إلى السينما. -قال ألبِرتو- ما لم لديكِ ما يمنع.

خفضَت الفتاة عينَيْها مرة أخرى. لزمَت الصمت، ولم تدرِ ماذا تفعل بيدَيْها.

- أوصِلْها إلى البيت مُبكِّرًا. -قالت الخالة- يجب ألَّا يبقى الشباب خارج البيت حتى ساعة مُتأخِّرة، دُوُن ألبِرتو. -ثم التفتَت إلى تيريسا- تعالي دقيقة. أرجو أن تأذن لي، سنيور.

أخذَت بذراع تيريسا، ومضَت بها إلى الحجرة الأخرى. تناهَت إليه كلمات المرأة وكأنما قد جرفَتها الريح. فهم كلماتها مُتفرِّقة، غير أنه لم يتحقَّق من ترتيب الكلمات. ومع ذلك، أدرك بصورةٍ مبهمة أن الفتاة ترفض الخروج معه، وأن المرأة لم تكلِّف نفسها عناء الرد عليها، وإنما راحت ترسم لألبِرتو صورة عظيمة، بخطوط عريضة. أو بالأحرى صورة لكائن مثالي تجسَّد أمام عينَيْها في شخص ألبِرتو. وفي تلك الصورة، ظهر ألبِرتو ثريًّا، وسيمًا، أنيقًا، مثارًا للغيرة، وتراءى رجلًا راقيًا مرموقًا.

انفتح الستار. ابتسم ألبِرتو، بينما راحَت الفتاة تفرك يدَيْها باستياء، وقد زادَت خجلًا على خجل.

- يمكنكما الخروج. -قالت المرأة- لقد شملتُها بعناية فائقة، أتدري؟ لا أسمح لها بالخروج مع أي شخص. إنها فتاة مجتهدة، وإن لم يبدُ عليها ذلك، بهذا الجسد مفرط النحافة. من دواعي سروري أن تخرجا وتنعما بوقتٍ طيب.

تقدَّمَت الفتاة إلى الباب، ثم أفسحَت الطريق لألبِرتو حتى يخرج أولًا. كان الرذاذ قد انقطع، وإن جاءت رائحة الهواء مُبلَّلة، وباتَت الأرصفة والطرقات زلقة، لامعة. سمح ألبِرتو لتيريسا بالسير على

الجانب الداخلي مِن الرصيف. التقط علبة السجائر، وأضرم منها واحدة. ثم ألقى إليها نظرة بطرف عينه: قطعَت تيريسا خطوات في غاية القصر، وبدَت منزعجة، شاخصةً إلى الأمام. وصلا إلى الناصية من دون أن يتبادلا كلمة واحدة. وهناك توقَّفَت تيريسا.

- سأبقى هنا. -قالت- لديَّ صديقة في المُربَّع السكني المجاور. أشكرك على كل شيء.

- ولكن، كلّا. لماذا؟ -قال ألبِرتو.

- لا بدّ أن تعذر خالتي. -قالت تيريسا وهي تنظر إلى عينَيْه، وتبدو أكثر هدوءًا- إنها طيبة جدًّا، مُستعِدّة لعمل أي شيء حتى أخرج.

- أجل. -قال ألبِرتو- إنها في غاية اللطف والمودّة.

- ولكنها ثرثارة. -أكَّدَت تيريسا، ثم انطلقَت ضاحكة.

«تبدو دميمة، ولكن لها أسنانًا جميلة»، فكَّر ألبِرتو. «ترى، كيف طلب منها العَبْدُ أن تواعده؟».

- أيغضب آرانا لو خرجتِ معي؟

- لا تجمعني به أي صلة. -قالَت- لو جاء اليوم لكانت هذه أول مرة نخرج فيها معًا. ألم يخبرك بذلك، سنيور؟

- لماذا لا ترفعي الكلفة بيننا؟ -سأل ألبِرتو.

كانا على الناصية. تراءى الناس على مسافة بعيدة، في الشوارع المحيطة. في حين بدأت الأمطار تتساقط مرة أخرى. ونزل عليهما ضبابٌ في غاية الخفّة.

- حسنًا. -قالت تيريسا- يمكننا أن نرفع الكلفة بيننا.

- أجل. -قال ألبِرتو- الألقاب المُتكلِّفة غريبة، لا تليق إلَّا بكبار السنّ.

سكت كلاهما للحظات. ألقى ألبِرتو السيجارة وأطفأها بقدمه.

- حسنًا. -قالت تيريسا وهي تمدّ يدها إليه- إلى اللقاء.

- كلّا. -قال ألبِرتو- يمكنكِ أن تقابلي صديقتك في يوم آخر. هيَّا بنا نذهب إلى السينما.

رسمَت على وجهها أمارات الجدية.

- لا تفعلها لمُجرَّد أنك مُلزَم بذلك. -قالت- حقًّا. أليسَت لديك ارتباطات أخرى الآن؟

- حتى وإن كنتُ مرتبطًا بشيء آخر.. . -قال ألبِرتو- ومع ذلك، فليس لديّ شيء، أقسمُ لك.

- حسنًا. -قالَت. ومدَّت راحتها إلى أعلى. مضَت ترنو إلى السماء، فتأكَّد لألبِرتو أن عينَيْها برَّاقتان.

- المطر يتساقط.

- ولكنه مطر خفيف لا يُذكَر.

- هيَّا نركب الإكسبريس.

مشيا إلى جادة آريكيپا. بينما أضرم ألبِرتو سيجارة أخرى.

- لقد أطفأتَ واحدة من فورك. -قالت تيريسا- أتدخِّن كثيرًا؟

- كلّا. لا أدخِّن إلّا في أيام الإجازة.

- ألا يُسمَح لكم بالتدخين في المدرسة؟

- التدخين ممنوع. ولكننا ندخِّن سرًّا.

وفي طريقهما إلى الجادة صارت البيوت تبدو أكبر، وخلا المكان من الأزقة. عبرَت الشارع جماعات مِن المشاة. مرّ بعض الفتيان الذين يرتدون الأقمصة ذات الأكمام القصيرة، وصاحوا ببعض الكلام المُوجَّه إلى تيريسا. همّ ألبِرتو بالعودة إليهم، ولكنها أمسكَت به.

- لا تلقِ إليهم بالًا. -قالت- إنهم يتفوَّهون بالحماقات دائمًا.

- لا يمكن التعرُّض لفتاة وهي برفقة أحدهم. -قال ألبِرتو- إنها وقاحة.

- لديكم ميلٌ جارف إلى الشجار في ليونسيو پرادو.

تضرَّج وجهه سرورًا. لقد صدق بايانو: فطُلَّاب العسكرية يثيرون الإعجاب في نفوس الفتيات، فتيات لينسيه، لا ميرافلوريس[1]. بدأ يتحدَّث عن المدرسة، وعن المنافسة بين الفرق المختلفة، وعن التدريبات الميدانية، وعن الفِكّونة والكلبة التي تُسمّى رِيشَة. أصغَت إليه تيريسا بانتباه، وقابلَت طرائفه بحفاوة. ثم أخبرَته بأنها تعمل في مكتب بوسط المدينة، وأنها قد درسَت الكتابة المُختصَرة والآلة الكاتبة في أحد المعاهد. استقلَّا الإكسپريس في محطة مدرسة رايموندي، ثم نزلا في ميدان سان مارتين. كان پلوتو وتيكو يقفان تحت البوابات المُقوَّسة. ألقيا عليهما نظرة من أعلى إلى أسفل. ثم ابتسم تيكو لألبِرتو وغمز له بعينه.

- ألن تذهبا إلى السينما؟ -سأل ألبِرتو.

- لقد أخلفَت الفتيات موعدنا. -قال پلوتو.

ودَّعوا بعضهم بعضًا. سمعهما ألبِرتو يتهامسان خلف ظهره، وحدَّثه شعورٌ بأن نظرات أهل الحيّ الخبيثة كلها تنهمر على رأسه فجأةً كالأمطار.

- ماذا تريدين أن تشاهدي؟ -سألها.

- لا أدري. -قالَت- أي شيء.

اشترى ألبِرتو صحيفة يومية، وأخذ يقرأ إعلانات الأفلام

---

(١) في خمسينيات القرن الماضي، ضمَّت مقاطعة لينسيه الطبقة المُتوسِّطة والطبقة المُتوسِّطة الدنيا. في حين تميَّزَت ميرافلوريس آنذاك بالحراك الثقافي والنشاط التجاري ومناطق الجذب السياحي وضمَّت طبقات اجتماعية أرقى.

المعروضة في السينما بصوت مسرحي. ضحكَت تيريسا. ومرة أخرى، التفت إليهما المشاة الذي يمرّون من خلال البوابات المُقوَّسة. استقرًّا على الذهاب إلى سينما مترو. اشترى ألبِرتو تذكرتَيْن في الصالة. «لو عرف آرانا ماذا فعلتُ بالنقود التي أقرضني إياها!»، فكَّر. «ولكني لن أستطيع الذهاب إلى ذات القدمَيْن الذهبيتَيْن». ابتسم لتيريسا، فردَّت له الابتسامة بمثلها. ما زال الوقت مُبكِّرًا، وكادت السينما تخلو من الحضور. بدا ألبِرتو طليق اللسان، وأخذ يجرِّب العبارات الذكية وألعاب الكلمات والنكات التي سبق له أن سمعها في الحيّ مرات كثيرة مع هذه الفتاة التي لم تترك في نفسه شعورًا بالرهبة.

- إن سينما مترو جميلة. -قالَت- في غاية الأناقة.

- ألم يسبق لكِ أن ذهبتِ إليها قطّ؟

- صحيح. لا أعرف إلَّا دور سينما قليلة في وسط المدينة. أخرج من عملي في ساعة مُتأخِّرة، في السادسة والنصف.

- ألا تحبّين السينما؟

- أحبُّها، كثيرًا. أذهب كل أحد، ولكن إلى سينما قريبة من بيتي.

شاهدا فيلمًا بالألوان الطبيعية، تكثر فيه الفقرات الراقصة. كان الراقص مُمثِّلًا كوميديًّا أيضًا، فمضى يخلط بين أسماء الشخصيات، ويتعثَّر في سيره، ويرسم مختلف التعابير على وجهه، ويدير عينَيْه في محجرَيْهما. «إنه مُخنَّث، يشتمّ المرء رائحته على بُعْد ميل»، فكَّر ألبِرتو. التفت برأسه: فوجد تيريسا وقد استغرق وجهها في الشاشة، وانفرج فمها نصف انفراجة، وشخصَت عيناها كاشفتَيْن عن مشاعر اللهفة التي تعتمل في نفسها. وحين خرجا مِن السينما في وقت لاحق، تحدَّثَت إليه عن الفيلم وكأن ألبِرتو لم يشاهده. مضَت تصف

ثياب المُمثّلات وحليهن مفعمةً بالحماسة، وتضحك ضحكات صافية كلَّما تذكَّرَت موقفًا هزليًّا.

- لديكِ ذاكرة قوية. -قال- كيف يمكنكِ أن تتذكَّري هذه التفاصيل كلها؟

- قلتُ لك إنني أحبّ السينما كثيرًا. وعندما أشاهد فيلمًا أنسى كل شيء، حتى ليبدو لي وكأنني في عالمٍ غير العالم.

- أجل. -قال- لقد رأيتُكِ. كنتِ تبدين كالمُنوَّمة بالإيحاء.

ركبا الإكسبريس، وجلسا معًا. امتلأ ميدان سان مارتين بمرتادي السينما الذين خرجوا مِن عروض الأفلام الأولى، ومضوا سائرين تحت أعمدة الإنارة. بينما أحاطَت بالمُربَّع الذي يتوسَّط المدينةَ شبكةٌ من السيارات. دقّ ألبِرتو جرس الإكسبريس قبل أن يصل إلى محطة مدرسة رايموندي بقليل.

- لستَ مُضطَرًّا إلى مرافقتي. -قالَت- أستطيع أن أذهب وحدي. لقد أخذتُ من وقتك الكثير.

فاحتجّ ألبِرتو وأصرّ على مرافقتها. بدا الشارع المُمتَدّ إلى قلب لينسيه غارقًا في الغبش. مرّ من هناك بعض العُشَّاق، بينما وقف بعضهم الآخر في الظلام، ولكنهم كانوا يسكتون عن الهمسات ويقطعون القبلات حالما يرونهما.

- ألم تكُن مرتبطًا بشيء حقًا؟ -سألَت تيريسا.

- لا شيء، أقسم لك.

- لا أصدِّق.

- إنها الحقيقة، لماذا لا تصدِّقينني؟

تردَّدَت، وفي النهاية حسمَت أمرها:

- هل تواعد إحداهن؟

- كلّا. -قال.

- مِن المُؤكَّد أنك تكذب. لعلّك قد واعدتَ فتيات كثيرات.

- كثيرات، كلّا. -قال ألبِرتو- ولكني قد واعدتُ بعض الفتيات. ماذا عنكِ، هل واعدتِ كثيرين؟

- أنا؟ لم أواعد أحدًا.

«وماذا لو طلبتُ منها أن تواعدني في هذه اللحظة؟»، تساءل ألبِرتو.

- ليس صحيحًا. -قال- لا بدّ أنكِ قد واعدتِ كثيرين.

- ألَّا تصدِّقني؟ دعني أخبرك بشيء: إنها أول مرة يدعوني فيها شاب إلى السينما.

أما جادة آريكيپا، التي تزدحم بصفَّيْن من السيارات دائمًا، فلقد صارت الآن تبعُد عنهما كثيرًا. ضاق الشارع، واشتدَّت كثافة الغبش. بينما انزلقَت مِن الأشجار إلى الرصيفِ قطراتٌ خفيفة، تكاد لا تُرَى، مِن رذاذ المساء الذي ما زالت الأوراق والأفرع مُحتفِظةً به.

- لا بدّ أنكِ لم ترغبي في ذلك.

- ماذا؟

- لم تواعدي أحدًا لأنكِ لم ترغبي في ذلك... -تردَّد لحظةً- كل الجميلات يواعدن فتيانًا كثيرين، كما يحلو لهن.

- أوه! -قالت تيريسا- لستُ جميلة. أتحسبني لا أدرك ذلك؟

اعترض ألبِرتو بحرارة، وقال مُؤكِّدًا:

- أنتِ من أجمل الفتيات اللاتي رأيتُ في حياتي.

نظرَت إليه تيريسا مرة أخرى.

- أتسخر مني؟ -تلعثمَت.

«يا لي مِن أخرق»، فكَّر ألبِرتو. سمع وقع خطوات تيريسا القصيرة على الأرض المرصوفة. كانت تقطع خطوتَيْن مقابل كل خطوة له. رآها ألبِرتو وقد مالَت برأسها قليلًا، وعقدَت ذراعَيْها على

صدرها، وأطبقَت فمها. أما الشريط الأزرق، فلقد تراءى أسود اللون، وامتزج بشعرها. كان الشريط يظهر كلَّما مرَّت قرب عمود إنارة، ثم لا تلبث العتمة أن تلتهمه من جديد. وصلا إلى باب البيت، في صمت.

- شكرًا على كل شيء. -قالت تيريسا- شكرًا جزيلًا.

تصافحا.

- إلى اللقاء قريبًا.

دار ألبِرتو على عقبَيْه، وما كاد يقطع خطوتَيْن حتى عاد إليها.

- تيريسا.

كانت قد رفعَت يدَيْها وهمَّت بطرق الباب، غير أنها التفتَت إليه، مُتفاجِئة.

- هل أنتِ مرتبطة بشيء غدًا؟ -سأل ألبِرتو.

- غدًا؟

- أجل. أدعوكِ إلى السينما. هل ترغبين في ذلك؟

- لستُ مرتبطة بشيء. شكرًا جزيلًا.

- سأمرّ بكِ في الخامسة. -قال.

انتظرَت تريسا حتى غاب ألبِرتو عن ناظرَيْها قبل أن تدخل إلى البيت.

*

ما كادَت أمّه تفتح الباب حتى بدأ ألبِرتو يعتذر، قبل أن يلقي عليها التحية. أطلَّت بعينَيْن ملؤهما العتاب، وتنهَّدَت. جلسا في الصالة. بينما لم تنبس أمّه بشيء، وإنما راحت تنظر إليه باستياء. شعر ألبِرتو بضجر لا نهاية له.

- سامحيني. -كرَّر ألبِرتو مرة أخرى- لا تغضبي مني يا أمّي.

أقسم لكِ إنني قد بذلتُ قصارى جهدي حتى أغادر، ولكنهم لم يسمحوا لي بذلك. وأنا متعب قليلًا. هل يمكنني أن أخلد إلى النوم؟

لم تحِر أمّه جوابًا. ظلَّت تنظر إليه مُستاءةً، وألبِرتو يتساءل: «في أي ساعة تبدأ؟». ولكنها لم تستغرق طويلًا: إذ دفنَت وجهها في يدَيْها فجأة، وما هو إلَّا قليل حتى شرعَت تبكي برقَّة. مضى ألبِرتو يربِّت على شعر أمّه، التي سألَته لماذا يُعذِّبها. أقسَم لها إنها أحبّ الناس إليه، فنعتَته بالمنافق، ابن أبيه. وبين تنهيدات وابتهالات إلى الرَّب، أخذَت تحدِّثه عن الكعك والفطائر التي تخيَّرَتها بعناية في متجر الناصية، وعن الشاي الذي برد على الطاولة، وعن عزلتها، وعن المأساة التي فرضها الرَّب عليها حتى يجرِّب قوتها الروحية وقدرتها على التضحية. مضى ألبِرتو يمسح على رأسها بيده، وينحني طابعًا القبلات على جبينها. ويفكِّر: «ها هو أسبوع آخر سوف يمرّ من دون أن أذهب إلى ذات القدمَيْن الذهبيتَيْن». ثم هدأت الأمّ وطالبَته بأن يتذوَّق الطعام الذي أعدَّته بيدَيْها. وافق ألبِرتو، وبينما هو يتناول حساء الخضراوات، راحت أمّه تعانقه وتقول له: «أنت السند الذي ليس لي سواه في هذا العالَم». أخبرَته بأن والده ظلَّ قرابة ساعة في البيت، وراح يقدِّم إليها العروض بصنوفها كافة -رحلة إلى الخارج، الصلح الظاهري، الطلاق، الافتراق الودّي- ولكنها رفضَت عروضه كلها، بلا تردُّد.

رجعا إلى الصالة، واستأذنها ألبِرتو في التدخين. أومأت برأسها. ولكنها ما كادت تراه وهو يشعل السيجارة حتى أجهشَت بالبكاء وطفقَت تتكلَّم عن الزمن، وعن الأطفال الذين يصبحون رجالًا، وعن الحياة الزائلة. تذكَّرَت طفولتها، أسفارها إلى أوروبا، صديقات المدرسة، الشباب المشرق، الخُطَّاب، الفرص العظيمة التي رفضَتها من أجل ذلك الرجل الذي يصرّ الآن على أن يدمِّرها.

تحدَّثَت عنه خافضةً صوتها، راسمةً على وجهها أمارات الشجن. أخذَت تردِّد مرارًا وتكرارًا: «كان مختلفًا في شبابه». ومضَت تستحضر قدراته الرياضية، وانتصاراته في بطولات التنس، وأناقته، ورحلتهما إلى البرازيل في شهر العسل، والتمشية على شاطئ إيبانيما عند منتصف الليل وقد تشابكَت يده ويدها. «لقد أفسده أصدقاؤه»، قالت، «إن ليما أفسد مدينة في العالَم بأسره. ولكن صلواتي سوف تخلِّصه!». أصغى إليها ألبِرتو صامتًا، وهو يفكِّر في ذات القدمَيْن الذهبيتَيْن التي لن يراها هذا السبت أيضًا، وفي ردّ فعل العَبْد متى علم بأنه قد رافق تيريسا إلى السينما، وفي پلوتو الذي أصبح يواعد إيلينا، وفي المدرسة العسكرية، وفي الحيّ الذي لم يذهب إليه منذ ثلاثة أعوام مضَت. بعد ذلك تثاءبَت أمّه، فقام ألبِرتو وتمنَّى لها ليلةً طيبة. ذهب إلى حجرته، وبدأ يخلع ثيابه، فرأى في خزانته ظرفًا يحمل اسمه مكتوبًا بحروف مطبوعة. وجد بداخله ورقة من فئة الخمسين صولًا.

- لقد تركها من أجلك. -قالت له أمّه من مكانها على أعتاب الحجرة. ثم تنهدَّت-: لم أقبل منه شيئًا سوى ذلك. يا لابني المسكين! ليس من العدل أن تضحِّي بنفسك أنت أيضًا!

عانق أمّه رافعًا جسدها في الهواء، ثم دار حول نفسه وهي بين ذراعَيْه، وقال: «سوف ينصلح كل شيء ذات يوم يا أمّي العزيزَة، وسأفعل كل ما تريدين». ابتسمَت في سعادة وأكَّدَت: «لسنا في حاجة إلى أحد، كائنًا مَن كان». وفي تلك الدوامة مِن المعانقات، طلب منها الإذن في الخروج.

- لن أبقى بالخارج أطول مِن دقائق، حتى أتنشَّق القليل من الهواء. -قال لها.

تجهَّمَت، ولكنها قابلَت طلبه بالموافقة. ومرة أخرى، لفّ ألبِرتو

عنقه بالربطة، وارتدى سترته، وصفَّف شعره بالمشط، ثم خرج. ومِن خلال النافذة، ذكَّرَته أمّه:

- لا تنسَ أن تصلِّي قبل النوم.

*

كان بايانو هو الذي أخبر الثكنة بلقبها. ذات أحد، والليل ينتصف، والطُلَّاب يخلعون زيّ الخروج ويلتقطون علب السجائر المُهرَّبة من الضابط المناوب في جوف القبعات، بدأ بايانو يتحدَّث إلى نفسه، ويتكلَّم بأعلى صوت عن امرأة مِن المُربَّع السكني الرابع في أواتيكا[1]. أخذَت عيناه الجاحظتان تدوران في محجريهما وكأنهما كرتان مِن حديد تدوران في حلقة مُمغنَطة. جاءت كلماته ونبرة صوته يلفّهما الضباب.

- اصمتْ أيها المُهرِّج. -قال النَّمِر- اتركنا في سلام.

ولكنه ظلَّ يتكلَّم وهو يرتِّب الفراش، فسأله كابا مِن مكانه في السرير:

- ماذا قلتَ إنها تُدعَى؟

- ذات القدمَيْن الذهبيتَيْن.

- لا بدّ أنها جديدة. -قال أروسپيدي- أعرف المُربَّع السكني الرابع كاملًا، ولا يبدو لي هذا الاسم مألوفًا.

وفي الأحد التالي، انطلق النَّمِر وكابا وأروسپيدي يتحدَّثون عنها أيضًا. ويلكز كلٌّ منهم الآخر بمرفقه ضاحكًا. «ألم أخبركم؟»، قال بايانو، مزهوًّا بنفسه. «اهتدوا بنصائحي دائمًا!». وبعد مضي أسبوع واحد، صار نصف طُلَّاب القسم يعرفونها، وبدأ اسم ذات القدمَيْن الذهبيتَيْن يتردَّد صداه في سمع ألبِرتو كالموسيقى المألوفة. أثارت

(١) اشتهر طريق أواتيكا بانتشار المواخير في خمسينيات القرن الماضي.

مخيلته الإشارات التي سمعها مِن أفواه الطُلَّاب، تلك الإشارات الجامحة على غموضها. بات الاسم يتجلّى في أحلامه وقد اكتسب سمات جسدية غريبة، متناقضة. كانت هي نفسها في كل مرة، وإن اختلفَت في كل مرة، وبات لها حضور يتلاشى كلَّما همَّ بأن يلمسها أو يكشف وجهها. صارت تثير نزواته الأشدّ جموحًا أو تغمره بحنان لا ينتهي، فيُخيَّل إليه أنه يكاد يموت مِن فرط اللهفة.

كان ألبِرتو من الطُلَّاب الأكثر ذكرًا لذات القدمَيْن الذهبيتَيْن في القسم. لم يرتَب أحد في أنه لم يعرف طريق أواتيكا ونواحيه إلَّا سماعًا، لأنه يهوِّل الطرائف ويبتكر القصص بكل صنوفها. وإن لم ينجح ذلك في التخفيف من الشعور الحميمي بالاستياء الذي تمكَّن من روحه. فكلَّما أكثر من وصف المغامرات الجنسية لرفقائه، الذين يضحكون أو يدسّون أيديهم في جيوبهم بلا أدنى شعور بالخجل، زاد يقينه بأنه لن يشارك الفراش امرأةً واحدة، إلَّا في الأحلام، وعندئذ يشعر بالاكتئاب ويقسم على الذهاب إلى أواتيكا في الإجازة القادمة، وإن اضطُرّ إلى سرقة عشرين صولًا، وإن انتقلَت إليه عدوى الزهري.

نزل في المحطة التي تقع على ناصية جادة الثامن والعشرين من يوليو وجادة ويلسون. مضى يفكِّر: «لقد أتممتُ الخامسة عشرة، ولكني أبدو أكبر من سنّي. ليس هناك سبب واحد يجعلني أتوتَّر». أشعل سيجارة، ثم ألقاها بعد أن تنشَّق نفسَيْن من الدخان. أخذَت جادة الثامن والعشرين من يوليو تمتلئ بالمارة كلَّما توغَّل فيها. وبعد أن قطع خطوط ترام ليما-تشوريوس، وجد نفسه وسط جمع مِن العُمَّال والخادمات، بعضهم خلاسيون لهم شعر أملس، وبعضهم سامبو يتمايلون في مشيتهم كالراقصين، وبعضهم هنود لهم بشرة نحاسية، وبعضهم مِن السكان الأصليين الذين ترتسم الابتسامات

على وجوههم. وعلى الرغم من ذلك، فلقد عرف أنه قد بلغ حيّ لابيكتوريا مِن رائحة الأطعمة والمشروبات الكريولية[1] التي تشبَّع بها الهواء، تلك الرائحة التي يكاد المرء يراها بعينَيْه، رائحة لحم التشيتشارون وشراب البيسكو، النقانق وإفرازات العرق، البيرة والأقدام.

قطع ميدان لابيكتوريا، الشاسع المزدحم، فذكَّره الإنكا الحجري الذي يشير بيده إلى الأفق بالبطل، كما ذكَّره ببايانو الذي قال: «إن مانكو كاپاك[2] قوَّاد، فهو يشير بإصبعه إلى طريق أواتيكا». أرغمَته الحشود على السير ببطء. وأحسّ بالاختناق. بدَت أضواء الجادة خافتة ومتباعدة عن عمد، حتى تبرز تلك الخيالات المشؤومة، خيالات الرجال الذين يدسّون أنوفهم في نوافذ البيوت المُتطابِقة المُتراصَّة على امتداد الأرصفة. وعلى ناصية أواتيكا وجادة الثامن والعشرين من يوليو، سمع ألبِرتو سيمفونية من الشتائم آتية من حانةِ قزمٍ ياباني. نظر إلى هناك، فوجد جمعًا من الرجال والنساء يتشاجرون بضغينةٍ حول طاولة مُغطَّاة بالقوارير. تمهَّل بضع ثوانٍ على الناصية. مضى واضعًا يدَيْه في جيبَيْه، مُتلصِّصًا على الوجوه مِن حوله. بدَت عيون بعض الرجال وكأنها مِن زجاج. وتراءى بعضهم الآخر في غاية البهجة.

هندم سترته، ودخل إلى المُربَّع السكني الرابع، الأعلى قيمةً. رسم على وجهه شبح ابتسامة تنمّ عن ازدراء، وإن لم تخلُ نظرته من الهمّ. لم يُضطَرّ إلى التوغُّل أكثر من بضعة أمتار. كان يعرف، عن

---

(١) كريولي: للكلمة أكثر من معنى، غير أنها تُستخدَم في هذا السياق تحديدًا لنسبة الأشخاص أو الأشياء، من قبيل الموسيقى والأطعمة، إلى المنطقة الساحلية من بيرو.

(٢) مانكو كاپاك: مُؤسِّس حضارة الإنكا طبقًا للمُؤرِّخين.

ظهر قلب، أن ذات القدمَيْن الذهبيتَيْن تسكن في البيت الثاني. وقف على الباب ثلاثة رجال، في صفٍّ واحد، رجل تلو آخر. ألقى ألبِرتو نظرة مِن خلال النافذة: فرأى صالة انتظار شديدة الضيق، مِن الخشب، يضيئها مصباح أحمر. ضمَّت الصالة كرسيًّا، وصورةً باهتة مُعلَّقة على الجدار، يتعذَّر تمييز صاحبها، ومقعدًا صغيرًا تحت النافذة. «إنها قصيرة القامة»، فكَّر، مُحبَطًا. لمسَّت كتفه يد.

- أيها الشاب. -قال صوتٌ مُسمَّم برائحة البصل- هل عميت أم أنك تتصنَّع الذكاء؟

لم تضئ أعمدة الإنارة إلَّا منتصف الشارع. بينما تناهى إلى النافذة ضوء أحمر شديد الخفوت. لم يتبيَّن ألبِرتو الوجه المجهول. في تلك اللحظة تأكَّد له أن جموع الرجال هناك يجوبون الشارع ملتصقين بالجدران، حيث يتوارون عن الأنظار تحت الغبش. أما منتصف الشارع، فلقد خلا من المارة.

- ماذا إذن؟ -سأل الرجل- على أيهما استقررتَ؟

- ماذا بك؟ -سأل ألبِرتو.

- لا يهمّني أمرك مطلقًا. -قال المجهول- ولكني لستُ أحمق. لا أحد يضحك على ذقني، اعلمْ ذلك. لا ذقني ولا غير ذقني!

- حسنًا. -قال ألبِرتو- ماذا تريد؟

- قفْ في الطابور. ولا تتصنَّع الذكاء.

- حسنًا. -قال ألبِرتو- لا تنفعل.

ابتعد عن النافذة، فلم يحاول الرجل أن يستوقفه بيده. وقف في آخر الطابور مُتَّكِئًا إلى الجدار، ومضى يدخِّن سيجارة تلو أخرى، حتى أتى على أربع سجائر. دخل الرجل الواقف أمامه، ولكنه سرعان ما خرج. ثم ابتعد مُغمغِمًا بشيء عن تكاليف الحياة. عندئذ جاء صوت امرأة، على الجانب الآخر من الباب:

- ادخل.

قطع صالة الانتظار الخالية، التي يفصلها عن الحجرة بابٌ من الزجاج المُغبَّش. «لم أعُد خائفًا»، فكَّر. «أنا رجل». دفع الباب. كانت الحجرة صغيرة شأن صالة الانتظار. أما المصباح، الأحمر بدوره، فتراءى أشدّ قوة، وقسوة. اكتظَّت الحجرة بالأشياء. وللحظات، شعر ألبِرتو بالتيه، وحامَت نظراته في المكان من دون أن تستقرّ على تفصيلة واحدة، فلم يرَ سوى البقع بأبعادها كافة. حتى إنه قد ألقى نظرة سريعة على المرأة المُمدَّدة في الفراش من دون أن يرى وجهها، ولم يحتفظ منها إلَّا بالأشكال الداكنة التي زيَّنَت الروب، تلك الظلال التي ربما كانت رسومَ أزهارٍ أو حيوانات. ثم أحسّ بالهدوء مرة أخرى. جلسَت المرأة على الفراش. بالفعل، بدَت قصيرة القامة: تكاد قدماها لا تصلان إلى الأرض. كما شفّ شعرها المصبوغ عن جذور سوداء تحت الخصلات الشقراء المتناثرة. ابتسم له وجهها الذي بدا كثيفَ الزينة. خفض رأسه، فرأى سمكتَيْن من اللؤلؤ، مفعمتَيْن بالحياة، أرضيتَيْن، مكتنزتَيْن باللحم، «يودّ المرء أن يلتهمهما دفعةً واحدة، ومن دون زبد»، كما قال بايانو. كانتا غريبتَيْن تمامًا عن ذلك الجسد الممتلئ، وعن ذلك الفم الذي لا مذاق له ولا شكل، وعن هاتين العينَيْن الخاليتَيْن من الحياة اللتين تتأمَّلانه.

- أنت مِن ليونسيو پرادو. -قالَت له.

- صحيح.

- مِن القسم الأول، الفرقة الخامسة؟

- أجل. -أجاب ألبِرتو.

أطلقَت قهقهة.

- اليوم جاء ثمانية منهم. -قالَت- ولا أعرف عدد الذين جاؤوا في الأسبوع الماضي. لقد أصبحتُ تميمة الحظّ عندكم.

- هذه أول مرة لي. -قال ألبِرتو وقد احمرّ وجهه- أنا. . .
قاطعَته قهقهةٌ أخرى، أعلى من سابقتها.

- لا أؤمن بالخرافات. -قالَت وهي لم تكفّ عن الضحك- لا أعمل بالمجان، وأنا أكبر مِن أن أصدِّق هذه الحكايات. كل يوم يظهر أحدهم مُدَّعيًا أنها أول مرة له، يا للوقاحة.

- لم أقصد ذلك. -قال ألبِرتو- أحمل نقودًا.

- يروقني ذلك. -قالت- ضعها فوق الخزانة، وأسرع أيها الكاذيت الصغير.

تعرَّى ألبِرتو ببطء، ومضى يطوي ثيابه قطعةً قطعة، بينما هي تنظر إليه نظرة خالية من الحماسة. تعرَّى ألبِرتو من الثياب، فزحفَت على ظهرها فوق الفراش، بلفتة فاترة، وفتحَت الروب. كانت عارية، وإن ارتدَت صدرية وردية، مُتهدِّلة بعض الشيء، تكشف منبت الصدر. «إنها شقراء بحق»، فكَّر ألبِرتو. ترك جسده يسقط إلى جوارها، فما لبثَت أن وضعَت ذراعها على ظهره وضمَّته إليها. أحسّ ببطن المرأة يتلوَّى تحت بطنه، من أجل وضع أفضل ورابط أكثر ملاءمة. ثم ارتفعَت ساقاها وانثنَتا في الهواء، فأحسّ بالسمكتَيْن تجثمان بنعومة على جانبَيْه، وتستقرَّان هناك لحظة، وتتقدَّمان نحو كليتَيْه، وتبدآن في النزول على ردفَيْه وفخذَيْه، وتتحرَّكان صعودًا وهبوطًا، ببطء. بعد قليل انضمَّت يداها إلى قدمَيْها، فاتكأت بهما على ظهره، ثم أخذَت تجوب جسده براحتَيْها، مِن الخصر إلى الكتفَيْن، على إيقاع قدمَيْها. كان فم المرأة قريبًا من أذنه، فسمع شيئًا، همهمة خفيضة، همسة، ثم شتيمة. وتجمَّدَت اليدان والسمكتان.

- هل نأخذ قيلولةً أم ماذا؟ -قالت.

- لا تغضبي. -تلعثم ألبِرتو- لا أعرف ماذا جرى لي.

- أنا أعرف. -قالَت- أنت مدمن استمناء.

ضحك في غير حماسة، لاعِنًا، فإذا بالمرأة تطلق القهقهة الرنَّانة السوقية من جديد، وتقوم دافعةً جسده إلى جانبها. جلسَت على الفراش وحدَّقَت إليه لحظةً بعينَيْن خبيثتَيْن، لم يكُن ألبِرتو قد رآهما حتى تلك اللحظة.

- ربما كنتَ قديسًا صغيرًا بحقّ. -قالَت المرأة- استلقِ على الفراش.

تمدَّد ألبِرتو. رأى ذات القدمَيْن الذهبيتَيْن وقد ركعَت على ركبتَيْها إلى جواره. رأى بشرتها البيضاء التي تورَّدَت قليلًا، وشعرها الذي جعلَه الضوء الآتي من الخلف يبدو أشدّ دكنةً، خطر على باله تمثالٌ في المتحف، دميةٌ من الشمع، قردةٌ رآها في السيرك، فلا انتبه إلى يدَيْها وحركتها النشيطة ولا سمع صوتها المعسول الذي أخذ ينعته بالشقي، المُنحَلّ. ثم تلاشَت الرموز والأشياء، ولم يبقَ سوى الضوء الأحمر الذي غمره، واللهفة الشديدة التي استحوذَت عليه.

*

تحت ساعة لاكولمينا، المُنصَّبة أمام ميدان سان مارتين، يتمايل بحرٌ من القبعات العسكرية البيضاء في المحطة الأخيرة للترام المُتَّجه إلى كاياو. بينما ينظر باعة الصحف اليومية وسائقو السيارات والمُشرَّدون وأفراد الحرس المدني من أمكنتهم على رصيف فندق بوليڤار وحانة رومانو، ويتأمَّلون سيل طُلَّاب العسكرية الذي يتدفَّق بلا انقطاع: يأتون جماعات، من كل صوب، ويحتشدون حول الساعة، هناك حيث يترقَّبون وصول الترام. يخرج بعضهم من الحانات المجاورة، فيعيقون حركة السير، ويردّون بالشتائم على قادة السيارات الذين يطلبون الإذن في المرور، ويلاحقون النساء اللاتي يتجرَّأن على عبور تلك الناصية، ويذرعون المكان من جانب إلى

آخر، ويتبادلون السباب والمزاح. سرعان ما يتحلَّق طُلَّاب العسكرية حول الترام. وبحكمة، يتقبَّل المدنيون أن يزيحهم الطُلَّاب إلى آخر الطابور. يتمتم طُلَّاب الفرقة الثالثة لاعنين كلَّما أحسّ أحدُهم بيدٍ تطبق على مُؤخَّر عنقه -بعد أن رفع قدمه تأهُّبًا للصعود إلى عربة الترام- وسمع صوتًا يقول له: «الطُلَّاب، يليهم الكلاب».

- الساعة الآن العاشرة والنصف. -قال بايانو- آملُ ألَّا تكون الشاحنة الأخيرة قد تحرَّكَت.

- بل إن الساعة لم تتجاوز العاشرة والعشرين دقيقة. -قال أروسپيدي- سوف نصل في الموعد.

ازدحم الترام بالركاب. ظلّ كلاهما واقفًا. كانت شاحنات المدرسة تقلّ الطُلَّاب من بيابيستا في أيام الأحد.

- انظرْ، إنهما كلبان. -قال بايانو- يضع كلٌّ منهما يده على كتفه حتى يخفي شارته. يا للدهاء.

- معذرة. -قال أروسپيدي وهو يشقّ طريقه إلى المقعدَيْن حيث يجلس طالبا الفرقة الثالثة، اللذان لمحاهما قادمَيْن، فشرعا يتجاذبان أطراف الحديث. كان الترام قد تجاوز ميدان الثاني من مايو، وانطلق وسط المزارع الخفية.

- مساء الخير أيها الكاديت. -قال بايانو.

تظاهر الفَتَيان بأنهما لم ينتبها إليه، فلمس أروسپيدي رأس أحدهما بيده.

- نحن في غاية التعب. -قال بايانو- فقوما من مكانكما!

أطاع الطالبان أمره.

- ماذا فعلتَ أمس؟ -سأل أروسپيدي.

- لم أفعل شيئًا تقريبًا. ذهبتُ إلى حفل يوم السبت، ولكنه انقلب جنازة. كان يُفترَض أنه حفل عيد ميلاد، على ما أعتقد.

ولكني وصلتُ إلى هناك، فوجدتُ فوضى جهنمية تعمّ المكان. وإذا بالمرأة التي فتحَت لي الباب تصرخ «أحضِرْ طبيبًا وكاهنًا». اضطُرِرتُ إلى الخروج مهرولًا، لأن شجارًا عنيفًا قد نشب هناك. كما ذهبتُ إلى أواتيكا أيضًا. بالمناسبة، لديّ ما أحكيه لأفراد القسم عن الشَّاعِر.

- ماذا؟ -سأل أروسپيدي.

سوف أحكي عندما يجتمع الطُلَّاب كلهم. إنها قصة مثيرة.

ولكنه لم ينتظر حتى يصل إلى الثكنة. مضَت آخر شاحنات المدرسة في جادة لاسپالميراس في طريقها إلى أجراف لاپِرلا، فقال بايانو، الجالس فوق حقيبته:

- انظروا، تبدو وكأنها شاحنة القسم الخاصة. أغلب طُلَّاب القسم قد اجتمعوا على متنها.

- أجل يا نيغريتا. -قال النَّمِر- احترسي. ففي يدنا أن نغتصبك.

- أتعرفون شيئًا؟ -قال بايانو.

- ماذا؟ -سأل النَّمِر- هل اغتُصِبتَ بالفعل؟

- ليس بعد. -قال بايانو- إنه الشَّاعِر...

- ماذا بك؟ -سأله ألبِرتو، الذي جلس مُحاصَرًا في الزاوية.

- هل أنت هنا؟ هذا من سوء حظّك. يوم السبت ذهبتُ إلى ذات القدمَيْن الذهبيتَيْن، فأخبرَتني بأنك قد دفعتَ لها حتى تداعبك بيدها.

- كلام فارغ! -قال النَّمِر- لو طلبتَ مني لأسديت إليكَ هذا المعروف بالمجان.

تردَّدَت بعض ضحكات المجاملة على مضض.

- لو نام بايانو النيغرو مع ذات القدمَيْن الذهبيتَيْن، فلا بدّ أن ذلك أشبه بالقهوة بالحليب. -قال أروسپيدي.

- ولو كان الشَّاعِر فوقهما لشكَّل ثلاثتهم شطيرة محشوة بالنيغرو، شطيرة هوت دوغ. -أردف النَّمِر.

- انزلوا جميعًا! -صاح ضابط الصفّ پيسوا. كانت الشاحنة قد توقَّفَت أمام باب المدرسة، وأخذ الطُلَّاب يقفزون منها إلى الأرض. وفي طريقه إلى الداخل، تذكَّر ألبِرتو أنه لم يخبِّئ السجائر، فتراجع خطوة إلى الوراء. وفي تلك اللحظة فوجئ بأن بوابة نقطة الحراسة قد خلَت إلَّا من جنديَّيْن، ولم يُرَ هناك ضابط واحد. الشيء الذي لم يعهده الطُلَّاب.

- لعلّ الملازمون قد ماتوا. -قال بايانو.

- عسى أن يستجيب لك الرَّب. -أجاب أروسپيدي.

دخل ألبِرتو إلى الثكنة الغارقة في العتمة، على الرغم من الضوء الخافت الذي تسلَّل عَبْر باب الحمام المفتوح: راح الطُلَّاب يتجرَّدون من ثيابهم إلى جوار خزائن الثياب، فتراءت أجسادهم وكأنما قد ضُمِّخَت بالزيت.

- ألبِرتو فِرنانديس. -نادى أحدهم.

- مرحبًا. -قال ألبِرتو- ماذا يجري؟

كان العَبْد إلى جواره، بالبيجامة، وتراءى على وجهه الوجوم.

- ألا تدري؟

- لا أدري. ماذا حدث؟

- لقد اكتشفوا أمر سرقة اختبار الكيمياء، لأن الفاعل قد هشَّم زجاج نافذة. بالأمس حضر الكولونيل، وانطلق يصرخ في الضُبَّاط بقاعة الطعام. كلهم غاضبون بشدة. أما نحن، الطُلَّاب اللذين تسلَّمنا دورية الحراسة يوم الجمعة، فإننا...

- ماذا؟ -سأل ألبِرتو.

- محرومون من الإجازة حتى يُعرَف الفاعل.

- سحقًا. -قال ألبِرتو- اللعنة على روحه.

٥

ذات مرة قلتُ في نفسي: «لم أنفرد بها قطّ. ماذا لو انتظرتُها وهي في طريق الخروج مِن المدرسة؟». ولكني لم أجرؤ، فماذا أقول لها؟ ومِن أين أحصل على النقود اللازمة لأجرة المواصلات؟ كانت تيري تذهب لتناول الغداء لدى بعض الأقرباء، بالقرب من مدرستها، في ليما. خطر لي أن أذهب إلى هناك عند منتصف النهار، ثم أرافقها إلى بيت أقربائها، وهكذا نسير معًا لبعض الوقت. في العام الماضي، دفع لي أحد الفتيان خمسة عشر ريالًا مقابل عمل يدوي، ولكن ذلك لا يحدث في الصفّ الثاني الإعدادي. صرتُ أقضي ساعات وأنا أفكِّر في طريقة للحصول على النقود. حتى كان يومٌ خطر لي فيه أن أقترض صولًا واحدًا من إغيراس النحيل، الذي يدعونني إلى فنجان من القهوة بالحليب أو كأس من الشراب ويعطيني السجائر في كل مرة. صول واحد ليس بالمبلغ الكبير. التقيتُه بميدان بيابيستا مساء ذلك اليوم، فطلبتُ منه صولًا. «أجل يا فتى»، أجابني، «طبعًا، وإلَّا فما نفع الأصدقاء!». وعدتُه بأن أردّ له النقود في عيد ميلادي، فضحك وقال: «طبعًا. ردّ لي النقود متى استطعت. إليك». استقرّ الصول في جيبي، فداخلني شعورٌ بالسعادة، ولم أنَم ليلتها. في اليوم التالي، ظللتُ أتثاءب في الفصل طوال الوقت. وبعد ثلاثة أيام قلتُ لأمّي: «سوف أذهب لتناول الغداء في تشوكويتو، عند أحد الأصدقاء». استأذنتُ

مُعلِّم المدرسة في الخروج مِن المدرسة قبل الموعد بنصف ساعة، فوافق على طلبي، لأنني من التلاميذ الأكثر اجتهادًا.

كاد الترام يخلو من الرُّكَّاب، فلم يسعني التهرُّب مِن دفع الأجرة، ولكن من حسن الحظّ أن السائق قد سمح لي بأن أدفع نصف تذكرة وحسب. نزلتُ من الترام في ميدان الثاني مِن مايو. ذات مرة، وبينما أنا سائر في جادة ألفونسو أوغارتي، في الطريق لزيارة أبي الروحي، قالت لي أمّي: «تيريسيتا تدرس في هذا البناء الكبير». ولطالما احتفظتُ بتلك الذكرى. كنتُ أعرف أنني لا أكاد ألمح المدرسة حتى أتعرَّفها. ولكني لم أجد طريقي إلى جادة ألفونسو أوغارتي. أذكر أنني كنت في لاكولمينا، وما إن انتبهتُ إلى ذلك حتى هرولتُ عائدًا، عند ذاك وحسب وجدتُ البناء الأسود، بالقرب من ميدان بولوغنيسي. وصلتُ في موعد الانصراف بالتحديد. كان هناك عدد كبير من الطالبات، الأكبر والأصغر عمرًا. تملَّكني خجل مُروِّع، فدرتُ على عقبي مُتَّجِهًا إلى الناصية، حيث وقفتُ عند باب دكان وأنا أكاد أتوارى عن الأنظار خلف الواجهة، ورحتُ أراقب المكان. تفصَّد العرق من جسدي، مع أن الوقت شتاء. رأيتُها عن بُعْد، فكان أول ما بدر مني أن دخلت إلى الدكان وقد تبدَّدَت شجاعتي تمامًا. ولكني خرجتُ مرة أخرى، عند ذاك رأيتُ ظهرها وهي مُتَّجهة إلى ميدان بولوغنيسي. سارت وحيدة. وعلى الرغم من ذلك، لم أذهب إليها. غابت عن ناظري، فعدتُ إلى ميدان الثاني من مايو، حيث ركبتُ الترام عائدًا، ساخطًا. كان باب المدرسة مُوصدًا، والوقت لا يزال مُبكِّرًا. ما زالت لديّ خمسون سنتًا مُتبقِّية، ولكني لم أشترِ شيئًا لأتناوله. أمضيتُ يومي كاملًا في كدر، بل إنني كدتُ لا أنبس بكلمة واحدة في المساء، ونحن نستذكر دروسنا معًا. سألَتني ماذا بي، فتضرَّج وجهي.

في اليوم التالي، وبينما أنا في أوج الدرس، خطرَت على بالي فكرة فجأةً، وحدَّثتني بضرورة العودة إلى هناك وانتظارها أمام المدرسة. ذهبتُ إلى المُعلِّم واستأذنتُه في الخروج مرة أخرى. «حسنًا»، أجابني، «ولكن قُلْ لأمّك إنها لو جعلَتك تغادر المدرسة قبل الموعد كل يوم أضرَّت بك». صرتُ أعرف الطريق، فوصلتُ إلى المدرسة قبل موعد الانصراف. ما إن ظهرَت تلميذات المدرسة حتى تملَّكني الشعور نفسه، كما حدث في اليوم السابق، ولكني قلتُ في نفسي: «سوف أذهب إليها، سوف أذهب إليها». خرجَت من المدرسة ضمن آخر الفتيات المغادرات، وحيدة. ترقَّبتُ حتى ابتعدَت قليلًا، ثم شرعتُ أسير خلفها. وفي ميدان بولوغنيسي، أسرعتُ الخطى مقتربًا منها. بادرتُها قائلًا: «مرحبًا، تيري». فوجِئَت قليلًا. لمحتُ المفاجأة في عينَيْها، ولكنها أجابَتني: «مرحبًا، ماذا تفعل هنا؟»، جاء سؤالها عفويًّا، فلم أدرِ ماذا أختلق، وكل ما استطعتُ أن أقول لها: «خرجتُ مِن المدرسة قبل الموعد، فخطر لي أن أحضر لأنتظرك. لماذا تسألين؟». «من دون سبب»، قالت. «لمُجرَّد السؤال». استفهمتُ منها إن كانت ذاهبةً إلى بيت أقربائها، فردَّت بالإيجاب. «وأنت؟»، أردفَت. «لا أدري»، قلتُ لها. «سوف أرافقك، إن لم يكُن لديك ما يمنع». «حسنًا»، قالت. «المكان قريب من هنا». كان أخوالها يعيشون في جادة آريكا. كدنا لا نتحدَّث في الطريق. أجابت عن كل أسئلتي، ولكن مِن دون أن تنظر إليّ. وصلنا إلى إحدى النواصي، وهناك قالت لي: «أخوالي يعيشون في المُربَّع السكني القادم، ولذا فمِن الأفضل أن تكتفي بمرافقتي إلى هنا». ابتسمتُ، في حين مدَّت يدها إليَّ. «وداعًا»، قلتُ لها، «هل نستذكر دروسنا في المساء معًا؟». «نعم، نعم»، قالت، «لديّ أكوام من الدروس». وما هي إلَّا لحظة حتى أردفَت: «شكرًا جزيلًا لأنك قد جئت».

*

تقع لاپِرليتا[1] في نهاية الأرض الخلاء، بين قاعة الطعام والفصول، على مقربة من جدار المدرسة الخلفي، في بناء صغير من الإسمنت، له نافذة كبيرة تقوم مقام الواجهة، يطلّ منها ذلك الوجه المُذهِل في الصباح والمساء، وجه پاولينو الهجين: بعينَيْه الدقيقتَيْن اليابانيتَيْن، وشفتَيْه العريضتَيْن الزنجيتَيْن، وذقنه ووجنتَيْه النحاسيتَيْن الهنديتَيْن، وشعره الأملس. يبيع پاولينو في دكانه مُرطِّبات الكولا والبسكوت، القهوة والشكولاتة، الكراميل والكعك. كما يبيع السجائر وشراب الپيسكو -بضعف ثمنهما خارج المدرسة- خلف الدكان، أي في تلك المساحة المُسيَّجة التي لا سقف لها، بحذاء الجدار الخلفي، ذلك الموقع الذي كان مثاليًّا للقفز إلى خارج المدرسة قبل بدء الدوريات. ينام پاولينو على فراش من القشّ إلى جوار الجدار، فيزحف النمل على جسده في الليل كما يزحف على الشاطئ. تحت فراشه قطعةٌ من الخشب تحجب عن الأنظار فجوةً حفرها پاولينو بكلتا يدَيْه، مُتَّخِذًا منها مخبأ لسجائر ناسيونال وقوارير الپيسكو التي يهرِّبها إلى المدرسة سرًّا.

في أيام السبت والأحد، يذهب إلى وكر پاولينو الطُلَّاب المحرومون من الإجازة بعد الغداء، في مجموعات صغيرة، كيلا يثيروا الارتياب في النفوس. وهناك، يستلقي الطُلَّاب على الأرض، حيث يسحقون النمل بالأحجار المُسطَّحة بينما يفتح پاولينو باب المخبأ السرّي. يتَّسم ذلك الهجين بالخبث والسخاء معًا. إذ يتركهم يشترون بالدَّين، ولكنه يطالبهم بالتوسُّل إليه وتسليته أولًا. لا يتَّسع وكر پاولينو الصغير لأكثر مِن عشرين طالبًا في أقصى تقدير. وعندما

---

(١) يُرجَى التفريق بين «لاپِرلا»، المقاطعة حيث تقع مدرسة ليونسيو پرادو العسكرية، و«لاپرليتا»، الدكَّان الذي يقع داخل المدرسة.

يمتلئ المكان، يذهب الواصلون حديثًا إلى الأرض الخلاء، حيث يتمدَّدون أرضًا، ويلهون بالتصويب إلى الفِكّونة في انتظار أن يخرج الطُلَّاب مِن المخبأ حتى يحلّوا محلّهم. يكاد طُلّاب الفرقة الثالثة لا يجدون فرصة لحضور تلك الأمسيات، لأن طُلَّاب الفرقتَيْن الرابعة والخامسة إما يطردونهم وإما يرغمونهم على مراقبة الطريق من أجلهم. كانت تلك الأمسيات تمتدّ لساعات، فتبدأ بعد الغداء وتنتهي في موعد العشاء. تخفّ وطأةُ العقابِ عن الطُلَّاب المحرومين مِن الإجازة أيام الأحد، عندما يصبحون أكثر تقبُّلًا لفكرة الحرمان من الخروج. أما في أيام السبت، فيظلّ الواحد منهم مُحتفِظًا بشيء من الأمل، ويستنفد قواه في التخطيط للخروج إما بفكرةٍ مُبتكَرة ألمعية تحرِّك مشاعر ضابط الخدمة وإما بجرأةٍ وطيشٍ عن طريق الهرب مِن الباب الرئيسي في وضح النهار. وعلى الرغم من ذلك، لا ينجح في الخروج إلَّا واحد أو اثنان مِن عشرات الطُلَّاب المحرومين من الإجازة. أما الباقون فيجوبون باحات المدرسة المهجورة، ويدفنون أنفسهم في أسِرَّة الثكنات، بأعينٍ مفتوحة، في محاولةٍ منهم لمغالبة الضجر المُميت بالخيال. كان الطُلَّاب المحرومون من الإجازة يذهبون للتدخين وشرب البيسكو في مخبأ پاولينو، هناك حيث يلتهمهم النمل، ما دام في حوزتهم شيء من المال. وفي صباح الأحد، يُرفَع القداس الإلهي بعد الفطور. كان لكنيسة المدرسة كاهنٌ أشقر، بشوش، يلقي المواعظ الوطنية التي يحكي فيها سِيَر الأبطال النموذجية التي لا يعيبها شيء، ويحكي عن حبّ الأبطال للرَّب ولبيرو، ويمجِّد الانضباط والنظام، ويقارن رجال العسكرية بالمُبشِّرين، وأبطال الوطن بشهداء المسيحية، والكنيسة بالجيش. يقدِّر الطُلَّابُ كاهنَ المدرسة حقَّ قدره، لأنهم يلمسون فيه رجولةً حقيقية: فكثيرًا ما رأوه بالثياب المدنية وهو يحوم

حول عالَم كاياو السُّفلي، ورائحة الكحول تنبعث من فمه، والشهوة تتوهَّج في عينَيْه.

*

كما نسِي أنه ظلَّ مغمض العينَيْن حتى بعد أن استيقظ بوقت طويل في اليوم التالي. انفتح الباب، فأحسّ بالرعب يستقرّ في جسده من جديد. كتم أنفاسه موقنًا أنه هو القادم، وأنه قد جاء ليضربه. ولكنها كانت أمّه. بدَت في غاية الجدية، وأخذَت تنظر إليه مليًّا. «وماذا عنه؟»، سألها. «لقد خرج، الساعة تجاوزَت العاشرة». التقط نَفَسًا عميقًا وجلس على السرير. امتلأت الحجرة بالضوء. الآن وحسب انتبه إلى الحياة التي دبَّت في الشارع، والترام الصاخب، وأبواق السيارات. أحسّ بالوهن، وكأنه يمرّ بفترة نقاهة، ويتعافى من مرض أليم، طويل الأمد. انتظر أن تأتي أمّه على ذكر ما حدث. ولكنها لم تفعل. وإنما طفقَت تذرع المكان جيئةً وذهابًا، وتتظاهر بترتيب الحجرة، وتحرِّك المقعد، وتصلح وضع الأستار. «هيَّا نرجع إلى تشيكلايو»، قال. اقتربَت منه أمّه وبدأت تربِّت على رأسه. مرَّت أصابعها الطويلة على رأسه، وتخلَّلَت شعره بسهولة، ثم نزلَت إلى ظهره: فذكَّره ذلك الإحساس المُحبَّب الدافئ بزمنٍ غير الزمن. حتى الصوت الذي وصل إلى سمعه الآن كغدير الماء الرائق كان هو صوت طفولته. لم ينتبه إلى ما تقول أمّه، إذ لمس في موسيقى صوتها حنانًا، أما الكلمات فجاءت زائدةً عن الحاجة. حتى كان أن قالت له أمّه: «لا نستطيع العودة إلى تشيكلايو أبدًا. لا بدّ أن تعيش مع أبيك دائمًا». نظر إليها مرة أخرى مقتنعًا بأنها سوف تنهار نادمةً، ولكن أمّه بدَت في غاية الهدوء، بل إنها ابتسمَت أيضًا. «أفضِّلُ العيش مع الخالة آديلا على العيش معه»، صرخ، فحاولَت الأمّ أن تهدِّئ من روعه، في رباطة جأش. «الأمر أنك لم تقابله مِن قبل»، قالت له

بنبرة ثقيلة. «حتى هو لم يكُن يعرفك. ولكن كل شيء سوف يتغيَّر، وسوف ترى. متى تعرَّفتُما، أحبّ كلٌّ منكما الآخر كثيرًا، كما يحدث في العائلات جميعًا». «لقد ضربني ليلة أمس»، قال بصوت أجشّ. «لكمني وكأنني رجل كبير. لا أريد العيش معه». ظلَّت أمّه تمسح بيدها على رأسه، ولكنها لم تعُد ربتة، وإنما صارت ضغطًا لا يُطاق. «إنه حادّ الطباع، ولكنه رجلٌ طيب في قرارة نفسه»، قالت الأمّ. «ينبغي للمرء أن يعرف كيف يعامله. أنت أيضًا تحمل جزءًا من الذنب، لم تفعل شيئًا واحدًا للفوز به. وهو الآن يشعر نحوك باستياء شديد بسبب ما جرى ليلة أمس. ما زلتَ صغيرًا جدًّا، عاجزًا عن الفهم. سوف ترى أنني مُحِقّة. في وقت لاحق تدرك ذلك. اعتذرْ إليه حالما يرجع إلى البيت لأنك قد اقتحمتَ الحجرة. لا بدّ أن تطلب مرضاته. إنها الطريقة الوحيدة لإدخال السرور إلى نفسه».

أحسّ بقلبه يخفق خفقات مُدويّة ويقفز في صدره كما لو كان واحدًا من تلك الضفادع الضخمة التي تقفز في بستان بيت تشيكلايو، تلك التي تبدو الواحدة منها وكأنها غُدَّة ذات عينَيْن، وكأنها مضخّة تنتفخ وتنكمش. عند ذاك أدرك أنها: «تقف إلى جانب أبيه، وتتواطأ معه»، فاتَّخذ قرارًا بأن يتوخَّى الحذر. لم يعُد في إمكانه الوثوق بأمّه. بل إنه قد بات وحيدًا. سمع صوت الباب المُؤدِّي إلى الشارع ينفتح في منتصف النهار، فنزل الدَّرَج في طريقه للقاء أبيه. ومِن دون أن ينظر إلى عينيْه، قال له: «أعتذرُ عما جرى ليلة أمس».

*

- وماذا قالَت لك أيضًا؟ -سأل العَبْد.

- لم تقُل لي أكثر من ذلك. -قال ألبِرتو- ما زلتَ تسألني عن الشيء نفسه منذ أسبوع. ألا يمكنك أن تبدِّل موضوع الحديث؟

- معذرة. -أجاب العَبْد- ولكنه يوم السبت. لا بد أنها تحسبني كاذبًا.

- لماذا تحسبك كاذبًا؟ لقد راسلتَها. ولماذا تكترث لما تظنّ هي؟

- أحبّ تلك الفتاة. -قال العَبْد- ولا أودّ أن تراودها أفكار سيئة عني.

- أنصحك بأن تفكِّر في أمر سواها، فمَن يدري كم يطول الحرمان مِن الإجازة! -قال ألبِرتو- لعلّنا نبقى على هذه الحال عدة أسابيع. لا يليق بنا التفكير في النساء.

- لستُ مثلك. -قال العَبْد، بتواضع- لستُ قوي الشخصية. كنتُ أتمنَّى لو امتنعتُ عن التفكير في تلك الفتاة، ولكني لا أفعل شيئًا سوى التفكير فيها. أعتقد بأنني سوف أفقد عقلي إن لم أخرج يوم السبت المقبل. قلْ لي، هل سألَتك عني؟

- اللعنة! -أجاب ألبِرتو- لم أرَها لأكثر مِن خمس دقائق، على باب بيتها. كم مرة أكرِّر لك أنني لم أتكلَّم عن شيء معها؟ بل إنني لم أجد مُتَّسعًا مِن الوقت لرؤية وجهها بوضوح.

- ولماذا لا تريد أن تكتب إليها رسالة نيابة عني؟

- لأنني لا أريد. -قال ألبِرتو- لأن مزاجي لا يسمح بذلك.

- يبدو لي هذا شيئًا غريبًا. -قال العَبْد- تكتب الرسائل مِن أجل باقي الطُلّاب جميعًا، فلماذا لا تكتب مِن أجلي؟

- لا أعرف باقي الفتيات، ولستُ في مزاج يسمح بكتابة الرسائل. -قال ألبِرتو- لم أعُد في حاجة إلى النقود الآن. ولماذا أحتاجُ إلى النقود ما دمتُ لا أدري كم أسبوعًا لعينًا أظلّ حبيسًا هنا.

- سوف أخرج يوم السبت المقبل، أيًّا كانت الطريقة. -قال العَبْد- وإن اضطُرِرتُ إلى الهرب.

- حسنًا. -قال ألبِرتو- ولكن دعنا نذهب إلى پاولينو الآن، فلقد سئمتُ كل شيء وأريد أن أسكر.

- اذهبْ أنت. -قال العَبْد- سأبقى في الثكنة.

- هل أنت خائف؟

- كلّا. ولكني لا أحبّ أن يزعجني الآخرون.

- لن يزعجك أحد. -قال ألبِرتو- هيا بنا نسكر. وإن سخر أحدهم منك، مزِّقْ وجهه، وكفى. قُمْ. هيَّا.

خلَت الثكنة رويدًا رويدًا. كان طُلَّاب القسم المُعاقَبون العشرة قد استلقوا على الأسِرَّة وراحوا يدخِّنون السجائر بعد الغداء. ثم أخذ كوبرا يحثّ بعضهم على الذهاب إلى لاپِرليتا. بينما ذهب بايانو وآخرون للمشاركة في لعبة قمار نظَّمها طُلَّاب القسم الثاني المُعاقَبون. نهض ألبِرتو والعَبْد، وأوصد كلٌّ منهما خزانته، ثم ذهبا إلى الخارج. وفي باحة الفرقة، تراءت منصةُ العرض والأرض الخلاء مهجورتَيْن. مشى ألبِرتو والعَبْد إلى لاپِرليتا في صمت، وقد دسّ كلٌّ منهما يدَيْه في جيبَيْه. كان مساء هادئًا، لا ريح فيه ولا شمس. سمعا ضحكة تدوِّي فجأة. وعلى بعد أمتار، وسط الحشائش، لمحا طالبًا غاص رأسه في القبعة التي وصلَت إلى عينَيْه.

- لم ترياني، سيدي الكاديت. -قال باسمًا- كان في يدي أن أقتلكما.

- ألا تعرف كيف تؤدِّي التحية لمَن هم أعلى منك رتبة؟ -سأل ألبِرتو- انتباه، سحقًا!

هبّ الفتى واقفًا بقفزة واحدة، وأدَّى التحية العسكرية راسمًا على وجهه أمارات الجدية.

- هل دكّان پاولينو مزدحم؟ -سأل ألبِرتو.

- كلّا، سيدي الكاديت. هناك عشرة طُلَّاب تقريبًا.

- استلقِ على الأرض وكفى. -قال العَبْد.

- هل تدخِّن أيها الكلب؟ -سأل ألبِرتو.

- نعم، سيدي الكاديت. ولكني لا أحمل سجائر. فتِّشني إن شئت. لم أخرج منذ أسبوعَيْن.

- مسكين. -قال ألبِرتو- أكاد أموت مِن فرط الأسى. خُذْ!

أخرج ألبِرتو علبة سجائر من جيبه، أمام عينَي الفتى، الذي نظر إليه مرتابًا، ولم يجرؤ على أن يمدّ يده.

- خذْ سيجارتَيْن. -قال ألبِرتو- حتى ترى أنني طيب القلب.

نظر إليه العَبْد شاردًا. مدّ الطالب يده على استحياء، مِن دون أن يرفع عينَيْه عن ألبِرتو. أخذ سيجارتَيْن، وابتسم.

- شكرًا جزيلًا، سيدي الكاديت. -قال- أنت طيب القلب.

- عفوًا. -قال ألبِرتو- ولكن المعروف مقابل المعروف. الليلة تحضر إلى الثكنة لترتِّب فراشي. أنا مِن القسم الأول.

- عُلِم، سيدي الكاديت.

- هيا بنا نذهب. -قال العَبْد.

كان المدخل المُؤدِّي إلى وكر پاولينو عبارة عن باب مِن الصفيح، مستند إلى الجدار، غير مُثبَّت، تكفي هبة ريح قوية للإطاحة به. اقترب ألبِرتو والعَبْدُ بعد أن تأكَّد لهما خلوّ المكان مِن الضُبَّاط تمامًا. ومِن الخارج، سمعا ضحكات الحضور، وصوت كوبرا البارز وسط باقي الأصوات. اقترب ألبِرتو سائرًا على أطراف أصابعه، وأشار بيده إلى العَبْد حتى يلزم الصمت. وضع كلتا يدَيْه على الباب، ودفعه بغتة: فانطلق صوتٌ معدني. ومِن خلال فتحة الباب، رأيا دزينة من الوجوه المذعورة.

- كلكم إلى السجن! -قال ألبِرتو- السكارى، والمُخنَّثون، والمُنحَلّون، ومدمنو الاستمناء، كلكم إلى السجن.

كانا عند عتبة الباب، حيث وقف العَبْد خلف ألبِرتو، وقد ارتسمَت على وجهه الآن أمارات الوداعة والخضوع. وإذا بخيال رشيق كالقردة يقوم مِن بين الطُّلَّاب المُكدَّسين على الأرض، ويقف أمام ألبِرتو.

- ادخلا، سحقًا. -قال- بسرعة، وإلَّا فقد يراكما أحدهم. ولا تمزح هكذا أيها الشَّاعِر. سوف يفتضح أمرنا في أحد الأيام بسببك.

- لا يروقني أن ترفع الكلفة في حديثك إليَّ، أيها الخلاسي القذر. -قال ألبِرتو وهو يتجاوز عتبة الباب. التفت الطُّلَّاب إلى پاولينو، الذي تقطَّب جبينه، وانفرجَت شفتاه الغليظتان المُتورِّمتان كما تنفتح الصدفة.

- ماذا دهاك أيها الأبيض الباهت؟ أتريدني أن أوسعك ضربًا، أم ماذا؟

- أم ماذا. -أجاب ألبِرتو تاركًا جسده يسقط على الأرض. تمدَّد العَبْد إلى جواره. بينما ضحك پاولينو بجسده كاملًا. اختلجَت شفتاه. وللحظات، انكشفَت أسنانه الناقصة، غير المتناسقة.

- لقد أحضرتَ عاهرتك الصغيرة. -قال- ماذا تفعل لو اغتصبناها؟

- فكرة حسنة. -صاح كوبرا- هيا نضاجع العَبْد.

- ولماذا لا نضاجع ذلك القرد المدعو پاولينو؟ جسده أكثر امتلاء. -قال ألبِرتو.

- تحاول أن تفتعل شجارًا معي. -قال پاولينو وهو يهزّ كتفَيْه. ثم استلقى إلى جوار كوبرا. ردّ أحدُهم الباب إلى موضعه. اكتشف ألبِرتو قارورةً مِن شراب الپيسكو وسط الأجساد المُكوَّمة، فمدّ يده، ولكن پاولينو استوقفه قائلًا:

- الرشفة الواحدة بخمسة ريالات.

- أيها اللصّ. -قال ألبِرتو، ثم أخرج مِن حافظته خمسة صولات.

- عشر رشفات. -قال.

- لك وحدك؟ أم لك أنت وفتاتك الصغيرة؟ -سأل پاولينو.

- لكلينا.

أطلق كوبرا ضحكةً مجلجلة. دارَت القارورة على الطُلَّاب، بينما راح پاولينو يحصي عدد الرشفات، وينتزع القارورة مِن بين يدي الطالب الذي يشرب أكثر مما ينبغي. شرب العَبْد، ثم انطلق يسعل وقد امتلأت عيناه بالدموع.

- لم يفترق هذان الاثنان لحظةً واحدة منذ أسبوع. -قال كوبرا مشيرًا بيده إلى ألبِرتو والعَبْد- أودُّ أن أعرف ماذا يجري بينكما.

- حسنًا. -قال أحد الطُلَّاب مُستنِدًا برأسه إلى ظهر كوبرا- وماذا عن الرهان؟

استغرق پاولينو في حالة مِن الهياج النابض بالحياة، فانطلق يضحك ويربِّت على أكتاف جميع الحضور قائلًا «هيَّا، هيَّا»، اغتنم الطُلَّاب تلك الفرصة، وجعلوا يسترقون رشفات طويلة مِن شراب البيسكو، بينما راح پاولينو يقفز في المكان. ما هي إلَّا دقائق قليلة حتى خوَت القارورة. عقد ألبِرتو ذراعَيْه مستندًا إليهما برأسه، ناظرًا إلى العبد: كانت نملة حمراء تمشي على وجنته، وإن لم يظهر عليه أنه قد أحسّ بها. تجلَّى في عينَيْه بريقٌ سائل، وتراءَت بشرته في غاية الشحوب. «والآن سوف يلتقط پاولينو ورقة مالية، أو قارورة شراب، أو علبة سجائر، ثم تنبعث رائحة عفنة، بِركةٌ مِن النتن، ثم أفتح سروالي، وتفتح أنت سروالك، ويفتح هو سرواله، بينما يرتجف الهجين، ويرتجف الجميع، أتمنَّى لو أطلّ غامبوا برأسه وتشمَّم تلك

الرائحة». مضى پاولينو ينبش الأرض وقد أقعى في جلوسه. ما هو إلَّا قليل حتى قام وبين يدَيْه صُرَّة. حرَّكها، فرنَّت النقود. وإذا بوجهه كاملًا يشعّ حماسة عارمة، ومنخاراه ينتفخان، وصدغاه يختلجان، في حين غمر العرقُ وجهه المحتقن، وتمدَّدَت شفتاه المُتورِّمتان، اللتان انفرجَتا باحتثَيْن عن فريسة. «والآن يجلس، ويلتقط أنفاسه كالحصان أو الكلب، بينما يسيل اللعاب على عنقه، وتُصاب يداه بمسٍّ من الجنون، ويتقطَّع صوته، ارفعْ يدك أيها المُقزِّز، ويركل الهواء بقدمَيْه، ويصفِّر واضعًا لسانه بين أسنانه، ويغنِّي، ويصرخ، ويتمرَّغ فوق النمل، بينما تتساقط الخصلات على جبينه، أبعِدْ يدك وإلَّا أخصيناك، ويمدِّد جسده على الأرض، ويغوص برأسه في الحشائش والرمال، ويجهش بالبكاء، ثم تستغرق يداه وجسده في السكون، والموت».

- في الصرَّة قطعٌ معدنية من فئة الخمسين سنتًا، مجموعها يُقدَّر بنحو عشرة صولات. -قال پاولينو- وبالأسفل قارورة أخرى مِن البيسكو للفائز بالمركز الثاني. ولكن يجب على الفائز بالقارورة أن يدعو الباقين كلهم إلى الشراب.

وضع ألبِرتو رأسه بين ذراعَيْه وعيناه تستكشفان كَوْنًا متناهي الصغر، غارقًا في الظلمات، وأذناه تنصتان إلى هياج صاخب: أجساد تتمدَّد وتنكمش، ضحكات مكتومة، لهاث پاولينو المحموم. دار حول نفسه، مُستنِدًا برأسه إلى الأرض: وفوق رؤوسهم تراءى لوحٌ مِن الصفيح ورقعة مِن السماء الرمادية، كلاهما بالحجم نفسه. مال إليه العَبْد، وقد شحب جسده حتى امتدّ الشحوب إلى عنقه ويدَيْه: فظهرَت ينابيع زرقاء تحت بشرته.

- هيَّا بنا نذهب يا ألبِرتو. -همس إليه العَبْد- دعنا نخرج من هنا.

- كلّا . -قال ألبِرتو- أريد الفوز بتلك النقود.

والآن جاءت ضحكة كوبرا جامحة. مال ألبِرتو برأسه قليلًا، فتسنَّى له أن يرى بيادة كوبرا الضخمة، وساقَيْه الغليظتَيْن، وبطنه المكشوف من خلال القميص الكاكي، وسرواله المفتوحة أزراره، وعنقه المصقول، وعينَيْه اللتين لا ضوء فيهما. أنزل بعضهم سرواله، وإن اكتفى بعضهم الآخر بفتح أزرار السروال. بينما راح پاولينو يدور في تلك الحلقة، حلقة الأجساد، بشفتَيْه الرطبتَيْن، حاملًا صرَّة النقود الرنَّانة بإحدى يدَيْه، وقارورة الپيسكو بيده الأخرى. «كوبرا يريد رِيشَة»، قال طالبٌ، ولكن أحدًا لم يضحك. حلّ ألبِرتو أزرار سرواله ببطء، وقد أغمض عينَيْه نصف إغماضة، وحاول أن يستحضر وجه ذات القدمَيْن الذهبيتَيْن، وجسدها، وشعرها، ولكن صورتها قد تملَّصَت منه وتبخَّرَت لتفسح الطريق أمام صورة أخرى، لفتاة سمراء. حتى الفتاة السمراء كانت تهرب، ثم تعود، كاشفةً يدها وفمها الدقيق، بينما الرذاذ يتساقط فوق رأسها ويبلِّل ثيابها، وأضواء أواتيكا الضاربة إلى الحمرة تتلألأ في قرارة عينَيْها الداكنتَيْن. أما هو فيقول: سحقًا. بينما تبرز تلك الفخذ البيضاء المكتنزة، فخذ ذات القدمَيْن الذهبيتَيْن، ثم تتلاشى، وتمتلئ جادة آريكيپا بالسيارات التي تمرّ بالقرب مِن محطة رايموندي، حيث ينتظر هو والفتاة معًا.

- وأنت، ماذا تنتظر؟ -سأل پاولينو في سخط. كان العَبْد مُمدَّدًا على الأرض، جامدًا، ورأسه بين يدَيْه. بينما وقف الهجين أمامه، وتراءى عملاقًا. «ضاجعه يا پاولينو»، صاح كوبرا. «ضاجع عشيقةَ الشَّاعِر. ولو تحرَّك الشَّاعِر سحقتُ عظامه، أقسمُ لك». نظر ألبِرتو إلى الأرض كستنائية اللون التي تخلَّلَتها نقاط سوداء، ولكنها قد خلَت مِن الأحجار تمامًا. صلَّب جسده، وأحكم إطباق قبضتَيْه. مال پاولينو مُباعِدًا ركبتَيْه: حتى صارَت ساقَي العَبْد تحت جسده.

- إن لَمستَه، هشَّمتُ وجهك. -قال ألبِرتو.

- لقد وقع في حبّ العَبْد. -قال كوبرا، وإن وشى صوته بأنه قد فقد الاهتمام بألبِرتو وپاولينو. جاء صوته واهنًا، محتقنًا، بعيدًا.

ابتسم الهجين فاتحًا فمه: ولسانه يزيح كتلةً مِن الريق مُبلِّلًا شفتيْه.

- لن أفعل له شيئًا. -قال- كل ما في الأمر أنه في غاية الوهن. وأنا سوف أساعده.

ظلَّ العَبْد جامدًا، شاخصًا إلى السقف، بينما أخذ پاولينو يحلّ حزامه وأزرار سرواله. التفت ألبِرتو برأسه. كان الصفيح أبيض اللون، والسماء رمادية. تردَّدَت في سمعه موسيقى، حوار النمل الأحمر داخل متاهاته المُمتدَّة في جوف الأرض، متاهات غارقة في الضوء الأحمر، بريق ضارب إلى الحمرة أضفى على الأشياء دكنةً، وبشرة المرأة التي التهمَتها النيران مِن أطراف قدمَيْها الصغيرتَيْن المُحبَّبتَيْن إلى النفس حتى جذور شعرها المصبوغ، تراءت على الجدار بقعة ضخمة، وجسد ذلك الفتى الذي يتمايل بحركة منغومة ويضبط الإيقاع مثل البندول، ويثبِّت المكان في الأرض، ويمنعه مِن التحليق في الهواء ثم السقوط في دوامة أواتيكا الضاربة إلى الحمرة، على تلك الفخذ التي كانت مِن عسلٍ وحليب، تسير الفتاة تحت الرذاذ، خفيفة، رشيقة، ممشوقة القوام، ولكن في تلك المرة ينطلق التيارُ البركاني دفَّاقًا، وقد استقرّ في إحدى ثنايا روحه تمامًا، وبدأ يتضخّم، وأطلق مجسَّاته في دروب جسده السريَّة، فطرد الفتاة من ذاكرته ومن دمائه، وبعث تحت بطنه عطرًا، شرابًا روحيًّا، شكلًا، والآن مضَت يداه تتلمَّسانه، وإذا بشيء حارق جارف يتصاعد، استطاع أن يرى، أن يسمع، أن يتشمَّم اللذةَ الآتية، تتصاعد منها الأبخرة، وتنتشر في شبكة العظام والعضلات والأعصاب، ماضيةً إلى اللانهاية، إلى الفردوس الذي لن يتسلَّل إليه النمل الأحمر أبدًا،

وعند ذاك تشتَّت ذهنه، لأن پاولينو راح يلهث وقد سقط على مسافة قريبة، بينما أخذ كوبرا يتفوَّه بكلمات مُتقطِّعة. أحسّ بالأرض تحت ظهره مرة أخرى. تلفَّت حوله، فأحسّ بعينَيْه تلتهبان وكأن إبرةً قد وخزَتهما. كان پاولينو إلى جوار كوبرا الذي تركه يتلمَّس جسده من دون أن يلقي إليه بالًا. أخذ الهجين يلهث، ويُطلِق صرخات حادة محمومة. أغمض كوبرا عينَيْه، ومضى يتلوَّى بجسده. «الآن تبدأ الرائحة، وما هي إلَّا ثوانٍ حتى تفرغ القارورة، وننطلق في الغناء، ويروي أحدهم الدعابات، ويحزن الهجين، وأحسّ بفمي جافًا، وتصيبني السجائر بالغثيان، وتراودني رغبةٌ في النوم، وأحسّ برأسي ثقيلًا، وذات يوم سوف أُصاب بداء السلّ الذي قال دكتور غِيرًا عنه إن من أُصيب به أحسّ وكأنه قد ضاجع امرأةً سبع مرات متتالية».

سمع صيحة كوبرا، فلم يتحرَّك: وإذا هو كائنٌ نائم في جوف صدفة وردية، فلا الريح ولا الماء ولا النار قادرة على اقتحام ملاذه. ثم عاد إلى أرض الواقع: فوجد أن كوبرا قد طرح الهجينَ أرضًا، وانطلق يصفعه صارخًا، «لقد عضضتَني أيها الهجين الملعون، أيها الجَبَلي، سأرديك قتيلًا». جلس بعضهم على الأرض وأخذوا يراقبون المشهد بوجوه خاملة. لم يدافع پاولينو عن نفسه. وما هي إلَّا لحظة حتى أفلَته كوبرا. فقام الهجين مُتثاقِلًا، ماسحًا فمه، ولملم صرَّة النقود وقارورة البيسكو مِن الأرض. ثم ناول كوبرا النقود.

- لقد حصلتُ على المركز الثاني. -قال كارديناس.

مدّ إليه پاولينو القارورة. ولكن بيًّا الأعرج، الجالس إلى جوار ألبِرتو، قد استوقفه قائلًا.

- كذب. ليس هو الفائز بالمركز الثاني.

- مَن إذن؟ -سأل پاولينو.

- العَبْد.

توقَّف كوبرا عن عدّ النقود، ونظرَت عيناه الدقيقتان إلى العَبْد، الذي ظلّ مستلقيًا على ظهره، ويداه إلى جانبَيْه.

- مَن كان ليتصوَّر! -قال كوبرا- له قضيب رجل.

- وأنت لك قضيب حمار. -قال ألبِرتو- أغلقْ سروالك أيها الوحش.

ضحك كوبرا مُطلِقًا قهقهات رنانة، وأخذ يركض في أرجاء المكان، قافزًا فوق الأجساد، مُلوِّحًا بعضوه، صائحًا «سأتبوَّل عليكم جميعًا، سأضاجعكم جميعًا، لم يُطلَق عليَّ لقب "كوبرا" من فراغ، فأنا قادر على قتل امرأة في الفراش». مضى الباقون ينظِّفون أنفسهم ويرتِّبون ثيابهم. فتح العَبْد قارورة البيسكو، ثم مرَّرها لألبِرتو بعد أن رشف منها رشفةً طويلة وبصق على الأرض. أخذ الحضور جميعًا يشربون ويدخِّنون. بينما جلس پاولينو في أحد الأركان، راسمًا على وجهه أمارات الشجن والذبول. «الآن سوف نخرج ونغسل أيدينا، ثم تنطلق الصفَّارة، ونصطفّ مُتَّجهين إلى قاعة الطعام، واحد، اثنان، واحد، اثنان، ونأكل، ونخرج مِن قاعة الطعام، وندخل إلى الثكنات، ويصيح أحدهم مناديًا بإقامة مسابقة، فيقول آخر إننا قد ذهبنا إلى مخبأ پاولينو الهجين بالفعل، وإن كوبرا قد فاز بالمسابقة، ويقول كوبرا إن العَبْد أيضًا كان هناك، وإن الشَّاعِر هو الذي أحضر العَبْد، ولكنه لم يسمح لنا بأن نضاجعه، وإن العَبْد قد فاز بالمركز الثاني في المسابقة، ثم ينطلق بوق الصمت، فنخلد إلى النوم، وهكذا غدًا ويوم الإثنين، وكم أسبوعًا نبقى على هذه الحال؟».

*

ضربه إميليو على كتفه قائلًا: «ها هي». رفع ألبِرتو رأسه. كانت إيلينا تطلّ مائلةً بنصف جسدها إلى سياج البهو، ناظرةً إليه. باسمة. لكزه إميليو بمرفقه مُردِّدًا: «إنها هناك. هيَّا، هيَّا». همس ألبِرتو:

«اصمتْ يا رجل. ألا ترى أنها مع آنا؟». وإلى جوار الرأس الأشقر الذي أطلّ من فوق السياج، ظهر رأس فتاة أخرى، سمراء: إنها آنا، شقيقة إميليو. «لا تشغل بالك بها»، قال إميليو. «سوف أتولَّى أمرها. هيَّا بنا». أومأ ألبِرتو برأسه. صعدا دَرَج نادي تيرَّاساس، حيث امتلأ البهو بالشباب. وانسابَت موسيقى مفعمة بالبهجة آتيةً مِن القاعات، على الجانب الآخر. «ولكن لا تقترب منّا، مهما كان السبب»، غمغم ألبِرتو وهما يصعدان الدَّرَج. «لا تسمح لشقيقتك بأن تقاطعنا. إن شئت، يمكنك أن تتبعنا، ولكن عن بعد». اقتربا منهما، فضحكَت الفتاتان. بدَت إيلينا أكبر عمرًا. كانت نحيلة، عذبة، شفيفة. للوهلة الأولى، لا يلمس المرء فيها أمرًا واحدًا يشي بجرأتها. ولكن أبناء الحيّ يعرفونها جيدًا: ففي حين تجهش الفتيات الأخريات بالبكاء ويخفضن عيونهن خجلًا أو ذعرًا كلَّما اعترض سبيلهن أحدٌ في منتصف الشارع، تواجه إيلينا المُعتدِي وتتحدَّاه كالنَّمِرة الصغيرة بعينَيْها المُتوهِّجتَيْن. وبصوتها المفعم بالحيوية تردّ على السخرية كلمة بكلمة، بل إنها تبادر أحيانًا، وتنادي الفتيان بالألقاب الأشدّ تحقيرًا، وتتوعَّدهم، وتسوط الهواء بيدَيْها على مرأى من العيون -بجسدها الثابت الشامخ، ووجهها المكابر- فتقاوم الحصار، وتكسره، وتمضي مُبتعِدةً، راسمةً على وجهها أمارات النصر. ولكن ذلك بات مِن الماضي. إذ بدأت أجواء الخصومة بين الفتيات والفتيان تتبدَّد منذ فترة. لا أحد يدري على وجه التحديد متى حدث ذلك، في أيّ فصل مِن فصول العام، أو في أيّ شهر (ربما كان ذلك خلال إجازة شهر يوليو، عندما أقام والدا تيكو حفلًا مختلطًا بمناسبة عيد ميلاده). لم يعُد الفتيان يعترضون سبيل الفتيات لإخافتهن والتسلّي على حسابهن. بل إن الحال قد انقلبَت، وصار ظهور إحداهن يُدخِل السرور إلى نفوس الفتيان ويوقظ فيهم مودَّةً مُتلعثِمة خجلى. ومِن جهة أخرى،

أصبحَت الفتيات يقطعن حديثهن المسموع في شرفة بيت لاورا أو آنا، إذا لمحن أحد الفتيان يمرّ مِن هناك، ويشرعن في التهامس بكلمات غامضة، ويحيّينه، وينادينه باسمه، فينتبه الفتى إلى تلك الحماسة التي أثارها حضوره في الشرفة، ويغمره شعور حميم بالإطراء. صارت الأحاديث بين الفتيان تأخذ منعطفات أخرى وهم مُمدَّدون في حديقة بيت إميليو. مَن يتذكَّر مباريات كرة القدم والسباقات والنزول إلى الشاطئ عن طريق الجرف؟ أقبلوا على التدخين بلا هوادة (إذ لم يعُد أحدهم يضيق بالدخان)، وصاروا يدرسون الطريقة المناسبة للتسلُّل إلى السينما ومشاهدة أفلام الكبار التي تُحظَر مشاهدتها على من هم دون الخامسة عشرة، ويبحثون إمكانية تنظيم حفلٍ في وقت قريب: أيسمح لهم الآباء بالرقص واستخدام مُشغِّل الأسطوانات؟ أيستمرّ الحفل حتى منتصف الليل مثل سابقه؟ كان كل واحد منهم يحكي اللقاءات والأحاديث التي جمعَته بفتيات الحيّ. وأصبح للآباء أهمية استثنائية: فبعضهم يُقدَّر حقّ قدره بالإجماع، وأولئك هم الآباء الذين يبادرون الفتيان بالتحية، ويسمحون لهم بالتحدُّث إلى بناتهم، ويسألون عن أخبار الدراسة، مثل والد آنا ووالدة لاورا. بينما كان بعض الآباء يروِّعون الفتيان ويدفعونهم إلى الهرب، مثل والد تيكو ووالدة إيلينا، فكلاهما صارم، شديد الغيرة.

- أتذهبين إلى حفلة السينما الصباحية؟ -سألها ألبِرتو وهما يسيران وحدهما على كاسر الأمواج. أحسّ بخطوات إميليو وآنا آتية خلفه. أومأت إيلينا برأسها أن نعم، وقالت: «إلى سينما لِوْرو». قرَّر ألبِرتو أن ينتظر، ففي العتمة يغدو الأمر أكثر سهولة. جسّ تيكو نبضها قبل أيام، فقالت له إيلينا: «ذلك شيء لا يعرفه المرء أبدًا، ولكنه لو طلب مني أن أواعده بطريقة لائقة، فربما وافقت». كان

صباحًا صيفيًّا رائقًا، وسطعَت الشمس في السماء الزرقاء، فوق المحيط القريب، فشعر ألبِرتو بروحه المعنوية مرتفعة: لأن العلامات تبدو مُبشِّرة. لطالما ظهر واثقًا بنفسه مع فتيات الحي، فتراه يمازحهن بدعابات طريفة، أو يتحدَّث إليهن بجديَّة. ولكن إيلينا لم تجعل الحوار مهمةً يسيرة، فهي تجادل في كل شيء، حتى الأقوال الأكثر براءة. ولا تتكلَّم مِن أجل لذة الكلام، أضف إلى ذلك أن آراءها قاطعة. ذات مرة، أخبرها ألبِرتو بأنه قد وصل إلى القدَّاس الإلهي بعد قراءة الإنجيل. «لا يجوز»، أجابَت إيلينا ببرود. «لو مُتَّ الليلةَ لذهبتَ إلى الجحيم». وفي مرة أخرى، شاهدَت آنا وإيلينا مباراة كرة قدم مِن الشرفة، فسألها ألبِرتو لاحقًا: «ما رأيكِ في مهارتي؟»، فأجابت: «لا تملك أدنى مهارة في اللعب». وعلى الرغم من ذلك، فلقد تلاقى جمعٌ من فتيان الحيّ وفتياته في منتزه ميرافلوريس قبل أسبوع واحد، وأمضوا وقتًا طيبًا حول تمثال ريكاردو پالما، ومشى ألبِرتو إلى جوار إيلينا، مُبدِيًا لها المودّة، بينما راح الآخرون يلتفتون إليهما قائلين: «ما أجملكما معًا».

تركا كاسر الأمواج خلفهما، ومضيا عَبْر شارع خوان فانينغ، في الطريق إلى بيت إيلينا. لم يعُد ألبِرتو يسمع وقع خطوات إميليو وآنا. «هل نلتقي في السينما؟»، سألها. «أنتَ أيضًا ذاهب إلى سينما لِوْرو؟»، أجابت إيلينا عن سؤاله بسؤال، في براءة لامتناهية. «نعم»، أجابها، «أنا أيضًا». «حسنًا، ربما التقينا هناك إذن». وعلى ناصية بيتها، مدَّت إيلينا يدها إليه. كان تقاطع شارعَي كولون ودييغو فيرّيه، أي قلب الحيّ، خاليًا من الناس. لأن الفتيان لا يزالون إما في الشاطئ وإما في مسبح نادي تيرَّاساس. «أنتِ ذاهبة إلى سينما لِوْرو على كل حال، أليس كذلك؟»، سأل ألبِرتو. «بلى»، أجابَت. «ما لم يقع شيء». «وأي شيء قد يقع؟». «لا أدري»، قالت بجدية بالغة.

«زلزال أو شيء من هذا القبيل». «لديّ ما أخبرُكِ به في السينما»، قال ألبِرتو، ناظرًا إلى عينَيْها. رفَّت عيناها، وبدَت عليها أمارات المفاجأة الشديدة. «لديك ما تخبرني به؟ ماذا؟». «سأخبرك في السينما». «ولماذا لا تفعلها الآن؟»، سألَت. «كلَّما عجلتَ بفعل الأمور كان ذلك أفضل». بذل ألبِرتو جهدًا كيلا يتضرَّج وجهه. «أنتِ تعرفين ما سوف أخبرك به»، قال. «كلّا»، أجابَت وقد اشتدَّت مفاجأتها أكثر وأكثر. «لا أملك أدنى فكرة». «إن شئتِ أخبرتُكِ الآن»، قال ألبِرتو. «هيَّا إذن»، قالَت. «تشجَّع».

*

«والآن نخرج، ثم تنطلق الصفَّارة، ونصطفّ، ونتقدَّم إلى قاعة الطعام، واحد، اثنان، واحد، اثنان، ثم نأكل محاطين بالطاولات الخاوية، ونخرج إلى الفناء الخاوي، وندخل إلى الثكنات الخاوية، ويصيح أحدُهم مُنادِيًا بإقامة مسابقة، فأقول له إننا قد ذهبنا إلى پاولينو الهجين، وإن كوبرا قد فاز بالمسابقة، في كل مرة يفوز كوبرا، يوم السبت المقبل سوف يفوز كوبرا مرة أخرى، وينطلق بوق الصمت، ونخلد إلى النوم، ويأتي الأحد، ويليه الإثنين، ويعود باقي الطلّاب مِن الإجازة، ونشتري منهم السجائر، وأسدِّد ثمنها على شكل رسائل وأقاصيص». استلقى ألبِرتو والعَبْد على سريرَيْن متجاورَيْن في الثكنة المهجورة، إذ كان كوبرا وباقي المحرومين من الإجازة قد ذهبوا إلى لاپِرليتا قبل قليل. أخذ ألبِرتو يدخِّن عقب سيجارة.

- ربما استمرّ إلى نهاية العام. -قال العَبْد.

- ماذا؟

- الحرمان من الإجازة.

- لأي سبب لعين تتحدَّث عن العقاب. اصمت أو نَمْ. لم تُحرَم مِن الإجازة وحدك.

- أعرف، ولكن ربما بقينا محبوسين حتى نهاية العام.

- أجل. -قال ألبِرتو- ما لم يكتشفوا أمر كابا. ولكن كيف يكتشفون أمره؟

- ليس هذا عدلًا. -قال العَبْد- يخرج كابا الجَبَلي كل سبت بلا أدنى مشكلة. أما نحن فنبقى هنا في الداخل، بسببه.

- ما أظلم الحياة. -قال ألبِرتو- لا عدل هناك.

- اليوم مرّ شهر كامل منذ خرجتُ لآخر مرة. -قال العَبْد- لم يحدث يومًا أن حُرِمتُ مِن الإجازة لفترة طويلة كهذه.

- يجب عليك أن تتعوَّد الأمر. [illegible]

- تيريسا لا تردّ. -قال العَبْد- أرسلتُ إليها رسالتَيْن.

- وفيمَ يهمّك ذلك؟ سحقًا. -قال ألبِرتو- العالَم حافل بالنساء.

- ولكني معجبٌ بها هي. أما الأخريات فلا يهمّني أمرهن. ألا تفهم؟

- بلى، أفهم. هذا يعني أنك قد انتهى أمرك.

- أتدري كيف تعرَّفتُ بها؟

- كلّا، وكيف لي أن أدري؟

- كنتُ أراها تمرّ بالقرب من بيتي كل يوم، فأستغرقُ في مراقبتها من النافذة، وألقي عليها التحية في بعض الأحيان.

- هل استمنيتَ وأنت تفكّر فيها؟

- كلّا. كنتُ أحبّ أن أراها.

- يا للرومانسية.

- ذات يوم، نزلتُ قبل أن تخرج هي بقليل. وانتظرتُها على الناصية.

- وهل قرصتَها بأصابعك؟

- ذهبتُ إليها وصافحتُها.

- ماذا قلتَ لها؟

- أخبرتُها باسمي. وسألتُها عن اسمها. وقلتُ لها: «تشرَّفتُ كثيرًا بالتعرُّف إليك».

- أنت أحمق. وماذا قالَت لك؟

- هي أيضًا أخبرَتني باسمها.

- هل قبَّلتَها؟

- كلّا. لم أخرج حتى معها.

- أنت كاذب وغد. هيًّا، أقسمْ لي إنك لم تقبِّلها.

- ماذا دهاك؟

- لا شيء. لا يروقني أن يخبرني أحدهم بالكذب.

- ولماذا أخبرُك بالكذب؟ أتحسبني لا أريد أن أقبِّلها؟ لم أقابلها إلَّا مرات قليلة، ثلاث أو أربع مرات فحسب، في الشارع. والآن لا أستطيع لقاءها بسبب هذه المدرسة اللعينة. وربما طلب منها أحدهم أن تواعده.

- مَن؟

- وما أدراني! أحدهم. إنها رائعة الجمال.

- ليسَت جميلة إلى هذا الحدّ. بل إنني أراها دميمة.

- أنا أراها جميلة.

- أنت مُجرَّد طفل. أما أنا، فالشيء الذي أحبّه في النساء هو النوم معهن.

- أعتقد بأنني أحبّ هذه الفتاة.

- أكادُ أبكي من فرط التأثُّر.

- لو انتظرَتني حتى أنتهي من الدراسة، لتزوجتُها.

- يبدو لي أنها سوف تخونك. ولكن لا يهمّ، إن شئتَ سأكون أنا شاهدك.

- لماذا تقول هذا؟
- لك وجه زوجٍ مخدوع.
- ربما لم تتلقَّ رسالتَيّ.
- ربما.
- لماذا رفضتَ أن تكتب رسالةً من أجلي؟ لقد كتبتَ عدة رسائل هذا الأسبوع.
- لأن مزاجي لا يسمح بذلك.
- ماذا جرى بينك وبيني؟ ما الذي أغضبك؟
- الحرمان مِن الإجازة يعكِّر مزاجي. أتحسب نفسك الوحيد الذي سئم الحبس؟
- لماذا التحقتَ بمدرسة ليونسيو پرادو؟
ضحك ألبِرتو، وقال:
- لحفظ شرف العائلة.
- ألا يمكنك أن تتحدَّث بجدية أبدًا؟
- أتحدَّثُ بجدية، أيها العَبْد. لقد قال أبي إنني قد مرَّغتُ اسم العائلة في التراب. وألحقني بهذه المدرسة حتى يقوِّمني.
- ولماذا لم تتعمَّد الرسوب في اختبار القبول؟
- بسبب إحدى الفتيات، خيبة أمل منيتُ بها، أتفهمني؟ التحقتُ بهذه الحظيرة مدفوعًا بمشاعر الخذلان، وبضغط مِن العائلة.
- هل وقعتَ في حبّ تلك الفتاة؟
- أُعجِبتُ بها.
- أهي جميلة؟
- نعم.
- ما اسمها؟ وماذا حدث؟
- إيلينا. ولم يحدث شيء. لا يروقني البوح بأموري الخاصة.

- ولكني أخبرك بأموري الشخصية كلها.
- لأنك ترغب في ذلك. وإلَّا، فلا تخبرني بشيء.
- ألديك سجائر؟
- كلّا. الآن نحصل على سجائر.
- لا أحمل سنتًا واحدًا.
- لديَّ صولان. قُمْ وهيَّا بنا نذهب إلى پاولينو.
- لقد سئمتُ لاپِرليتا. يصيبني كوبرا وذلك الهجين بالاشمئزاز.
- ابقَ نائمًا إذن. أفضِّلُ الذهاب إلى هناك.

وقف ألبِرتو، فرآه العَبْد يعتمر القبعة ويصلح وضع ربطة العنق.

- هل أخبرُك بشيء؟ أعرف أنك سوف تسخر مني. ولكن لا يهمّ. -قال العَبْد.
- أي شيء؟
- أنت صديقي الوحيد. قبلك لم يكُن لي أصدقاء، بل معارف. أعني، في الشارع. أما هنا، فلم يعُد لي حتى معارف. أنت الشخص الوحيد الذي أحبُّ رفقته.
- يبدو كلامك وكأنه اعتراف بالحبّ يليق بمُخنَّث. -قال ألبِرتو. وابتسم العَبْد.
- أنت همجي. -قال- ولكنك طيب القلب.

خرج ألبِرتو. ومِن مكانه عند عتبة الباب، قال له:

- إن حصلتُ على سجائر، فسوف أحضر إليك واحدة.

كان الفناء رطبًا. لم ينتبه ألبِرتو إلى أن الأمطار قد تساقطَت وهو يتحدَّث إلى الآخر في الثكنة. لمح طالبًا يجلس فوق العشب عن بُعْد. أتراه هو نفسه الذي كان يراقب الطريق يوم السبت الماضي؟ «والآن أذهبُ إلى الهجين، ونقيم مسابقة، ويفوز كوبرا، وتنبعث تلك الرائحة، ثم نخرج إلى الفناء الخالي، وندخل إلى الثكنة،

وينادي أحدهم بإقامة مسابقة، وأقول إننا قد ذهبنا إلى پاولينو، وإن كوبرا قد فاز بالمسابقة، وفي السبت المقبل أيضًا يفوز كوبرا، وينطلق بوق الصمت، ونخلد إلى النوم، ويأتي الأحد، ويليه الإثنين، وكَم أسبوعًا نبقى على هذه الحال؟».

مكتبة
t.me/soramnqraa

٦

يمكنه أن يتحمَّل العزلة والإهانات التي عرفها منذ الطفولة، تلك التي لم تترك الجروحَ إلَّا في ثنايا روحه: أما الشيء الذي روَّع نفسه فهو الحبس، تلك العزلة الخارجية المطبقة التي لم يختَرها بنفسه، وإنما ألقاها عليه أحدُهم كالسترة المُقيِّدة. وقف أمام حجرة الملازم، غير أنه لم يرفع يده ليطرق الباب حتى الآن، على علمه بأنه سوف يفعلها. استغرق ثلاثة أسابيع في حسم أمره، والآن لم يعُد خائفًا ولا مغمومًا. بل إن يده هي التي خانَته: فظلَّت ساكنة، رخوة، ملتصقة بسرواله، ميتة. لم تكُن هذه أول مرة. في مدرسة الساليزيان أطلق عليه الآخرون لقب: «الدمية». كان خجولًا، يخاف من كل شيء. «ابكِ، ابكِ أيها الدمية»، كان زملاؤه يصيحون عليه وقد تحلَّقوا حوله في أوقات الاستراحة، فيتراجع هو إلى الخلف حتى يصطدم ظهره بالجدار، بينما تقترب منه الوجوه، وتعلو الأصوات، وتبدو أسنان الأطفال كالأنياب المُتأهِّبة لنهشه، فيجهش بالبكاء. ذات مرة قال في نفسه: «لا بدّ أن أفعل شيئًا»، فإذا به يتحدَّى أشجع طالب في الصفّ، والدرس في أوجه: نسِي اسم ذلك الطفل ووجهه، وقبضتَيْه المُوفَّقتَيْن في التسديد، ولهاثه. واجه الطالب الآخر، في أرض خراب، مُحاطًا بحلقة من المشاهدين المُتلهِّفين، في ذلك الوقت أيضًا لم يشعر بالخوف، أو حتى بالإثارة: إن هو إلَّا

خمود تام. لا تفاعل جسده، ولا تفادى الضربات، فاضطُرّ إلى التحمُّل حتى تعب الآخر من فرط ما ضربه. لقد اجتهد من أجل النجاح في اختبار القبول والالتحاق بمدرسة ليونسيو پرادو عقابًا لذلك الجسد الجبان، ورغبةً منه في تغييره. من أجل هذا تحمَّل تلك الأشهر الطوال، الأشهر الأربعة والعشرين الماضية. أما الآن، فلقد فقد الأمل. ذلك أنه لن يصبح أبدًا مثل النَّمِر، الذي يفرض نفسه بالعنف، أو حتى مثل ألبِرتو، الذي يستطيع التلوُّن والتظاهر حتى لا يصبح ضحية للآخرين. أما هو، فلا يلبث أن يكتشف الناسُ حقيقته: أعزل، ضعيف، عَبْد. والآن لم يعُد يهمّه شيء سوى الحرية، حتى يتدبَّر عزلته كيفما يحلو له، فيمضي بعزلته إلى السينما، ويحبس نفسه معها في أي مكان. رفع يده وطرق الباب ثلاث مرات.

هل كان الملازم أوارينا نائمًا؟ بدَت عيناه المنتفختان وكأنهما جرحان هائلان في وجهه المستدير. بينما تراءى شعره مبعثرًا. أخذ الملازم ينظر إليه مِن خلال الضباب.

- أريد أن أتحدَّث إليك، سيدي الملازم.

كان الملازم ريميخيو أوارينا في عالَم الضُبَّاط يحتلّ المكانة التي يشغلها العَبْد في عالَم طُلَّاب العسكرية: مكانة الدخيل. بذلك الجسد الصغير، السقيم، وذلك الصوت الذي يثير الضحكات متى ألقى الأوامر، وتلك الغضبات التي لا تخيف أحدًا. حتى ضُبَّاط الصفّ يرمقونه بازدراء، ولا يتَّخذون وضع الانتباه وهم يسلِّمونه كشف الحضور. كما أن كتيبته هي الأسوأ تنظيمًا. بل إن الرائد غارّيدو يوبِّخه في العلن، والطُلَّاب يرسمونه على الجدران، فيصوِّرونه وهو يستمني، بالسروال القصير. قيل إنه يمتلك دكانًا في باريوس ألتوس، حيث تبيع زوجته الكعك والحلوى. لماذا التحق بالمدرسة العسكرية؟

- ما الخطب؟

- هل أستطيع الدخول؟ إنها مسألة حرجة، سيدي الملازم.

- أتريد اجتماعًا؟ يجب عليك أن تلتزم بالتسلسل الهرمي.

لم يقتصر تقليد الملازم غامبوا على الطُّلَّاب: فهذا الملازم أوارينا قد اتَّخذ وضع الثبات حتى يستشهد بنصِّ اللائحة، كما هو دأب غامبوا. ولكن، هل يمكنه أن يخدع أحدًا بهاتَيْن اليدَيْن المرهفتَيْن، وذلك الشارب الهزلي الذي يبدو وكأنه لطخة سوداء تتدلَّى من أنفه؟

- لا أريد أن يعرف أحد، سيدي الملازم. إنها مسألة حرجة.

أفسح له الملازم الطريق، فدخل إلى الحجرة. بدا الفراش مُبعثَرًا، فما لبث العَبْد أن تخيَّل صومعةً بأحد الأديرة: لا بدّ أن تكون الصومعة على تلك الحال، مُتقشِّفة، قاتمة، ومشؤومة بعض الشيء. استقرَّت على الأرض منفضةٌ ملأى بأعقاب السجائر التي ما زال الدخان ينبعث من أحدها.

- ما الخطب؟ -ألحّ أوارينا في السؤال.

- المسألة تتعلَّق بالزجاج المُهشَّم.

- الاسم والقسم. -قال المُلازِم في عجالة.

- الطالب ريكاردو آرانا، الفرقة الخامسة، القسم الأول.

- ماذا حدث للزجاج؟

الآن استبدّ الجبن بلسانه: فأبى أن يتحرَّك، وبات جافًّا، حتى أحسّ به كالحجر الخشن. أتراه الخوف؟ لقد نكَّلَت به الحَلْقَة، التي يُعَدّ أسوأ أفرادها -في المرتبة الثانية بعد النَّمِر- هو كابا، الذي يسرق منه السجائر والنقود، بل إنه قد تبوَّل عليه ذات مرة وهو مستغرق في النوم. يحقّ له أن يفعل ذلك، بطريقة ما، فالكل يحترم الانتقام في هذه المدرسة. وعلى الرغم من ذلك، فلقد أحسّ في

قرارة قلبه بشيء يوجِّه إليه أصابع الاتهام. «لو فعلتُها لما خنتُ الحَلْقَة وحدها، بل الفرقة كاملة، والطُلَّاب جميعًا»، فكَّر.

- ما الخطب؟ -سأل الملازم أوارينا، منزعجًا- هل جئتَ لتتأمَّل وجهي؟ ألا تعرفني؟

- كابا هو الفاعل. -قال العَبْد، خافِضًا عينَيْه- هل أستطيع الخروج يوم السبت؟

- ماذا؟ -سأل الملازم. لم يفهم بعد، وما زال في يد العَبْد أن يختلق شيئًا ثم يغادر المكان.

- كابا هو الذي كسر الزجاج. -قال- هو الذي سرق اختبار الكيمياء. رأيتُه يمرّ في طريقه إلى الفصول. هل يُعلَّق الحرمان مِن الإجازة؟

- كلّا. -قال الملازم- سوف نرى. قبل كل شيء، أعدْ ما قلتَ مرةً أخرى.

استدار وجه أوارينا، وارتسمَت بعض الخطوط على وجنتَيْه، قرب طرفي شفتَيْه المنفرجتَيْن اللتين سرَت فيهما رعشةٌ خفيفة. تجلَّت في عينَيْه أمارات الرضا عن الذات. أما العَبْد، فغمره شعورٌ بالهدوء. لم يعُد يكترث للمدرسة، ولا الإجازة، ولا المستقبل. قال في نفسه إن الملازم أوارينا لا يبدو مُمتنًّا له. وذلك شيء طبيعي، على الرغم من كل شيء، فهو لا ينتمي إلى عالَمه. وربما كان الملازم يحتقره.

- اكتبْ. -قال أوارينا- فورًا. إليك ورقة وقلمًا.

- ماذا أكتب، سيدي الملازم؟

- سوف أملي عليك. اكتبْ: «رأيتُ الطالب...»، ما اسمه؟ «الطالب كابا، مِن القسم كذا، يوم كذا، في الساعة كذا، يمرّ في طريقه إلى الفصول حتى يستولي على اختبار الكيمياء مِن دون وجه

حقّ». اكتبْ بوضوح. «وهذا تصريح مني بذلك، أقدِّمه نزولًا عند طلب الملازم ريميخيو أوارينا، الذي اكتشف السارق، كما اكتشف أنني قد ضلعتُ...».

- سيدي الملازم، أنا لم...

- «... أنني قد ضلعتُ مِن دون عمد في تلك الواقعة، بصفتي شاهدًا». وقِّعْ، واكتب اسمك بحروف مطبعية. كبيرة.

- لم أرَ واقعة السرقة. -قال العَبْد- كل ما في الأمر أنني قد رأيتُه وهو في طريقه إلى الفصول. أنا لم أخرج منذ أربعة أسابيع، سيدي الملازم.

- لا تشغل بالك. سوف أتولَّى كل شيء. لا تخَف.

- لستُ خائفًا. -صاح العَبْد، فرفع الملازم عينَيْه، مُتفاجِئًا- لم أخرج منذ أربعة أسابيع، سيدي الملازم. يوم السبت المقبل تغدو خمسة أسابيع.

أومأ أوارينا.

- وقِّعْ هذه الورقة. -قال- أعطيك الإذن في الخروج اليوم، بعد الدروس. عُدْ إلى المدرسة في الحادية عشرة.

وقَّع العَبْد الورقة، التي قرأها الملازم وعيناه تتراقصان في محجرَيْهما، وشفتاه تتحرَّكان في أثناء القراءة.

- ماذا سوف تفعلون به؟ -سأل العَبْد. كان سؤالًا غبيًّا، ولقد عرف ذلك. ولكن الضرورة تقتضي أن يقول شيئًا. أمسك الملازم الورقة بأطراف أصابعه، بعناية، خشية أن يجعِّدها.

- هل تحدَّثتَ إلى الملازم غامبوا عن هذا الأمر؟ -للحظة، انقطع تدفُّق الحيوية إلى ذلك الوجه الأملس الخالي مِن الزوايا. بينما أخذ يترقَّب ردًّا مِن العَبْد في قلق. كان من السهل أن يطفئ بهجةَ أوارينا، وينتزع منه خيلاء الانتصار. يكفيه أن يقول: نعم.

- كلّا، سيدي الملازم. لم أتحدَّث عنه إلى أحد.

- جيد. إياك وأن تتفوَّه بكلمة واحدة. -قال الملازم- انتظرْ تعليماتي. احضرْ لمقابلتي بعد الدرس، بزيّ الخروج. سوف آخذك إلى نقطة الحراسة.

- حسنًا، سيدي الملازم. -تردَّد العَبْد قبل أن يردف-: لا أودّ أن يعرف الطُلَّاب...

- على الرجل أن يتحمَّل المسؤولية. -قال أوارينا، وقد اتَّخذ وضع الثبات من جديد- ذلك أول ما يتعلَّمه المرء في الجيش.

- أجل، سيدي الملازم. ولكنهم لو عرفوا أنني قد أبلغتُ عنه...

- أعرف. -قال أوارينا، ناظرًا بعينَيْه إلى الورقة للمرة الرابعة- سوف يأكلونك حيًّا. ولكن لا تخَف. مجلس الضُبَّاط يُعقَد في سريَّة دائمًا.

«لعلّهم يطردونني أنا أيضًا»، فكَّر العَبْد. خرج من حجرة أوارينا. لم يكُن مِن الوارد أن يراه أحد هناك، فبعد الغداء يستلقي الطُلَّاب في أسِرَّتهم أو على نجيل الإستاد. في الأرض الخلاء، راح يراقب الفِكّونة الرشيقة وهي تتشمَّم الهواء جامدةً. «إنه حيوان حزين»، طاف بخلده. فوجئ العَبْد: فمِن المُفترَض أن يشعر بالإثارة أو الرهبة. مِن المُفترَض أن تبثّ الوشاية في جسده اضطرابًا. كان يحسب المجرمين يصابون بدوار ويستغرقون في ما يشبه النوم بالإيحاء بعد اقتراف جريمة القتل. غير أنه لم يشعر إلَّا باللامبالاة. أخذ يفكِّر: «لديّ ستّ ساعات أمضيها في الشارع. سوف أذهب لرؤيتها، ولكني لن أستطيع أن أخبرها بشيء واحد مما جرى». لو كان هناك مَن يمكن التحدُّث إليه، أو مَن يتفهَّم، أو حتى مَن ينصت إليه! كيف يثق بألبِرتو؟ وهو الذي لم يكتفِ بأن امتنع عن كتابة

الرسائل إلى تيريسا باسمه، بل إنه قد عكف على استفزازه في الأيام الأخيرة، وكأنه يلومه على شيء ما (ولكن الحقّ أنه لا يستفزّه إلَّا على انفراد، أما في حضور الآخرين فهو يدافع عنه). «لا أستطيع الوثوق بأحد»، فكَّر. «لماذا كلهم أعدائي؟».

سرَت في يدَيْه رجفةٌ خفيفة: كان ذلك ردّ الفعل الوحيد لجسده حين دفع مصراعَي باب الثكنة ورأى كابا واقفًا قرب خزانة الثياب. «لو نظر إليَّ لأدرك أنني قد نغَّصتُ عيشه قبل قليل»، فكَّر.

- ماذا بك؟ -سأل ألبِرتو.

- لا شيء. لماذا تسأل؟

- تبدو شاحبًا. اذهبْ إلى المستوصف، مِن المُؤكَّد أنك سوف تُحتجَز هناك.

- أنا بخير.

- لا يهمّ. -قال ألبِرتو- وماذا تريد أكثر مِن أن النزول بالمستوصف، ما دمتَ محرومًا مِن الإجازة؟ ليتني أستطيع أن أبدو شاحبًا مثلك. في المستوصف يأكل المرء جيدًا، ويهنأ بالراحة.

- ولكنه يفوِّت على نفسه الإجازة. -قال العَبْد.

- أي إجازة؟ سنظلّ محبوسين هنا طويلًا. على الرغم مما يُقال مِن احتمال أن يُسمَح لجميع الطُلَّاب بالخروج يوم الأحد المقبل. بمناسبة عيد ميلاد الكولونيل. هكذا يُقال، على الأقل. ممَّ تضحك؟

- لا شيء.

كيف يستطيع ألبِرتو أن يتحدَّث بهذا القدر مِن اللامبالاة عن الحِرمان مِن الإجازة؟ كيف يمكنه أن يتعوَّد فكرة المنع مِن الخروج؟

- ... ما لم ترغب في الهرب قفزًا مِن فوق السور. -قال ألبِرتو- مع أن الهرب مِن المستوصف أسهل. لأنها تُعفَى من الرقابة

ليلًا. ولكن يجب عليك أن تتسلَّق نزولًا من ناحية لاكوستانيرا، وربما اخترق السياج جسدك كأسياخ اللحم.

- الآن لم يعُد أحد يقفز من فوق السور إلَّا قلائل. -قال العَبْد- منذ بدأت الدورية.

- كان الأمر أسهل في الماضي. -قال ألبِرتو- ولكن ما زال كثير من الطُلَّاب يهربون. أوريوستي الخلاسي خرج يوم الإثنين وعاد في الرابعة فجرًا.

وعلى الرغم من كل شيء، فلماذا لا يذهب إلى المستوصف؟ لماذا يخرج إلى الشارع؟ دكتور، عيناي غائمتان، ورأسي يؤلمني، وقلبي يخفق بشدة، والعرق يسيل باردًا من جسدي، أنا جبان. يسعى الطُلَّاب إلى النزول بالمستوصف عندما يُحرَمون مِن الإجازة، فهناك يقضي المرء يومه بالبيجامة، ويُعفَى من المهمات كلها، كما أن الطعام هناك وفير. ولكن مُمرِّضي المدرسة وطبيبها صاروا أشدّ وأشدّ صرامةً، فلم تعُد الحمّى تكفي، علمًا منهم أن وضع قشور الموز على الجبين لساعتَيْن كفيل برفع درجة الحرارة إلى تسع وثلاثين درجة. حتى السيلان ما عاد يصلح، منذ أن اكتُشِفَت الحيلة التي لجأ إليها النَّمِر ومَوْجَة، حين ذهبا إلى المستوصف وقد غمر كلٌّ منهما قضيبه بالحليب المُكثَّف. كما ابتكر النَّمِر حيلة الاختناق: إذ كان، قبل الفحص الطبي، يكتم أنفاسه حتى تطفر الدموع من عينَيْه عدة مرات متعاقبة، فتتسارع نبضات القلب الذي يبدأ في الخفقان كالمضخّة، وهكذا يقرِّر المُمرِّضون: «احتجاز المريض في المستوصف نظرًا إلى إصابته بأعراض الخفقان».

- أنا لم أهرب قطّ. -قال العَبْد.

- لا يبدو لي ذلك شيئًا غريبًا. -قال ألبِرتو- أما أنا فلقد هربتُ عدة مرات في العام الماضي. ذات مرة ذهبنا إلى حفل في لاپونتا مع

أروسپيدي، ثم عدنا قبل انطلاق بوق الصباح بقليل. كانت الحياة أفضل في الفرقة الرابعة.

- أيها الشَّاعِر. -صاح بايانو- هل كنتَ في مدرسة لاسال؟

- نعم. -قال ألبِرتو- لماذا؟

- يقول مَوْجَة إن طُلَّاب لاسال كلهم من المُخنَّثين. أهذا صحيح؟

- كلّا. -قال ألبِرتو- لأن لاسال خالية مِن السُّود.

ضحك مَوْجَة، وقال لبايانو:

- انتهى أمرك، لقد نال منك الشَّاعِر.

- أسوَد، ولكني أشدّ فحولةً من أي شخص. -أكَّد بايانو- ومَن أراد الدليل، فليأتِ!

- أوه، يا للرعب! -قال أحدهم- أوه، يا أمّي.

«آي، آي، آي»، رفع مَوْجَة صوته بالغناء.

- أيها العَبْد. -صاح النَّمِر- اذهبْ ودعه يثبت لك فحولته. وبعد ذلك تخبرنا إن كان ما يقول حقيقة.

- سوف أشقّ هذا العَبْد نصفَيْن. -قال بايانو.

- أوه، يا أمّي.

- وأنت أيضًا سوف أشقّك نصفَيْن. -صاح بايانو- تشجَّع وتعالَ! أنا جاهز.

- ماذا يجري؟ -سأل صوتٌ أجشّ، صوت كوبرا الذي أفاق مِن فوره.

- يا كوبرا، لقد نعتك النيغرو بالمُخنَّث. -قال ألبِرتو.

- قال إنه مُتأكِّد أنك مُخنَّث.

- هكذا قال.

- لقد أمضى ساعة كاملة وهو يتكلَّم عنك بالسوء.

- كذب يا أخي العزيز. -قال بايانو- أتظنني أتكلَّم عن الناس في غيابهم.

تعالَت ضحكات جديدة. ثم أردف بايانو قائلًا:

- إنهم يسخرون منك. ألا ترى؟ -رفع صوته- أيها الشَّاعِر، لو مازحتَني مرة أخرى بمثل هذا الكلام، أوسعتُك ضربًا. ها أنا أحذِّرك. كدتَ توقع بيني وبين الصبي.

- أوه! -قال ألبِرتو- هل سمعتَ يا كوبرا؟ ينعتك بالصبي.

- أتريد مني شيئًا يا نيغرو؟ -سأل الصوت الأجشّ.

- لا شيء يا أخي. -أجاب بايانو- أنت صديقي.

- إذن، فلا تنعتني بالصبي.

- أيها الشَّاعِر، أقسمُ إنني سوف أهشِّم عظامك.

- النيغرو النابح لا يعضّ. -قال النَّمِر.

أخذ العَبْدُ يفكِّر: «في حقيقة الأمر، كلهم أصدقاء. يتبادلون الشتائم ويتشاجرون باللسان، ولكنهم في قرارة نفوسهم يتسلّون معًا. أنا الوحيد الذي ينظرون إليه كالغريب».

*

«كانت ساقاها ممتلئتَيْن، بيضاوَيْن، خاليتَيْن مِن الشعر، شهيتَيْن، حتى ليشعر المرء برغبةٍ في عضّهما». استغرق ألبِرتو في النظر إلى العبارة، مُحاوِلًا تقدير الاحتمالات الإيروتيكية التي تنطوي عليها، فوجدها حسنة. تخلَّلَت أشعةُ الشمس زجاجَ السقيفة المُلطَّخ، وتساقطَت على ألبِرتو، الذي تمدَّد أرضًا، مُتوسِّدًا إحدى يدَيْه. بينما أمسكَت يده الأخرى قلم الرصاص المُعلَّق على بُعد سنتيمترات من الورقة التي امتلأ شطرٌ منها. وعلى الأرض المُغطَّاة بالتراب وأعقاب السجائر وأعواد الثقاب المُتفحِّمة، تناثرَت أوراقٌ أخرى، بعضها مكتوبة. أُقيمَت السقيفة إلى جوار المدرسة، في حديقة صغيرة تضمّ

مسبحًا يخلو من المياه دائمًا وأبدًا، تغطّيه الطحالب وتحلّق فوقه سحب البعوض. لم يعرف أحد الغايةَ مِن تلك السقيفة المرفوعة على أربعة أعمدة من الإسمنت، بارتفاع مترَيْن، التي يؤدِّي إليها دَرَجٌ ملتوٍ ضيق (حتى الكولونيل نفسه، غالب الظنّ أنه لم يعرف الغايةَ منها). مِن المُرجَّح أن واحدًا مِن الضُبَّاط أو الطُلَّاب لم يدخل إلى تلك السقيفة حتى نجح النَّمِرُ في فتح بابها الموصد بخطاف خاصّ، ساهم في صناعته جميع أفراد القسم تقريبًا. وجد القسم فائدةً لتلك السقيفة المنعزلة، فاتَّخذها أفراده مخبأ للراغبين في نوم القيلولة بدلًا من حضور الدرس. «ارتجفَت حجرة النوم وكأن زلزالًا قد ضربها. بينما راحت المرأة تتأوَّه وتشدّ شعرها قائلة: كفى، كفى. ولكن الرجل لم يفلتها مِن بين يدَيْه، بل إنه مضى يستكشف جسدها بيده المُتوتِّرة، ويخدشها، ويلجها. ولمَّا سكتَت المرأة، كالجثة الهامدة، انطلق الرجل ضاحكًا، فجاءت ضحكته وكأنها عواء حيواني». وضع قلم الرصاص في فمه، وعاود قراءة الورقة كاملة. ثم أضاف عبارة أخيرة: «فكَّرَت المرأةُ أن عضَّات الختام كانت أفضل ما في الأمر، وابتهجَت نفسًا حين تذكَّرَت أن الرجل سوف يعود إليها في اليوم التالي». ألقى ألبِرتو نظرة على الأوراق التي اكتسَت بالكلمات الزرقاء. في أقل من ساعتَيْن، كتب أربع أقاصيص. لا بأس بذلك. ما زالَت أمامه بضع دقائق قبل أن تنطلق الصفَّارة معلنةً نهاية الدرس. دار حول نفسه مُتوسِّدًا الأرض، مُمدِّدًا جسدَه الذي لان واسترخى. الآن لامسَت أشعة الشمس وجهه، ولكنها انسابَت واهيةً، فلم ترغمه على إغماض عينَيْه.

سطعَت الشمس في موعد الغداء، وأضاءت قاعة الطعام فجأةً، فسكتَت تلك الهمهمة الفوضوية دفعةً واحدة، بينما التفتَت ألف وخمسمئة رأس إلى الأرض الخلاء: وبالفعل، تراءى العشب مُذهَّبًا،

وألقَت الأبنيةُ المجاورة ظلالها. كانت تلك أول مرة تشرق الشمس فيها خلال شهر أكتوبر منذ التحق ألبِرتو بالمدرسة، فما لبث أن فكَّر: «سوف أذهب إلى السقيفة حتى أكتب». همس للعَبْد في التشكيل قائلًا: «لو تفقَّدوا الحاضرين، فأجبْ نيابةً عني»، وحين وصل الطُلَّاب إلى منطقة الفصول، اغتنم فرصة سهو الضابط، وتسلَّل إلى الحمام. دخل الطُلَّاب إلى الفصول، فتسلَّل إلى السقيفة بسرعة. مضى يكتب بلا انقطاع، ويؤلِّف أقاصيص تقع كل واحدة منها في أربع صفحات. في الأقصوصة الأخيرة فحسب، بدأ يحسّ بالوسن يجتاح جسده، وأغوَته فكرةُ إفلات قلم الرصاص والشرود بأفكاره. نفدَت سجائره منذ أيام، فحاول أن يدخِّن الأعقاب الملتوية التي عثر عليها في السقيفة، تلك التي لم يكَد يتنشَّق منها نفسَيْن حتى أخذ يسعل مُتأثِّرًا بالتراب الذي ابتلعه مع الدخان والتبغ المُتيبِّس بمضي الزمن.

«أعِدْ يا بايانو، أعِدْ هذا الجزء الأخير، أعِدْ يا نيغريتو، وأمّي المسكينة المهجورة التي تفكِّر في ابنها المُحاط بكل أولئك الخلاسيين، ولكنها في تلك الحقبة لن تصاب بالذعر، حتى لو كانت هناك، في قلب المكان، وأنصتَت بأذنَيْها إلى «ملذَّات إليودورا»، أعِدْ يا بايانو، لقد انتهَت المعمودية، وخرجنا إلى الشارع، وعدنا، وكنتَ أنت أكثرنا شقاوةً، فجئتَ تحمل إليودورا في الحقيبة، أما أنا فلم آتِ إلَّا بعبوات الطعام، لو كنتُ أعلم...». يجلس الفتيان على الأسِرَّة أو فوق خزائن الثياب، مأخوذين، ويتابعون شفتَي بايانو الذي يقرأ بصوت دافئ. يتوقَّف بايانو بين حين وآخر، مُترقِّبًا، من دون أن يرفع عينَيْه عن الكتاب: فلا تلبث الجلبة وصيحات الاحتجاج أن تتعالى. «أعِدْ يا بايانو، لقد خطرَت على بالي فكرةٌ جيدة لتمضية الوقت وربح بضعة سنتات، أما أمّي فتتوسَّل إلى الرَّب والقديسين أيام السبت

والأحد، سوف يجرّنا جميعًا إلى طريق الشرّ، أبي الذي سحرَته الإليودورات». يقرأ عليهم بايانو ذلك الكُتيِّب الصغير، الذي اصفرَّت صفحاته، ثلاث أو أربع مرات، ثم يحتفظ به في جيب السترة ملقيًا نظرة خيلاء على رفقائه الذين يراقبونه بحسد. يتجرَّأ أحدهم قائلًا: «أعِرني إياه»، خمسة طُلَّاب، عشرة، خمسة عشر طالبًا، يحاصرونه صارخين: «أعِرني إياه يا نيغريتو، يا أخي». يبتسم بايانو، يفتح فمه الهائل، تتراقص عيناه طربًا، تتهلَّلان، يختلج أنفه، يبدو بايانو بمظهر المنتصر، بينما يحاصره أفراد الثكنة كلهم، يترجّونه، يتملَّقونه، أما هو فيكيل لهم السباب: «يا مدمني الاستمناء، أيها المُقزِّزون، لماذا لا تقرؤون الكتاب المُقدَّس أو دون كيخوتِه». يقابلونه بالحفاوة، يصفِّقون له قائلين: «أوه، يا نيغريتو، يا لك مِن داهية، أوه، يا لك مِن فتى». وفجأة، يكتشف بايانو حجم الإمكانيات التي تنطوي عليها اللحظة، فيقول: «الكُتيِّب للإيجار». وإذا بهم يدفعونه مُتوعِّدين، فهذا يبصق عليه، وذلك يصرخ فيه: «أيها الانتهازي، أيها الأجرب». يستغرق بايانو في الضحك مُقهقِهًا، ثم يتمدَّد على الفراش، ويُخرِج مِن جيبه «ملذَّات إليودورا»، مُلوِّحًا به أمام العيون التي تهدر في خبث، مُتظاهرًا بالقراءة، مُحرِّكًا شفتَيْه وكأنهما مجسَّتان شهوانيتان. «خمس سجائر، عشر سجائر، نيغريتو، بايانيتو، أعِرني إليودورا كي أُلاعِب العصفورة، كنتُ أعرف يا أمي العزيزة أن كوبرا سوف يقف في أول الطابور، بالحكم على الطريقة التي مضى يحكّ بها رِيشَة عندما كان النيغرو يقرأ، فانطلقَت رِيشَة تعوي وتتحمَّل في سكون. لقد خطرَت على بالي فكرة، ويا لها مِن فكرة رائعة لتمضية الوقت وربح بضعة سنتات، لقد خطرَت على بالي مئات الأفكار، ولا ينقصني شيء سوى الفرصة المواتية». يرى ألبِرتو ضابط الصفّ آتيًا صوب الطابور مباشرةً، فيتأكَّد بطرف عينه أن مَوْجَة لا يزال

مستغرقًا في القراءة: وقد أمسك الكتاب الذي التصق بسترة الطالب الواقف أمامه. لا شكّ في الجهد المضني الذي اضطُرّ إلى بذله حتى يقرأ، لأن حروف الكتاب متناهية الصغر. لا يملك ألبِرتو أن يحذِّره مِن اقتراب ضابط الصفّ: الذي يتقدَّم خلسة نحوه، من دون أن يحوِّل عينَيْه، كما يتربَّص القطُّ بالفريسة. مِن المستحيل أن يحرِّك قدمه أو مرفقه. يترصَّده ضابط الصفّ، ثم ينطلق مُنقضًّا على مَوْجَة الذي ندَّت عنه صرخة. ينتزع كُتيِّب «ملذّات إليودورا» مِن بين يدَيْه. «ولكن، ما كان ينبغي له أن يشعل النار فيه ويدهسه، ما كان ينبغي له أن يترك البيت حتى يلهث خلف العاهرات، ما كان ينبغي له أن يهجر أمي، ما كان ينبغي لنا أن نترك البيت الكبير ذا الحدائق في شارع دييغو فيرّيه، ما كان ينبغي لي أن أتعرَّف بالحيّ وبإيلينا، ما كان ينبغي له أن يحرم مَوْجَة مِن الإجازة أسبوعَيْن، ما كان ينبغي لي البدء في كتابة الأقاصيص يومًا، ما كان ينبغي لي أن أغادر ميرافلوريس، ما كان ينبغي لي أن أتعرَّف بتيريسا أو أقع في حبّها». يضحك بايانو، ولكنه عاجز عن مداراةِ شعوره بالخذلان، والحنين، والمرارة. في بعض الأحيان، يقول بجديَّة: «سحقًا، لقد وقعتُ في حب إليودورا. يا مَوْجَة، بسببك أنت فقدتُ فتاتي، معشوقتي». يغنِّي الطُلَّاب «آي، آي، آي» ويتمايلون مثل راقصات الرومبا، ويقرصون بايانو في وجنتَيْه وأردافه. ينقضّ النَّمِر على العَبْد وكأن به مسًّا من الجنون، ثم يرفعه في الهواء. يسكت الحضور جميعًا ناظرين إليه. أما النَّمِر، فيلقي العَبْدَ على بايانو قائلًا: «أهديك هذه العاهرة». يقوم العَبْد، يصلح ثيابه، ويمضي مُبتعِدًا، فيمسكه كوبرا من الخلف رافعًا جسده في الهواء، بينما يحتقن وجهه وينتفخ عنقه تحت وطأة الجهد المبذول. يرفعه في الهواء بضع ثوانٍ فحسب، ثم يتركه ليسقط أرضًا كالجوال. ينسحب العَبْد، ببطء، وهو يعرج في سيره. «اللعنة»،

يقول بايانو. «أقسمُ لكم إنني أكاد أموت من فرط الأسى». «وعندئذ قلتُ له: مقابل نصف علبة من السجائر أكتبُ لك أقصوصة أفضل من "ملذّات إليودورا"، وفي صباح ذلك اليوم عرفتُ ما جرى، بالتخاطر، أو لعلّ يد الرَّب قد نبَّهتني، عرفتُ وقلتُ لها، ماذا جرى لأبي يا أمّي العزيزة، وسأل بايانو: حقًّا؟ إليك ورقة وقلمًا، وعسى أن تلهمك الملائكة، وعندئذ قالَت أمّي، تشجَّع يا بني، فإن مصيبة فادحة قد حلَّت بنا، لقد ضلَّ الطريق، وهجَرَنا، عندئذ بدأتُ أكتب، جالسًا فوق خزانة الثياب، محاطًا بأفراد القسم كلهم، شأنهم عندما كان النيغرو يقرأ عليهم "ملذّات إليودورا"». يكتب ألبِرتو عبارة بحروف مُتوتِّرة: بينما تحاول نصف دزينة من الرؤوس أن تطلّ من فوق كتفَيْه لمطالعة ما كتب. يتوقَّف رافعًا رأسه وقلم الرصاص، ثم يقرأ. يحتفي به الآخرون، ويدلي بعضهم بالمقترحات التي يقابلها بالاستخفاف. يمضي قدمًا، فيزداد جرأة: تفسح الكلمات السوقية الطريقَ أمام الرموز الإيروتيكية الكبرى، ولكن حوادث الأقصوصة قليلة، مكرورة: المداعبات التمهيدية، العشق المعهود، الخلفي، الفموي، اليدوي، النشوة، الارتعاشات، تندلع معارك بلا قواعد عسكرية، معارك تدور رحاها بين أعضاء الجسد البارزة، ثم تبدأ المداعبات التمهيدية من جديد، إلى آخره. ينتهي ألبِرتو من الكتابة - بعد أن ملأ عشر صفحات مِن الدفتر، على الوجهَيْن-، وفي ومضة من الإلهام، يزفّ إليهم ألبِرتو العنوان: «خطايا الجسد». يقرأ عمله، بصوت مفعم بالحماسة. تنصت إليه الثكنة في إجلال. وبين حين وآخر، تنطلق دفقات من الأصوات. ثم إنهم يصفِّقون له ويعانقونه. يقول أحدهم: «ألبِرتو فِرنانديس، إنك لشاعر». «نعم»، يوافقه آخرون. «إنك لشاعر». «وفي اليوم نفسه جاءني كوبرا وقد ارتسمَت على وجهه أمارات الغموض، فيما رحنا نغتسل، وقال اكتبْ مِن

أجلي أقصوصة كتلك، وسأشتريها منك، إنك لفتى صالح، ومدمن استمناء كبير، أنت أول زبائني، ولسوف أذكرك أبدًا، لقد اعترضتَ عندما طلبتُ منك خمسين سنتًا عن كل ورقة، خالية من المسافات، ولكنك تقبَّلت مصيرك، وانتقلنا إلى بيت آخر، وعند ذاك ابتعدتُ فعلًا عن الحي والأصدقاء وميرافلوريس الحقيقية، وبدأتُ مسيرتي قاصًّا، وجنيتُ نقودًا لا بأس بها على الرغم من المحتالين».

ذات أحد، في أواسط شهر يونيو، يجلس ألبِرتو على الحشائش ناظرًا إلى الطُّلَّاب الذين يتجوَّلون في منصة العرض محاطين بالأقرباء. وعلى بعد أمتار، يجلس فتى آخر مِن الفرقة الثالثة، ولكنه من قسم مختلف. يقرأ رسالةً بين يدَيْه، ويعيد قراءتها، بوجه مُنشغِل. «هل نُصِّبتَ أمينًا للثكنة؟[1]». يسأله ألبِرتو. يومئ الفتى برأسه ويُبدِي له سواره الأرجواني الذي يحمل حرف «أ» مُطرَّزًا. «إن هذا أسوأ مِن الحرمان مِن الإجازة»، يجزم ألبِرتو. «أجل»، يقول الآخر. «وفي وقت لاحق مشينا إلى القسم السادس واستلقينا أرضًا ورحنا ندخِّن سجائر إنكا، قال لي إنه من مدينة إيكا، أرسلني أبي إلى المدرسة العسكرية لأنني قد وقعتُ في حبّ فتاة من أسرة سيئة السمعة، أراني صورتها وقال لي سوف أتزوَّجها حالما أخرج من المدرسة، ومنذ ذلك اليوم هجرَت أمّي الزينة والحليّ وتوقَّفَت عن لقاء صديقاتها ولعب الورق وصرتُ أراها أشدّ تقدُّمًا في السنّ كلَّما خرجتُ من المدرسة يوم السبت».

- ألم تعُد معجبًا بها؟ -يقول ألبِرتو- لماذا يبدو على وجهك ذلك التأثُّر كلَّما تحدَّثتَ عنها؟

(١) أمين الثكنة: طالب العسكرية المنوط بتنظيف الثكنة والعناية بها في سياق الرواية.

يخفض الفتى صوته ويجيب، كمن يتحدَّث إلى نفسه:

- لا أعرف كيف أكاتبها.

- لماذا؟ -يسأل ألبِرتو.

- لماذا؟ لأنني لا أعرف. إنها شديدة الذكاء، تكتب إليَّ رسائل بديعة.

- كتابة الرسائل شيء في منتهى السهولة. -يقول ألبِرتو- إنه أسهل شيء في العالَم.

- كلّا. الشيء السهل أن تعرف ماذا تريد أن تقول، لا أن تقوله.

- كلام فارغ. -يقول ألبِرتو- أستطيع أن أكتب عشر رسائل حبّ في ساعة واحدة.

- حقًّا؟ -يسأل الفتى مُحدِّقًا إليه.

«كتبتُ من أجله رسالة، فأخرى، وأرسلَت الفتاة ردودًا، ومضى أمين الثكنة يدعوني إلى السجائر والكولا في لاپِرليتا، وذات يوم جاءني برفقة فتى سامبو مِن القسم الثامن وسألني هل تستطيع أن تكتب من أجله رسالة حتى يبعثها إلى فتاته في إيكيتوس؟ وسألتُها، أتريدين مني أن أذهب وأتحدَّث إليه؟ فقالت إننا لا نملك أن نصنع شيئًا سوى الابتهال إلى الرَّب، وبدأت تحضر القدّاسات الإلهية والصلوات التساعية وتسدي إليَّ النصائح، ألبِرتو، يجب عليك أن تكون تقيًّا، وأن تحبّ الرب حبًّا جمًّا حتى لا تضلِّلك الغوايات عندما تكبر كما ضلَّلَت أباك، أما أنا فقلتُ له حسنًا ولكن يجب عليكَ أن تدفع مقابل خدماتي».

فكَّر ألبِرتو: «لقد مرّ أكثر مِن عامَيْن. سرعان ما يمضي الزمن». أغمض عينَيْه مُستحضِرًا وجه تيريسا، فامتلأ جسده لهفًا. كانت تلك أول مرة يحتمل فيها الحرمان مِن الإجازة بلا همّ. حتى الرسالتان

اللتان تلقّاهما مِن الفتاة لم توقظا في نفسه الرغبة في الخروج. مضى يفكّر: «تكتب إليَّ على ورق بخس الثمن. كما أن خطّها سيئ. قرأتُ رسائل أخرى أجمل من رسالتَيْها». قرأ الرسالتَيْن مرات كثيرة، في الخفاء دائمًا. واحتفظ بهما داخل القبعة، كالسجائر التي يهرِّبها إلى المدرسة أيام الأحد. في الأسبوع الأول، ما كاد يتلقّى رسالة من تيريسا حتى همّ بإرسال الردّ فورًا. ولكنه شعر باستياء وكدر بعد أن كتب تاريخ اليوم، ولم يدرِ ماذا يقول. وإذا اللغة كلها تبدو له زائفة، بلا طائل يُرتجَى. مزَّق عدة مسودات، وفي النهاية قرَّر ألَّا يردّ بأكثر من بضعة سطور موضوعية: «نحن مُعاقَبون بالحِرمان مِن الإجازة بسبب مشكلة وقعَت في المدرسة. لا أدري متى أخرج. سُرِرتُ كثيرًا بتلقّي رسالتك. أفكِّر فيك دائمًا. أول شيء أفعله عندما أخرج من المدرسة أن أذهب لرؤيتك». مضى العَبْدُ يلاحقه، ويقدِّم إليه السجائر والفاكهة والشطائر ويبوح إليه بالأسرار، ويتحايل حتى يبقى إلى جواره في قاعة الطعام والطابور والسينما. تذكَّر وجهه الشاحب، وأمارات الخضوع المرتسمة على وجهه، وابتساماته التقيَّة، فشعر نحوه بالكراهية. كان يحسّ بالضيق كلَّما رأى العَبْد آتيًا. ذلك أن الحديث بينهما يعود إلى تيريسا، بطريقة أو بأخرى، فيُضطَرّ ألبِرتو إلى أن يداري ما يعتمل بنفسه، وأن يلعب دور المنافق. في مرات أخرى، كان يُبدِي للعَبْد المودّة، ويسدي إليه النصائح الأخوية: «الأمر لا يستحقّ عناء أن تبوح إليها بمشاعرك في رسالة، فمثل هذه الأمور يجب أن تفعلها وجهًا لوجه، حتى ترى ردّها بعينَيْك. اذهبْ إلى بيتها واطلب منها أن تواعدك في أول إجازة». كان الوجه الخامل ينصت إليه في جدية، ويومئ بلا تمرُّد. فكَّر ألبِرتو: «سوف أصارحه يومَ نخرج لأول مرة بعد انتهاء الحرمان من الإجازة، حالما نتجاوز باب المدرسة. له وجهٌ أغبى مِن أن أُضفِي المزيد من المرارة على

حياته. سأقول له: أنا في غاية الأسف، ولكني مُعجَب بتلك الفتاة، ولو قابلتَها مزَّقتُ وجهك. في العالَم نساء أخريات. بعد ذلك أذهب للقائها، وآخذها إلى منتزه نيكوتشيا (الذي يقع في آخر كاسر أمواج لاريسيربا، فوق الأجراف البنيَّة شديدة الانحدار التي يلاطمها بحر ميرافلوريس في صخب، هناك حيث يتأمَّل الناظر من مكانه على الحافة مشهدًا حافلًا بالأشباح، يرى فيه شاطئ الأحجار، المنعزل، العميق، من خلال الضباب المُخيِّم في الشتاء)». مضى يفكِّر: «سوف أجلس على الدكة الأخيرة، قرب السياج المصنوع من الجذوع البيضاء». دفَّأت الشمسُ وجهه وجسده. أبى أن يفتح عينَيْه لئلَّا تتلاشى تلك الصورة.

استيقظ بعد أن غابت الشمس، ومكث وسط الضوء الباهت. تحرَّك في مكانه، فأحسّ بعظام ظهره تؤلمه، ورأسه يُثقِله: لم يكُن النوم على الخشب مريحًا. أحسّ برأسه ناعسًا، فلم يتمكَّن من النهوض. رفَّت عيناه بضع مرات، وراودَته رغبةٌ في التدخين. نهض مُتعثِّرًا، وأخذ يختلس النظر. خلَت الحديقة مِن الناس، أما كُتَل الإسمنت التي تضمّ الفصول فتراءت مهجورة. كم الساعة الآن؟ كانت الصفَّارة تنطلق إيذانًا بموعد الذهاب إلى قاعة الطعام في السابعة والنصف. جعل يتلفَّت حوله مُفتِّشًا بعناية، والمدرسة هامدة. نزل مِن السقيفة، ثم قطع الحديقة مُتجاوِزًا الأبنية بخطى سريعة، من دون أن يرى أحدًا. عندما وصل إلى منصة العرض فحسب، رأى جمعًا مِن الطُلَّاب يركضون خلف الفِكّونة. وفي نهاية المنصة، على بُعد كيلومتر واحد، لمح بعض الطُلَّاب الملتفعين بالسترات الخضراء الذين يجوبون الفناء اثنين اثنين، وسمع صخب الثكنات الهادر. تملَّكَته رغبةٌ جارفة في التدخين.

عرَّج على فناء الفرقة الخامسة، ثم عاد إلى نقطة الحراسة بدلًا

مِن أن يقطع الفناء. إنه يوم الأربعاء، وربما وصل البريد. وقف عدد من الطُلَّاب يسدّون الطريق أمام الباب.

- دعوني أمرّ. لقد استدعاني الضابط المناوب.

ولكن أحدًا لم يتحرَّك.

- قفْ في الطابور. -قال أحدهم.

- لم آتِ لاستلام البريد. -قال ألبِرتو مُؤكِّدًا- الضابط يحتاج إليّ.

- اذهبْ وضاجع نفسك. هنا يقف الجميع في الطابور.

انتظَر. كان الطابور يضطرب كلَّما خرج طالب، فكلهم يتزاحمون للدخول أولًا. وفي شرود، مضى ألبِرتو يقرأ جدول أعمال اليوم المُعلَّق على الباب: «الفرقة الخامسة. الضابط المناوب: الملازم بِدرو پيتالوغا. ضابط الصفّ: خواكين مورتي. طُلَّاب الفرقة الحاضرون: ٣٦٠. المحتجزون في المستوصف: ٨. تعليمات خاصة: يُعلَّق عقاب الحرس بدءًا من الثالث عشر من سبتمبر. توقيع: رائد الفرقة». عاود قراءة الجزء الأخير مرة، مرتَيْن، ثلاثًا. ثم أطلق شتيمة بصوت عالٍ، ومِن جوف نقطة الحراسة جاء صوت ضابط الصفّ پيسوا مُحتَجًّا:

- مَن الذي ينطق بمثل هذا الخراء هناك؟

انطلق ألبِرتو مُهروِلًا نحو الثكنة، وقلبه يفيض لهفة. وجد أروسپيدي عند الباب.

- لقد عُلِّق العقاب. -صاح ألبِرتو- الرائد فقد عقله.

- كلّا. -قال أروسپيدي- ألا تدري؟ لقد وشى أحدهم بالفاعل، وزُجّ بكابا في الزنزانة.

- ماذا؟ -سأل ألبِرتو- هل أبلغ أحدهم عنه؟ مَن؟

- آه، لطالما انكشف أمر الوشاة. -قال أروسپيدي.

دخل ألبِرتو إلى الثكنة. وكما جرَت العادة في المناسبات الكبرى، تبدَّلَت أجواء المكان. جاء وقع البيادات غريبًا في الثكنة التي خيَّم عليها الصمت. تابعَته أعين كثيرة مِن فوق الأسِرَّة. ذهب إلى سريره مُفتِّشًا بعينَيْه: لم يكُن النَّمِر حاضرًا، ولا مَوْجَة ولا كوبرا. وعلى السرير المجاور، مضى بايانو يتصفَّح بعض نسخ المجلَّات.

- هل عُرِف مَن هو الواشي؟ -سأل ألبِرتو.

- سوف يُعرَف. -قال بايانو- لا بدّ أن يُعرَف مَن هو الواشي قبل أن يُطرَد كابا.

- أين الآخرون؟

أشار بايانو بإيماءة مِن رأسه إلى الحمام.

- ماذا يفعلون؟

- لديهم اجتماع. لا أدري ماذا يفعلون.

قام ألبِرتو مُتَّجِهًا إلى سرير العَبْد، فوجده خاليًا. دفع أحد مصراعَي باب الحمام، وأحسّ بأعين أفراد القسم جميعًا مُصوَّبة إلى ظهره. وجد ثلاثتهم وقد انكمشوا على أنفسهم في أحد الأركان، بينما جاء موقع النَّمِر في الوسط. نظروا إليه.

- ماذا تريد؟ -سأل النَّمِر.

- أريد أن أتبوَّل. -أجاب ألبِرتو- أفترضُ بأن ذلك شيء مسموح.

- كلّا. -قال النَّمِر- إلى الخارج!

- عاد ألبِرتو إلى الثكنة في طريقه إلى سرير العَبْد.

- أين هو؟

- مَن؟ -سأل بايانو، مِن دون أن يرفع عينَيْه عن المجلات.

- العَبْد.

- لقد خرج.

- ماذا؟

- لقد خرج بعد الدروس.

- إلى الشارع؟ هل أنت مُتأكِّد؟

- إن لم يخرج إلى الشارع، فإلى أين؟ أمّه مريضة، على ما أعتقد.

«واشٍ وكاذب، لقد عرفتُ ذلك بالنظر إلى وجهه، وإلَّا فلماذا يذهب، ربما كانت أمّه تلفظ أنفاسها الأخيرة، ماذا لو دخلتُ الآن إلى الحمام وقلتُ يا نَمِر، إن العَبْد هو الواشي، ولكن لم يعُد من المُجدِي أن يقوم أفراد الحَلْقَة، فلقد خرج إلى الشارع، أقنع الجميع بأن أمّه مريضة، ولكن لا تغضبوا فسرعان ما تمرّ الساعات، دعوني أدخل إلى الحَلْقَة، أنا أيضًا أرغب في الانتقام لكابا الجَبَلي».

ولكن وجه كابا قد تلاشى في سحابة ضباب جرفَت أفراد الحَلْقَة وباقي طُلَّاب الثكنة أيضًا، وخفَّفَت مِن مشاعر السخط والاحتقار التي امتلأت بها نفسه قبل لحظات، ولكن سحابة الضباب تلتهم نفسها، وفي روح ألبِرتو ينبثق ذلك الوجه الذابل راسمًا ما يشبه الابتسامة. يذهب ألبِرتو إلى سريره، ويمدِّد جسده. يفتِّش في جيوبه، فلا يجد إلَّا نتفًا مِن التبغ. ينطلق لاعنًا. بينما يحوِّل بايانو عينَيْه عن المجلات وينظر إليه لحظة. يترك ألبِرتو ذراعه تسقط على وجهه، ويحسّ بقلبه مفعَمًا باللهفة وبأعصابه مُتوتِّرة تحت بشرته. وعلى نحوٍ مبهم، يطوف بخاطره أن أحدهم قد يكتشف الجحيم المُستعِر في جسده، فيتثاءب بصوتٍ عالٍ حتى يداري ما يعتمل في نفسه. يفكِّر: «أنا أحمق». «الليلة يأتي حتى يوقظني، أعرف أنه سوف ينظر إليَّ بذلك الوجه، أراه الآن وكأني به هنا، وكأني به يقول لي: أيها البائس، إذن فلقد دعوتَها إلى السينما، وراسلتَها، وراسلَتك، مِن دون أن تخبرني

بشيء، وتركتَني أتحدَّث إليك عنها طوال الوقت، لهذا تركتَني أفعل كذا، ورفضتَ أن تفعل كذا، وقلتَ لي كذا. ولكن الوقت لن يسعفه حتى يفتح فمه، أو يوقظني مِن نومي، لأنني سوف أنقضّ عليه وأطرحه أرضًا قبل أن يلمسني بيده أو يصل إلى فراشي، سوف أوسعه ضربًا بلا هوادة، وأصيح على الطُلَّاب، قوموا، فلقد أطبقتُ يدي على عنق الواشي الحقير الذي أبلغ عن كابا». ولكن تلك المشاعر قد اختلطَت بغيرها. إنه لشيء بغيض أن تظلّ الثكنة غارقة في الصمت. لو فتح عينَيْه، استطاع أن يرى -مِن خلال كوة ضيقة بين جسده وكمّ القميص- شذرةً مِن نوافذ الثكنة، والسقف، والسماء التي كاد يغلب عليها السواد، وبريق مصابيح المنصة. «ربما كان هناك، ينزل الآن من الحافلة، ويسير في تلك الشوارع، شوارع لينسيه، ربما كان معها، ربما طلب منها أن تواعده، بوجهه المثير للغثيان، ليته لا يعود أبدًا يا أمّي العزيزة، ليتكِ تبقين مهجورةً في بيتك بألكانفوريس، حتى أنا سوف أهجرك، وأسافر إلى الولايات المُتَّحِدة، فتنقطع أخباري عن الناس جميعًا، ولكني، قبل ذلك، أقسمُ إنني سوف أسحق وجهه الخليق بالديدان، وأدهسه، وأقول للناس جميعًا انظروا ماذا جرى لذلك الواشي، تشمَّموا، تلمَّسوا، تحسَّسوا، ثم أذهب إلى لينسيه وأقول لها إنكِ فتاة صغيرة مسكينة رخيصة، تليقين بذلك الواشي الذي أوسعتُه ضربًا قبل قليل». يستلقي مُتيبِّسًا على السرير الضيق الذي يُحدِث صريرًا، شاخصًا بعينَيْه إلى مرتبة السرير العلوي. يبدو له أن المرتبة تكاد تفيض عن الأسلاك المجدولة على شكل مَعين، وتكاد تهوي فوقه، وتسحقه.

- كَم الساعة الآن؟ -يتوجَّه إلى بايانو بالسؤال.

- السابعة.

ينهض من الفراش ثم يخرج. ما زال أروسپيدي عند الباب،

واضعًا يدَيْه في جيبَيْه. بفضول، ينظر إلى طالبَيْن يتجادلان صياحًا في وسط الفناء.

- أروسپيدي.

- ما الخطب؟

- سوف أخرج.

- وما شأني بذلك؟

- سوف أهرب مِن المدرسة.

- هذا شأنك وحدك. -يقول أروسپيدي- تحدَّث إلى الحرس المناوبين.

- لن أهرب ليلًا. -يجيب ألبِرتو- أريد أن أخرج الآن. بينما يصطفّ الطُّلّاب في طريقهم إلى قاعة الطعام.

في هذه المرة ينظر إليه أروسپيدي باهتمام.

- لا بدّ أن أخرج. -يقول ألبِرتو- الأمر في غاية الأهمية.

- ألديك مُخطَّط، أو حفل؟

- هل تكتب اسمي ضمن الحاضرين؟

- لا أدري. -يقول أروسپيدي- لو اكتشفوا أمرك نغَّصوا عيشي أنا أيضًا.

- لم يعُد أمامكم سوى طابور واحد فقط اليوم. -يصرّ ألبِرتو- كل ما عليك أن تكتب في التقرير: جميع الطُّلّاب حاضرون.

- لن أفعل أكثر من ذلك. -يقول أروسپيدي- ولكن لو اصطففنا مرة أخرى فلن أكتب اسمك ضمن الحاضرين.

- أشكرك.

- الأفضل أن تخرج مِن الإستاد. -يقول أروسپيدي- اذهبْ واختبئ عن الأنظار هناك، فلن تلبث الصفَّارة أن تنطلق.

- أجل. -يقول ألبِرتو- أعرف.

يعود إلى الثكنة. يفتح خزانته. كان في حوزته صولان، ما يكفي لأجرة الحافلة.

- مَن يتولّى نوبات الحراسة الأخيرة؟ -يتوجَّه إلى بايانو بالسؤال.

- باينا ومَوْجَة.

تحدَّث إلى باينا، الذي وافق أن يكتب اسمه ضمن الحاضرين. ثم ذهب إلى الحمام. ما زال ثلاثتهم منكمشين على أنفسهم. رآه النَّمِر، فقام.

- ألم تفهم ما قلتُ لك؟

- لا بدّ أن أخبر مَوْجَة بكلمتَيْن.

- اذهبْ وأخبر أمّك بهاتين الكلمتَيْن. اخرجْ من هنا.

- سوف أهرب من المدرسة في هذه اللحظة. أريد مِن مَوْجَة أن يكتب اسمي ضمن الحاضرين.

- في هذه اللحظة؟ -سأل النَّمِر.

- أجل.

- حسنًا. -قال النَّمِر- أتعرف بأمر كابا؟ مَن فعلها؟

- لو كنتُ أعرف لأوسعتُه ضربًا. مَن تخالني؟ أفترضُ بأنك لا تحسبني واشيًا.

- آملُ ألَّا تكون واشيًا. -قال النَّمِر- لمصلحتك.

- لا أحد يلمس هذا. -قال كوبرا- بل اتركوه لي أنا.

- اخرس. -قال النَّمِر.

- أحضرْ لي علبة سجائر إنكا، وسأكتب اسمك ضمن الحاضرين. -قال مَوْجَة.

أومأ ألبِرتو برأسه. دخل إلى الثكنة، فتناهى إلى سمعه صفير، وصوت ضابط الصفّ ينادي بالاصطفاف. انطلق راكضًا، فمرّ مِن

خلال الفناء كوميض البرق، وسط صفوف لم تزَل في طور التكوين. قطع منصة العرض وهو يغطِّي كتفيتَيْه الحمراوَيْن بيدَيْه، خشية أن يعترض سبيله ضابط من فرقة أخرى. كان الفوج قد اصطفّ في ثكنات الفرقة الثالثة، فأمسك ألبِرتو عن الركض، ومشى بخطى مفعمة بالحيوية، بتلقائية. مرّ أمام ضابط الفرقة، وأدَّى التحية: فردّ الملازم التحية بحركة آلية. وفي الإستاد، بعيدًا عن الثكنات، داخله شعور غامر بالهدوء. حام حول عنبر الجنود، فسمع أصواتًا وألفاظًا نابية. ركض وهو يكاد يلاصق سياج المدرسة حتى وصل إلى أقصى نقطة، هناك حيث يتلاقى طرفا السور في زاوية قائمة. ما زال الآجر الذي استخدمه طُلَّاب آخرون للقفز من فوق السور متراكمًا هناك. ارتمى على الأرض، ونظر بتأنٍّ إلى أبنية الثكنات التي يفصلها عنه ملعب كرة القدم، تلك البقعة الخضراء مُربَّعة الشكل. كاد لا يرى شيئًا، ولكنه سمع أصوات الصفير. اصطفَّت الأفواج في طريقها إلى قاعة الطعام. لم يرَ أحدًا بالقرب من العنبر. أخذ يسحب قطع الآجر ويرصّها بعضها فوق بعض بحذاء السور، من دون أن ينهض عن الأرض. ماذا لو أنه لا يملك القوى اللازمة لدفع جسده فوق السور؟ كان يهرب في كل مرة مِن موقع آخر، قريب من لاپرليتا. ألقى نظرة أخيرة حوله، ثم نهض واثبًا. رفع كلتا يدَيْه وتسلَّق الآجر.

لسطح السور ملمس خشن. ولكن ألبِرتو يدفع جسده إلى أعلى، وينجح في بلوغ القمة بعينَيْه. يرى الحقلَ المهجور الذي يكاد يلفّه الظلام. كما يرى خطًّا متناغمًا مِن أشجار النخيل التي ترافق جادة پروغريسو على مسافة بعيدة. بعد ثوانٍ لا يعود يرى بعينَيْه إلَّا السور، غير أنه لا يزال مُتشبِّثًا بالحافة بكلتا يدَيْه. «ولكني أقسمُ بالرَّب إنك سوف تدفع لي ثمن هذا أيها العَبْد، سوف تدفع لي الثمن أمامها، لو انزلقتُ وكسرتُ ساقي لاتَّصلوا ببيتي، ولو جاء أبي لصارحتُه

بالحقيقة أخيرًا: لقد طُرِدتُ مِن المدرسة عقابًا لي على الهرب، أما أنت فلقد هربتَ من البيت لترافق العاهرات وذلك أسوأ». تلتصق القدمان والركبتان بسطح السور الخشن، وتستندان إلى الصدوع والأجزاء الناتئة، وتتسلَّقان. ينكمش ألبِرتو فوق السور وكأنه قرد، فلا يستغرق أطول من اللازم لاختيار رقعة مِن الأرض المُسطَّحة. ثم يقفز: يرتطم بالأرض ويدور إلى الخلف، يغمض عينَيْه، يحكّ رأسه وركبتَيْه، بحركة محمومة، ثم يجلس، ويتحرَّك في مكانه، ويقوم. ينطلق راكضًا. يقطع الحقل بينما تغوص قدماه في أرض رخوة، ويحسّ في كاحلَيْه بوخز الحشائش. تنكسر بعض سيقان النباتات تحت حذائه. «أي طيش هذا، ربما رآني أحدهم وسألني، وماذا عن القبعة والكتفيتَيْن، إنه طالب عسكرية هارب، مثل أبي، ولو ذهبتُ إلى ذات القدمَيْن الذهبيتَيْن وقلتُ لها، يا ماما، كفى، أرجوك، تقبَّلي الوضع، فأنتِ قد طعنتِ في السنّ على كل حال، ويكفيك الإيمان بالدين، أما هذا فلسوف يدفعان ثمنه غاليًا، كلاهما، ومعهما الخالة، تلك المشعوذة العجوز، القوَّادة، الخيَّاطة، الملعونة». تخلو المحطة من الناس تمامًا. يصل هو والحافلة في وقت واحد، فيُضطَرّ إلى الركوب مهرولًا. ومرة أخرى، يداخله شعورٌ عميق بالهدوء. يمضي مُحاصَرًا بكتلة من الناس. لا يُرَى شيء في الخارج، على الجانب الآخر من النوافذ، فسرعان ما خيَّم الليل بعد ثوانٍ قليلة، ولكنه يعرف أن السيارة تمرّ بأراضٍ خلاء، وحقول، ومصانع، وحيٍّ تتألَّف بيوته مِن الصفيح والورق المُقوَّى، وساحةٍ لمصارعة الثيران. «لقد دخل إلى البيت، وقال لها مرحبًا، بابتسامته، ابتسامة الجبناء، فقالت له مرحبًا، تفضَّلْ بالجلوس، فخرجَت المشعوذة وبدأت تتحدَّث إليه، ونادَته بلقب سنيور، وخرجَت إلى الشارع وتركَتهما وحدهما، وقال لها لقد جئتُ بسبب كذا، جئتُ من أجل كذا،

تصوَّري كذا، هل فهمتِ كذا، لقد أرسلتُ إليك رسالة مع. . . أوه، ألبِرتو، أجل، لقد أخذني إلى السينما، ولكننا لم نفعل أكثر من ذلك، وأنا أيضًا راسلتُه، أوه، أنا مجنون بحبِّك، ويقبِّل كلٌّ منهما الآخر، ها هما يتبادلان القبلات، ربما كانا يتبادلان القبلات، رباه، ليتني أضبطهما حين أصل إلى هناك وهما يتبادلان القبلات، في الفم، وهما عاريان، ربّاه». ينزل من الحافلة في جادة ألفونسو أوغارتي، ويسير مُتَّجِهًا إلى ميدان بولوغنيسي، وسط مُوظَّفي القطاعَيْن العام والخاص الذين يغادرون المقاهي أو يقفون على نواصي الشوارع، ويشكِّلون مجموعات صاخبة. يقطع الحارات المتوازية الأربع حيث تتدفَّق أنهار مِن السيارات، ويصل إلى الميدان الذي يتوسَّطه بطلٌ آخر مِن البرونز فوق قمة أحد الأعمدة، بطلٌ ساقط تحت وابل من رصاص التشيليين، وسط الظلال، بعيدًا عن الأضواء. «أقسموا براية الوطن المُقدَّسة، بدماء أبطالنا، كنا في طريقنا إلى الشاطئ عندما قال لي پلوتو انظرْ إلى فوق، وهناك كانت إيلينا، وأقسمنا، واصطففنا، بينما الوزير يحكّ أنفه، ويمسحه، ويا لأمّي المسكينة، لقد انتهى زمن اللعب بالورق، وانقضَت الحفلات، ودعوات العشاء، والأسفار، خُذني إلى مباراة كرة القدم يا بابا، إنها رياضة خليقة بالسّود يا فتى، في العام المقبل سوف أجعلك عضوًا في نادي التجديف لتصبح جدَّافًا، ثم ذهب مع فتيات ليل على شاكلة تيريسا». يسير في ممشى كولون الذي خلا مِن الناس وكأنه شارع من عالَم آخر، ذلك الممشى العتيق مثل بيوته المُكعَّبة التي تعود إلى القرن التاسع عشر، تلك البيوت التي ما عادَت تضمّ سوى أشباه العائلات العريقة، والواجهات ذات اللافتات البرَّاقة، والدرب الخالي مِن السيارات، بما حوى من المقاعد المُحطَّمة والتماثيل. بعد ذلك يستقلّ الإكسپريس المُتَّجِه إلى ميرافلوريس، الذي وصل

مُضاءً بشدّة كالثلّاجة. على متن الإكسبريس، يحيط به أشخاص لا يضحكون ولا يتكلَّمون. ينزل في محطة مدرسة رايموندي، ويسير عَبْر شوارع لينسيه القاتمة: حيث الدكاكين القليلة، وأعمدة الإنارة المُحتضِرة، والبيوت المعتمة. «إذن فلم يسبق لكِ أن واعدتِ شابًّا، ماذا تقولين، بهذا الوجه الذي وضعه الرَّب فوق عنقك، إذن فلقد وجدتِ سينما مترو في غاية الجمال، غير معقول، دعينا نرَ إن كان العَبْد يأخذكِ إلى حفلات السينما الصباحية في وسط المدينة، أو يأخذكِ إلى المنتزه، أو الشاطئ، أو الولايات المُتَّحِدة، أو تشوسيكا في أيام الأحد، إذن فهو ذاك، لديَّ ما أخبركِ به يا ماما، لقد وقعتُ في حبِّ فتاة مبتذلة، وخانَتني كما فعل بكِ أبي، ولكنها قد خانَتني قبل الزواج، قبل أن نتواعد، قبل كل شيء، فما رأيك». يصل إلى ناصية بيت تيريسا، ويمضي قريبًا من الجدار، مُتخفِّيًا تحت الظلال. يتلفَّت إلى كل الاتجاهات، فيجد الشوارع خاوية. يسمع صوت أشياء آتيًا من الخلف، مِن البيت، أحدهم يرتِّب خزانةً أو يبعثر محتوياتها، بنظام، من دون استعجال. يمسح بيده على شعره، ويملِّسه. يتتبَّع مفرق رأسه بيده، ويتحقَّق من أنه ما زال مستقيمًا. يُخرِج منديله، ثم يمسح جبينه وفمه. يهندم قميصه، ويرفع قدمه ماسحًا طرف الحذاء بساق السروال. وبالمثل يفعل بقدمه الأخرى. «سوف أدخل، وأصافحهما، مبتسمًا، لن أستغرق أطول من ثانية واحدة، معذرة، تيريسا، ردّي إليَّ رسالتَيّ من فضلك، وإليكِ رسالتَيْك، أما أنت أيها العَبْد، فابقَ هادئًا، سوف نتحدَّث في وقت لاحق، إنها مسألة تخصّ الرجال، فلماذا نثير فضيحة أمامها؟ قُلْ لي، هل أنت رجل؟». يقف ألبِرتو أمام الباب، عند قاعدة الدرجات الإسمنتية الثلاث. يحاول أن يرهف السمع، ولكن سدى. ومع ذلك، فهما هناك: لأن خيطًا من الضوء يتسلَّل مِن إطار الباب. كما

سمع ألبِرتو قبل ثوانٍ حفيفًا كالهواء. ربما كانت يدًا تفتّش عمّا تتوكّأ عليه. «سوف أمرّ بسيارتي ذات السقف المُتحرِّك، وحذائي الأمريكي، وأقمصتي الكتانية، وسجائري الشقراء، وسترتي الجلدية، وقبعتي ذات الريشة الحمراء، وأطلقُ بوق السيارة، وأقول لهما اركبا، لقد وصلتُ من الولايات المُتَّحِدة أمس، دعونا نذهب في جولة، تعاليا إلى بيتي في أورانتيا، أريدكما أن تتعرَّفا بزوجتي الأمريكية، التي كانت مُمثِّلة في السينما، لقد تزوَّجنا في هوليوود عامَ أنهيتُ دراستي، تعالَ، اركب أيها العَبْد، اركبي يا تيريسا، أتريدان الاستماع إلى الراديو في هذه الأثناء؟».

يطرق ألبِرتو الباب مرتين، فتأتي الطرقة الثانية أقوى. ما هي إلَّا لحظات حتى يرى على عتبة الباب هيئة امرأة، خيالًا بلا ملامح، بلا صوت. يأتي الضوء مِن الداخل، فلا يكشف إلَّا كتفَي الفتاة ومنبت عنقها. «مَن؟»، تسأل، فلا يحير ألبِرتو جوابًا. تتنحّى تيريسا إلى اليسار قليلًا، عندئذ يتلقَّى ألبِرتو دفقةً من الضوء الرقيق الذي ينساب على وجهه.

- مرحبًا. -يقول ألبِرتو- أودّ أن أتحدَّث إليه لحظةً. المسألة حرجة للغاية. ناديه من فضلك.

- مرحبًا، ألبِرتو. -تقول- لم أتعرَّفك. تفضَّل، ادخل. لقد أخفتَني.

يدخل مُشدِّدًا أمارات الوجوم المرتسمة على وجهه، بينما يتلفَّت إلى كل الاتجاهات في تلك الحجرة الخاوية. يتأرجح الستار الذي يفصل بين الحجرتَيْن، فيتمكَّن مِن رؤية فراش عريض، مُبعثَر، وإلى جواره فراش آخر أصغر حجمًا. تلين قسمات وجهه حين يلتفت إليها. تغلق تيريسا الباب وقد أولَته ظهرها. يراها ألبِرتو وهي تمرِّر يدها على شعرها سريعًا، ثم تفرد طيات تنورتها، قبل أن تلتفت إليه.

الآن تقف أمامه. وفجأة يدرك ألبِرتو أن الوجه الذي قد استحضره في المدرسة مرات كثيرة على مدى الأسابيع الأخيرة كان يتَّسم بصلابةٍ يخلو منها وجه تيريسا الآن، عن كثب، هذا الوجه الذي قد رآه في سينما مترو، وخلف الباب، حين ودَّع كل منهما الآخر، هذا الوجه الهيَّاب، وهاتان العينان الخجولتان اللتان تهربان مِن عينَيْه، فتنفتحان وتنغلقان وكأن شمس الصيف تداعبهما. تبتسم تيريسا، وتبدو مُرتبِكة: تتشابك يداها، تتباعدان، تسقطان إلى جانبَيْها، تستندان إلى الجدار.

- لقد هربتُ مِن المدرسة. -يقول، في حين يتضرَّج وجهه وتنخفض عيناه.

- هربت؟ -تفتح تيريسا شفتَيْها، ولكنها لا تزيد على ما قالت شيئًا، بل تكتفي بالنظر إليه بشيء مِن اللهفة. تتشابك يداها مرة أخرى، على بُعد سنتيمترات قليلة مِن ألبِرتو- ماذا جرى؟ أخبرني. ولكن، تفضَّلْ بالجلوس. لا أحد هنا. لقد خرجَت خالتي.

يرفع رأسه سائلًا:

- هل كنتِ مع العَبْد؟

تنظر إليه وقد اتَّسعَت عيناها بشدة.

- مَن؟

- أعني، ريكاردو آرانا.

- أوه. -تقول وكأنما قد هدأت. ثم تعاود الابتسام- الفتى الذي يسكن على الناصية.

- هل أتى لرؤيتك؟ -يلحّ ألبِرتو في السؤال.

- رؤيتي أنا؟ -تسأل- كلّا. ولكن لماذا؟

- أخبريني بالحقيقة. -يقول رافعًا صوته- لماذا تخبرينني بالكذب؟ أعني. . . -يقطع حديثه، ويتلعثم، ثم يسكت. تنظر إليه

تيريسا بجدية بالغة. يتحرّك رأسها قليلًا، وتظلّ يداها ساكنتَيْن بطول جسدها. أما عيناها، فيطلّ منهما عنصرٌ جديد، لم يزَل مبهمًا، ضوء خبيث.

- لماذا تسألني عن هذا الشيء؟ -يأتي صوتها في غاية الرقَّة، بطيئًا، مبهمًا في سخريته.

- لقد خرج العَبْد مساء اليوم. -يقول ألبِرتو- ظننتُه قد جاء لرؤيتك. لقد ادَّعى أن والدته مريضة.

- ولماذا يأتي إلى هنا؟ -تسأل.

- لأنه يحبّك.

في هذه المرة تشبَّع وجه تيريسا كاملًا بذلك الضوء، وكذلك وجنتاها وشفتاها وجبينها المصقول، الذي تتموَّج عليه خصلات شعرها المنسدلة.

- لم أكُن أعرف. -تقول- لم أتحدَّث إليه سوى لحظات. ولكن...

- ولذا هربتُ مِن المدرسة. -يقول ألبِرتو. يستغرق في الصمت هنيهةً، وقد انفرجَت شفتاه. ثم يردف أخيرًا-: لأنني قد شعرتُ بالغيرة. أنا أيضًا أحبّك.

٧

لطالما بدَت في غاية النظافة والأناقة، إلى حدٍّ جعلني أتساءل: لماذا لا تبدو الأخريات مثلها؟ ليس الأمر أنها قد أكثرَت من تبديل ثيابها. بالعكس، فهي لم تملك سوى القليل من الثياب. في أثناء الدراسة، كانت تنحّي الكتب جانبًا وتذهب لتنظيف بشرتها كلّما لوَّثت يدَيْها بالحبر. أما لو سال الحبر على الدفتر، فكانت تمزِّق الورقة وتكتبها من جديد، وإن اقتصر الأمر على قطرة صغيرة مِن الحبر. «ولكنكِ تهدرين وقتًا طويلًا بهذه الطريقة»، كنتُ أقول لها. «الأفضل أن تكشطي البقعة. استخدمي شفرة، وسترين. لن يُلاحَظ الأمر مطلقًا». ولكنها لم تقبل. كان ذلك هو الشيء الوحيد الذي يثير غضبها، وعندئذ تزمّ شفتَيْها، ويبدأ صدغاها في الخفقان تحت خصلات شعرها السوداء، فيختلجان ببطء، كما يخفق القلب. ولكنها تذهب إلى الصنبور ثم تعود وقد ارتسمَت الابتسامة على وجهها مِن جديد. تألَّف زيّها المدرسي مِن تنورة زرقاء وقميص أبيض. كنتُ أراها عائدةً من المدرسة في بعض الأحيان، فأقول في نفسي: «لا تجعيدة واحدة، ولا بقعة واحدة!». كما امتلكَت ثوبًا منقوشًا بالمُربَّعات، بلا أكمام، يغطّي كتفَيْها ويُشَدّ حول العنق بشريط، بينما ترتدي فوقه كنزة بلون القرفة، لا تقفل منها سوى الزرّ الأخير. كان طرفا السترة يرفرفان في مهبّ الريح وهي سائرة. كم

بدَت جميلةً آنذاك. كان ذلك ثوبَ الأحد، الذي ترتديه لزيارة أقربائها، وإن اعتبرتُ الأحد أسوأ الأيام. كنتُ أستيقظ مُبكِّرًا في أيام الأحد، ثم أذهب إلى ميدان بيابيستا، وأجلس على دكة، أو أشاهد صور السينما، ولكني لا أتوقَّف عن مراقبة بيتها خلسة، خشية أن تخرج تيريسا وخالتها من دون أن أراهما. أما في باقي الأيام، فكانت تيري تذهب لشراء الخبز مِن مخبز تيلاو الصيني الذي يقع إلى جوار السينما، فأقول لها: «يا لها مِن مصادفة، نلتقي دائمًا». كانت تيري تبقى في الخارج لو وجدنا المخبز شديد الازدحام، بينما أشقّ أنا طريقي، فيستقبلني تيلاو الصيني أولًا، لأنه صديق عزيز. ذات مرة، رآنا تيلاو ندخل إلى المكان معًا، فقال: «أوه، ها قد وصل الحبيبان. الطلب المُعتاد؟ كعكتا شانكاي ساخنتان لكل منكما؟». ضحك المُشتَرون، بينما تضرَّج وجهها، وقلتُ له: «كفى يا تيلاو، دع عنك المزاح وانتبه إلى عملك». كان المخبز يوصد أبوابه في أيام الأحد، فأبقى أنا في بهو سينما بيابيستا، أو على دكةٍ، مِن حيث أراقبهما وهما تنتظران وصول الحافلة المُتَّجِهة إلى لاكوستانيرا. في بعض المرات تظاهرتُ بلقائهما صدفةً، فكنتُ أسير واضعًا يدَيّ في جيبَيّ، وأنا أصفِّر، وأركل بقدمي حجرًا أو غطاء قارورة، فأمرّ إلى جوارهما وألقي التحية من دون أن أتوقَّف: «صباح الخير، سنيوره. مرحبًا، تيري». وأمضي في طريقي حتى أدخل إلى بيتي، أو أذهب إلى جادة ساينس بينيا، مِن دون سبب.

كما كانت ترتدي ثوب المُربَّعات والسترة في ليالي الإثنين، حين تأخذها خالتها إلى العرض الخاص بالنساء في سينما بيابيستا، وعند ذاك أخبر أمّي بأنني مُضطَرّ إلى استعارة دفترٍ من تيري، وأذهب إلى الميدان حيث أنتظر ريثما ينتهي العرض، فأراها تمرّ مع خالتها لاحقًا وهي تعقِّب على الفيلم.

أما في باقي الأيام، فلقد درجَت تيري على ارتداء تنورة بنية اللون، عتيقة، بهتَت ألوانها قليلًا. في بعض المرات وجدتُ الخالة ترتق التنورة، بإتقان، حتى تكاد الرقع لا تظهر، لم تكُن خيَّاطة من فراغ. أما لو رتقَت تيري التنورة بنفسها، فكانت تبقى بالزيّ المدرسي بعد انتهاء اليوم الدراسي، وتفرش الكرسي بجريدة تجلس عليها حفاظًا على نظافة ثيابها. كانت ترتدي مع التنورة البنية قميصًا أبيض له ثلاثة أزرار، لا تقفل منها سوى الأول والثاني، فيبقى عنقها الأسمر الطويل مكشوفًا، وفي الشتاء ترتدي فوق القميص الأبيض كنزةً بلون القرفة، لا تقفل منها زرًّا واحدًا. «كم تبرع في الاعتناء بمظهرها»، هكذا رحتُ أفكِّر.

لم تملك إلَّا زوجَيْن من الأحذية، فلم تنفعها البراعة كثيرًا في هذه الحالة، مع أنها قد استفادَت منها قليلًا. كانت تذهب إلى المدرسة بحذاء أسود يُشَدّ بالأربطة، ويبدو كأحذية الرجال، الشيء الذي لا يظهر بوضوح نظرًا إلى صغر قدمَيْها. حافظَت على حذائها طوال الوقت لامعًا، خاليًا مِن الغبار والبقع. من المُؤكَّد أنها كانت تخلع الحذاء حالما ترجع إلى البيت حتى تلمِّعه، لأنني أراها تدخل إلى البيت بالحذاء الأسود، ثم أصل إلى هناك بعد قليل حتى أستذكر دروسي معها، فأجدها قد انتعلَت الحذاء الأبيض، بينما استقرّ الآخر عند باب المطبخ، لامعًا كالمرآة. لا أعتقد بأنها قد أكثرَت من استخدام المُلمِّع كل يوم، وإن مسحَت الحذاء بقطعة من القماش.

بدا حذاؤها الأبيض قديمًا. كانت تشرد بذهنها، فتضع ساقًا على ساق، رافعةً إحدى قدمَيْها في الهواء، فأرى نعل الحذاء مهترئًا، مُتآكلًا في غير موضع. ذات مرة اصطدمَت قدمها بالطاولة، فانطلقَت صارخة، عندئذ جاءت خالتها وخلعَت حذاءها، ثم بدأت تمسِّد قدمها. انتبهتُ إلى الورق المُقوَّى المطوي في جوف الحذاء،

وفكَّرتُ أن: «النعل مثقوب». ذات مرة رأيتُها تنظِّف الحذاء الأبيض وتُلوِّنه كاملًا بالطبشور، بعناية فائقة، كما تفعل وهي تؤدِّي واجبات المدرسة، حتى صار الحذاء يبدو كالجديد، ولكن للحظات فحسب، لأن الطبشور لا يكاد يحتكّ بشيء حتى ينمحي ويزول، فتنتشر البقع في الحذاء. ذات مرة خطر على بالي: «لو توفَّر لديها كثيرٌ من الطبشور، لصار حذاؤها نظيفًا طوال الوقت. يمكنها أن تحمل في جيبها قطعة من الطبشور حتى تلوِّن الحذاء كلَّما اتَّسخَت رقعةٌ منه». كانت أمام مدرستي مكتبة، فذهبتُ إلى هناك ذات مساء وسألتُ عن سعر علبة الطبشور. قيل لي إن سعر العلبة الكبيرة ستة صولات، والصغيرة أربعة صولات وخمسون سنتًا. لم أعرف أن الطبشور غالٍ إلى هذا الحدّ. وأخجلني أن أقترض مِن إغيراس النحيل، فحتى ذلك الصول الذي سبق واقترضتُه منه لم أردّه إليه بعد. توطَّدَت صداقتنا، مع أننا لم نلتقِ إلَّا بين حين وآخر، في الحانة المعهودة، حيث يخبرني بالنكات، ويسألني عن المدرسة، ويقدِّم إليَّ السجائر، ويعلِّمني كيف أصنع حلقات الدخان، وكيف أكتم الدخان في صدري ثم أطلقه مِن أنفي. ذات يوم تشجَّعتُ وطلبتُ منه أن يقرضني أربعة صولات وخمسين سنتًا. «طبعًا يا رجل»، قال، «لك ما تريد». وأعطاني النقود من دون أن يسألني عن الغرض منها، فهرولتُ إلى المكتبة واشتريتُ علبة الطبشور. خطر على بالي أن أقول لها: «تيري، لقد أحضرتُ إليكِ هذه الهدية»، هكذا مضيتُ أفكِّر حين دخلتُ إلى بيتها، ولكني ما كدتُ أراها حتى شعرت بالندم، ولم أقُل لها سوى: «لقد تلقَّيتُ هذه الهدية في المدرسة، وأنا لا أستخدم الطبشور في شيء. أتريدينه؟»، فأجابَتني: «نعم، طبعًا، أعطِني إياه».

*

لا أؤمن بوجود الشيطان، ولكن النَّمِر يجعلني أرتاب في ذلك أحيانًا. يقول عن نفسه إنه غير مؤمن، ولكنها أكذوبة، محض ادعاء، كما ثبت حين ضرب أروسپيدي لأنه قد عاب في القديسة روسا. «لقد آمنَت أمّي بالقديسة روسا، والعيب في القديسة روسا كالعيب في أمّي»، إنه محض ادعاء. لا بدّ أن للشيطان وجه النَّمِر، وضحكته، وحتى وجنتَيْه المُدبَّبَتَيْن. «إنهم قادمون حتى يأخذوا كابا»، هكذا قال النَّمِر، «لقد اكتشفوا كل شيء». وانفجر ضاحكًا، بينما فقدتُ أنا ومَوْجَة القدرة على النطق، والجنود قادمون في الطريق. كيف استطاع أن يخمِّن ذلك؟ لطالما حلمتُ أنني أتسلَّل خلف ظهره، وأطرحه أرضًا، وأوسعه ضربًا، بوم، طاخ، طراخ. ودعونا نرَ ماذا يفعل عندما يفيق! لا بدّ أن مَوْجَة يفكِّر في الشيء نفسه. «إن ذلك النَّمِر مسخ يا كوبرا، إنه وحش لم ولن يتكرَّر»، قال لي مساء اليوم، «أرأيتَ كيف استطاع أن يخمِّن ما جرى للجَبَلي؟ وكيف انطلق ضاحكًا؟ حتى لو كنتُ أنا الذي وقعتُ في هذا المأزق، فمن المُؤكَّد أنه كان لينفجر ضاحكًا حتى يتبوَّل على نفسه من شدة الضحك. وعلى الرغم من ذلك، فلقد ثارت ثائرته لاحقًا، غير أنه لم يغضب للجَبَلي، وإنما لنفسه. «أنا المقصود بما جرى، إنهم لا يعرفون مَن الذي يعبثون معه»، ولكن كابا الجَبَلي هو الذي قد زُجّ به في الزنزانة. يقشعر بدني كلَّما تساءلت، وماذا لو كان النرد قد اختارني أنا؟ أتمنَّى أن ينغّصوا عيش النَّمِر، دعونا نرَ وجهه وهو في هذه الحالة. لا أحد ينال منه أبدًا، ذلك أكثر ما يزعجني، فهو يتوقَّع كل شيء. يُقال إن الحيوانات تشمّ رائحة الأشياء، وتدركها عَبْر حاسة الشمّ. لا تفعل الحيوانات أكثر من ذلك، فتدرك بأنوفها كل شيء قبل أن يقع. تقول أمي: يومَ وقع زلزال ١٩٤٠، عرفتُ أن شيئًا على وشك الوقوع لأن كلاب الحيّ قد جُنّ جنونها فجأة، وراحت تركض

وتعوي كما لو أنها قد رأت الشيطان بقرونه وشعره المنتصب كالأسلاك، وما هو إلّا قليل حتى ضرب الزلزال. هكذا يفعل النَّمِر. إذ ارتسمَت على وجهه تلك التعابير المعهودة، وقال إن «أحدهم قد وشى بالجَبَلي»، «أقسمُ بالعذراء»، قالها حتى قبل أن يظهر أوارينا ومورتي. لم نكُن حتى قد سمعنا وقع خطاهما، لا شيء. يا للخزي، لم يرَه ضابط واحد، لم يرَه ضابط صفّ واحد، وإلّا كان كابا قد طُرِد إلى الشارع قبل ثلاثة أسابيع، غير أنه لم يذهب إلى الزنزانة سوى الآن، يا له من شيء مثير للغثيان، لا بدّ أن طالبًا قد وشى به. ربما كان الواشي كلبًا، أو طالبًا في الفرقة الرابعة. حتى طُلّاب الفرقة الرابعة كلاب، أكبر عمرًا، وأوسع خبرة، ولكنهم في حقيقة الأمر كلاب. أما نحن فلم نكُن كلابًا في أي وقت مضى، وذلك دَينٌ في أعناقنا للحَلْقَة، لقد أرغمناهم على احترامنا، الأمر الذي تحقَّق لنا بجهود شاقة. هل كان يخطر لأحد طُلّاب الفرقة الخامسة أن يأمرنا بترتيب فراشه ونحن في الفرقة الرابعة؟ أطرحك أرضًا، وأبصق عليك. يا نَمِر، يا مَوْجَة، يا كابا الجَبَلي، هلّا ساعدتموني؟ لقد التهبَت يداي من فرط ما أوسعتُ هذا المُخنَّث ضربًا. بل إنهم لم يعبثوا حتى مع أقزام القسم العاشر مِن فرقتنا، وكل هذا دَينٌ في أعناقهم للنَّمِر، وحده النَّمِر لم يسمح لأحد بأن يعمِّده، وهكذا قدَّم إلى الآخرين نموذجًا يُحتذَى به، إنه فحل بحقّ، ولكن ما الجدوى؟ لقد أمضينا بضعة أيام هانئة، أفضل من كل ما تلاها من الأيام، ولكني لا أتمنَّى أن يعود بنا الزمن، بل إنني أتمنَّى لو تخرَّجت، هذا في حال لم يفسد الأمر برمّته بسبب ما فعل الجَبَلي. لو تمكَّن الخوفُ منه وأغرقنا في الوحل جميعًا، لقتلتُه. «أراهنُ عليه بكل ما أملك»، قال مَوْجَة، «لن يفتح فمه وإن طعنوه بالحديد الساخن». لو خرب كل شيء تحديدًا قبل الاختبارات،

بسبب زجاج حقير، فيا له من حظّ عاثر. لغو فارغ. لا أتمنّى أن أعود كلبًا من جديد، يبدو لي شيئًا تعيسًا أن يمضي المرء ثلاثة أعوام أخرى هنا، الآن وقد عرفتُ حقيقة الوضع، واكتسبتُ خبرة. مِن الكلاب مَن يقول: سوف ألتحق بالجيش، سلاح الطيران، سلاح البحرية... أصحاب البشرة البيضاء الباهتة كلهم يريدون الالتحاق بسلاح البحرية. انتظروا بضعة أشهر، وسنرى.

*

كانت الصالة تطلّ على حديقة غنية بالأزهار، رحيبة، مُتعدِّدة الألوان. انفتحَت النافذة على مصراعَيْها، فانسابَت إليهم رائحة العشب الرطب. شغَّل بيبيه الأسطوانة نفسها للمرة الرابعة، وأصدر أمره قائلًا: «قُمْ ولا تضعف، هذا من أجل مصلحتك». كان ألبِرتو قد سقط على الأريكة منهارًا، مُنهَكًا. مضى پلوتو وإميليو يراقبان الدروس بصفتهما مشاهدَيْن، ويطلقان الدعابات والتلميحات، ويأتيان على ذكر إيلينا طوال الوقت. لن يلبث أن يرى نفسه مرة أخرى في مرآة الصالون الضخمة وهو يتمايل بمنتهى الجديّة بين ذراعَي بيبيه، عندئذ يتخشَّب جسده، فيؤكِّد پلوتو: «ها أنت ذا ترقص وكأنك روبوت مرة أخرى».

نهض. كان إميليو قد أشعل سيجارة، وراح يتناوب عليها هو وپلوتو. رآهما ألبِرتو يجلسان على الأريكة، ويفاضلان بين التبغ الأمريكي والإنجليزي. لم يوله أحدهما انتباهًا. «هيَّا بنا»، قال بيبيه. «الآن تقودني أنت». بدأ يرقص، بخطى شديدة البطء في أول الأمر، مُحاوِلًا أن يخطو خطوات الفالس الكريولي بدقة، «خطوة إلى اليمين، خطوة إلى اليسار، دُرْ هنا، ثم هناك». «الآن تحسنت»، قال بيبيه، «ولكن يجب عليك أن تسرع بعض الشيء، وتتحرَّك مع الموسيقى. أنصتْ، تان تان، تان تان، تاك، تان تان، تان تان،

تاك». بالفعل أحسّ ألبِرتو بأنه أكثر انطلاقًا، أكثر حرية، توقَّف عن التفكير في خطوات الرقصة فلم تعُد قدماه تتعثَّران بقدمَي بيبيه.

«تسير على ما يُرام»، قال بيبيه، «ولكن، لا ترقص مُتخشِّبًا هكذا، لا يكفي أن تخطو بقدمَيْك. يجب عليك أن تتمايل بجسدك في أثناء الدوران، هكذا، انتبه جيدًا»، يتمايل بيبيه راسمًا ابتسامة رسمية على وجهه الذي تراءى بلون الحليب، ويدور بجسده على كاحله، ثم يعود إلى الوضعية السابقة، وتتبدَّد الابتسامة. «إنها حيلة، مثل تبديل الخطوات والحركات، ولكنك سوف تتعلَّم ذلك في وقت لاحق. أما الآن فينبغي لك أن تتعوَّد قيادة شريكتك في الرقص كما يليق. لا تخَف، وإلَّا انتبهَت الفتاة إلى ذلك فورًا. ضعْ يدك فوق كتفها، بقوة، بإحكام. دعني أتولَّ القيادة في الرقص لبعض الوقت حتى ترى بنفسك. هل فهمت؟ ضمّ يدها بيسارك وأنتما في منتصف الرقصة. لو وجدتَها مُتقبِّلة، فاشبك أصابعك بأصابعها، وقرِّبها منك ببطء، واضعًا يدك على ظهرها، ولكن ببطء، وبرقَّة. من أجل هذا يجب أن تحكم وضع يدك قرب الكتفَيْن من البداية، لا أطراف الأصابع وحسب، بل راحة اليد كاملة. وبعد ذلك، أنزلْ يدك شيئًا فشيئًا، وكأنك لا تقصد ذلك، وكأن يدك تنزل من تلقاء نفسها مع كل مرةٍ تدور فيها. أما لو انتفضَت الفتاة أو تراجعَت إلى الوراء، فتحدَّث إليها عن أي شيء، استمرّ في الكلام والضحك، ولكن إياك أن ترخي يدك. أحكمْ وضع يدك، وقرّب الفتاة منك. لهذا يجب عليك أن تدور كثيرًا، مِن الجهة نفسها في كل مرة. إن درتَ إلى اليمين لم يصبك دوار، بل يمكنك أن تحتمل خمسين دورة متتالية. أما هي، فيصيبها الدوار سريعًا، لأنها تدور إلى اليسار. وهكذا تلتصق بك مِن تلقاء نفسها حالما يدور رأسها، لتشعر بقدر أكبر مِن الأمان. عندئذ يمكنك أن تنزل بيدك إلى خصرها، وأن تشبك

أصابعك بأصابعها من دون خوف، بل ويمكنك أن تضمّ وجهك إلى وجهها قليلًا. أفهمت؟».

ينتهي الفالس ويصدر مُشغِّل الأسطوانات أزيزًا رتيبًا، فيطفئه بيبيه.

- إن هذا الفتى خبير لا يخفى عليه شيء! -يقول إميليو مشيرًا بيده إلى بيبيه- يا له من داهية!

- انتهى الأمر إذن، وأتقن ألبِرتو الرقص. -يقول پلوتو- لماذا لا نلعب لعبة «كازينو حيّ أليغري»؟

كان اسم الحيّ الأوّلي -الذي هُجِر لأنه يلمح إلى طريق أواتيكا أيضًا- قد عاد إلى الحياة مع تلك النسخة مِن لعبة «كازينو» التي ابتكرها تيكو قبل شهور في صالون بنادي تيرّاساس، حيث تُوزَّع كل الأوراق بين أربعة لاعبين، بينما يحدِّد المسؤول عن الخزانةِ أوراقَ اللعب الصالحة في جميع الأحوال. ويتكوَّن كل فريق مِن لاعبَيْن اثنين. منذ أن ظهرَت «كازينو حيّ أليغري»، لم يعُد أحدٌ يلعب سواها في الحي.

- ولكنه لم يتعلَّم إلَّا رقصتَي الفالس والبوليرو. -يقول بيبيه- ما زالَت تنقصه رقصة المامبو.

- ليس الآن. -يقول ألبِرتو- دعنا نستأنف الدرس يومًا آخر.

عندما وصلوا إلى بيت إميليو، في الثانية مساء، كان ألبِرتو مفعمًا بالحماس، ومضى يقابل المزاح بمثله. ولكن أربع ساعات مِن الدروس قد استنفدَت قواه. وحده بيبيه ظلَّ مُحتفِظًا بالحماس، على ما يبدو. أما الآخرون، فلقد أدركهم الضجر.

- كما شئت. -قال بيبيه- ولكن الحفل غدًا.

سرَت في جسد ألبِرتو رجفة. «إنها الحقيقة»، قال في نفسه. «والأدهى من ذلك أن الحفل في بيت آنا. سوف تستمرّ رقصات

المامبو طوال الليل». كانت آنا نجمة الرقص، مثل بيبيه: فهي تؤدِّي الحركات، وتبتكر الخطوات، وتتوهَّج عيناها مِن فرط السعادة كلَّما تحلَّق الآخرون لمشاهدتها. «هل أظلُّ جالسًا في أحد الأركان طوال الحفل، بينما يرقص الآخرون مع إيلينا؟ وليت أولئك الآخرون من أبناء الحي!».

بالفعل، منذ فترة لم يعُد الحيّ جزيرةً معزولة، قلعةً مُسيَّجة، لأن الدُّخَلاء بكل صنوفهم -أبناء ميرافلوريس مِن شارع الثامن والعشرين مِن يوليو، وريدوكتو، وشارع فرنسا، ولاكيبرادا، وفتيان مِن سان إسيدرو، وحتى مِن بارانكو- قد ظهروا فجأة في تلك الشوارع التي تؤلِّف نطاق الحيّ، وأخذوا يلاحقون الفتيات، ويتحدَّثون إليهن على أعتاب بيوتهن، في تحدٍّ لعدوانية الرجال أو استهزاء بها. كانوا أكبر مِن فتيان الحيّ عمرًا، وعمدوا إلى استفزازهم في بعض الأحيان. تقع اللائمة على عاتق الفتيات، فهن اللاتي يجذبن أولئك الدُّخَلاء، ويبدو عليهن السرور بمثل هذه الغارات. وافقَت سارة، ابنة عمّ بلوتو، على مواعدة فتى من سان إسيدرو، يأتي مع واحد أو اثنين من أصدقائه في بعض الأحيان، فتذهب آنا ولاورا لمجاذبتهما أطراف الحديث. صار الدُّخَلاء يظهرون في أيام الحفلات بوجه الأخص، فيحضرون وكأن الأرض تنشقّ عنهم بفعل السحر، ويجوبون أرجاء البيت حيث يُقام الحفل، منذ المساء، ويمازحون صاحبة البيت ويتملَّقونها. أما إذا لم يحصلوا على دعوة إلى الحفل، فكانوا يُشاهَدون في الليل وقد ألصقوا وجوههم بزجاج النوافذ، ومضوا يتأمَّلون أزواج الراقصين بلهفة ويشيرون بالأيدي والوجوه ويلقون النكات ويلجؤون إلى الحيل بكل صنوفها لجذب أنظار الفتيات وإثارة الشفقة في قلوبهن، فتتوسَّط إحدى الفتيات (الأقلّ إقبالًا على الرقص) لدى صاحبة البيت كي تسمح للدخيل بالانضمام في بعض

الأحيان. كان ذلك كافيًا حتى يمتلئ الصالون فجأةً بالغرباء الذين يحلّون محلّ أبناء الحيّ ويستحوذون على الفتيات ومُشغِّل الأسطوانات. وفوق ذلك، لم تتميَّز آنا تحديدًا بانتمائها الشديد، إذ ضعفَت روح العشيرة لديها حتى كادت تنعدم تمامًا. بل إنها كانت تهتمّ بالدُّخَلاء أكثر من فتيان الحيّ. ولذا فمِن المُتوقَّع أن تسمح للغرباء بالدخول، في حال لم تدعُهم إلى الحفل بالفعل.

- أجل. -قال ألبِرتو- أنت على حقّ. علِّمني رقصة المامبو.

- حسنًا. -قال بيبيه- ولكن دعني أدخِّن سيجارة أولًا. ارقصْ مع پلوتو في هذه الأثناء.

تثاءب إميليو، ولكز پلوتو بمرفقه. «اذهبْ وتألَّق يا راقص المامبو»، قال له، فضحك پلوتو صاحب الضحكة الرائعة، التامة، التي ينتفض جسده كاملًا على وقعها.

- هل تأتي أم لا؟ -سأل ألبِرتو بمزاج عكر.

- لا تغضب. -قال پلوتو- أنا قادم.

ذهب ليختار أسطوانة. في حين أشعل بيبيه سيجارة، وظلّ يحرِّك قدمه على إيقاع موسيقى مِن الذاكرة.

- ألبِرتو، هناك شيء لا أفهمه. -قال إميليو- لقد سبقتَنا جميعًا إلى الرقص، أقصد في حفلات الحيّ الأولى، عندما بدأنا نقابل الفتيات. هل نسيت؟

- لم يكُن ذلك رقصًا. -قال ألبِرتو- بل مُجرَّد قفز.

- كلنا بدأنا بالقفز. -أكَّد إميليو- ثم تعلَّمنا لاحقًا.

- الأمر أنه قد انقطع عن حضور الحفلات منذ أمد بعيد. ألا تذكرون؟

- صحيح. -قال ألبِرتو- ذلك ما جعلني أنسى كل شيء.

- حسبناك سوف تغدو كاهنًا. -قال پلوتو، الذي اختار أسطوانة من فوره، وراح يديرها بيده- كدتَ تنقطع عن الخروج تمامًا.

- كلام فارغ. -قال ألبِرتو- لستُ أنا الملوم في ذلك. بل إن أمّي لم تسمح لي بالخروج آنذاك.

- والآن؟

- الآن، صارت تسمح لي بذلك. لقد تحسَّنَت علاقتها بأبي.

- لم أفهم. -قال بيبيه- وما الصلة؟

- إن والده «دُوُن جوان». -قال پلوتو- ألم تعرف؟ ألم تَرَه وهو يمسح فمه بالمنديل عندما يصل في الليل، قبل أن يدخل إلى البيت؟

- صحيح. -قال إميليو- لقد رأيناه في لاإرادورا ذات مرة. كانت معه في السيارة امرأة بارعة الجمال. يا له مِن داهية!

- إنه شديد الجاذبية. -قال پلوتو- والأناقة.

أومأ ألبِرتو، وقد خامره شعورٌ بالرضى.

- ولكن ما دخل هذا بمنع ألبِرتو من حضور الحفلات؟ -سأل بيبيه.

- عندما أطلق أبي لنفسه العنان... -قال ألبِرتو- بدأت أمّي تشملني بالعناية كيلا أغدو مثله عندما أكبر. تخشى أن أضلّ الطريق وأصبح زير نساء.

- رائع. -قال بيبيه- إنها امرأة صالحة.

- أبي أيضًا رجل لعوب. -قال إميليو- أحيانًا لا ينام في البيت، ولا تخلو مناديله من آثار طلاء الشفاه أبدًا. ولكن أمّي لا تلقي إلى الأمر بالًا، بل إنها تضحك وتنعَته بـ«العجوز الماجن». وحدها آنا توبِّخه.

- ومتى تحين ساعة الرقص؟ -سأل پلوتو.

- مهلًا يا رجل. -أجاب إميليو- دعنا نتجاذب أطراف الحديث قليلًا. سوف نرقص في الحفل إلى حدّ الملل.

- كلَّما تحدَّثنا عن الحفل، امتقع وجه ألبِرتو. -قال بيبيه- لا تكُن أبله يا رجل. سوف توافق إيلينا في هذه المرة. أراهنُ على أي شيء تريد.

- أتعتقد؟ -سأل ألبِرتو.

- إنه واقع في حبِّها على رأسه. -قال إميليو- لم يسبق لي أن رأيتُ شخصًا واقعًا في الحبّ مثله. لا أستطيع أن أفعل ذلك.

- وماذا فعلتُ أنا؟ -سأل ألبِرتو.

- طلبتَ منها أن تواعدك عشرين مرة.

- بل ثلاث مرات فقط. -قال ألبِرتو- لماذا تهوِّل الأمور؟

- أعتقد بأنه قد أحسن صنعًا. -أكَّد بيبيه- ما دام مُعجَبًا بها، فليطاردها حتى ترضى به، وبعد ذلك يسقيها العذاب.

- ولكنه بذلك يتخلَّى عن كبريائه. -قال إميليو- لو صدَّتني إحدى الفتيات، واعَدتُ غيرها فورًا.

- سوف توافق هذه المرة. -قال بيبيه لألبِرتو- منذ أيام، وبينما كنا نتحدَّث في بيت لاورا، سألَت إيلينا عنك، وتضرَّج وجهها بشدة عندما قال لها تيكو: «هل تفتقدينه؟».

- حقًّا؟ -سأل ألبِرتو.

- إنك تلهث خلفها كما تلهث الكلاب. -قال إميليو- انظرا كيف تألَّقَت عيناه!

- الأمر أنك ربما لم تطلب منها أن تواعدك بطريقة لائقة. -قال بيبيه- حاول أن تترك في نفسها أثرًا قويًّا. أتعرف ماذا ستقول لها؟

- تقريبًا. -قال ألبِرتو- لديّ فكرة عما أنوي قوله.

- إنه أهمّ ما في الأمر. -أكَّد بيبيه لا بدّ للمرء مِن تحضير الكلمات كلها.

- هذا رهنٌ بالموقف. -قال پلوتو- أنا أفضِّلُ الارتجال، فكلَّما هممتُ بأن أطلب من فتاة أن تواعدني توتَّرَت أعصابي. ولكني لا أكاد أبدأ في الكلام حتى تخطر لي مئات الأشياء، ويأتيني الإلهام.

- كلّا. -قال إميليو- بيبيه على حقّ. أنا أيضًا أجهّز كل شيء. وهكذا، متى حانت اللحظة، لا يصبح عليك أن تشغل بالك بشيء سوى نظراتك إليها، وطريقتك في إلقاء الكلمات، وتوقيت الإمساك بيدها.

- يجب عليك أن تحضِّر كل شيء في رأسك. -قال بيبيه- وإن استطعت، فتدرَّب أمام المرآة ذات مرة.

- أجل. -أكَّد ألبِرتو. تردَّد لحظةً- وأنت، ماذا تقول للفتيات؟

- هذا رهنٌ بالفتاة، ويختلف باختلافها. -أجاب بيبيه، فأومأ إميليو مُعتَدًّا بذاته- لا يمكنك أن تسأل إيلينا مباشرةً إن كانت ترغب في مواعدتك. بل يجب عليك أن تهيِّئها أولًا.

- لعلّها رفضَتني لهذا السبب. -اعترف ألبِرتو- في المرة السابقة باغتُّها بالسؤال إن كانت تريد أن تواعدني.

- كنتَ غبيًّا. -قال إميليو- أضفْ إلى ذلك أنك قد سألتَها في الصباح. وفي الشارع. وحدهم المجانين يفعلون ما فعلت أنت!

- ذات مرة طلبتُ من إحدى الفتيات أن تواعدني ونحن في القداس الإلهي. -قال پلوتو- وسارت أموري على ما يُرام.

- كلّا، كلّا. -قاطعه إميليو، مُلتفِتًا إلى ألبِرتو- اسمعْ، اطلبْ منها أن ترقص معك غدًا. وانتظرْ إحدى أغنيات البوليرو. إياك وأن تطلب منها مواعدتك خلال أغنية مامبو. يجب أن تكون الموسيقى رومانسية.

- لا تقلق بهذا الشأن. -قال بيبيه- متى عقدتَ العزم أعطِني الإشارة، وسأتولَّى تشغيل أغنية «أنا مُعجَبٌ بكِ» للمُغنّي ليو ماريني.

- إنها أغنيتي! -صاح بلوتو- كلَّما طلبتُ مواعدة فتاة ونحن نرقص على أنغام «أنا مُعجَبٌ بكِ»، قُوبِل طلبي بالموافقة. إنها لا تخيب أبدًا.

- حسنًا. -قال ألبِرتو- سوف أعطيك إشارة.

- اطلبْ منها أن ترقص معك، ولا تفلتها. -قال إميليو- ثم ادفعها إلى أحد الأركان سرًّا، كيلا يسمعك الآخرون. واهمسْ في أذنها قائلًا: «إيلينيتا، أحبُّك بجنون».

- أيها الحيوان! -صرخ بلوتو- أتريدها أن ترفضه مرة أخرى؟

- لماذا؟ -سأل إميليو- هكذا أطلب من الفتيات مواعدتي في كل مرة.

- كلّا. -قال بيبيه- فهكذا يصبح الأمر همجيًّا، لا فنّ فيه. يجب عليك أن ترسم أمارات الجدية البالغة على وجهك أولًا، ثم تقول: «إيلينا، عندي شيء في غاية الأهمية لأخبرك به. أنا مُعجَبٌ بك. واقع في حبّك. أتريدين مواعدتي؟».

- وإن لزمَت الصمت، فقُلْ لها: «إيلينيتا، ألا تشعري بشيء نحوي؟».

- وبعد ذلك ضمّ يدها براحة يدك. -قال بيبيه- ببطء، وبمنتهى الرقَّة.

- لا تمتقع يا رجل. -قال إميليو وهو يربِّت على كتف ألبِرتو- لا تشغل بالك. سوف توافق هذه المرة.

- أجل، وسترى. -قال بيبيه.

- وبعد ذلك، سوف نتحلَّق حولكما... -قال بلوتو- ونغنِّي: «ها هما العاشقان». سوف أتولَّى الأمر. أتعهَّد إليك بذلك.

ابتسم ألبِرتو.

- ولكن، الآن يجب عليك أن تتعلَّم رقصة المامبو. -قال بيبيه- هيا، رفيق الرقص في انتظارك.

وفتح پلوتو ذراعَيْه بحركة مسرحية.

*

كان كابا يقول إنه سوف يلتحق بالجيش، لا بسلاح المشاة، وإنما بسلاح المدفعية. لم يعُد يتحدَّث عن ذلك في الآونة الأخيرة، ولكن الأكيد أنه ظلّ يفكِّر في الأمر. يتَّسم الجَبَليون بصعوبة المراس، فإن اختمرَت في رؤوسهم فكرةٌ، لا تفارقها أبدًا. أغلب رجال العسكرية مِن الجَبَليين. لا أعتقد بأن يخطر لأحد أبناء الساحل أن يلتحق بالعسكرية. أما كابا، فله وجه جَبَلي، عسكري. ولكنهم قد أفسدوا عليه كل شيء: المدرسة، والمسيرة العسكرية. لا بدّ أن ذلك أشدّ ما آلمه. الجَبَليون تُعساء الحظّ، تنزل بهم المصائب دائمًا. وبسبب ذلك اللسان القذر، لسان الواشي الذي قد لا نكتشف هويته، سوف تُنتزَع شارات كابا أمام الجميع، أراه الآن، ويقشعرّ بدني، فلو فزتُ بالقرعة ليلتذاك، لأصبحتُ الآن حبيسًا. ولكني ما كنتُ لأكسر الزجاج، وحدهم الأغبياء يفعلون شيئًا كهذا. والجَبَليّون على قدرٍ مِن الغباء. مِن المُؤكَّد أنه قد فعل ما فعل تحت وطأة الخوف، مع أن كابا الجَبَلي ليس جبانًا. ولكن الذعر قد استحوذ عليه في تلك المرة، إنه التفسير الوحيد لما حدث. زدْ على ذلك سوء الحظ. الجَبَليون تعساء الحظّ، وتقع لهم أسوأ الأمور. مِن حسن حظّ المرء ألَّا يُولَد جَبَليًّا. أسوأ ما في الأمر أنه لم يتوقَّع ما حدث، لم يتوقَّعه أحد. بل إن كابا الجَبَلي كان في غاية السعادة، وراح ينغِّص فونتانا المُخنَّث. في دروس اللغة الفرنسية يتسلَّى المرء كثيرًا. فونتانا... يا له من رجل غريب. قال الجَبَلي عنه: إن فونتانا مُجرَّد «شبه»، في كل شيء، فهو

شبه قصير، شبه أشقر، شبه رجل. عيناه أشدّ زرقة من عينَي النَّمِر، ولكن نظراته مختلفة، شبه جادة، شبه ساخرة. يُقال إنه ليس مِن فرنسا، بل مِن بيرو، ويتظاهر بأنه فرنسي. وهذا ما يُسمَّى: ابن كلبة... أن ينكر المرء وطنه، لا أعرف شيئًا يفوق إنكار الوطن خسَّةً. ولكنها ربما كانت أكذوبة. ما مصدر كل الأشياء التي تُحكَى عن فونتانا؟ يُقال عنه شيء جديد كل يوم، فتراه لم يعُد مُخنَّثًا فجأةً، ولكن من أين يصدر ذلك الصوت الرفيع، وتلك اللفتات التي تجعل المرء يريد أن يقرص وجنتَيْه. لو صحّ أنه يتظاهر بكَوْنه فرنسيًّا، فيسرّني أن أنغِّص حياته. يسرّني أن ينغِّص الآخرون حياته. ولسوف أستمرّ في ذلك حتى آخر يوم مِن أيام الدراسة. مُعلِّم فونتانا، كيف تقول «قرطاس مِن الخراء» بالفرنسية؟ يترك فونتانا في النفس شعورًا بالشفقة أحيانًا. ليس بالرجل الخبيث، كل ما في الأمر أنه غريب الأطوار قليلًا. ذات مرة أجهش بالبكاء، كان ذلك بسبب ما فعلنا بشفرات الحلاقة، على ما أعتقد، زوووم، زوووم، زوووم. فليحضر كلٌّ منكم شفرة حلاقة، ويثبِّتها في شقٍّ بالمكتب، ثم يعزف بإصبعه على الشفرة وكأنها وتر، هكذا قال النَّمِر. مضى فونتانا يحرِّك شفتَيْه، ولكن صوتًا واحدًا لم يُسمَع، لم يُسمَع شيء سوى: زوووم، زوووم، زوووم. لا تضحكوا حتى لا يختلّ الإيقاع، ظلّ المُخنَّث يحرِّك شفتَيْه، زوووم، زوووم، زوووم، زاد الصوت قوةً وتناغمًا، دعونا نرَ من يدركه التعب أولًا. بقينا على تلك الحال ساعة إلَّا ربعًا، أو ربما لوقتٍ أطول. مَن يربح؟ ومَن يستسلم أولًا؟ ظلّ فونتانا وكأن شيئًا لم يحدث. وإذا هو أخرس يحرِّك شفتَيْه. بينما زادَت السيمفونية جمالًا وتناغمًا. بعد ذلك أغمض عينَيْه، وفتحهما، فوجدناه يبكي. إنه مُخنَّث. ولكنه ظلّ يحرِّك شفتَيْه، يا له مِن رجل عنيد. زوووم، زوووم، زوووم. غادر الفصل، فقال الطُّلَّاب جميعًا «إنه قد ذهب

لاستدعاء الملازم، وإننا قد وقعنا في مأزق شديد»، ولكن أفضل ما في الأمر أنه لم يطلب سوى أن يُنقَل. ينغِّصون حياته كل يوم، ولكنه لا يستدعي الضُبَّاط أبدًا. لا بدّ أنه يخشى أن يضربه أحدهم، ولكن الشيء الجيد أنه لا يبدو جبانًا. في بعض الأحيان، يبدو عليه أنه يتلذَّذ بما يحدث. المُخنَّثون في غاية الغرابة. إنه رجلٌ طيب، لا يرسِّب الطُلَّاب في الاختبارات أبدًا. ولكنه هو الملوم في ما يجري له. ماذا يفعل في مدرسة للفحول بمثل هذا الصوت ومثل هذه المشية؟ أما الجَبَلي، فينغِّص حياته طوال الوقت. يضمر له الجَبَلي كراهية حقيقية، فلا يكاد يراه داخلًا إلى الفصل حتى يبادره سائلًا: كيف تقول «مُخنَّث» بالفرنسية؟ مُعلِّم، أتحبّ المصارعة الحرّة؟ لا بدّ أنك فنان بارع، لماذا لا تغنِّي شيئًا بالفرنسية بهذا الصوت العذب؟ مُعلِّم فونتانا، لك عينا ريتا هيوارث. ولكن المُخنَّث لا يسكت أبدًا، بل إنه يردّ في كل مرة، ولكن بالفرنسية. يا مُعلِّم، دعْ عنك تصنُّع الذكاء، ولا تسبّ أمي، أتحدَّاك في مباراة ملاكمة بالقفَّازات، يا نَمِر، لا تكُن عديم التهذيب. الأمر أنهم قد أكلوه حيًّا. وأحكمنا السيطرة عليه. ذات مرة بصقنا عليه وهو يكتب شيئًا على الصبورة، فغرق في البصاق تمامًا، يا له مِن شيء مثير للغثيان، قال كابا، لا بدّ أن يغتسل قبل أن يدخل إلى الفصول. أوه، ولكنه استدعى الملازم في تلك المرة، كانت تلك هي المرة الوحيدة، ويا له مِن مشهد، لهذا تحديدًا لم يعاود استدعاء الضُبَّاط. إن غامبوا مهيب حقًّا. في تلك اللحظة أدركنا جميعًا كم كان مهيبًا. نظر إليه غامبوا مِن أعلى إلى أسفل، يا للترقُّب، انقطعَت أنفاس الجميع. مُعلِّم فونتانا، ماذا تريد مني أن أفعل؟ أنت الآمر الناهي في هذا الفصل. أن تحمل الآخرين على احترامك شيء في غاية السهولة. انظرْ. جعل يرمقنا بعينَيْه حينًا، وإذا به يقول: انتباه! فاتخذنا وضع الانتباه في أقل من ثانية، سحقًا. على الركبتَيْن، اركعْ!

فركعنا على الأرض في أقل من ثانية، سحقًا. مشية البطة في المكان، ابدأ! فأخذ كل واحد منا يقفز فاتحًا ساقَيْه، لأكثر مِن عشر دقائق، على ما أعتقد. أحسستُ وكأن أحدهم قد ضرب ركبتَي بمطرقة، واحد، اثنان، واحد، اثنان، في منتهى الجدية، رحنا نمشي كما يمشي البط، حتى قال غامبوا: قفْ! وسأل، هل يريد أحدكم أن يواجهني، رجلًا لرجل؟ فلم تتحرَّك ذبابة واحدة في المكان. أخذ فونتانا يرمقه عاجزًا عن التصديق. «يجب عليك أن ترغمهم على احترامك بنفسك يا مُعلِّم، لا يحبّ أولئك المعاملة الحسنة، بل يحبّون أن تعاملهم بيدٍ من حديد. أتريدني أن أحرمهم جميعًا مِن الإجازة؟». «لا تكلِّف نفسك العناء»، قال فونتانا، ويا له مِن ردّ حسن، لا تكلِّف نفسك العناء، سيدي الملازم. بدأنا نقول «مُـخـنَّـث» مُطلقِين الأصوات مِن بطوننا، هكذا فعل كابا مساء ذلك اليوم، لأنه يكاد يستطيع أن يتكلَّم من بطنه، ويمكنه أن يُطلِق مِن جوفه أصواتًا واضحة، مِن دون أن يتحرَّك وجهه الجَبَلي ولا عيناه الجَبَليتان، إنه شيء عصي على التصديق. وفيما نحن على تلك الحال قال النَّمِر: «إنهم قادمون حتى يأخذوا كابا، لقد اكتشفوا الأمر برمّته». واستغرق في الضحك، بينما راح كابا يتلفَّت إلى كل الاتجاهات، في حين سألتُ أنا ومَوْجَة: «ماذا جرى يا أخي؟»، وإذا بالملازم أوارينا يظهر عند باب الفصل قائلًا: «كابا، تعالَ معنا، معذرة، مُعلِّم فونتانا، إنها مسألة حرجة». ولكن ذلك الجَبَلي فتى طيب، فلقد وقف ومضى إلى الخارج مِن دون أن ينظر إلينا. بينما قال النَّمِر «إنهم لا يعرفون مَن هو الذي يعبثون معه»، ومضى يلعن كابا بكلامٍ ناري، ذلك الجَبَلي الحقير، لقد نالوا منه لأنه غبي. ألقى باللائمة على الجَبَلي في كل شيء، وكأنه هو الملوم في طرده مِن المدرسة.

*

نسِي الوقائع الصغيرة المتطابقة التي تألَّفَت منها حياته، نسِي الأيام التي أعقبَت اكتشافه أنه لا يستطيع الوثوق بأمّه أيضًا، ولكنه لم ينسَ مشاعر الخذلان والمرارة والحقد والخوف التي استحوذَت على قلبه وشغلَت لياليه. أسوأ ما في الأمر التظاهر. قبل ذلك كان يبقى مُترقِّبًا في الفراش، فلا يقوم حتى يخرج والده مِن البيت. ولكن ذات صباح، وبينما هو لا يزال غارقًا في السبات، نزع أحدهم الملاءات عن الفراش، فأحسّ بالبرد، وأرغمه ضوء الفجر الساطع على أن يفتح عينَيْه. سكت قلبه: بينما وقف والده إلى جواره، وعيناه تتوهَّجان، كما حدث في تلك الليلة. سمعه يسأل:

- كم عمرك؟

- عشر سنوات. -أجاب.

- هل أنت رجل؟ أجِبني.

- أجل. -قال مُتلعثِمًا.

- قُمْ من الفراش إذن. -قال الصوت- وحدهن النساء يقضين النهار كاملًا في الفراش، لأنهن عاطلات عن العمل، ويملكن الحقّ في ذلك، غير أن ذلك شأن النساء. لقد رُبّيت كالفتاة المُدلَّلة. ولكني سوف أجعل منك رجلًا.

نهض مِن الفراش، وارتدى ثيابه، ولكن الاستعجال قاتِل: انتعل الحذاء الخطأ، وارتدى القميص مقلوبًا، وأخطأ في إقفال الأزرار، وفشل في العثور على الحزام، وعجز عن شدّ رباط الحذاء بيدَيْه المرتجفتَيْن.

- عندما أنزلُ لأتناول الفطور، أريد أن أراك جالسًا إلى المائدة، تنتظرني، بعد أن تغتسل وتصفِّف شعرك أولًا، كل يوم. هل سمعت؟

كان يتناول الفطور مع والده، ويتبع سلوكًا مختلفًا كل يوم، بما

يلائم أهواءه. فلو رآه باسمًا، مُنبسِط الجبين، مُطمئِن العينَيْن، سأله إن كان يريده أن ينظِّف السيارة من أجله، وأخذ يوجِّه إليه الأسئلة على سبيل التملُّق، وأنصت إليه بانتباه عميق وهو يومئ برأسه فاتحًا عينَيْه بشدّة. أما لو رآه مُتجهِّمًا، مُمتنِعًا عن ردّ التحية، ظلّ مُطرِقًا، مُنصِتًا إلى تهديدات أبيه، خافضًا رأسه كالنادم. أما في موعد الغداء فتخفّ حدّة التوتّر لأن أمّه تصرف انتباه أبيه في تلك الأثناء، ويدور الحديث بينهما. بل إنهما قد لا ينتبهان إليه أحيانًا. وفي الليل ينتهي العذاب، لأنه يتناول عشاءه قبل عودة أبيه الذي يصل في ساعة مُتأخِّرة. كان يبدأ في ملاحقة أمّه بدءًا مِن الساعة السابعة، فيقول لها إنه يحسّ بالإعياء، والنعاس، والصداع. ثم يتناول عشاءه بسرعة، ويهرول إلى حجرته. في بعض الأحيان، كان يسمع صوت مكابح السيارة وهو يخلع ثيابه، فيسارع بإطفاء المصابيح ويأوي إلى الفراش. وبعد ساعة يقوم على أطراف أصابعه لينتهي من خلع ثيابه وارتداء البيجامة.

كان يخرج في جولة صباحية أحيانًا. في العاشرة صباحًا تخلو جادة سالابيري من المارة، وإن مرّ بها الترام الصاخب نصف ممتلئ بالركاب، فيمضي هو حتى يصل إلى جادة البرازيل، ويقف على الناصية، ولكنه لا يعبر الشارع الواسع البرَّاق، إذ نهَته أمّه عن ذلك. كان يتأمَّل السيارات التي تغيب عن الأنظار بعيدًا، في طريقها إلى وسط المدينة، ويتخيَّل ميدان بولوغنيسي الذي يقع في نهاية الجادة كما يراه عندما يأخذه إليه والداه في نزهة: ذلك الميدان الصاخب، الذي يهدر بالسيارات وعربات الترام، وجموع المشاة السائرين على الأرصفة، وأسقف السيارات المصقولة كالمرايا، تلك التي تتشرَّب صورَ اللافتات المضيئة والخطوط والحروف الصارخة، العصية على الفهم. كانت ليما تبثّ في نفسه شعورًا بالرهبة، لأنها مترامية الأطراف، حتى إن المرء يكاد يتوه فيها ولا يجد الطريق إلى بيته

أبدًا، زدْ على ذلك أنه لا يعرف المارة. في الماضي، كان يخرج للتمشية وحيدًا في تشيكلايو، حيث يربِّت المارة على رأسه، وينادونه باسمه، فيلقاهم باسمًا: وهو الذي قد رآهم مرات كثيرة في بيته، وفي ميدان أرماس خلال أيام الحفلات، وفي القداس الإلهي أيام الأحد، وفي شاطئ إيتين.

بعد ذلك، كان يذهب إلى نهاية جادة البرازيل، ثم يجلس على دكة في منتزه صغير نصف دائري، هناك حيث تنتهي الجادة عند حافة الجرف المُطِلّ على بحر ماغدالينا الرمادي. عرف كل منتزهات تشيكلايو -القليلة جدًّا- عن ظهر قلب. كانت عتيقة كهذا المنتزه، وإن خلَت مقاعدها مِن ذلك الصدأ، وتلك الطحالب، وذلك الحزن الذي تفرضه العزلة، وتلك الأجواء الرمادية، وذلك الهمس الشجي الآتي من المحيط. في بعض الأحيان، يجلس وقد أولى ظهره إلى البحر، فيراقب جادة البرازيل التي تنفتح كما انفتح الطريق الشمالي أمامه وهو مُسافِرٌ إلى ليما، فتداهمه رغبةٌ في البكاء صراخًا. كان يتذكَّر الخالة آديلا عندما تعود بعد التسوُّق، وتقترب منه بتلك النظرة الباسمة قائلةً: «لن تتوقَّع ماذا وجدت»، ثم تُخرِج من حقيبتها قطعةً مِن الحلوى أو الشكولاتة التي يتلقَّفها من بين يدَيْها. كان يتذكَّر الشمس، والضوء الأبيض الذي يغمر شوارع المدينة طوال العام ويجعلها دافئةً، مُرحِّبةً. كان يتذكَّر حماسة أيام الأحد، والتنزُّه في شاطئ إيتين، والرمال الصفراء الحارقة، والسماء الزرقاء بالغة النقاء، ثم يرفع عينَيْه، فيرى السحائب الرمادية في كل رقعة مِن السماء التي لم تتخلَّلها ولو نقطة صافية واحدة. ثم يعود إلى بيته سائرًا ببطء، وهو يجرِّر قدمَيْه كالرجل العجوز، مُفكِّرًا: «سوف أعود إلى تشيكلايو عندما أكبر في العمر. ولن آتي إلى ليما أبدًا».

٨

فتح الملازم غامبوا عينَيْه: ما زالت السماء مدلهمة، ولم يصل إلى نافذة حجرته سوى الضوء المبهم الآتي مِن أعمِدة الإنارة البعيدة عن منصة العرض. ما هي إلَّا ثوانٍ حتى رنّ جرس المُنبِّه. قام الملازم، فرك عينَيْه، ومضى يتحسَّس الطريق باحثًا عن المنشفة والصابون وشفرة الحلاقة وفرشاة الأسنان. غرق الرواق والحمام في العتمة. لم يُسمَع صوتٌ واحد مِن الحجرات المجاورة، فالمُلازِم غامبوا أول مَن يغادر الفراش، كما هو دأبه. بعد خمس عشرة دقيقة، عاد إلى حجرته مُصفَّف الشعر، حليق الذقن. سمع أجراس مُنبِّهات أخرى. بزغ الفجر. وتجلَّى ضوء أزرق لا يزال واهنًا، بعيدًا، خلف البريق الأصفر المنبعث مِن أعمدة الإنارة. ارتدى زيّ التدريبات الميدانية، في غير استعجال. ثم خرج مُتَّجِهًا إلى نقطة الحراسة عَبْر الأرض الخلاء، بدلًا مِن أن يقطع ثكنات الطُلَّاب. سرى في الأجواء قليلٌ مِن البرودة، بينما لم يرتدِ الملازم سترته بعد. رآه الجنود المناوبون، فقابلوه بالتحية العسكرية التي ردّ بمثلها. كان بِدرو بيتالوغا، الملازم الذي تسلَّم الخدمة آنذاك، قد استراح منكمشًا على نفسه فوق أحد الكراسي، دافنًا رأسه بين يدَيْه.

- انتباه! -صاح غامبوا.

هبّ الضابط بقفزة واحدة وهو لا يزال مغمض العينَيْن، فضحك غامبوا.

- لا تعبث معي يا رجل. -قال پيتالوغا وهو يعاود الجلوس. أخذ يحكّ رأسه- حسبتُك پيرانيا. أكاد أموت من فرط التعب. كم الساعة الآن؟

- قاربَت الخامسة. ما زالت أمامك أربعون دقيقة. مدة ليسَت طويلة. لماذا تحاول أن تنام؟ ذلك أسوأ ما يمكن عمله.

- أعرف. -قال پيتالوغا وهو يتثاءب- لقد خرقتُ اللائحة.

- أجل. -قال غامبوا مبتسمًا- ولكني لم أقُلها لهذا السبب. لو نمتَ جالسًا لآلمك جسدك. الأفضل أن تفعل شيئًا، هكذا يمرّ الوقت سريعًا، من دون أن تنتبه إليه.

- ماذا أفعل؟ هل أتحدَّث إلى الجنود؟ «عُلِم، سيدي الملازم»، «كلّا، سيدي الملازم». ما أطرفهم! يكفي أن توجِّه إليهم كلمةً واحدة حتى يطلبوا منك الإذن في الانصراف.

- من جهتي، فأنا أدرسُ في أثناء الخدمة. -قال غامبوا- الليل أفضل توقيت للدراسة. لا أستطيع أن أدرس في النهار.

- طبعًا. -قال پيتالوغا- لأنك أنت الضابط النموذجي. بالمناسبة، لماذا قمتَ مِن الفراش الآن؟

- إنه يوم السبت. أنسيت؟

- التدريبات الميدانية! -تذكَّر پيتالوغا. قدَّم سيجارة إلى غامبوا، ولكنه رفضها- على الأقل، أعفَتني هذه الخدمة من التدريبات الميدانية.

تذكَّر غامبوا المدرسة العسكرية. كان پيتالوغا رفيقه في القسم. لم يجتهد في الدراسة كثيرًا، ولكنه برع في التصويب. ذات مرة، خلال المناورات السنوية، خاض پيتالوغا النهر على صهوة جواده. بلغَت المياه كتفَيْه، بينما انطلق الحيوان يصهل مذعورًا، وأخذ الطُلّاب يحثّونه على العودة، ولكن پيتالوغا نجح في التغلُّب على

التيار والعبور إلى الضفة الأخرى مُبلَّلًا حتى العظام، سعيدًا، فهنَّأه قائد الفرقة أمام باقي الطُّلَّاب قائلًا: «إنك لرجل فحل». والآن صار پيتالوغا يتذمَّر مِن الخدمة والتدريبات الميدانية. ولم يعُد يفكِّر إلَّا في الإجازة، شأنه شأن الجنود والطُّلَّاب، الذين كان لهم عذرٌ وجيه على الأقل: لأنهم يمرّون بالجيش مرورًا عابرًا، فالجنود قد انتُزِعوا مِن قراهم عنوةً حتى يُزَجّ بهم في صفوف الجيش، والطُّلَّاب قد أرسلهم أقرباؤهم إلى المدرسة العسكرية للتخلُّص منهم. ولكن پيتالوغا قد اختار السلك العسكري بنفسه. ولم يكُن هو الوحيد الذي يتصرَّف بتلك الطريقة: فهذا أواريينا يختلق أمراضًا تُصاب بها زوجته كل أسبوعَيْن حتى يخرج إلى الشارع، وهذا مارتينيس يشرب في أثناء الخدمة سرًّا، حتى عرف عنه الجميع أنه يملأ ترمس القهوة بشراب البيسكو. لماذا لا يطلبون التسريح من الخدمة؟ زاد وزن پيتالوغا، وانقطع عن الدراسة تمامًا، بل إنه صار يعود مِن الشارع مخمورًا. «سوف يظلّ برتبة ملازم سنوات طوالًا»، فكَّر غامبوا، ولكنه استدرك: «ما لم تكُن لديه صلات مع أصحاب النفوذ». أحبّ غامبوا الحياة العسكرية تحديدًا للأسباب التي دعَت الآخرين إلى النفور منها: الانضباط، والتسلسل الهرمي، والتدريبات الميدانية.

- سوف أجري اتصالًا هاتفيًّا.

- في هذه الساعة؟

- نعم. -أجاب غامبوا- لا بدّ أن زوجتي قد استيقظَت، لأنها مسافرة في السادسة.

بدرَت مِن پيتالوغا لفتةٌ مبهمة. وكالسلحفاة التي تغوص في صدفتها، دفن رأسه بين يدَيْه من جديد. جاء صوت غامبوا في أثناء الاتصال خفيضًا، رقيقًا. مضى يوجِّه الأسئلة، ويلمح إلى أقراص العلاج مِن الدوار والبرد، ويصرّ على أن تبعث إليه زوجته رسالة

بالتلغراف مِن مكان ما، ويلحّ في السؤال عن حالها: هل أنتِ بخير؟ ثم ودَّعها بعبارة مقتضبة، في عجالة. فتح پيتالوغا ذراعَيْه بحركة تلقائية، فتدلَّى رأسه كالجرس. رفَّت أجفانه قبل أن تنفتح عيناه. ثم ابتسم في غير حماسة قائلًا:

- تبدو كما لو كنتَ في شهر العسل. تتحدَّث إلى زوجتك وكأنك عريس جديد.

- تزوَّجتُ منذ ثلاثة أشهر. -قال غامبوا.

- أما أنا فلقد تزوَّجتُ منذ عام واحد. ولا أشعر بأدنى رغبة لعينة في التحدُّث إليها. إن بها مسًّا من الجنون، مثل أمّها. لو اتَّصلتُ بها في هذه الساعة لانطلقَت تصرخ، ونعتَتني بالعسكري البائس الحقير.

ابتسم غامبوا.

- زوجتي في مقتبل العمر. -قال- عمرها لا يتجاوز الثامنة عشرة. وسوف يكون لنا ابن.

- آسف، لم أكُن على علمٍ بذلك. -قال پيتالوغا- لا بدّ من توخِّي الحذر.

- ولكني أريد أن أنجب.

- أوه، طبعًا. -أجاب پيتالوغا- فهمت. حتى تجعله عسكريًّا.

ظهرَت على غامبوا أمارات المفاجأة.

- لا أدري إن كنتُ أتمنَّى له أن يصبح عسكريًّا. -غمغم. ونظر إلى پيتالوغا مِن قدمَيْه إلى رأسه- على كل حال، لا أتمنَّى له أن يصبح عسكريًّا مثلك.

استوى پيتالوغا في جلسته.

- أي صنفٍ من المزاح هذا؟ -سأل، بصوت مرير.

- لا شيء. -قال غامبوا- انسَ ما قلت.

دار على عقبَيْه مُغادِرًا نقطة الحراسة، فأدَّى الحرس التحية مرة أخرى. انسدلَت القبعة على أذن واحد منهم، وهمّ غامبوا بلفت نظره إلى ذلك، غير أنه تمالك نفسه، فالأمر لا يستحقّ عناء الخلاف مع بيتالوغا، الذي دفن رأسه وشعره المبعثر بين يدَيْه مرة أخرى، وإن لم يستغرق في السبات هذه المرة، بل إنه راح يلعن، وصرخ مناديًا أحد الجنود حتى يعدّ له فنجانًا مِن القهوة.

عندما وصل غامبوا إلى فناء الفرقة الخامسة كان نافخ البوق قد أطلق بوق الصباح مُنبِّهًا الفرقتَيْن الثالثة والرابعة، وهمّ بتنبيه ثكنات الفرقة النهائية. وقع بصره على غامبوا، فأنزل فوّهة البوق مِن بين شفتَيْه مُتَّخِذًا وضع الانتباه وأدَّى التحية للملازم. لاحظ الطُلَّاب والجنود أن غامبوا هو الضابط الوحيد في مدرسة ليونسيو پرادو الذي يردّ تحية مرؤوسيه بالتحية العسكرية، في حين يكتفي الباقون بإيماءة مِن الرأس، حتى الإيماءة لا يردّون بها أحيانًا. عقد غامبوا ذراعَيْه على صدره مُنتظِرًا ريثما ينتهي نافخ البوق من إطلاق تنبيه الصباح. نظر إلى ساعته. وجد على أبواب الثكنات بعض الطُلَّاب الذين تولّوا دورية الحراسة. أخذ يراقبهم واحدًا واحدًا: وجده الطُلَّابُ أمامهم، فمضى كلٌّ منهم يتَّخذ وضع الانتباه، ويعتمر القبعة، ويهندم السروال وربطة العنق، قبل أن يرفع يده إلى صدغه بالتحية العسكرية. ثم دار كلٌّ منهم على عقبَيْه غائبًا عن الأنظار داخل الثكنات. بدأت الأصوات المعهودة. وما هي إلَّا لحظة حتى ظهر ضابط الصفّ پيسوا، الذي جاء راكضًا.

- طاب صباحك، سيدي الملازم.

- طاب صباحك. ماذا جرى؟

- لا شيء، سيدي الملازم. لماذا تسأل، سيدي الملازم؟

- يجب أن تكون في الفناء، مع نافخ البوق. يحتّم عليك واجبك أن تجوب الثكنات وتستعجل الناس. ألا تعرف ذلك؟

- أعرف، سيدي الملازم.

- إذن، فماذا أنت فاعل هنا؟ عُدْ إلى الثكنات. إن لم تصطفّ الفرقة خلال سبع دقائق اعتبرتك مسؤولًا.

- عُلِم، سيدي الملازم.

انطلق پيسوا راكضًا صوب الأقسام الأولى، بينما ظلّ غامبوا واقفًا في مركز الفناء، حيث مضى ينظر إلى ساعته بين حين وآخر، ويستمع إلى ذلك الصوت الكثيف النابض بالحيوية الذي وصل إليه مُتفجِّرًا مِن كل أركان الفناء حتى تلاقى في تلك النقطة، حيث وقف غامبوا، كما تتلاقى الخيوط التي تربط خيمة السيرك عند الصاري المركزي. لم يكُن في حاجة إلى المرور بالثكنات حتى يلمس الغضب الذي دبّ في نفوس الطُلَّاب لأن نومهم قد انقطع، والسخط الذي استحوذ عليهم بسبب المدة بالغة القصر المتاحة أمامهم لترتيب الفراش وارتداء الثياب، إلى جانب مشاعر اللهفة والإثارة التي استبدَّت بالطُلَّاب المولعين بإطلاق النار ولعبة الحرب، والاستياء الظاهر على الكسالى الذين سوف يتمرَّغون في تراب ساحة القتال بلا حماس، لمُجرَّد أنهم مُرغَمون على ذلك، والسعادة المكتومة في نفوس جميع الطُلَّاب الذين سوف يقطعون الإستاد بانتهاء التدريبات الميدانية للاغتسال في الحمامات الجماعية، ثم يعجِّلون بالرجوع لارتداء زيّ الخروج الأزرق والأسود، وبعد ذلك يخرجون إلى الشارع.

في الخامسة وسبع دقائق، أطلق غامبوا صفيرًا طويلًا، فتعالَت الاحتجاجات واللعنات في الحال، ولكن سرعان ما انفتحَت الأبواب وبدأت مصاريعها الداكنة تبصق كتلةً مائلة إلى الخضرة، كتلة

مِن الطُلّاب المتدافعين. ومن دون أن يتوقَّف الطُلّاب عن الركض، مضى كلٌّ منهم يهندم الزيّ العسكري بإحدى يدَيْه، لأن اليد الأخرى قد رفعَت البندقية عاليًا. وفي غمرة الشتائم والدفعات، بدأت صفوف التشكيل تتكوَّن حول الملازم في صخب، وفَجْرُ ذلك اليوم لا يزال مبهمًا، فَجْر السبت الثاني مِن شهر أكتوبر، الذي ما زال حتى ذلك الوقت يشبه فَجْر نهارات أخرى، وأيام سبت أخرى، وأيام تدريبات ميدانية أخرى. سمع الملازم رنينًا معدنيًا قويًّا يدوّي فجأةً، متبوعًا بشتيمة.

- فليحضر إلى هنا الطالب الذي أسقط بندقيته! -صاح.

خمدَت الهمهمة في الحال. بينما نظر الجميع إلى الأمام، وهم يضمّون البندقيات إلى أجسادهم. تقدَّم ضابط الصفّ پيسوا سائرًا على أطراف أصابعه، حتى وصل إلى موقع الملازم، ثم وقف إلى جواره.

- قلتُ: فليحضر إلى هنا الطالب الذي أسقط بندقيته. -كرَّر غامبوا.

اخترق الصمتَ دبيبُ البيادة. والتفتَت أنظار الفوج إلى غامبوا، الذي حدَّق إلى عينَي الطالب.

- اسمك؟

تلعثم الفتى مُدلِيًا بالاسم والكتيبة والقسم.

- پيسوا، افحصْ البندقية. -قال الملازم.

اندفع ضابط الصفّ إلى الطالب، وفحص البندقية مُبالِغًا في الاستعراض: فمضى يجيل فيها عينَيْه ببطء، ويقلِّبها بين يدَيْه، ويرفعها إلى السماء كما لو أنه ينظر من خلالها، ويفتح خزانة الرصاص، ويتحقَّق مِن وضع الأمان، ويهزّ الزناد.

- أُصيب كعب البندقية ببعض الخدوش، سيدي الملازم. -قال- ولم يُشحَّم السلاح كما ينبغي.

- كم أمضيتَ في المدرسة العسكرية، أيها الكاديت؟

- ثلاثة أعوام، سيدي الملازم.

- وما زلتَ لم تتعلَّم كيف تمسك البندقية؟ يجب ألَّا يسقط السلاح على الأرض أبدًا. خير لك أن يُهشَّم رأسك من أن تسقط بندقيتك. سلاح الجندي مهمٌّ مثل خصيتَيْه. هل تعتني بخصيتَيْك أيها الكاديت؟

- أجل، سيدي الملازم.

- حسنًا -قال غامبوا- هكذا يجب عليك أن تعتني ببندقيتك. عُدْ إلى القسم. بيسوا، أعدّ مُذكِّرة عقاب يُخصَم منه بموجبها ست نقاط.

أبرز ضابط الصفّ دفترًا صغيرًا، وبلَّل طرف قلم الرصاص بلسانه، ثم دوَّن الأمر الذي أُملِي عليه.

أمر غامبوا بالاصطفاف.

وحين دخل أفراد القسم الأخير من الفرقة الخامسة إلى قاعة الطعام، توجَّه غامبوا إلى القاعة الخاصة بالضُبَّاط. لم يكُن هناك أحد. ولكن ما هو إلَّا قليل حتى بدأ الملازمون والضُبَّاط يتوافدون إلى هناك. جلس قادة كتائب الفرقة الخامسة -أوارينا وپيتالوغا وكالسادا- إلى جوار غامبوا.

- أسرعْ أيها الهندي. -قال پيتالوغا- يجب أن يُقدَّم الفطور حالما يدخل الضُبَّاط إلى المكان.

غمغم الجندي الذي تولَّى الخدمة مُعتذِرًا بشيء لم يسمعه غامبوا: كان هدير مُحرِّك إحدى الطائرات قد شقّ الفَجْر، فمضَت عينا الملازم تستكشفان الأجواء الرطبة والسماء التي بدَت مُوحَّدة.

خفض عينيْه ناظرًا إلى الأرض الخلاء. تراصَّت بنادق الطُّلَّاب الألف وخمسمئة متساويةً على أكمل وجه، في مجموعات مِن أربع بنادق، حيث تستند فوَّهة كلّ بندقية إلى الفوَّهة المقابلة، وتنتظر وسط الضباب. مضَت الفِكّونة تهيم بين تلك الأهرامات المتوازية، وتتشمَّمها.

- هل اتَّخذ مجلس الضُبَّاط قرارًا؟ -سأل كالسادا، الأشدّ بدانةً وسط الأربعة، وهو يلوك قطعة مِن الخبز ويتكلَّم بفمٍ ممتلئ.

- بالأمس. -قال أوارينا- انتهَت الجلسة في ساعة مُتأخِّرة، بعد العاشرة. واستشاط الكولونيل غضبًا.

- هكذا هو دائمًا. يُغضِبه ما يُكتَشَف وما لا يُكتَشَف. -قال پيتالوغا. ثم لكز أوارينا بمرفقه- ولكن لا يمكنك أن تشكو حالك، فلقد ابتسم لك الحظّ في هذه المرة. إنها نقطة مُشرِّفة في سجلّ الخدمات.

- أجل. -قال أوارينا- لم يكُن بالأمر اليسير.

- متى تُنتزَع شاراته؟ -قال كالسادا- إنه مشهدٌ مُسلٍّ.

- يوم الإثنين، في الحادية عشرة.

- إنهم ثلة من المجرمين بالفطرة. -قال پيتالوغا- لا يتَّعظون بأي شيء مهما كان. هل رأيتم؟ سرقة واقتحام، لا أكثر ولا أقلّ! منذ وصلتُ إلى هذه المدرسة طُرِد نصف دزينة مِن الطُّلَّاب.

- لا يلتحقون بالمدرسة طوعًا. -قال غامبوا- وهنا تكمن المشكلة.

- أجل. -قال كالسادا- يشعرون بأنهم مدنيون.

- يخلطون بيننا وبين رجال الدين في بعض الأحيان. -قال أوارينا مُؤكِّدًا- ذات مرة أراد أحد الطُّلَّاب أن يعترف لي، وأراد مني أن أسدي إليه النصيحة. شيء لا يُصدَّق.

- نصف الطُلَّاب يرسلهم آباؤهم كيلا يصبحوا من المجرمين. - قال غامبوا- ونصفهم الآخر يرسلهم آباؤهم كيلا يصبحوا مِن المُخنَّثين.

- يظنّون المدرسةَ مُؤسَّسة إصلاحية. -قال پيتالوغا ضاربًا المائدة بيده- لا شيء يُصنَع بإتقان في بيرو، ولذا يفسد كل شيء. إن الجنود الذين يلتحقون بالقاعدة العسكرية قذرون، مقملون، لصوص. ولكن العصا ترغمهم على التحضُّر. ما هو إلَّا عام واحد في القاعدة العسكرية حتى لا يبقى لهم من سمات الهنود إلَّا شعرهم. أما هنا فيحدث العكس، إذ يفسد الطُلَّاب كلَّما كبروا في العمر. بل إن طُلَّاب الفرقة الخامسة أسوأ مِن الكلاب.

- الحرف يُلقَّن بالدماء. -قال كالسادا- مِن المؤسف أنه لا يمكن المساس بأولئك الصغار، فلو رفعتَ يدك على واحدٍ منهم تقدَّم بشكوى وثارَت فضيحة مُدوِّية.

- ها هو پيرانيا آتٍ. -غمغم أورباينا.

هبّ الملازمون الأربعة وقوفًا، فحيَّاهم الرائد غارّيدو بإيماءة مِن رأسه. كان رجلًا فارع القوام، له بشرة شاحبة، تميل إلى الخضرة عند الوجنتَيْن. أطلقوا عليه پيرانيا لأن عضلات فكّيْه تختلج طوال الوقت، ولأن له صفّيْن مِن الأسنان الهائلة، شاهقة البياض، التي تطلّ بارزةً مِن بين شفتَيْه، كأسنان تلك الأسماك المفترسة آكلة اللحوم التي تعيش في أنهار الأمازون. ناول كل ضابط منهم ورقة.

- إليكم تعليمات التدريبات الميدانية. -قال لهم- سوف تذهب الفرقة الخامسة إلى ما وراء الحقول، إلى الأرض المكشوفة حول التلة. لا بدّ مِن الإسراع، فأمامنا مسيرة تستغرق أكثر من ساعة إلَّا ربعًا.

- هل نأمرهم بالاصطفاف، أم ننتظر سعادتك، سيدي الرائد؟ - سأل غامبوا.

- اذهبوا مباشرة. -أجاب الرائد- سوف ألحق بكم.

خرج الملازمون الأربعة مِن قاعة الطعام معًا، ثم تفرَّقوا على خطٍّ واحد عند وصولهم إلى الأرض الخلاء، وأطلق كل منهم صفارته. تعالى الصخب الآتي من قاعة الطعام، وما هي إلَّا لحظة حتى بدأ الطُّلَّاب يخرجون راكضين بأقصى سرعة. وصلوا إلى مستودع السلاح، والتقط كل منهم بندقيته، ثم اصطفّوا مُتَّجهين إلى المنصة بترتيب الأقسام.

بعد قليل، وأمام الحرس الذين وقفوا في وضع الثبات، اجتاز الفوجُ بابَ المدرسة الرئيسي وانطلق يجتاح جادة لاكوستانيرا. بدا الأسفلت نظيفًا، لامعًا. تقدَّم الطُّلَّاب ثلاثًا ثلاثًا، وتباعدَت الصفوف حتى صار الصفّان الجانبيان على طرفَي الجادة، يتوسَّطهما الصفّ الأوسط.

تقدَّم الفوج وصولًا إلى جادة لاسپالميراس، عند ذاك أصدر غامبوا أمره إلى الصفوف بأن تنعطف نحو بيابيستا. وفيما سار الطُّلَّاب نزولًا على المنحدر، تحت الأشجار ذات الأوراق الكبيرة المعقوفة، تسنَّى لهم أن يروا كتلةً مُبهَمة في أقصى الطرف الآخر: أبنية الترسانة البحرية ومرفأ كاياو. بينما ترامَت بيوت لاپِرلا على الجانبَيْن، تلك البيوت العتيقة، المرتفعة، بجدرانها التي اكتسَت بالنباتات المُتسلِّقة، وأسوارها الصدئة التي تحرس الحدائق بكل الأبعاد. حين اقترب الفوج مِن جادة پروغريسو، بدأ النهار ينبض بالحياة: فظهرَت نساء حافيات الأقدام يحملن السلال وجوالات الخضراوات، وتمهَّلن لتأمُّل طُلَّاب العسكرية بثيابهم المهترئة؛ كما حاصر الفوجَ قطيعٌ من الكلاب التي انطلقَت تقفز وتنبح؛ ومضى

برفقة الفوج أطفالٌ صغار بأجسادٍ قذرة هزيلة، شأنهم شأن الأسماك التي ترافق السفن في أعالي البحار.

توقَّف الفوج في جادة پروغريسو: حيث تدفَّقَت السيارات والحافلات في تيار لا ينقطع. وبإشارة مِن غامبوا، وقف ضابطا الصفّ مورتي وپيسوا على قارعة الطريق لكبح نزيف السيارات ريثما يعبر الفوج. أطلق بعض السائقين أبواق التنبيه وهم يستشيطون غضبًا، فمضى الطُلَّاب يكيلون لهم السباب. وعلى رأس الفوج، رفع غامبوا يده مشيرًا إليهم بأن يقطعوا الحقل بدلًا مِن المضي في اتجاه المرفأ، سائرين على حافة حقل القطن الذي ما زال غضًّا. وحين وصل جميع أفراد الفوج إلى الأرض، نادى غامبوا ضابطَي الصفّ.

- هل تريان التلة؟ -أشار بإصبعه إلى مرتفع قاتم، في نهاية الحقل.

- نعم، سيدي الملازم. -ردَّد مورتي وپيسوا.

- ذلك هو الهدف. پيسوا، اسبقنا إلى هناك أنت ونصف دزينة مِن الطُلَّاب. عليك بمسح الموقع كاملًا، وإن وجدتَ أحدًا هناك، فاصرفه عن المكان. ينبغي ألَّا يبقى أحد على التلة أو في محيطها. مفهوم؟

أومأ پيسوا برأسه ودار على عقبَيْه مواجهًا القسم الأول:

- أريد ستة مُتطوِّعين.

ولكن أحدًا لم يحرِّك ساكنًا. تلفَّت الطُلَّاب ناظرين إلى كل اتجاه، عدا الأمام، فاقترب غامبوا قائلًا:

- فليتقدَّم الطُلَّاب الستة الأوائل في التشكيل، وليذهبوا مع ضابط الصفّ.

انطلق پيسوا عَبْر الحقل وهو يرفع ذراعه اليمنى ويخفضها، بينما

أحكم ضمّ قبضته مشيرًا إلى الطُلّاب حتى يتقدَّموا بالخطوة السريعة. تراجع غامبوا بضع خطوات ليجتمع بباقي الملازمين.

- لقد أرسلتُ پيسوا لإخلاء الموقع.

- حسنًا. -أجاب كالسادا- لا توجد مشكلة فيما أرى. سوف أبقى إلى هذا الجانب مع رجالي.

- وأنا سأهاجم مِن جهة الشَّمال. -قال أوارينا- لطالما كنتُ أنا الأسوأ حظًّا، يجب عليَّ أن أقطع أربعة كيلومترات أخرى.

- ساعة واحدة من أجل بلوغ القمة لا تترك لنا مُتَّسعًا مِن الوقت. -قال غامبوا- لا بدّ من حملهم على التسلُّق بسرعة.

- آملُ أن تكون الأهداف مُوضَّحة جيدًا. -قال كالسادا- في الشهر الماضي اقتلعَتها الرياح، فمضينا نصوِّب أسلحتنا إلى السحاب.

- لا تقلق. -قال غامبوا- لم تعُد الأهداف مصنوعة مِن الورق المُقوَّى، بل مِن القماش، بمحيط متر كامل. نصَّبها الجنود بالأمس. لا يمكن إطلاق النيران على مسافة أبعد مِن مئتي مترٍ.

- حسنًا، سيدي الجنرال! -قال كالسادا- أتُعلِّمنا هذا أيضًا؟

- وفيمَ إهدار البارود على العقبان! -قال غامبوا- لن تنجح كتيبتك في إصابة هدف واحد على كل حال.

- هلّا تراهنَّا، سيدي الجنرال؟ -قال كالسادا.

- خمسة ليرات.

- اتركا لي المبلغ حتى ينتهي الرهان. -اقترح أوارينا.

- اتفقنا. -قال كالسادا- اصمتا، فيرانيا آتٍ.

اقترب منهم الرائد.

- ماذا تنتظرون؟

- نحن جاهزون. -قال كالسادا- كنَّا في انتظارك، سيدي الرائد.

- هل حدَّدتم مواقعكم؟

- أجل، سيدي الرائد.

- هل أرسلتم أحدًا للتحقُّق مِن إجلاء الأرض؟

- أجل، سيدي الرائد. أرسلنا ضابط الصفّ پيسوا.

- حسنًا. فلنضبط الساعات على توقيت واحد. -قال الرائد- سنبدأ في التاسعة. وفي التاسعة والنصف، أطلقوا النار. لا بدّ مِن وقف إطلاق النار فورًا، حالما يبدأ الهجوم. مفهوم؟

- أجل، سيدي الرائد.

- يجب أن يكون الجميع على قمة التلة في العاشرة. المكان يتَّسع للجميع. فليأخذ كلٌّ منكم كتيبته إلى المواقع بالخطوة السريعة، حتى يسري الدفء في أجساد هؤلاء الفتيان.

سار الضُبَّاط مبتعدين، بينما ظلّ الرائد في موقعه. بلغَته أوامر الملازمين. كان صوت غامبوا أعلى الأصوات، وأشدّها نبضًا بالحيوية. ما هو إلَّا قليل حتى بقي الرائد وحده. انقسم الفوج إلى ثلاث فصائل، انطلقَت كلٌّ منها مُبتَعِدةً في اتجاهات متقابلة، لتحيط بالتلة. أخذ الطُلَّاب يركضون، وإن لم يكفّوا عن الكلام: فتمكَّن الرائد من تمييز بعض العبارات المتناثرة وسط ذلك الصخب. تقدَّم الملازمون على رؤوس الأقسام، بينما سار ضُبَّاط الصفّ على الجوانب. رفع الرائد غاريدو المنظار إلى عينَيْه، فتبيَّن الأهداف التي يبعد كلٌّ منها عن الآخر أربعة أو خمسة أمتار: تلك الدوائر تامة الاستدارة التي استقرَّت في منتصف التلة. حتى هو كان ليرغب في إطلاق النار عليها. ولكن تلك المهمة صارَت تقع على عاتق طُلَّاب العسكرية الآن. كان دوره في التدريبات الميدانية يبعث على الضجر،

ويقتصر على المراقبة. فتح الرائد علبة السجائر السوداء والتقط منها واحدة. أحرق عدة أعواد ثقاب قبل أن يتمكَّن من إشعال السيجارة، لأن الريح هبَّت قويةً. ثم انطلق بالخطوة السريعة خلف الفصيلة الأولى. إنه لشيء مُسلٍّ أن يراقب الملازمَ غامبوا في الساحة، لأنه يأخذ التدريبات الميدانية على محمل الجدّ.

وصل غامبوا إلى سفح التلّة، فتأكَّد له أن الطُلَّاب قد أدركهم الإعياء بحقّ. أخذ بعضهم يركض فاغر الفم، شاحب الوجه، بينما تعلَّقَت به الأنظار كلها. لمح غامبوا في نظراتهم تلك اللهفة التي ينتظرون بها أن يأمرهم بالتوقُّف. ولكنه لم يفعل. وإنما ألقى نظرة على دوائر الأهداف، وسفوح التلَّة الجرداء، بنيَّة اللون، التي تنحدر حتى تغوص في حقل القطن. وعلى الجانب الآخر مِن الأهداف، كانت قمة التلة في انتظارهم، ذلك النتوء الضخم المصمت الذي ينتظرهم على ارتفاع عدة أمتار. ظلّ يركض قرب التلة أولًا، ثم اخترق الحقل المفتوح بأقصى ما يملك مِن سرعة، باذِلًا قصارى جهده كيلا يفتح فمه، وإن أحسّ هو أيضًا بقلبه ورئتَيْه يطلبان دفقةً غزيرة مِن الهواء النقي، بينما انتفخَت الأوردة في عنقه، وتفصَّد العرق البارد تاركًا بشرته رطبةً، مِن قمة رأسه حتى أخمص قدمَيْه. التفت مرة أخرى، فوجد أنهم صاروا على بعد ألف متر مِن الهدف بالتقريب، طبقًا لتقديراته. ثم أغمض عينَيْه، وتمكَّن من الإسراع والقفز بخطوات أوسع، ضاربًا الهواء بكلتا ذراعَيْه. وهكذا وصل إلى الآجام المُتوغِّلة في الأراضي البرّية، خارج الحقول، قريبًا مِن القناة المُشار إليها في التوجيهات بوصفها حدودَ موقع الكتيبة الأولى. توقَّف هناك. عند ذاك وحسب، فتح فمه مُلتقِطًا أنفاسه، فاردًا ذراعَيْه. مسح العرق السائل على وجهه قبل أن يدور على عقبَيْه، كيلا يعرف الطُلَّاب أنه حتى هو قد أدركه الإعياء. وصل ضابطا

الصفّ والرقيب أروسپيدي إلى الآجام أولًا، ثم لحق بهم الآخرون في فوضى عارمة: إذ تلاشت الصفوف، ولم تبقَ منها سوى أفرع ومجموعات متناثرة. ما هو إلّا قليل حتى تلاقَت الأقسام الثلاثة مرة أخرى، وأحاطت بغامبوا على شكل حدوة حصان. أنصَت غامبوا إلى أصوات الأنفاس الحيوانية الآتية مِن الطُلّاب المئة والعشرين الذين أسندوا بنادقهم إلى الأرض.

- ليحضر الرقباء إلى هنا. -قال غامبوا، فغادر أروسپيدي الصفَّ ومعه طالبان آخران- كتيبة، استرِح!

ابتعد الملازم بضع خطوات، ومضى في أثره ضابطا الصفّ والرقباء الثلاثة. أخذ الملازم يرسم على الأرض صلبانًا وخطوطًا، موضحًا لهم تحرُّكات الهجوم المختلفة بالتفصيل.

- هل عرفتم مواقع الفصائل؟ -سأل غامبوا، فأومأ المستمعون الخمسة- حسنًا. بدءًا من لحظة صدور الأمر بالزحف، تنتشر مجموعات القتال على شكل مروحة يد. والانتشار لا يعني السير كالنعاج، بل يعني الحفاظ على المسافة بين القوات، وإن ظلَّت في خطٍّ واحد. هل فهمتم؟ حسنًا. تتولَّى كتيبتنا الهجوم على الجبهة الجنوبية، الواقعة أمامنا. هل رأيتموها؟ -ألقى ضابطا الصفّ والرقباء نظرة على التلَّة ثم أجاب كلٌّ منهم: «أجل».

- وما التعليمات بشأن الزحف، سيدي الملازم؟ -غمغم مورتي سائلًا. التفت إليه الرقباء، فتضرَّج وجه ضابط الصفّ.

- الآن أتطرَّقُ إلى هذه النقطة. -قال غامبوا- انطلاق لمسافة عشرة أمتار في المرة الواحدة. زحفٌ مُتقطِّع. يقطع الطُلّاب تلك المسافة بأقصى سرعة، ثم يرتمون أرضًا. أما الطالب الذي يطمر بندقيته في الأرض، فلسوف أشقّ مُؤخِّرته ركلًا بقدمي. سوف أطلق الصفَّارة عندما يرتمي على الأرض أفراد الطلائع جميعًا، وعندئذ

يطلق النار أفراد الصفّ الثاني. رمية واحدة فقط. مفهوم؟ بعد ذلك يتقدَّم الرماة عشرة أمتار، ويرتمون أرضًا. عندئذ يطلق أفرادُ الصفّ الثالث النارَ ويتقدَّمون إلى الأمام. ثم نعيد الكرة. كل حركة تتمّ نزولًا عند أوامري. هكذا نصبح على مسافة مئة متر من الهدف. وهناك، يمكن للمجموعات أن تنضمّ بعضها إلى بعض قليلًا حتى لا نقتحم نطاق الكتيبتَيْن الأخريين. أما الهجمة الأخيرة، فتشارك فيها الأقسام الثلاثة معًا، لأن التلة في تلك المرحلة تكاد تخلو من العقبات، ولن تبقى فيها إلّا مواقع معادية قليلة.

- كم لدينا مِن الوقت لإصابة الهدف؟ -سأل مورتي.

- ساعة واحدة. -أجاب غامبوا- ولكن هذه المسألة تخصّني أنا. أما ضابطا الصف والرقباء، فينبغي لهم الحرص كيلا يفرط الرجال في التباعد أو التقارب، وكيلا يتخلَّف أحد. لا بدّ أن تبقوا على اتصال بي طوال الوقت، لعلّني أحتاج إليكم.

- هل ننضمّ إلى الصفوف الأمامية أم الخلفية، سيدي الملازم؟ -سأل أروسپيدي.

- أنتم في الصفّ الأول. وضابطا الصف في الخلف. هل مِن سؤال؟ حسنًا، اذهبوا وأخبروا قادة المجموعات بالمُخطَّط. سوف نتحرَّك خلال خمس عشرة دقيقة.

ابتعد ضابطا الصفّ والرقباء بالخطوة السريعة. أما الملازم غامبوا، فرأى الرائد غارّيدو مُقبِلًا. همّ بالوقوف، ولكن پيرانيا أشار إليه بيده حتى يبقى مكانه، حيث أقعى في جلوسه. مضى كلاهما يراقب الأقسام تتفرَّق إلى مجموعات مِن اثني عشر رجلًا. شدّ الطُلَّاب الأحزمة وأربطة البيادات والخوذات، ومسحوا الغبار عن البنادق، وتحقَّقوا من أن مقابض التعمير تتحرَّك بسلاسة.

- إن هذا هو الشيء الذي يروق لهم بحقّ. -قال الرائد- أوه، يا للحمقى! انظر إليهم، يبدون وكأنهم في طريقهم إلى حفل راقص.

- أجل. -قال غامبوا- يظنّون أنفسهم في الحرب.

- لو اضطُرّوا إلى القتال بحقّ ذات يوم، لكان أولئك إما هاربين مِن العسكرية وإما جُبناء. -قال الرائد- ولكن، مِن حسن حظهم أن رجال العسكرية هنا لا يطلقون النار إلَّا في المناورات. لا أعتقد بأن تخوض بيرو حربًا حقيقية أبدًا.

- ولكن، سيدي الرائد، نحن محاطون بالأعداء. -قال غامبوا- كما تعرف، تتحيَّن الإكوادور وكولومبيا الفرصة الملائمة حتى تنتزعا من بين أيدينا رقعةً مِن الأدغال. وما زلنا لم نصفِّ حسابنا مع تشيلي بعد ما جرى في آريكا وتراپاكاه.

- خرافات. -قال الرائد، بلفتة تشكيك- الآن صار الكبار يتولَّون ترتيب كل شيء. لقد قاتلتُ على الجبهة ضد الإكوادور في عام ٤١. كان في مقدورنا الوصول إلى كيتو. ولكن الكبار قد تدخَّلوا، وعثروا على حلٍّ دبلوماسي، يا للوقاحة! في النهاية يقرِّر المدنيون كل شيء. لم يعُد لرجال العسكرية أدنى فائدة في بيرو.

- كان الأمر مختلفًا فيما مضى. -قال غامبوا.

عاد ضابط الصفّ پيسوا مع الطُلَّاب الستة المرافقين ركضًا، فاستدعاه الرائد غارّيدو.

- هل درتَ حول التلة كاملة؟

- نعم، سيدي الرائد. المكان خالٍ تمامًا.

- الساعة قاربَت التاسعة، سيدي الرائد. -قال غامبوا- سوف أبدأ.

- هيَّا. -قال الرائد. ثم أردف وقد تعكَّر مزاجه فجأة-: اعتصرْ أولئك العاطلين!

اقترب غامبوا من الكتيبة، واستغرق في مراقبتها طويلًا، مِن أقصاها إلى أقصاها، وكأنه يقدِّر بسالة الكتيبة وإمكانياتها الخفية، وقدرتها على الاحتمال. مال برأسه إلى الخلف قليلًا، والريح تداعب قميصَه المُموَّه وبعضًا مِن خصلات الشعر السوداء التي انسدلَت خارج القبعة.

- انتشروا على مسافة أكبر، اللعنة! -صرخ- هل تريدون أن تُسحَقوا؟ يجب ألَّا تقلّ المسافة بين كل رجلٍ وآخر عن خمسة أمتار. أتحسبون أنفسكم ذاهبين إلى القدَّاس الإلهي؟

انتفضَت الصفوف الثلاثة. ترك قادة المجموعات مواقعهم، وانطلقوا يصرخون ويأمرون الطُلَّاب بأن يتباعدوا في ما بينهم، فامتدَّت الصفوف الثلاثة بمرونة، وصارَت أقلّ كثافة.

- سوف تتقدَّم القوات بخطى مُتعرِّجة. -قال غامبوا بصوت مرتفع جدًّا، حتى يسمعه الطُلَّاب الذين جاء موقعهم على الأطراف- لقد تعلَّمتم ذلك منذ ثلاثة أعوام، إياكم والتقدُّم صفًّا واحدًا كالسائرين في المواكب. مَن بقي منكم واقفًا على قدمَيْه، أو مُتقدِّمًا، أو مُتأخِّرًا، عند صدور الأوامر، فهو في عداد الأموات، والأموات يُحرَمون مِن الإجازة يومَي السبت والأحد. هل كلامي واضح؟

التفت إلى الرائد غارّيدو، الذي بدا شاردًا، ناظرًا إلى الأفق، تائه العينَيْن. رفع غامبوا الصفارة إلى شفتَيْه. وسرَت رجفةٌ قصيرة بين الصفوف.

- صفّ الهجوم الأول. جاهز للتحرُّك. الرقباء في المُقدِّمة. وضابطا الصفّ في الخلف.

نظر إلى ساعته، التي أشارت عقاربها إلى التاسعة تمامًا. أطلق صفيرًا طويلًا، فإذا بالصوت الثاقب يجرح أذنَي الرائد الذي بدرَت

منه لفتةٌ تنمّ عن المفاجأة، أدرك أنه قد نسِي التدريبات الميدانية لبضع ثوانٍ، فأحسّ بالتقصير. بخطى حيوية، انتقل إلى موقع قريب مِن الآجام، خلف الكتيبة، لمتابعة العملية.

قبل أن ينقطع الصوت المعدني، رأى الرائد غارّيدو أن صفّ الهجوم الأول، المُقسَّم إلى ثلاث مجموعات، قد انطلق مندفعًا في آن واحد: انتشرَت المجموعات الثلاث على شكل مروحة يد، وتقدَّمَت بأقصى سرعة مُنتشِرةً إلى الأمام والجانبَيْن، كالطاووس إذا فرد ريشاته المهيبة. مضى الطُلَّاب يركضون في أثر الرقباء وقد مال كلٌّ منهم بجسده إلى الأمام، وأمسك البندقية المُعلَّقة بيمينه، مُوجِّهًا فوّهتها إلى السماء، رافعًا كعبها فوق الأرض بضعة سنتيمترات. ثم انطلق صفير ثانٍ، أقل طولًا ولكنه أكثر حدة من سابقه، وأشدّ بُعْدًا، لأن الملازم غامبوا قد انطلق راكضًا بدوره، على أحد الجانبَيْن، لضبط تفاصيل الزحف. ما هي إلَّا لحظة حتى تلاشى الصفّ وسط الحشائش، وكأن هبةً من الريح الخفية قد ذرَته: استحضر الرائد صورةَ جنود الصفيح التي يطيح بها الرصاص في لعبة التصويب على الأهداف. وما لبثَت زمجرات غامبوا أن سكنَت الصباحَ وكأنها كائنات مِن كهرباء -«لماذا سبقَت تلك المجموعة؟ روسپيغليوسي، أيها الحمار الغبي، أتريدهم أن يفجِّروا رأسك؟ إياكم وطمر البندقية في الأرض!»- تعالى الصفير مرة أخرى، فخرج ذلك الخطُّ الملتوي مِن وسط الحشائش، وانطلق مُبتعِدًا بأقصى سرعة. ما هو إلَّا قليل حتى غاب عن ناظرَيْه مرة أخرى، استجابةً لصفير جديد، بينما راح صوت غامبوا يبتعد ويغيب: وصل إلى سمع الرائد سباب غير معهود، وأسماء مجهولة، ورأى الطلائع تتقدَّم. شرد ذهنه للحظات، في حين بدأ يهدر الصفّان الأوسط والخلفي. نسي الطُلَّاب حضور الرائد، وأخذوا يصيحون ملء صدورهم، ساخرين مِن أولئك الذين

تقدَّموا مع غامبوا: «يرتمي بايانو النيغرو كالجوال، لا بدّ أن عظامه مِن مطاط. وذلك العَبْد الحقير، يخاف أن يُصاب وجهه الرقيق بالخدوش».

وفجأة، ظهر غامبوا أمام الرائد غارّيدو صارخًا: «صفّ الهجوم الثاني: جاهز للتحرُّك». رفع قادة المجموعات أذرعتهم اليمنى، بينما ظلّ ستة وثلاثون طالبًا جامدين في مواقعهم. نظر الرائد إلى غامبوا: صاحب الوجه الهادئ، والقبضتَيْن المُحكَمتَيْن. كان الشيء الاستثنائي الوحيد هو نظرته الوثَّابة: التي تتنقَّل من نقطة إلى أخرى، وتنبض بالحيوية، والسخط، والابتسام. خرج الصفّ الثاني إلى الحقل. تضاءل حجم الطُلَّاب. بينما شرع الملازم يركض مِن جديد والصفارة في يده، مُلتفِتًا بوجهه إلى التشكيل.

الآن رأى الرائدُ صفَّيْن يمتدَّان إلى الحقل، يغوصان في الأرض وينبثقان مِن جديد، ويراوحان بين هذا وذاك، فيملآن الحقل المقفر بالحياة. لم يعُد في إمكانه التحقُّق من تنفيذ الطُلَّاب للقفزة كما جاءت في الكتب الإرشادية: بالهبوط على الساقَيْن فالجانب الأيسر والذراع اليسرى، مع الميل بالجسد لضمّ البندقية إلى الضلوع قبل أن تلمس الأرض. كما لم يعُد في إمكانه التحقُّق من حفاظ صفوف الهجوم على المسافة الفاصلة، والتزام مجموعات القتال بالتماسك، والتزام الرقباء بمواقع الصدارة التي تمثِّل رأس الحربة مِن دون أن يغيب الملازم عن أنظارهم. امتدَّت الجبهة بطول مئة مترٍ على وجه التقريب، وتوغَّلَت في العمق أكثر فأكثر. وفجأة، ظهر غامبوا أمامه من جديد، بذلك الوجه الهادئ دائمًا، وهاتَيْن العينَيْن المحمومتَيْن. أطلق الصفَّارة، وإذا بالصفّ الخلفي ينطلق إلى التلة متبوعًا بضابطَي الصفّ. والآن صارت الصفوف الثلاثة تتقدَّم إلى الأمام، بعيدًا عنه، فبقي وحيدًا قرب الآجام الشائكة. ظلّ في المكان بضع دقائق،

مُفكِّرًا في البطء والارتباك اللذين يعيبان أولئك الطُلَّاب مقارنةً بالجنود أو طُلَّاب الأكاديمية الحربية.

بعد ذلك مشى خلف الكتيبة، ومضى يراقب مِن خلال المنظار بين حين وآخر. عن بُعْد، تراءى له أن القوات تتقدَّم بحركتَيْن في آن واحد، إقبال وإدبار: إذ كان أفراد الصفّ الأول يرتمون على الأرض، فيتقدَّم أفراد الصفّ الثاني راكضين بأقصى سرعة إلى ما وراء الصفّ الأول، مُحتَلِّين موقع الصدارة. ثم يتقدَّم الصفّ الثالث وصولًا إلى الموقع الذي غادره أفراد الصفّ الثاني. وفي الانطلاقة التالية، تعود الصفوف الثلاثة إلى الترتيب الأوَّلي. وهكذا تتفكَّك الصفوف ثم تتساوى في ثوانٍ معدودة. أخذ غامبوا يلوِّح بذراعَيْه، حتى بدا وكأنه يصوِّب إصبعه ويطلق النار على طُلَّاب بعينهم. خمَّن الرائد غارّيدو أوامره وملاحظاته بسهولة، مع أنه لم يتمكَّن من سماع صوته.

وفجأة، سمع دوي النيران. ألقى نظرة على ساعته. «بالضبط»، فكَّر. «التاسعة والنصف تمامًا». مضى يراقب بالمنظار. وبالفعل، كانت الطلائع تقف على المسافة المُحدَّدة سلفًا. نظر إلى الأهداف، غير أنه لم يتمكَّن مِن تمييز الرميات المُوفَّقة. ركض قرابة عشرين مترًا. وفي تلك المرة، تأكَّد له أن دوائر الأهداف قد تخلَّلَتها دزينة من الثقوب. «الجنود أفضل منهم»، فكَّر، «ومع ذلك، يتخرَّج هؤلاء الطُلَّاب بدرجة ضُبَّاط احتياط. إنه لأمر مشين». ظلَّ يتقدَّم، وهو يكاد لا يبعد المنظار عن وجهه. صارت الانطلاقات أقصر: ومضَت الصفوف تتقدَّم مسافة عشرة أمتار في المرة الواحدة. انطلق الصفّ الثاني، وما كاد يخمد صدى الصوت حتى دوَّى الصفير إيذانًا للصفَّيْن الأمامي والخلفي بالزحف. تراءى الطُلَّاب على مرمى الأفق في منتهى الصغر، حتى وكأن الواحد منهم يقفز في مكانه، ثم يسقط

أرضًا. دوَّى صفيرٌ آخر، فأطلق النار الصفّ الذي كان مُمدَّدًا على الأرض. أخذ الرائد يتحقَّق مِن الأهداف ويحسب الإصابات بعد كل دفقة مِن الرصاص. تحسَّنَت الرميات مع اقتراب الكتيبة مِن التلة: وامتلأت الدوائر بالثقوب. مضى يراقب وجوه الرماة: تلك الوجوه المحتقنة، الطفولية، الملساء. بينما راح كل منهم يغمض عينًا، وينظر بالأخرى مِن خلال فتحة التصويب. كان كعب البندقية يرتدّ، فتنتفض تلك الأجساد الشابة التي تُضطَرّ إلى النهوض قبل أن يزول الألم عن الكتف، ثم تركض مُتربِّصةً، وتعاود الارتماء أرضًا، وإطلاق النار، وسط أجواء مِن العنف، ولكن تلك الأجواء مُجرَّد نسخة مُقلَّدة، فالرائد غارّيدو يعرف أنه ما هكذا تدور الحروب.

وفي تلك اللحظة لمح الخيالَ الأخضر، الذي كان من الممكن أن يدهسه الرائد بقدمَيْه، لولا أنه قد رآه في الوقت المناسب، كما رأى البندقية التي غاصَت فوّهتها في التراب بصورة مُروِّعة، ضدّ كل تعليمات العناية بالسلاح. عجز عن إدراك المعنى الذي قد ينطوي عليه ذلك الجسد المطروح أرضًا، ومعه تلك البندقية. انحنى. تراءى الفتى منقبض الوجه، مفتوح العينَيْن، فاغر الفم، تحت وطأة الألم. لقد اخترقَت الرصاصة رأسه: وسال خيطٌ مِن الدماء على عنقه.

ما كان من الرائد إلَّا أن ترك المنظار يسقط مِن يده، وحمل الطالب واضعًا إحدى ذراعَيْه تحت ساقَي الطالب والذراع الأخرى تحت ظهره. ثم انطلق راكضًا، ذاهلًا، مُهرولًا إلى التلة، صارخًا: «ملازم غامبوا، ملازم غامبوا!». ولكنه اضطُرّ إلى الركض أمتارًا كثيرة حتى يسمعه الآخرون. أما أفراد الكتيبة الأولى -تلك الخنافس المُتطابِقة التي راحت تتسلَّق المرتفع ماضيةً في طريقها إلى الأهداف- فلا بدّ أنهم قد استغرقوا تمامًا في صيحات غامبوا، وفي الجهود التي اضطرّوا إلى بذلها مِن أجل التسلُّق زحفًا، إلى حدٍّ

منعهم من النظر إلى الخلف. حاول الرائد أن يحدِّد الزيّ العسكري فاتح اللون الذي يرتديه غامبوا، أو موقع ضابطي الصفّ. وفجأة، توقَّفَت الخنافس، والتفتَت إلى الرائد الذي أحسّ بأعين عشرات الطُلَّاب تراقبه. «غامبوا، يا ضابطَي الصفّ»، صرخ. «احضروا، بسرعة!». والآن انطلق الطُلَّاب يهبطون المنحدر بأقصى سرعة، فأحسّ بأن مظهره صار هزليًّا وهو يحمل ذلك الفتى بين ذراعَيْه. «يا لحظي العاثر»، أخذ يفكِّر. «سوف يدوِّن الكولونيل هذه الواقعة في سجلّ خدماتي».

وصل غامبوا إليه أولًا. نظر إلى الطالب في ذهول، ومال إليه حتى يفحصه، ولكن الرائد صرخ قائلًا:

- أسرعْ، إلى المستوصف، بأقصى سرعة.

حمله ضابطا الصفّ مورتي وپيسوا، وانطلقا به عَبْر الحقل بسرعة، وخلفهم الرائد والملازم والطُلَّاب الذين جاؤوا مِن كل صوب مُحدِّقين في هولٍ إلى ذلك الوجه الذي يترنَّح محمولًا: ذلك الوجه الشاحب، السقيم، الذي يعرفه الجميع.

- بسرعة! -مضى الرائد يقول- أسرَع!

وإذا بالملازم غامبوا ينتزع الطالب من ضابطَي الصفّ، ويحمله على كتفَيْه، ثم ينطلق مُسرِعًا. وما هي إلَّا ثوانٍ قليلة حتى سبق الآخرين بعدة أمتار.

- أيها الطُلَّاب. -صرخ الرائد- استوقفوا أول سيارة تمرّ على الطريق.

ابتعد الطُلَّاب عن ضابطَي الصفّ وقطعوا الطريق بالعرض. بينما تخلَّف عنهم الرائد مع ضابطي الصفّ مورتي وپيسوا.

- أهو مِن أفراد الكتيبة الأولى؟ -سأل.

- نعم، سيدي الرائد. -قال پيسوا- مِن القسم الأول.

- ما اسمه؟

- ريكاردو آرانا، سيدي الرائد. -تردَّد لحظةً ثم أردف-: يسمّونه العَبْد.

الجزء الثاني

«وأنا لن أسمح لأحدٍ، كائنًا مَن كان،
بأن يزعم أنها أجمل سنين العمر».
پول نيزان

١

أشعرُ بالأسى لرِيشَة، الكلبة التي راحت تبكي وتبكي ليلة أمس. دثَّرتُها بالغطاء جيدًا، وجعلتُ الوسادة تحتها، غير أنها لم تكفّ عن إطلاق العواء بالغ الطول. بدَت وكأنها تختنق وتغصّ طوال الوقت. كان شيئًا مُروِّعًا. لقد أيقظَت الثكنة كاملةً بعوائها. لو حدث ذلك في وقت آخر، لما ألقى أحدهم بالًا. ولكن الجميع بات مُتوتِّر الأعصاب، ولذا بدؤوا يكيلون السباب ويطلقون اللعنات ويقولون: «أخرجها مِن هنا وإلَّا اندلعَت الفوضى». ومِن مكاني في الفراش، اضطُرِرتُ إلى تعنيف هذا وذاك، حتى لم يعُد الأمر مُحتمَلًا، قرب منتصف الليل. أنا نفسي قد غالبني النعاس، ولكن رِيشَة راحت تعوي أقوى فأقوى. قام عدة طُلَّاب، وجاؤوا إلى سريري مُلوِّحين بالبيادات. لا يمكن أن أخوض شجارًا ضدّ القسم كاملًا، الآن وقد خيَّم علينا ذلك الاكتئاب الشديد. عند ذاك أخرجتُها، ومضيتُ بها إلى الفناء. تركتُها هناك، ولكني ما كدتُ أدور على عقبَي حتى أحسستُ بها آتية في أثري، فقلتُ لها مُعنِّفًا: «قفي مكانك، أيتها الكلبة، ابقي حيث تركتُكِ عقابًا لكِ لأنكِ كثيرة البكاء»، ولكن رِيشَة ظلَّت تتبعني أينما ذهبت وهي تعرج على ساقها الملتوية التي لا تلمس الأرض. مَن رأى الجهود المضنية التي بذلَتها لتتبعني، أخذَته بها شفقة. عندئذ حملتُها إلى الأرض الخلاء، حيث وضعتُها فوق

الحشائش، ومسَّدتُ عنقها لبعض الوقت، ثم رجعتُ إلى الثكنة. في تلك المرة لم تتبعني. ولكني لم أنَم جيدًا، أو بالأحرى لم أنَم، فكلَّما أوشك النوم أن يغلبني، طراخ، انفتحَت عيناي وحدهما، ومضيتُ أفكِّر في الكلبة. كما بدأتُ أسعل لأنني لم أنتعل حذائي عندما أخرجتُها إلى الفناء، ولأن في بيجامتي ثقوبًا كثيرة، كما أعتقد بأن الريح قد هبَّت قوية، وربما كانت الأمطار تتساقط. مسكينة رِيشَة، تتجمَّد في الخارج، وهي التي لا تحتمل البرد مطلقًا. كثيرًا ما وجدتُها غاضبةً في الليل لأنني أتحرَّك وأزيح عنها الغطاء، عندئذ تثور ثائرتها، فتنهض مُزمجِرةً، وتجذب الغطاء بأسنانها حتى تغطِّي جسدها مرة أخرى، أو تتسلَّل إلى طرف السرير لتحسّ بدفء قدمَي. الكلاب في غاية الوفاء، لا شكّ في أنها أوفى حتى مِن الأقرباء. لا يمكن عمل شيء حيال الأمر. إن رِيشَة هجين، مزيج مِن كل صنوف الكلاب، ولكن لها قلبًا أبيض. لا أذكر متى جاءت إلى المدرسة. مِن المُؤكَّد أن أحدًا لم يأتِ بها، بل إنها قد مرَّت بالمدرسة، وشعرَت برغبة في التسلُّل وإلقاء نظرة. عندئذ راقها المكان، فمكثَت هنا. أعتقد بأنها كانت في المدرسة عندما التحقنا بها. لعلّها قد وُلِدَت هنا، لعلّها ابنة ليونسيو پرادو. كانت صغيرة آنذاك. لاحظتُ أنها تتسلَّل إلى القسم طوال الوقت، منذ أوان المعمودية، وكأنها تعتبر القسمَ بيتها. بل إنها كانت، كلَّما دخل طالب مِن الفرقة الرابعة، تنقضّ على قدمَيْه نابحةً، وتهمّ بعضّه. كانت في غاية البسالة: فكلَّما أطاح بها أحدهم في الهواء بركلةٍ مِن قدمه، عاودَت الهجوم، نابحةً، مُكشِّرةً عن أنيابها، أنياب الكلبة الصغيرة. الآن كبُرَت. لا بدّ أنها قد تجاوزَت الثالثة، وصارت في سنٍّ مُتقدِّمة بالنظر إلى عمر الكلاب، لأن الحيوانات لا تعمِّر طويلًا، ولا سيما الحيوانات الهجينة التي لا تأكل إلَّا قليلًا. لا أذكر أنني قد رأيتُ

رِيشَة تأكل كثيرًا. أحيانًا ألقي إليها بعض بقايا الطعام، وتلك أفخم الولائم التي تحصل عليها. أما الحشائش، فتكتفي رِيشَة بأن تمضغها وتمتصّ عصارتها، ثم تلفظها. تلتقط القليل مِن الحشائش بفمها، فتلوكها وتلوكها طوال ساعات، كالهنديّ الذي يمضغ أوراق الكوكا. كانت تمضي وقتها كاملًا في القسم، فقال بعضهم إنها تجلب البراغيث، وأخرَجوها مِن المكان، غير أن رِيشَة تعود كل مرة. طُرِدَت ألف مرة، ولكن ما هو إلّا قليل حتى يُحدِث البابُ صريرًا، وإذا بها تظهر هناك خافضةً خطمها حتى يكاد يلامس الأرض. كُنّا نضحك على عنادها، ونتركها تدخل أحيانًا ونلعب معها. لا أدري مَن الذي خطر له أن يُطلِق عليها لقب رِيشَة. لا يدري المرء أبدًا مِن أين تأتي الألقاب. ضحكتُ عندما بدؤوا يطلقون عليّ لقب كوبرا، ثم تملّكني الغضب، ورحتُ أسألهم مَن اخترع ذلك اللقب، فمضى كلٌّ واحد يقول إن فلانًا هو الذي قد فعلها. والآن لم يعُد في يدي أن أتنصّل مِن هذا اللقب. حتى في منطقتي صار الناس يطلقون عليَّ لقب كوبرا. أعتقد بأن بايانو هو الفاعل. لطالما قال لي: «قدِّمْ إلينا عرضًا، أخرِجه مِن فوق الحزام وتبوّل أمامنا»، «أرِنا تلك الحمامة التي تصل إلى ركبتَيْك». وإن لم يتأكّد لي أن بايانو هو الفاعل.

*

أحسّ ألبِرتو بأحدهم يمسك ذراعه. رأى وجهًا مبهمًا لا يتذكّره. في حين ابتسم له الفتى وكأن كلًّا منهما يعرف الآخر. تراءى خلفه وجهٌ جامد، لطالبٍ أصغر منه. لم يتمكّن مِن رؤيتهما بوضوح. لم تكُن الساعة قد تجاوزَت السادسة مساء، ولكن الضباب قد خيَّم قبل أوانه. كانوا في فناء الفرقة الخامسة، في محيط المنصة. بينما راحت مجموعات الطُلّاب تجوب المكان مِن جانب إلى آخر.

- مهلًا، أيها الشّاعِر. -قال الفتى- بما أنك صاحب خبرة

واسعة، أليس حقًّا أن «المبيض» و«الخصية» شيء واحد، كل ما في الأمر أن المبيض أنثوي؟

- اتركْ ذراعي. -قال ألبِرتو- أنا في عجلة مِن أمري.

- دعْ عنك ذلك يا رجل. -أصرّ الآخر- لن يستغرق الأمر أطول من لحظة. لقد تراهنَّا.

- تراهنَّا بشأن أغنية. -قال الطالب الأصغر مُقترِبًا- أغنية من بوليفيا، فهذا الفتى نصف بوليفي، ويعرف أغنيات مِن هناك. أغنيات شديدة الغرابة. غنّها مِن أجله، حتى يرى بنفسه.

- قلتُ لك: اتركْ ذراعي. -قال ألبِرتو- يجب عليَّ أن أذهب.

وبدلًا مِن أن يفلته، أحكم الطالب قبضته حول ذراع ألبِرتو وأنشأ يغنِّي:

«أُحِسُّ في مبيضي
بألمٍ حقًّا شديد،
وإلى العالَمِ سيأتي
طفلٌ آخر جديد»

مكتبة
t.me/soramnqraa

ضحك أصغرهما.

- ألن تفلتني؟

- لن أفلتك. قُلْ لي أولًا إن كان كلاهما شيئًا واحدًا.

- هذا لا يجوز. -قال أصغرهما- فأنت توحي إليه بالإجابة.

- نعم، كلاهما شيء واحد. -صاح ألبِرتو وانتشل ذراعه دفعةً واحدة. ثم انطلق مُبتعِدًا. بينما ظلّ الفتيان يتجادلان. سار بخطى سريعة جدًّا حتى وصل إلى بناء الضُبَّاط، ثم انعطف. صار على مسافة لا تزيد على عشرة أمتار مِن المستوصف، ولكنه كاد لا يتبيَّن جدرانه: إذ طمس الضباب الأبواب والنوافذ. خلا الرواق ومكتب الحراسة الصغير من الناس. صعد ألبِرتو إلى الطابق الثاني درجتَيْن

درجتَيْن. وعلى مقربة من الباب، وجد رجلًا بالمئزر الأبيض يمسك بالجريدة، ولكنه لا يقرأ، بل إنه ظلّ شاخصًا إلى الجدار، ناظرًا إليه نظرةً مشؤومة. أحسّ الرجل بحضوره، فاستقام في جلوسه.

- اخرجْ مِن هنا أيها الكاديت. -قال- يُحظَر عليك أن تكون في هذا المكان.

- أريد رؤية الطالب آرانا.

- كلّا. -قال الرجل بغلظة- اذهب. لا أحد يستطيع رؤية الطالب آرانا. إنه في الحجر الصحي.

- إنها حالة طارئة. -أصرّ ألبِرتو- أرجوك. دعني أتحدَّث إلى الطبيب المناوب.

- أنا الطبيب المناوب.

- كذب. أنت المُمرِّض. أريد أن أتحدَّث إلى الطبيب.

- لا يروقني هذا المزاح. -قال الرجل وقد ترك الجريدة أرضًا.

- إن لم تستدعِ الطبيب ذهبتُ إليه بنفسي. -قال ألبِرتو- سوف أدخل، شئتَ أم أبيت.

- ماذا دهاك أيها الكاديت؟ هل جُنِنت؟

- استدعِ الطبيب، سحقًا! -صرخ ألبِرتو- اللعنة! استدعِ الطبيب!

- كلكم همج في هذه المدرسة. -قال الرجل، الذي قام وسار مبتعدًا عَبْر الرواق. بدَت الجدران مطليةً باللون الأبيض. ربما كان الطلاء حديثًا، ولكن الرطوبة قد أثخنَت الجدران بالجراح الرمادية. بعد لحظات حضر المُمرِّض وفي أثره رجلٌ فارع القوام، يضع نظارة على عينيْه.

- ماذا تريد، أيها الكاديت؟

- دكتور، أودّ رؤية الطالب آرانا.

- غير ممكن. -أجاب الطبيب بلفتة تنمّ عن العجز- ألم يخبرك الجندي بأن الصعود إلى هنا ممنوع. قد تُعاقَب على ما فعلتَ أيها الشاب.

- بالأمس جئتُ ثلاث مرات. -قال ألبِرتو- ولم يسمح لي الجندي بالدخول. ولكنه ليس في موقعه اليوم. دكتور، أرجوك، أودّ رؤيته ولو دقيقة واحدة.

- أنا في غاية الأسف. ولكن الأمر ليس بيدي. أنت تعرف اللائحة. الطالب آرانا في الحجر الصحي. لا يمكن لأحد أن يراه. أهو من أقربائك؟

- كلّا. -قال ألبِرتو- ولكن لا بدّ أن أتحدَّث إليه. إنها حالة طارئة.

وضع الطبيب يده على كتف ألبِرتو، ونظر إليه مُشفِقًا.

- الطالب آرانا لا يستطيع التحدُّث إلى أحد. -قال- إنه غائب عن الوعي. سوف تتحسَّن حالته. والآن، اخرج مِن هنا. لا ترغمني على استدعاء الضابط.

- أيُسمَح لي بأن أراه لو حصلتُ على أمر بذلك من العميد؟

- كلّا. -قال الطبيب- لا يمكنك أن تراه إلَّا بأمر مِن الكولونيل.

*

صرتُ أنتظرها لدى خروجها مِن المدرسة مرتَيْن أو ثلاث مرات كل أسبوع، ولكني لا أقترب منها في كل مرة. تعوَّدَت أمّي أن تتناول الغداء وحدها. لا أدري إن صدَّقَت أنني أذهب إلى بيت أحد الأصدقاء حقًّا. ولكنها وجدَت غيابي ملائمًا على كل حال، فهكذا توفِّر نفقات الطعام. كانت تراني في بعض الأحيان عائدًا إلى البيت عند منتصف النهار، فتنظر إليَّ بضيقٍ سائلةً: «ألن تذهب إلى

تشوكويتو اليوم؟». لو كان الأمر بيدي، لذهبتُ كل يوم حتى أنتظرها أمام المدرسة، ولكن لم يُسمَح لنا بالخروج قبل الموعد مِن مدرسة الثاني مِن مايو. وعلى الرغم من ذلك، فلقد سهُل عليَّ الخروج قبل الموعد أيام الإثنين، لأنها توافق درس التربية البدنية. كنتُ أتوارى خلف الأعمدة خلال الاستراحة يومذاك، بينما يمضي المُعلِّم ساپاتا بطُلَّاب الصفّ إلى الشارع، ثم أتسلَّل هاربًا مِن الباب الرئيسي. سبق أن حصل المُعلِّم ساپاتا على بطولة الملاكمة، ولكنه قد طعن في العمر، وما عاد يلقي إلى العمل بالًا أو يتحقَّق مِن أسماء الطُلَّاب الحاضرين قطّ. كان يأخذنا إلى الملعب قائلًا: «العبوا كرة القدم، إنه تمرين جيد للساقَيْن. ولكن لا تبتعدوا كثيرًا»، ثم يجلس على النجيل حتى يطالع الجريدة. تعذَّر عليَّ الخروج قبل الموعد في أيام الثلاثاء، لأن مُعلِّم الرياضيات يعرف كل طالب في الفصل باسمه. أما في أيام الأربعاء، فكان المُعلِّم سيغوينيا -الهائم في عالم آخر- يلقي على الطُلَّاب دروس الرسم والموسيقى، ما سمح لي بالخروج مِن مرأب السيارات بعد استراحة الحادية عشرة، ثم ركوب الترام على بُعْد نصف مربع سكني مِن المدرسة.

ظلّ إغيراس النحيل يعطيني النقود وينتظرني في ميدان بيابيستا دائمًا حتى يدعوني إلى الشراب والسجائر، ويتحدَّث إليَّ عن أخي وعن النساء وعن أشياء كثيرة. «لقد أصبحتَ رجلًا، رجلًا مكتمل الرجولة»، كان يقول، ويقدِّم إليَّ النقود مِن دون أن أطلب شيئًا في بعض الأحيان. لم يعطِني الكثير. خمسون سنتًا أو صول واحد في كل مرة. ولكن ذلك يكفي لدفع أجرة الترام. كنتُ أذهب إلى ميدان الثاني مِن مايو، وأتَّجه إلى المدرسة عَبْر جادة ألفونسو أوغارتي. حيث أقف في الدكان القائم على الناصية في كل مرة. أحيانًا كنتُ أذهب إليها، فتلقاني بقولها: «مرحبًا، هل خرجتَ مُبكِّرًا اليوم

أيضًا؟»، ثم نتحدَّث أنا وهي عن أمور أخرى. «إنها في غاية الذكاء»، قلتُ في نفسي، «تحوِّل دفة الحديث كيلا تضعني في موقف مُحرِجٍ». كنا نسير حتى نصل إلى بيت أخوالها، على بعد ثمانية مربعات سكنية تقريبًا، فأتعمَّد السير ببطء شديد، قاطعًا خطوات قصيرة، مُتوقِّفًا أمام واجهات المتاجر، غير أننا لم نستغرق أطول مِن نصف ساعة قطّ. كنا نتحدَّث عن الأمور نفسها، فيخبر كلٌّ منا الآخر بما جرى في المدرسة، ونتطرَّق إلى الدروس التي سوف نستذكرها في المساء، ومواعيد الاختبارات، ونتساءل إن كنا سننجح في الاختبارات ذلك العام. عرفتُ أسماء زميلاتها في الفصل جميعًا، كما عرفَت هي ألقاب الزملاء والمُعلِّمين والشائعات الرائجة عن الفتيان الأوسع خبرة في مدرسة الثاني من مايو. ذات مرة طاف بخاطري أن أقول لها: «بالأمس، رأيتُ في الحلم أننا قد كبرنا في العمر، وتزوَّجنا». أيقنتُ أنها سوف توجِّه إليَّ الأسئلة، وتدرَّبتُ على إجابات كثيرة كيلا أُضطَرّ إلى السكوت. وفي اليوم التالي، بينما نحن سائران في جادة آريكا، قلتُ لها فجأةً: «اسمعي، بالأمس رأيتُ في الحلم...». «ماذا؟ ماذا رأيتَ في الحلم؟»، سألَتني، فاكتفيتُ بأن أقول لها: «رأيتُ أن كلينا قد نجح في اختبارات العام». «ليت هذا الحلم يتحقَّق»، أجابَتني.

لطالما مررنا معًا بطُلَّاب مدرسة لاسال، وهم يرتدون ثيابهم البنية كالقهوة بالحليب، الشيء الذي وجدنا فيه موضوعًا آخر للحديث. «إنهم مُخنَّثون»، قلتُ لها، «لا يُقارَنون بطُلَّاب مدرسة الثاني مِن مايو. إن أولئك البيض الباهتين يشبهون طُلَّاب مدرسة الإخوة المريميين في كاياو، الذين يلعبون كرة القدم كالنساء. وما إن يتلقَّى الواحدة منهم ركلةً حتى يصرخ مناديًا أمّه. انظري إلى وجوههم!». كانت تضحك، فأستمرُّ في حديثي، ولكني أستنفد أوجه

الموضوع كلها أخيرًا، وأقول في نفسي: «لقد وصلنا». أما الشيء الذي جعلني أشدّ توتُّرًا، فهو تلك الفكرة التي حدَّثَتني بأنها قد تملّ سماعي وأنا أحكي القصص نفسها في كل مرة. غير أنني تعزَّيتُ عن ذلك قائلًا في نفسي إنها حتى هي تخبرني بالشيء نفسه مرات كثيرة ولكني لا أملّ حديثها أبدًا. كانت تحدِّثني عن الفيلم الذي شاهدَته مع خالتها يوم الإثنين، في العرض الخاص بالنساء، فتحكيه لي مرتَيْن أو ثلاث مرات في بعض الأحيان. وبالحديث عن السينما تحديدًا، فلقد تجرَّأتُ ذات مرة على أن أخبرها بشيء. سألَتني إن كنتُ قد شاهدتُ فيلمًا لا أعرفه، فأجبتُ بالنفي. «أنت لا تذهب إلى السينما أبدًا، أليس كذلك؟»، سألَتني. «الآن لم أعُد أذهب كثيرًا»، أجبتُها، «ولكني أكثرتُ مِن التردُّد إلى السينما في العام الماضي. كنتُ أشاهد العرض المُستمِرّ أيام الأربعاء في ساينس پينيا، مع اثنين من زملائي في مدرسة الثاني من مايو. لأحدهما قريب يعمل شرطيًّا في البلدية، كان يسمح لنا بالتسلُّل إلى بلكون السينما ما دام في الخدمة، فلا تكاد تنطفئ الأنوار حتى نهبط إلى الصالة الأولى، التي لا يفصل بينها وبين البلكون إلَّا سياج خشبي يمكن لأي شخص أن يقفز من فوقه». «ألم يمسكوا بكم قطّ؟»، سألَتني، فأجبتُها: «ومَن يمسك بنا إن كان شرطي البلدية قريب صديقي!». سألَتني: «وما الذي يمنعكم من ذلك في العام الحالي؟». «أصبح زميلاي الآخران يذهبان أيام الخميس»، قلتُ لها، «لأن اليوم الذي يوافق خدمة الشرطي قد تغيَّر». «وأنت، أما عدتَ تذهب معهما إلى السينما؟»، سألَتني، فأجبتُها، من دون أن أنتبه إلى ما أقول: «أفضِّل أن أذهب إلى بيتك لأكون معك». لم أكَد أتكلَّم حتى انتبهتُ إلى ما قلت لها، فلزمتُ الصمت، ولكن ذلك أسوأ، لأنها نظرَت إليَّ بمنتهى الجديَّة، بينما رحتُ أفكِّر أنها: «قد غضبَت مني». عندئذ قلتُ لها: «ولكني

قد أذهب معهما في واحد من هذه الأسابيع. مع أنني لا أحبّ السينما كثيرًا في حقيقة الأمر». حوَّلتُ دفَّة الحديث، ولكني لم أكفّ عن التفكير في التعابير المرتسمة على وجهها، التي بدَت مختلفة عن المعهود، وكأن الأمور التي لا أجرؤ على البوح بها قد خطرَت على بالها عندما سمعَت حديثي.

ذات مرة أهداني إغيراس النحيل صولًا واحدًا وخمسين سنتًا. «لتشتري بعض السجائر. أو لتسكر، إن كنتَ تعاني في الحبّ»، قال إغيراس. في اليوم التالي، وبينما نحن سائران في جادة آريكا، على رصيف سينما برينيا، اتَّفق لنا أن وقفنا أمام واجهة أحد المخابز، ورأينا فيها كعكًا بالشكولاتة، فقالت: «كم يبدو شهيًّا!». تذكَّرتُ النقود التي احتفظتُ بها في جيبي. قلَّما شعرتُ بسعادة جارفة كتلك التي غمرَتني آنذاك. قلتُ لها: «انتظري، لديّ صول، وسأذهب لشراء كعكة»، فأجابت: «كلّا، لا تهدر نقودك، كنتُ أمزح»، ولكني دخلتُ إلى المخبز وطلبتَ كعكة مِن الخبَّاز الصيني. استحوذ عليَّ ذهول جارف، حتى إنني خرجتُ مِن دون أن أتلقَّى باقي النقود، فما كان من الصيني الشريف إلَّا أن لحق بي قائلًا: «أدين لك ببيسيتا، إليك». ناولتُها الكعكة، فقالت: «ولكني لن أتناولها وحدي. دعنا نقتسمها». لم أرِد، وأكَّدتُ لها أنني لا أشعر برغبة في تناول الكعك، ولكنها أصرَّت، وفي النهاية قالَت: «تذوَّق قضمة واحدة على الأقلّ»، ومدَّت يدها لتضع في فمي الكعكة. قضمتُها دفعةً واحدة، فضحكَت. «لقد لوَّثتَ وجهك كاملًا»، قالت لي، «يا لي مِن بلهاء، أنا السبب، دعني أمسح الشكولاتة عن وجهك». رفعَت يدها الأخرى وقرَّبَتها مِن وجهي. أحسستُ بها تلمسني، فتيبَّستُ مكاني، وتجمَّدَت الابتسامة على شفتَيّ. وبينما راحت تمرِّر أصابعها على فمي، لم أجرؤ على أن ألتقط أنفاسي، خشية أن أحرِّك شفتَيّ، وإلَّا

انتبهَت إلى رغبتي في تقبيل يدها. «ها قد نظَّفتُ وجهك»، قالَت، وتابعنا السير إلى لاسال، من دون أن ينطق أحدنا بكلمة واحدة. مضيتُ مخمورًا بما حدث قبل قليل، مُتأكِّدًا أنها قد تمهَّلَت وهي تمرِّر يدها، وأنها قد مسحَت على فمي مرات كثيرة، فجعلتُ أقول في نفسي: «ربما فعلَتها عن عمد».

*

ولم تكُن رِيشَة هي التي تجلب البراغيث. أعتقد بأن المدرسة هي التي قد نقلَت البراغيث إلى الكلبة، براغيث الجَبَليين. ذات مرة دسّ النَّمِرُ ومَوْجَة قملًا في شعر المسكينة. ما أتعسهما! لا أدري أين كان النَّمِر قد لعب بذيله آنذاك، يُخيَّل إليَّ أنه قد ذهب إلى المُربَّع السكني الأول في أواتيكا، وهناك انتقل إليه قملٌ هائل الضخامة. مضى ينتزعه مِن شعره في الحمَّام، فتراءى القملُ على البلاط كبيرًا كالنمل. قال له مَوْجَة: «لماذا لا ندسّه في شعر أحدهم؟»، ومِن سوء حظّ رِيشَة أنها كانت تنظر إليهما في تلك اللحظة، فبات القمل مِن نصيبها. أمسك مَوْجَة بعنقها، فراحت الكلبة تركل في الهواء، بينما أخذ النَّمِر يدسّ حشراته في شعرها بكلتا يدَيْه. ثم اشتعل الحماس في نفسَيْهما، وصاح النَّمِر: «ما زالت لديَّ أطنان مِن القمل، مَن نعمِّده؟»، فقال مَوْجَة صائحًا: «العَبْد». ذهبتُ معهما، فوجدناه نائمًا. أذكر أنني قد أمسكتُ رأسه، وغطَّيتُ عينَيْه، في حين كبَّل مَوْجَة ساقَيْه. دسّ النَّمِر تلك القملات في شعره، بينما رحتُ أصيح عليه: «انتبه، سحقًا، لقد وضعتَه في أكمامي!». لو عرفتُ حينها ما سوف يحدث لذلك الفتى، لا أعتقد بأنني كنتُ سأمسك رأسه كما فعلتُ في تلك المرة، أو أنغِّصُ حياته بهذا القدر. ولكني لا أعتقد بأن القمل قد ترك فيه أدنى أثر. أما رِيشَة، فلقد تأذَّت مِن القمل بشدة، حتى كاد شعرها يتساقط كاملًا، وراحت تحكّ نفسها

بالجدران. أثخن القملُ جسدَها بالجراح، فصارت تبدو وكأنها كلب ضال أجرب. لا بدّ أنها قد أحسَّت بحكة شديدة، إذ لم تكفّ عن فرك جسدها، ولا سيما على جدار الثكنة الخشن. أصبح ظهرها يبدو مثل راية بيرو، باللونَيْن الأحمر والأبيض، الأبيض والأحمر، الجصّ والدماء. عندئذ قال النَّمِر: «لو نثرنا الفلفل الحريف على جلدها لصرخَت مثل البشر»، وأمرَني قائلًا: «يا كوبرا، اذهب إلى المطبخ واسرق قليلًا مِن الفلفل الحريف». ذهبتُ، فأهداني الطاهي عدة حبَّات مِن الفلفل. طحنَّاها بحجرٍ على البلاط، بينما أخذ كابا الجَبَلي يحثّنا قائلًا: «بسرعة، بسرعة». ثم قال له النَّمِر: «أمسكها بينما أداويها بنفسي». والحقّ أنها كادت تصرخ مثل البشر بالفعل! انطلقَت تقفز إلى خزائن الثياب، وتتلوَّى كالأفعى. وكم راحت تعوي! حضر ضابط الصفّ مورتي مذعورًا على وقع نباحها. رأى رِيشَة تقفز، فاستغرق في الضحك حتى طفرَت الدموع من عينَيْه، وقال: «يا للأوغاد، يا للأوغاد!». ولكن أغرب ما في الأمر أن الكلبة قد برئت. ونما شعرها من جديد، بل ويُخيَّل إليَّ أن وزنها قد زاد. مِن المُؤكَّد أنها حسبَتني قد نثرتُ الفلفل الحريف على بشرتها حتى أداويها. تفتقر الحيوانات إلى الذكاء، ولا يدري المرء أي أفكار قد تخطر على بالها. ولكنها صارت تتبعني أينما ذهبت منذ ذلك اليوم، فتتسلَّل بين ساقَي وأنا في الطابور، ولا تسمح لي بأن أصطفّ. حتى في قاعة الطعام صارت تقبع تحت مقعدي وتهزّ ذيلها لعلّني ألقي إليها شيئًا مِن بقايا الطعام، وتنتظرني عند باب الفصل وفي أوقات الراحة، فلا تكاد تراني حتى تهزّ خطمها وأذنَيْها، كما صارت تصعد إلى فراشي ليلًا، وتمرِّر لسانها على وجهي كاملًا. كنتُ أضربها لمُجرَّد المتعة، فتغادر، ولكنها تعود مرة أخرى، وتتأمَّلني بعينَيْها، «أتضربني في هذه المرة أم لا؟ ها أنا أقتربُ منك

قليلًا، ثم أبتعد، لن تركلني في هذه المرة»، يا لها مِن داهية! بدأ الجميع يسخرون مني قائلين: «إنك تضاجع الكلبة، أيها المجرم!». لم يكُن كلامهم صحيحًا آنذاك، ولم يكُن قد خطر لي على بال أن أضاجع كلبة حتى ذلك الوقت. في البدء شعرتُ بالغضب من تلك الحيوانة شديدة اللزوجة، ثم اتَّفق لي أن داعبت رأسها في بعض المرات، فاكتشفتُ المتعة الكامنة في ذلك. صارت تعتلي جسدي في الليل، وتتقلَّب، فلا تسمح لي بالنوم حتى أداعب عنقها بأصابعي، وألاطفها قليلًا، وعندئذ تهدأ. أما تلك الأمور التي جرَت في الليل، فهي مُجرَّد حيل مِن الكلبة. كان الآخرون يسمعون صوتها وهي تتحرَّك، فيسخرون مني جميعًا، «حسبكَ يا كوبرا، اتركْ تلك الكلبة في سلام، سوف تخنقها»، آه، يا للوغدة، يروق لكِ هذا، أليس كذلك، تعالي، دعيني أحكّ رأسكِ وبطنكِ الصغير، فلا تلبث رِيشَة أن تسكن كالحجر، ولكني أحسّ بها تحت يدي ترتعش مِن فرط اللذة. ولا أكاد أتوقَّف عن حكِّ جسدها ثانية واحدة حتى تنتفض، فأراها في العتمة وقد فتحَت فمها كاشفةً أسنانها شديدة البياض. لا أدري السبب الذي يجعل أسنان الكلاب ناصعة البياض إلى هذا الحدّ، ولكن هكذا حال الكلاب جميعًا، فلم يحدث قطّ أن رأيت كلبًا بسنٍّ سوداء، ولا أذكر أنني قد سمعتُ عن كلبٍ سقطَت إحدى أسنانه أو نخرها السوس حتى اقتضَت الضرورة خلعها. إنها سمة غريبة في الكلاب. ومن الغريب أيضًا أنها لا تنام. ظننتُ الأمر يقتصر على رِيشَة، وإن قيل لي في وقت لاحق إن الكلاب كلها هكذا، لا تنام، بل إنها تبيت ليلها ساهرة. في البدء أورثني الأمر شعورًا بالارتياب، وقليلًا مِن الذعر أيضًا، فأنا لا أكاد أفتح عينَيّ حتى أراها هناك، ناظرة إليّ. بل إنني قد عجزتُ عن النوم في بعض الأحيان، وقد استحوذَت عليَّ الفكرة التي حدَّثتني أن الكلبة تبيت

ليلها جانبي من دون أن يغمض لها جفن. وذلك شيء خليقٌ بأن يورث المرء شعورًا بالتوتُّر: أن يتلصَّص عليه الآخرون. حتى لو كانت المُتلصِّصة كلبة لا تفهم شيئًا. وإن ظهر عليها أنها تفهم في بعض الأحيان.

*

دار ألبِرتو على عقبَيْه ونزل. بلغ درجات السلَّم الأولى، فالتقى رجلًا مُتقدِّمًا في العمر. تراءى وجهه مهزولًا، وعيناه مفعمتَيْن بالجزع.

- سنيور. -ناداه ألبِرتو.

كان الرجل قد صعد بضع درجات، فتوقَّف مُلتفِتًا إليه.

- معذرة. -قال ألبِرتو- هل أنت من أقرباء الطالب ريكاردو آرانا؟

تأمَّله الرجل مليًّا، وكأنه يحاول أن يميِّزه.

- أنا والده. -قال- لماذا تسأل؟

صعد ألبِرتو درجتَيْن، فتلاقَت عيناهما على ارتفاع واحد. أمعن والد آرانا النظر إليه. اصطبغَت أجفانه ببقعٍ زرقاء، وشفَّت حدقتاه عن قلق، وسهر.

- هل يمكنك أن تخبرني بحال آرانا؟ -سأل ألبِرتو.

- إنه في الحجر الصحي. -أجاب الرجل، بصوتٍ أجش- لا يسمحون لنا برؤيته. حتى نحن! لا يحقّ لهم ذلك. هل أنت صديق له؟

- كلانا في قسم واحد. -قال ألبِرتو- أنا أيضًا لم يُسمَح لي بالدخول.

أومأ الرجل، الذي بدا مُثقَلًا بالأحمال. ألقَت لحيته الخفيفة

بظلِّها على خدّه وذقنه، وبدَت ياقة القميص مُجعَّدة، مُلوَّثة، وربطة العنق مُتهدِّلة بعض الشيء، مشدودة بعقدة صغيرة إلى درجة الهزل.

- لم أتمكَّن من رؤيته سوى لحظات. -قال الرجل- رأيتُه وأنا واقف على أعتاب الحجرة. لا يليق بهم أن يفعلوا شيئًا كهذا.

- وكيف حاله؟ -سأل ألبِرتو- بِمَ أخبرك الطبيب؟

رفع الرجل يدَيْه إلى جبينه، ثم مسح فمه بمفاصل أصابعه.

- لا أدري. -قال- لقد خضع لجراحتَيْن. تكاد أمُّه تفقد عقلها. لا أفهم كيف أمكن أن يقع شيء من هذا القبيل، الآن بالتحديد، والعام على وشك الانتهاء. خير لي ألَّا أفكِّر في ذلك، إنها أفكار حمقاء. لا ينبغي لنا سوى الابتهال. مِن المُؤكَّد أن الرَّب سوف يكتب له الخروج مِن هذه التجربة سليمًا معافى. أمُّه في كنيسة المدرسة الآن. ولقد أخبرنا الطبيبُ باحتمال أن نتمكَّن من رؤيته الليلة.

- سوف ينجو. -قال ألبِرتو- إن أطباء المدرسة هم الأفضل، سنيور.

- أجل، أجل. -قال الرجل- لقد أعطانا السيد الرائد أملًا عظيمًا. إنه رجل في غاية المودّة. الرائد غارّيدو، أعتقد. كما أبلغنا سلامَ الكولونيل، أتدري؟

مسح الرجل بيده على وجهه مرة أخرى. ثم فتَّش في جيبه، وأخرج علبة سجائر، قدَّم واحدة منها إلى ألبِرتو، الذي اعتذر. دسّ الرجل يده في جيبه مرة أخرى، فلم يعثر على أعواد ثقاب.

- انتظرْ لحظة. -قال ألبِرتو- سأحضِر لك أعواد ثقاب.

- سأذهب معك. -قال الرجل- لا فائدة من البقاء هنا، جالسًا في الرواق، حيث لا أجد مَن أتحدَّث إليه. لقد أمضيتُ يومَيْن على

هذه الحال، واحترقَت أعصابي تمام الاحتراق. عسى أن يدفع الرَّبُّ عنا كلَّ مصيبة جلل.

خرجا مِن المستوصف، فوجدا الجندي المناوب في المكتب الصغير عند المدخل. نظر الجندي إلى ألبِرتو مُتفاجِئًا، ومدّ رأسه قليلًا، غير أنه لم يقُل شيئًا. كان الظلام قد خيَّم. قطع ألبِرتو الأرض الخلاء مُتَّجِهًا إلى لاپرليتا، فتراءت مصابيح الثكنات عن بُعْد. بينما غرق بناء الفصول في الظلام. ولم يُسمَع صوت واحد.

- هل كنتَ معه عندما وقعَت الحادثة؟ -سأل الرجل.

- نعم. -قال ألبِرتو- ولكني لم أكُن بالقرب منه، بل في أقصى الطرف المقابل. الرائد هو الذي رآه، بعد أن وصلنا نحن إلى التلة.

- إنه لشيء مُجحِف. -قال الرجل- عقاب مُجحِف. نحن مِن الناس الشرفاء. نذهب إلى الكنيسة كل أحد، ولم نؤذِ أحدًا، كائنًا مَن كان. أمُّه تواظب على الأعمال الخيرية دائمًا. لماذا ابتلانا الرَّب بهذه المصيبة؟

- جميع أفراد القسم في غاية القلق. -قال ألبِرتو. وبعد هنيهة من الصمت، أردف قائلًا-: نشعر ببالغ الأسف. إنه رفيق عظيم.

- أجل. -قال الرجل- ليس بالفتى السيئ. لقد صنعتُه بنفسي، أتدري؟ اقتضَت الضرورة أن أقسو عليه قليلًا من حين إلى آخر. ولكني فعلتُ ذلك لمصلحته. لقد شقّ عليَّ كثيرًا أن أجعل منه رجلًا. إنه ابني الوحيد، وكل ما أفعل مِن أجل مصلحته. ومستقبله. هلَّا حدَّثتَني عنه؟ عن حياته في المدرسة. ريكاردو شديد التحفُّظ. لم يخبرنا بأي شيء. ولكنه لم يبدُ سعيدًا في بعض الأحيان.

- الحياة العسكرية على قدر من القسوة. -قال ألبِرتو- يصعب على المرء أن يألفها. لا أحد يسعد بها كثيرًا في أول الأمر.

- ولكنها قد أفادته. -قال الرجل، مُنفعِلًا- لقد حوَّلَته،

وجعلَت منه شخصًا آخر. لا أحد ينكر ذلك، لا أحد. أنت لا تعلم كيف كان في طفولته. لقد تهذَّب في هذا المكان، وصار مسؤولًا. وذلك ما سعيتُ إليه، أن يغدو أشدّ رجولةً، وأقوى شخصيةً. ولو أراد أن يترك المدرسة، كان في يده أن يخبرني بذلك. طلبتُ منه أن يلتحق بالمدرسة العسكرية، فوافق. لستُ أنا الملوم في ما حدث. لقد فعلتُ كل ما فعلتُ من أجل مستقبله.

- هوِّن عليك، سنيور. -قال ألبِرتو- لا تقلق. أنا مُتأكِّد مِن أن المرحلة الأسوأ قد انتهَت.

- أمّه تلقي عليَّ باللائمة. -قال الرجل، وكأنه لا يسمعه- هكذا هن النساء، مجحفات، لا يتفهَّمن الأمور. ولكن ضميري مرتاح. لقد ألحقتُه بهذه المدرسة حتى أجعل منه كائنًا قويًا، ورجلًا مرموقًا. أنا لستُ عرَّافًا. أتعتقد بأنني أنا الملوم، هكذا، بلا سبب؟

- لا أدري. -قال ألبِرتو، وهو في حيرة مِن أمره- أعني، بالطبع لا. الأهمّ أن يتعافى آرانا.

- أنا في غاية التوتُّر. -قال الرجل- لا تلقِ إليَّ بالًا، فأنا أفقد زمام نفسي أحيانًا.

وصلا إلى لابِرليتا، فوجدا پاولينو خلف منضدة البيع، مستندًا برأسه إلى يدَيْه. نظر إلى ألبِرتو وكأنه يراه لأول مرة.

- علبة أعواد ثقاب. -قال ألبِرتو.

نظر پاولينو إلى والد آرانا مُرتابًا.

- لا تُوجَد. -قال.

- ليسَت لي، بل إنها للسنيور.

ومن دون أن ينبس بكلمة واحدة، التقط پاولينو علبة أعواد ثقاب مِن أسفل المنضدة. أضرم الرجل ثلاثة أعواد في محاولة مِنه لإشعال

السيجارة. وعلى ذلك الوميض الخاطف، رأى ألبِرتو يدَي الرجل ترتجفان.

- أعطِني قهوة. -قال والد آرانا- أتريد أن تشرب شيئًا؟

- لا تُوجَد قهوة. -قال پاولينو، بصوت يشي بالضجر- كولا، إن شئت.

- حسنًا. -قال الرجل- كولا... أي شيء.

*

نسِي تلك الظهيرة الهادئة، التي خلَت من الشمس والرذاذ، حين ترجَّل عن ترام ليما-سان ميغيل، في محطة سينما البرازيل، التي تسبق المحطة الأقرب إلى بيته. لطالما نزل من الترام هناك، فهو يفضِّل أن يقطع تلك المربعات السكنية العشرة سيرًا على قدمَيْه، حتى وإن كان الجو ماطرًا، مع أنه ليس مُضطَرًّا إلى ذلك، لمُجرَّد أن يطيل المسافة التي تفصل بينه وبين اللقاء المحتوم. كانت آخر مرة يقطع فيها تلك الرحلة، إذ انتهَت الاختبارات في الأسبوع الماضي، وتسلَّم النتائج من فوره. ماتَت المدرسة، ولن تعود إليها الحياة قبل ثلاثة أشهر. سُرّ زملاؤه بفكرة الإجازة. أما هو، فلقد استبدّ به الخوف. لأن المدرسة ملاذه الوحيد. ولسوف يُغرِقه الصيف في جمودٍ محفوف بالأخطار، حيث يبقى تحت رحمتهما.

تابع سيره عَبْر جادة البرازيل حتى وصل إلى المنتزه، بدلًا مِن أن يتَّخذ جادة سالابيري. جلس على إحدى الدكك، وغاص بيدَيْه في جيبَيْه. انكمش قليلًا، وظلّ جامدًا. أحسّ بأنه عجوز. مضَت الحياة رتيبة، خالية مِن المُحفِّزات، وصارت حملًا ثقيلًا على عاتقه. كان زملاؤه في الفصل يمزحون حالما يوليهم المُعلِّم ظهره: فيلوي بعضهم قسمات وجهه لإضحاك الآخرين، ويتراشقون بكريّات الورق، ويتبادلون الابتسامات. بينما يراقبهم هو بجدية بالغة،

مستغرقًا في الحيرة: لماذا لا يستطيع أن يكون مثلهم؟ لماذا لا يستطيع أن يعيش بلا قلق، وأن يحظى بالأصدقاء والأقرباء المُحبِّين؟ أغمض عينَيْه، وظلّ وقتًا طويلًا على تلك الحال، مُفكِّرًا في تشيكلايو والخالة آديلينا واللهفة السعيدة التي كانت تغمره وهو ينتظر مجيء الصيف في الطفولة. ثم نهض، وسار إلى بيته، خطوة خطوة.

وقبل أن يصل بمربع سكني واحد، أحسّ بقلبه ينقبض في صدره: حين وجد السيارة الزرقاء قد صُفَّت عند الباب. هل فقد إحساسه بالزمن؟ سأل أحد المارة عن الساعة. كانت الحادية عشرة. ولكن أباه لا يرجع إلى البيت قبل الواحدة أبدًا. مشى يحثّ الخطى. وعندما وصل إلى عتبة الباب، سمع أبوَيْه، يتجادلان. «سأقول إن عربة الترام قد خرجَت عن مسارها، فاضطُرِرتُ إلى العودة سيرًا مِن ماغدالينا بيبخا»، أخذ يفكِّر، رافعًا إصبعه إلى الجرس.

فتح والده الباب. جاء باسمًا، وقد خلَت عيناه مِن كل أثر للغضب. ومن الغريب أنه قد ربَّت على ذراعه بمودةٍ قائلًا، في ما يشبه البهجة:

- أخيرًا وصلت. كنتُ أتحدَّثُ عنك الآن، أنا وأمّك. ادخل، ادخل.

خامره شعورٌ بالهدوء، وما لبث أن التوى وجهه راسمًا تلك الابتسامة البلهاء، العاجزة، اللاشخصية، التي تمثِّل أقوى دروعه. كانت أمّه في الصالة. عانقَته بحنان، فاضطربَت نفسه: لأن مظاهر المشاعر الفيَّاضة قد تعكِّر مزاج أبيه الرائق. في الشهور الأخيرة، صار أبوه يرغمه على التدخُّل بصفته مُحكِّمًا أو شاهدًا في الخلافات الأسرية، وذلك شيء مُهين، فظيع: إذ اضطُرّ إلى الردّ بالإيجاب، «نعم، نعم»، على كل الأسئلة التوكيدية التي يطرحها عليه أبوه، والتي تمثِّل اتهامات خطيرة ضد أمّه، اتهامات بالتبذير، والفوضى،

وعدم الكفاءة، والانحراف. ما الشيء الذي يُضطرّ إلى أن يشهد عليه في هذه المرة؟

- انظر... -قال أبوه في مودّة- على الطاولة شيء مِن أجلك.

التفت بعينَيْه: فرأى على غلاف الكُتيِّب واجهةً ضبابية لبناء ضخم، وبالأسفل رأى نصًّا مكتوبًا بالحروف الكبيرة، وَرَد فيه: «مدرسة ليونسيو پرادو، أكثر مِن مُجرَّد بوابة إلى السلك العسكري». مدّ يده، والتقط الكتيِّب. قرَّبه مِن وجهه وبدأ يتصفَّحه مُتوجِّسًا: رأى ملاعب كرة قدم، ومسبحًا نظيفًا، وقاعات طعام، ومهاجع خالية، نظيفة، مُرتَّبة. وعلى الصفحتَيْن المتقابلتَيْن في منتصف الكتيِّب، ظهرَت صورةٌ مشرقة يبدو فيها تشكيلٌ تساوَت صفوفه على أكمل وجه، أمام إحدى المنصَّات. في حين ظهر طُلَّاب العسكرية بقبعاتهم البيضاء وشاراتهم المُذهَّبة وهم يحملون بنادقهم التي تنتهي أطرافها بالحراب. بينما تعالَت راية مائجة فوق الصاري.

- ألا يبدو لك هذا رائعًا؟ -سأل الأب، فجاء صوته مفعمًا بالمودّة طوال الوقت. ولكنه يعرف صوت أبيه بالقدر الذي جعله ينتبه إلى ذلك التبدُّل شديد الخفَّة الذي طرأ على النبرةِ وعلى مخارج الحروف، ذلك التبدُّل الذي جاء يخفي وراءه تحذيرًا مُبطَّنًا.

- حقًّا. -قال من فوره- يبدو رائعًا.

- طبعًا! -قال الأب. وسكت هنيهةً، ثم التفت إلى الأمّ-: ألا ترين؟ ألم أقُل لكِ إنه سوف يكون أول المُتحمِّسين؟

- لا أوافق. -أجابَت الأمّ في وهن، مِن دون أن تنظر إليه- لو شئتَ أن تلحقه بتلك المدرسة، فافعل ما بدا لك. ولكن لا تطلب رأيي. لا أوافق على التحاقه بمدرسة عسكرية داخلية.

رفع عينَيْه.

- مدرسة عسكرية داخلية؟ -توهَّجَت حدقتاه- ذلك شيء رائع، ماما، يروقني هذا كثيرًا.

- أوه، يا للنساء! -قال الأب، مُشفِقًا- كلهن سواء. غبيَّات وعاطفيَّات. لا يفهمن شيئًا أبدًا. هيَّا يا فتى، اشرح لهذه المرأة أن الالتحاق بالمدرسة العسكرية أكثر ما يلائمك.

- إنه لا يعرف حتى عمَّا تتحدَّث. -تلعثمَت المرأة.

- بلى، أعرف. -أجاب وقد اشتعلَت حماسته- إنه أكثر ما يلائمني. لطالما قلتُ لكِ إنني أودّ الذهاب إلى مدرسة داخلية. بابا على حقّ.

- يا فتى. -قال الأب- تحسبك أمّك غبيًّا، عاجزًا عن التفكير المنطقي. هل أدركتَ الآن كم أضرَّت بك أمّك؟

- لا بدّ أنه شيء عظيم. -مضى يردِّد- عظيم.

- حسنًا. -قالت الأمّ- بما أنه لم يعُد هناك ما نتجادل بشأنه، سوف ألزم الصمت. ومع ذلك، أؤكِّد أنني لا أوافق.

- لم أطلب رأيك. -قال الأب- أنا الذي أبتُّ في هذه الأمور. كل ما هنالك أنني أخبركِ بقراري.

هبَّت المرأة واقفة، وخرجَت من الصالة. سرعان ما هدأ الرجل.

- أمامك شهران للاستعداد. -قال له- لا بدّ أن اختبارات القبول صعبة، ولكنك لست غبيًّا، ولن تواجهك صعوبة في اجتياز الاختبارات. أليس كذلك؟

- سأجتهد في الدراسة. -تعهَّد له- وسأبذل قصارى جهدي للالتحاق بالمدرسة.

- أحسنت. -قال الأب- سوف أسجِّلك بإحدى الأكاديميات، وأشتري لك نماذج الأسئلة، وإن كلَّفني ذلك مِن المال الكثير، الأمر

يستحقّ العناء. إنه لمصلحتك. سوف يجعلون منك رجلًا في المدرسة العسكرية. ما زالت الفرصة سانحة لتقويمك.

- أنا مُتأكِّد مِن اجتياز الاختبارات بنجاح. -قال- مُتأكِّد.

- حسنًا، لا حاجة إلى أن تقول كلمة واحدة بعد ما قلت. هل أنت سعيد؟ ثلاثة أعوام مِن الحياة العسكرية سوف تجعل منك شخصًا آخر. إن العسكريين يتقنون صنع الأمور. سوف يهذِّبونك روحًا وجسدًا. ليتني قد وجدتُ مَن يهتمّ بمستقبلي كما أهتمُّ أنا بمستقبلك!

- أجل. شكرًا، شكرًا جزيلًا. -قال. وما هي إلَّا ثانية حتى أردف، لأول مرة-: يا بابا.

- اليوم يمكنك أن تذهب إلى السينما بعد الغداء. -قال الأب- سوف أعطيك عشرة صولات.

*

يخيِّم الحزن على رِيشَة في أيام السبت. لم تكُن هكذا في ما سبق. بل إنها كانت ترافقنا خلال التدريبات الميدانية، فتركض وتقفز كلَّما سمعَت دويّ الأعيرة النارية تمرّ قريبةً منها، وتنطلق في كل مكان، وتغدو أشدّ حماسةً منها في باقي الأيام. وبعد ذلك أصبحَت رفيقتي، فتبدَّلَت الحال. الآن صارت تتصرَّف بشيء مِن الغرابة أيام السبت، فتلتصق بي كالمغناطيس، وتسير قرب قدمَيّ، وتلحسني بلسانها، وتنظر إليّ والقذى في عينَيْها. قبل حينٍ لاحظتُ أنها -كلَّما رجعنا مِن التدريبات الميدانية في طريقنا إلى الحمامات، وكلَّما عدنا بعد ذلك إلى الثكنة حتى نرتدي زيّ الخروج- تتسلَّل أسفل الفراش أو تغوص في خزانة الثياب وتبدأ في النحيب بصوت خفيض، وتبكي حزنًا لأنني على وشك الخروج. وتستمرّ في النحيب بصوت خفيض عندما نصطفّ، ثم تتبعني خافضةً رأسها، كالروح المُعذَّبة. تقف أمام

باب المدرسة رافعة خطمها، ناظرةً إليّ، فأحسّ بنظراتها عن بعد، حتى عندما أكاد أصل إلى جادة لاسپالميراس، أحسّ بريشَة ما زالت عند باب المدرسة، أمام نقطة الحراسة، تنظر إلى الطريق الذي ذهبتُ منه، وتنتظر. وعلى الرغم من ذلك، فهي لم تحاول أن تتبعني إلى خارج المدرسة قطّ، مع أن أحدًا لم يطلب منها البقاء في الداخل، يبدو أنه شيء يخصّها وحدها، وكأنما قد أخذَت على نفسها عهدًا بأن تبقى في المدرسة. ذلك أيضًا شيء غريب. ولكني كلَّما عدتُ إلى المدرسة، في ليالي الأحد، وجدتُ الكلبة عند الباب، وقد استبدّ بها التوتُّر، وراحت تركض وسط الطُّلَّاب الوافدين بخطمها الذي لا يهدأ. تتحرَّك وتتشمَّم، فأعرف أنها قد اشتمَّت رائحتي عن بعد، لأنني أسمع صوتها وهي تقترب نابحةً، فلا تكاد تراني حتى تقفز، ويتنصب ذيلها، ويتلوَّى جسدها كاملًا مِن فرط السرور. إنها كلبة في غاية الوفاء، أشعر بالأسى لأنني قد آذيتُها. مع أنني لم أحسن معاملتها دائمًا، فكثيرًا ما ضربتُها لمُجرَّد أنني أشعرُ بالغمّ، أو على سبيل اللهو. لا يمكن الزعم بأن رِيشَة قد غضبَت مني، بل إنها كانت تبدو مستمتعة بذلك، مِن المُؤكَّد أنها قد حسبَتني أداعبها.
«اقفزي يا رِيشَة، لا تخافي!»، أطلَّت الكلبة مِن مكانها فوق خزانة الثياب، حيث راحت تزمجر وتنبح، ناظرةً في ذعر، مثل ذلك الكلب الذي سقط عن حافة الدَّرَج. «اقفزي، اقفزي يا رِيشَة!»، غير أنها لم تحسم أمرها، فجئتُ أنا مِن الخلف، ودفعتها دفعةً خفيفة، فهوَت الكلبة مِن فوق الخزانة، وانتصب شعرها، واصطدمَت بالأرض. ولكنها كانت مزحة، فلا أنا أخذَتني بها شفقة، ولا رِيشَة قد ساءها ما حدث، على الرغم مِن الألم. أما ما فعلتُ بها اليوم، فشيء مختلف، لأنني قد بطشتُ بها، عن عمد. لا يمكن الزعم بأنني أنا الملوم في كل شيء. لا بدّ مِن وضع الأمور التي وقعَت في

الحسبان. إن ما حدث لكابا، ذلك الخلاسي المسكين، شيء خليق بأن يشدّ الأعصاب ويتركها كالأسلاك. أضفْ إلى ذلك ما حدث للعَبْد الذي أصيب بالرصاص في رأسه، مِن الطبيعي أن تحترق أعصابنا جميعًا. وفوق ذلك، لا أدري لأي سبب أرغمونا على ارتداء الزيّ الأزرق تحت شمس الصيف بالتحديد، فمضينا نتفصَّد عرقًا كلنا، وأُصِبنا بالغثيان. متى يُحضِرونه، وبأي حال، أتراه قد تغيَّر بعد كل هذه الأيام التي أمضاها حبيسًا، لا بدّ أنه قد هزل، لعلّهم لم يقدِّموا إليه سوى الخبز والماء، وهو الذي قد زُجّ به في تلك الحجرة طوال اليوم، مع رجال مجلس الضُبَّاط، حيث لم يُسمَح له بالخروج إلَّا ليقف في وضع الانتباه أمام الكولونيل والنقباء، أتخيَّل الأسئلة، والصيحات، لا بد أنهم قد اعتصروه تمامًا. لماذا تكتَّم الأمر، مع أنه جَبَلي. لقد تصرَّف كما يليق بالرجال، فلا نطق بكلمة واحدة، ولا اتَّهم أحدًا بشيء، بل إنه قد تحمَّل المأزق وحيدًا، أنا الفاعل، أنا الذي سرقتُ اختبار الكيمياء، وحدي، ولم يعرف أحد بما وقع، حطَّمتُ الزجاج، بل إنني قد خدشتُ يدَيّ، انظروا إلى الخدوش. ثم أُعيد مرةً أخرى إلى نقطة الحراسة، في انتظار أن يمرِّر له الجندي طعامه مِن خلال النافذة -أتخيَّلُ أي صنف مِن الطعام كان يُقدَّم إليه، طعام الجنود- ولا أتصوَّر كيف يلقاه أبوه متى عاد كابا إلى الجبال قائلًا: «لقد طُرِدت». لا بدّ أن أباه في غاية الوحشية، الجَبَليون كلهم في غاية الوحشية. في المدرسة الابتدائية عرفتُ صديقًا مِن پونو، كان أبوه يرسله إلى المدرسة وعلى جسده آثار ضربات الحزام المُروِّعة أحيانًا. لا بدّ أن كابا الجَبَلي قد مرّ بأيام شديدة السواد. أشفقُ عليه. مِن المُؤكِّد أنني لن أعاود رؤيته أبدًا. هكذا هي الحياة، أمضينا ثلاثة أعوام معًا، وها هو الآن يذهب إلى الجبال، ولن يستأنف الدراسة، بل إنه سوف يبقى هناك، حيث

يعيش مع الهنود وحيوانات اللاما، ويغدو مزارعًا فظًّا. ذلك أسوأ ما في هذه المدرسة، الطالب المطرود لا يستفيد بالأعوام التي أمضاها في الدراسة، لقد فكَّر أولئك الأوغاد مليًّا في الطريقة المثالية لتنغيص عيش الطُلَّاب. لا بدّ أن الجَبَلي قد تكبَّد صعابًا شديدة في هذه الأيام. طُلَّاب القسم كلهم قد فكَّروا في ذلك، وأنا أيضًا، حين أرغمونا على ارتداء الزيّ الأزرق، والوقوف في الفناء، تحت هذه الشمس الحارقة، في انتظار أن يأتوا به. ما كان المرء يقوى على رفع رأسه، وإلَّا طفرَت الدموع مِن عينَيْه. جعلونا ننتظر حينًا، مِن دون أن يحدث شيء. ثم حضر الملازمون بزيّ المناسبات، وحضر العميد. وإذا بالكولونيل يصل فجأة، فاتَّخذنا وضع الانتباه. ذهب الملازمون ليقدِّموا إليه التقرير، وأي قشعريرة سرَت في أبداننا آنذاك. شرع الكولونيل يتحدَّث، فعمَّ صمتٌ مطبق، حتى كان المرء ليخشى أن يسعل. وإن لم يقتصر الأمر على الخوف. إذ خيَّمَت علينا مشاعر الحزن أيضًا، ولا سيما أفراد القسم الأول، علمًا منا أنهم بعد قليل سوف يُحضِرون شخصًا عاش معنا زمنًا طويلًا، فتى رأيناه مُجرَّدًا مِن الثياب مرات كثيرة، وشاركناه أمورًا كثيرة. وحدهم أصحاب القلوب المُتحجِّرة تتبلَّد مشاعرهم في مثل هذا الموقف. شرع الكولونيل يتكلَّم بصوته الرفيع المُخنَّث. امتقع مِن فرط الغضب، وأخذ يقول أمورًا مُروِّعة عن الجَبَلي، والقسم، والفرقة، والعالم أجمع، وعند ذاك انتبهتُ إلى رِيشَة التي راحت تنهش حذائي مرة تلو أخرى. اذهبي يا رِيشَة، اغربي عن وجهي أيتها الكلبة الجرباء، اذهبي وانهشي رباط حذاء الكولونيل، ابقي هادئة، لا تستغلّي اللحظة لتستفزّي صبري. ما كنت لأستطيع أن أركلها ولو ركلة خفيفة حتى أصرفها عني، لأن الملازم أوارينا وضابط الصفّ مورتي قد اتَّخذا وضع الانتباه على مسافة تقلّ عن متر واحد، ولو تنفَّستُ سمعا

صوت أنفاسي. أيتها الكلبة، لا تستغلّي الوضع. باسم يسوع المسيح، انصرف أيها الوحش القبيح. ومع ذلك، لم تكفّ عما هي فاعلة، لم أرَها عنيدة إلى هذا الحدّ يومًا، مضَت تشدّ رباط البيادة وتشدّه حتى تركَته مُمزَّقًا، وأحسستُ بقدمي صغيرةً داخل البيادة. ولكني قلتُ في نفسي إنها قد نالت مرادها، والآن تنصرف، لماذا لم تغربي عن وجهي يا رِيشَة، أنت الملومة على كل شيء. بدلًا من أن تهدأ، طفقَت الكلبة تخرِّب فردة البيادة الأخرى، وكأنها قد أدركَت أنني لا أستطيع أن أتحرَّك ولو ميليمترًا واحدًا، أو حتى أنظر إليها أو أسبّها. وفي تلك الأثناء جِيء بكابا الجَبَلي، الذي حضر سائرًا بين جنديَّيْن، وكأنه على وشك أن يُعدَم رميًا بالرصاص، وتراءى وجهه في غاية الشحوب. أحسستُ بمعدتي تنقبض، وبطعم مرير في حلقي، وبشيء مؤلم جدًّا. أما الجَبَلي، الذي اصفرّ وجهه، فأخذ يسير في المكان بين الجنديَّيْن، الجَبَليَّيْن أيضًا. كان لثلاثتهم الوجه نفسه، حتى بدا وكأنهم ثلاثة توائم، وإن تراءى وجه كابا مُصفَرًّا. جاؤوا مِن خلال منصة العرض، والكل شاخصٌ إليهم. دار كلٌّ منهم على عقبَيْه، وأخذ ثلاثتهم يسيرون في المكان، أمام الفوج، على بُعد أمتار قليلة مِن الكولونيل والملازمين. رحتُ أتساءل «ما بالهم لم يتوقَّفوا عن السير في المكان»، ثم أدركتُ أنهم لا يعرفون ما العمل أمام الضبَّاط، لا هو ولا الجنديان، في حين لم يخطر على بال أحد أن يقول «مكانك قف». حتى كان أن تقدَّم غامبوا مُشيرًا إليهم بيده، فاتَّخذ ثلاثتهم وضع الانتباه. تراجع الجنديان وتركاه على المذبح وحيدًا. لم تواتِه الجرأة على النظر في أي اتجاه. لا تتعذَّب يا أخي، فإننا، نحن أفراد الحَلْقَة، نقف معك بقلوبنا، ولسوف ننتقم مِن أجلك ذات يوم. قلتُ في نفسي: «الآن يجهش بالبكاء». لا تبكِ أيها الجَبَلي، وإلَّا أسعدتَ أولئك الأنذال، تحمَّل في ثبات، في شموخ،

في وضع الانتباه، ولا ترتجف، حتى تلقِّنهم درسًا. ابقَ ساكنًا هادئًا، وسترى أن الأمر برمّته سرعان ما ينتهي، ابتسمْ قليلًا إن استطعتَ، وسترى كم يؤلمهم ذلك. أحسستُ بالقسم كاملًا وكأنه بركان يتوق إلى الانفجار. شرع الكولونيل يتحدَّث من جديد، ويقول للجَبَلي أمورًا أراد بها أن يحطِّم روحه المعنوية، ومضى يعذِّب الفتى بعد أن تمادوا في التنكيل به، وحدهم المُنحلّون يفعلون أشياء مِن هذا القبيل. أخذ الكولونيل يسدي إليه النصائح التي سمعناها جميعًا، ويقول له أن يغتنم الفرصة ويتعلَّم الدرس، ومضى يحكي له قصة حياة ليونسيو پرادو، الذي أمر التشيليون بإعدامه رميًا برصاص البنادق، فما كان منه إلَّا أن قال لهم: «أريد أن ألقِي الأمر بنفسي على فصيلة الإعدام». يا له مِن أحمق. ثم انطلق البوق، فذهب پيرانيا إلى كابا الجَبَلي، بعضلات فكَّيْه التي تختلج وتختلج، بينما رحتُ أنا أفكِّر «أكاد أبكي مِن فرط الغضب». وريشَة اللعينة ما زالت تنهش البيادة وتعضّ طرف السروال، سوف تدفعين الثمن يا ناكرة الجميل، سوف تندمين على ما اقترفتِ. تحمَّل أيها الجَبَلي، فالآن يأتي الأسوأ، وبعد ذلك تخرج إلى الشارع بهدوء، فلا مزيد مِن رجال العسكرية، ولا مزيد مِن الشارات، ولا مزيد مِن الحرس. ثبت الجَبَلي مكانه، وإن زاد شحوبًا على شحوبٍ، وابيضّ وجهه شديد الدكنة، وبات الناظر إليه عن بُعْد يرى ذقنه يرتجف. ولكنه ظلَّ يحتمل، فلا تراجع ولا أجهش بالبكاء عندما انتزع پيرانيا الشارات مِن قبعته وطية سترته، كما انتزع الشعار مِن جيبه، فتركه مُمزَّق الثياب تمامًا. ومرة أخرى، انطلق البوق، فوقف الجنديان إلى جانبَيْه، وشرع كلٌّ منهما يسير في المكان. بينما كاد الجَبَلي لا يرفع قدمَيْه عن الأرض. ثم اتَّجهوا إلى منصة العرض، فاضطُرِرت إلى النظر بطرف عيني حتى أراه وهو يسير مبتعدًا. عجز المسكين عن مواكبة

الإيقاع، ومضى يتعثَّر ويخفض رأسه بين حين وآخر، لا بدّ أنه كان يخفض رأسه حتى يرى كيف تمزَّق الزيّ العسكري. أما الجنديان الآخران، فتمادى كلاهما في رفع الساقَيْن في سيرهما حتى يراهما الكولونيل. وبعد ذلك حجب السور ثلاثتهم عن الأنظار، بينما رحتُ أفكِّر، انتظري يا رِيشَة، استمرّي في نهش السروال، الآن يحين دورك، وسوف تدفعين الثمن. ولكن صفوف الطُلَّاب لم تُصرَف لأن الكولونيل استأنف الحديث عن أبطال الوطن. لا بدّ أنكَ قد وصلتَ إلى الشارع أيها الجَبَلي، والآن تقف في انتظار الحافلة، ناظرًا إلى نقطة الحراسة للمرة الأخيرة، لا تَنْسَنا، وإن نسيت، فما زال أصدقاؤك هنا، أفراد الحَلْقَة، ولسوف ننتقم لك. لم تعُد طالبًا في المدرسة العسكرية، بل إنك صرتَ مدنيًّا مثل باقي المدنيين، قادرًا على الوقوف أمام ضابطٍ برتبة ملازم أو رائد، فلا تُضطَرّ إلى أن تؤدِّي له التحية العسكرية، أو تتنازل له عن مقعدك، أو تفسح له الطريق على الرصيف. يا رِيشَة، لماذا لا تقفزين وتنهشين ربطة العنق أو تعضّين أنفي أفضل، افعلي ما يحلو لكِ، فالبيتُ بيتكِ. كان القيظ مُروِّعًا، والكولونيل مُستمِرًّا في الكلام.

*

خرج ألبِرتو مِن بيته وقد بدأ الظلام يخيِّم، مع أن الساعة لم تتجاوز السادسة. استغرق ما لا يقلّ عن نصف ساعة في إصلاح هندامه، وتلميع حذائه، وترويض دوامة رأسه، ورفع مُقدَّم شعره. كما أزال ذلك الزغب الخفيف الذي ينمو فوق الشفة العليا وتحت السوالف بشفرة أبيه. ذهب إلى ناصية أوتشاران وخوان فانينغ، وأطلق صفيرًا. ما هي إلَّا ثوانٍ حتى أطلّ إميليو مِن النافذة وقد تأنَّق بدوره.

- الساعة الآن السادسة. -قال ألبِرتو- أسرع.

- أمامي دقيقتان.

نظر ألبِرتو إلى ساعته، ثم فرد طية السروال، وأخرج المنديل من جيب السترة مليمترًا واحدًا. اختلس نظرةً إلى صورته على زجاج النافذة: لقد أدَّى مُثبِّت الشعر مهمته بكفاءة، وما زالت التصفيفة متماسكة. خرج إميليو مِن باب الخدمة.

- في صالة بيتنا ضيوف، لأن والدَيّ أقاما وليمة غداء. -قال لألبِرتو- أوه، يا له مِن شيء مثير للغثيان، كلهم سكارى، ورائحة الويسكي تنبعث من كل ركنٍ في البيت. لعبَت الخمر برأس أبي، فكدَّرني، ورفض أن يعطيني المصروف، مُتظاهِرًا بالطرافة.

- أحملُ نقودًا. -قال ألبِرتو- أتريدني أن أقرضك؟

- لو ذهبنا إلى أحد الأمكنة، أجل. أما لو بقينا في منتزه سالاسار، فالأمر لا يستحقّ العناء. بالمناسبة، كيف حصلتَ على مصروفك؟ ألم يطَّلع والدك على درجاتك في المدرسة؟

- ليس بعد. وحدها أمّي قد اطَّلعَت عليها. سوف ينفجر أبي غضبًا. لم يسبق لي أن رسبتُ في ثلاث مواد دفعةً واحدة، إنها أول مرة. يجب عليَّ أن أقضي الصيف كاملًا في الدراسة. لن أتمكَّن مِن الذهاب إلى الشاطئ إلَّا قليلًا. يجب عليَّ ألَّا أفكِّر حتى في الأمر. لعلّه لا يغضب مني، ففي بيتنا خلافات شديدة.

- لماذا؟

- لم ينَم أبي في البيت ليلة أمس. بل إنه حضر صباح اليوم وقد اغتسل وحلق ذقنه. يا لجرأته!

- أجل، إنه رائع! -أومأ إميليو- يعرف عشرات النساء. وماذا قالت له أمّك؟

- رمَته بمنفضة السجائر، ثم انطلقَت تبكي وتصرخ. لا بدّ أن الجوار كاملًا قد سمع صوتها.

مشيا إلى جادة لاركو، عَبْر شارع خوان فانينغ. رآهما الياباني صاحب دكان عصائر الفاكهة الصغير الذي كانا يذهبان إليه قبل أعوام، ويلوذان به عقب مباريات كرة القدم، فحيَّاهما بإشارة مِن يده. أُضِيئَت مصابيح الشارع قبل قليل، ولكن الأرصفة ما زالت غارقةً في الظلال، إذ حجبَت أغصان الأشجار وأوراقها ضوء المصابيح. قطعا شارع كولون، فألقيا نظرةً على بيت لاورا، حيث تعوَّدَت فتيات الحيّ أن يجتمعن قبل الذهاب إلى منتزه سالاسار. لم تكُن الفتيات قد وصلن بعد: بل إن نوافذ الصالون قد غرقَت في العتمة.

- أعتقد بأنهن قد ذهبن إلى بيت ماتيلدي. -قال إميليو- كما ذهب بيبيه وپلوتو إلى هناك بعد الغداء. -ضحك- لا بدّ أن بيبيه قد فقد عقله حتى يذهب إلى منطقة لوسپينوس يوم الأحد. إن لم يرَه والدا ماتيلدي، فلا بدّ أن المشاغبين قد روَّعوه هو وپلوتو، الذي لا شأن له بالمسألة مِن بعيد أو من قريب.

ضحك ألبِرتو.

- لقد أحبّ تلك الفتاة بجنون. -قال- غرق في حبِّها حتى أذنَيْه.

كانت منطقة لوسپينوس تبعد عن الحيّ، وتقع على الجانب الآخر مِن جادة لاركو، وراء منتزه سنترال، بالقرب مِن مسارات الترام المُتَّجِهة إلى تشوريوس. قبل أعوام كانت تلك المنطقة تنتمي إلى الأرض المعادية، وإن تبدَّلَت الحال بمضي الزمن، ولم تعُد الأحياء تمثِّل مناطق محظورة. بات الغرباء يجوبون كولون وأوتشاران وشارع پورتا، ويزورون الفتيات، ويحضرون حفلاتهن، ويقعون في حبهن، ويدعونهن إلى السينما. وبالمثل صار لزامًا على أولاد المنطقة أن يهاجروا. في البدء ذهبوا في جماعات من ثمانية أو عشرة

أفراد لزيارة أحياء أخرى ضمن نطاق ميرافلوريس، الأحياء الأقرب إليهم، مثل الثامن والعشرين من يوليو، وشارع فرنسا، ثم الأحياء الأبعد، مثل أنغاموس وجادة غراو، حيث تعيش سوزوكي، ابنة الأميرال. بدأ بعضهم يواعدون فتيات من تلك الأحياء الأجنبية، وانضمّوا إليها، مع أنهم لم يتخلّوا عن وفائهم لدييغو فيرّيه. ولكن أحياء بعينها شهدَت مقاومة جاءت مُتمثِّلةً في: سخرية الرجال ومزاحهم مِن جهة، وصدّ النساء مِن جهة. أما في منطقة لوسپينوس، فكانت عدوانيةُ فتيان المنطقة تُترجَم إلى العنف. ذات ليلة، عندما بدأ بيبيه يحوم حول ماتيلدي، هاجمه بعض فتيان المنطقة وألقوا عليه دلوًا مِن الماء. وعلى الرغم مِن ذلك، فما زال بيبيه يداهم المنطقة ومعه فتيان آخرون مِن الحيّ، لأن ماتيلدي ليسَت هي الوحيدة التي تسكن هناك، بل إن غراسييلا ومولي قد سكنَتا في المنطقة نفسها، ولم تكُن أيٌّ منهما تواعد أحدًا.

- أليستا هما هاتَيْن الفتاتَيْن؟ -سأل إميليو.

- كلّا. هل عميت؟ إن هاتَيْن هما الأختان غارسيا.

وصلا إلى جادة لاركو، على بُعد عشرين مترًا من منتزه سالاسار. وهناك، مضى أفعوان يتقدَّم ببطء على الطريق، ويلتفّ حول نفسه أمام الممشى، ويغيب في بقعة السيارات التي صُفَّت على حافة المنتزه، ثم يظهر في أقصى الطرف الآخر منكمشًا: وهناك ينعطف ويخوض جادة لاركو في الاتجاه المقابل مِن جديد. جاء صوت الراديو مِن بعض السيارات، فسمع ألبِرتو وإميليو موسيقى الرقص وسيلًا مِن الأصوات الشابة والضحكات. اليومَ ازدحمَت بالناس أرصفةُ لاركو المترامية بامتداد منتزه سالاسار، على عكس أي يوم آخر مِن أيام الأسبوع. ولكن شيئًا مِن ذلك لم يلفت انتباههما: لأن المغناطيس الذي يجتذب أبناء ميرافلوريس دون

العشرين مساء الآحاد ما زال يجتذبهما منذ زمن مضى. لم يكونا غريبَيْن وسط هذا الحشد، بل إنهما جزء منه: فكلاهما أنيق، مُعطَّر، وكلاهما يمضي في سلام روحي، ويشعر بأنه وسط أفراد العائلة. ينظران حولهما فتلقاهما وجوه باسمة، وتتحدَّث إليهما أصوات بلغةٍ مألوفة. إنها الوجوه التي رأياها ألف مرة في مسبح نادي تيرَّاساس، وعلى شاطئ ميرافلوريس، وفي لاإرادورا، وفي نادي التجديف، وفي سينما ريكاردو پالما، لِوْرو أو مونتكارلو. إنها الوجوه التي تستقبلهم في حفلات السبت. ولكن فضلًا عن القسمات والبشرة واللفتات، فهما يعرفان أمورًا أخرى عن أولئك الشباب الذين يمضون هم أيضًا في طريقهم إلى موعد الأحد بمنتزه سالاسار، كما أنهما على اطلاع بمُستجَّدات حياتهم ومشكلاتهم وطموحاتهم، ويعرفان أن توني ليس سعيدًا على الرغم مِن السيارة الرياضية التي أهداه والده إياها بمناسبة أعياد الميلاد، لأن آنيتا مينديسابال، الفتاة التي أحبّها، مُراوغةٌ ومُدلَّلة، الشيء الذي لمحه أهل ميرافلوريس جميعًا في عينَيْها الخضراوَيْن المُظلَّلتَيْن بأهداب طويلة حريرية. ويعرفان أن بيكي ومانولو، اللذين مرَّا إلى جوارهما قبل قليل وقد أمسك كلٌّ منهما بيد الآخر، لم يمضِ على علاقتهما وقتٌ طويل، بل أسبوع واحد. ويعرفان أن پاكيتو يتعذَّب لأنه أضحوكة ميرافلوريس، بظهره الأحدب ووجهه الذي تنتشر فيه البثور. ويعرفان أن سونيا مسافرة إلى الخارج غدًا، وربما طال سفرها لأن والدها قد نُصِّب سفيرًا، ويعرفان أنها حزينة لأنها مُضطَرّة إلى هجر المدرسة والصديقات ودروس الفروسية. كما يعرف ألبِرتو وإميليو أن شعورًا مُتبادَلًا يجمعهما بأولئك الناس: فالآخرون أيضًا على اطلاعٍ بشؤونهما الخاصة. وفي غيابهما، يستحضر الآخرون بطولاتهما العاطفية وخيباتهما الغرامية، ويحلِّلون علاقاتهما الرومانسية،

ويأخذونهما بعين الاعتبار عند إعداد قوائم المدعوين إلى الحفلات. بل إن بيكي ومانولو يتحدَّثان عنهما في هذه اللحظة بالتحديد: «هل رأيت ألبِرتو؟ لقد وافقَت عليه إيلينا بعد أن رفضَته خمس مرات. وافقَت عليه في الأسبوع الماضي، ولكنها سوف تهجره الآن مرة أخرى. مسكين».

امتلأ منتزه سالاسار بالناس. ما إن يتخطَّى ألبِرتو وإميليو السياج المحيط بتلك المساحة المُربَّعة مِن النجيل المُشذَّب، التي تطوِّق نافورةً بها سمك أحمر وأصفر وتمثال بنيّ اللون، حتى تتبدَّل التعابير المرتسمة على وجهيهما، إذ تنفرج شفتا كلٍّ منهما قليلًا، وتنقبض وجنتاه، وتتألَّق عيناه، بينما يضطرب راسمًا شبح ابتسامة مطابقة لتلك التي تبدو على وجوه المارّة. تقف مجموعات مِن الشباب الذين يستندون إلى سور كاسر الأمواج، مِن حيث يتأمَّلون ذلك الترس البشري الذي يدور على حواف مساحة النجيل المُربَّعة مُقسَّمًا إلى خطوط تسير في اتجاهات متقابلة. يحيّي أزواج العُشَّاق بعضهم بعضًا، بتحيةٍ لا تبدِّل شبه الابتسامة الجامدة على الوجوه، فإن هي إلَّا إيماءة بالحاجب والأجفان، حركة خاطفة آلية تترك الجبين مُقطَّبًا للحظةٍ، إقرار بوجود الآخر أكثر مِن كونه تحية، وكأنها كلمة السرّ. يدور ألبِرتو وإميليو حول المنتزه دورتَيْن، فيميِّزان الأصدقاء والمعارف والدخلاء القادمين مِن ليما وماغدالينا وتشوريوس لتأمُّل الفتيات اللاتي يذكِّرنهم بمُمثِّلات السينما من دون شكّ. ومِن نقاط المراقبة التي يتَّخذها أولئك الدخلاء، يصوِّبون بعض العبارات إلى ذلك الترس البشري، كالخطّافات التي تبقى طافية وسط مقاعد الفتيات.

- لَم تحضرا. -قال إميليو- كَم الساعة الآن؟

- السابعة. لعلّهما في هذه الأنحاء، ولكننا لم نرَهما. صباح

اليوم أخبرَتني لاورا بأنهما ستحضران على كل حال، وبأنها ستمرّ بإيلينا في طريقها.

- لقد أخلفَت موعدها معك. لن يكون ذلك شيئًا غريبًا، فإيلينا تنغِّص عيشك طوال الوقت.

- لقد تبدَّلَت الحال. -قال ألبِرتو- كان ذلك في الماضي. ولكنها صارت تواعدني الآن. لقد اختلف الأمر.

دارا مرتَيْن أخريين وهما يتلفَّتان بلهفة إلى كل الاتجاهات، ولكن سدى. لم يعثرا عليهما. وإن لمحا بعض أزواج العشَّاق مِن أبناء الحيّ: بيبيه وماتيلدي، تيكو وغراسييلا، بلوتو ومولي.

- لقد وقع شيء ما. -قال ألبِرتو- يجب أن تكونا هنا الآن.

- لو حضرتا، فاذهبْ إليهما وحدك. -قال إميليو، وقد تعكَّر مزاجه- لا أرضى بمثل هذه الأمور، فأنا شديد الكبرياء.

- ربما لم يكُن ذنبهما. ربما لم يُسمَح لهما بالخروج.

- مُجرَّد كلام فارغ. متى أرادَت الفتاة تمكَّنَت من الخروج، وإن انتهى العالَم.

ظلَّا يطوفان بالمكان، ويدخِّنان، في صمت. وبعد مضي نصف ساعة، أشار بلوتو بيده. «ها هما»، قال مشيرًا إلى أحد المنعطفات. «ماذا تنتظران؟». انطلق ألبِرتو في ذلك الاتجاه، مُصطدِمًا في طريقه بأزواج العشَّاق. مضى إميليو في أثره مُتمتِمًا. وبطبيعة الحال، لم تكُن الفتاتان وحدهما، بل إن حلقة مِن الدخلاء قد أحاطَت بهما. «اسمحوا لي بالمرور»، قال ألبِرتو، فانصرف المُحاصِرون، من دون أن يحتجّ واحد منهم. وما هي إلَّا لحظات حتى مضى إميليو ولاورا يطوفان بالمكان وقد أمسك كل منهما بيد الآخر، وبالمثل فعل ألبِرتو وإيلينا.

- ظننتُكِ لن تأتي.

- لم أتمكَّن من الخروج حتى الآن. كانت ماما وحدها، فاضطُرِرتُ إلى الانتظار حتى رجعَت أختي مِن السينما. لا أستطيع أن أبقى هنا طويلًا. يجب عليَّ أن أعود في الثامنة.

- الثامنة وحسب؟ ولكن الساعة قاربت السابعة والنصف.

- ليس بعد. ما زالت السابعة والربع.

- سيَّان.

- ماذا بك؟ هل أنت في مزاج سيئ؟

- كلّا، ولكن حاولي أن تتفهَّمي موقفي، إيلينا. إنه شيء فظيع.

- ما الشيء الفظيع؟ لا أفهم قصدك.

- أعني وضعنا، فنحن لا نلتقي أبدًا.

- ألا ترى؟ لقد حذَّرتُك مِن هذا قبل أن يحدث. لهذا السبب لم أرغب في الموافقة على مواعدتك.

- ولكن لا شأن لهذا بما يحدث. ما دمنا معًا، فمن الطبيعي جدًّا أن نلتقي. كان أهلكِ يسمحون لكِ بالخروج مثل باقي الفتيات قبل أن نبدأ في المواعدة. أما الآن، فلقد صرتِ حبيسةً، وكأنكِ طفلة صغيرة. أعتقد بأن إينيس هي الملومة.

- لا تتحدَّث عن أختي بالسوء، لا أحبّ أن يتدخَّل أحد في شؤون أسرتي.

- لم أتدخَّل في شؤون أسرتك، ولكن أختكِ ثقيلة الظلّ، وتكرهني.

- تكرهك أنت؟ ولكنها لا تعرف حتى اسمك كاملًا.

- هذا ما تحسبين أنت. كلَّما رأيتُها في نادي تيرَّاساس بادرتُها بالتحية، فلا تردّ. ولكني وجدتُها تختلس النظر إليَّ عدة مرات.

- لعلّها معجبة بك.

- هلا توقَّفتِ عن السخرية مني؟ ماذا بك؟

- لا شيء.

يضمّ ألبِرتو يد إيلينا برقّة ناظرًا إلى عينَيْها، ولكنها تبدو في غاية الجدية.

- إيلينا، حاولي أن تفهميني. لماذا أنتِ هكذا؟

- هكذا كيف؟ -تجيبه سائلةً، بجفاء.

- لا أدري، تبدين كالمنزعجة من وجودي معك في بعض الأحيان. أما أنا، فأحبّك كل يوم أكثر من سابقه. لهذا أشعر باليأس عندما لا نلتقي.

- لقد حذَّرتُك، فلا تلُمني.

- لقد لاحقتُكِ لأكثر مِن عامَيْن، وكلّما رفضتِني قلتُ في نفسي: «ولكنها سوف تقبلني ذات يوم، وعند ذاك أنسى الأوقات العصيبة التي عشتُها». غير أن الحال قد ساءت الآن، فعلى الأقل كنت أراكِ دائمًا فيما سبق.

- أتعرف شيئًا؟ لا يروقني أن تتحدَّث إليَّ هكذا.

- هكذا كيف؟

- أن تخبرني بمثل هذه الأشياء. على المرء أن يتحلَّى بقليل مِن الكبرياء. لا تتوسَّل إليّ؟

- ولكني لا أتوسَّل إليك، بل أخبركِ بالحقيقة. ألستِ حبيبتي؟ ولماذا تريدين مني أن أتحلَّى بالكبرياء؟

- لا أقولها مِن أجلي، بل مِن أجلك أنت. لا يليق بك أن تكون هكذا.

- أنا ما أنا عليه.

- حسنًا، هذا شأنك أنت.

يضمّ يدها مِن جديد، مُفتِّشًا عن عينَيْها، ولكنها تشيح عنه بوجهها في هذه المرة. تبدو أشدّ جدية وتجهُّمًا بكثير.

- دعينا لا نتخاصم، فنحن لا نلتقي إلَّا قليلًا. -يقول ألبِرتو.
- يجب عليَّ أن أتحدَّث إليك. -تقول، بحدَّة.
- حسنًا، عمَّ نتحدَّث؟
- لقد فكَّرت...
- فيمَ فكَّرتِ، إيلينا؟
- فكَّرتُ أنه مِن الأفضل لنا أن نبقى صديقَيْن؟
- أن نبقى صديقَيْن؟ أتريدين أن تخاصميني؟ بسبب ما قلتُ لك؟ لا تكوني سخيفة. ولا تلقي إلى ما قلتُ بالًا.
- كلّا، ليس لهذا السبب. لقد فكَّرتُ في الأمر مِن قبل. الأفضل لنا أن نعود كما كنا، في رأيي، فكلانا يختلف عن الآخر بشدّة.
- ولكني لا أهتمّ بذلك. أحبُّكِ، كيفما كنتِ.
- ولكني لا أحبُّك. لقد فكَّرتُ مليًّا، وأنا لا أحبُّك.
- أوه. -يقول ألبِرتو- حسنًا.

يستمرّان في جولتهما. يمضيان ببطء، وقد نسيا أن كلًّا منهما ما زال ممسكًا بيد الآخر. يقطعان عشرين مترًا أخرى، في صمت، مِن دون أن يتبادلا نظرة واحدة. عند النافورة، تفتح إيلينا أصابعها برفق، بلا أدنى قدر مِن العنف، كمن يلمِّح إلى شيء. يدرك ما ترمي إليه، ويفلت يدها. ولكنهما لا يتوقَّفان عن السير. يطوفان بالمنتزه كاملًا وهما على تلك الحال، جنبًا إلى جنب، وكلاهما صامتٌ طوال الوقت. ينظران إلى أزواج العشَّاق الآخرين، القادمين في الاتجاه المقابل، ويبتسمان للمعارف. يصلان إلى جادة لاركو، فيتوقَّفان. وينظر كل منهما إلى الآخر.

- هل فكَّرتِ في الأمر جيدًا؟ -يسأل ألبِرتو.
- نعم. -تجيب- أعتقد.

- حسنًا. في هذه الحالة، ليس لدينا ما نقوله.

تومئ برأسها وتبتسم لثانية واحدة، ولكنها لا تلبث أن ترسم أمارات الجدية على وجهها من جديد. يمدّ إليها يده، فتفعل بالمثل. وتقول له بصوت ودود ينمّ عن ارتياح:

- ولكننا سوف نبقى صديقَيْن، أليس كذلك؟

- طبعًا. -يجيبها- بطبيعة الحال.

يمضي ألبِرتو مُبتعِدًا عَبْر الجادة، وسط متاهة السيارات التي صُفَّت هناك، حيث تلامس المصدّات سياج المنتزه. يصل إلى دييغو فيرّيه، فينعطف إلى الشارع الخالي. يسير وسط الطريق، بخطى واسعة. وقبل أن يبلغ شارع كولون، يتناهى إلى سمعه دبيب خطى مسرعة، وصوت يناديه باسمه. يلتفت، فيجد بيبيه.

- مرحبًا. -يقول ألبِرتو- ماذا تفعل هنا؟ وماذا عن ماتيلدي؟

- لقد ذهبَت. كان عليها أن تعود مُبكِّرًا.

يقترب منه بيبيه، ويربِّت على كتف ألبِرتو، راسمًا على وجهه أمارات المودَّة والأخوَّة.

- آسفٌ على ما حدث مع إيلينا. -يقول له- ولكن هكذا أفضل، في رأيي. إن تلك الفتاة لا تليق بك.

- كيف علمتَ بما حدث، مع أننا قد تخاصمنا الآن؟

- كنتُ أعرف منذ الليلة البارحة. كلنا عرفنا. ولكن أحدًا لم يخبرك بشيء كيلا تشعر باستياء.

- بيبيه، لا أفهمُك. تكلَّم بوضوح، مِن فضلك.

- ألن تشعر باستياء؟

- لن أفعل يا رجل، قُلْ لي ماذا حدث وكفى.

- إيلينا مُتيَّمة بريتشارد.

- ريتشارد؟

- نعم، ذلك الفتى مِن سان إسيدرو.
- مَن أخبرك بذلك؟
- لا أحد. ولكن كلنا قد انتبهنا إلى الأمر. ليلة أمس كانا معًا في بيت ناتي.
- أتقصد الحفل الذي أقامَته ناتي في بيتها؟ كذب. إيلينا لم تحضر الحفل.
- بلى، لقد حضرَت. ذلك هو الشيء الذي لم نودّ أن نخبرك به.
- لقد أخبرَتني بأنها لن تذهب إلى الحفل.
- ولهذا أقول لك إن تلك الفتاة لا تلائمك.
- هل رأيتَها بنفسك؟
- نعم. لقد أمضَت ليلتها كاملةً في الرقص مع ريتشارد. ذهبَت إليها آنا وسألَتها: «هل خاصمتِ ألبِرتو؟»، فقالَت لها: «كلّا، ولكني سوف أخاصمه غدًا على كل حال». لا تنزعج مما أخبرتُك به.
- لا يهمّ. -يقول ألبِرتو- لا أكترث لذلك مطلقًا. لقد بدأتُ أملُّ إيلينا على كل حال، أقسمُ لك.
- أحسنتَ يا رجل. -يقول بيبيه، ويربِّت على كتفه مرة أخرى- أحيّيك. واعد فتاةً أخرى، إنه أفضل أشكال الانتقام، وأحلاها مذاقًا، وأشدّها إيلامًا. لماذا لا تحاول مع ناتي؟ إنها رائعة، ولا تواعد أحدًا في الوقت الحالي.
- أجل. -يقول ألبِرتو- ربما. فكرة لا بأس بها.

يقطعان المُربَّع السكني الثاني في دييغو فيرّيه، ثم يودِّع كل منهما الآخر أمام باب بيت ألبِرتو. يربِّت بيبيه على كتفه مرتَيْن أو ثلاثًا، علامة على التضامن. دخل ألبِرتو إلى البيت، وصعد الدَّرَج مُتَّجِهًا إلى حجرته مباشرة. كان المصباح مُضاء. فتح الباب، فوجد أباه

واقفًا هناك، وشهادة الدرجات في يده. بينما جلسَت أمّه على حافة الفراش، وبدَت مُستغرِقةً في التفكير.

- مساء الخير. -قال ألبِرتو.

- أهلًا أيها الشاب. -قال الأب.

كان يرتدي ثيابًا داكنة اللون، كعادته، وبدا حليق الذقن. تراءى شعره لامعًا، بينما ارتسم على وجهه تعبير صارم بوضوح، وإن فقدَت عيناه ذلك التجهُّم للحظات، واتَّجهَت نظراته القلقة إلى حذاء ألبِرتو اللامع وربطة عنقه ذات النقاط الرمادية، والمنديل الأبيض البارز من جيبه، ويدَيْه اللتين لا تشوبهما شائبة، وأكمام القميص، وطيات السروال. مضى يتفحَّصه بنظرة مبهمة، لا تستقرّ، مفعمة بالرضى. ثم عادت عيناه إلى تلك الصرامة المزعومة.

- عدتُ إلى البيت مُبكّرًا. -قال ألبِرتو- أحسستُ بصداع طفيف.

- لا بدّ أنه الزكام. -قالت الأمّ- اذهبْ إلى الفراش، ألبِرتيتو.

- قبل ذلك، دعنا نتحدَّث قليلًا أيها الشاب. -قال أبوه مُلوِّحًا بشهادة الدرجات- لقد اطَّلعتُ على هذا من فوري.

- حصلتُ على تقديرات ضعيفة في بعض المواد. -قال ألبِرتو- ولكن المهمّ أنني قد تجاوزتُ العام.

- اخرس. -قال الأب- لا تتفوّه بحماقات. (نظرَت إليه الأمّ، بانزعاج). لم يسبق أن حدث شيء كهذا في عائلتي قطّ. أعجزُ عن النظر إلى عيون الآخرين مِن شدة الخزي. أتعرف منذ متى يشغل أفراد عائلتي المراكز الأولى في المدرسة، وفي الجامعة، وفي كل مكان؟ منذ قرنَيْن من الزمان. لو رأى جدُّك هذه الشهادة، لمات كمدًا.

- وعائلتي أيضًا. -قالت الأمّ مُحتجّة- مَن تحسب نفسك؟ لقد تولّى أبي منصب الوزير مرتَيْن.

- ولكن ذلك أصبح شيئًا مِن الماضي. -قال الأب، من دون أن يلقي إلى الأمّ بالًا- إنها فضيحة. لن أسمح لك بأن تمرِّغ اسم عائلتي في التراب. غدًا تبدأ الدراسة مع مُدرِّس خصوصي استعدادًا للالتحاق بالمدرسة.

- أي مدرسة؟ -سأل ألبِرتو.

- ليونسيو پرادو. سوف تقوِّمك المدرسة الداخلية.

- داخلية؟ -نظر إليه ألبِرتو في ذهول.

- لم أقتنع بتلك المدرسة تمام الاقتناع. -قالت الأمّ- ربما أصابه مرض هناك. إن مناخ لاپِرلا شديد الرطوبة.

- ألا مانع لديك في أن ألتحق بمدرسة للخلاسيين؟ -سأل ألبِرتو.

- لا مانع لديّ، ما دامت تلك هي الطريقة الوحيدة لتقويمك. -قال الأب- قد تعبث مع رجال الدين، ولكنك لن تعبث مع رجال الجيش. ولطالما كان أفراد عائلتي جميعًا في غاية الديمقراطية. وفي النهاية، فإن المُتحضِّر يظلّ مُتحضِّرًا أينما كان. اذهبْ إلى الفراش الآن، وغدًا تبدأ الدراسة. طابَت ليلتك.

- إلى أين أنت ذاهب؟ -سألَت الأمّ مُتعجِّبة.

- لديّ ارتباط عاجل. لا تقلقي. سأعود مُبكِّرًا.

- يا لي من مسكينة! -تنهَّدَت الأمّ خافضةً رأسها.

*

ولكني مضيتُ أتصنَّع حين انفضَّت الصفوف، وقلتُ لها تعالي يا رِيشَة، يا كلبتي الصغيرة، ما أطرفك، ما ألطفك، تعالي، فجاءَت. إنها الملومة في كل شيء، لأنها قد أودعَتني ثقتها. لو أنها

قد هربَت في تلك اللحظة، لتبدَّلَت الحال. أُشفقُ عليها. وعلى الرغم مما فعلت، فإنني بقيتُ أستشيط غضبًا حتى عندما ذهبنا إلى قاعة الطعام، ولم أكترث مطلقًا لأن رِيشَة راحت تعرج بساقها على النجيل. سوف تصبح عرجاء، أكاد أجزم. كان الأفضل لها أن تنزف، فتلك الجراح تندمل، وتلتئم، ولا تبقى منها سوى الندوب. غير أنها لا نزفَت، ولا نبحَت. الحقّ أنني قد كتمتُ فمها بيدٍ، وبيدي الأخرى رحتُ ألوي ساقها مثل عنق الدجاجة التي ضاجعها كابا الجَبَلي، يا للمسكينة. تألَّمَت، قالت عيناها إنها تتألَّم، إليك أيتها الكلبة، لكي تتعلَّمي كيف تنغِّصيني وأنا في الصفّ، لكي تستغلِّي الفرصة، صحيح أنني رفيقك، ولكني لستُ خادمكِ الخلاسي، إياكِ والعضّ في حضور الضباط. أخذَت الكلبة ترتعش في صمت، ولكني لم أدرك أنني قد آذيتُها إلَّا حين تركتها. عجزَت عن الوقوف، ومضَت تسقط في سيرها، بينما التوَت ساقها. راحت تقوم وتسقط، تقوم وتسقط، وبدأت تعوي بصوتٍ خافت، فنازعَتني رغبةٌ في ضربها مِن جديد. ولكني أشفقتُ عليها في المساء، وأنا عائد مِن الفصول، حين وجدتُها ساكنةً فوق الحشائش، في الموضع نفسه، هناك حيث تركتُها في الصباح. قلتُ لها: «تعالي أيتها الكلبة اللعينة، تعالي واطلبي الصفح مني». مضَت تقوم وتسقط، تقوم وتسقط، مرتَيْن أو ثلاثًا، إلى أن تمكَّنَت من الحركة أخيرًا، ولكنها سارت على ثلاث سيقان فقط. ولشدّ ما راحت تعوي. مِن المُؤكَّد أنها قد تألَّمَت بشدة. لقد آذيتُها، وسوف تظلّ عرجاء إلى الأبد. شعرتُ نحوها بالأسى، وحملتُها. أردتُ أن أمسِّد ساقها، ولكنها انطلقَت تعوي بشدة، فقلتُ في نفسي إنها قد أُصيبَت بكسر في العظام، والأفضل ألَّا ألمسها. ولكن رِيشَة لا تضمر في نفسها الأحقاد، بل إنها ما زالت تلحس يدي، وتستكنّ بين ذراعَيّ وقد

تدلَّى رأسها. بدأتُ أحكّ عنقها وبطنها. ولكني لا أكاد أُنزِلها على الأرض لأرغمها على السير حتى تسقط أرضًا، أو تكتفي بقفزة قصيرة، وتجد صعوبةً في التوازن على ثلاث سيقان، وتنطلق في العواء. لُوحِظ عليها أنها كلَّما بذلَت أدنى جهد أحسَّت به في تلك الساق التي كسرتُها. لم يكُن كابا الجَبَلي يحبّ رِيشَة، بل إنه قد أضمر لها الضغينة. ضبطتُه أكثر من مرة وهو يرميها بالأحجار، ويركلها في سهوٍ من جانبي، كلَّما حوَّلتُ عينَي عنها. الجَبَليون في غاية الرياء. ومِن تلك الناحية، فإن كابا جَبَليٌّ أصيل. لطالما قال أخي: لو شئتَ أن تتأكَّد إن كان أحدهم جَبَليًّا، فانظرْ إلى عينَيْه، تجده لا يقوى على مواجهتك، وإنما يحوِّل عَينَيْه بعيدًا. يعرف أخي الجَبَليين جيدًا، فهو ليس قائد شاحنة من فراغ. في طفولتي، أردتُ أن أغدو قائد شاحنة مثله. كان يذهب إلى الجبل، إلى آياكوتشو، مرتَيْن في الأسبوع، ثم يعود في اليوم التالي. ظلَّ على تلك الحال أعوامًا، لا أذكر مرةً واحدة لم يتحدَّث فيها عن الجَبَليين بكل سوء لدى عودته. كان يتناول كأسَيْن مِن الشراب، وينطلق باحثًا عن أحد الجَبَليين حتى ينغِّص حياته. يُقال إنهم قد أوقعوا به مخمورًا. ولا بدّ أن تكون تلك عين الحقيقة، فمن المحال أن يوسعوه ضربًا كما فعلوا لو كان في كامل وعيه آنذاك، وفق ما يبدو لي. سوف أذهب إلى أوانكايو ذات يوم، وأكتشف مَن فعلها، وأجعلهم يدفعون الثمن من دمائهم. أنت، ناداني الشرطي، هل تعيش عائلة بالديبيسو هنا، نعم، أجبتُه، ما دمتَ تقصد عائلة ريكاردو بالديبيسو. وأتذكَّرُ أن أمّي قد جذبَتني من شعري وألقَتني داخل البيت، ثم راحت تنظر إلى الشرطي بارتياب، وذعر شديد، وقالت له: «في العالَم كثيرون يحملون اسم ريكاردو بالديبيسو، ولسنا مُضطَرّين إلى تحمُّل عواقب ما اقترف الآخرون. نحن فقراء، ولكننا شرفاء، سيدي الشرطي، لا تُلقِ بالًا

إلى ما يقول هذا الطفل»، وإن كنتُ أنا قد تجاوزتُ العاشرة آنذاك، ولم أعُد طفلًا بأي حال من الأحوال. أما الشرطي فضحك وقال: «ريكاردو بالديبيسو لم يفعل شيئًا، ولكنه في المستشفى العام، مصاب بجروح غائرة. لم يبقَ موضع في جسده إلّا وطُعِن بالسكين. ولقد طلب منا أن نخطر أسرته بما حدث». «اذهبْ وتحقَّق من النقود المُتبقِّية في تلك القارورة»، قالت لي أمّي. «لا بدّ أن نحمل إليه برتقالًا». اشترينا الفاكهة مِن أجله سدى، إذ لم يتمكَّن من تناولها لأن جسده قد ضُمِّد بالكامل، وما عاد يُرَى منه سوى عينَيْه. تحدَّث إلينا ذلك الشرطي لبعض الوقت، ومضى يقول لنا، يا للوحشية، أتدرين أين تعرَّض للهجوم، سنيوره؟ في أوانكايو. أتدرين أين عُثِر عليه؟ بالقرب مِن تشوسيكا، يا للوحشية. لقد استقلّ الشاحنة مُتَّجِهًا إلى ليما وكأن شيئًا لم يكُن. ثم عُثِر عليه وقد حاد عن الطريق، بعد أن استغرق في النوم على المقود. أعتقد بأنه كان مخمورًا أكثر منه جريحًا. لو رأيتِ بعينَيْك الحال التي آلَت إليها تلك الشاحنة. لقد صارَت دبقةً تمامًا بسبب الدماء التي ظلَّت تسيل مِن ذلك المُتوحِّش طوال الطريق، سنيوره، سامحيني إن قلتُ لكِ إنه مُتوحِّش لم أرَ له مثيلًا. أتدرين ماذا قال له الطبيب؟ ما زلتَ مخمورًا، يا رجل، لم تأتِ مِن أوانكايو وأنت في هذه الحالة، وإلّا كنتَ قد مُتَّ وشبعتَ موتًا في منتصف الطريق، لقد أُصِبتَ بأكثر مِن ثلاثين جرحًا بالسكين. بينما راحَت أمّي تقول له: سيدي الشرطي، حتى أبوه كان هكذا. ذات مرة جِيء به وهو على مشارف الموت، شبه عاجز عن الكلام، فإذا به يطلب منا أن نشتري له المزيد مِن الشراب. ولمَّا عجز عن رفع ذراعَيْه مِن فرط الألم، اضطُرِرتُ إلى وضع فُوَّهة القارورة في فمه ورحتُ أسقيه البيسكو بنفسي، هل عرفتَ حقيقة هذه الأسرة. مِن دواعي تعاستي أن ريكاردو قد شابه أباه. سوف يرحل

عنا ذات يوم، كما فعل أبوه، ثم تنقطع أخباره إلى الأبد، فلا نعرف له مكانًا، ولا عملًا. أما والد هذا (قالتها وهي تضربني بيدها)، فكان رجلَ بيتٍ هادئًا، على النقيض مِن الآخر، يذهب مِن العمل إلى البيت مباشرة. وفي نهاية الأسبوع يسلِّمني أجره كاملًا داخل ظرفٍ، فأعطيه بعضًا مِنه لشراء السجائر ودفع أجرة المواصلات، أما البقية فأحتفظ بها. كان يختلف عن الآخر تمام الاختلاف، سيدي الشرطي، حتى إنه كاد لا يتذوَّق للشراب طعمًا. أما ابني الأكبر، أعني صاحب الجسد المُضمَّد، فلقد أضمر له كراهية شديدة، ونغَّص عيشه كثيرًا. كان ابني ريكاردو يعود إلى البيت في ساعةٍ مُتأخِّرة، وهو لا يزال صبيًّا، فترتجف أوصال رفيقي المسكين علمًا منه بأن ذلك المُتوحِّش سوف يأتي مخمورًا ويشرع في السؤال، أين ذلك السنيور الذي يزعم بأنه زوج أمّي، أريد أن أتحدَّث إليه قليلًا. أما رفيقي المسكين، فكان يختبئ في المطبخ، حتى يعثر عليه ريكاردو، ويطارده في كل أرجاء البيت. ظلّ ريكاردو ينغِّص عيشه حتى هجرني هو أيضًا. ولكنه كان يملك الحقّ في ما فعل. أما الشرطي فأخذ يضحك وهو في غاية السرور، بينما راح ريكاردو ينتفض في سريره غاضبًا لأنه لا يستطيع أن يفتح فمه حتى يطلب مِن أمّه أن تخرس، وألَّا تجعله يظهر بذلك المظهر شديد السوء. ناولَت أمّي الشرطي برتقالةً، ثم حملنا البقية إلى البيت. وحين تعافى ريكاردو قال لي: «احترسْ مِن الجَبَليين دائمًا، فهم الأشدّ غدرًا في العالَم كله. لا يواجهك الجَبَليون أبدًا، بل إنهم يتسلَّلون خلف ظهرك ويغدرون بك في كل مرة. لقد تربَّصوا بي حتى تمكَّن الشراب مني، وسكرتُ بذلك البيسكو الذي دعوني إليه بأنفسهم، ثم انقضّوا عليّ. أما الآن وقد سُحِبَت مني رخصة القيادة، فأنا لا أستطيع العودة إلى أوانكايو لتصفية حسابي معهم». لعلّ ذلك هو السبب الذي يجعلني أنفر مِن

الجَبَليين دائمًا. ومع ذلك، فلقد كادت المدرسة الابتدائية تخلو من الجَبَليين، عدا اثنين أو ثلاثة، حتى هؤلاء قد تطبَّعوا بطباع أهل الساحل. ثم التحقتُ بهذه المدرسة العسكرية، وهالني عدد الجَبَليين الكبير الذي يفوق عدد الساحليين، حتى ليبدو وكأن أهالي القرى كلهم قد جاؤوا، مِن پونو وآياكوتشو وأنكاش وكوسكو وأوانكايو، سحقًا، كلهم جَبَليون بحقّ، مثل كابا المسكين. في القسم عددٌ مِنهم. ولكن ملامح كابا تبدو أشدّ جَبَلية. يا لشعر رأسه! لا أفهم كيف يمكن لرجل أن يكون له مثل هذا الشَّعر الثقيل. لقد تأكَّد لي أنه يخجل من شعره، ويتمنَّى أن يملِّسه، ما جعله يشتري مُلمِّعًا لا أعرفه، ويغمر به شعره حتى لا ينتصب، لا بدّ أن ذراعه قد آلَمَته مِن فرط ما صفَّف شعره بالمشط، ومِن كثرة ما غمره بالقاذورات. كان يبدو على شعره أنه قد لان أخيرًا، وفجأة، تنتصب شعرةٌ، طراخ، ثم أخرى، ثم خمسون، ثم ألف، ولا سيما شعر السوالف، ففي تلك المواضع ينتصب شعر الجَبَليين كالإبر، وكذلك عند مُؤخَّر العنق. كاد كابا الجَبَلي يفقد عقله مِن فرط ما سخر الآخرون مِن شعره ومِن المُلمِّع الذي انبعثَت مِنه رائحة كريهة نفَّاذة. ولسوف أتذكَّر ما حييت كيف انطلقوا يسخرون منه عندما جاء بشعره اللامع، وكيف تحلَّق الجميع حوله، وبدؤوا يعدّون، صارخين ملء صدورهم، واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، وإذا بشعره يبدأ في الانتصاب قبل أن نصل حتى إلى رقم عشرة. مضى يتحمَّل في غضب، بينما راح شعر رأسه ينتصب، شعرةً تلو أخرى، حتى بات وكأنه يعتمر خوذةً مِن الشوك قبل أن نصل إلى رقم خمسين. أشدّ ما يضيق به الجَبَليون شعرهم. ولكن كابا يضيق به أكثر مِن الآخرين. أي شعر هذا! يكاد الناظر إليه لا يرى جبينه، لأن شعره ينسدل على حاجبَيْه. لا بدّ أنه شيء مزعج أن يكون للمرء مثل هذا الشَّعر، أن يكون الرجلُ بلا جبين، وذلك

شيء آخر ضاق به كابا كثيرًا. ذات مرة، وجد أحدُهم كابا وهو يحلق جبينه. كان بايانو النيغرو هو الذي وجده على تلك الحال، حسبما أعتقد. وإذا به يدخل إلى الثكنة قائلًا: «احضروا فورًا، فالجَبَلي يزيل شعر جبينه، إنه منظر يستحقّ المشاهدة». ركضنا إلى حمَّام الفصول، لأنه قد ذهب إلى هناك، قاطعًا تلك المسافة، كيلا يراه أحد. وهناك وجدنا الجَبَلي وقد دهن جبينه بالصابون كما يُدهَن الذقن، ومضى يحلق بالشفرة مُتوخِّيًا الحذر كيلا يجرح نفسه. كم سخروا منه. كاد يفقد عقله مِن فرط الغضب. وكانت تلك هي المرة التي اشتبك فيها مع بايانو النيغرو بالأيدي، هناك، في الحمَّام. لشدّ ما ضرب كلٌّ منهما الآخر، ولكن النيغرو كان أشدّ قوةً، فأخذ يضربه بلا رحمة. في حين قال النَّمِر: «اسمعوا، ما دام يتوق إلى إزالة شعره، فلماذا لا نساعده؟». لا أعتقد بأن ما فعل شيء لائق، لأن الجَبَلي مِن أفراد الحَلْقَة، ولكن النَّمِر لا يفوِّت فرصة سانحة لتنغيص أحدهم. أما بايانو النيغرو، الذي خرج مِن الشجار سليمًا معافى، فكان أول من انقضّ على الجَبَلي، ثم تبعتُه أنا أيضًا. أحكمنا تكبيل حركته، وعندئذ دهن النَّمِرُ جبينه الكثيف برغوة الصابون المُتبقِّية في الفرشاة، كما دهن نصف رأسه تقريبًا، ثم شرع يحلق رأسه. اهدأ أيها الجَبَلي، لا تتحرَّك وإلَّا انغرزَت الشفرة في رأسك. أخذ كابا الجَبَلي يشدّ عضلاته تحت ذراعَيّ، ولكنه عجز عن الحركة. ظلّ يرمق النَّمِر حانقًا، بينما النَّمِر يحلق ويحلق، حتى ترك نصف رأس الجَبَلي حليقًا. كم نغَّصه بما فعل. بقي الجَبَلي ساكنًا. أما النَّمِر، فمسح الرغوة بالشَّعر العالق بها، وإذا به يفرك وجه الجَبَلي بيده فجأةً: «كُلْ أيها الجَبَلي، لا تشمئز مِن الرغوة اللذيذة، كُلْ». كم ضحكنا حين هبّ الجَبَلي واقفًا، وهرول إلى المرآة حتى يرى صورته. أعتقد بأنني لم أضحك يومًا بقدر ما ضحكتُ في تلك المرة، حين رأيتُ كابا

يسير أمامنا على منصة العرض، بنصف رأس حليق، ونصف رأس يكسوه الشَّعر المنتصب، بينما راح الشَّاعِر يقفز صارخًا: «إنه الموهوك[١] الأخير، أخطروا نقطة الحراسة!»، وتحلَّق حوله الجميع، حتى صار الجَبَلي مُحاطًا بالطُلَّاب الذين أخذوا يشيرون إليه بالأصابع، ثم رآه اثنان مِن ضبَّاط الصف في الفناء، وانطلقا يضحكان هما أيضًا، فلم يجد الجَبَلي مفرًّا مِن الضحك. وفي الصفّ قال الملازم أوارينا: «ماذا بكم؟ أيها الحثالة! لماذا تضحكون كالفتيات المخبولات؟ أيها الرقباء، احضروا إلى هنا»، فقال له الرقباء: لا شيء سيدي الملازم، لقد حضر الطُلَّاب جميعًا. ثم قال له ضُبَّاط الصفّ: «في القسم الأول طالبٌ نصف رأسه حليق»، فأمر أوارينا: «فليحضر الطالب». ولم يملك واحدٌ منا أن يكتم ضحكاته عندما اتَّخذ كابا الجَبَلي وضع الانتباه أمام أوارينا، الذي أمره قائلًا: «اخلَع القبعة»، فخلعها كابا. «اصمتوا»، قال أوارينا، «كيف تضحكون وأنتم في الطابور؟»، ولكن ما إن حانت منه نظرة إلى رأس الجَبَلي حتى التوى فمه. «أنت، ماذا حدث لك؟»، فأجاب الجَبَلي: «لا شيء سيدي الملازم»، «لا شيء، كيف؟ أتظنّ المدرسة العسكرية سيركًا؟»، «كلّا، سيدي الملازم»، «لماذا يبدو رأسك هكذا؟»، «لقد حلقتُ رأسي بسبب القيظ، سيدي الملازم»، وإذا بالضابط أوارينا ينفجر ضاحكًا، ويقول لكابا: «أنت كالعاهرة الضائعة! ولكن هذه المدرسة ليسَت للنساء المخبولات، اذهبْ إلى الحلَّاق، وليحلق رأسك تمامًا، هكذا لا تحسّ بالقيظ. كما أنك محروم مِن الإجازة حتى يصبح شعرك ملائمًا، بمقتضى اللائحة». يا للجَبَلي المسكين.

---

(١) الموهوك: من الشعوب الأصلية التي سكنَت أمريكا الشمالية واشتهر رجالها بالقبعات المصنوعة من الريش.

لم يكُن بالفتى الخبيث، فبعد ذلك جمعَتنا به علاقة طيبة. في البدء لم أستلطفه، لمُجرَّد أنه جَبَلي، بسبب ما فعل الجَبَليون بريكاردو. وهكذا رحتُ أنغِّص عيشه طوال الوقت. كانت الحَلْقَة تجتمع، ويقترع أفرادها، ومَن تقع عليه القرعة يُكلَّف بضرب طالب مِن الفرقة الرابعة. أما لو وقعَت القرعة على الجَبَلي فكنتُ أقول لهم الأفضل لنا أن نختار أحدًا سواه، وإلَّا فضح هذا أمرَنا وسمح لهم بالنيل منا. كان الجَبَلي يتحمَّل مُطرِقًا. وفي وقت لاحق، عندما انفضَّت الحَلْقَة، قدَّم إلينا النَّمِر اقتراحًا: «لقد انتهَت الحَلْقَة، ولكن إن شئتم ألَّفنا حَلْقَة أخرى، نحن الأربعة»، فقلتُ له: «انسَ أمر الجَبَليين، فهم ثلة من الجُبناء». عندئذ قال النَّمِر: «لا بدّ مِن حسم هذه المسألة مرة وإلى الأبد، فلا مكان لمثل هذا المزاح بيننا». ثم إنه استدعى كابا الجَبَلي وقال له: «ينعتك كوبرا بالجبان، ويعترض على انضمامك إلى الحَلْقَة. لا بدّ أن تثبت أنه على خطأ»، فقال الجَبَلي: «حسنًا». ليلتذاك مضينا إلى الإستاد نحن الأربعة، ونزعنا الكتفيات لئلَّا يكتشف طُلَّاب الفرقتَيْن الرابعة والخامسة أننا مِن الكلاب إذا مررنا بهم، فيرغمونا على ترتيب أسِرَّتهم. نجحنا في المرور، وبلغنا الإستاد، عندئذ قال النَّمِر: «عليكما بالاشتباك مِن دون سباب أو صياح، فثكنات الفرقتَيْن الرابعة والخامسة تمتلئ بأبناء العاهرات في مثل هذه الساعة». وقال مَوْجَة: «الأفضل أن يخلع كلٌّ منهما قميصه، وإلَّا فربما تمزَّق، وغدًا لدينا تفتيش على الثياب». خلع كلٌّ منا قميصه، بينما قال النَّمِر: «يمكنكما البدء متى شئتما». كنتُ أعرف أن الجَبَلي لا يستطيع أن يتغلَّب عليّ، ولكن كيف أعرف أنه سوف يقاوم كما فعل. والحقّ أن الجَبَليين يمتلكون قدرةً فائقة على التحمُّل، مع أنه شيء لا يُتوقَّع، لأنهم قصار القامة. صحيح أن كابا قصير القامة، ولكنه في غاية الصلابة. ليس لجسده شكل كباقي

الأجساد، بل إنه يبدو كالمُربَّع التام، كما لاحظت. رحتُ أضربه، ولكن سدى، لأنه قد تحمَّل الضربات وكأن شيئًا لم يحدث. غير أنه في غاية الوحشية، جَبَلي بحقّ، إذ مضى يتعلَّق بعنقي وخصري، فلم أملك الفكاك مِن بين يدَيْه، رحتُ أطحن ظهره ورأسه ضربًا حتى يفلتني، ولكن ما هو إلَّا قليل حتى ينقضّ عليَّ مرة أخرى كالثور، ما أشدّ قدرته على الاحتمال. ولكن مِن المؤسف أن يرى المرء كم يفتقر جسده إلى الرشاقة. كنتُ أعرف ذلك أيضًا، فالجَبَليون لا يتقنون استخدام أقدامهم. وحدهم أبناء كاياو يتقنون الركل بحقّ، أفضل مما يستخدمون أيديهم، لا بدّ أنهم هم الذين ابتكروا «ركلة كاياو». وذلك ليس بالشيء اليسير، فلا أحد سواهم يستطيع أن يقفز ضاربًا وجه العدو بكلتا قدمَيْه معًا. أما الجَبَليون فلا يتعاركون إلَّا بأيديهم. ولا يتقنون حتى تسديد ضربات الرأس شأن أبناء الساحل، مع أن لهم رؤوسًا صلبة. أعتقد بأن أبناء كاياو أفضل مقاتلين في العالَم بأسره. يقول النَّمِر إنه من بيابيستا، ولكن ظنّي يحدِّثني بأنه مِن كاياو. على كل حال، المسافة بينهما قريبة جدًّا. لا أعرف مَن يتقن الضرب برأسه وقدمَيْه كالنَّمِر، الذي يكاد لا يستخدم يدَيْه في العراك، بل يكتفي بركلات كاياو وضربات الرأس طوال الوقت. ما كنتُ لأرغب في الاشتباك مع النَّمِر أبدًا. «الأفضل لنا أن نتوقَّف، أيها الجَبَلي»، قلتُ له. «كما شئت»، أجابني، «ولكن إياك وأن تنعتَني بالجبن مرة أخرى». «فليرتدِ كلٌّ منكما قميصه، وينظِّف وجهه، أحدهم قادم مِن هناك، أعتقد بأنهم مِن ضُبَّاط الصفّ»، قال مَوْجَة. وإن لم يكُن القادمون مِن ضُبَّاط الصفّ، بل مِن طُلَّاب الفرقة الخامسة. جاء خمسةٌ مِنهم. «لماذا لا تعتمرون قبعاتكم؟»، سأل أحدهم. «هل أنتم مِن الفرقة الرابعة، أم أنكم مِن الكلاب؟ لا تخفوا حقيقتكم». بينما صاح آخر: «انتباه! سلِّموا نقودكم وسجائركم». كان

الإعياء قد نال مني، فبقيتُ ساكنًا، بينما أخذ الطالب يفتِّش جيوبي. في حين قال الآخر، الذي راح يفتِّش مَوْجَة: «إن جيوبه ممتلئة بالنقود وسجائر الإنكا، يا له مِن كنز». أما النَّمِر، فقال لهم، بضحكته المُقتضَبة: «تحسبون أنفسكم في غاية الشجاعة لأنكم في الفرقة الخامسة، أليس كذلك؟»، فسأل أحدهم: «ماذا قال هذا الكلب؟». لم نرَ وجوههم بوضوح تحت جنح الظلام. بينما سأل آخر: «هلَّا كرَّرتَ ما قلتَ أيها الكلب؟». فأجابه النَّمِر: «لولا أنك في الفرقة الخامسة، سيدي الكاديت، لما واتتك الجرأة على أن تسلبنا النقود والسجائر». فضحك طُلَّاب الصفّ الخامس، وسألوه: «إذن فأنت مشاغب كبير، على ما يبدو؟». «نعم»، قال لهم النَّمِر، «أنا مشاغبٌ في غاية الخطورة. كما أعتقد بأننا لو كنا في الشارع لما واتتكم الجرأة على دسّ أيديكم في جيوبنا». «ما رأيكم، ما رأيكم؟»، قال ثانٍ، «هل سمعتم ما سمعت؟». وقال ثالث: «إن شئت، أيها الكاديت، نزعتُ شاراتي وطرحتُها أرضًا. ويبدو لي أنني حتى لو تخلَّيتُ عن شاراتي لأوسعتُك ضربًا كما يحلو لي». «كلّا، سيدي الكاديت»، أجابه النَّمِر، «لا أعتقد بأنك تملك الجرأة». «دعنا نجرِّب»، قال طالب الصفّ الخامس. ثم خلع السترة والشارات، وسرعان ما طرحه النَّمِرُ على الأرض وراح يوسعه ضربًا، فانطلق الآخر صارخًا: «ماذا تنتظرون لمساعدتي!». انقضّ الآخرون على النَّمِر، فقال مَوْجَة: «لن أسمح بشيء كهذا». حتى أنا ألقيتُ بنفسي في خضم المعركة، ويا له من شجار في منتهى الغرابة. لم يرَ أحدُنا شيئًا. كنتُ أتلقَّى ضربات صلبة كالأحجار بين حين وآخر، فرحتُ أفكِّر: «يبدو لي أنها ركلات النَّمِر». وبقينا وسط المعمعة حتى انطلقَت الصفَّارة، فهرولنا كلنا راكضين. أي ضرب مبرح تلقَّينا. في الثكنة، عندما خلعنا الأقمصة، تراءت أجسادنا الأربعة مُتورِّمة، من

الرؤوس حتى الأقدام، وكدنا ننكفئ على وجوهنا من فرط ما ضحكنا. تجمَّع أفراد القسم بأكمله في الحمَّام قائلين: «احكوا لنا ما جرى». وضع الشَّاعِر معجون الأسنان على وجوهنا لعلاج الكدمات. وفي الليل، قال النَّمِر: «يبدو ما حدث وكأنه معمودية الحَلْقَة الجديدة!». ثم ذهبتُ إلى سرير كابا المسكين وقلتُ له: «اسمع، لقد أصبحنا صديقَيْن»، فأجابني: «طبعًا».

*

شربا الكولا من دون أن يتكلَّم أحدهما. بينما راح پاولينو يرمقهما بوقاحة، بعينَيْه الخبيثتَيْن. تناول والد آرانا رشفات قصيرة من فوَّهة القارورة. وبين حين وآخر، كان يترك القارورة مُعلَّقةً قرب فمه، غائب العينَيْن، ثم يقطِّب وجهه، ويتناول رشفةً أخرى مِن القارورة. أخذ ألبِرتو يشرب على مضض، والمياه الغازية تدغدغ معدته. تعمَّد ألَّا يتكلَّم، خشية أن يفضي إليه الرجل بمزيد مِن الأسرار. مضى يتلفَّت يمينًا ويسارًا. لم يرَ الفِكّونة، التي يُرجَّح أنها كانت في الإستاد آنذاك، لأنها تولِّي هاربةً إلى أقصى الطرف الآخر مِن المدرسة كلَّما حانت استراحة الطُلَّاب. أما في أثناء الدروس، فهي تجوب الأرض التي تكسوها الحشائش بخطى بطيئة، رياضية. دفع والد آرانا ثمن الكولا، تاركًا إكرامية لپاولينو. توارى بناء الفصول عن الأنظار، لأن مصابيح منصة العرض لم تزَل مُطفأة، في حين هبط الضباب حتى وصل إلى الأرض.

– هل تألَّم كثيرًا؟ –سأل الرجل– يوم السبت، عندما جِيء به إلى هنا، هل تألَّم كثيرًا؟

– كلّا، سنيور. كان غائبًا عن الوعي. جِيء به إلى المستوصف مباشرة، في سيارة مرَّت مِن جادة پروغريسو.

– لم يبلغونا بشيء حتى مساء السبت. –قال الرجل، بصوت

يشي بالإعياء- في الخامسة تقريبًا. لم يكُن قد غادر المدرسة منذ قرابة شهر كامل. أرادت أمّه أن تحضر لرؤيته. ولكنه كان مُعاقَبًا طوال الوقت، لسببٍ أو لآخر. حسبتُ أن الحرمان مِن الإجازة يرغمه على الاجتهاد في الدراسة بقدر أكبر. اتَّصل بنا الرائد غارّيدو. لقد وقع الخبر علينا ثقيلًا، أيها الشاب. حضرنا فورًا، بل إنني كدتُ أصطدم بالسيارة في لاكوستانيرا. لم يصرِّحوا لنا حتى بأن نبقى معه. لم يكُن شيء كهذا ليحدث في عيادة خاصة.

- إن شئتم، يمكنكم نقله إلى عيادة أخرى. لن يجرؤوا على منعكم مِن ذلك.

- طبقًا لما قال الطبيب، فلا يمكن أن يُنقَل في الوقت الراهن. إنه في حالة شديدة الخطورة. وتلك هي الحقيقة، فلماذا نخدع أنفسنا! تكاد أمّه تفقد عقلها. لقد غضبَت مني غضبًا عارمًا، بسبب ما حدث يوم الجمعة، أتدري؟ إنه أشدّ الأمور إجحافًا. هكذا هن النساء، يحرِّفن كل شيء. لو أنني قد قسوتُ على هذا الفتى، فأنا لم أفعل ذلك إلَّا من أجل مصلحته. لم يحدث شيء ذو بال يوم الجمعة، مُجرَّد تفاهة. ولكنها تلومني على ما جرى طوال الوقت.

- لم يخبرني آرانا بشيء. -قال ألبِرتو- مع أنه يخبرني بأموره الخاصة دائمًا.

- قلتُ لك، لم يحدث شيء ذو بال. كل ما في الأمر أنه قد جاء إلى البيت، وأمضى هناك بضع ساعات. حصل على إذن بالخروج، لا أدري لماذا. لم يكُن قد خرج منذ شهر كامل. ولكنه أراد أن يخرج إلى الشارع حالما وصل إلى البيت، من دون أدنى مراعاة لنا، أليس كذلك؟ كيف يحضر إلى البيت ثم يعجِّل بالخروج هكذا؟ طلبتُ منه أن يبقى مع أمّه، التي يصيبها يأسٌ جارف عندما لا يخرج مِن المدرسة. وهذا كل شيء. ألا تبدو لك هذه مُجرَّد تفاهة؟

والآن تقول لي إنني قد دفعتُه إلى حتفه حتى النهاية، أليس هذا شيئًا مُجحِفًا، وغبيًّا؟

- لا بدّ أن السنيوره مُتوتِّرة. -قال ألبِرتو- ولكنه شيء طبيعي. إن حادثة كهذه. . .

- أجل، أجل. -قال الرجل- لا توجد طريقة واحدة لإقناعها بأن تستريح. لقد أمضَت يومها كاملًا وهي تنتظر الطبيب، في المستوصف. ولكن سدى، فهو لا يكاد يخبرنا بشيء، تصوَّر. «هدِّئا من روعكما، تحلّيا بقليلٍ مِن الصبر يا سيدَيّ، نبذل قصارى جهدنا، وسوف نخطركما بمستجدات الأمور». ربما كان الرائد غارّيدو في غاية المودة. يريد أن يهدِّئ مِن روعنا، ولكن يجب عليه أن يضع نفسه مكاننا. يبدو ما حدث شيئًا عصيًّا على التصديق، بعد ثلاثة أعوام، كيف يمكن أن تقع حادثة كهذه لطالب عسكرية؟

- لا أحد يعرف. -قال ألبِرتو- أو بالأحرى. . .

- لقد أوضح لنا الرائد غارّيدو ما جرى. وعرفتُ كل شيء. -قال الرجل- إن رجال العسكرية مِن أنصار الصراحة، كما تعرف. يسمّون الأشياء بأسمائها. لا يميلون إلى اللفّ والدوران في الحديث.

- هل أخبرك بكل شيء بالتفصيل؟

- نعم. -قال الرجل- لقد اقشعرّ بدني لهول ما قال. يبدو أن البندقية قد اصطدمَت عندما ضغط الزناد. أتدري؟ ومع ذلك، تقع اللائمة على المدرسة جزئيًّا، فأي تعليمات يتلقَّى الطُلّاب؟

- هل أخبرك بأنه قد أطلق النار على نفسه؟ -قاطعه ألبِرتو سائلًا.

- كان ذلك فظًّا بعض الشيء. -قال الرجل- لا يجدر به أن يقول شيئًا كهذا أمام والدة ريكاردو. النساء ضعيفات. ولكن رجال

العسكرية يتكلَّمون بلا مواربة. أردتُ لابني أن يكون هكذا، كالصخرة. أتدري ماذا قال لنا؟ «في الجيش، يُدفَع ثمن الأخطاء فادحًا»، هكذا، كما أقول لك. ثم أوضح لنا أمورًا أخرى، وقال إن الخبراء قد فحصوا السلاح، فوجدوا أنه يعمل على أكمل وجه، وأن اللائمة تقع على عاتق الفتى وحده. ولكني أشكّ في ذلك. خطر لي أن الرصاصة قد انطلقَت عن طريق الخطأ. على كل حال، لا يمكن للمرء أن يتحقَّق من مثل هذه الأمور، التي يفهمها رجال العسكرية أفضل مني. زدْ على ذلك أن المسألة لم تعُد ذات أهمية.

- هل أخبرك بكل ذلك؟ -ألحّ ألبِرتو في السؤال.

نظر إليه والد آرانا.

- نعم. لماذا؟

- لا شيء. -أجاب ألبِرتو- نحن لم نرَ شيئًا. كُنَّا على التلَّة.

- معذرة. -قال پاولينو- ولكني مُضطَرّ إلى إغلاق المكان.

- الأفضل أن أعود إلى المستوصف. -قال الرجل- الآن قد يُسمَح لنا برؤيته لبعض الوقت.

قاما، فودَّعهما پاولينو بإشارة مِن يده. مشيا فوق الحشائش مرة أخرى. سار والد آرانا عاقدًا يدَيْه خلف ظهره، وقد رفع ياقة السترة. «لم يتحدَّث العَبْد عنه يومًا»، فكَّر ألبِرتو. «ولا عن أمّه».

- هل يمكنني أن أطلب منك معروفًا؟ -سأل- أودّ رؤية آرانا لحظة. لا أعني الآن. غدًا، أو بعد غد، متى تحسَّنَت حالته. يمكنك أن تسمح لي بالدخول إلى حجرته بدعوى أنني مِن الأقرباء أو أصدقاء العائلة.

- حسنًا. -قال الرجل- سنرى. سوف أتحدَّث إلى الرائد غارّيدو. يبدو رجلًا شديد الاستقامة. ولكنه صارم بعض الشيء، مثل جميع رجال العسكرية. إنها مهنته على الرغم من كل شيء.

- أجل. -قال ألبِرتو- هكذا هم رجال العسكرية.

- أتدري؟ -قال الرجل- إن ذلك الفتى يضمر لي حقدًا شديدًا. أدركُ ذلك. سأتحدَّث إليه. وما لم يكُن غبيًّا، سوف يدرك أنني قد فعلتُ كل ما فعلتُ لمصلحته، وأن أمّه وآديلينا المجنونة العجوز هما المسؤولتان عما حدث.

- أعتقد بأنها خالته، أليس كذلك؟ -سأل ألبِرتو.

- بلى. -أكَّد الرجل، وثارَت ثائرته- تلك المخبولة. لقد ربَّته وكأنه فتاة صغيرة. كانت تهديه الدمى، وتجدل شعره. ولكن أحدًا لا يستطيع أن يخدعني. لقد رأيتُ صورًا له في تشيكلايو، كانتا تلبسانه التنانير وتجدلان شعره، ابني أنا، أفهمت؟ لقد اغتنمَتا فرصة غيابي. ولكنهما لن تفلتا بتلك الفعلة.

- أتسافر كثيرًا، سنيور؟

- كلّا. -أجاب الرجل بحدّة- لم أغادر ليما قطّ، ولا يهمّني ذلك. ولكني قد استرددتُ ابني بعد أن لحق به الأذى، وصار بلا نفع ولا فائدة. مَن يستطيع أن يلومني لأنني أردتُ أن أجعل منه رجلًا؟ هل هذا شيء يجب عليَّ أن أخجل منه؟

- أنا مُتأكِّد أنه سوف يتعافى قريبًا. -قال ألبِرتو- مُتأكِّد.

- ولكني ربما قسوتُ عليه بعض الشيء. -تابع الرجل حديثه- فعلتُها من فرط الحبّ، الحبّ السليم. ولكن أمّه وتلك المجنونة آديلينا عاجزتان عن الفهم. أتريد نصيحتي؟ متى أنجبت، فأبعدْ أبناءك عن أمّهم. لا أقدَر مِن المرأةِ على إفساد الفتى.

- حسنًا. -قال ألبِرتو- لقد وصلنا.

- ماذا يجري هنا؟ -سأل الرجل- لماذا يركضون؟

- إنها الصفارة، تنطلق إيذانًا بموعد الطابور. -قال ألبِرتو- يجب عليّ أن أذهب.

- أراك لاحقًا. -قال الرجل- أشكرك على الرفقة.

انطلق ألبِرتو راكضًا، فما لبث أن لحق بأحد الطُلّاب الذين مرّوا أمامه مِن قبل، أوريوستي.

- ما زالت الساعة لم تدقّ السابعة... -قال ألبِرتو.

- لقد مات العَبْد. -قال أوريوستي، لاهثًا- نحن في طريقنا للإبلاغ بالخبر.

٢

في تلك المرة وافق عيد ميلادي أحد أيام الإجازة. قالَت لي أمّي: «اذهب إلى بيت أبيك الروحي مُبكِّرًا، لأنه يخرج إلى الحقل في بعض الأحيان». وناولَتني صولًا واحدًا لدفع أجرة المواصلات. ذهبتُ إلى بيت أبي الروحي، الذي كان يعيش بعيدًا جدًّا، في باخو إلپوينتيه، ولكني لم أجده هناك. فتحَت لي زوجته، التي لم تحبّنا قطّ. قابلَتني بوجهٍ مُتجهِّم، وقالت: «زوجي ليس هنا. لا أعتقد بأنه سوف يعود حتى الليل، فلا تنتظره». عدتُ إلى بيابيستا وقد تعكَّر مزاجي، إذ تمنَّيتُ لو أهداني أبي الروحي خمسة صولات، كدأبه كل عام. خطر لي أن أشتري علبة طبشور مِن أجل تيري، ولكني نويتُ أن أقدِّمها إليها على سبيل الهدية بحقّ، مُرفَقةً بدفتر مُربَّعات مِن مئة صفحة، لأن دفتر الجبر الخاص بها قد امتلأ. أو أدعوها إلى السينما، مع خالتها طبعًا. بل إنني قد أجريتُ حساباتي، فوجدتُ أن الخمسة صولات تكفي لشراء ثلاث تذاكر في صالة سينما بيابيستا، ثم تتبقَّى لي منها بضعة ريالات. وصلتُ إلى البيت، فقالت لي أمّي: «إن أباك الروحي رجلٌ بائس، مثل زوجته. مِن المُؤكَّد أنه قد جعلها تنكر وجوده هناك، ذلك النذل الكبير». فكَّرتُ أنها على حقّ. عندئذ قالت لي أمّي: «بالمناسبة، لقد حضرَت تيري سائلةً عنك، وطلبَت أن تذهب إلى بيتها». «أوه، حقًّا؟»، سألتُها. «أي شيء غريب، ماذا

تريد؟». الحقّ أنني لم أدرِ لماذا جاءت سائلةً عني. كانت تلك أول مرة تفعلها. ارتبتُ في أمرٍ ما، وإن لم يخطر على بالي ما حدث بعد ذلك. «لقد عرفَت بأمر عيد ميلادي، وسوف تهنِّئني بهذه المناسبة»، رحتُ أقول في نفسي. ذهبتُ إلى بيتها قفزًا، بخطوات واسعة. طرقتُ الباب، ففتحَت لي الخالة. بادرتُها بالتحية، ولكنها ما كادت تراني حتى أولَتني ظهرها عائدةً إلى المطبخ. لطالما لقيتُ من خالة تيري تلك المعاملة، وكأنني مُجرَّد شيء بلا قيمة. وقفتُ عند الباب المفتوح لحظةً، ولم أجرؤ على الدخول. عندئذ جاءت هي وقد ارتسمَت على شفتَيْها ابتسامة ذات مغزى. «مرحبًا»، قالت. «ادخل». لم أقُل لها سوى: «مرحبًا»، وابتسمتُ على مضض. «تعالَ»، قالت. «هيَّا نذهب إلى حجرتي». تبعتُها مِن دون أن أتفوَّه بكلمة واحدة، وقد تملَّكني فضول جارف. وفي حجرتها، فتحَت تيري أحد الجوارير، ثم التفتَت إليَّ ممسكةً بلفافة من الورق، وقالت: «إليك، بمناسبة عيد ميلادك». سألتُها: «كيف عرفت؟». فأجابَتني: «أعرف منذ العام الماضي». لم أدرِ ماذا أفعل بتلك اللفافة، الكبيرة نوعًا ما. وأخيرًا قرَّرتُ أن أفضّها. لم يكُن عليَّ سوى نزع الورق، لأنها قد خلَت مِن الأربطة. وجدتُ ورق اللفافة بني اللون، كذلك الذي يستخدمه المخبز القائم على الناصية، وخطر لي أنها قد طلبَته مِن الخبَّاز خصيصًا. أخرجتُ من اللفافة كنزةً بلا أكمام، لونها قريب مِن لون الورق. لحظتها أدركتُ أنها قد فكَّرَت في تلك التفصيلة، لأن لها ذائقة رفيعة، ولذا تعمَّدَت أن يكون الغلاف ملائمًا للكنزة. تركتُ الورق أرضًا، وجعلتُ أنظر إلى الكنزة قائلًا: «أوه، إنها رائعة الجمال. أوه، شكرًا جزيلًا. أوه، ما أجملها». أومأت تيري برأسها موافقةً، وبدَت أكثر سعادةً مني أنا نفسي. «لقد صنعتُها في المدرسة»، قالَت، «في دروس الأشغال

المنزلية. تظاهرتُ بأنها لأخي». وانفجرَت ضاحكة. كانت تقصد أنها بدأت تدبِّر أمر الهدية قبل فترة، وأنها هي أيضًا تفكِّر في أمري وأنا غائب. لقد أثبتَت تلك الهدية أنني أكثر مِن مُجرَّد صديق عندها. ظللتُ أقول لها: «شكرًا جزيلًا، شكرًا جزيلًا»، بينما هي تضحك وتسألني: «أتروق لك؟ حقًّا؟ هيَّا، جرِّبها». جرَّبتُها، فوجدتُها أقصر من قياسي قليلًا، ولكني سرعان ما فردتُها لئلَّا يُلاحَظ الأمر، فلم تنتبه. بلغَت من السرور حدًّا جعلها تمدح نفسها: «تلائمك جدًّا، تلائمك جدًّا مع أنني لم أكُن أعرف قياسك، بل إنني قد حسبتُه بالتقدير». خلعتُ الكنزة، ثم غلَّفتُها مرة أخرى، ولكني لم أتمكَّن من لفّها، عندئذ وقفَت إلى جواري قائلةً: «اتركها، فلقد خربتَ اللفافة تمامًا، دَع الأمر لي». لفَّت الكنزة بنفسها، فلم تترك فيها تجعيدة واحدة. سلَّمَتني الهدية، وقالت: «يجب أن أعانقك بمناسبة عيد ميلادك». عانقَتني، وعانقتُها. أحسستُ بجسدها وبشعرها يلامس وجهي لثوانٍ. ومرة أخرى، سمعتُ ضحكتها المفعمة بالبهجة. «ألستَ سعيدًا؟ لماذا تبدو هكذا؟»، سألَتني، فبذلتُ جهدًا كبيرًا حتى أضحك.

*

دخل الملازم غامبوا أولًا. خلع القبعة في الرواق، واكتفى بأن اتَّخذ وضع الانتباه وضرب أحد كعبَيْه بالآخر. كان الكولونيل جالسًا إلى مكتبه. وخلف الكولونيل، رأى غامبوا سياج المدرسة الخارجي، والطريق، والبحر، وسط العتمة المُخيِّمة فيما وراء النافذة الواسعة. ما هي إلَّا ثوانٍ حتى سُمِع وقع خطوات آتية. ابتعد غامبوا عن الباب، وظلّ في وضع الثبات. دخل الرائد غارّيدو والملازم أوارينا وقد وضع كلٌّ منهما قبعته في حزام السروال، بين الحمَّالتَيْن الأولى والثانية. ظلّ الكولونيل جالسًا إلى مكتبه، من دون أن يرفع

عينَيْه. كانت الحجرة أنيقة، في غاية النظافة، وبدَت قطع الأثاث لامعة. التفت الرائد غارّيدو إلى غامبوا، وفكَّاه يختلجان في تناغم.

- وماذا عن الملازمَيْن الآخرَيْن؟

- لا أدري، سيدي الرائد. لقد أبلغتُهما بضرورة الحضور في هذا الموعد.

بعد لحظات دخل كالسادا وپيتالوغا. وقف الكولونيل، مفرط البدانة، الأقصر قامةً بكثير من باقي الحضور، الذي يكاد اللون الأبيض يكسو شعره تمامًا. وخلف زجاج النظارة لاحَت عينان رماديتان، غائرتان، مرتابتان. نظر إليهم واحدًا تلو آخر، بينما ظلَّ الضُبَّاط في وضع الانتباه.

- استريحوا. -قال الكولونيل- اجلسوا.

انتظر الملازمون ريثما يتخيَّر الرائد غارّيدو أحد المقاعد الجلدية المُتراصّة على شكل دائرة. شغل الرائد غارّيدو المقعد المجاور للمصباح ذي القائمة، ثم جلس الضُبَّاط حوله. اقترب الكولونيل. نظر إليه الضُبَّاط وقد مالوا نحوه قليلًا، بانتباه، وجدية، واحترام.

- كل شيء على ما يرام؟ -سأل الكولونيل.

- نعم، سيدي الكولونيل. -أجاب الرائد غارّيدو- لقد نُقِل إلى كنيسة المدرسة. حضر بعض الأقرباء. يتولَّى أفراد القسم الأول حراسةَ الشرف. وفي الثانية عشرة يحلّ محلّهم أفراد القسم الثاني. ثم باقي الأقسام تباعًا. كما وصلَت أكاليل الأزهار أيضًا.

- كلها؟ -سأل الكولونيل.

- نعم، سيدي الكولونيل. لقد وضعتُ بطاقتك في أكبر الأكاليل حجمًا. كما وصلَت تلك التي أرسلها الضُبَّاط ورابطة أولياء الأمور. فضلًا عن إكليل واحد عن كل فرقة. كما أرسل الأقرباء الأكاليل والأزهار أيضًا.

- هل تحدَّثتَ إلى رئيس الرابطة عن الجنازة؟

- نعم، سيدي الكولونيل. مرتَيْن. وأكَّد حضورَ مجلس الإدارة كاملًا.

- هل وجَّه إليك أسئلة؟ -قطَّب الكولونيل جبينه- لطالما دسّ ذلك المدعو خوانيس أنفه في كل شيء. ماذا قلتَ له؟

- لم أعطِه أي تفاصيل. أوضحتُ له أن طالبًا في المدرسة العسكرية قد مات، ولم أذكر ملابسات الحادثة. أخبرتُه بأننا قد طلبنا إكليل أزهار باسم الرابطة، ويجب عليهم دفع ثمنها مِن خزانتهم الخاصة.

- قريبًا يحضر للسؤال. -قال الكولونيل، وهو يحكم ضمّ قبضته- كلهم سوف يحضرون للسؤال. لطالما دسّ المُتطفِّلون والفضوليون أنوفهم في مثل هذه الحالات. أنا مُتأكِّد أن الخبر سوف يصل إلى الوزير.

مضى الرائد غارّيدو والملازمون ينصتون إليه، مِن دون أن يرفّ لهم جفن، بينما الكولونيل يرفع صوته شيئًا فشيئًا، حتى جاءت كلماته الأخيرة صراخًا.

- الأمر برمّته قد يضرّ بنا ضررًا بالغًا. -أردف- للمدرسةِ أعداء. إنها فرصة سانحة لهم. ربما استغلّوا حماقةً كتلك لنشر آلاف الافتراءات ضدّ هذه المُؤسَّسة، وضدّي أنا، طبعًا. تقتضي الضرورة منا أن نتَّخذ الاحتياطات اللازمة. ولهذا السبب جمعتُكم.

شدَّد الضُبَّاط أمارات الرصانة المرتسمة على وجوههم، وأومأ كلٌّ منهم برأسه.

- مَن يتسلَّم الخدمة غدًا؟

- أنا، سيدي الكولونيل. -قال الملازم بيتالوغا.

- حسنًا. سوف تقرأ جدول أعمال اليوم في الطابور الأول.

سجِّل ما يلي: «يعرب الضُبَّاط وطُلَّاب العسكرية عن شديد الأسف للحادثة التي أودَت بحياة الطالب». وقُل لهم بالتحديد إن خطأ مِن جانب الطالب قد أفضى إلى وقوع الحادثة، حتى لا تترك أدنى مجال للشكّ. عسى أن يكون ذلك تنبيهًا بضرورة الالتزام الصارم باللائحة والتعليمات بحذافيرها، إلى آخره. اكتُب الكلمة الليلة، واعرض عليَّ المسودة. سوف أراجعها بنفسي. مَن الملازم المسؤول عن كتيبة الطالب؟

- أنا، سيدي الكولونيل. -قال غامبوا- أنا المسؤول عن الكتيبة الأولى.

- اجمعْ أفراد الأقسام قبل مراسم الجنازة، وألقِ عليهم محاضرة وجيزة. «نعرب عن خالص الأسف لما حدث. ولكن لا مجال لارتكاب الأخطاء في صفوف الجيش، وكل شكل من أشكال العاطفة مرفوض رفضًا باتًّا». ابقَ معي لنبحث هذه المسألة. ولكن دعنا نوضح تفاصيل الجنازة أولًا. غارّيدو، هل تحدَّثتَ إلى الأسرة؟

- نعم، سيدي الكولونيل. لقد وافقوا على إقامة الجنازة في السادسة مساء. تحدَّثتُ إلى الوالد. أما الأمّ فهي في حالة مُفجِعة.

- لن يحضر إلَّا طُلَّاب الفرقة الخامسة. -قاطعه الكولونيل- وأوصوا الطُلَّاب بالتكتُّم التام. الثياب القذرة لا تُغسَل على الملأ. بعد غد سوف أجمعُ الطُلَّاب في قاعة المناسبات وأتحدَّث إليهم. أيّ حماقة تافهة قد تؤدِّي إلى إثارة فضيحة. متى علم الوزير بما حدث جاء ردّ فعله عنيفًا. لن يعدم الأمر مَن يبلغه، فأنا محاط بالأعداء كما تعلمون. حسنًا، دعونا نتناول المسألة نقطة نقطة. ملازم أوارينا، تولَّ طلب الشاحنات مِن الأكاديمية الحربية. تابع تنقُّلات الشاحنات وعودتها في الساعة المُحدَّدة بنفسك، مفهوم؟

- عُلِم، سيدي الكولونيل.

- بيتالوغا، اذهبْ إلى كنيسة المدرسة، واستقبل الأقرباء بمودة. بعد لحظات أذهبُ لألقي التحية عليهم. وليلتزم حرس الشرف بالحدّ الأقصى مِن الانضباط. لن أتهاون في حال وقعَت أدنى مخالفة خلال العزاء أو الجنازة. أنت المسؤول أمامي عن ذلك. أريد مِن طُلّاب الفرقة الخامسة أن يعطوا الحضور انطباعًا بأنهم في غاية الأسف لموت ذلك الطالب، فلطالما كان ذلك شيئًا مُطمئِنًا.

- لا تشغل بالك بهذا، سيدي الكولونيل، فطُلّاب الكتيبة قد تأثَّروا بشدة. -قال غامبوا.

- حقًّا؟ -سأل الكولونيل، وهو ينظر إلى غامبوا مُتفاجِئًا- لماذا؟

- إنهم في مقتبل العمر، سيدي الكولونيل. -قال غامبوا- أكبرهم في السادسة عشرة، ولم يبلغ السابعة عشرة منهم سوى قلائل. لقد عاشوا معه ثلاثة أعوام تقريبًا. من الطبيعي أن يترك ما حدث في نفوسهم أثرًا قويًّا.

- لماذا؟ -ألحّ الكولونيل في السؤال- ماذا قالوا؟ وماذا فعلوا؟ كيف عرفت أنهم قد تأثَّروا بما جرى؟

- إنهم عاجزون عن النوم، سيدي الكولونيل. لقد طفتُ بالأقسام كلها، فوجدتُهم مستيقظين في أسِرّتهم، يتحدَّثون عن آرانا.

- الكلام محظور في الثكنات بعد انطلاق بوق الصمت! -صرخ الكولونيل- كيف يُعقَل ألّا تعرف هذا، غامبوا؟

- لقد أمرتُهم بالتزام الصمت، سيدي الكولونيل. ولكنهم لا يتكلَّمون في صخب، وإنما بصوت خفيض. لا يُسمَع مِن كلامهم سوى همسات. أمرتُ ضُبَّاط الصفّ بمراقبة الثكنات.

- لا أستغرب أن تقع مثل هذه الحوادث في صفوف الفرقة

الخامسة. . . -قال الكولونيل، وهو يحكم قبضته مِن جديد، ولكن قبضته بيضاء، صغيرة، لا تبثّ الرهبة في النفوس- لأن الضباط أنفسهم يحرّضون الطلاب على الانفلات.

لم يحِر غامبوا جوابًا.

- يمكنكم الانصراف. -قال الكولونيل، مُتوجِّهًا بحديثه إلى كالسادا وپيتالوغا وأوارينا- مرة أخرى، أوصيكم بالتكتُّم التام.

وقف الضُبَّاط، وضرب كلٌّ منهم أحد كعبَيْه بالآخر، ثم خرجوا. غابَت خطاهم في الرواق. بينما جلس الكولونيل في المقعد الذي كان يشغله أوارينا، ولكن ما هي إلَّا لحظة حتى قام وشرع يجوب الحجرة.

- حسنًا. -قال فجأةً، وهو يتوقَّف مكانه- والآن، أريد أن أعرف ماذا جرى. كيف حدث ما حدث؟

نظر الرائد غارّيدو إلى غامبوا، وأومأ برأسه إيذانًا له بالكلام. التفت الملازم إلى الكولونيل.

- سيدي الكولونيل، الواقع أنني قد ذكرتُ كل ما أعرف في التقرير. كنتُ أقود المسيرة مِن أقصى الطرف المقابل، مِن الجانب الأيمن، فلا رأيتُ شيئًا ولا سمعتُ شيئًا حتى كدنا نصل إلى قمة التلَّة، عندما جاء الرائد غارّيدو يحمل الطالب.

- وماذا عن ضابطَي الصفّ؟ -سأل الكولونيل- ماذا كانا يفعلان وأنت تقود الزحف؟ هل أصابهما العمى أو الصمم؟

- كانا في الصفّ الخلفي، سيدي الكولونيل، نزولًا عند التعليمات. ولكن حتى هما لم ينتبها إلى أي شيء. -سكت هنيهةً ثم أردف، باحترام-: وهذا أيضًا ذكرتُه في التقرير.

- غير معقول! -صرخ الكولونيل، وارتفعَت يداه في الهواء، ثم جثمَتا على بطنه البارز، واستقرَّتا هناك، ممسكتَيْن بالحزام. بذل

جهدًا كبيرًا حتى يهدأ- مِن الغباء أن تخبرني بأن أحدًا لم يرَ بعينَيْه الرجل الذي سقط جريحًا. لا بدّ أنه قد صرخ. كان مُحاطًا بعشرات الطُلّاب. لا بدّ أن أحدهم يعرف شيئًا...

- كلّا، سيدي الكولونيل. -قال غامبوا- كانت المسافة بين الأفراد كبيرة، وانطلقَت الهجمات بأقصى سرعة. لا شكّ في أن الطالب قد سقط خلال إطلاق النيران، فأخمد دويّ الأعيرة النارية صراخه، في حال أنه قد صرخ. أضف إلى ذلك أن تلك المنطقة مفروشة بالحشائش المرتفعة، التي كادت تخفيه عن الأنظار حين سقط، ولهذا لم يرَه القادمون مِن الخلف. لقد استجوبتُ أفراد الكتيبة كلهم.

التفت الكولونيل إلى الرائد.

- وماذا عنك، هل كنتَ تسبح في خيالاتك أنت أيضًا؟

- كنتُ أراقب تقدُّم المجموعات من موقعي بالخلف، سيدي الكولونيل. -قال الرائد غارّيدو وعيناه ترفّان، وفكّاه يسحقان الكلمات كالمطحنة. بينما جاءت لفتاته قوية- تقدَّمَت المجموعات بالتبادل. لا بدّ أن الطالب قد سقط جريحًا في اللحظة نفسها عندما ارتمى صفُّه على الأرض. ومع انطلاق الصفير التالي لم يتمكّن مِن النهوض، فظلّ شبه مطمورٍ وسط الحشائش. يُرجَّح أنه قد تخلَّف عن صفّه. وبانطلاق الهجوم التالي، تركه الصفّ الخلفي وراءه.

- كل هذا كلام عظيم. -قال الكولونيل- والآن، أخبراني بما تفكِّران حقًّا.

نظر الرائد غارّيدو وغامبوا بعضهما إلى بعض. ران صمتٌ ثقيل، لم يجرؤ أحدهما على أن يكسره. وأخيرًا تكلَّم الرائد غارّيدو، بصوت خفيض:

- ربما انطلقَت الرصاصة مِن بندقية الطالب نفسه. -نظر إلى

الكولونيل- أقصد، ربما علق الزناد بالجسد عندما ارتطمَت البندقية بالأرض.

- كلّا. -قال الكولونيل- لقد تحدَّثتُ إلى الطبيب مِن فوري. لقد جاءت الرصاصة مِن الخلف، بلا أدنى شكّ. لقد تلقَّى الرصاصة في مُؤخَّر العنق. أنت رجل عجوز، وتعرف تمام المعرفة أن البنادق لا تنطلق مِن تلقاء نفسها. لا بأس بأن تخبر الأقرباء بذلك تجنُّبًا للتعقيدات. ولكن المسؤولية الحقيقية تقع على عاتق كلٍّ منكما. - استقام الرائد غارّيدو والملازم غامبوا في مقعدَيْهما قليلًا- كيف نُفِّذ إطلاق النيران؟

- كما ورد في التعليمات، سيدي الكولونيل. -قال غامبوا- تقدَّمَت مجموعات الهجوم بعضها في حماية بعضٍ، بالتبادل، تحت ستار ناري. تزامن إطلاق النيران على أكمل وجه. كنتُ أتحقَّق مِن أن الطلائع قد اتَّخذَت لنفسها ساترًا، وأن جميع الطُلَّاب قد ارتموا على الأرض، قبل إصدار الأوامر بإطلاق النيران. ولذا مضيتُ أقود المسيرة مِن مكاني في الجانب الأيمن، لأحظى برؤية أوسع. كان الموقع خاليًا حتى مِن الحواجز الطبيعية. ولقد تمكَّنتُ مِن السيطرة على موقع تنفيذ العملية طوال الوقت. لا أعتقد بأنني قد اقترفتُ خطأً واحدًا، سيدي الكولونيل.

- لقد أدَّينا التدريب نفسه أكثر من خمس مرات خلال العام الجاري، سيدي الكولونيل. -قال الرائد- أضفْ إلى ذلك أن طُلَّاب الفرقة الخامسة قد خاضوا تلك التدريبات أكثر من خمس عشرة مرة منذ التحقوا بالمدرسة. فضلًا عن التدريبات الميدانية الأشمل، الأشدّ خطورة. أقرِّرُ التمارين بمقتضى البرنامج الذي يعدّه العميد بنفسه. لم يحدث يومًا أن أصدرتُ أمرًا بتنفيذ مناورات لم ترد في البرنامج.

- ذلك شيء لا يهمّني. -قال الكولونيل، ببطء- الشيء الذي يهمّني أن أعرفه: ما الأخطاء وما السقطات التي أدَّت إلى مقتل الطالب؟ لسنا في قاعدة عسكرية، يا سيدَيّ! -رفع قبضته شاحبة البياض- فلو أُصيب جنديّ برصاصة في قاعدة عسكرية، دُفِن جثمانه وقُضِي الأمر. أما هؤلاء فطُلَّاب، أطفال بيوتهم، وربما اندلعَت فوضى عارمة بسبب شيء كهذا. وماذا لو كان الطالب ابن أحد الجنرالات؟

- لديّ فرضية، سيدي الكولونيل. -قال غامبوا، فالتفت إليه الرائد مرة أخرى، بحسدٍ- مساء اليوم تفحَّصتُ البنادق بعناية. أغلبها بنادق قديمة، غير آمنة، كما تعلم، سيدي الكولونيل، يعيب بعضها انحراف السنّ أو فتحة التصويب، ويعيب بعضها الآخر تلفٌ طفيف في الماسورة. لا يكفي ذلك لوقوع حادثة من هذا القبيل، بطبيعة الحال. ولكن من المُحتمَل أن يكون أحد الطُلَّاب قد بدل وضعية فتحة التصويب، مِن دون أن ينتبه إلى ذلك، ما جعله يخطئ الهدف. ربما انطلقَت الرصاصة في مسار تصاعدي، بينما اتَّفق للطالب آرانا أن كان في الموقع الخطأ، من دون ساتر، في مصادفة تعيسة. وعلى كل حال، فإن هي إلَّا فرضية، سيدي الكولونيل.

- لم تسقط الرصاصة مِن السماء. -قال الكولونيل، بقدر أكبر مِن الهدوء، وكأن شيئًا قد حُسِم- لم تقُل شيئًا جديدًا، لقد طاشَت الرصاصة مِن أحد أفراد الصفّ الخلفي. ولكن تلك الحوادث لا يمكن أن تقع هنا! احملْ جميع البنادق إلى ترسانة السلاح غدًا، بلا أي تأخير، ولتُبدَّل كل البنادق التالفة. أيها الرائد، تولّ فحص البنادق في باقي الكتائب أيضًا. ولكن ليس الآن، فلننتظر بضعة أيام. ثم نفعل ذلك بكثير مِن الحذر: ينبغي ألَّا تتسرَّب كلمة واحدة عن الأمر، فلقد صار اسم المدرسة على المحكّ. بل واسم الجيش

أيضًا. مِن حسن الحظّ أن الأطباء قد تفهَّموا الوضع، ومِن المُزمَع أن يعدّوا تقريرًا تقنيًّا، خاليًا مِن التكهُّنات. أكثر الأمور حكمةً أن نتمسَّك بالفرضية القائلة بأنه خطأ مِن جانب الطالب. لا بدّ أن نجتثّ أي شائعة وأي تعليق مِن الجذور. مفهوم؟

- سيدي الكولونيل. -قال الرائد غارّيدو- اسمح لي بأن أدلي بملاحظة: يبدو لي أن هذه النظرية أرجح كثيرًا مِن النظرية القائلة بأن الرصاصة قد جاءت مِن الخلف.

- لماذا؟ -سأل الكولونيل- لماذا ترجِّحها؟

- أرجِّحها بشدّة سيدي الكولونيل، وأمتلك الجرأة اللازمة لأجزم بأن الرصاصة قد انطلقَت مِن بندقية الطالب نفسه، فما دام أفراد الكتيبة قد صوَّبوا بنادقهم إلى أهداف تقع على ارتفاع عدة أمتار مِن الأرض، يستحيل أن تنطلق الرصاصة في مسار تصاعدي. ومِن جهة أخرى، يُحتمَل أن يكون الطالب المصاب قد ضغط الزناد سهوًا، عندما ارتمى بجسده فوق البندقية. لقد رأيتُ بعينَي الطُلَّاب وهم يرتمون على الأرض بحركات خاطئة، وبتقنيات معيبة. أضفْ إلى ذلك أن الطالب آرانا لم يبرع في التدريبات الميدانية قطّ.

- ذلك أمر وارد، على الرغم مِن كل شيء. -قال الكولونيل، بهدوء غامر- كل شيء وارد في هذا العالَم. وأنت، يا غامبوا، لماذا تضحك؟

- لم أضحك، سيدي الكولونيل. أستميحك عذرًا، ولكن الأمر ليس ما يبدو لسيادتكم.

- آملُ ذلك. -قال الكولونيل وهو يربِّت على بطنه مبتسمًا، لأول مرة- وعسى أن يكون هذا درسًا لكما. لقد جعلَتنا الفرقة الخامسة نمرّ بأوقات عصيبة يا سيدَيّ، ولا سيما القسم الأول منها. قبل أيام فصلنا أحد الطُلَّاب عقابًا له على سرقة الاختبارات وكسر

النوافذ، وكأنه مِن عصابات الأفلام. والآن هذا. يجب عليكما توخّي الحرص البالغ في المستقبل. لا أقولها على سبيل التهديد، يا سيدَيّ، تفهَّما حديثي جيدًا. فلديّ مهمةٌ أؤدّيها هنا. وأنتما أيضًا. مهمة يجب علينا أن نؤدِّيها كما يليق برجال العسكرية، كما يليق بأبناء بيرو، بلا تعقيدات ولا عاطفية، ويجب علينا أن نتجاوز العقبات كافة. يمكنكما الانصراف، يا سيدَي.

خرج الرائد غارّيدو والملازم غامبوا، بينما استغرق الكولونيل في النظر إليهما، وقد ارتسمَت أمارات الحكمة على وجهه، حتى انغلق الباب خلفهما. وعندئذ أخذ يحكّ بطنه.

*

ذات مساء، وفيما أنا عائد مِن المدرسة، قال لي إغيراس النحيل: «ألا تمانع لو ذهبنا إلى مكان آخر؟ أفضِّل ألّا أدخل إلى هذه الحانة». وافقت، فأخذني إلى حانة أخرى في جادة ساينس پينيا، قذرة، معتمة، حيث كان الداخل يمرّ إلى صالون كبير عَبْر باب في غاية الضيق، بالقرب مِن البار. تحدَّث إغيراس النحيل إلى النادل الصيني للحظات. كان من الواضح أن كلًّا منهما يعرف الآخر جيدًا. طلب النحيل كأسَيْن. وبعد أن فرغنا مِن الشراب، نظر إليَّ بجديةٍ بالغة وسألني إن كنتُ رجلًا بحقّ مثل أخي. «لا أدري»، أجبت، «أعتقد. ولكن لماذا تسأل؟». «أنت مدين لي بما يقرب من عشرين صولًا»، أجابني. «أليس كذلك؟». أحسستُ وكأن ثعبانًا قد لدغني، فأنا لم أعُد أتذكَّر أنني قد أخذتُ تلك النقود على سبيل القرض. رحتُ أفكِّر: «الآن يطلب مني أن أسدِّد الدين، فماذا أفعل؟». ولكنه قال لي: «لا أقولها حتى تسدِّد الدين. كل ما في الأمر أنك صرتَ رجلًا، في حاجة إلى النقود. أستطيع أن أقرضك متى احتجتَ إلى ذلك. ولكن لا بدّ لي مِن الحصول على النقود أولًا، هلَّا ساعدتَني

في الحصول عليها؟». سألتُه عما يجب عمله، فأجابني: «الأمر محفوف بالمخاطر، وإن كنتَ خائفًا، فاعتبر أنني لم أقُل لك شيئًا. أعرفُ بيتًا خاليًا، يملكه أثرياء لديهم مِن المال ما يكفي لتعبئة حجرات لا أدري لها عددًا، كما فعل الملك أتاوالپا[1]، أنت تعرف القصة». «أتقصد أن نسرق؟»، سألتُه. «نعم»، قال النحيل. «مع أنني لا أحبّ هذه الكلمة، فأولئك الناس مِن ذوي الثراء الفاحش. أما أنا وأنت فلا نملك حتى حفرة نُدفَن فيها بعد الموت. هل أنت خائف؟ لا تحسبني أريد أن أرغمك على شيء. وكيف تظنّ أن أخاك كان يحصل على كل هذه النقود؟ دورك في غاية السهولة». «كلّا»، قلتُ له، «معذرة، ولكني لا أريد». لم أكُن خائفًا، ولكنه قد باغَتني بالأمر، وكل ما شغل ذهني آنذاك: كيف لم أدرك من قبل أن أخي وإغيراس النحيل كانا لصَّيْن. لم يأتِ النحيل على ذكر المسألة من جديد. بل إنه طلب كأسَيْن أخريين، وقدَّم إليَّ سيجارة. ومضى يحكي لي النكات كعادته. كان في غاية الطرافة، يحفظ قصصًا ماجنةً جديدةً كل يوم، ويبرع في سردها مُعبِّرًا بقسمات وجهه، مُبدِّلًا صوته. كان يضحك، فيفتح فمه عن آخره، حتى يرى الناظر إليه حلقَه وأضراسه. مضيتُ أنصتُ إليه ضاحكًا أنا أيضًا. ولكن الأكيد أنه قد رأى في وجهي أنني أفكِّر في شيء آخر، لأنه سألني: «ماذا دهاك؟ هل حزنتَ بسبب ما اقترحتُ عليك؟ انسَ الأمر». سألتُه: «وماذا لو أوقعوا بك ذات يوم؟»، فظهرَت عليه أمارات الجدية وأجابني: «إن الوشاة في غاية الخسَّة. بل إنهم أكبر اللصوص. ولكن، على كل حال، لو أوقعوا بي لنُغِّص عيشي، وانتهى الأمر. هكذا هي الحياة». أردتُ أن أستمرّ في الحديث عن ذلك، فسألتُه: «وما المدة التي قد

---

(١) أتاوالپا: ملك مِن ملوك الإنكا.

يُحكَم عليك بقضائها في السجن، لو أوقعوا بك؟». «لا أدري»، قال، «ذلك رهن بقيمة النقود التي أحملها في حينه». ثم أخبرني بأن أخي قد ضُبِط ذات مرة وهو يتسلَّل إلى بيت في لاپِرلا. كان أحد رجال الشرطة مارًّا مِن هناك، فاستلّ مسدسه، وصوَّبه إليه قائلًا: «اسبقني بمسافة خمسة أمتار، وسِرْ أمامي إلى قسم الشرطة، وإلّا أمطرتُك بالرصاص، أيها اللص». حكى لي أن أخي قد انطلق ضاحكًا بكل جرأة، وقال له: «هل أنت مخمور؟ كل ما في الأمر أنني أتسلَّلُ إلى هذا البيت لأن الطاهية تنتظرني في الفراش. إن شئت أن تتحقَّق من صحة كلامي، فضعْ يدك في جيبي، وسترى». قال إن الشرطي قد تردَّد لحظةً، ثم أكله الفضول، فاقترب منه واضعًا فوَّهة المسدس في عين أخي، وبينما راح ينقِّب في جيبه قال: «لو تحرَّكتَ ميليمترًا واحدًا، أطلقتُ النار على عينك. وإن لم تلقَ حتفك، أمضيتَ البقية الباقية من حياتك بعين واحدة. ابقَ ساكنًا». أخرج الشرطي يده مِن جيب أخي ممتلئة برزمة مِن النقود، فانطلق أخي ضاحكًا وقال له: «أنا وأنت خلاسيان، شقيقان. احتفظْ بالنقود لنفسك، ودعني أذهب. سوف أحضر للقاء الطاهية في يوم آخر». عندئذ أجابه الشرطي قائلًا: «سأذهب لأتبوَّل خلف هذا السور. وإن وجدتُك هنا عندما أعود، فسوف أقتادك إلى قسم الشرطة بتهمة رشوة السلطات». كما أخبرني إغيراس النحيل بأنه هو وأخي كادا يتعرَّضان للاعتقال ذات مرة في خيسوس ماريا، حيث ضُبِطا وهما في طريق الخروج من أحد البيوت. أطلق رجل الشرطة صفيرًا، فانطلقا راكضَيْن فوق الأسطح. ثم قفزا إلى إحدى الحدائق، فالتوَت قدم أخي، الذي صاح على الآخر قائلًا: «اهربْ أنت، فأنا قد انتهى أمري». أبى النحيل أن يهرب وحيدًا، ومضى يجرجره حتى بلغا إحدى بالوعات الصرف عند منعطف الطريق. تسلَّلا إليها، وظلَّا

محشورَيْن هناك. أمضيا في البالوعة ساعات لا أعرف لها عددًا، شبه عاجزَيْن عن التنفُّس. وبعد ذلك استقلَّا سيارة أجرة إلى كاياو.

لم أعاود لقاء إغيراس النحيل لبضعة أيام، فقلتُ في نفسي: «لقد أوقعوا به». ولكني التقيتُه مرة أخرى بعد أسبوع، في ميدان بيابيستا، فذهبنا إلى حانة الصيني لنشرب كأسًا وندخِّن ونتجاذب أطراف الحديث. لم يأتِ على ذكر المسألة يومذاك، ولا في الأيام التالية. كنتُ أذهب لأستذكر الدروس مع تيري في بيتها كل مساء، ولكني لم أعاود انتظارها أمام المدرسة لأنني لا أملك نقودًا لذلك. لم تواتِني الجرأة لأقترض مِن إغيراس النحيل. كنتُ أمضي ساعات طوالًا مستغرقًا في التفكير حتى أجد الطريقة الملائمة للحصول على بضعة صولات. وذات مرة، طُلِب منا في المدرسة أن نشتري كتابًا، فأخبرتُ أمّي، التي ثارَت ثائرتها، وصرخَت قائلةً إنها تصنع المعجزات حتى نجد ما يسدّ الرمق، وإنني لن أعود إلى المدرسة في العام المقبل، لأنني سوف أبلغ الثالثة عشرة ويجب عليّ البدء في العمل. أذكر أنني ذهبتُ إلى بيت أبي الروحي ذات أحد، مِن دون أن أخبر أمّي بشيء. استغرقتُ أكثر مِن ثلاث ساعات في الوصول، إذ اضطُرِرتُ إلى قطع ليما كاملةً سائرًا على قدمَيّ. استرقتُ نظرةً مِن خلال النافذة لعلّني ألمحه قبل أن أطرق باب البيت. خفتُ أن تفتح الباب زوجته، فتنكر وجوده، كما حدث في المرة السابقة. لم تفتح زوجته، بل ابنته، تلك الفتاة الهزيلة التي خلا فمها مِن الأسنان. قالت لي إن أباها في الجبال، وإنه لن يعود قبل مضي عشرة أيام. لم أتمكَّن مِن شراء الكتاب، ولكن زملائي قد أعاروني إياه، ما سمح لي بإنجاز الواجبات المنزلية. ولكن أسوأ ما في الأمر عجزي عن الذهاب لأنتظر تيري أمام مدرستها، الشيء الذي أورثني شعورًا بالاكتئاب. ذات مساء، وبينما نحن نستذكر دروسنا، ذهبَت خالتها

إلى الحجرة الأخرى لحظةً، عندئذ قالت لي تيري: «لم تعُد تنتظرني أمام المدرسة قطّ»، فتضرَّج وجهي وقلتُ لها: «كنتُ أفكِّر في الذهاب غدًا. تخرجين في الثانية عشرة كل يوم، أليس كذلك؟». وفي تلك الليلة خرجتُ إلى ميدان بيابيستا باحثًا عن إغيراس النحيل، ولكني لم أجده. خطر لي أنه قد يكون في تلك الحانة بجادة ساينس بينيا، فذهبتُ إلى هناك. وجدتُ المكان حافلًا بالناس والدخان، بينما راح بعض السكارى يصرخون. لمحني الصيني أدخل إلى الحانة، فصاح قائلًا: «اخرجْ مِن هنا أيها الطفل الصغير». قلتُ له: «لا بدّ أن ألتقي إغيراس النحيل، إنها مسألة طارئة». عند ذاك تعرَّفني الصيني وأشار إلى الباب الذي يقع في نهاية المكان. وجدتُ الصالون الكبير أشدّ ازدحامًا مِن المدخل، وكاد الدخان يحجب الرؤية تمامًا. كما وجدتُ نساء جالسات فوق الطاولات، أو على سيقان الزجال الذين أخذوا يقبِّلونهن ويتحسَّسون أجسادهن. وإذا بواحدة منهن تمسك وجهي سائلةً: «ماذا تفعل هنا أيها الجرو الصغير؟»، فقلتُ لها: «اخرسي أيتها الساقطة». انفجرَت ضاحكة، ولكن السكّير الذي كان يعانقها قال لي: «سوف أضربك لأنك قد أهنتَ السنيوره». في تلك الأثناء ظهر النحيل، الذي أخذ بذراع السكّير وهدَّأ من روعه قائلًا: «إنه ابن عمي، ومَن أراد أن يتعرَّض له فليواجهني أنا». «حسنًا أيها النحيل»، قال الرجل، «ولكن لا يجوز أن ينعت نسائي بالساقطات. لا بدّ أن يتحلَّى المرء بالتهذيب، ولا سيما في مقتبل العمر». وضع إغيراس النحيل يده على كتفي، وأخذني إلى طاولة يجلس حولها ثلاثة رجال لا أعرف أيًّا منهم. كان أحدهم جَبَليًّا، والآخران مِن الساحل. قدَّمني إليهم بوصفي صديقًا، وطلب كأسًا مِن أجلي. أخبرتُه برغبتي في التحدُّث إليه على انفراد، فذهبنا إلى الحمام، وهناك قلتُ له: «أنا في حاجة إلى النقود، أيها

النحيل. أستحلفك بأعزّ ما تملك أن تقرضني صولَيْن»، فضحك وأعطاني ما طلبت، ثم قال لي: «اسمع، أتذكر ما تحدَّثنا بشأنه قبل أيام؟ حسنًا، أنا أيضًا أريد منك أن تسدي إليَّ معروفًا. أحتاج إليك. نحن صديقان، ويجب علينا أن نساعد بعضنا بعضًا. مرة واحدة فحسب. هل اتفقنا؟». أجبتُه قائلًا: «حسنًا. مرة واحدة مقابل كل ما أدين لك به». «اتفقنا»، قال لي، «ولو سارَت أمورنا على ما يُرام، فلن تندم». عدنا إلى الطاولة، وقال للرجال الثلاثة: «أقدِّم إليكم زميلًا جديدًا»، فضحك ثلاثتهم وعانقوني، وطفقوا يطلقون النكات. في تلك الأثناء اقتربَت منا امرأتان، وبدأت إحداهما تزعج النحيل. أرادَت أن تقبِّله، فقال لها الرجل الجَبَلي: «اتركيه وشأنه. لماذا لا تقبِّلي الصغير أفضل؟»، فأجابت: «بكل سرور»، وإذا بها تقبِّل فمي، بينما استغرق الآخرون في الضحك. ولكن إغيراس النحيل أبعدها عني، وقال لي: «اذهب الآن. ولا تعُد إلى هنا. انتظرني غدًا في الثامنة ليلًا بميدان بيابيستا، إلى جوار السينما». ذهبتُ، وحاولتُ ألَّا أفكِّر في شيء سوى لقاء تيري أمام المدرسة في اليوم التالي. ولكني عجزتُ عن ذلك، لأن ما أخبرني به إغيراس النحيل قد تركني في غاية التوتُّر. مضيتُ أفكِّر في أسوأ الاحتمالات، وخطر على بالي أن رجال الشرطة سوف يوقعون بنا، وأنهم سوف يرسلونني إلى مُؤسَّسة لاپِرلا الإصلاحية لأنني قاصر، وأن تيري سوف تكتشف الأمر برمّته، ولن تريد أن تعرف عني شيئًا.

*

كانت الحال أسوأ مما لو تُرِكَت الكنيسة في عتمة مطبقة. ذلك أن الضوء الخافت المُتقطِّع كان يلقي الظلال، ويسجِّل كل حركةٍ، ويعكسها على الجدران أو البلاط، ويبثّها على مرأى مِن الحضور جميعًا، ويسبغ على الوجوه غبشًا قاتمًا يشدِّد مِن تلك المهابة التي

تلفّ الوجوه، ويجعلها عدوانيةً، شبه مشؤومة. فضلًا عن تلك الهمهمة الكئيبة المُستمِرّة (ذلك الصوت الذي مضى يتلعثم بكلمة واحدة، بنبرة واحدة، مرة تلو أخرى، حتى صار المقطع الأخير يلتحم بالمقطع الأول)، تلك الهمهمة التي تناهَت إليهم آتيةً مِن الخلف، وغاصت في أسماعهم كما لو أنها خيطٌ في منتهى الدقة، وأثارَت في نفوسهم شعورًا بالسخط. كان الأمر ليغدو أهون على النفس لو صرخَت المرأة، وأطلقَت صيحات عظيمة، وابتهلَت إلى الرَّب والعذراء مريم، وراحت تجذب شعرها، أو استغرقَت في البكاء. ولكنهم ظلّوا يسمعون تلك الهمهمة منذ دخلوا إلى المكان بقيادة ضابط الصفّ پيسوا الذي قسَّمهم إلى صفَّيْن، على جانبَي النعش، بحذاء جدار الكنيسة. ظلّوا يسمعون همهمة المرأة نفسها، آتيةً مِن الخلف، مِن القسم المجاور للباب، حيث استقرّ كرسي الاعتراف والدكك. أمرهم پيسوا بأن يتَّخذوا وضع سلام سلاح - الأمر الذي استجابوا له من دون طابعٍ حربي، ولا صخب، ولكن بدقَّة -، وبعد وقت طويل ميَّز الطُّلَّاب خلف الهمهمةِ حركاتٍ وأصواتًا متزامنة، وانتبهوا إلى حضور آخرين في الكنيسة، بخلاف المرأة النادبة. لم يتمكَّن أحدهم من النظر إلى ساعته: لأنهم في وضع الثبات، وكل منهم يقف على بعد نصف متر مِن الآخر، في صمت، وأقصى ما أمكنهم فعله وهم على تلك الحال أن يلتفتوا برؤوسهم قليلًا لرؤية النعش. ولكنهم لم يروا سوى السطح الأسود المصقول وأكاليل الأزهار البيضاء. لم يذهب إلى النعش أحد الحاضرين في القسم الأمامي مِن الكنيسة. الأرجح أنهم قد فعلوا قبل وصول الطُّلَّاب، والآن شُغِلوا بمواساة المرأة. أما كاهن كنيسة المدرسة، الذي تراءى مُتجهِّم الوجه على غير العادة، فلقد مرّ في اتجاه المذبح أكثر من مرة، ثم كان يعود إلى الباب، حيث لا بدّ أنه

يختلط بجموع الناس لبضع لحظات، ثم يجوب صحن الكنيسة من جديد، خافضًا عينَيْه، وقد انقبض وجهه الشاب الرياضي بما يلائم الأجواء. ولكنه لم يتوقَّف مرةً واحدة ليلقي نظرةً على النعش، مع أنه قد مرّ به مرات كثيرة. مرّ بعض الوقت وهم هناك، فأحسّ بعضهم ألمًا في ذراعه وناء بحمل البندقية. زدْ على ذلك الحرارة الشديدة: نظرًا إلى ضيق المكان، والزيّ المصنوع من الصوف الذي ارتداه الطُلَّاب، كما أن شموع المذبح كلها قد أُضرِمَت. تفصَّد عرق كثير مِن الطُلَّاب. ولكنهم ظلّوا جامدين في أمكنتهم، وقد ضمّ كلٌّ منهم كعبَيْه بعضهما إلى بعض، وضمّ يساره إلى فخذه، وأمسك كعب البندقية بيمينه، واستقام بجسده. ولكن تلك المهابة شيء حديث العهد، فحين أذاع أوريوستي الخبر بصرخةٍ مختنقة يتيمة، بعد أن فتح بابَ الثكنة بثانية واحدة، دافعًا إياه بكلتا قبضتَيْه، «لقد مات العَبْد!»، رأى الآخرون وجهه الذي احتقن من فرط ما ركض، ورأوا فمه وأنفه يختلجان، والعرق يتصبَّب على وجنتَيْه وجبينه، ولمحوا من فوق كتفه وجه الشَّاعِر الذي جاء ممتقعًا في أثره، وقد اتَّسعَت حدقتاه، حتى في تلك اللحظة أُلقِيَت بعض النكات. فهذا مَوْجَة، الذي لا يخطئ السامع صوته، قد رفع صوته حالما صُفِق الباب قائلًا: «لعلّه قد ذهب إلى الجحيم، أوه يا أمي!». انطلق بعضهم مُقهقِهًا، ولكنها لم تكُن الضحكات المعهودة، الجامحة في سخريتها -ذلك العواء الرأسي الذي يتصاعد، ويتجمَّد، ويعيش حياةً خاصة به لبضع ثوانٍ، مُتحررًا مِن الأجساد التي أطلقَته-، بل إنها كانت ضحكات شديدة الاقتضاب، لا طابع لها ولا شخصية، ضحكات دفاعية. عند ذاك صرخ ألبِرتو: «لو ألقى أحدكم مزحة أخرى، قتلتُ العاهرة التي ولدَته»، فتردَّدَت كلماته بوضوح في المكان: وإذا بصمت ثقيل يحلّ محلّ الضحكات. لم يردّ أحد، كائنًا مَن كان.

وإنما ظلّ الطُلّاب في أسِرَّتهم، وأمام خزائن الثياب، شاخصين إلى الجدران التي أتلفَتها الرطوبة، والبلاط القاني، ومصراعَي الحمَّام المُتأرجحَيْن، ناظرين عَبْر النوافذ إلى السماء الخالية مِن النجوم. لم ينبس أحدهم بشيء، وإنما اكتفوا بالنظر بعضهم إلى بعض. ثم استمرّوا في ترتيب خزائن الثياب والأسِرّة، وأشعلوا السجائر، ومضوا يتصفّحون المجلّات، ويرفون ثياب التدريبات الميدانية. ثم استأنف الطُلّاب أحاديثهم، ببطء، وإن لم تكُن هي الأحاديث نفسها: إذ تلاشى حسّ الدعابة، والشراسة، وحتى التلميحات الشائكة والكلمات النابية. ومِن المثير للفضول أنهم شرعوا يتكلّمون بصوت خفيض، كعادتهم بعد انطلاق بوق الصمت، بعبارات محسوبة مقتضبة، عن كل شيء، إلّا موت العَبْد: كان أحدهم يطلب مِن الآخر خيطًا أسود، أو رقعة مِن القماش، أو سيجارة، أو مذكرات الدروس، أو ورقًا لكتابة رسالة، أو نماذج الاختبارات. وفي وقت لاحق، بعد لفّ ودوران، بدؤوا يتبادلون الأسئلة، مُتجنِّبين جوهر المسألة، مع اتخاذ الاحتياطات بصنوفها كافة -«في أي ساعة حدث ما حدث»؟-، ومضوا يعقِّبون على أمور ثانوية -«لقد قال الملازم أوارينا إنه سوف يخضع لجراحة أخرى، ربما حدث ذلك في أثناء الجراحة»، «هل يأخذوننا إلى الجنازة؟»-. ثم انفتح الطريق أمام مظاهر العاطفة الحذرة: «من تعاسة الحظّ أن ينطفئ المرء وهو في مثل هذا العمر»؛ «كان خيرًا له أن يقضي نحبه هناك، في التدريبات الميدانية، فمن المُروِّع أن يقضي المرء ثلاثة أيام وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة»؛ «كان على وشك أن يتخرَّج بعد شهرَيْن. إن هذا ما يُسمَّى بالحظ العاثر». أدلى الطُلّاب بعبارات تكريم غير مباشرة، تنويعات على الموضوع نفسه، تخلَّلَتها فترات صمت طويلة. لزم بعضهم الصمت، وقنعوا بهزّ رؤوسهم. ثم دوَّت

الصفَّارة، وخرجوا مِن الثكنة في غير استعجال، بنظام. قطعوا الفناء مُتَّجهين إلى منصة السلاح. وهناك اتَّخذ كل طالب مكانه في الصفّ بهدوء. لم يحتجّ أحدهم على موقعه، بل إنهم راحوا يفسحون الأمكنة بعضهم لبعض، ويساوون الصفّ بعناية بالغة. وأخيرًا، اتَّخذ الطُلَّاب وضع الثبات مِن تلقاء أنفسهم، فلم ينتظروا أمر الرقيب. تناولوا العشاء وهم على تلك الحال، في ما يشبه الصمت: أحسّوا بأعين المئات مِن الطُلَّاب تلتفت إليهم، وسط قاعة الطعام الشاسعة. وبين حين وآخر، كانت تصل إليهم أصوات آتية مِن موائد الكلاب - «أولئك هم طُلَّاب القسم الأول، القسم الذي كان ينتمي إليه»-، بل إن بعض الأصابع قد أشارت إليهم. مضى كلٌّ منهم يلوك طعامه بلا حماسة، ولا استياء، ولا متعة. وفي أثناء الخروج، قابلوا أسئلة الطُلَّاب مِن باقي الفرق والأقسام بكلمات مقتضبة، أو شتائم قاطعة، وقد ضاقوا بذلك الفضول المُقتحِم. وبعد ذلك تجمَّعوا حول أروسپيدي في الثكنة، فأعرب بايانو النيغرو عن الشعور الذي اشترك فيه طُلَّاب القسم كلهم حين قال له: «اذهبْ وأخبر الملازم بأننا نرغب في السهر على جثمانه». ثم التفت إلى الآخرين وأردف: «هكذا يبدو لي، على الأقل. أعتقد بأن الواجب يحتِّم علينا ذلك، لأنه كان ينتمي إلى هذا القسم». لم يسخر منه أحد. وإنما أومأ بعضهم برأسه، وصدَّق بعضهم الآخر على قوله: «طبعًا، طبعًا». ذهب الرقيب ليتحدَّث إلى الملازم، ثم عاد وطلب منهم ارتداء ثياب الخروج والقفازات، وتلميع البيادات، والاصطفاف خلال نصف ساعة بالبنادق والحراب، ولكن بدون الأحزمة البيضاء. أصرّ طُلَّاب القسم جميعًا على أن يعود أروسپيدي إلى الملازم ليخبره برغبتهم في السهر على الجثمان طوال الليل، فلم يقبل الملازم. وها هم الآن هناك، منذ ساعة مضَت، في ذلك الغبش المبهم الذي خيَّم على

الكنيسة، ينصتون إلى أنَّات المرأة الرتيبة، وينظرون بأطراف عيونهم إلى النعش المنعزل وسط صحن الكنيسة الذي تراءى خاويًا.

ولكنه كان هناك، كما تأكَّد لهم على نحو قاطع حين دخل پيتالوغا إلى الكنيسة يسبقه صرير حذائه الذي طغى على نحيب المرأة، فاستأثر بانتباههم كاملًا حين سمعوا صوته آتيًا مِن الخلف، ثم رأوه يظهر ويشقّ طريقه من بين الطُلَّاب الذين اصطفّوا هناك، اثنين اثنين، ويتركهم خلفه. تأكَّد لهم أنه مُتَّجِه إلى النعش رأسًا، فاندهش أفراد القسم، شاخصين بعيونهم إلى مُؤخَّر عنقه. رأوه يتوقَّف وقد أوشك أن يطأ بقدمه أحد الأكاليل، ثم يميل برأسه قليلًا حتى يرى بقدر أكبر مِن الوضوح. ظلّ على تلك الحال لحظة، وقد انحنى بعض الشيء. سرَت في أبدانهم قشعريرة خاطفة حين رأوه يرفع إحدى يدَيْه إلى رأسه، ويخلع القبعة راسمًا علامة الصليب في عجالة، ويقف مستقيمًا. رأوا وجهه المحتقن، وعينَيْه الخاليتَيْن مِن التعابير. عاد ليقطع الطريق نفسه، في الاتجاه المعاكس. رآه الطُلَّاب يمرّ من بينهم، اثنين اثنين، غائبًا عن الأنظار، وسمعوا وقع خطواته المبتعدة. ومرة أخرى، سُمِعَت الهمهمة المفعمة بالحسرة لتلك المرأة الخفية.

ما هي إلَّا لحظات حتى اقترب الملازم پيتالوغا مِن الطُلَّاب مرة أخرى، ومضى يهمس في أسماعهم، ويخبرهم بإمكانية إنزال الأسلحة، والوقوف في وضع الراحة، وقد فعلوا. بعد قليل سرَت حركةٌ طفيفة: إذ مضى الطُلَّاب يحكّون أكتافهم، ويقتربون بعضهم مِن بعض، بحركة بطيئة، يكاد الناظر لا يدركها، حتى صارت المسافة الفاصلة بينهم أقصر. تقارب الصفَّان، وصدر عنهما حفيف ناعم، يشي بالوقار، لم يبدِّد هيبة الأجواء، وإنما شدَّد عليها. ما إن بلغهم صوت الملازم پيتالوغا حتى أدركوا أنه يتحدَّث إلى المرأة. لا شكّ في أنه قد بذل جهدًا كبيرًا حتى يتكلَّم بصوتٍ خفيض، ولعلّه قد

استشعر حرجًا لأنه لم يتمكَّن مِن ذلك. كان له صوت أجشّ، أضف إلى ذلك أن قناعته القديمة قد خانَته، قناعته بأن الرجولة تقترن بعنفِ الصوت البشري. وهكذا جاءَت كلماته تيارًا حافلًا بالتقلُّبات الحادة، لم يسمعوا مِنها إلَّا مقاطع عصية على الفهم، من بينها اسم آرانا، على سبيل المثال، الذي تناهى إلى أسماعهم مرات كثيرة، فكادوا لا يعرفون لمَن ذلك الاسم في أول الأمر، لأن الميت بالنسبة إليهم هو: العَبْد. لم يبدُ أن المرأة قد انتبهَت إليه، بل إنها ظلَّت تنتحب، الأمر الذي لا بدّ أنه قد أوقع الملازم پيتالوغا في حيرة، فمضى يقطع حديثه بين حين وآخر، ولا يستأنف خطابه إلَّا بعد صمتٍ طويل.

«ماذا يقول پيتالوغا؟»، سأل أروسپيدي وهو يكزّ على أسنانه، مطبق الشفتَيْن، من مكانه على رأس أحد الصفَّيْن. كرَّر السؤالَ بايانو، الذي جاء موقعه خلف الرقيب، وبالمثل فعل كوبرا، وهكذَا تباعًا، حتى وصل السؤال إلى آخر الصفّ. أما الطالب الأخير، الأقرب إلى موقع الدكك، حيث كان الملازم پيتالوغا يتحدَّث إلى المرأة، فقال: «يخبرها بأمورٍ عن العَبْد». مضى يكرِّر العبارات كما سمعها، فلا أضاف إليها ولا حذف منها شيئًا، بل إنه نقل حتى الأصوات المُجرَّدة. سهُل عليه أن ينقل المونولوغ الذي قال فيه الملازم: «كان طالبًا مُتفوِّقًا يقدِّره الضُبَّاط وضُبَّاط الصفّ حقّ قدره، وزميلًا نموذجيًّا، وتلميذًا مُجتهِدًا يتوسَّم فيه مُعلِّموه التميُّز. كلنا قد أسفنا لرحيله. إن مشاعر الأسف والخواء تعمّ الثكنات. كان يصل إلى الطابور ضمن أوائل المُصطَفّين. لقد اتَّسم بالانضباط، والروح القتالية، والحضور. كان ليصبح ضابطًا ممتازًا، مخلصًا، شجاعًا. لقد تحدَّى الأخطار في التدريبات الميدانية، وصار يُكلَّف بالمهمات الشاقة التي نفَّذها بلا تردُّد ولا امتعاض. في هذه الحياة يُبتلَى المرء

بالنوازل، ولا بدّ من التغلُّب على الألم. كلنا، ضُبَّاطًا ومُعلِّمين وطُلَّابًا، نشاطر الأسرةَ مشاعر الأسى. بل إن الكولونيل شخصيًّا سوف يحضر حتى يؤدِّي واجب العزاء لوالدَي الفقيد، الذي تُقام له جنازة شرفية، يحضرها زملاؤه في الفرقة بالزيّ الرسمي والسلاح، ويحضرها أفراد القسم الأول بالأشرطة السوداء. لقد فقد الوطن أحد أبنائه، ولا بدّ مِن التحلِّي بالصبر والتسليم. لسوف تظلّ ذكراه جزءًا مِن تاريخ هذه المدرسة. ولسوف يبقى حيًّا في قلوب الأجيال الجديدة. يجب على أفراد أسرته ألَّا يشغلوا بالهم بأي شيء، فإدارة المدرسة قد تعهَّدَت بأن تتكفَّل بمصاريف الجنازة كلها. وما كادت تقع الحادثة الأليمة حتى طلبَت إدارة المدرسة أكاليل الأزهار، مع الأخذ في الحسبان أن الإكليل المُقدَّم مِن سعادة الكولونيل، مدير المدرسة، أكبرها حجمًا». تابع الطُلَّاب كلمات الملازم پيتالوغا مِن خلال ذلك البثّ المُرتجَل، وإن لم تنقطع عنهم همهمة المرأة التي لا تنتهي، بينما كانت أصوات ذكورية تقطع حديث پيتالوغا باقتضاب، بين حين وآخر.

ثم وصل الكولونيل، فميَّزوا وقع خطواته، خطوات طائر النورس السريعة، شديدة القصر. سكت پيتالوغا والآخرون، فبات نحيب المرأة أشدّ عذوبةً، وبُعْدًا. وإذا بهم يتَّخذون وضع الانتباه، مِن دون أن يأمر أحد بذلك. لم يرفعوا أسلحتهم عاليًا، وإنما ضمّ كلٌّ منهم كعبَيْه بعضهما إلى بعض، وشدّ عضلاته، وألصق يده بجسده، بطول شريط السروال الأسود. بلغهم صوت الكولونيل الحادّ الرفيع وهم في وضع الانتباه. تكلَّم بصوت أشدّ انخفاضًا مِن صوت پيتالوغا، فانقطع تيار الهاتف البشري: ولم يفهم حديثه سوى الطُلَّاب الذين جاء موقعهم في آخر الصفّ. لم يرَه أحدهم، وإن سهُل عليهم أن يتصوَّروا الكولونيل كعادته في المناسبات، حين يشبّ بقدمَيْه أمام الميكروفون،

رافعًا يدَيْه كمن يُثبِت للناظرين أنه لا يقرأ كلامًا مُدوَّنًا، بعينَيْن تطلّ منهما الغطرسة والرضى عن الذات. ولا شكّ أنه في هذا الوقت أيضًا راح يتكلَّم عن القيَم الروحية المُقدَّسة، والحياة العسكرية التي تعزِّز الصحة والكفاءة، وعن الانضباط، الأساس الذي يقوم عليه النظام. لم يروه، وإنما حدسوا بوجهه الخليق بالمناسبات، ويدَيْه الصغيرتَيْن الرخوتَيْن، اللتَيْن تتحرَّكان أمام عينَي المرأة الحمراوَيْن، وتستقرّان للحظات على مشبك الحزام الذي يطوِّق بطنه الهائل، بينما تنفرج ساقاه لتحمُّل ثقل جسده. كما حدسوا بالأمثلة والعِبَر التي يسوقها، والموكب الذي يستعرضه، موكب أبطال الوطن وشهداء الاستقلال والحرب ضد تشيلي والأبطال الخالدين الذين بذلوا دماءهم السخية مِن أجل وطن تحدق به الأخطار. ولمَّا سكت الكولونيل، كانت المرأة قد أمسكَت عن النحيب، في لحظة غير مألوفة: بدَت الكنيسة خلالها وكأنما قد تحوَّلَت. تبادل بعض الطُّلَّاب النظرات، في ضيق، ولكن الصمت لم يستمرّ طويلًا، فسرعان ما اتَّجه الكولونيل إلى النعش، وفي أثره الملازم پيتالوغا ورجل آخر في ثياب مدنية داكنة. تأمَّله ثلاثتهم لحظة. بينما عقد الكولونيل يدَيْه على بطنه، ومدّ شفته السفلى حتى أخفَت شفته العليا، وأغمض أجفانه نصف إغماضة: راسمًا على وجهه ذلك التعبير المحجوز للحوادث الجسام. بقي إلى جواره الملازم والرجل المدني، الذي أمسك بيده منديلًا أبيض. التفت الكولونيل إلى پيتالوغا وأسرّ بشيء في سمعه. ثم اقترب كلاهما مِن المدني، الذي أومأ مرتَيْن أو ثلاثًا. رجعوا إلى القسم الخلفي مِن الكنيسة. عند ذاك استأنفَت المرأة الهمهمة. حتى بعد أن أشار إليهم الملازم بالخروج إلى الفناء، حيث ينتظر القسم الثاني أن يحلّ محلّهم، ظلّ صوت المرأة يتناهى إليهم.

توجَّهوا إلى الخارج، واحدًا تلو آخر، فكان كل طالب منهم

يدور في مكانه، على أطراف قدمَيْه، ثم يتَّجه إلى الباب. مضوا يختلسون النظر إلى الدكك، على أمل أن يلمحوا المرأة، وإن حجبها عن أبصارهم نفرٌ مِن الرجال (ثلاثة، إلى جانب پيتالوغا والكولونيل). ظلّوا وقوفًا، وقد خيَّمَت عليهم جدية بالغة. وفي منصة العرض، أمام الكنيسة، وقف طُلَّاب القسم الثاني بالزي الرسمي والبنادق أيضًا. اصطفّ أفراد القسم الأول وراءهم ببضعة أمتار، على حافة الأرض الخلاء. دسّ الرقيب رأسه بين الطالبَيْن الأول والثاني، مُتحقِّقًا مِن استواء الصفّ. ثم انتقل إلى الجانب الأيسر لعدّ الحضور. أخذوا يترقَّبون جامدين في مواقعهم، وهم يتكلَّمون بصوت خفيض عن المرأة، والكولونيل، والجنازة. بعد دقائق شرعوا يتساءلون إن كان الملازم پيتالوغا قد نسي أمرهم. بينما ظلّ الرقيب أروسپيدي يسير بطول الطابور رائحًا غاديًا.

خرج الضابط مِن الكنيسة، فأصدر الرقيبُ أمرًا بالانتباه، وذهب للقائه. أشار إليه الملازم بأن يأخذ أفراد القسم إلى الثكنة، فالتفَت أروسپيدي برأسه مُلقيًا الأمر بالتحرُّك، وإذا بصوتٍ يأتي مِن آخر الصفّ قائلًا: «أحدنا غائب». التفت الملازم والرقيب وعدد مِن الطُلَّاب، بينما أخذَت أصوات أخرى تردِّد: «أجل، أحدنا غائب». اقترب الملازم. بينما راح أروسپيدي الآن يتفقَّد الصفوف مُهروِلًا بأقصى سرعة، ويعدّ الحاضرين بأصابعه، إمعانًا في التحقُّق. «أجل، سيدي الملازم»، قال أخيرًا، «كنا تسعة وعشرين، والآن صرنا ثمانية وعشرين». عند ذاك صاح أحدهم: «إنه الشَّاعِر». «الطالب ألبِرتو فِرنانديس غائب، سيدي الملازم»، قال أروسپيدي. «هل كان في الكنيسة؟»، سأل پيتالوغا. «نعم، سيدي الملازم. لقد جاء موقعه خلفي». «المهم ألَّا يكون قد مات هو أيضًا»، غمغم پيتالوغا مشيرًا إلى الرقيب حتى يتبعه.

ما إن وصلا إلى الباب حتى رأياه، في منتصف صحن الكنيسة، حيث حجب عنهما النعش بجسده، وإن لم يحجب الأكاليل. وقف مائلًا ببندقيته بعض الشيء، خافضًا رأسه. توقَّف الملازم والرقيب عند عتبة الباب. «ماذا يفعل هذا الأحمق هناك؟»، سأل الضابط: «أخرجه مِن هنا فورًا». ذهب إليه أروسپيدي. مرَّ بجمع المدنيين، فتلاقت عيناه وعينا الكولونيل. قابله أروسپيدي بانحناءة مِن رأسه، وإن لم يتأكَّد له إن كان الكولونيل قد ردّ التحية بمثلها، لأنه سرعان ما حوَّل وجهه. لم يتحرَّك ألبِرتو حين أمسك أروسپيدي بذراعه. وللحظة، نسي الرقيبُ مهمته حتى يلقي نظرة على النعش: الذي اكتسى القسم العلوي منه بخشب أسود أملس، وانتهى بزجاج مغبش، يمكن للناظر أن يرى من خلاله وجهًا وقبعةً عسكرية، وإن كانت الرؤية ضبابية. تراءى وجه العَبْد مُضمَّدًا بضمادة بيضاء، مُتورِّمًا، أرجوانيًّا. أما أروسپيدي، فلقد هزّ ألبِرتو قائلًا: «لقد اصطفّ الجميع، والملازم في انتظارك عند الباب. أتريد أن تُحرَم مِن الإجازة؟». لم يردّ ألبِرتو، وإنما سار خلف أروسپيدي كالمُسرنَم. وفي منصة العرض، اقترب منهما الملازم پيتالوغا قائلًا لألبِرتو: «أيها الوغد، أتروق لك مراقبة وجوه الموتى؟». ظلّ ألبِرتو ساكتًا، ماضيًا في طريقه إلى الطابور، حيث شغل مكانه في وداعة، على مرأى مِن رفقائه. سأله عدد منهم عما حدث. ولكنه لم يلقِ إليهم بالًا، ولم يبدُ عليه حتى إنه قد انتبه إلى شيء حين رفع بايانو صوته بعد دقائق، سائرًا إلى جواره، وقال بصوت عالٍ بعض الشيء، حتى يسمعه أفراد القسم جميعًا: «الشَّاعِر يبكي».

٣

لقد تعافَت، ولكنها أصبحَت عرجاء إلى الأبد. لا بدّ أن شيئًا ضاربًا في العمق قد التوى. . . عظْمة، غضروف، عضلة. حاولتُ أن أقوِّم ساقها، ولكن سدى، فلقد تيبَّسَت حتى صارت وكأنها خطاف مِن حديد. لم أفلح في تحريكها ولو قليلًا، مهما حاولت، لأن رِيشَة تنطلق في النحيب والركل بساقها، ولذا تركتُها في سلام. كادت تألف الأمر. صارت مشيتها غريبة بعض الشيء، فهي تميل إلى اليمين، وتعجز عن الركض كما في سابق عهدها. صارت تقفز بضع قفزات، ثم تقف مكانها. مِن الطبيعي أن يدركها التعب سريعًا، لأنها مصابة، تحمل جسدها على ثلاث سيقان. والأدهى مِن ذلك أن ساقها المصابة هي الأمامية، التي كانت تتّكئ عليها برأسها، لن تعود هي الكلبة التي كانت أبدًا. بدَّل أفراد القسم اسمها، والآن صاروا يلقِّبونها: الرِّيشَة العرجاء. أعتقد بأن بايانو النيغرو هو الذي قد تفتَّق ذهنه عن ذلك اللقب، فهو الذي يطلق الألقاب على الناس دائمًا. كل شيء يتبدَّل، كما تبدَّلَت رِيشَة، إنها أول مرة تقع فيها أمور كثيرة إلى هذا الحدّ خلال أيام قليلة منذ أن وصلتُ إلى هنا. طُرِد كابا الجَبَلي لأنه قد سرق اختبار الكيمياء، وعُقِد مجلس الضُبَّاط لعقابه، وانتُزِعت الشارات عن كتفيتَيْه. لا بدّ أن المسكين قد وصل إلى أرضه، وبات مُحاطًا بحيوانات اللاما. لم يسبق أن طُرِد طالب من

القسم يومًا، ولكن الحظّ قد تجهَّم لنا، وإذا تجهَّم الحظّ لم يعُد في يد المرء أن يصنع شيئًا، هكذا تقول أمّي دائمًا، وأرى أنها لم يجانبها الصواب. زدْ على ذلك ما حدث للعَبْد. يا لها من كارثة، ليس الأمر أنه قد أصيب برصاصة في رأسه وحسب، بل إنه فوق ذلك قد خضع لجراحات لا أعرف لها عددًا، والأدهى أنه فارق الحياة، لا أعتقد بأن أحدًا قد تعرَّض لما هو أفظع مِن ذلك. حتى وإن حاولوا التظاهر بغير ما يضمرون، فإن تلك المصائب قد غيَّرَتهم جميعًا. لا تخفى عليَّ مثل هذه الأمور. ربما عاد كل شيء إلى سابق عهده، ولكن القسم قد تبدَّلَت أحواله في هذه الأيام، حتى وجوه الفتيان قد تبدَّلَت، فهذا الشَّاعِر مثلًا قد صار شخصًا آخر، لا يشاغب أحدًا ولا ينطق بحرف، وكأن مِن الطبيعي أن يبدو مُتجهِّمًا. لم يعُد يتكلَّم. لقد دُفِن صديقه المُقرَّب منذ أكثر مِن أربعة أيام. كان مِن الممكن له أن يأتي بردّ فعل، ولكنه صار أسوأ حالًا. يومَ وقف جامدًا إلى جوار النعش قلتُ في نفسي: «لقد مزَّقَت المأساةُ قلبه». والحقّ أنه كان رفيقه. أعتقد بأنه الرفيق الذي لم يحظَ العَبْد -أعني آرانا- بأحدٍ غيره في هذه المدرسة. ولكن في الآونة الأخيرة وحسب. فقبل ذلك، حتى الشَّاعِر كان يسخر منه ويشاغبه شأن الجميع. ما السبب الذي جعلهما لا يفترقان، في الجيئة والذهاب؟ كثيرًا ما سخر منهما الآخرون، بل إن مَوْجَة قال للعَبْد: «لقد وجدتَ لنفسك زوجًا». وذلك ما تراءت عليه الحال. فلقد ظلَّ ملتصقًا بالشَّاعِر، يتبعه أينما ذهب، وينظر إليه، ويتحدَّث إليه بصوت خفيض لئلَّا يسمعه أحد. كانا يذهبان معًا إلى الأرض الخلاء حتى يتجاذبا أطراف الحديث بهدوء. وبدأ الشَّاعِر يدافع عن العَبْد كلَّما سخر منه الآخرون. لم يفعلها بصورة مباشرة، لأنه في غاية الدهاء. كان أحدهم يبدأ في مضايقة العَبْد، وما هو إلَّا قليل حتى يسخر الشَّاعِر

مِن ذلك الذي تعرَّض لرفيقه، ويفحمه كالمعتاد. متى سخر الشَّاعِر مِن أحدهم صار وحشًا كاسرًا. أو هكذا كان، على الأقل. الآن لم يعُد يجتمع بأحد، أو يمزح مع أحد، بل إنه صار وحيدًا، كالنائم. يبدو عليه التأثُّر واضحًا. في سابق عهده، كان يتحيَّن الفرص لينغِّص الجميع، حتى صار من المثير أن يراقبه المرء وهو يدافع عن نفسه إن سخر منه أحدهم. «أيها الشَّاعِر، اكتبْ لي قصيدة عن هذا»، قال له بايانو النيغرو ممسكًا بفتحة سرواله. «الآن أكتبُها لك»، أجابه الشَّاعِر، «دعني أبحث عن الإلهام». وما هو إلَّا قليل حتى أنشأ يتلو: «جاء بايانو يلوِّح بشيء قَصِير، يحسب أنه نسرٌ وهو عصفورٌ صغير». كان داهية، يعرف كيف يُضحِك الناس. ولقد سخر مني مرات كثيرة، ما جعلني أريد أن أوسعه ضربًا. نظم أشعارًا جيدة في رِيشَة، ما زلتُ أحتفظ بقصيدة منها مُدوَّنة في دفتر الأدب: «أيتها الكلبة المجنونة، لاحسةٌ أنتِ ومخبولة، لن يترك كوبرا مُؤخِّرتك حتى يرديكِ مقتولة». كدتُ أسحقه سحقًا في تلك الليلة، عندما أيقظ القسم كاملًا ودخل إلى الحمَّام صارخًا: «انظروا ماذا يفعل كوبرا برِيشَة عندما يتسلَّم دورية الحراسة». كان حاضر البديهة. غير أنه لا يجيد القتال. وفي تلك المرة، عندما اشتبك هو والديك، سحقه الآخر مقابل الجدار. لقد تطبَّع الفتى بطباع أهل الساحل بعض الشيء، وكأنه ساحلي أصيل، ولكنه يبلغ من الهزال حدًّا يجعلني أشفق على دماغه كلَّما وجَّه ضربة رأس. لا تضمّ المدرسة كثيرين من ذوي البشرة البيضاء، ولكن الشَّاعِر من أكثرهم قبولًا. أما الباقون فيستحوذ عليهم الخوف، طاخ، طاخ، أيها الأبيض الحقير، احترس وإلَّا خدش الخلاسيون وجهك. لم يكُن في القسم إلَّا طالبان اثنان من أصحاب البشرة البيضاء. أروسبيدي أيضًا لا بأس به. يحشو رأسه بالدروس على نحوٍ فظيع. ولقد ظلّ رقيبًا على القسم ثلاثة

أعوام، يا لهذا الدماغ! ذات مرة رأيتُ أروسپيدي في الشارع، في سيارة فارهة حمراء، وهو يرتدي قميصًا أصفر، فتدلّى لساني خارج فمي عندما رأيتُه أنيقًا إلى هذا الحدّ، سحقًا، إنه أبيض من أصحاب الثروات الطائلة، لا بدّ أنه يعيش في ميرافلوريس. الغريب أن الطالبَيْن صاحبَي البشرة البيضاء في القسم لا يتحدَّث أحدهما إلى الآخر، ولم تجمع بين الشَّاعِر وأروسپيدي صداقةٌ قطّ، أتراهما يخافان أن يُبلِغ كلٌّ منهما عن الآخر لأسباب تخصّ أصحاب البشرة البيضاء؟ لو كنتُ أملك ثروة وسيارة فارهة حمراء لما التحقتُ بالمدرسة العسكرية بأي حال من الأحوال. وما نفع المال ما دام كلاهما يعيش حياةً بائسة شأنهم شأن الجميع هنا؟ ذات مرة قال مَوْجَة للشاعر: «ماذا تفعل هنا؟ يجب عليك أن تلتحق بمدرسة للكهنة». لطالما انشغل مَوْجَة بالشَّاعِر، لعلّه يغير منه، ويتمنَّى في قرارة نفسه لو كان شاعرًا مثله. اليوم قال لي: «هل لاحظتَ أن الشَّاعِر قد صار كالأبله؟». إنها عين الحقيقة. ليس الأمر أنه يفعل أمورًا بلهاء، ولكن الغريب أنه لا يفعل أي شيء. بل إنه صار يقضي يومه مُمدَّدًا على الفراش، مُتظاهِرًا بالنوم، أو مستغرقًا في النوم بحقّ. أراد مَوْجَة أن يختبره، وذهب إليه طالبًا منه أقصوصة، فما كان من الشَّاعِر إلَّا أن قال: «لم أعُد أكتب الأقاصيص، اتركني وشأني». حتى الرسائل لم يعُد يكتبها، على حدِّ علمي. مع أنه كان يفتِّش عن الزبائن كالمجنون في الماضي. ربما صار لديه فائض من المال. في الصباح، صرنا نجد الشَّاعِر قد اتَّخذ موقعه في الصفّ بالفعل عندما نقوم من الفراش. الثلاثاء، الأربعاء، الخميس، صباح اليوم، صار الشَّاعِر أول من يخرج إلى الفناء، واجمًا، ناظرًا إلى شيء لا يعلمه سوى الرَّب وحده، مستغرقًا في الأحلام وهو مفتوح العينَيْن. يقول جيرانه في المائدة إنه ما عاد يأكل. «لقد انكسر الشَّاعِر من فرط

الألم»، قال بايانو لميندوسا، «وبات يترك أكثر من نصف طعامه، فلا يبيعه، بل إنه لا يكترث لو تناوله أي شخص. أصبح يمضي وقته ساكتًا». لقد حطَّمه موتُ رفيقه. هكذا هم أصحاب البشرة البيضاء، مُجرَّد واجهة كاذبة. للواحد منهم وجه رجل وروح امرأة. تنقصهم الصلابة. لقد مرض الشَّاعِر لأنه أكثر مَن تأثَّر بموت الـ. . . آرانا.

*

هل يأتي يوم السبت المقبل؟ لا بأس بالمدرسة العسكرية، والزي العسكري، وكل هذا، ولكن ما أبشع ألَّا يعرف المرء متى يخرج أبدًا. عبرَت تيريسا بوابة ميدان سان مارتين بينما المقاهي والحانات تهدر بمرتاديها، والهواء يضجّ بالضحكات والبيرة والكؤوس التي يشربها الزبائن بعضهم في صحة بعض، بينما طفَت سحب صغيرة مِن الدخان فوق الطاولات المُتراصَّة في الشارع. «لقد أخبرني بأنه لن يلتحق بالجيش»، فكَّرَت تيريسا. «وماذا لو بدَّل رأيه والتحق بأكاديمية تشوريوس الحربية؟». مَن يجد سعادةً في الزواج مِن عسكري! يقضي رجال الجيش حياتهم في القاعدة العسكرية، ولو اندلعَت حرب فهم أوائل القتلى. أضف إلى ذلك أنهم يُنقَلون من مكان إلى آخر طوال الوقت. ما أفظع العيش في الأقاليم، وربما حتى في الأدغال الموبوءة بالبعوض والهمج. مرَّت بحانة سيلا، عند ذاك تناهَت إليها كلمات الغزل التي تركَتها مُتوتِّرة، فهذا جمع من الرجال الناضجين قد رفعوا إليها نصف دزينة من الكؤوس وكأنها حزمة مِن السيوف، وهذا شاب في مقتبل العمر قد بادرها بالتحية، وذلك رجل مخمور حاول أن يعترض طريقها فاضطُرَّت إلى مراوغته. «ولكن كلّا»، مضَت تيريسا تفكِّر. «لن يلتحق بالجيش، بل إنه سوف يغدو مهندسًا. كل ما في الأمر أنني مُضطرَّة إلى انتظاره خمسة أعوام. زمن طويل جدًّا. وإن لم يرغب في الزواج مني بعد ذلك، تركني وأنا كبيرة في السنّ.

ولا أحد يحبّ الكبيرات في السنّ». في باقي أيام الأسبوع، تكاد بوابات الميدان تخلو من الناس. كانت تيريسا تمرّ إلى جوار الطاولات الخالية وأكشاك المجلّات ظُهرًا، فلا ترى إلّا ماسحي الأحذية في الأركان، وباعة الصحف اليومية الذين يمرّون مرورًا خاطفًا. كانت تمضي باستعجال في طريقها إلى الترام لتتناول الغداء بأسرع ما يمكن، ثم تعود إلى المكتب في موعدها. أما في أيام السبت، فتتمهَّل تيريسا وهي تعبر بوابات الميدان المزدحمة الصاخبة، وتمضي ناظرةً إلى الأمام طوال الوقت، وفي نفسها شعورٌ سريٌّ بالرضى: فمِن المُحبَّب إلى نفسها أن يتغزَّل بها الرجال، وألّا تعود إلى العمل في المساء، على الرغم من مشاعر الخوف التي اقترنَت عندها بأيام السبت قبل أعوام. عندما كانت أمّها تمعن في الشكوى والسباب أكثر مما تفعل باقي الأيام، لأن الأب لا يعود حتى ساعة مُتأخِّرة جدًّا من الليل، فيصل كالإعصار، مخمورًا بالكحول والغضب، بعينَيْه المُتوهِّجتَيْن، وصوته الهادر، ويدَيْه الهائلتَيْن اللتين يضمّهما بإحكام، بينما يجوب البيت وكأنه وحشٌ في قفص مُسيَّج بالقضبان، ويترنَّح في سيره، ويلعن البؤس، ويطيح بالكراسي، ويصفق الأبواب، حتى يسقط ويتدحرج على الأرض، هامدًا، مُنهَكًا. عندئذ تتعاونان على خلع ثيابه، وبسط الغطاء فوق جسده: لأنه أثقل مما يسمح لهما بحمله إلى الفراش. وفي مرات أخرى، كان يحضر برفقة إحداهن، فإذا بأمّها تنقضّ على المرأة الدخيلة في ثورة من الغضب، وتحاول أن تخدش وجهها بيدَيْها النحيلتَيْن، بينما يُجلِس الأبُّ تيريسا على ركبتَيْه، قائلًا لها بلذة وحشية: «انظري، إن هذا أفضل من المصارعة!». حتى جاء يوم، مزَّقَت فيه إحدى النساء حاجبَ الأمِّ بقارورة مِن الزجاج، ما اقتضى نقلها إلى الطوارئ. ومنذ ذلك الحين، أصبحَت أمّها كائنًا مغلوبًا على أمره، مُسالِمًا.

وصارت، كلَّما جاء الأب مع امرأة أخرى، تهزّ كتفَيْها، وتسحب تيريسا مِن يدها إلى خارج البيت، فتذهبان إلى بيت خالتها في بيابيستا، ثم ترجعان يوم الإثنين إلى البيت الذي استحال مقبرةً نتنة حافلة بقوارير الشراب الخاوية، حيث ينام الأب خالي البال في بِركة مِن القيء، ويتحدَّث في نومه، ويصبّ جام غضبه على الأثرياء وظلم الحياة. «كان طيبًا، يعمل طوال الأسبوع كالثيران. ثم يشرب حتى ينسى أنه فقير. ولكنه قد أحبَّني، وما كان ليهجرني»، فكَّرَت تيريسا. مرّ ترام ليما-تشوريوس قرب واجهة السجن الضاربة إلى الحمرة، وتلك الكتلة البيضاء حيث يقوم قصر العدالة. وفجأة، ظهر مكانٌ منعش، حافل بالأشجار السامقة ذات التيجان المُتأرجِحة، وبِرك المياه الساكنة، والدروب الملتوية التي تحفّها الأزهار، حيث يمتدّ سهل دائري من النجيل يتوسَّطه بيت مسحور له جدران مُكلَّسة، ونقوش بارزة، ومشربيات، وأبواب كثيرة مُزوَّدة بالمقارع البرونزية على شكل رؤوس بشرية: إنه منتزه لوسغاريفوس. «ولكن حتى أمّي لم تكُن شريرة»، فكَّرَت تيريسا. «كل ما في الأمر أنها قد عانت كثيرًا». حين فارق أبوها الحياة، بعد صراع مرير مع المرض في أحد المستشفيات الخيرية، أخذَتها أمّها إلى باب بيت خالتها ذات ليلة، وعانقتها قائلة: «لا تقرعي الباب حتى أرحل. لقد سئمتُ حياة الكلاب هذه. من الآن فصاعدًا أعيشُ من أجل نفسي، وليغفر لي الرَّب. سوف تعتني بكِ خالتك». كان الترام يقرِّبها من بيتها أكثر مما يفعل الإكسپريس، ولكنه يضطرّها إلى المرور بعدد من البيوت ذات الباحات التي تبثّ القلق في النفوس، وتزدحم برجال من أصحاب الهيئة الرثَّة والثياب البالية الذين يعترضونها بكلمات وقحة، ويحاولون الإمساك بها أحيانًا وهي في طريقها مِن محطة الترام إلى البيت. في تلك المرة لم يزعجها أحد. لم ترَ سوى امرأتَيْن وكلب واحد: عكف

ثلاثتهم على التنقيب بهمةٍ في أكوام القمامة، وسط أسراب الذباب. تراءت البيوت ذات الباحات خاوية. «سوف أنظِّف كل شيء قبل الغداء»، أخذَت تفكِّر وهي تقطع لينسيه، مرورًا بتلك البيوت الخفيضة المتهالكة. «حتى أتفرَّغ في المساء». ومن مكانها عند ناصية البيت، على بعد نصف مربع سكني، رأت ذلك الخيال صاحب الزي الرسمي الداكن، والقبعة البيضاء، والحقيبة الجلدية، على حافة الرصيف. فوجِئَت بجموده الخليق بالتماثيل، وخطر على بالها الحرس الذين يتسمَّرون في أمكنتهم قرب سياج قصر الحكم. ولكن أولئك الحرس ينفخون صدورهم ويرفعون أعناقهم كالفرسان، مزهوين بالبيادات العالية والخوذات التي ينسدل منها الشعر. أما ألبِرتو، فلقد غاصَت كتفاه، وانحنى رأسه، وتراخى جسده. بادرَته تيريسا بالتحية مُلوِّحة بيدها، ولكنه لم يرَها. «يليق به الزيّ العسكري»، فكَّرَت تيريسا. «وما أشدّ بريق الأزرار! يبدو وكأنه طالب في البحرية». وحين صارت تيريسا على مسافة لا تتعدَّى بضعة أمتار، رفع ألبِرتو رأسه. ابتسمَت، فحيَّاها بإشارة من يده. «ما خطبه؟»، تساءلَت تيريسا. بدا ألبِرتو هرِمًا، مختلفًا بشدّة، حتى يكاد الناظر لا يتعرَّفه. ارتسم خطٌّ عميق بين حاجبَيْه، وصارت أجفانه محاقَيْن كلاهما أسود، في حين برزَت عظام وجنتَيْه وكأنها على وشك أن تمزِّق بشرته بالغة الشحوب. تراءت نظراته شاردة، وخلَت شفتاه من الدماء.

- هل خرجتَ من فورك؟ -سألَت تيريسا وهي تتفرَّس في وجه ألبِرتو- ظننتُك لن تأتي حتى مساء اليوم.

لم يردّ. وإنما نظر إليها بعينَيْن خاويتَيْن، مهزومتَيْن.

- يليق بك الزيّ. -قالت تيريسا بصوت خفيض، بعد ثوانٍ.

- لا يروقني الزيّ. -قال، بابتسامة مُختلَسة- لا أكاد أصل إلى البيت حتى أخلعه. ولكني لم أذهب إلى ميرافلوريس اليوم.

مضى يتكلَّم من دون أن يحرِّك شفتَيْه، وجاء صوته أبيض، أجوف.

- ماذا جرى؟ -سألَت تيريسا- لماذا تبدو هكذا؟ هل أنت مريض؟ أخبرني يا ألبِرتو.

- كلّا. -قال ألبِرتو وهو يشيح عنها بعينَيْه- أنا بخير. ولكني لا أريد أن أذهب إلى بيتي الآن. أردتُ أن أراك. -مسح بيده على جبينه، فأزال عنه ذلك الخطّ، ولكن للحظة فحسب- لديّ مشكلة.

ترقَّبَت تيريسا، وقد مالت إليه بعض الشيء، وراحت تنظر إليه نظرةً مفعمة بالحنان كي تحثّه على الاستمرار في الحديث، ولكن ألبِرتو أطبق شفتَيْه، وأخذ يحكّ يدَيْه برقَّة. شعرَت بالغمّ يستحوذ عليها فجأة. ماذا تقول وماذا تفعل حتى يودعها ثقته؟ كيف تشجِّعه؟ وكيف يفكِّر فيها بعد ذلك؟ أخذ قلبها يخفق بسرعة شديدة. تردَّدَت لحظةً أخرى. ثم تقدَّمَت خطوةً نحو ألبِرتو فجأة، وأخذَت بيده.

- تعالَ إلى بيتي. -قالَت- ابقَ معنا لتناول الغداء.

- الغداء؟ -سأل ألبِرتو، حائرًا. ومرة أخرى، مسح بيده على جبينه- كلّا، لا تزعجي خالتك. سوف أتناول شيئًا في هذه الأنحاء ثم أعود لأمرّ بكِ لاحقًا.

- تعالَ، تعالَ. -أصرَّت وهي تلتقط حقيبته مِن الأرض- لا تكُن سخيفًا. لن تنزعج خالتي. تعالَ معي.

مضى ألبِرتو في أثرها. أفلتَت تيريسا يده عند الباب. عضَّت شفتَيْها وهمسَت إليه قائلة: «لا أحبّ أن أراك حزينًا». بدا وكأن نظراته قد اتَّخذَت طابعًا بشريًّا، والآن ابتسم وجهه مُمتنًّا، ومال إليها. تبادلا قبلةً خاطفة على الفم. طرقَت تيريسا الباب. لم تميِّزه خالتها. رمقَته عيناها الدقيقتان بارتياب، تفرَّسَتا في زيِّه العسكري وقد استأثر بهما الفضول. ولكن ما إن التقَت عيناها وجه ألبِرتو حتى

سطع فيهما بريق، وأشرقَت ابتسامة على وجهها البدين. مسحَت الخالة يدها على التنورة، ومدَّتها إليه، في حين انطلق فمها يمطره بوابل من التحيات:

- كيف حالك، كيف حالك سنيور ألبِرتو؟ كم سعدتُ بحضورك! تفضَّل، تفضَّل. كم سعدتُ برؤيتك! لم أتعرَّفك بهذا الزيّ العسكري شديد الأناقة، ورحتُ أتساءل: مَن هو؟ مَن هو؟ لم أنتبه. أكاد أفقد بصري بسبب دخان المطبخ، كما تعرف، والشيخوخة أيضًا. تفضَّل، سنيور ألبِرتو، كم سعدتُ برؤيتك!

ما إن دخلا إلى البيت حتى توجَّهَت تيريسا إلى الخالة قائلة:

- سوف يبقى ألبِرتو لتناول الغداء معنا.

- آه! -قالَت الخالة، وكأن صاعقة قد ضربَتها- ماذا؟

- سوف يبقى لتناول الغداء معنا. -كرَّرَت تيريسا.

توسَّلَت عيناها إلى المرأة لتأتي ببادرة قبول، ولتخفي تلك الدهشة المفرطة. ولكن الخالة لم تخرج من حالة الذهول: بعينَيْها المفتوحتَيْن بشدة، وشفتها السفلى المُتدلِّية، وجبينها الذي انتشرَت فيه التجاعيد، حتى بدَت الخالة وكأنها في غيبوبة. ثم تجاوبَت أخيرًا، وأمرَت تيريسا بلفتة مريرة:

- تعالي.

دارت على عقبَيْها، ثم دخلَت إلى المطبخ وهي تتمايل بجسدها كالجمل المُتثاقِل. مضَت تيريسا في أثرها، وأسدلَت الستار. ما لبثَت أن وضعَت تيريسا إصبعها على فمها، ولكن سدى: لأن الخالة لم تقُل شيئًا، وإنما اكتفَت بالنظر إليها في سخط، وكشَّرَت عن أظافرها.

همسَت تيريسا في سمعها قائلة:

- قد يقبل الصيني أن تشتري منه بالدَّين، ثم نسدِّد يوم الثلاثاء.

لا تقولي شيئًا حتى لا يسمعك، سوف أشرح لكِ الأمر لاحقًا. لا بدّ أن يبقى معنا. لا تغضبي يا خالتي، أرجوك. هيا، أنا مُتأكِّدة أن الصيني سوف يوافق.

- أيتها الحمقاء. -صاحت الخالة، ولكنها لم تلبث أن خفضَت صوتها واضعةً إصبعها على فمها. ثم همسَت قائلة-: أيتها الحمقاء. هل جُننتِ؟ أتريدين أن تقتليني بنوبة من الغضب؟ لم يعُد الصيني يقبل أن أشتري منه شيئًا بالدَّين منذ سنوات. ندين له بالنقود، ولا أستطيع أن أمرّ حتى من هناك، أيتها الحمقاء.

- توسَّلي إليه. -قالت تيريسا- افعلي أي شيء.

- أيتها الحمقاء. -صاحَت الخالة، ثم خفضَت صوتها مرة أخرى- لا نملك إلَّا صحنَيْن. ألن تقدّمي إليه سوى الحساء؟ ليس لدينا حتى خبز.

- هيَّا يا خالتي. -أصرَّت تيريسا- أستحلفكِ بأغلى ما عندك.

ومن دون أن تنتظر منها ردًّا عادَت إلى الصالة، حيث جلس ألبِرتو، وترك حقيبته أرضًا، واضعًا فوقها القبعة. جلسَت تيريسا إلى جواره. وجدَت شعره قذرًا، مائجًا كعُرف الديك. انفتح الستار مرة أخرى، ثم ظهرَت الخالة وقد ارتسمَت ابتسامة مُفتعَلة على وجهها الذي لم يزَل محمرًّا من شدة الغضب.

- أنا آتية، سنيور ألبِرتو. الآن أعود. يجب عليَّ أن أخرج لحظةً، كما تعلم. -نظرَت إلى تيريسا بعينَيْن مشتعلتَيْن-: اذهبي وأعدّي المطبخ.

ثم خرجَت وصفقَت الباب خلفها.

- ماذا جرى لك يوم السبت؟ -سألَت تيريسا- لماذا لم تخرج؟

- لقد مات آرانا. -قال ألبِرتو- ودُفِن يوم الثلاثاء.

- ماذا؟ -قالت- آرانا، الذي يسكن على الناصية؟ مات؟ ولكن، هذا غير معقول. أتعني ريكاردو آرانا؟

- أُقيمَت جنازته في المدرسة. -قال ألبِرتو، بصوتٍ لا يشي بأدنى عاطفة، إن هو إلَّا شيء مِن التعب. ومرة أخرى، بدَت عيناه غائبتَيْن- لم يُحضِروا الجثمان إلى بيته. وقع ذلك يوم السبت الماضي. في أثناء التدريبات الميدانية. بينما نحن نتدرَّب على الرماية. أصابت رأسَه رصاصة.

- ولكن... -قالت تيريسا حين سكت عن الكلام، وقد تراءت عليها الحيرة- لم أعرفه إلَّا قليلًا. ولكني أشعر بأسى بالغ. إنه شيء مُروِّع! -وضعَت يدها على كتفه- كان معك في القسم، أليس كذلك؟ ألهذا تشعر بالحزن؟

- من جهة، نعم. -قال، ببطء- كان صديقي. كما أنه...

- أجل، أجل. -قالت تيريسا- ولكن لماذا تبدَّلَت حالك هكذا؟ ماذا حدث غير ذلك؟ -اقتربَت منه وطبعَت قبلةً على خدِّه. لم يحرِّك ألبِرتو ساكنًا، فاستقامَت وقد تضرَّج وجهها.

- أيبدو لكِ ما جرى شيئًا هيِّنًا؟ -سأل ألبِرتو- أيبدو لك شيئًا هيِّنًا أن يموت هكذا؟ لم أتمكَّن حتى مِن التحدُّث إليه. كان يحسبني صديقه، ولكني... أيبدو لكِ ما جرى شيئًا هيِّنًا؟

- لماذا تتحدَّث إليَّ بهذه النبرة؟ -سألَت تيريسا- صارِحني بالحقيقة، ألبِرتو. لماذا أنتَ غاضب مني؟ هل أخبرك أحدهم بشيء عني؟

- ألا تبالين بموت آرانا؟ -سأل- ألا ترين أنني أتكلَّم عن العَبْد؟ لماذا تبدِّلين دفة الحديث؟ لا تفكِّرين إلَّا في نفسكِ و... - لم يستمرّ في حديثه، إذ اغرورقَت عينا تيريسا بالدموع وارتجفَت شفتاها حين سمعَته يصرخ- معذرة... أتفوَّه بحماقات. لم أقصد أن

أصرخ فيك. كل ما هنالك أن أشياء كثيرة قد وقعَت، وأنا في غاية الانفعال. لا تبكي، أرجوك، تيريسيتا.

جذبها إليه، فاتَّكأت تيريسا برأسها على كتفه، وظلَّ كلاهما على تلك الحال لحظة. ثم قبَّل ألبِرتو وجنتَيْها وعينَيْها، وطبع قبلةً طويلة على فمها.

- أشعرُ بأسى بالغ، طبعًا. -قالت تيريسا- مسكين. ولكني رأيتُك منشغلًا إلى حدٍّ جعلني أشعر بالخوف وأظنُّك قد انزعجتَ مني لسببٍ ما. لقد هالني صراخك في وجهي، فأنا لم يسبق لي أن رأيتُك غاضبًا والشرر يتطاير من عينَيْك كما رأيتُك الآن.

- تيريسا. -قال- أردتُ أن أخبركِ بشيء.

- حسنًا. -قالت، وقد توهَّجَت وجنتاها، وابتسمَت في بهجةٍ غامرة- أخبرني، أريد أن أعرف عنك كل شيء.

أطبق فمه فجأة، وذاب الغمّ المرتسم على وجهه في ابتسامة واهنة.

- ماذا؟ -سألَته- أخبرني يا ألبِرتو.

- أحبُّكِ كثيرًا. -قال.

انفتح الباب، فسارع كلٌّ منهما بالابتعاد عن الآخر: سقطَت الحقيبة الجلدية وتدحرجَت القبعة على الأرض، فانحنى ألبِرتو حتى يلتقطها. ابتسمَت الخالة ابتسامةً ورعة. ومضَت تحمل بين يدَيْها لفافة. راحت تيريسا ترسل إلى ألبِرتو قبلات في الهواء، من وراء خالتها، وهي تساعدها في إعداد الطعام. بعد ذلك تحدَّثوا عن الطقس، والصيف القريب، والأفلام الجيدة. لم تخبر تيريسا خالتها بموت آرانا إلَّا وهم يتناولون الطعام. انطلقَت المرأة تعبِّر عن أسفها للمأساة بصوتٍ عال، ورسمَت علامة الصليب مرات كثيرة، وأعربَت عن شعورها بالشفقة على أبوَيْه، ولا سيما أمّه المسكينة. أكَّدَت أن

الرَّب يصيب خيرة العائلات بشرّ النوازل دائمًا، ولكن أحدًا لا يعرف السبب في ذلك. بدَت وكأنها هي أيضًا تكاد تجهش بالبكاء، غير أنها اكتفَت بالعطس ومسح عينَيْها الجافتَيْن. فرغ ثلاثتهم من تناول الغداء، فقال ألبِرتو إنه سوف يغادر. وعند الباب المُؤدِّي إلى الشارع، سألَته تيريسا مرة أخرى:

- ألستَ غاضبًا مني بحقّ؟

- أقسمُ لك. ولماذا أغضب منك؟ قد لا نلتقي لبعض الوقت. راسليني في المدرسة كل أسبوع. لاحقًا أوضح لكِ الأمر برمّته.

وبعد أن غاب ألبِرتو عن عينَيْها، استحوذَت مشاعر الحيرة على تيريسا. ماذا يعني ذلك التحذير، ولماذا رحل هكذا؟ عند ذاك تجلَّت لها خاطرة: «لقد وقع في حبِّ فتاة أخرى، ولم يجرؤ على أن يخبرني بذلك لأنني قد دعوتُه إلى الغداء».

*

في المرة الأولى ذهبنا إلى لاپِرلا. سألني إغيراس النحيل إن كنتُ لا أمانع في الذهاب سيرًا، أو كنتُ أرغب في ركوب الحافلة. مضينا عَبْر جادة پروغريسو ونحن نتكلَّم عن كل شيء باستثناء المهمة التي أوشكنا على تنفيذها. لم يبدُ النحيل مُنفعِلًا، بالعكس، وجدتُه أهدأ من المعتاد. طاف بخاطري أنه يريد أن يبثّ الطمأنينة في نفسي، وأنا الذي قد تملَّكني الخوف تمامًا. خلع النحيل كنزته وقال إن الطقس حار. في حين أحسستُ أنا ببرد شديد، وأخذ جسدي يرتجف كاملًا، وتوقَّفتُ حتى أتبوَّل ثلاث مرات. وصلنا إلى مستشفى كاريون، فخرج إلينا رجلٌ مِن وسط الأشجار. انتفضتُ صائحًا: «أيها النحيل، الشرطة!». ثم اتَّضح أنه واحد من الرجال الذين اجتمع بهم إغيراس ليلة أمس في حانة ساينس پينيا. بدا في غاية الجدية، وظهر عليه التوتُّر. مضى يتحدَّث إلى النحيل بلغةٍ

خاصة، لم أفهمها جيدًا. تابعنا سيرنا، وبعد حين قال النحيل: «دعونا نختصر الطريق مِن هنا». خرجنا من الشارع وسرنا عَبْر أرض خلاء. خيَّمَت العتمة، ومضيتُ أتعثَّر في سيري طوال الوقت. وقبل أن نصل إلى جادة لاسپالميراس، قال النحيل: «هنا نستطيع أن نتوقَّف حتى نتَّفق على التفاصيل». جلسنا، وأوضح لي النحيل ما يجب عليَّ فعله. قال لي إن البيت خالٍ، وإنهما سوف يساعدانني حتى أتسلَّق وصولًا إلى السطح. كان عليَّ أن أقفز إلى حديقة، ثم أتسلَّل إلى الداخل عَبْر نافذة في غاية الصغر، بلا زجاج، وبعد ذلك أفتح لهما إحدى النوافذ المفضية إلى الشارع، وأخرج عائدًا إلى الموضع نفسه، ثم أنتظرهما هناك. كرَّر عليَّ النحيل تعليماته أكثر من مرة. وبحرص بالغ، أوضح لي موقع النافذة الصغيرة الخالية من الزجاج في الحديقة. بدا أنه يعرف البيت على أكمل وجه، ومضى يصف لي الحجرات بالتفصيل. لم أسأله عما يجب عليّ فعله، بل عما يمكن أن يحدث: «هل أنت مُتأكِّد مِن خلوّ البيت تمامًا؟ وماذا لو وجدتُ في البيت كلابًا؟ ماذا أفعل لو أُمسِك بي؟». أخذ النحيل يهدِّئ من روعي بصبر شديد. ثم التفت إلى الآخر قائلًا: «هيَّا، يا كوليپيه». ذهب كوليپيه إلى جادة لاسپالميراس، وما لبث أن غاب عن أنظارنا. بعد ذلك سألني النحيل: «هل أنت خائف؟». «نعم»، قلتُ له. «قليلًا». «وأنا أيضًا»، أجابني. «ولكن لا تقلق. كلنا خائفون». ما هو إلَّا قليل حتى سُمِع صفير، فقام النحيل قائلًا: «هيَّا بنا. هذا الصفير يعني خلو الجوار من الناس». بدأتُ أرتجف وقلتُ له: «أيها النحيل، الأفضل أن أعود إلى بيابيستا». «لا تكُن أبله»، قال لي. «ما هي إلَّا نصف ساعة حتى ننتهي مِن الأمر». ذهبنا إلى الجادة، وهناك ظهر كوليپيه مرة أخرى. «المكان بالكامل يبدو كالمقبرة، ويخلو حتى من القطط»، قال لنا. كان البيت كبيرًا

كالقصور، غارقًا في العتمة. درنا حول الأسوار. وفي الجزء الخلفي مِن البيت حملني النحيل وكوليپيه حتى تمكَّنت من التسلُّق إلى السطح. ما إن وصلتُ إلى سطح البيت حتى زال عني الشعور بالخوف. أردتُ أن أفعل كل شيء بسرعة بالغة. قطعتُ السطح، فوجدتُ شجرة الحديقة قريبة جدًّا مِن السور، كما أخبرني النحيل. نجحتُ في النزول من دون أن أحدث صوتًا أو أخدش نفسي. ولكني وجدتُ النافذة الخالية مِن الزجاج صغيرةً جدًّا. ودبّ الذعر في نفسي حين رأيتُها مُقفَلةً بالسلك. «لقد خدعني»، فكَّرت. غير أن السلك كان صدئًا، وما كدتُ أدفعه حتى تفتَّت. وجدتُ مشقَّة بالغة في المرور، وأُصِبتُ بخدوش في ظهري وساقَي، وللحظة ظننتُ أنني سوف أبقى عالقًا هناك. تعذَّرَت الرؤية تمامًا داخل البيت، فمضيت أصطدم بقطع الأثاث والجدران. كلَّما دخلتُ إلى حجرة خُيِّل إليَّ أنني سوف أرى النوافذ المُطِلَّة على الشارع، ولكني لم أرَ شيئًا سوى الظلمات. أحدثتُ صخبًا شديدًا وعجزتُ عن الاهتداء إلى وجهتي من فرط التوتُّر. مرَّت الدقائق، وأنا لم أعثر على النوافذ بعد. وفي تلك الأثناء، اصطدمتُ بإحدى الطاولات، وأطحتُ إناء للأزهار، أو شيئًا من هذا القبيل، فتحطَّم وصار فتاتًا على الأرض. كدتُ أبكي حين رأيتُ بصيصًا مِن الضوء في أحد الأركان. لم أكُن قد لمحتُ النوافذ لأن أستارًا شديدة الكثافة تحجبها عن الأنظار. رحتُ أتلصَّص عَبْر النافذة، وهناك وجدتُ جادة لاسپالميراس، غير أنني لم أرَ النحيل أو كوليپيه، فتملَّكني رعبٌ جارف. فكَّرتُ أن: «الشرطة قد جاءت، فتركاني وحيدًا». مضيتُ أختلس النظر حينًا، لعلّهما يظهران. في تلك الأثناء داخلني شعور جارف بالإحباط، وفكَّرتُ: «وماذا يهمّني؟ فأنا قاصر في نهاية المطاف، وأقصى ما في الأمر أن يأخذوني إلى المُؤسَّسة الإصلاحية. فتحتُ النافذة، وقفزتُ مِنها إلى

الشارع. ما كدتُ ألمس الأرض حتى سمعت وقع خطوات، وبلغني صوت النحيل الذي قال: «أحسنتَ يا فتى. والآن اذهب إلى منطقة الحشائش، ولا تتحرَّك». انطلقتُ راكضًا، وعبرتُ الطريق، ثم استلقيتُ أرضًا. شرعتُ أفكّر في ما سأفعل إن وصلَت الشرطة فجأة. كنتُ أنسى أنني هناك أحيانًا. تراءى لي الأمر برمّته حلمًا، وخُيِّل إليَّ أنني في فراشي، وظهر لي وجه تيري، فانتابتني رغبة في رؤيتها والتحدُّث إليها. شرد ذهني تمامًا وأنا مُستغرِقٌ في تلك الخيالات، حتى إنني لم أسمع صوت النحيل وكوليپيه لدى عودتهما. رجعنا إلى بيابيستا عَبْر الأرض الخلاء، ولم نذهب إلى جادة پروغريسو. كان النحيل قد أخذ أشياء كثيرة. توقَّفنا أمام مستشفى كاريون، عند الأشجار. وهناك صنع النحيل وكوليپيه عدة لفائف. ثم ودَّع كلٌّ منهما الآخر قبل الدخول إلى المدينة. قال لي كوليپيه: «لقد اجتزتَ اختبار النار بنجاح يا رفيق». ناولني النحيل بضع لفائف، أخفيتُها بين طيات ثيابي، ونفض كل منا سرواله ومسح حذاءه الذي اكتسى بالغبار. ثم ذهبنا إلى الميدان سيرًا على الأقدام بهدوء. أخذ النحيل يخبرني بالنكات، فاستغرقتُ في الضحك. رافقني إلى باب بيتي، وهناك قال لي: «لقد أبليتَ بلاء حسنًا، كما يليق بالرفيق الصالح. غدًا نلتقي، وأعطيك نصيبك». قلتُ له إنني في حاجة ماسة إلى المال، وإن يكُن مبلغًا صغيرًا، فأعطاني ورقة بقيمة عشرة صولات. «هذا مُجرَّد جزء من نصيبك»، قال لي. «غدًا أعطيك المزيد لو بعتُ ما حصلنا عليه الليلة». لم يسبق لي أن امتلكت مبلغًا كبيرًا كهذا، فجعلتُ أفكِّر في كل ما يمكن عمله بعشرة صولات، وخطرَت على بالي أمور كثيرة، غير أنني لم أستقرّ على أي منها. لم أتأكَّد إلَّا مِن شيء واحد، أنني في اليوم التالي سوف أنفق خمسة ريالات في الطريق إلى ليما. رحتُ أفكِّر: «سوف أحمل إليها هدية». أمضيتُ

ساعات وأنا أحاول العثور على أنسب هدية لها. خطرَت على بالي أغرب الأشياء، بدءًا بالدفاتر والطبشور وصولًا إلى الحلوى وطيور الكناري. في اليوم التالي خرجتُ مِن المدرسة وأنا لم أستقرّ على الهدية بعد. وعند ذاك تذكَّرتُ أنها قد استعارَت مِن الخبَّاز إحدى مجلات القصص المُصوَّرة ذات مرة. ذهبتُ إلى كشك لبيع الصحف، واشتريتُ ثلاث مجلات: واحدة رومانسية واثنتَيْن من مجلات المغامرات. وعلى متن الترام شعرتُ بسرور جارف، وتبادرَت إلى ذهني أفكار كثيرة. انتظرتُها عند المتجر الذي يقع في جادة ألفونسو أوغارتي كالعادة. وما إن خرجَت حتى ذهبت إليها. تصافحنا، وشرعنا نتحدَّث عن مدرستها. كنتُ أتأبَّط المجلات. وعندما قطعنا ميدان بولوغنيسي أخذَت ترمق المجلَّات بطرف عينها حينًا، ثم قالت: «ألديك مجلات قصص مُصوَّرة؟ رائع! هلَّا أعرتَني إياها بعد أن تقرأها؟»، فقلتُ لها: «إنها هدية لك». «حقًّا؟»، سألَتني، فأجبتُها: «طبعًا. إليك». «شكرًا جزيلًا»، قالت، وأخذَت تتصفَّح المجلات في أثناء السير. لاحظتُ أنها قد ألقَت نظرة على المجلة الرومانسية أولًا، واستغرقَت في تصفُّحها أطول مما استغرقَت في مطالعة الأخريين. فأخذتُ أفكِّر: «كان عليَّ أن أشتري ثلاث مجلات رومانسية، فلا يمكن أن تهمّها المغامرات في شيء». وفي جادة آريكا، قالت لي: «سوف أعيرك إياها بعد أن أقرأها». «حسنًا»، أجبتُها. سكتنا حينًا. ثم قالت لي فجأة: «أنت في غاية الطيبة»، فضحكتُ واكتفيتُ بالردّ قائلًا: «لا تصدِّقي ذلك».

*

«كان ينبغي لي أن أخبرها، ولعلّها كانت تسدي إليَّ نصيحة، أتحسب أن ما سوف أفعله أسوأ، وأنني أنا كبش الفداء؟ أنا مُتأكِّد، مَن مُتأكِّد مِن ذلك؟ لا يمكنك أن تخدعني يا ابن الكلبة، لقد رأيتُ

وجهك، وأقسم لك إنك سوف تدفع الثمن. ولكن، هل كان يجب عليَّ أن أفعل ذلك؟». ينظر ألبِرتو، ويُفاجأ بالساحة مترامية الأطراف التي تكسوها الحشائش أمامه، هناك حيث يصطفّ طُلَّاب ليونسيو پرادو في الثامن والعشرين من يوليو لتقديم الاستعراض العسكري. كيف وصل إلى حقل مارتيه؟ الساحة المهجورة، والبرد الطفيف، والنسيم، وضوء الشفق الذي ينهمر على المدينة كالمطر الداكن، كلها أشياء تذكِّره بالمدرسة. ينظر إلى ساعته: بعد ثلاث ساعات أمضاها سائرًا على غير هدى. «أذهبُ إلى بيتي، آوي إلى الفراش، أتصلُ بالطبيب، أتناولُ قرصًا، أنامُ شهرًا، أنسى كل شيء، أنسى اسمي، تيريسا، المدرسة، أعيشُ مريضًا مدى الحياة، المهمّ ألَّا أتذكَّر». يدور على عقبَيْه عائدًا من الطريق الذي جاء منه. يعرِّج على نصب خورخي تشابيس[1] التذكاري. وفي العتمة، يبدو مُثلَّث النصب المحكم وتماثيله الطائرة وكأنها مصنوعة مِن القار. يغمر الجادة نهرٌ من السيارات، فينتظر مع غيره مِن المارة عند الناصية. ولكن حين ينقطع النهر عن الجريان، ويعبر الناس حوله أمام سور مِن مصدَّات السيارات، يبقى هو مكانه، ناظرًا إلى ضوء إشارة المرور الحمراء في بلاهة. «لو كان في يدي أن أعود بالزمن، أن أصنع الأشياء من جديد، أن أخبره بمكان النَّمِر ليلتذاك، على سبيل المثال، ليس موجودًا، وداعًا، وماذا يهمّني لو سُرِقَت سترته، فليتدبَّر كل شخص أمره كيفما استطاع، هذا كل شيء، وهكذا أبقى أنا في هدوء، بدون مشكلة واحدة، وأنصتُ إلى أمي، ألبِرتيتو، ما زال أبوك كعهده دائمًا، يرافق النساء الساقطات ليلًا ونهارًا، يمضي وقته مع العاهرات

---

(١) خورخي تشابيس (١٨٨٧-١٩١٠): طيَّار مِن بيرو، وأول من عبر جبال الألب بالطائرة.

نهارًا وليلًا، يا بني، هكذا هو شأنه دائمًا». الآن يصل إلى موقف الإكسپريس، في جادة الثامن والعشرين من يوليو، تاركًا الحانة خلفه. مرّ من هناك، فلم ينظر إلى الحانة إلّا بطرف عينه، ولكنه ما زال يذكر الصخب والأنوار الصارخة والأدخنة التي وصلَت إلى الشارع. يصل الإكسپريس، فيصعد إليه الركّاب. يسأله السائق: «وأنت؟». يرمقه غير مكترث، فيهزّ السائق كتفَيْه ويوصد الباب. يدور ألبِرتو على عقبَيْه، ويقطع الجزء نفسه من الجادة للمرة الثالثة. يصل إلى باب الحانة، ويدخل إليها، فيتوعَّده الصخب آتيًا من كل صوب. يغشى الضوء بصره، وترفّ أجفانه عدة مرات. يتمكّن من الوصول إلى البار وسط أجساد تنبعث منها رائحة الكحول والتبغ. يطلب دليل الهاتف. «لعلّها تلتهمه الآن رويدًا رويدًا، لو أنها بدأت بالعينَيْن، الرقيقتَيْن، فلا بدّ أنها قد وصلَت إلى العنق، وابتلعَت الأنف والأذنَيْن، وتسلَّلَت تحت أظافره كما يتسلَّل القُراد، ومضَت تلتهم اللحم، يا لها مِن وليمة! كان يجب عليَّ أن أجري هذا الاتصال قبل أن تبدأ في التهامه، قبل أن يُدفَن، قبل أن يموت، قبل...». يعذِّبه الصخب، ويمنعه من التركيز بالقدر الكافي لتحديد موضع الاسم الذي يبحث عنه بين صفوف الأسماء. يعثر عليه أخيرًا، فيرفع السماعة فجأة. يهمّ بالاتصال، ولكن يده تبقى مُعلَّقة على بُعد ميليمترات مِن لوح الأزرار. الآن يدوِّي في سمعه صفير حادّ. وخلف البار، على بُعد متر واحد، تلمح عيناه معطفًا أبيض بياقة مُجعَّدة. يتَّصل بالرقم. ينصت: صمت، فرجفةٌ صوتية، فصمت. يلقي نظرة حوله. في أحد أركان الحانة، يشرب أحدهم نخب امرأة: فيتجاوب الآخرون بحفاوة، ويردِّدون اسمها. ما زال جرس الهاتف يدقّ، على فترات متطابقة. «مَن يتكلَّم؟»، يسأل صوت، فيسكت، وإذا بحلقِه قطعةٌ من الجليد. يتحرَّك الظلُّ الأبيض

المائل أمامه، ويقترب. «أودّ أن أتحدَّث إلى الملازم غامبوا، من فضلك»، يقول ألبِرتو. «الويسكي الأمريكي خراء»، يقول الظلّ، «الويسكي الإنجليزي جيد». «انتظرْ لحظة»، يقول الصوت. «سوف أناديه». أما الرجل الذي كان يشرب نخب المرأة وراءه، فبدأ يلقي خطابًا: «اسمها ليتيسيا، ولا يخجلني الاعتراف بأنني أحبُّها يا شباب. الزواج شيء جاد. ولكني أحبّها، ولهذا أتزوَّج هذه الخلاسية يا فتيان». «ويسكي...»، يسترسل الظلُّ في الكلام. «السكوتش، ويسكي جيد. الإسكتلندي والإنجليزي سيان. لا الأمريكي، بل الإسكتلندي أو الإنجليزي». «آلو»، يصل إليه الصوت، فيحسّ برجفة، ويبعد السماعة عن وجهه قليلًا. «آلو»، يقول الملازم غامبوا. «مَن يتكلَّم؟». «لقد انتهى زمن الصعلكة إلى الأبد يا شباب. ومِن الآن فصاعدًا أغدو رجلًا في منتهى الجدية، وأجتهدُ في العمل حتى أجمع المال وأُسعِد هذه الخلاسية». «الملازم غامبوا؟»، يسأل ألبِرتو. «المونتيسيرپي من أنواع الپيسكو الرديئة»، يؤكِّد الظلّ، «أما الموتوكاتشي فمِن أنواع الپيسكو الجيدة». «أنا غامبوا. مَن يتكلَّم؟». «أنا طالب في المدرسة العسكرية»، يجيب ألبِرتو. «من الفرقة الخامسة». «عاشَت فتاتي الخلاسية، وعاش أصدقائي!». «ماذا تريد؟». «إنه أفضل پيسكو في العالَم، على حدّ علمي»، يؤكِّد الظلّ. ولكنه يتدارك قائلًا: «أو واحد من أفضل أنواع الپيسكو، أجل يا سيدي. پيسكو موتوكاتشي». «اسمك؟»، يسأل غامبوا. «سوف أنجب عشرة أبناء. كلهم مِن الرجال. حتى أسمِّيهم بأسماء أصدقائي، يا شباب. لن أطلق اسمي على واحد منهم، بل أسماءكم أنتم وحسب». «لقد قُتِل آرانا»، يقول ألبِرتو. «أعرفُ مَن الفاعل. أتسمح لي بالذهاب إلى بيتك؟». «اسمك؟»، يسأل غامبوا. «إن أردتَ أن تقتل حوتًا، فاسقِه پيسكو موتوكاتشي، سنيور».

«الطالب ألبِرتو فِرنانديس، سيدي الملازم. مِن القسم الأول. أتسمح لي؟». «احضرْ فورًا»، يقول غامبوا. «٣٢٧، شارع بولوغنيسي. بارانكو». يضع ألبِرتو السماعة.

*

لقد تبدَّلوا جميعًا، وربما تبدَّلتُ أنا أيضًا، ولكني لم أنتبه إلى ذلك. لقد تبدَّل النَّمِر كثيرًا. إنه لشيء مخيف. بات يسيطر عليه السخطُ حتى لم يعُد التحدُّث إليه ممكنًا. يقترب المرء منه ليسأله عن شيء أو يطلب منه سيجارة، فإذا به يردّ وكأنه قد تعرَّض لإهانة شديدة، مُتفوِّهًا بأقذع الألفاظ. لم يعُد يطيق أحدًا، فحالما تصدر من أحدهم أدنى بادرة، بوم، تنطلق ضحكة الشجار المقتضبة، ونُضطَرّ إلى تهدئته، يا نَمِر، ماذا بك، أنا لا أحتكّ بك، فلا تغضب، إنك تشاغب الآخرين بلا داعٍ. صارت يده تنفلت لأدنى سبب، على الرغم من الاعتذار. رأيتُه يضرب عدة فتيان في هذه الأيام. لم يكتفِ بباقي طُلَّاب القسم، بل إنه صار يشاغبنا أنا ومَوْجَة أيضًا. من غير المعقول أن يعاملنا هكذا ونحن من أفراد الحَلْقَة. ولكن النَّمِر قد تبدَّل بسبب ما حدث للجَبَلي. أنتبهُ إلى تلك الأمور كلها. لقد تحوَّل النَّمِر بسبب طرد كابا الجَبَلي، مهما ضحك وحاول أن يُظهِر لنا أنه لا يكترث لما جرى مطلقًا. لم يسبق لي قطّ أن رأيتُه في مثل هذه الفورة من الغضب. لشدّ ما يرتجف وجهه، وبأي كلمات نابية يتفوَّه، سوف أحرقُ كل شيء، وأقتلكم جميعًا، سوف نشعل النار في بناء الضُبَّاط ذات ليلة، أودّ أن أبقر بطن الكولونيل وأصنع مِن أمعائه ربطة عنق. يبدو لي أن دهرًا قد مضى منذ اجتمع ثلاثتنا، نحن المُتبَقّين من الحَلْقَة، منذ أن زُجّ بالجَبَلي في الحجز، وبدأنا نسعى إلى اكتشاف هوية الواشي. إن ما يحدث هنا ليس عادلًا. فها هو ذا الجَبَلي قد انتهى أمره تمامًا، وبات يسكن وسط حيوانات اللاما. بينما الواشي

يعيش في سلام. يُخيَّل إليَّ أن التحقُّق من هويته أمرٌ شديد الصعوبة. ربما رشاه الضُبَّاط بالنقود حتى يتكلَّم. قال النَّمِر: «تكفينا ساعتان حتى نكتشف هوية الواشي. بل أقل. ساعة واحدة تكفي. افتح منخارَيْك تشمّ رائحة الوشاة في الحال». ولكنه محض أوهام. وحدهم الجَبَليون يكشف المرء حقيقتهم بالأنف أو العينَيْن، أما أبناء الساقطات فيبرعون في التخفِّي. لا بدّ أن ذلك هو الشيء الذي قد ثبَّط معنوياته. ولكن يجب عليه أن يجتمع بنا على الأقل، فلطالما كُنَّا رفقاءه. لا أفهم السبب الذي جعله يختلي بنفسه. لا يكاد يقترب منه أحدهم حتى يرسم على وجهه أمارات الكراهية، ويبدو على أهبة الوثب والعضّ. ما أروع ذلك اللقب الذي سُمِّي به، إنه اللقب الأكثر ملائمةً له. لا أفكِّر في التقرُّب منه مرة أخرى، وإلَّا حسبني أتملَّقه، وأنا لم أحاول أن أتكلَّم معه إلَّا بدافع الصداقة. بالأمس تفاديتُ الاشتباك معه بمعجزة، لا أدري السبب الذي جعلني أتمالك نفسي، كان يجب عليّ أن أوقفه عند حدّه، وأعرِّفه مكانه الحقيقي، أنا لستُ خائفًا منه. كان الرائدُ قد أخذنا إلى قاعة المناسبات وبدأ يتحدَّث عن العَبْد، قائلًا إن الأخطاء يُدفَع ثمنها غاليًا في الجيش، ضعوا في رؤوسكم أنكم في صفوف القوات المُسلَّحة ولستم في حديقة الحيوانات، ما لم يرِد أحدكم أن يلقى المصير نفسه، لو كنا في الحرب لاعتُبِر ذلك الطالب خائنًا للوطن لأنه قد استهتر بالمسؤولية، سحقًا، كانت الدماء لتغلي في عروق أي شخصٍ لو نُكِّل بقتيلٍ أمامه، أيها الپيرانيا الحقير، عسى أن يخترق الرصاص رأسك أنت. ولكني لم أغضب وحدي، فكلهم غاضبون مثلي، يكفي أن ينظر المرء إلى وجوههم. قلتُ له: «يا نَمِر، ليس من اللائق أن يتحدَّث بالسوء عن قتيل، لماذا لا نقاطع حديثه بالطنين؟». فقال لي: «الأفضل لك أن تخرس، فأنت غبي، لا تنطق إلَّا بالحماقات. إياك

وأن تكلِّمني ما لم أتوجَّه إليك بالسؤال». لا بدّ أنه مريض، فمثل هذه التصرُّفات لا تليق بشخص سليم، لا بدّ أن رأسه مريض، وأنه قد فقد عقله تمامًا. لا تحسب أنني أحتاج إلى رفقتك يا نَمِر، كنتُ أتبعك لتمضية الوقت، ولكني لم أعُد في حاجة إلى ذلك، فما هو إلَّا قليل حتى تنتهي هذه الفوضى، ولن نلتقي وجهًا لوجه مرة أخرى. متى خرجتُ من هذه المدرسة، فلن أعاود لقاء أحد من هنا، ما عدا رِيشَة، ربما أسرقها وأتبنَّاها.

*

يسير ألبِرتو في شوارع بارانكو الهادئة، وسط بيوت كبيرة باهتة تعود إلى مطلع القرن، تفصل بينها وبين الشارع حدائق عميقة. تلقي الأشجارُ العالية الوارفة بظلالها التي تبدو كالعناكب على الرصيف. بين حين وآخر، يمرّ الترام حافلًا بالركاب الذين ينظرون مِن خلال النوافذ، وقد ارتسمَت على وجوههم أمارات الضجر. «كان ينبغي لي أن أخبرها بكل شيء، تصوَّري ماذا حدث، لقد وقع في حبّك، أبي يقضي وقته مع العاهرات ليلًا ونهارًا، وأمّي تحمل صليبها وتتلو صلاة المسبحة، وتعترف أمام الكاهن اليسوعي، پلوتو وبيبيه يتجاذبان أطراف الحديث في بيت كذا، وينصتان إلى الأسطوانات في صالون فلان، ويرقصان رقصة كذا، خالتكِ تأكل شعرها في المطبخ، أما هو فتأكله الديدان لأنه أراد أن يخرج لرؤيتك، ولكن أباه لم يسمح له، تصوَّري، أيبدو لكِ ذلك هيّنًا؟». ترجَّل عن الترام في محطة لاغونا. جلس أزواج وأسرات كاملة على العشب، تحت الأشجار، لتنشُّق هواء الليل المنعش، بينما راح البعوض يطنّ على ضفاف بِركة الماء، قريبًا مِن القوارب الجامدة. يقطع ألبِرتو المتنزه، والملاعب الرياضية: تظهر الأراجيح على الأضواء الآتية من الجادة، أما عوارض الجمباز والترابيز والسلّم الدائري والزلَّاقة

فتستلقي غارقةً في الظلال. يسير إلى الميدان المُضاء، ثم يتجنَّبه مُنعَطِفًا إلى كاسر الأمواج الذي يستشعر وجوده في الخلفية، في موضع لا يبعد كثيرًا، خلف بيت كبير أسواره بلون القشدة، بيت أعلى مِن سائر البيوت، يغمره الضوء المائل الآتي مِن عمود الإنارة. وعلى كاسر الأمواج، يقترب من الحاجز شاخصًا بعينَيْه: لا يتشابه بحر بارانكو وبحر لاپرلا، فأولهما صموت، خالٍ مِن الأمواج، وكأنه بحيرة. أما ثانيهما فينبض بالحياة أبدًا، ويهدر في الليل غاضبًا. «وأنتِ أيضًا تقع عليكِ اللائمة، قلتُ لكِ إنه قد مات فلا بكيتِ ولا أسفتِ له. أنتِ أيضًا تقع عليكِ اللائمة، ولو أخبرتُك بأن النَّمِر هو الذي أرداه قتيلًا لقلتِ: يا للمسكين، أهو نَمِر حقيقي؟ ما كنتِ لتبكين، وهو الذي قد أحبّكِ حدَّ الجنون. أنتِ الملومة، لم تهتمّي بشيء سوى تعابير وجهي الجادّة. أنتِ المذنبة، لم تهتمّي بشيء سوى تعابير وجهي، حتى ذات القدمَيْن الذهبيتَيْن أرقّ منكِ قلبًا، وهي المرأة الساقطة».

البيت عتيق، مُؤلَّف مِن طابقَيْن، وله شرفات تطلّ على حديقة خالية مِن الأزهار. يمتدّ السياج الصدئ في درب مستقيم وصولًا إلى المدخل، إلى ذلك الباب العتيق المشغول بنقوش ضبابية تشبه الكتابة الهيروغليفية. يقرع ألبِرتو الباب بمفاصل الأصابع. ينتظر بضع ثوانٍ. يرى الجرس، فيضغط الزر بإصبعه، ويرفعها في الحال. يسمع وقع خطوات قادمة، فيتَّخذ وضع الانتباه.

- ادخل. -يقول غامبوا وهو يفسح الطريق.

يدخل ألبِرتو، ويسمع صوت الباب الذي أُقفِل خلفه. يمرّ الملازم إلى جواره، ويتقدَّمه عَبْر رواقٍ طويل غارق في الغبش. يمضي ألبِرتو في أثره على أطراف أصابعه، حتى يكاد ظهر غامبوا يلامس وجهه. لو توقَّف الضابط فجأة، لاصطدم به. ولكن الملازم

لا يتوقَّف. يمدّ يده فاتحًا بابًا في نهاية الرواق، ويدخل منه إلى حجرة. ينتظر ألبِرتو في الرواق. يضيء غامبوا المصباح. يدخلان إلى صالة عُلِّقَت على جدرانها الخضراء لوحات ذات أُطُرٍ مُذهَّبة. ومِن فوق طاولةٍ، أخذ رجلٌ يرمق ألبِرتو بعناد: من صورةٍ عتيقة، ورقها أصفر، يطلّ منها ذلك الرجل ذو السوالف واللحية البطريركية والشارب المُدبَّب.

- اجلس. -يقول غامبوا مشيرًا إلى الأريكة.

يجلس ألبِرتو، فيغوص جسده في الأريكة وكأنه يحلم. في تلك اللحظة يتذكَّر أنه ما زال يعتمر القبعة، فيخلعها مُعتذِرًا بصوت خافت. ولكن الملازم لا يسمعه، بل إنه في تلك اللحظة يوصد الباب وظهره إلى ألبِرتو. يدور على عقبَيْه، ثم يجلس أمامه في مقعد رفيع السيقان، وينظر إليه.

- ألبِرتو فِرنانديس. -يقول غامبوا- هل قلتَ لي إنك مِن القسم الأول؟

- نعم، سيدي الملازم. -يميل ألبِرتو إلى الأمام قليلًا، فيطلق زنبرك الأريكة صريرًا قصيرًا.

- حسنًا. -يقول غامبوا- تكلَّم.

ينظر ألبِرتو إلى الأرض، فيرى البساط المنقوش برسوم زرقاء وأخرى بلون القشدة: دائرة تضمّ أخرى أصغر حجمًا، فأخرى. يعدّها: اثنتا عشرة دائرة تنتهي بنقطة رمادية اللون. يرفع عينَيْه. يستقرّ خلف الملازم صوان يعلوه سطحٌ من الرخام، له جوارير مُزوَّدة بمقابض معدنية.

- أنا منتظر أيها الكاديت. -يقول غامبوا.

يلتفت ألبِرتو إلى البساط مرة أخرى.

- لم يكُن موت الطالب آرانا حادثة. -يقول- لقد قُتِل. قُتِل بدافع الانتقام، سيدي الملازم.

يرفع عينَيْه. لا يتحرَّك غامبوا. يتراءى وجهه جامدًا، فلا ينمّ عن مفاجأة ولا عن فضول. لا يطرح عليه سؤالًا واحدًا. يستند بيدَيْه إلى ركبتَيْه، مُباعِدًا بين قدمَيْه. يكتشف ألبِرتو أن للمقعد الذي يشغله الملازم أطراف حيوان: أخفاف مفلطحة ومخالب حادة.

- لقد قُتِل آرانا. فعلها أفراد الحَلْقَة. -يردف ألبِرتو- كانوا يمقتونه. لقد كرهه أفراد القسم كلهم، بلا سبب واحد، فهو لم يحتكّ بأحد. كرهوا آرانا لأنه لم يحبّ المزاح والشجار. كادوا يدفعونه إلى الجنون، ومضوا يشاغبونه طوال الوقت، والآن أردوه قتيلًا.

- هدّئ من روعك. -يقول غامبوا- أخبرني بكل جزء على حدة. وتكلَّم بثقة تامة.

- حسنًا، سيدي الملازم. -يقول ألبِرتو- لا يعرف الضُبَّاط شيئًا مما يجري في الثكنات. لطالما كان الطُلَّاب كلهم يعادون آرانا، ويتسبَّبون في حرمانه مِن الإجازة، ولا يتركونه في سلام لحظة واحدة. وها هم الآن قد هدؤوا. لقد فعلها أفراد الحَلْقَة سيدي الملازم.

- مهلًا. -يقول غامبوا، فينظر إليه ألبِرتو. في هذه المرة يتحرَّك الملازم حتى يصل إلى حافة المقعد، ويستند بذقنه إلى راحة يده- أتعني أن طالبًا مِن القسم قد أطلق النار على آرانا عن عمد؟ أهذا ما تقصد؟

- أجل، سيدي الملازم.

- قبل أن تفصح عن اسم ذلك الشخص. -يردف غامبوا برفق- من واجبي أن أنبِّهك إلى شيء: إن اتهامًا من هذا القبيل أمر في غاية

الخطورة. أعتقد بأنك تدرك كل العواقب التي ربما ترتَّبَت على تلك المسألة. كما أعتقد بأنه ليس لديك أدنى شكّ في ما أنت فاعل. إن اتهامًا كهذا ليس لعبة. أتفهمني؟

- نعم، سيدي الملازم. -يقول ألبِرتو- لقد فكَّرتُ في الأمر. لم أتكلَّم من قبل لأنني شعرتُ بالخوف. ولكني لم أعُد خائفًا. - يفتح فمه حتى يتابع حديثه، ولكنه لا يفعل. أما وجه غامبوا، الذي يراقبه ألبِرتو مِن دون أن يخفض عينَيْه، فيبدو بارز الخطوط، مفعمًا بالرصانة. ما هي إلَّا ثوانٍ حتى تذوب القسمات الدقيقة لذلك الوجه، وتمتقع بشرة الملازم السمراء. يغمض ألبِرتو عينَيْه. ولثانية، يرى وجه العَبْد الشاحب المصفرّ، ونظراته الهاربة، وشفتَيْه الخجولتَيْن. لا يرى إلَّا وجهه. وعندما يفتح عينَيْه مرة أخرى، يتعرَّف الملازمَ غامبوا، وتحضر إليه ذكرى الحقل المفروش بالحشائش والفِكّونة وكنيسة المدرسة والفراش الخاوي في الثكنة.

- أجل، سيدي الملازم. -يقول- أتحمَّلُ المسؤولية. لقد قتله النَّمِر ثأرًا لكابا.

- ماذا؟ -يسأل غامبوا تاركًا يده تسقط، بينما تبدو عيناه وقد استأثر بهما الفضول.

- لقد وقع الأمر برمّته بسبب العقاب بالحرمان مِن الإجازة، سيدي الملازم. بسبب الزجاج المكسور. لقد تعذَّب كثيرًا بذلك، أكثر من أي طالب سواه. أمضى شهرًا كاملًا من دون أن يخرج مِن المدرسة. في البدء سُرِقَت بيجامته. وفي الأسبوع التالي عاقبتَه حضرتك لأنه قد ألقى إليَّ بالإجابات في اختبار الكيمياء. شعر باليأس، وبالحاجة الماسّة إلى الخروج، أتفهمني، سيدي الملازم؟

- كلّا. -قال غامبوا- لا أفهم كلمة واحدة مما تقول.

- أقصد أنه كان واقعًا في الحبّ، ومعجبًا بفتاة، سيدي

الملازم. لم يكُن للعَبْد أصدقاء ولا رفقاء، لا بدّ مِن الأخذ بذلك في الحسبان. مضى الطُلّاب كلهم ينغِّصونه. أراد أن يخرج لمقابلة تلك الفتاة. ليس لك أن تتخيَّل كم نغَّص الآخرون عيشه طوال الوقت، وسرقوا أغراضه، وسجائره.

- سجائر؟ -سأل غامبوا.

- الكل يدخِّن في المدرسة. -يقول ألبِرتو، في عدوانية- كل طالب يدخِّن علبة سجائر يوميًّا. أو أكثر. لا يعلم الضُبَّاط شيئًا مما يجري. كلهم قد نغَّصوا حياة العَبْد، حتى أنا. ولكنني بعد ذلك أصبحتُ صديقه، صديقه الوحيد. كان يخبرني بشؤونه الخاصة. ظلّوا يتحرَّشون به لأنه يخاف من الشجار. ليس الأمر مُجرَّد مزحة سيدي الملازم، بل إنهم كانوا يتبوَّلون عليه وهو نائم في الفراش، ويمزِّقون ثيابه حتى يُعاقَب بالحرمان مِن الإجازة، ويبصقون في طعامه، ويرغمونه على الوقوف في آخر الصف وإن سبق الآخرين جميعًا.

- مَن هم؟ -سأله غامبوا.

- كلهم، سيدي الملازم.

- هدِّئ مِن روعك، أيها الكاديت. أخبرني بكل شيء بالترتيب.

- لم يكُن خبيثًا. -يقاطعه ألبِرتو- لم يكره سوى العقاب بالحرمان مِن الإجازة، كاد الحبس يدفعه إلى الجنون. وأمضى شهرًا كاملًا مِن دون أن يخرج. في حين لم تراسله الفتاة. حتى أنا قد أسأتُ إليه بشدَّة، سيدي الملازم. أسأتُ إليه بشدَّة.

- تكلَّمْ ببطء أكبر. -يقول غامبوا- تمالكْ أعصابك أيها الكاديت.

- حسنًا، سيدي الملازم. هل تذكر عندما عاقبتَه حضرتك بالحرمان مِن الإجازة لأنه قد ألقى إليَّ بالإجابات في الاختبار؟ كان

يُفترَض به أن يذهب إلى السينما مع الفتاة يومذاك. ولذا طلب مني أن أبلغها رسالة. ولكني قد خنتُه. والآن صارت الفتاة تواعدني أنا.

- آه. -قال غامبوا- الآن بدأتُ أفهم شيئًا.

- لم يعرف شيئًا من ذلك. -يقول ألبِرتو- ولكنه كان مُتلهِّفًا للقائها، راغبًا في معرفة السبب الذي منع الفتاة من مراسلته. في حين بات من الوارد أن يستمرّ العقاب شهورًا بسبب الزجاج المكسور، فما كان الضبَّاط ليكتشفون أن كابا هو الفاعل وحدهم، ذلك أنهم لا يكتشفون شيئًا مما يجري في الثكنات ما لم نرغب نحن في ذلك، سيدي الملازم. ولكنه لم يكُن كغيره مِن الطُّلَّاب، فلم يجرؤ على الهرب قفزًا مِن فوق السور.

- الهرب؟

- الكل يهرب، حتى الكلاب يهربون. في كل ليلة يتسلَّل أحدهم إلى الشارع. ما عدا هو، سيدي الملازم. لم يهرب قطّ. ولذا توجَّه إلى أوارينا، أقصد الملازم أوارينا، وأبلغ عن كابا. ليس لأنه واشٍ. بل إنه قد فعلها حتى يخرج إلى الشارع. ولكن أفراد الحَلْقَة عرفوا بما حدث، أنا مُتأكِّد أنهم قد اكتشفوا أمره.

- ماذا تقصد بالحَلْقَة؟ -سأل غامبوا.

- إنهم أربعة طُلَّاب مِن القسم، سيدي الملازم. أو بالأحرى ثلاثة، لأن كابا قد غادر. يسرقون الاختبارات والثياب ويبيعونها. يعقدون الصفقات. يبيعون كل شيء بسعر أغلى، السجائر، والمشروبات الروحية.

- هل أنت تهذي؟

- شراب البيسكو والبيرة، سيدي الملازم. ألم أقُل لك إن الضُبَّاط يجهلون كل شيء؟ يشرب الطُّلَّاب في المدرسة ليلًا أكثر مما يفعلون في الشارع. بل إنهم يشربون خلال أوقات الراحة أحيانًا.

بلغهم أن كابا قد افتضح أمره، فثارت ثائرتهم. ولكن آرانا لم يكُن واشيًا، لم يكُن في الثكنة وشاة قطّ. لقد أردوه قتيلًا للثأر منه.

- مَن قتله؟

- النَّمِر، سيدي الملازم. أما الآخران، كوبرا ومَوْجَة، فما كانا ليطلقان النار، مع أن كليهما همجي. النَّمِر هو الفاعل.

- ومَن هو النَّمِر. -سأل غامبوا- أنا لا أعرف ألقاب الطُلَّاب. أخبرني بأسمائهم.

أخبره ألبِرتو بالأسماء ثم تابع حديثه الذي مضى غامبوا يقطعه مِن آن إلى آخر مُستوضِحًا، مُستفهِمًا عن الأسماء والتواريخ. بعد وقت طويل، سكت ألبِرتو، وبقي مطأطئ الرأس. أشار الملازم إلى مكان الحمام، فذهب ألبِرتو إلى هناك، ثم عاد وقد بلَّل وجهه وشعره. ظلّ غامبوا جالسًا على المقعد الذي ينتهي بأطراف الحيوانات، وارتسمَت على وجهه أمارات التأمُّل. بينما ظلّ ألبِرتو واقفًا.

- اذهبْ إلى بيتك، الآن. -قال غامبوا- غدًا سأكون في نقطة الحراسة. لا تدخل إلى ثكنتك، بل احضرْ للقائي مباشرة. وتعهَّد إليَّ بأنك لن تخبر أحدًا بهذه المسألة في الوقت الحالي. لن تخبر أحدًا، كائنًا من كان، حتى والدَيْك.

- عُلِم، سيدي الملازم. -قال ألبِرتو- أتعهَّد إليك بذلك.

مكتبة
t.me/soramnqraa

٤

قال إنه قادم ولكنه لم يأتِ، فنازعَتني رغبةٌ في قتله. بعد تناول الطعام، صعدتُ إلى السقيفة كما اتَّفقنا، ومكثتُ أنتظره هناك حتى تعبتُ مِن الانتظار. رحتُ أدخِّن مستغرقًا في التفكير، لا أدري كم مرّ من الوقت وأنا على تلك الحال. كنتُ أقوم لأختلس النظر عَبْر الزجاج بين حين وآخر، فأجد الفناء خاليًا في كل مرة. حتى رِيشَة لم تحضر، وهي التي تتبعني طوال الوقت. غير أنها لم تكُن هنا في تلك اللحظة، عندما أردتُها إلى جواري في السقيفة حتى أطرد الخوف عني: انبحي أيتها الكلبة، واصرفي الأرواح الشريرة. عندئذ خطر لي: أن مَوْجَة قد خانني. ولكن ليس هذا ما جرى، كما أدركتُ لاحقًا. خيَّمَت العتمة وأنا لا أزال في ركنٍ مِن أركان السقيفة، وقد استحوذ على جسدي إحساسٌ جارف بالتوتُّر، فنزلتُ عائدًا إلى الثكنات في ما يشبه الركض. وصلتُ إلى الفناء والصفارة تنطلق. لو مكثتُ أنتظره أطول مما فعلتُ لخُصِمَت مني ست نقاط، ولكن الأمر لم يخطر له حتى على بال، كم تمنَّيتُ أن أوسعه ضربًا. رأيتُه في أول الصفّ، فأشاح بعينَيْه عني. وقف فاغر الفم، وكأنه من أولئك الحمقى الذين يتحدَّثون إلى أنفسهم هائمين في الشوارع. وفي تلك اللحظة أدركتُ أن مَوْجَة لم يذهب إلى السقيفة لأنه خائف. «في هذه المرة سوف نقع في ورطة بحقّ»، قلتُ في نفسي، «الأفضل أن أجهِّز

حقيبتي، سوف أذهب لأجني قوتي كيفما اتَّفق لي، وأهرب عَبْر الإستاد قبل أن تُنتزَع شاراتي، وأختطف رِيشَة، لن ينتبهوا حتى إلى ذلك». مضى الرقيب يقرأ الأسماء، فيردّ كل طالب قائلًا: حاضر. ثم نادى اسم النَّمِر، ما زلتُ أحسُّ بالقشعريرة في ظهري، ما زلتُ أحسُّ بالرجفة في ساقَي، عند ذاك نظرتُ إلى مَوْجَة الذي التفت إليّ ورمقني بعينَيْه، ومضى الكل يتلفَّت، لا أدري من أين أتيتُ بالقوة اللازمة حتى أتمالك نفسي. سعل الرقيب واستمرّ في قراءة قائمة الأسماء. ثم اندلعَت الفوضى العارمة، فما كدنا ندخل إلى الثكنة حتى هرول جميع أفراد القسم إلينا أنا ومَوْجَة صارخين: «ماذا جرى؟ أخبرانا، أخبرانا بما جرى». ولكن أحدًا لم يصدِّق أننا لا نعرف شيئًا، فتجهَّم مَوْجَة قائلًا: «لا شأن لنا بما يجري، صدِّقوا ولا تلحّوا في السؤال هكذا، اللعنة». تعالي يا رِيشَة، لا تهربي مني الآن، لا تكوني مُراوِغة هكذا. الآن وقد استحوذ عليَّ الكدر وصرتُ في أمسّ الحاجة إلى الصحبة. في وقت لاحق، بعد أن أوى الطُلَّاب إلى الفراش، توجَّهتُ إلى مَوْجَة قائلًا: «أيها الخائن، لماذا لم تذهب إلى السقيفة؟ لقد انتظرتُك هناك طوال ساعات». وجدتُه أشدّ خوفًا، إلى حدٍّ يُرثَى له. وأسوأ ما في الأمر أنه كان خوفًا مُعدِيًا. يجب ألَّا يرونا معًا يا كوبرا، انتظرْ حتى يستغرقوا في النوم يا كوبرا، بعد ساعةٍ أوقظك مِن النوم وأخبرك بكل شيء يا كوبرا، اذهب إلى فراشك واغرب عن وجهي يا كوبرا. شتمتُه، وقلتُ له: «لو خدعتَني، قتلتُك». ولكني أويتُ إلى الفراش. ما هو إلَّا قليل حتى أُطفِئَت الأنوار، فرأيتُ بايانو النيغرو ينزل عن سريره ويأتي إليّ. قال كلامًا معسولًا، وأخذ يتودَّد إليَّ، ذلك الداهية الكبير. أنا صديقكم يا كوبرا، أخبرني بما جرى، ومضى يتملَّقني بأسنان الفأر المُطِلّة من فمه. وفي غمرة الحزن، ضحكتُ إذ رأيتُه يولِّي راكضًا حالما كشَّرتُ

عن قبضتي وتجهَّمتُ في وجهه. تعالي أيتها الكلبة الصغيرة، كوني طيبة معي، فأنا أمرُّ بلحظات عصيبة، ولا تهربي مني. رحتُ أقول: إن لم يأتِ، ذهبتُ إليه وسحقتُه. ولكنه جاء بعد أن استغرق الطُلَّاب كلهم في الغطيط. اقترب مني ببطء قائلًا: «هيا نذهب إلى الحمَّام حتى نتكلَّم، هكذا أفضل». جاءت الكلبة في أثري، وراحت تمرِّر لسانها على قدمَي، لسانها الحارّ دائمًا. كان مَوْجَة يتبوَّل، فتراءى لي أنه لن ينتهي أبدًا، وظننتُه يتباطأ عن عمد، فأطبقتُ يدي على مُؤخَّر عنقه، وشرعتُ أنفضه قائلًا: «أخبرني بما جرى فورًا».

لم أعجب للنَّمِر مطلقًا، كنتُ أعرف أنه مُتبلِّد المشاعر، ومَن يندهش لو أنه قد زجّ بنا جميعًا في تلك الفوضى. أخبرني مَوْجَة بأن النَّمِر قد قال: «لو سقطتُ أنا، سقط معي الجميع»، لا أعجب لذلك. ولكن حتى مَوْجَة لا يعرف الكثير، لا تفرطي في الحركة يا رِيشَة وإلَّا خدشتِ بطني، توقَّعتُ منه أن يخبرني بأمور كثيرة. أما ذلك فشيء يمكن لي أن أتوقَّعه. يقول إنهم كانوا يلعبون لعبة التصويب، مُتَّخذين مِن قبعة أحد الكلاب هدفًا لهم، وإن الأحجار التي رماها النَّمِر كلها قد أصابَت الهدف على بُعد عشرين مترًا، فمضى الكلب يقول لهم: «لقد مزَّقتم قبعتي، سادتي الكاديت». أذكر أنني قد رأيتُهم في الأرض الخلاء، فظننتُهم قد ذهبوا إلى هناك لتدخين السجائر، وإلَّا كنتُ سأنضمّ إليهم، إذ يروقني التصويب كثيرًا، ونظري أشدّ حدَّةً من نظر مَوْجَة والنَّمِر. يقول إن الكلب قد تمادى في الاحتجاج، فحذَّره النَّمِر: «إن لم تكفّ عن الكلام صوَّبتُ إلى فتحة سروالك، الأفضل لك أن تخرس». ويقول إنه قد التفت إلى مَوْجَة عند ذاك، وقال له من دون مناسبة: «يبدو لي أن الشَّاعِر لم يحضر إلى المدرسة اليوم لأنه قد مات. إنه عام الأموات. ولقد حلمتُ أن القسم سوف يشهد المزيد من الجثث قبل نهاية العام».

يقول مَوْجَة إن أعصابه قد توتَّرَت حين سمعه يتكلَّم بهذا الكلام، فمضى يرسم علامة الصليب، وعندئذ وقعَت عيناه على غامبوا. لم يُخيَّل إليه أن الملازم قد جاء مِن أجل النَّمِر. أنا أيضًا ما كان ليخطر لي ذلك على بال، يا له مِن شيء غير مُتوقَّع! ولكن مَوْجَة فتح عينَيْه عن آخرهما قائلًا: «لم أفكِّر حتى إنه آتٍ من أجلنا يا كوبرا، ولم أشكّ في ذلك لحظةً واحدة. لم أفكِّر إلَّا في ما قال النَّمِر عن الجثث وعن الشَّاعِر، وإذا بي أرى الملازمَ قادمًا إلينا مباشرة، ناظرًا إلينا، يا كوبرا». أيتها الكلبة، ما الذي يجعل لسانكِ حارًّا طوال الوقت هكذا؟ يذكِّرني لسانك بكؤوس الشفط التي كانت أمّي تضعها على جسدي لتخليصه من الأوبئة كلَّما أصابني مرض. يقول إنه، عندما صار الملازم على بُعد عشرة أمتار، قام الكلب، وقام النَّمِر أيضًا، واتَّخذ وضع الانتباه. «في تلك اللحظة أدركتُ أنه لم يحضر لمُجرَّد أن الكلب كان حاسر الرأس، بلا قبعة، ذلك أنه لم ينظر إلى أحد سوانا، كما ظهر بوضوح، ولم يرفع عينَيْه عنا يا كوبرا». يقول إنه قد بادرهما قائلًا: «صباح الخير أيها الكاديت»، ولكنه لم يعُد ينظر إلى مَوْجَة، بل إلى النَّمِر وحده، فأفلت النَّمِر الحجر مِن يده. «اذهبْ إلى نقطة الحراسة»، قال له الملازم. «قدِّم نفسك إلى الضابط المناوب، وخذْ معك البيجامة وفرشاة الأسنان والمنشفة والصابون». يقول مَوْجَة إنه قد امتقع، ولكن النَّمِر ظلَّ مُحتفِظًا بالهدوء، بل إنه سأل الملازم بوقاحة: «أنا، سيدي الملازم؟ ولماذا، سيدي الملازم؟»، بينما انطلق الكلب ضاحكًا، ليتني أعثر على ذلك الكلب. لم يردّ الملازم غامبوا، وإنما اكتفى بقوله: «اذهبْ فورًا». مِن المؤسف أن مَوْجَة لا يذكر وجه ذلك الكلب الذي استغلّ فرصة وجود الملازم فالتقط قبعته وسارع بالهرب. لا أعجب لأن النَّمِر قال لمَوْجَة: «اللعنة، لو أن الاختبار هو السبب، أقسمُ لك إن كثيرين منكم سوف

يندمون على اليوم الذي وُلِدوا فيه»، ذلك شيء يليق به. يخبرني مَوْجَة بأنه قال للنَّمِر: «لعلّك لا تحسبني واشيًا، أنا أو كوبرا». فأجابه النَّمِر: «أتمنَّى ألّا تكونا واشِيَيْن، لمصلحتكما. لا تنسيا أنكما قد تورَّطتما بقدر ما تورَّطتُ أنا. حذِّرْ كوبرا، وسائر الطُّلّاب الذين اشتروا الاختبارات. حذِّر الجميع». أعرفُ البقية، لأنني رأيتُه خارجًا مِن الثكنة وهو يجرجر البيجامة التي تدلَّت مِن ذراعه إلى الأرض، ويضع الفرشاة بين أسنانه كالغليون. فُوجِئتُ بذلك، لأنني حسبتُه في طريقه إلى الاستحمام، علمًا أن النَّمِر ليس مثل بايانو، الذي يستحمّ كل أسبوع، حتى أُطلِق عليه في الفرقة الثالثة «الرجل المائي». لسانكِ حارّ يا رِيشَة، لسانكِ طويل حارق.

*

قالت لي أمّي: «لقد انتهَت الدراسة، اذهب إلى أبيك الروحي حتى يجد لك عملًا»، فأجبتُها: «أعرفُ كيف أجني المال من دون أن أترك الدراسة، لا تشغلي بالك». «ماذا تقول؟»، سألَتني، فانعقد لساني، وبقيتُ فاغر الفم. ثم سألتُها إن كانت تعرف إغيراس النحيل. نظرَت إليَّ باستغراب شديد سائلةً: «ومِن أين تعرفه أنت؟». «إننا صديقان»، قلتُ لها. «أعملُ لحسابه أحيانًا». هزَّت كتفَيْها. «لقد كبرت»، قالت. «وأنت حرٌّ في ما تفعل. لا أريد أن أعرف شيئًا. ولكن إن لم تحصل على النقود، فعليك أن تعمل». أدركتُ أن أمّي قد عرفَت بأمر إغيراس النحيل وأخي. كنتُ قد ذهبتُ مع النحيل إلى بيوت أخرى، في الليل دائمًا، وربحتُ حوالي عشرين صولًا عن كل مرة. قال لي النحيل: «معي سوف تغدو ثريًّا». كنتُ أحتفظ بالمبلغ كاملًا في دفاتري. سألتُ أمي: «هل أنتِ في حاجة إلى النقود الآن؟». «أنا في حاجة إلى النقود طوال الوقت»، قالَت. «أعطِني ما في حوزتك». أعطيتُها المبلغ كاملًا، وإن احتفظتُ لنفسي

بصولَيْن. لم أنفق المال في شيء سوى الذهاب لأنتظر تيري كل يوم عند خروجها مِن المدرسة، وشراء السجائر أيضًا، ففي تلك الأيام بدأتُ أشتري السجائر مِن مالي الخاص. كانت علبة إنكا تكفيني ثلاثة أو أربعة أيام. ذات مرة أشعلتُ سيجارة في ميدان بيابيستا، وتصادف أن لمحَتني تيري مِن مكانها على أعتاب البيت، فجاءت، وتجاذبنا أطراف الحديث جالسَيْن على إحدى الدكك. قالت لي: «علِّمني كيف أدخِّن». أشعلتُ سيجارة وسمحتُ لها بأن تأخذ بضعة أنفاس. عجزَت عن تنشُّق الدخان، واختنقَت. في اليوم التالي قالَت لي إنها قد أمضَت ليلتها مُصابةً بالغثيان، وإنها لن تعاود التدخين مرة أخرى. أذكر جيدًا تلك الأيام، أفضل أيام السنة. كدنا نصل إلى نهاية العام الدراسي، وبدأت الاختبارات، فاجتهدنا في الدراسة أكثر من ذي قبل، وصرنا لا نفترق. كانت خالتها تغادر البيت أو تستغرق في النوم، فنمزح وينثر كل منا شعر الآخر على سبيل الدعابة، برغم التوتُّر الشديد الذي يعتريني كلَّما لمسَتني. صرتُ أراها مرتَيْن كل يوم، وسعدتُ بذلك سعادةً جارفة. كنتُ أحمل إليها مفاجأة في كل مرة، إذ توافرَت لدي النقود. صرتُ أذهب إلى ميدان بيابيستا في الليل حتى ألتقي النحيل، فيقول لي: «استعدّ ليوم كذا. لدينا مهمة مِن الصنف الفاخر».

في المرات الأولى شارك ثلاثتنا في المهمة: أنا والنحيل وكوليپيه الجَبَلي. وذات يوم نفَّذنا عمليةً في أورانتيا، في أحد بيوت الأثرياء، فانضمّ إلينا اثنان لا أعرفهما. وإن كنَّا نؤدِّي العمل وحدنا في أغلب المرات. «كلَّما قلّ العدد، فذلك أفضل»، قال النحيل. «هكذا نحصل على نصيب أكبر ونتجنَّب الوشاة. وإن تعذَّر ذلك في بعض الأحيان، لأن الولائم الحافلة في حاجة إلى أفواه كثيرة». عادةً ما كُنَّا نتسلَّل إلى بيوت خالية، يعرفها النحيل بالفعل، ولكني لا أدري

كيف يعرفها. كان يوضح لي طريقة التسلُّل، مِن السطح أو عَبْر المدخنة أو عَبْر النافذة. في البدء شعرتُ بالخوف، ثم أصبحتُ أعمل بهدوء غامر. ذات مرة دخلنا إلى بيت في تشوريوس، تسلَّلتُ عَبْر ثغرةٍ في نافذة مرأب السيارات، ثغرة فتحها النحيل في الزجاج باستخدام قطعة مِن الألماس. قطعتُ نصف البيت حتى أفتح لهم الباب المُفضِي إلى الشارع، ثم خرجتُ وانتظرتُهم على الناصية. ما هو إلَّا قليل حتى رأيتُ نورًا يُضاء في الطابق الثاني، ورأيتُ النحيل يخرج مهرولًا. وإذا هو يمسك بيدي قائلًا: «اهربْ وإلَّا أمسكوا بنا». ركضنا ثلاثة مربعات سكنية تقريبًا، لا أدري إن جاء أحدهم في أثرنا، ولكن خوفًا جارفًا قد تملَّكني. قال لي النحيل: «اذهبْ مِن هنا، وسِر بهدوء بعد أن تنعطف عند الناصية». ظننتُ أنني قد انتهى أمري. فعلتُ كما قال لي، فحالفني الحظّ. عدتُ إلى البيت سائرًا، مِن موقع في غاية البُعْد. وصلتُ مرتجفًا، وأنا أكاد أموت بردًا وتعبًا. أيقنتُ أنهم قد أمسكوا بالنحيل. وإذا بي أجده ينتظرني بالميدان في اليوم التالي، مستغرقًا في الضحك. «يا للحظّ العاثر!»، قال. «كنتُ أهمّ بفتح خزانة، فسطعَت أضواء باهرة كشمس الصباح، وكادَت تعميني. رباه! لقد نجونا بأنفسنا لأن رحمة الرَّب واسعة».

*

- وماذا بعد؟ -سأل ألبِرتو.

- لا شيء. -أجاب العريف- كل ما في الأمر أنه بدأ ينزف. قلتُ له: «لا تتصنَّع». فأجابني ذلك الأحمق: «أنا لا أتصنَّع، سيدي العريف، ولكنني أتألَّم». بدأ الجنود يتهامسون: «إنه يتألَّم، إنه يتألَّم»، لأن كُلَّهم مُتواطِئون. لم أصدِّقه، ولكنه ربما كان مُحِقًّا. أتعرف لماذا، أيها الكاديت؟ لأن شعره قد اصطبغ بالأحمر. أمرتُه بأن يغتسل كيلا يلوِّث أرضية الثكنة، فرفض الوغد العنيد. إنه

مُخنَّث، حتى يكون كلامي واضحًا. ظلَّ جالسًا في سريره. دفعتُه، لمُجرَّد أن ينهض، أيها الكاديت، فانطلق الآخرون صارخين: «لا تؤذِه أيها العريف، ألا ترى أنه يتألَّم؟».

- وماذا بعد؟ -سأل ألبِرتو.

- لا شيء، أيها الكاديت، لا شيء. بعد ذلك دخل النقيب سائلًا: «ماذا جرى لهذا؟». «لقد سقط، يا سيدي النقيب»، قلتُ له. «أليسَت الحقيقة أنك قد سقطت؟»، سألتُ الجندي، فأجاب المُخنَّث قائلًا: «كلّا، بل إنك قد شججتَ رأسي بالعصا أيها العريف». وانطلق باقي الأوغاد صارخين: «أجل، أجل، لقد شجّ العريفُ رأسَه». يا لهم مِن مُخنَّثين! جاء بي النقيب إلى نقطة الحراسة، وأرسل الأحمق الآخر إلى المستوصف. وأنا هنا منذ أربعة أيام. لم يقدِّموا إليَّ سوى الخبز والماء. أكاد أموت جوعًا أيها الكاديت.

- ولماذا ضربتَ رأسه؟ -سأل ألبِرتو.

- كلام فارغ. -قال العريف وقد ارتسمَت على وجهه أمارات الاستخفاف- كل ما في الأمر أنني أردتُ منه أن يُخرِج القمامة سريعًا. دعني أقُل لك شيئًا: إن ظلمًا شديدًا يقع علينا، فلو رأى الملازمُ قمامةً في الثكنة عاقبني ثلاثة أيام، أو سحقني ركلًا بقدمَيْه. ولو ضربتُ جنديًّا زُجّ بي في الحجز. أتدري الحقيقة أيها الكاديت؟ ليس هناك أسوأ مِن أن يكون المرء عريفًا، فصحيح أن الجنود يُدهَسون تحت أقدام الضُبَّاط، ولكنهم يتواطؤون في ما بينهم، ويساعد كلٌّ منهم الآخر دائمًا. أما نحن، العرفاء، فنتلقَّى الضربات مِن كل صوب. يدهسنا الضبَّاط، ويكرهنا الجنود، ويجعلون حياتنا مستحيلة. كنتُ أفضل حالًا وأنا جندي، أيها الكاديت.

تقع الزنزانتان خلف نقطة الحراسة، في حجرتَيْن كلتاهما داكنة، عالية، يفصل بينهما سياج، استطاع ألبِرتو والعريف أن يتجاذبا

أطراف الحديث مِن خلاله بسهولة. في كل زنزانة نافذةٌ صغيرة قريبة مِن السقف، تسمح بمرور بصيص مِن الضوء، فضلًا عن سرير ميداني هزيل، ومرتبة مِن القشّ، وغطاء كاكي.

- كم تبقى هنا أيها الكاديت؟ -سأل العريف.

- لا أدري. -يجيب ألبِرتو. لم يقدِّم إليه غامبوا تفسيرًا واحدًا ليلة أمس، وإنما اكتفى بأن قال له بجفاء: «سوف تنام هناك. أفضِّلُ ألَّا تذهب إلى الثكنة». لم تكُن الساعة قد تجاوزَت العاشرة. بينما خلَت جادة لاكوستانيرا والباحات، واجتاحتها ريح صامتة. مكث الطُلَّاب المُعاقَبون في الثكنات، أما أولئك الذين خرجوا في إجازة فلن يرجعوا حتى الحادية عشرة. أخذ الجنود يتجاذبون أطراف الحديث بأصوات خافتة وقد تكدَّسوا على دكة في الجزء الخلفي مِن نقطة الحراسة، فلم يلقِ أحدهم ولو نظرة على ألبِرتو حين دخل إلى الزنزانة. ظلّ عاجزًا عن الرؤية لبضع ثوانٍ، ثم بدأ يتبيَّن ذلك الخيال المحكم في أحد الأركان، خيال السرير الميداني. ترك حقيبته أرضًا، وخلع السترة والحذاء والقبعة، ثم التحف بالغطاء. تناهى إليه غطيط حيواني. كاد يستغرق في النوم على الفور، غير أنه استيقظ عدة مرات، بينما لاحقه الغطيط قويًّا، ثابتًا. لم يكتشف وجود العريف في الزنزانة المجاورة إلَّا مع خيوط الفجر الأولى: كان رجلًا طويلًا، له وجه ضامر حادّ كالسكين، نام بالقبعة والجرموق[١]. ما هو إلَّا قليل حتى أحضر له أحد الجنود قهوةً حارّة. أفاق العريف، وبادره بالتحية في مودّة مِن مكانه على السرير. وبينما هما يتجاذبان أطراف الحديث، انطلق البوق.

يبتعد ألبِرتو عن السياج مُقترِبًا مِن باب الزنزانة الذي يفضي إلى

(١) الجرموق: ما يلبس فوق الحذاء وقايةً له.

قاعة الحراسة: يميل الملازم غامبوا إلى الملازم فيريرو مُتحدِّثًا بصوت خفيض. يفرك الجنود أعينهم ويتمطّون، ثم يلتقطون بنادقهم مُتأهِّبين لمغادرة نقطة الحراسة. يرى الناظرُ مِن خلال الباب طرفَ الفناء الخارجي، والسورَ المصنوع مِن الأحجار البيضاء الذي يطوِّق تمثال البطل. لا بدّ أن الجنود الذين سوف يتسلَّمون دورية الخدمة مع الملازم فيريرو قد وصلوا إلى هناك. يغادر غامبوا نقطة الحراسة مِن دون أن ينظر إلى الزنزانة. يسمع ألبِرتو صفيرًا مُتعاقِبًا، فيدرك أن كل فرقة تصطفّ في الباحة الخاصة بها. ما زال العريف مستلقيًا في فراشه. أغمض عينَيْه من جديد، وإن لم يعُد يغطّ في نومه. يُسمَع صوت موكب الأفواج الماضية إلى قاعة الطعام، وعندئذ يصفِّر العريف ببطء، على وقع المسيرة. ينظر ألبِرتو إلى ساعته. «لا بدّ أنه مع پيرانيا الآن، يا تيريسيتا، لقد تحدَّث إليه، وها هما الآن يتحدَّثان إلى العميد، ويذهبان إلى قائد الوحدة، وها هم الآن يذهبون إلى الكولونيل، يا تيريسيتا، والخمسة يتحدَّثون عني أنا، سوف يستدعون الصحافيين، فيلتقطون لي الصور، وينقضّون عليّ في أول إجازة، وتفقد أمّي عقلها، ولن أقدر على السير مرة أخرى في ميرافلوريس إلَّا وأشار إليّ الناس بالأصابع، وعندئذ أُضطَرّ إلى مغادرة البلاد، وأبدِّل اسمي، يا تيريسيتا». بعد دقائق، تُسمَع الصفَّارة مرة أخرى. يتعالى وقع أقدام الطُلَّاب وهم يغادرون قاعة الطعام ويعبرون الأرض الخلاء للاصطفاف في منصة العرض، حتى يصل إلى نقطة الحراسة كالهمس البعيد. بينما يصل وقع المسيرة إلى الفصول وكأنه صخب حربي عارم، مُتوازِن، دقيق، يخفت ببطء حتى يتلاشى تمامًا. «لعلّهم قد أدركوا الآن يا تيريسيتا أن الشَّاعِر لم يحضر، ولعلّ أروسپيدي قد كتب اسمي في خانة الغائبين. متى عرفوا بما كان مِن أمري اقترعوا حتى يعرفوا مَن يضربني، سوف تصدر مُذكِّرات

العقاب، ويقول أبي لقد مرَّغتَ اسمي في الوحل وفي صفحة الحوادث، لو عرف جدُّك وجدُّك الأكبر لفارقا الحياة من شدة الصدمة، لطالما كُنَّا نحن الأفضل في كل شيء، أما أنت فتتمرَّغ في الوسخ، يا تيريسيتا، سوف نهرب إلى نيويورك، ولن نعود إلى بيرو أبدًا، الآن بدأت الدروس ولا بدّ أنهم ينظرون إلى مكتبي». يتراجع ألبِرتو خطوةً عندما يرى الملازم فيريرو الذي يقترب مِن الزنزانة. ينفتح الباب المعدني في صمت.

- كاديت ألبِرتو فِرنانديس. -كان الملازم فيريرو في مقتبل العمر. ولقد عُهِد إليه بقيادة كتيبة مِن الفرقة الثالثة.

- أجل، سيدي الملازم.

- اذهبْ إلى أمانة فرقتك، وقدِّم نفسك إلى الرائد غارّيدو.

ارتدى ألبِرتو السترة والقبعة. كان النهار صافيًا، وهبَّت الريح مُحمَّلةً بمذاق السمك والملح. لم يسمع صوت المطر في الليل، ولكنه وجد الفناء مُبلَّلًا. بدا تمثال البطل وكأنه نبتة كئيبة يبلِّلها الندى. لم يرَ أحدًا في منصة العرض أو في فناء الفرقة. وجد باب الأمانة مفتوحًا. شدّ حزام السترة ومسح بيده على عينَيْه. كان الملازم غامبوا واقفًا، بينما جلس الرائد غارّيدو عند طرف المكتب. مضى كلاهما ينظران إليه. أومأ الرائد برأسه إيذانًا لألبِرتو بالدخول. قطع ألبِرتو بضع خطوات ثم اتَّخذ وضع الانتباه. تفحَّصه الرائد مِن أعلى إلى أسفل، بتروٍّ. استراح فكَّاه البارزان، الرابضان تحت أذنَيْه كالبثور. أطبق الرائد فمه، ولكن أسنان البيرانيا شاهقة البياض قد أطلَّت مِن بين شفتَيْه. هزّ الرائد رأسه قليلًا.

- حسنًا. -قال- دعنا نرَ، أيها الكاديت، ماذا تعني هذه القصة؟

فتح ألبِرتو فمه، بينما تراخى جسده مِن الداخل وكأنما الريح قد

جرفَت أعضاءه وصهرَتها. ماذا يقول؟ وضع الرائد غارّيدو يدَيْه على المكتب، بينما راحت أصابعه تخدش بعض الأوراق في توتُّر جارف. نظر إلى عينَيْه. وقف المُلازِم غامبوا إلى جواره، فلم يتمكَّن ألبِرتو مِن رؤيته. أحسّ بوجنتيْه مُشتعِلتَيْن، لا بدّ أن حمرةً قد علَتهما.

- ماذا تنتظر؟ -سأل الرائد- هل قطعوا لسانك؟

خفض ألبِرتو رأسه. أحسّ بإرهاق شديد، واستحوذ عليه ارتياب مفاجئ. بدَت الكلمات مخادعة، هشّة. كانت الكلمات تصل إلى ضفَّةِ شفتَيْه ثم تنحسر أو تتبدَّد وكأنها مِن دخان. وإذا بصوت غامبوا يقطع تلك اللعثمة.

- هيا أيها الكاديت. -سمع ألبِرتو- تمالك نفسك وهدِّئ مِن روعك. الرائد في انتظارك. كرِّر ما أخبرتَني به يوم السبت. تكلَّم بلا خوف.

- حسنًا، سيدي الرائد. -قال ألبِرتو. ثم التقط أنفاسه، وتكلَّم-: الطالب آرانا قُتِل لأنه قد أبلغ عن الحَلْقَة.

- هل رأيتَ ذلك بعينَيْك؟ -صاح الرائد غارّيدو في غضب عارم. رفع ألبِرتو عينَيْه: فوجد الفكَّيْن قد نشطا، وأخذا يتحرَّكان في تناغمٍ تحت البشرة الضاربة إلى الخضرة.

- كلّا، سيدي الرائد. -قال- ولكن...

- ولكن ماذا؟ -صاح الرائد- كيف تجرؤ على أن توجِّه اتهامًا كهذا بلا أدلَّة مُحدَّدة؟ أتعرف ما الذي يعنيه الاتهام بالقتل؟ لماذا اختلقتَ هذه القصة الغبية؟

تراءى جبين الرائد غارّيدو رطبًا، وتجلَّت شعلةٌ صغيرة صفراء في كلتا عينَيْه، واعتصرَت يداه بعضهما بعضًا في سخط على سطح المكتب، بينما اختلج صدغاه. استردّ ألبِرتو رباطة الجأش دفعة واحدة: وحدَّثه انطباعٌ بأن جسده يمتلئ بعد خواء. نظر إلى عينَي

الرائد في ثبات، مِن دون أن يرفّ له جفن. وبعد ثوانٍ، رأى الضابط يشيح عنه بعينَيْه.

- لم أختلق شيئًا واحدًا، سيدي الرائد. -تردَّد صوته في أذنَيْه مُقنِعًا، فكرَّر كلامه-: لم أختلق شيئًا واحدًا، سيدي الرائد. لقد فتَّش أفراد الحَلْقَة عن الشخص الذي تسبَّب في طرد كابا. أراد النَّمِر أن ينتقم مهما اقتضى الأمر، لأن أبغض الناس إلى نفسه هم الوشاة. كلهم كانوا يكرهون الطالب آرانا، وعاملوه كالعَبْد. أنا مُتأكِّد أن النَّمِر قد قتله، سيدي الرائد. لو لم أكُن مُتأكِّدًا لما قلتُ شيئًا.

- مهلًا، ألبِرتو فِرنانديس. -قال غامبوا- أوضحْ كل شيء بالترتيب. اقترب. واجلس، إن شئت.

- كلّا. -قال الرائد، قاطعًا، فالتفت إليه غامبوا. بينما ظلّ الرائد غارّيدو مُحدِّقًا بعينَيْه إلى ألبِرتو- الزمْ مكانك، واستمرّ.

سعل ألبِرتو ومسح جبينه بالمنديل. بدأ يتحدَّث بصوت مكبوت، لاهث، تخلَّلَته سكتات طويلة، وإن مضى صوته يكتسب طلاقةً وصلابة، بل إنه قد جاء عدوانيًّا في لحظات بعينها، عندما انطلق يسرد بطولات الحَلْقَة وقصة العَبْد، ويتوغَّل في حكايته حتى وصل إلى طُلَّاب آخرين من دون أن يشعر، ويصف استراتيجية تهريب السجائر والمشروبات الروحية وسرقات الاختبارات وبيعها والسهرات في مخبأ پاولينو والهرب قفزًا مِن فوق سور الإستاد ولاپِرليتا ومباريات البوكر التي تُقام في الحمَّامات والمسابقات وأعمال الانتقام والمراهنات. وإذا بالحياة السرية التي عاشها القسم تتجسَّد وكأنها كائن كابوسي أمام الرائد غارّيدو، الذي أخذ يمتقع أكثر فأكثر، بلا هوادة.

- وما شأن ذلك بمزاعمك؟ -قاطعه الرائد، مرةً واحدة.

- أخبرُك بذلك حتى تصدِّقني، سيدي الرائد. -قال ألبِرتو- لا

يستطيع الضُبَّاط معرفة ما يجري في الثكنات. وكأنه عالَم آخر. حتى تصدِّق ما قلتُ عن العَبْد.

في وقت لاحق، عندما سكت ألبِرتو، ظلّ الرائد غارّيدو صامتًا لبضع ثوانٍ، مُتأمِّلًا كل شيء على مكتبه، واحدًا تلو آخر، بانتباه مفرط. والآن راحت يداه تلهوان بأزرار قميصه.

- حسنًا. -قال فجأة- أتقصد أنه من الواجب أن يُطرَد أفراد القسم كلهم، عقابًا لبعضهم على السرقة، ولبعضهم الآخر على السُّكْر، ولبعضهم الآخر على المُقامَرة، مع الأخذ في الحسبان أن كلهم قد اقترف ذنبًا أو آخر؟ عظيم. وماذا عنك؟

- كلنا اقترفنا كل شيء. -قال ألبِرتو- وحده آرانا كان مختلفًا. ولهذا لم يتقرَّب منه أحد. -تهدَّج صوته- يجب أن تصدِّقني، سيدي الرائد. لقد فتَّش أفراد الحَلْقَة عنه. أرادوا العثور على الشخص الذي أبلغ عن كابا بأي طريقة، والثأر منه، سيدي الرائد.

- توقَّف. -قال الرائد وهو في حيرة مِن أمره- إن هذه القصة برمّتها قائمة على أساس فاسد. بأي حماقات تتفوَّه؟ لم يُبلِغ أحدٌ عن الطالب كابا.

- ليسَت حماقات، سيدي الرائد. -قال ألبِرتو- اسأل الملازم أوارينا إن لم يكُن العَبْد هو الذي أبلغ عن كابا. وحده العَبْد قد رآه خارجًا مِن الثكنة، في طريقه لسرقة الاختبار. كان في دورية حراسة. اسأل الملازم أوارينا.

- إن ما تقول مُجرَّد هراء لا معنى له. -قال الرائد. وإن لاحظ ألبِرتو أنه ما عاد يبدو واثقًا بالقدر نفسه. ظلَّت إحدى يدَيْه مُعلَّقةً في الهواء بلا طائل يُرتجَى، وتراءَت أسنانه أضخم حجمًا- هراء لا معنى له.

- لقد اعتبر النَّمِرُ ذلك الاتهام مُوجهًا إليه، سيدي الرائد. -قال

ألبِرتو- أعماه الغضب لأن كابا قد طُرِد مِن المدرسة. كان أفراد الحَلْقَة يجتمعون طوال الوقت. إن ما حدث انتقام. أنا أعرف النَّمِر، فهو على استعداد لـ. . .

- كفى! -قال الرائد- إن ما تقول مُجرَّد كلام صبياني. تتَّهم زميلًا بالقتل، في غياب الأدلة. لن أُفاجأ لو كنتَ أنت الذي يسعى إلى الانتقام. لا يُسمَح بمثل هذه الألعاب في الجيش، أيها الكاديت. وإلّا، فربما دفعتَ الثمن غاليًا.

- سيدي الرائد. -قال ألبِرتو- لقد جاء موقع النَّمِر خلف آرانا في أثناء التدريبات الميدانية على التلَّة.

وإذا به يلزم الصمت. قالها من دون تفكير، والآن أخذَت تراوده الشكوك. بلهفة، مضى يحاول استحضار صورة الأرض الخلاء في لاپِرلا، والتلَّة المحاطة بالحقول، والتشكيل العسكري، وذلك النهار، نهار السبت.

- هل أنت مُتأكِّد مما تقول؟ -سأل غامبوا.

- نعم، سيدي الملازم. لقد جاء موقعه خلف آرانا. أنا مُتأكِّد مِن ذلك.

نظر إليه الرائد غارّيدو، وعيناه تتنقَّلان بينهما، في ارتياب، وغضب عارم. ضمّ الرائد يدَيْه بعضهما إلى بعض. أحاط إحداهما بالأخرى، وسرى في جسده إحساس بالدفء.

- هذا لا يعني أي شيء. -قال- لا يعني أي شيء.

خيَّم الصمت على ثلاثتهم. وفجأةً، هبّ الرائد واقفًا، وبدأ يتمشَّى في أرجاء الحجرة عاقدًا يدَيْه خلف ظهره. جلس غامبوا في المكان الذي كان يشغله الرائد، شاخصًا إلى الجدار. بدا مستغرقًا في التأمُّل.

- أيها الكاديت ألبِرتو فِرنانديس. -قال الرائد، الذي توقَّف

وسط الحجرة، وجاء صوته أرقّ من ذي قبل- سوف أتحدَّث إليك بصفتك رجلًا. أنت شاب، مُندفِع. لا بأس بذلك، بل إنها ربما كانت فضيلة. ولكن عُشْر ما أخبرتَني به يكفي لطردك مِن المدرسة، وعندئذ يضيع مستقبلك، ويتلقَّى أبواك ضربةً مُروِّعة. أليس كذلك؟

- بلى، سيدي الرائد. -قال ألبِرتو. بينما أخذ غامبوا يحرِّك إحدى قدمَيْه في الهواء شاخصًا إلى الأرض.

- لقد تأثَّرتَ بموت ذلك الطالب. -تابع الرائد حديثه- أتفهَّمُ ذلك، فهو صديقك. ولكن حتى لو كان جزء واحدٌ مما تقول حقيقةً، فلا يمكن إثباته أبدًا، أبدًا، لأن الأمر برمّته قائم على فرضية. وفي أقصى تقدير، نستطيع التحقُّق من مخالفة بعض بنود اللائحة. وبعد ذلك يُطرَد عدد مِن الطُلَّاب، أنت على رأسهم، بطبيعة الحال. أنا على استعداد لنسيان الأمر برمّته، لو وعدتَ بألَّا تتفوَّه بكلمة واحدة من هذا الحديث مرة أخرى. -رفع إحدى يدَيْه إلى وجهه بحركة سريعة، ثم أنزلها مِن دون أن تلمسه- أجل، هذا أفضل ما يمكن. أن ندفن تلك الخيالات كلها تحت التراب.

ظلَّ الملازم غامبوا خافضًا عينَيْه وهو يؤرجح قدمه على الإيقاع نفسه، والآن صار طرف حذائه يحتكّ بالأرض.

- مفهوم؟ -سأل الرائد وقد ارتسم على وجهه شبح ابتسامة.

- كلّا، سيدي الرائد. -قال ألبِرتو.

- ألم تفهمني، أيها الكاديت؟

- لا أستطيع أن أعدك بذلك. -قال ألبِرتو- لقد قُتِل آرانا.

- إذن، فأنا آمرك بأن تخرس، وبألَّا تعود إلى التفوّه بتلك الحماقات. -قال الرائد، بغلظة- وإن لم تمتثل لأمري، رأيتَ مَن أكون أنا.

- معذرة، سيدي الرائد. -قال غامبوا.

- أنا أتكلَّم، فلا تقاطعني يا غامبوا.

- آسف، سيدي الرائد. -قال الملازم، وهو ينهض. كان أطول قامةً مِن الرائد، الذي اضطُرّ إلى رفع رأسه قليلًا حتى ينظر إلى عينَيْه- الطالب ألبِرتو فِرنانديس يملك الحقّ في تقديم هذا البلاغ، سيدي الرائد. لا أقول بصحة البلاغ. ولكنه يملك الحقّ في التقدُّم بطلب تحقيق، كما تنصّ اللائحة بوضوح.

- وأنت الذي سوف تعلِّمني اللائحة يا غامبوا؟

- كلّا، بالطبع لا، سيدي الرائد. ولكن، إن لم ترغب حضرتك في التدخُّل، سأقدِّم التقرير إلى العميد بنفسي. إنها مسألة حرجة، وأنا مؤمن بضرورة التحقيق.

*

بعد الاختبار النهائي بزمن قصير، رأيتُ تيريسا في جادة ساينس بينيا مع فتاتَيْن، وثلاثتهن يحملن المناشف، فسألتُها عن بُعْد إلى أين تذهب. «إلى الشاطئ»، أجابَتني. يومذاك تعكَّر مزاجي، وحين طلبَت أمّي نقودًا أجبتُها بفظاظة، فالتقطَت الحزام الذي تحتفظ به تحت السرير. لم تكُن أمّي قد ضربَتني منذ أمد بعيد. عند ذاك توعَّدتُها قائلًا: «إن لمستِني، فلن أعطيك سنتًا واحدًا من الآن فصاعدًا». كان مُجرَّد تحذير، ولم يخطر على بالي مُطلقًا أنه قد يؤتي نتيجة. ولكني صُعِقتُ حين رأيتُها تخفض الحزام، ثم تطرحه أرضًا وهي تغمغم لاعنةً بصوت خافت، وتدخل إلى المطبخ مِن دون أن تنبس بشيء. عادَت تيريسا إلى الشاطئ مع الفتاتَيْن في اليوم التالي، وفي أيام أخرى. ذات صباح مضيتُ في أثرهن. ذهبن إلى تشوكويتو وقد ارتدين ملابس السباحة تحت الثياب التي خلعنها على الشاطئ. كان ثلاثة أو أربعة فتيان في انتظارهن. لم أنظر إلى أحد سوى الفتى الذي أخذ يتحدَّث إلى تيريسا. أمضيتُ نهاري وأنا أراقبهم مِن مكاني

خلف الدربزين. في وقت لاحق ارتدَت الفتيات ثيابهن فوق ملابس السباحة، وعدن إلى بيابيستا. بقيتُ أنتظر الفتيان. غادر اثنان منهم بعد قليل، وإن بقي ذلك الذي تحدَّث إلى تيريسا ومعه فتى آخر في الشاطئ حتى الثالثة تقريبًا. ثم اتَّجها إلى لاپونتا، سائرَيْن في منتصف الطريق، وهما يحملان المناشف وملابس السباحة. وصلا إلى شارع خالٍ، وعند ذاك شرعتُ أرميهما بالأحجار. أصبتُ كليهما، بل إنني أصبتُ صديقَ تيريسا بضربة مباشرة في الوجه. انحنى صارخًا: «آه!». وفيما هو على تلك الحال، أصبتُه بحجر آخر في ظهره. حملق كلاهما إليَّ في ذهول، بينما انطلقتُ أنا راكضًا نحوهما، فلم أمهل أحدهما فرصةً ليأتي بردّ فعل. هرب أولهما صارخًا: «مجنون!»، بينما ظلّ الآخر في مكانه، فانقضضتُ عليه. سبق أن خضتُ شجارات كثيرة في المدرسة، وبرعتُ في ذلك. كان أخي قد علَّمني كيف أركل بقدمَي وأضرب برأسي وأنا لا أزال طفلًا. «مَن هاجم خصمَه كالمجانين أصبح في عداد الأموات»، قال لي. «القتال بوحشية لا يُجدِي نفعًا ما لم تكُن قويًا، قادرًا على حصار العدوّ وتحطيم دفاعه بوابل مِن الضربات. وإلَّا، فقد يضرّ بك ذلك. إذ تتعب الذراعان والساقان مِن كثرة الضربات الطائشة في الهواء، ويصاب المرء بالضجر، ويتلاشى الغضب العارم، وما هو إلَّا قليل حتى تشعر برغبة في التخلّي عن الأمر. أما لو كان الآخر حاذقًا، واستطاع أن يدرك حجمك الحقيقي، ففي يده أن يستغلّ الفرصة ويوسعك ضربًا». لقد علَّمني أخي كيف أثبِّط أولئك الذين يقاتلون بوحشية، علَّمني كيف أرهق العدو وأوقفه عند حدّه بقدمَي، وكيف أتحيَّن الفرصة حتى أجذب قميصه وأسدِّد إليه ضربة رأس عند أول بادرة سهوٍ. كما علَّمني أخي كيف أضرب برأسي على طريقة أهل كاياو، لا بالجبين ولا بالجمجمة، وإنما بتلك العظمة شديدة الصلابة

عند منبت الشعر، وعلَّمني كيف أخفض يدي في لحظة توجيه ضربة الرأس كيلا يرفع الآخر ركبته ويغوص بها في معدتي. «لا أقوى مِن ضربة الرأس»، قال أخي. «تكفي ضربة رأس مُوفَّقة واحدة حتى يفقد العدو وعيه». ولكني هاجمتُ كليهما بوحشية في تلك المرة، وغلبتُهما. سقط الفتى الذي كان مع تيريسا على الأرض باكيًا، من دون حتى أن يدافع عن نفسه. بينما توقَّف صديقه على بُعد عشرة أمتار صائحًا: «لا تضربه أيها المُخنَّث، لا تضربه»، ولكني رحتُ أوسعه ضربًا على الأرض. ثم انطلقتُ ألاحق الآخر، الذي ركض هاربًا، ومع ذلك لحقتُ به، وعرقلتُه بقدمي، فسقط أرضًا. لم يرغب في الشجار: وما كدتُ أفلته حتى هرول راكضًا. عدتُ إلى أولهما، الذي كان يمسح وجهه. خطر على بالي أن أتحدَّث إليه، ولكني ما إن رأيته أمامي حتى استحوذ عليَّ غضبٌ عارم، فسدَّدتُ إليه لكمة. انطلق صائحًا كالديكة. جذبتُ قميصه قائلًا: «لو اقتربتَ مِن تيريسا مرة أخرى، سأضربك أشدّ مما ضربتُك اليوم». لعنتُ أمّه وسدَّدتُ إليه ركلة، أعتقد بأنني كنتُ سأستمرّ في ضربه، ولكني أحسستُ بأحدهم يجذب أذني وأنا على تلك الحال. كانت امرأة، بدأت تضرب رأسي صارخة: «أيها المُتوحِّش! أيها الهمجي!». استغلّ الآخر الفرصة حتى يهرب. في النهاية أفلتَتني المرأة، فرجعتُ إلى بيابيستا وأنا ما زلتُ كما كنتُ قبل الشجار. لم أحسّ أنني قد شفيتُ غليلي. لم يسبق لي أن تملَّكتني تلك المشاعر التي استحوذَت عليَّ آنذاك. في مرات أخرى، كنتُ أشعر بالأسى أو بالرغبة في البقاء وحيدًا عندما لا ألتقي تيريسا. أما الآن، فلقد تملَّكني الغضب والحزن معًا. شعرتُ بالغبن، وأيقنتُ أن تيريسا سوف تكرهني متى عرفَت بما جرى. ذهبتُ إلى ميدان بيابيستا ولكني لم أدخل إلى بيتي، بل إنني درتُ على عقبي ومشيتُ إلى حانة ساينس پينيا، حيث

التقيت إغيراس النحيل جالسًا إلى البار، يتكلّم مع الصيني. «ماذا بك؟»، سألني. لم يسبق لي أن تكلّمتُ عن تيري مع أحد، كائنًا مَن كان. ولكن في تلك المرة شعرتُ بحاجتي إلى البوح لأحدهم. أخبرتُ النحيل بكل شيء منذ تعرَّفتُ بتيريسا، قبل أربعة أعوام، عندما جاءت لتسكن إلى جوار بيتي. أنصت إليَّ النحيل بجدية بالغة، فلم يضحك مرة واحدة، وإنما اكتفى بالتعقيب بين حين وآخر: «يا رجل»، «رباه»، «حقًّا!». ثم قال لي: «لقد غرقتَ في حبّها حتى أذنَيْك. كنتُ في مثل عمرك تقريبًا عندما وقعتُ في الحبّ لأول مرة، ولكن سقطتي جاءت أخفّ وقعًا. الحبّ أسوأ ما في الوجود، لأنه يجعلك تتصرَّف كالأبله، فلا تعود منشغلًا بنفسك. متى أحبّ المرء تبدَّلَت معاني الأمور، وأصبح على استعداد لارتكاب أسوأ صنوف الجنون وتضييع نفسه إلى الأبد في دقيقة واحدة. أقصد الرجل. أما المرأة فلا، لأن المرأة في غاية البراعة، لا تقع في الحبّ ما لم يلائمها ذلك. وفي حال لم يهتمّ بها الرجل، تجاوزَته وبحثَت عن غيره. وكأن شيئًا لم يكُن. ولكن لا تقلق. أقسمُ بالرَّب إنني سوف أجعلك تتعافى اليوم قبل غد. لديَّ دواء جيد يشفي مِن مِثل هذا الزكام». مضى يقدِّم إليَّ البيسكو والبيرة حتى أقبل الليل، ثم جعلني أتقيَّأ، وساعدني بالضغط على معدتي. بعد ذلك أخذني إلى حانة في المرفأ، وجعلني أغتسل في الفناء، وناولني طعامًا حريفًا في قاعة مزدحمة بالناس. ثم ركبنا سيارة أجرة، وأخبر السائق بالعنوان. سألني: «هل سبق لك أن ذهبت إلى بيتٍ للمتعة؟». نفيت، فقال لي: «سوف يشفيك ذلك البيت من دائك. سترى. ولكنهم ربما استوقفوك عند الباب». وبالفعل، وصلنا فاستقبلَتنا امرأةٌ عجوز تعرف النحيل. غير أنها استشاطت غضبًا حين رأتني. «هل جُنِنت؟ أتظنّ أنني سوف أسمح لك بالدخول مع هذا الطفل؟ يمرّ الوشاة مِن هنا كل خمس

دقائق، ويبتزّونني لشرب البيرة بالمجان». ارتفع صوتهما واحتدم الجدال. وفي النهاية وافقَت العجوز على أن أدخل. «ولكن اذهبا إلى الحجرة مباشرة، ولا تخرجا منها حتى الصباح»، قالت لنا. جعلني النحيل أمرّ عَبْر صالون الطابق الأول بسرعة بالغة، حتى إنني لم أرَ وجوه الحاضرين. صعدنا دَرَجًا، ثم فتحَت لنا العجوز باب إحدى الحجرات. دخلنا، وقبل أن يضيء النحيل المصباح، قالت له العجوز: «سوف أرسل إليك دزينة من قوارير البيرة. وافقتُ على أن تدخل مع الطفل، ولكن يجب عليك أن تشتري الكثير من الشراب. الآن تصعد الفتيات. سوف أرسل إليك ساندرا، فهي تحبّ الصغار». كانت الحجرة كبيرة، قذرة، يتوسَّطها سرير مفروش بمرتبة حمراء. كما ضمَّت الحجرة حوضًا ومرآتَيْن، إحداهما في السقف، فوق الفراش، والأخرى إلى جانبه. انتشرَت رسوم النساء والرجال العراة في كل أنحاء المكان، بعضها مرسوم بقلم الرصاص وبعضها بالمدية. بعد ذلك دخلَت امرأتان تحملان عددًا كبيرًا مِن قوارير البيرة. كانتا صديقتَي النحيل، فقبَّلَتاه، وأخذَت كلتاهما تقرص بشرته، وتجلس على ركبتَيْه، وتتفوَّه بكلمات نابية: مُؤخِّرة، ساقطة، قضيب، مُخنَّث... بدَت إحداهما نحيفة، خلاسية، فارعة القوام، لها سنٌّ مِن ذهب، والأخرى شبه بيضاء، جسدها أكثر امتلاء. كانت الخلاسية أفضلهما. مضَت كلتاهما تسخران مِني وتقولان عن النحيل إنه: «يُفسِد أخلاق القُصَّر». بدؤوا يشربون البيرة، ثم فتحوا الباب قليلًا لسماع الموسيقى الآتية مِن الطابق الأول، وشرعوا في الرقص. لزمتُ الصمت في أول الأمر، ثم خامرني شعور بالبهجة بعد تناول الشراب. أخذَت البيضاء تضمّ رأسي إلى صدرها البارز مِن الثوب في أثناء الرقص. سكر النحيل، وأمر الخلاسية بأن تقدِّم إلينا «عرضًا»: فقدَّمَت رقصة مامبو بالثياب الداخلية. وإذا بالنحيل ينقضّ عليها

ويطرحها فوق الفراش. بينما أمسكَت صاحبة البشرة البيضاء يدي ومضَت بي إلى حجرة أخرى. «أول مرة؟»، سألَتني. أنكرتُ ولكنها أدركَت أنني كاذب. غمرها سرور جارف، وبينما هي تقترب مني عارية قالت: «أتمنَّى أن تجلب لي الحظّ السعيد».

*

خرج الملازم غامبوا مِن حجرته، وعَبَر منصة العرض بخطى واسعة. وصل إلى الفصول بينما كان بيتالوغا، الضابط الذي تسلَّم الخدمة آنذاك، يُطلِق الصفارة إيذانًا بانتهاء أول دروس اليوم. كان الطُلَّاب في الفصول: حيث وشى بوجودهم هديرٌ يتخلَّل الجدران الرمادية كالزلزال، وحشٌ صوتي دائري يطفو في سماء الباحة. وقف غامبوا قريبًا مِن الدَّرَج لحظةً، ثم ذهب إلى مكتب شؤون الطُلَّاب. وهناك وجد ضابط الصفّ بيسوا يتشمَّم دفترًا بخطمه الضخم وعينَيْه الدقيقتَيْن المرتابتَيْن.

- بيسوا، تعالَ.

تبعه ضابط الصفّ وهو يملِّس شاربه الرفيع بإصبعه. مشى منفرج الساقَيْن، وكأنه مِن سلاح الفرسان. يقدِّره غامبوا حقّ قدره لأنه يقِظ، خدوم، كما أنه في غاية الكفاءة خلال التدريبات الميدانية.

- اجمعْ أفراد القسم الأول بعد انتهاء الدروس. امضِ بهم إلى الإستاد، وليأخذ كل طالب بندقيته.

- أهو تفتيش على السلاح، سيدي الملازم؟

- كلّا. أريد منهم أن يصطفّوا في مجموعات قتالية. أخبرني يا بيسوا، هل التزم الطُلَّاب بالتشكيل في التدريبات الميدانية الأخيرة؟ أقصد، هل تقدَّم الطُلَّاب بالترتيب الطبيعي، المجموعة الأولى في المُقدِّمة، تليها الثانية، وفي النهاية الثالثة؟

- كلّا، سيدي الملازم. -قال ضابط الصفّ- بالعكس. لقد

أصدر الرائد أمره بأن يتَّخذ أصغر الطُلّاب مواقعهم في الطليعة، طبقًا للتعليمات.

- صحيح. -قال غامبوا- حسنًا. أنتظرُك في الإستاد.

أدَّى ضابط الصفّ التحية ثم انصرف. بينما عاد غامبوا إلى الثكنات. ما زال النهار في غاية الصفاء، تتخلَّله رطوبة طفيفة. وفي الأرض الخلاء هبَّ النسيم الرقيق مُداعِبًا الحشائش. بينما انطلقَت الفِكّونة تركض بسرعة في دوائر. قريبًا يحين الصيف، فتخلو المدرسة، وتغدو الحياة رخوة، خانقة. وتصير دوريات الخدمة أقصر، وأقل صرامة. ويتمكَّن مِن الذهاب إلى الشاطئ ثلاث مرات في الأسبوع. ستكون زوجته قد تعافَت آنذاك، وسيذهبان في نزهات بالسيارة مع الطفل. أضف إلى ذلك أنه سوف يجد مُتَّسعًا مِن الوقت للدراسة. لا تُعَدّ ثمانية أشهر فترةً أطول مما ينبغي حتى يستعدّ للاختبار. قيل إن المواقع الشاغرة تكفي لترقِّي عشرين ضابطًا فحسب إلى منصب رائد، عشرين مِن أصل مئتي مُتقدِّم للاختبار.

وصل إلى مكتب الأمانة. كان الرائد جالسًا إلى مكتبه، ولم يرفع رأسه حين دخل غامبوا. بعد لحظة، وبينما أخذ الرائد يراجع تقارير التدريبات الميدانية، سمع غامبوا صوته:

- قُلْ لي أيها الملازم...

- سيدي الرائد.

- ما رأيك أنت؟ -نظر إليه الرائد غارّيدو مُقطّب الجبين، فتردَّد غامبوا قبل أن يجيب.

- لا أدري، سيدي الرائد. -قال- التحقُّق مما حدث شيء في غاية الصعوبة. لقد بدأتُ التحقيق. وربما اكتشفتُ شيئًا.

- لا أتحدَّث عن هذا. -قال الرائد- أقصد العواقب. هل فكَّرتَ في ذلك؟

- نعم. -قال غامبوا- قد تكون العواقب وخيمة.

- وخيمة؟ -ابتسم الرائد- هل نسيتَ أنني أنا المسؤول عن هذا الفوج، وأن الكتيبة الأولى تحت إمرتك؟ مهما حدث من شيء، فلن يتورَّط سوانا، أنا وأنت.

- لقد فكَّرتُ في ذلك أيضًا، سيدي الرائد. -قال غامبوا- أنت على حقّ. لا تحسب أنني أجدها فكرة جيدة.

- متى تحين ترقيتك؟

- في العام القادم.

- وأنا أيضًا. -قال الرائد- ستكون الاختبارات صعبة، فالمواقع الشاغرة آخذة في التناقص. دعنا نتكلَّم بوضوح يا غامبوا. لكلٍّ منا سجلّ خدمات ممتاز، لا تشوبه شائبة. ولكنهم سوف يحمِّلوننا مسؤولية كل شيء. يشعر ذلك الطالب بأنك تدعمه. تحدَّثْ إليه. أقنعه. الأفضل أن ننسى تلك المسألة.

نظر غامبوا إلى عينَي الرائد غارّيدو.

- هل أستطيع أن أتحدَّث إليك بصراحة، سيدي الرائد؟

- هذا ما أفعله يا غامبوا. أتحدَّث إليك بصفتك صديقًا، لا مرؤوسًا.

ترك غامبوا تقارير التدريبات الميدانية على أحد الأرفف، ثم قطع بضع خطوات نحو المكتب.

- تهمّني الترقية بقدر ما تهمّك، سيدي الرائد. سأبذل قصارى جهدي حتى أحصل على تلك الشارة العسكرية. لم تكُن رغبتي أن أُنتدَب هنا، أتدري؟ لا أشعر بأنني في الجيش حقًّا وسط أولئك الفتيان. ولكن، لو أنني قد تعلَّمتُ شيئًا في المدرسة العسكرية، فلقد تعلَّمتُ أهمية الانضباط. لولا الانضباط لفسد كل شيء، وعطب كل شيء. لقد آل بلدنا إلى هذه الحال بسبب غياب الانضباط، والنظام.

وحده الجيش ما زال قويًّا، صالحًا، بفضل بنية الجيش وتنظيمه. لو أن ذلك الفتى قد قُتِل حقًّا، لو أن ما قيل بشأن المشروبات الروحية وبيع الاختبارات وكل ما عدا ذلك حقيقة، فإنني أشعر بمسؤوليتي، سيدي الرائد. أعتقد بأن واجبي يحتّم عليّ أن أكتشف مقدار الحقيقة في تلك القصة.

- إنك تبالغ يا غامبوا. -قال الرائد، مُتفاجِئًا بعض الشيء. بدأ يتمشّى في أرجاء الحجرة، كما فعل خلال اللقاء مع ألبِرتو- لا أنادي بدفن كل شيء تحت التراب. لا بدّ أن يُعاقَبوا على مسألة الاختبارات والمشروبات الروحية، بطبيعة الحال. ولكن لا تنسَ أن أول ما يتعلَّمه المرء في الجيش أن يكون رجلًا. والرجال يدخِّنون، ويسكرون، ويهربون، ويضاجعون. يعرف الطُّلَّاب أنهم لو انكشف أمرهم طُرِدوا مِن المدرسة. ولقد طُرِد عدد مِن الطُّلَّاب بالفعل. أما أولئك الذين حرصوا على ألَّا ينكشف أمرهم، فهم الشجعان. حتى يغدو المرء رجلًا، فلا بدّ له أن يخوض المخاطرة، وأن يتحلَّى بالجرأة. إنه الجيش يا غامبوا، والجيش لا يقتصر على الانضباط، بل إنه يتطلَّب الجرأة، والدهاء. ولكن، في النهاية، نستطيع مناقشة الأمر لاحقًا. ما يشغلني الآن هو الأمر الآخر. إنها مسألة شديدة الحماقة. وعلى الرغم من ذلك، فربما تأذَّينا منها بشدة لو وصلَت إلى الكولونيل.

- معذرة، سيدي الرائد. -قال غامبوا- يمكن لطُلَّاب كتيبتي أن يفعلوا كل ما يحلو لهم ما دمتُ غافلًا عما يحدث، أوافقك الرأي. ولكنني لم أعُد قادرًا على التظاهر بالغفلة، وإلَّا شعرتُ بأنني متواطئ. الآن أعرف أن هناك شيئًا لا يسير على ما يُرام. لقد جاء الطالب ألبِرتو فِرنانديس حتى يخبرني بأن الأقسام الثلاثة ظلَّت تستهزئ بي طوال الوقت، وبأنها قد خدعَتني كثيرًا.

- لقد أصبحوا رجالًا يا غامبوا. -قال الرائد- وصل أولئك الطُلَّاب إلى هنا مراهقين، مُتأنِّثين. والآن، انظرْ إليهم.

- سوف أجعلهم أكثر رجولة. -قال غامبوا- متى انتهَت التحقيقات، سوف أقدِّم جميع طُلَّاب كتيبتي إلى مجلس الضُبَّاط، لو دعَت الضرورة إلى ذلك.

توقَّف الرائد.

- تبدو وكأنك واحد مِن أولئك المُتزمِّتين. -قال رافعًا صوته- أتريد أن تخرِّب مسيرتك؟

- رجل العسكرية لا يخرِّب مسيرته ما دام يؤدِّي واجبه، سيدي الرائد.

- حسنًا. -قال الرائد، واستأنف المشي- افعلْ ما شئت. ولكني أؤكِّد لك أنك سوف تتأذَّى. وبطبيعة الحال، لا تنتظر أي دعم من جانبي.

- بطبيعة الحال، سيدي الرائد. أستأذنك.

أدَّى غامبوا التحية ثم انصرف. ذهب إلى حجرته، حيث استقرَّت صورة امرأة فوق الخزانة، صورة تعود إلى ما قبل الزواج. كان قد تعرَّف بها في إحدى الحفلات، وهي لا تزال في المدرسة. التُقِطَت الصورة في الحقل، ولكن غامبوا لا يدري في أي مكان. بدَت آنذاك نحيفة، طليقة الشعر، باسمة، جالسة تحت شجرة، بينما تراءى نهرٌ يجري في خلفية الصورة. أخذ غامبوا يتأمَّلها لبضع ثوانٍ، ثم استأنف مطالعة التقارير ومُذكِّرات العقاب. كما راجع دفاتر الدرجات بعناية. وقبَيْل منتصف النهار، عاد إلى الفناء، حيث كان اثنان من الجنود يكنسان ثكنة القسم الأول. رآه الجنديان، فاتَّخذا وضع الانتباه.

- استرِح! -قال غامبوا- هل تكنسان هذه الثكنة كل يوم؟

- أنا الذي أكنسها، سيدي الملازم. -قال أحدهما، ثم أشار إلى الآخر-: أما هو فيكنس الثكنة الثانية.

- تعالَ معي.

ثم التفت الملازم إلى الجندي في الفناء، وقال ناظرًا إلى عينَيْه:

- لقد ضيَّعتَ نفسك أيها الحيوان.

اتَّخذ الجندي وضع الانتباه مِن تلقاء نفسه، وقد فتح عينَيْه قليلًا. تراءى وجهه خشنًا، أجرد. لم يسأل عن شيء، وبدا عليه أنه يتقَّبل احتمال أن يكون قد اقترف خطأ.

- لماذا لم تقدِّم تقريرًا؟

- بل إنني قد فعلت، سيدي الملازم. -قال- اثنان وثلاثون سريرًا. اثنان وثلاثون خزانة. كل ما في الأمر أنني قد سلَّمتُ التقرير للنقيب.

- لا أتحدَّث عن هذا. ولا تتصنَّع الغباء. لماذا لم تقدِّم تقريرًا بشأن قوارير المشروبات الروحية، والسجائر، والنرد، وورق اللعب؟

اتَّسعَت عينا الجندي أكثر من ذي قبل، ولكنه لزم الصمت.

- في أي خزائن؟ -سأل غامبوا.

- ماذا تقصد، سيدي الملازم؟

- في أي خزائن يحتفظون بالمشروبات الروحية وأوراق اللعب؟

- لا أدري، سيدي الملازم. مِن المُؤكَّد أنها في قسم آخر.

- لو كذبتَ عاقبتُك لمدة خمسة عشر يومًا. -قال غامبوا- في أي خزائن يحتفظون بالسجائر؟

- لا أدري، سيدي الملازم. -ولكنه أردف، خافضًا عينَيْه-: في كل الخزائن، على ما أظنّ.

- والمشروبات الروحية؟

- في بعضها وحسب، على ما أظنّ.

- والنرد؟

- في بعضها أيضًا، على ما أظنّ.

- ولماذا لم تقدِّم تقريرًا بذلك؟

- لم أرَ شيئًا، سيدي الملازم. لا يمكنني فتح الخزائن. لأنها موصدة، والطُلّاب يحتفظون بالمفاتيح. كل ما في الأمر أنني أعتقد بوجود تلك الأشياء، ولكني لم أرَها بعينَي.

- وهل الوضع كذلك في باقي الأقسام؟

- على ما أظنّ، سيدي الملازم. ولكن بقدر أقل منه في القسم الأول.

- حسنًا. -قال غامبوا- مساء اليوم أتسلَّمُ دورية الخدمة. احضرْ إلى نقطة الحراسة أنت وباقي الجنود المسؤولين عن التنظيف في الثالثة.

- حسنًا، سيدي الملازم. -قال الجندي.

٥

ظهر مِن الواضح أن أحدًا لن ينجو، وتراءى الأمر كله وكأنه ضرب من الشعوذة. أمرونا بالوقوف ثم أخذونا إلى الثكنة، عندئذ قلتُ إن لسانًا واشيًا قد أبلغ عنا، لا أريد أن أصدِّق ذلك ولكن الأمر واضح وضوح الشمس، لقد أبلغ النَّمِرُ عنا. أُمِرنا بفتح خزائن الثياب، فأحسستُ بغصة في حلقي، «تمالكْ نفسك يا رفيق»، قال بايانو، «إنها نهاية العالم»، وكان مُحِقًّا. «أهو تفتيش على الثياب، سيدي ضابط الصفّ؟»، سأل أروسپيدي المسكين وقد تراءى وجهه كمن يلفظ أنفاسه الأخيرة. «لا تتصنَّع البلاهة»، قال پيسوا، «الزمْ مكانك، من فضلك، ودسّ لسانك في مُؤخِّرتك». لشدّ ما توتَّر جسدي، ولشدّ ما احترقَت أعصابي، بينما تراءى الفتيان كالسائرين نيامًا. كان الأمر برمّته في غاية الغرابة، إذ وقف غامبوا فوق إحدى الخزائن، وبالمثل فعل الجرذ، في حين انطلق الملازم صائحًا: «احذروا! افتحوا الخزائن، وكفى، لم يطلب منكم أحد أن تدسّوا أيديكم في الخزائن». ومَن يجرؤ على ذلك. لقد أوقعوا بنا. ولكن مِن دواعي سروري أن أعرف أنهم قد نالوا منه أولًا، على الأقل. إن لم يكُن هو الذي فعلها، فمَن أخبرهم بأمر قوارير الشراب وأوراق اللعب؟ كل شيء يبدو في غاية الغموض، وما زلتُ لم أفهم مسألة الإستاد والبنادق. هل كان غامبوا في مزاج سيئ، فأراد أن

ينفِّس عن غمِّه بانتزاع أحشائنا؟ أخذ بعض الطُلّاب يضحكون. إن القلب يتألَّم لرؤية أمثال هؤلاء، أصحاب المشاعر المُتبلِّدة، الذين لا يعرفون ماذا تعني المصائب. الحقّ أن الأمر كان مضحكًا إلى حدّ البكاء، إذ بدأ الجرذ يغوص في الخزائن، ويتسلَّل إليها بكل جسده، فظهر وكأن الثياب تبتلعه كاملًا، لأنه صغير كالأقزام. أخذ يزحف على أربع، ذلك المُتملِّق الكبير، حتى يرى غامبوا أنه يفتِّش جيدًا، ومضى ينقِّب في الجيوب، ويفتح كل شيء، ويتشمَّم كل شيء، وأي سعادة غمرَته حين رفع عقيرته قائلًا: «توجد سجائر إنكا هنا، سحقًا، إن هذا مِن علية القوم، يدخِّن سجائر تشيسترفيلد، رباه، هل كنتم في طريقكم إلى إحدى الحفلات؟ ما كل هذه القوارير!». شحبَت وجوهنا، ومِن حسن الحظّ أنهم قد عثروا على أشياء في خزائن الثياب كلها، مِن حسن الحظّ. يبدو مِن الواضح أن وضعنا، نحن الذين قد احتفظنا بقوارير الشراب في الخزائن، هو الأشدّ حرجًا. كانت قارورتي شبه خاوية، وطلبتُ منه أن يدوِّن ذلك، فقال لي عديمُ الاحترام، «اخرسْ أيها الأحمق». أما الشخص الذي كاد يحلِّق مِن فرط المتعة فهو غامبوا، الأمر الذي شفَّت عنه طريقته في السؤال: «كم واحدة قلت؟». «علبتان مِن سجائر إنكا وعلبتان مِن أعواد الثقاب، سيدي الملازم»، بينما راح غامبوا يدوِّن في دفتره، ببطء، حتى تدوم اللذةُ وقتًا أطول. «قارورة ممتلئة حتى نصفها، مِن أي صنف؟». «مِن پيسكو صولديكا، سيدي الملازم». أخذ مَوْجَة يبتلع ريقه كلَّما نظر إليّ، أجل يا رفيق، لقد غرقنا حتى الأعناق. كان منظر باقي الطُلّاب يثير الشفقة في النفوس، مِن أين جاءت تلك الفكرة اللعينة، فكرة تفتيش الخزائن. بعد أن غادر غامبوا والجرذ، قال مَوْجَة: «لا بدّ أن النَّمِر هو الفاعل. لقد أقسم إنه لو سقط، أسقط معه الجميع. إنه مُخنَّث

وخائن». ما كان ينبغي له أن يقولها هكذا، بلا أدلة، بتلك الكلمات. وعلى الرغم من ذلك، فلا بدّ أنها الحقيقة.

ولكني لا أدري لماذا أخذونا إلى الإستاد، في ظنّي أنه ربما كان النَّمِر هو الملوم في ذلك أيضًا، مِن المُؤكَّد أنه قد أخبر غامبوا بأننا: «نضاجع الدجاج أحيانًا»، فقال له الملازم: «سوف أقطع أنفاسكم عقابًا لكم على تلك الوقاحة». دخل الجرذ إلى الفصل قائلًا: «اصطفّوا سريعًا، فلديَّ مفاجأة مِن أجلكم». صحنا عليه: «جرذ»، فقال لنا: «إنها أوامر السيد الملازم. اصطفّوا وامضوا إلى الثكنات بالخطوة السريعة. وإلّا، فهل تريدون مني أن أستدعي الملازم؟». اصطففنا، ومضى بنا إلى الثكنة. ثم قال لنا عند الباب: «فليأخذ كل طالب بندقيته، أمامكم دقيقة واحدة، أيها الرقيب، قدِّم إليَّ تقريرًا بأسماء الثلاثة الأواخر». رحنا نسبّ أمَّه حتى تعبنا من السباب، ولكن أحدًا لم يدرِ ماذا جرى. أخذ طُلّاب الأقسام الأخرى يستهزئون بنا في الفناء. مَن رأى الطُّلّاب يومًا وهم يحملون البنادق في منتصف النهار ويخوضون التدريبات الميدانية في الإستاد! هل تفكَّكَت إحدى الصواميل في عقل غامبوا؟ كان ينتظرنا في ملعب كرة القدم، وينظر إلينا بحماسة. «مكانك قفْ!»، قال الجرذ، «اصطفّوا في مجموعات التدريبات الميدانية». امتعض الجميع، وتراءت لنا التدريبات الميدانية بالزيّ اليومي، قبل الغداء، كابوسًا مُحقَّقًا. ولماذا لا تتمرَّغ أمُّك على النجيل الغارق في المياه! ولشدّ ما تعبَت أجسادنا بعد ثلاث ساعات متواصلة مِن الدروس! في تلك الأثناء تدخَّل غامبوا بصوته الجهير صائحًا: «قفوا في ثلاثة صفوف، المجموعة الثالثة في الطليعة والمجموعة الأولى في الخلف». مضى الجرذ يحثّنا، ذلك المُداهِن الكبير: «أسرعوا أيها الكسالى! أسرع، أسرع!». وعندئذ قال غامبوا: «اتركوا بينكم مسافة عشرة أمتار،

شأنكم متى تأهَّبتم للهجوم». لعلّ خطر الحرب بات وشيكًا، فقرَّرت الوزارة أن نتلقَّى تدريبات عسكرية بصفة عاجلة، ثم نذهب بصفتنا ضُبَّاطًا أو ضُبَّاط صفّ، أتمنَّى أن أدخل آريكا بالدم والنار، وأرفع رايات بيرو في كل مكان[1]، فوق الأسقف، وفي النوافذ، والشوارع، والسيارات، يُقال إن نساء تشيلي أجمل نساء العالَم، أتراها حقيقة؟ لا أظنّ خطرَ الحرب محدقًا، وإلَّا حملونا جميعًا على التدريب، ولم تقتصر التدريبات على القسم الأول فحسب. «ماذا دهاكم؟»، صاح علينا غامبوا. «رماة المجموعتَيْن الأولى والثانية، هل صمّت آذانكم؟ أم فقدتم عقولكم؟ قلتُ عشرة أمتار، لم أقُل عشرين مترًا. ما اسم ذلك النيغرو؟». «بايانو، سيدي الملازم». رأينا التعابير المرتسمة على وجه بايانو عندما نعته غامبوا بالنيغرو، فكدنا ننفجر في الضحك. «حسنًا»، قال الملازم. «لماذا تقف على مسافة عشرين مترًا، ما دمتُ قد أمرتُ بترك مسافة عشرة أمتار؟». «لستُ مِن الرماة، سيدي الملازم. الأمر أنه ينقصنا أحد الأفراد». إن ذلك المدعو بيسوا أحمق كبير، مَن يخطر له أن يقول شيئًا كهذا! «آها»، قال غامبوا، «اخصم ست نقاط مِن الطالب الغائب». «لا يمكن، سيدي الملازم، لأن الغائب قد مات. إنه الطالب آرانا»، وحدهم الحمقى يتفوّهون بأشياء من هذا القبيل. لم يسِر شيء واحد على ما يُرام، واستشاط غامبوا غضبًا. «حسنًا»، قال. «فليتقدَّم الرامي الذي يقف خلفه مِن الصفّ الثاني حتى يشغل ذلك الموقع». وما هي إلَّا لحظة حتى صرخ: «أي سبب لعين يمنعك مِن تنفيذ الأمر؟». التفتنا، فاتَّخذ أروسبيدي وضع الانتباه قائلًا: «لأن هذا الطالب أيضًا غائب.

---

(١) كانت مدينة آريكا تشكِّل جزءًا من بيرو حتى ضمَّتها تشيلي إلى أراضيها في أعقاب معركة آريكا التي اندلعَت عام ١٨٨٠.

إنه النَّمِر». «قفْ في هذا الموقع بنفسك، ولا تتذمَّر»، قال له غامبوا. «الأوامر تُنفَّذ بلا تردُّد ولا امتعاض». ثم أمَرَنا بالتقدُّم مِن مرمى إلى آخر، انطلقوا فور سماع الصفير، ازحفوا، واركضوا، وانبطحوا أرضًا، إن المرء ليفقد الإحساس بالزمن وبالجسد عندما يؤدِّي تلك التمارين، وبعد الإحماء أمرنا غامبوا بالوقوف في ثلاثة صفوف، ثم جاء بنا إلى الثكنة، وتسلَّق إحدى خزائن الثياب، بينما تسلَّق الجرذ خزانة أخرى، فوجد مشقَّةً بالغة في الوصول إلى قمة الخزانة لأن قامته قصيرة جدًّا، وعند ذاك أصدرا إلينا الأمر التالي: «قفوا انتباه في أمكنتكم»، وفي تلك اللحظة خمَّنتُ أن النَّمِر قد باعنا حتى ينفذ بجلده، لا يوجد رجال أسوياء في هذا العالَم، مَن كان يتوقَّع أنه قد يفعل شيئًا مِن هذا القبيل. «افتحوا خزائن الثياب، وتقدَّموا خطوة إلى الأمام. مَن دسّ يده في الخزانة انتهى أمره»، وهل ترانا سَحَرةً قادرين على إخفاء القوارير تحت سمع الملازم وبصره. أخذا كل ما عُثِر عليه بالجملة، فخيَّم علينا الصمت، واستلقيتُ في سريري. رِيشَة ليسَت هنا. حانت ساعة الطعام، ومِن المُؤكَّد أنها قد ذهبَت إلى المطبخ باحثةً عن البقايا. مِن المحزن ألا تكون الكلبة هنا حتى أداعب رأسها، الأمر الذي يجعلني أسترخي ويبثّ في نفسي هدوءًا عظيمًا، أفكِّر فيها وكأنها فتاة. لا بدّ أن الزواج أشبه بذلك. إذا شعرتُ بخمود الهمة جاءت الأنثى واستلقَت إلى جواري ساكتةً، هادئةً، فلا أقول لها حرفًا، بل إنني أتلمَّسها، وأداعبها، وأدغدغها، فتضحك، أقرصُ بشرتها، فتصرخ، أدلِّلها، أداعبُ وجهها، أجدلُ شعرها، أسدُّ أنفها، ثم أفلته عندما تختنق، أمسكُ عنقها ونهدَيْها وظهرها وكتفَيْها وأردافها وساقَيْها وسرّتها، أقبِّلها فجأة، وأتغزَّلُ بها: «يا فتاتي الخلاسية، يا صغيرتي، يا امرأتي، يا عاهرتي». وإذا بأحدهم يصيح قائلًا: «إن اللائمة تقع عليكم أنتم فيما جرى»،

فصحتُ عليه: «ماذا تقصد بأنتم؟». «النَّمِر وأنتما معه»، قال أروسپيدي. انطلقتُ نحوه، فاستوقفني آخرون. «قلتُ أنتم، وأكرِّرها»، صرخ الفتى في وجهي. استحوذ عليه غضب عارم، حتى سال ريقه مِن شدة السخط، من دون أن ينتبه إلى ذلك. رحتُ أقول لهم «اتركوه، فأنا لستُ خائفًا مِنه، سوف أنتهي منه بركلتَيْن، وأسحقه في ثانية واحدة»، ولكنهم كبَّلوا حركتي حتى أظلّ ساكنًا. «الأفضل ألَّا تتشاجرا الآن وقد انتهَت الأمور إلى ما انتهَت إليه»، قال بايانو. «لا بدّ أن نتَّحد لمواجهة ما ينتظرنا». «أروسپيدي»، قلتُ له، «أنت أكبر مُخنَّث رأيتُه في حياتي. تفتري على الرفقاء متى ساءت الحال». «كاذب»، قال أروسپيدي. «أقفُ معكم في مواجهة الضُبَّاط، ولو دعَت الضرورة، مددتُ إليكم يد العون. ولكن اللائمة في ما يجري تقع عليكم، أنت والنَّمِر ومَوْجَة، لأن نفوسكم ليست صافية. تفوح رائحة مشبوهة مما حدث، فما إن زُجّ بالنَّمِر في الحجز حتى عرف غامبوا بالأشياء التي نحتفظ بها في الخزائن، أي مصادفة هذه!». لم أدرِ ماذا أقول. انضمّ مَوْجَة إليهم، ومضى الجميع يقولون «أجل، النَّمِر هو الواشي»، و«لا أشهى مِن الانتقام». ثم انطلقَت الصفارة إيذانًا بالغداء، وأعتقد بأنها أول مرة كدتُ لا أتذوَّق فيها شيئًا منذ التحقتُ بالمدرسة، وغصّ حلقي بالطعام.

*

لمح الجنديُّ الملازمَ غامبوا قادمًا، فوقف والتقط المفتاح. دار على عقبَيْه حتى يفتح الباب، ولكن الملازم استوقفه بإشارة من يده، وأخذ منه المفتاح قائلًا: «اذهبْ إلى نقطة الحراسة واتركني وحدي مع الطالب». يقوم الحجز المُخصَّص للجنود خلف قنّ الدجاج، بين الإستاد وسور المدرسة، ويقع في بناء مِن الآجر، ضيِّق، خفيض. ولطالما تولّى أحد الجنود حراسة المكان هناك، عند الباب، حتى إذا

كان الحجز خاليًا من النزلاء. انتظر غامبوا ريثما يبتعد الجندي عَبْر ملعب كرة القدم في طريقه إلى الثكنات. فتح الباب، فوجد الحجرة شبه غارقة في العتمة: بدأ الليلُ يخيِّم، وتراءت النافذة الوحيدة كالسياج. لم يرَ أحدًا لأول وهلة، فما لبثَت أن حدَّثَته خاطرةٌ مباغتة بأن: الطالب قد هرب. ثم وجده مُمدَّدًا على السرير. اقترب منه. كان الطالب مغمض العينَيْن، نائمًا. تفحَّص غامبوا قسماته الجامدة. حاول أن يتذكَّر، ولكن سدى، إذ اختلط ذلك الوجه بغيره مِن الوجوه، وإن تراءى له مألوفًا على نحو مبهم، لا بالنظر إلى قسماته، وإنما بالنظر إلى ذلك التعبير الناضج قبل الأوان: الفكِّ المشدود، والجبين الجادّ، والذقن الغائر. متى وقف الجنود والطُلَّاب أمام ضابط يفوقهم رتبةً، صلَّبوا وجوههم. ولكن هذا الطالب لا يدري أنه هناك. أضفْ إلى ذلك أن وجهه لا يشبه وجوه أغلب الطُلَّاب، مِن أصحاب البشرة الداكنة والقسمات الحادة. رأى غامبوا وجهًا أبيض، وخصلات وأهدابًا شقراء. مدّ يده إلى كتف النَّمِر. وفُوجِئ بنفسه: لأن تلك اللفتة جاءت خاليةً من الحيوية. لمس كتفه برفق، وكأنه يوقظ أحد الزملاء. أحسّ بجسد النَّمِر ينتفض تحت يده، وتراجعَت ذراعه إلى الوراء تأثُّرًا بحركة الطالب العنيفة حين هبّ واقفًا. ولكنه بعد ذلك سمع صوت كعبَيْه حين ضرب أحدهما بالآخر: تعرَّفه الطالب، وعاد كل شيء إلى طبيعته.

- اجلس. -قال غامبوا- لدينا أشياء كثيرة لنتحدَّث عنها.

جلس النَّمِر. والآن رأى الملازم عينَيْه وسط الغبش. لم تكُن عيناه واسعتَيْن، ولكنهما برَّاقتان، قاطعتان. لم يتحرَّك الطالب أو يتكلَّم، وإن لمس الملازم في صلابته وصمته شيئًا جامحًا، أثار في نفس غامبوا شعورًا بالاستياء.

- لماذا التحقتَ بالمدرسة العسكرية؟

لم يتلقَّ جوابًا. أمسك النَّمِر حافة السرير بيده. لم يتبدَّل وجهه، وإنما تراءى صارمًا، هادئًا.

- لقد أُرغِمتَ على الالتحاق بالمدرسة، أليس كذلك؟ -سأل غامبوا.

- لماذا، سيدي الملازم؟

بدا صوته أنسب ما يكون لعينَيْه. وجاءت كلماته تنمّ عن احترام، في حين مضى يلقي الكلمات ببطء، وينطقها بقدرٍ مِن الحسّية، على الرغم من الكبرياء السريَّة التي وشَت بها نبرته.

- أريد أن أعرف... -قال غامبوا- لماذا التحقتَ بالمدرسة العسكرية؟

- كنتُ أريد أن أصبح عسكريًّا.

- كنتَ تريد؟ -سأل غامبوا- هل عدلتَ عن رأيك؟

في تلك المرة شعر بأنه مُتردِّد. عندما يستجوب أحد الضُبَّاط طالبًا عن مشروعاته المستقبلية، فكلهم يؤكِّدون رغبتهم في الالتحاق بالعسكرية. وعلى الرغم مِن ذلك، يعرف غامبوا أن طُلَّابًا قلائل سوف يتقدَّمون إلى اختبار الالتحاق بأكاديمية تشوريوس الحربية.

- ما زلتُ لا أدري، سيدي الملازم. -أجاب النَّمِر، بعد لحظات. أعقبَت ذلك هنيهة أخرى مِن التردُّد- ربما تقدَّمتُ إلى أكاديمية الطيران.

مرَّت بضع لحظات وهما ينظران كلٌّ إلى عينَي الآخر، وكأن كلًّا منهما ينتظر شيئًا مِن الآخر. وفجأة، سأله غامبوا بحدّة:

- أنت تعرف سبب وجودك في الحجز، أليس كذلك؟

- لا أعرف، سيدي الملازم.

- حقًّا؟ ألا تظنّ بأن هناك سببًا لذلك؟

- لم أفعل شيئًا. -أكَّد النَّمِر.

- خزانتك وحدها تكفي. -قال غامبوا، ببطء- سجائر، وقارورتان من الپيسكو، ومجموعة من الخطافات لفتح الأقفال، أيبدو لك ذلك شيئًا هينًا؟

راقبه الملازم بتأنٍّ، ولكن سدى، فما زال النَّمِر هادئًا صامتًا. لم يبدُ مُتفاجئًا ولا خائفًا.

- يمكن غضّ النظر عن السجائر. -أردف غامبوا- لأنها لا تستدعي أكثر مِن الحرمان مِن الإجازة. أما المشروبات الروحية فلا يمكن إغفالها. يستطيع الطُلّاب أن يسكروا في الشارع، أو في البيت. أما هنا، فلا يمكن لأحد أن يشرب قطرة واحدة مِن الكحول. -سكت هنيهة- وماذا عن النرد؟ لقد جعلتم من القسم الأول صالةً للقمار. وماذا عن خطافات فتح الأقفال؟ ماذا يعني ذلك؟ السرقة. كم خزانة ثياب قد فتحت؟ منذ متى وأنت تسرق زملاءك؟

- أنا؟ -احتار غامبوا لحظةً، إذ نظر إليه النَّمِر ساخرًا. وكرَّر سؤاله مِن دون أن يخفض عينَيْه-: أنا؟

- نعم. -قال غامبوا. شعر بالغضب يستحوذ عليه- وإلّا فأي وغد سواك قد فعلها؟

- كلهم. -قال النَّمِر- المدرسة كلها.

- كاذب. -قال غامبوا- أنت جبان.

- لستُ جبانًا. -قال النَّمِر- أخطأت، سيدي الملازم.

- أنت لصّ. -أردف غامبوا- وسكير، ومقامر، وفوق ذلك جبان. أتدري؟ لقد تمنَّيتُ لو كُنَّا مِن المدنيين.

- أتريد أن تضربني؟ -سأل النَّمِر.

- كلّا. -قال غامبوا- لو كُنَّا من المدنيين لأخذتُك مِن أذنك إلى المُؤسَّسة الإصلاحية. كان يجدر بأبوَيْك أن يرسلاك إلى هناك.

ولكن فات الأوان، ونغَّصتَ حياتك بنفسك. أتذكر ماذا حدث منذ ثلاثة أعوام؟ لقد أمرتُكم بفضّ الحَلْقَة، والكفّ عن لعب دور رجال العصابات. أتذكر ما قلتُ لكم في تلك الليلة؟

- كلّا. -قال النَّمِر- لا أذكر.

- بلى، تذكر. -قال غامبوا- ولكن لا يهمّ. لقد تصنَّعتَ الذكاء، أليس كذلك؟ ولكن من تصنَّع الذكاء في صفوف الجيش، مثلما فعلتَ أنت، تمرَّغ في الوحل، طال الأجل أم قصر. لقد أفلتَّ بفعلتك طويلًا. ولكن ها قد حانت ساعتك.

- لماذا؟ -سأل النَّمِر- أنا لم أفعل شيئًا.

- الحَلْقَة... -قال غامبوا- سرقة الاختبارات، سرقة الثياب، نصب الكمائن لمن هم أعلى مِنك رتبةً، إساءة استغلال السلطة مع طُلّاب الفرقة الثالثة. أتعرف ما أنت؟ أنت مجرم.

- ليس هذا صحيحًا. -قال النَّمِر- لم أفعل شيئًا. فعلتُ ما يفعله الجميع.

- مَن؟ -سأل غامبوا- مَن غيرك سرق الاختبارات؟

- الجميع. -قال النَّمِر- ومَن لم يسرق الاختبارات، فذلك لأنه يملك النقود اللازمة لشرائها. ولكن الجميع مُتورِّط في الأمر.

- أسماء... -قال غامبوا- أعطِني بعض الأسماء. مَن تورَّط في ذلك مِن أفراد القسم الأول؟

- هل سأُعاقَب بالطرد مِن المدرسة؟

- نعم. وربما نلتَ عقابًا أسوأ مِن ذلك.

- حسنًا. -قال النَّمِر، مِن دون أن يتبدَّل صوته- جميع أفراد القسم الأول قد اشتروا الاختبارات.

- حقًّا؟ -سأل غامبوا- حتى الطالب آرانا؟

- ماذا، سيدي الملازم؟

- آرانا. -كرَّر غامبوا- الطالب ريكاردو آرانا.

- كلّا. -قال النَّمِر- أعتقد بأنه لم يشترِ الاختبارات قطّ. كان يحشو رأسه بالدروس. ولكن باقي الطلب قد فعلوا.

- لماذا قتلتَ آرانا؟ -سأل غامبوا- أجِب. الجميع يعرف. لماذا؟

- ما خطبك؟ -قال النَّمِر. وقد رفَّت أجفانه مرة واحدة.

- أجِب عن سؤالي.

- هل أنت رجل بحقّ؟ -قال النَّمِر وقد استقام، واختلج صوته- لو أنك رجل بحقّ، فانزع شاراتك العسكرية. أنا لستُ خائفًا منك.

وإذا بغامبوا يمدّ زراعه بسرعة البرق، ويمسك ياقة القميص، ويضيِّق عليه الخناق دافعًا إياه إلى الجدار بيده الأخرى. وقبل أن يبدأ النَّمِر في السعال، أحسّ غامبوا بوخزة في كتفه. حاول أن يسدِّد إليه لكمة، ولكن النَّمِر بالكاد لامس مرفقه، وتوقَّفَت قبضته في منتصف الطريق. أفلته غامبوا، ثم تراجع خطوة قائلًا:

- في يدي أن أقتلك. يحقّ لي ذلك، لأنك حاولتَ الاعتداء عليَّ، وأنا أعلى منك رتبةً. ولكن مجلس الضُبَّاط سوف يتولَّى أمرك.

- انزعْ شاراتك العسكرية. -قال له النَّمِر- ربما كنتَ قويًّا، ولكني لستُ خائفًا منك.

- لماذا قتلتَ آرانا؟ -سأل غامبوا- دعْ عنك التظاهر بالجنون وأجِب عن سؤالي.

- أنا لم أقتُل أحدًا. لماذا تقول ذلك؟ أتحسبني قاتلًا؟ ولماذا أقتل العَبْد؟

- لقد أبلغ أحدُهم عنك. -قال غامبوا- وانتهى أمرك.

- مَن؟ -هبَّ واقفًا، بقفزة واحدة. بينما اتَّقدَت عيناه وكأنهما جمرتان.

- أرأيت؟ -قال غامبوا- ها أنت قد فضحتَ نفسك بنفسك.

- من ادَّعى ذلك؟ -كرَّر النَّمِر- لأنني سوف أقتله حقًّا.

- مِن الخلف. . . -قال غامبوا- لقد جاء موقعه أمامك، على مسافة عشرين مترًا، فقتلتَه أنت مِن الخلف غدرًا. أتعرف ما عقاب القتل غدرًا؟

- أنا لم أقتل أحدًا. أقسمُ إنني لم أقتل أحدًا، سيدي الملازم.

- سنرى. -قال غامبوا- الأفضل أن تعترف بكل شيء.

- ليس لديّ ما أعترف به. -صرخ النَّمِر- صحيح ما قيل بشأن الاختبارات، والسرقات. ولكني لستُ الوحيد. كلهم قد تورَّطوا في ذلك. كل ما في الأمر أن المُخنَّثين يدفعون الثمن حتى يسرق الآخرون نيابة عنهم. ولكني لم أقتل أحدًا. أريد أن أعرف مَن أبلغك بذلك.

- ستعرف. -قال غامبوا- سيخبرك بنفسه.

*

في اليوم التالي، وصلتُ إلى بيتي في التاسعة صباحًا. وجدتُ أمّي جالسة عند عتبة الباب. رأتني قادمًا، فلم تتحرَّك. قلتُ لها: «لقد بتُّ ليلتي في تشوكويتو، عند صديقي». لم تجِبني. وإنما حدجَتني بنظرة غريبة، بقليل مِن الخوف، وكأنني سوف أؤذيها. أخذَت تحملق في جسدي كاملًا، فأورثَتني عيناها شعورًا بالضيق. آلمني رأسي، وأحسستُ بحلقي جافًا، ولكني لم أجرؤ على الذهاب إلى النوم أمامها. لم أدرِ ما العمل. فتحتُ الدفاتر وكتب المدرسة، ولكن بلا طائل، إذ لم يُجدني ذلك نفعًا. رحتُ أدسّ يدي في جارور المهملات، غير أنها ظلَّت تتبعني وتراقبني طوال الوقت. التفتُّ إليها

قائلًا: «ماذا دهاك؟ لماذا تحدِّقين إليَّ هكذا؟». وعندئذ قالت لي: «لقد ضللتَ الطريق. ليتك تموت». ثم خرجَت مِن الباب الذي يفضي إلى الشارع. ظلَّت جالسة على الدَّرَج طويلًا، مُتَّكِئةً بمرفقَيْها إلى ركبتَيْها، ورأسها بين يدَيْها. رحتُ أختلس النظر إليها مِن حجرتي، ورأيتُ قميصها الذي كثُرَت فيه الثقوب والرُّقَع، وعنقها المليء بالتجاعيد، ورأسها الأشعث. اقتربتُ منها ببطء وقلتُ لها: «إن كنتِ منزعجةً مني، فأنا آسف». نظرَت إليَّ مُجدَّدًا: حتى وجهها بدا ممتلئًا بالتجاعيد، وبرزَت الشعيرات البيضاء مِن أحد منخارَيْها، وظهرَت في فمها الفاغر مواضع الأسنان الكثيرة الناقصة. «الأفضل أن تطلب مِن الرَّب المغفرة»، قالَت لي. «مع أنني لا أدري إن كان الأمر يستحقّ العناء. فأنت محكوم بالعذاب الأبدي». «أتريدين مني أن أقطع لكِ وعدًا؟»، سألتُها، فأجابَتني: «ما جدوى ذلك، والفساد ظاهر على وجهك؟ الأفضل لك أن تأوي إلى الفراش حتى تفيق مِن السُّكْر».

لم أذهب إلى الفراش، وفارقني النعاس. بعد قليل خرجتُ مُتَّجِهًا إلى شاطئ تشوكويتو. ومِن مكاني عند رصيف الميناء، رأيتُ الفتيان الذين كانوا هناك في اليوم السابق، وجدتُهم يدخِّنون مُمدَّدين على الصخور، مُستنِدين برؤوسهم إلى الثياب التي صنعوا بها كومتَيْن. ازدحم الشاطئ بكثيرٍ مِن الفتيان الذين وقف بعضهم على الضفة، ومضوا يلقون الأحجار المُسطَّحة التي ترتدّ عن صفحة الماء كالأقراص. بعد قليل وصلَت تيريسا وصديقتاها. اقتربن مِن الفتيان وصافحنهم. ثم خلعن الثياب التي ارتدين فوق ملابس السباحة، وجلسن في حلقة. ظلَّ مع تيري طوال الوقت، وكأنني لم أفعل له شيئًا. ثم نزلا إلى البحر أخيرًا، ومضَت تيريسا تصيح: «أكاد أتجمَّد، أكاد أموت مِن شدة البرودة»، أما هو فبدأ ينثر على جسدها

الماء الذي يغترفه بكلتا يدَيْه. صاحَت بصوتٍ أعلى، وإن لم تكُن غاضبة. ثم ذهبا إلى ما وراء الأمواج. تفوَّقَت عليه تيريسا في السباحة، ومضَت تتحرَّك بانسيابية، وكأنها سمكة صغيرة. بينما كان هو يفرط في الحركة، ثم يغوص في الماء. خرج كلاهما مِن البحر، وجلسا على الصخور. استلقَت تيريسا على الشاطئ، فصنع وسادة مِن أجلها بثيابه، واستلقى إلى جوارها، ملتفتًا بكل جسده حتى يتمكَّن مِن رؤيتها كاملة. لم أعُد أرى من تيري سوى ذراعَيْها اللتين رفعَتهما لتحجب الشمس عنها. بينما رأيتُ ظهره النحيل، وضلوعه البارزة، وساقَيْه الملتويتَيْن. في الثانية عشرة تقريبًا نزلا إلى الماء مرة أخرى. راحت تنثر عليه الماء، بينما انطلق هو صارخًا كالمُخنَّثين. ثم شرعا يسبحان. مدَّد كلٌّ منهما جسده على صفحة الماء، وأخذا يلهوان متظاهرَيْن بالغرق: كان يغوص في الماء، بينما تلوِّح تيريسا بيدَيْها وتصيح طالبة النجدة، وإن ظهر عليهما بوضوح أنهما يمزحان. كان ينبثق مِن الماء فجأةً وكأنه سدَّادة مِن الفلين، بشعره الذي يتناثر حاجبًا وجهه، وإذا به يطلق صيحات طرزان. تمكَّنتُ من سماع ضحكاتهما، التي جاءت في غاية القوة. خرجا مِن الماء، فوجداني في انتظارهما قرب كومتَي الثياب. لا أدري إلى أين ذهبَت صديقتا تيريسا والفتى الآخر، لم أنتبه حتى إليهم، وكأنما قد تلاشى الناس جميعًا. اقتربا، فرأتني تيري أولًا. بينما جاء الفتى خلفها وهو يقفز كالمجنون. لم تتبدَّل تعابير وجهها، فلا بدَت أكثر سرورًا ولا أشدّ حزنًا مما كانت عليه. لم تصافحني، وإنما اكتفَت بقولها: «مرحبًا. أنت أيضًا جئتَ إلى الشاطئ؟». وفيما نحن على تلك الحال، رآني الفتى، وتعرَّفني، وإذا به يتوقَّف بحدّة، ثم يتراجع إلى الوراء، وينحني ليلتقط حجرًا، مُصوِّبًا إليّ. «أتعرفه؟ إنه جاري»، سألَته تيريسا، ضاحكةً. «إنه مُشاغِب»، قال الفتى. «سوف أهشِّم وجهه

كيلا يعود إلى ذلك مرةً أخرى». أخطأتُ في تقدير المسافة، أو بالأحرى نسيتُ وجود الأحجار. قفزتُ، فغاصَت قدماي في الشاطئ، ولم أقطع حتى نصف المسافة، بل إنني سقطتُ على بُعد متر واحد منه، فتقدَّم الآخر ورشقني بالحجر الذي أصاب وجهي إصابةً مباشرة. أحسستُ وكأن الشمس قد اقتحمَت رأسي. رأيتُ كل شيء باللون الأبيض، وأحسستُ بنفسي طافيًا في الهواء. لم تستمرّ تلك الحال طويلًا، على ما أعتقد. وعندما فتحتُ عينَي، وجدتُ تيريسا مذعورة، ورأيتُ الفتى فاغر الفم. ولكنه كان غبيًّا، فلو استغلّ الفرصة استطاع أن يوسعني ضربًا. غير أنه بقي مكانه ساكنًا، شاخصًا إليَّ، حتى يتأكَّد مِن حالتي، لأن رمية الحجر جعلَتني أنزف. وإذا بي أقفز مُتجاوِزًا تيريسا، وأنقضّ عليه. التحمنا جسدًا لجسد، فصارَت هزيمته أمرًا محسومًا، الشيء الذي أدركتُه حالما سقطنا أرضًا، إذ وجدتُه رخوًا كالقماش. لم يسدِّد إليَّ لكمة واحدة. ولم نتدحرج على الأرض. بل إنني قد اعتليتُ جسده ورحتُ أضرب وجهه الذي غطَّاه بكلتا يدَيْه. التقطتُ بضع حصوات وأخذتُ أفرك بها رأسه وجبينه وأدسّها في فمه وعينَيْه كلَّما رفع يدَيْه. لم يفضّ اشتباكنا أحدٌ حتى جاء رجل الشرطة الذي أمسك بقميصي وجذبني بقوة، فأحسستُ بشيء يتمزَّق. لطم وجهي، فرميتُ صدره بحجر. «اللعنة، سوف أسحقك»، قال، وإذا به يرفعني كما لو كنتُ من ورق، وينهال على وجهي بنصف دزينة مِن الصفعات. ثم أردف: «انظر ماذا فعلتَ أيها البائس». كان الفتى مُلقى على الأرض، يتألَّم، بينما شرع بعض الرجال والنساء يواسونه. وفي غضب عارم، أخذ الجميع يقولون للشرطي: «لقد شجّ رأسه، إنه مُتوحِّش، لا بدّ مِن إرساله إلى المُؤسَّسة الإصلاحية». لم أُلقِ أدنى بال لكلام النساء، ولكني رأيتُ تيريسا وأنا على تلك الحال. وجدتُها وقد تضرَّج وجهها وراحت

تنظر إليَّ نظرات كراهية. «كم أنت خبيث ومُتوحِّش»، قالت لي، فأجبتُها: «أنت الملومة لأنكِ عاهرة وضيعة». لكمني الشرطي على فمي صائحًا: «إياك وأن تشتم الصغيرة، أيها المجرم». نظرَت إليَّ في خوفٍ شديد. درتُ على عقبي، فقال لي الشرطي: «اثبتْ مكانك، إلى أين أنت ذاهب؟». انطلقتُ أركله وألكمه كالمجنون، حتى جرجرني إلى خارج الشاطئ. وفي قسم الشرطة، أصدر أحد الضبَّاط أمره إلى الشرطي الآخر قائلًا: «أوسعه ضربًا، ثم أطلق سراحه. قريبًا يعود إلينا مرة أخرى بتهمة أشدّ خطورة. يظهر على وجهه أنه في طريقه إلى سيپا[1]». أخذني الشرطي إلى الفناء، ثم استلّ حزامه وشرع يسوطني. انطلقتُ راكضًا، فاستغرق رجال الشرطة الآخرون في الضحك وهم يشاهدونه وقد سال عرقه غزيرًا، وعجز عن اللحاق بي. ألقى حزامه وضيَّق عليَّ الخناق. فأقبل حراس آخرون وقالوا له: «اتركه. لا يمكنك أن تضرب طفلًا صغيرًا». خرجتُ من هناك، ولكني لم أعُد إلى بيتي. بل انتقلتُ إلى بيت إغيراس النحيل.

*

- لا أفهم كلمة واحدة. -قال العميد- لا أفهم كلمة واحدة.

كان رجلًا بدينًا، له بشرة مُضرَّجة وشارب رفيع يميل إلى الحمرة لا يصل إلى ملتقى الشفتَيْن. قرأ التقرير بعناية، مِن البداية إلى النهاية، وأجفانه ترفّ طوال الوقت. عاود قراءة بضع فقرات مِن العشر أوراق المكتوبة بالآلة قبل أن يرفع عينَيْه إلى الرائد غارّيدو، الذي وقف أمام المكتب وظهره إلى النافذة المُطِلّة على البحر الرمادي والسهول البنية في لاپِرلا.

---

(١) سيپا: مستعمرة عقابية كان يُنفَى إليها بعض السجناء في بيرو.

- لا أفهم. -كرَّر- أيها الرائد، فسِّر لي ما يجري. لقد فقد أحدهم عقله، ولا أعتقد بأنني أنا هذا الشخص. ماذا يدور في عقل الملازم غامبوا؟

- لا أدري، سيدي العميد. لقد فُوجِئتُ مثلك. تحدَّثتُ إليه عن هذه المسألة عدة مرات. حاولتُ أن أثبت له أن تقريرًا كهذا ضربٌ مِن الخبل...

- ضربٌ مِن الخبل؟ -قال العميد- كان عليك ألَّا تسمح باحتجاز هذين الفتيَيْن وكتابة التقرير بمثل هذه العبارات. لا بدّ من وضع حدٍّ لهذه الفوضى فورًا. مِن دون أن نهدر دقيقة واحدة.

- لم يعرف أحدٌ بشيء مما يجري، سيدي العميد، فالطالبان معزولان.

- استدعِ غامبوا. -قال العميد- فليحضر فورًا.

خرج الرائد في عجلة. أما العميد، فالتقط التقرير مرة أخرى. وفيما هو يعاود قراءته، حاول أن يعض شعيرات شاربه الضاربة إلى الحمرة، ولكن أسنانه في غاية الصغر، فلم يتمكَّن إلَّا مِن بلوغ شفتيْه وخدشهما بأسنانه. أخذ يضرب الأرض بأحد كعبَيْه، مُتوتِّرًا. بعد دقائق عاد الرائد، وفي أثره الملازم.

- عمت صباحًا. -قال العميد بصوت جاء مُتهدِّجًا من شدة الضيق- لقد فُوجِئتُ بشدة يا غامبوا. دعنا نرَ... أنت ضابط مُتميِّز، يقدِّره رؤساؤه حقَّ قدره. كيف يخطر لك أن تقدِّم تقريرًا كهذا؟ لقد فقدتَ عقلك يا رجل، إنها قنبلة. قنبلة حقيقة.

- صحيح، سيدي العميد. -قال غامبوا، بينما أخذ الرائد يخدجه بعينَيْه، ويمضغ بفكَّيْه في سخط- ولكن المسألة قد خرجَت مِن إطار صلاحياتي. تحقَّقتُ مِن كل ما وسعني التحقُّق منه. ولكن وحده مجلس الضُبَّاط يستطيع...

- ماذا؟ -قاطعه العميد- أتحسب أن المجلس سوف ينعقد حتى يبحث هذا الأمر؟ لا تتفوَّه بحماقات يا رجل. إن ليونسيو پرادو مدرسة، ولن نسمح بفضيحة كهذه. لقد أصيب رأسك بخلل حقًّا يا غامبوا. أتحسبني قد أسمح بوصول هذا التقرير إلى الوزارة؟

- ذلك ما أخبرتُ به الملازم، سيدي العميد. -قال الرائد مُلمِّحًا- ولكنه أصرّ.

- دعنا نرَ... يجب علينا ألّا نفقد زمام أنفسنا، فالهدوء شيء أساسي دائمًا. -قال العميد- دعنا نرَ... مَن هو الفتى الذي قدَّم البلاغ؟

- ألبِرتو فِرنانديس، سيدي العميد. طالب في القسم الأول.

- ولماذا أرسلتَ الآخر إلى الحجز مِن دون أن تنتظر الأوامر؟

- كان يجب عليَّ البدء في التحقيق، سيدي العميد. ولقد دعَت الضرورة إلى عزله عن باقي الطُلَّاب تمهيدًا لاستجوابه، وإلَّا ذاع الخبر بين طُلَّاب الفرقة جميعًا. تجنَّبتُ المواجهة بين الطالبَيْن مِن باب الحذر.

- إنه اتهام سخيف، عبثي. -انفجر العميد- وأنت... كان عليك ألَّا تعيره أدنى اهتمام. إنها مُجرَّد ألعاب صبيانية، لا أكثر. كيف لك أن تصدِّق تلك القصة الخيالية؟ لم يخطر على بالي يومًا أنك بمثل هذه السذاجة يا غامبوا.

- ربما كنتَ مُحِقًّا، سيدي العميد. ولكن اسمحْ لي بأن أدلي بالملاحظة الآتية: حتى أنا لم أصدِّق سرقة الاختبارات، وتهريب أوراق اللعب والمشروبات الروحية إلى المدرسة، ولم أصدِّق وجود عصابات مِن اللصوص في المدرسة. ولكني تحقَّقتُ من تلك الأمور كلها بنفسي، سيدي العميد.

- هذا شيء مختلف. -قال العميد- مِن الواضح أن الفرقة

الخامسة تفتقر إلى الانضباط، بلا أدنى شكّ. ولكن المسؤولية تقع على عاتقكما في هذه الحالة. سيادة الرائد غارّيدو، أنت والملازم غامبوا سوف تقعان في مأزق شديد. لقد جعلكما الفتيان مثارًا للسخرية. دعونا نرَ ماذا يقول الكولونيل متى علم بما يجري في الثكنات. لا أستطيع أن أفعل شيئًا، بل إن الواجب يحتِّم عليّ أن أقدِّم التقرير وأضع الأمور في نصابها الصحيح. ولكن... -حاول العميد أن يعضّ شاربه مرة أخرى- ولكن المسألة الأخرى محض عبث ولا يمكن السماح بها. لقد أصاب الفتى نفسه عن طريق الخطأ. وقُضِي الأمر.

- معذرة، سيدي العميد. -قال غامبوا- لم يثبت أنه قد أصاب نفسه بنفسه.

- لم يثبت ذلك؟ -حدجه العميد بنظرة نارية- أتريد مني أن أُطلِعك على تقرير الحادثة؟

- لقد أوضح لنا الكولونيل السبب في إعداد ذلك التقرير، سيدي العميد. لتجنُّب التعقيدات.

- آها! -قال العميد بلفتة انتصار- بالضبط! والآن تعدّ أنت تقريرًا حافلًا بالفظائع، لتجنُّب التعقيدات؟

- ذلك شيء مختلف، سيدي العميد. -قال غامبوا، مُحتفِظًا بالهدوء- لقد تغيَّر الوضع برمّته. كانت فرضية الحادثة هي الأرجح في ما سبق، أو بالأحرى الفرضية الوحيدة. قال الأطباء إن الرصاصة قد جاءت مِن الخلف. بينما فكَّرتُ أنا وباقي الضُبَّاط أنه قد أُصيب في حادثة، برصاصة طائشة. في تلك الحالة، لا يهمّ لو نُسِب الخطأ إلى الضحية، حفاظًا على سمعة المُؤسَّسة. في واقع الأمر، سيدي العميد، كنتُ أظنّ الطالب آرانا هو الملوم في ما حدث، أو في جزء

منه على الأقل، لأنه قد اتَّخذ الموقع الخطأ، وتأخَّر في التحرُّك، الشيء الذي ربما حملنا على الظنّ بأن الرصاصة قد انطلقَت من بندقيته الخاصة. ولكن الأمر برمّته قد اختلف منذ أكَّد أحدُهم أن جريمةً قد ارتُكِبَت. لا يُعَدّ ذلك الاتهام محض عبث، سيدي العميد، لأن موقع الطُلّاب...

- حماقات. -قال العميد، في غضب- لا بدّ أنك تقرأ روايات كثيرة، يا غامبوا. دعنا نرتِّب هذه الفوضى مرة وإلى الأبد، وكفانا جدالات عقيمة. اذهبْ إلى نقطة الحراسة وأرسلْ هذين الطالبَيْن إلى ثكنتهم. قُلْ لهما إنهما لو تكلَّما عن الأمر سوف يُطرَدان مِن المدرسة ولن يحصلا على شهادة واحدة. وأعدّ تقريرًا جديدًا تتجنَّب فيه كل ما يتعلَّق بموت الطالب آرانا.

- لا أستطيع، سيدي العميد. -قال غامبوا- الطالب ألبِرتو فِرنانديس مُتمسِّك بالاتهامات التي وجّهها. كما أن مزاعمه صحيحة، في حدود ما استطعتُ التحقُّق منه. لقد جاء موقع المُتَّهم خلف الضحية خلال التدريبات الميدانية. أنا لا أجزم بشيء، سيدي العميد. كل ما أقصده أن الاتهام مقبول مِن الناحية التقنية. وحده مجلس الضُبَّاط يستطيع البتّ في المسألة.

- لا يهمّني رأيك في شيء. -قال العميد، بازدراء- ها أنا أملي عليك أمرًا: احتفظْ لنفسك بتلك الخرافات وأطِع الأوامر. وإلَّا، فهل تريد مني أن أستدعيك للمثول أمام المجلس؟ لا جدال في الأوامر، أيها الملازم.

- لحضرتك مطلق الحرية في استدعائي أمام المجلس، سيدي العميد. -قال غامبوا، برفق- ولكني لن أتراجع عن التقرير. آسف. وأذكِّرك بأن الواجب يحتِّم عليك أن تقدِّم التقرير إلى قائد الوحدة.

امتقع وجه العميد دفعة واحدة. وحاول أن يبلغ شاربه بأسنانه

بأي طريقة، راسمًا على وجهه أمارات المفاجئة، ناسيًا آداب السلوك. هبّ واقفًا، وقد اصطبغَت أذناه باللون الأرجواني.

- حسنًا. -قال- أنت لا تعرفني يا غامبوا. فأنا لا أرفق إلّا بمن أحسن السلوك معي. ولكني قد أغدو عدوًّا شديد الخطورة، قريبًا تتأكَّد من ذلك بنفسك. سوف تدفع ثمن هذا غاليًا. أقسمُ لك إنك سوف تتذكَّرني. مبدئيًّا، يُحظَر عليك أن تغادر المدرسة حتى يتَّضح كل شيء. سأقدِّم التقرير، ولكني سأعدّ تقريرًا آخر عن سلوكك مع رؤسائك. انصرف.

- بعد إذنك، سيدي العميد. -قال غامبوا وخرج، سائرًا في غير استعجال.

- إنه مجنون. -قال العميد- لقد فقد عقله. ولكني سوف أعالجه.

- هل تقدِّم التقرير، سيدي العميد؟ -سأل الرائد.

- لا أملك خيارًا. -نظر العميد إلى الرائد، كمن فوجئ بوجوده هناك- وأنت أيضًا قد انتهى أمرك يا غارّيدو. سوف يغدو سجل خدمتك مُلطَّخًا.

- سيدي العميد... -تلعثم الرائد- لستُ أنا الملوم في ما حدث. لقد وقع الأمر برمّته في الكتيبة الأولى، كتيبة غامبوا. أما باقي الكتائب فتسير أمورها على أكمل وجه، وعلى خير ما يُرام، سيدي العميد. لطالما التزمتُ بالتعليمات بحذافيرها.

- الملازم غامبوا مرؤوسك. -أجاب العميد، بجفاء- لو ذهب إليه أحد الطُلّاب وكشف له ما يجري في الفوج، فذلك يعني أنك كنتَ هائمًا في عالَم آخر طوال الوقت. أي صنف من الضُبّاط أنتم؟ لقد عجزتم عن فرض الانضباط على أطفال في المدرسة. أنصحك

بأن تحاول فرض القليل من النظام على الفرقة الخامسة. لك أن تنصرف.

دار الرائد على عقبَيْه، ووصل إلى الباب، عند ذاك فحسب تذكَّر أنه لم يؤدِّ التحية. فالتفت مرة أخرى ضاربًا أحد كعبَيْه بالآخر، بينما كان العميد يراجع التقرير وشفتاه تتحرَّكان، وجبينه ينقبض وينبسط. مضى الرائد غارّيدو بخطوة شديدة السرعة، في ما يشبه الركض، حتى وصل إلى مكتب أمانة الفرقة. أطلق صفارته في الفناء بقوة. وما هي إلَّا لحظات حتى دخل ضابط الصفّ مورتي إلى مكتبه.

- استدعِ جميع ضُبَّاط الفرقة وضُبَّاط الصفّ. -قال له الرائد، ماسحًا بيده على فكّيْه المحمومَيْن- كلكم مسؤولون عما جرى بحقّ، ولسوف تدفعون لي الثمن غاليًا، سحقًا. تقع اللائمة على عاتقكم أنتم، ولا أحد سواكم. لماذا تقف هنا فاغر الفم؟ اذهب ونفّذ الأمر الذي أمليتُ عليك.

٦

تردَّد غامبوا. ما زال لم يحسم أمره، ولم يتَّخذ قراره بفتح الباب بعد. كان منشغل البال. «بسبب تلك الفوضى العارمة، أم الرسالة؟»، أخذ يتساءل. قبل ساعات، تلقَّى الرسالة التي جاء فيها: «أفتقدك كثيرًا. ما كان ينبغي لي أن أسافر في هذه الرحلة. ألم أقُل لك إن الأفضل لي أن أبقى في ليما؟ لم أتمكَّن من السيطرة على نوبات الغثيان وأنا في الطائرة، فمضى الجميع يحدِّق إليَّ، ما جعلني أشعر بحالتي تزداد سوءًا. وصلتُ إلى المطار فوجدتُ كريستينا في انتظاري ومعها زوجها، إنه في غاية المودّة. على كل حال، سوف أخبرك لاحقًا. سرعان ما أخذاني إلى بيتهما، واستدعيا الطبيب، الذي قال إن السفر قد أصابني بوعكة. أما بخلاف ذلك، فكل شيء على ما يرام. ولكنهما استدعيا الطبيب مرة أخرى، لأن الغثيان والصداع لم يفارقاني. عندئذ قال الطبيب إن الأفضل لحالتي أن أنزل بالمستشفى، حيث أخضع للملاحظة. تلقَّيتُ حقنًا كثيرة. وأنا الآن مُمدَّدة على الفراش، بلا حراك، وبلا وسادة، الشيء الذي يزعجني كثيرًا، لأنني أفضِّل النوم وأنا شبه جالسة، كما تعرف. أمّي وكريستينا تمضيان اليوم كاملًا إلى جواري، كما يحضر زوج أختي لرؤيتي حالما ينتهي من عمله. كلهم في غاية الطيبة، ولكني تمنَّيتُ لو كنتَ أنت هنا، فأنا لن أطمئنّ تمام الاطمئنان إلَّا بوجودك هنا. الآن

صرتُ أفضل حالًا بقليل، ولكني أشعر بخوف شديد مِن احتمال أن أفقد الجنين. يقول الطبيب إن المرة الأولى مُعقَّدة، ولكن كل شيء سوف يسير على ما يُرام. أشعر بتوتُّر شديد، وأفكِّر فيك طوال الوقت. انتبه لنفسك كثيرًا. افتقدتَني، أليس كذلك؟ ولكن ليس بقدر ما افتقدتُك أنا». قرأ الرسالة، فبدأ يشعر بخمود الهمّة. وفيما هو يقرأ، حضر الرائد إلى حجرته وقد ارتسمَت على وجهه أمارات الاستياء حتى يقول له: «لقد عرف الكولونيل كل شيء. ها أنت قد فعلتَ ما يحلو لك. يطلب منك قائد الوحدة أن تأخذ ألبِرتو فِرنانديس مِن الحجز إلى مكتب الكولونيل. فورًا». لم يشعر غامبوا بالقلق، وإنما بفقدان كل أثر للحماسة، وكأن تلك المسألة لم تعُد تمتّ إليه بصلةٍ فجأة. لم يعهد الاستسلام لمشاعر الإحباط. كان في مزاج سيئ. طوى الرسالة مرتَيْن، ثم وضعها في حافظته، وفتح الباب. لا شكّ في أن ألبِرتو قد رآه مُقبِلًا مِن خلال السياج، إذ وقف ينتظره في وضع الثبات. كانت الزنزانة أسطع مِن تلك التي شغلها النَّمِر، كما لاحظ غامبوا أن السروال الكاكي الذي يرتديه ألبِرتو قصير إلى درجة هزلية: التصق بساقَيْه وكأنه سروال راقص استعراضي، وظلَّت نصف أزراره مفتوحة. بينما تراءى القميص أوسع مما ينبغي: إذ تدلَّت الكتفيات، وبرز سنام ضخم مِن ظهر ألبِرتو.

- اسمع، أين بدَّلتَ زيّ الخروج؟ -سأل غامبوا.

- هنا، سيدي الملازم. كنتُ أحتفظ بالزيّ اليومي في حقيبتي، فأنا أحمله إلى بيتي أيام السبت حتى أغسله هناك.

رأى غامبوا على الفراش شكلًا كرويًّا أبيض اللون: القبعة. كما رأى بضع نقاط مضيئة: أزرار السترة.

- ألا تعرف اللائحة؟ -سأل بحدَّة- الزيّ اليومي يُغسَل في

المدرسة، ولا يمكن الخروج به إلى الشارع. وماذا جرى لهذا الزيّ؟ تبدو كالمهرج.

توتَّر وجه ألبِرتو كاملًا. وحاول أن يقفل أزرار السروال العلوية بإحدى يدَيْه، غير أنه لم يتمكَّن مِن ذلك، وإن شدّ بطنه بوضوح.

- انكمش السروال، وتمدَّد القميص. -قال غامبوا ساخرًا- أيهما مسروق؟

- كلاهما، سيدي الملازم.

تلقَّى غامبوا صدمة صغيرة. بالفعل، لقد أصاب الرائد في ما قال، إن هذا الطالب يعتبره حليفًا له.

- سحقًا. -قال وكأنه يتحدَّث إلى نفسه- لا أحد يستطيع أن ينقذك، ولو كان المسيح نفسه، أتعرف هذا؟ لقد تمرَّغتَ في الوحل أكثر مِن الجميع. سأقول لك شيئًا. لقد آذيتَني عندما جئتَ لتخبرني بمشكلاتك. لماذا لم يخطر لك أن تذهب إلى أوارينا أو پيتالوغا؟

- لا أدري، سيدي الملازم. -أجاب ألبِرتو. ولكنه أردف، على عجل-: لا أثق بأحد سواك.

- أنا لستُ صديقك. -قال غامبوا- ولا شريكك، ولا حاميك. لقد فعلتُ ما يمليه عليَّ الواجب. والآن صار كل شيء بين يدَي الكولونيل، ومجلس الضُبَّاط. سوف يعرفون ما العمل. تعالَ معي، فالكولونيل يريد أن يراك.

امتقع وجه ألبِرتو، واتَّسعَت حدقتاه.

- هل أنت خائف؟ -قال غامبوا.

لم يردّ ألبِرتو. بينما اتَّخذ وضع الانتباه، ورفَّت أجفانه.

- تعالَ. -قال غامبوا.

قطعا الدرب الإسمنتي، وفُوجِئ ألبِرتو عندما رأى غامبوا لا يردّ تحية جنود الحراسة بمثلها. كانت أول مرة يدخل فيها إلى ذلك البناء

الذي لا يشبه سائر أبنية المدرسة إلّا مِن الخارج، بجدرانه العالية الرمادية التي ينتشر فيها العفن. أما مِن الداخل، فلقد اختلف عنها في كل شيء: كان البهو مفروشًا بالأبسطة السميكة التي تخمد وقع الخطوات، ومُضاء بمصابيح صناعية ساطعة، أعمَت ألبِرتو وجعلَته يغمض عينَيْه أكثر من مرة. أضف إلى ذلك اللوحات المُعلَّقة على الجدران. مرّ ألبِرتو إلى جوارها، فتراءى له أنه يتعرَّف الأشخاص الذين حفل بهم كتابُ التاريخ وقد بُوغِتوا في اللحظات القصوى: فهذا بولوغنيسي يطلق الرصاصة الأخيرة، وهذا سان مارتين يلوِّح بالراية، وهذا ألفونسو أوغارتي ينطلق مُسرِعًا إلى الهاوية[1]، وذلك رئيس الجمهورية يتقلَّد نيشانًا. تجاوز البهو، فوجد صالة مهجورة، فسيحة، ساطعة الإضاءة: كثُرَت على جدرانها الكؤوس الرياضية والشهادات. اتَّجه غامبوا إلى أحد الأركان. ثم استقلّا المصعد. ضغط الملازم زرّ الطابق الرابع، الذي لا شكّ في أنه الأخير. فكَّر ألبِرتو أنه من العبث ألّا يكون قد انتبه طوال ثلاثة أعوام إلى عدد الطوابق في ذلك البناء المحظور على الطُلّاب، ذلك المسخ الضارب إلى الرمادي، الذي به مسٌّ من الشيطان، لأن فيه تُعَدّ قوائم الطُلّاب المحرومينَ مِن الإجازة، وتكمن أوكار سلطة المدرسة. كان بناء الإدارة في مخيلة الطُلّاب يبعد عن الثكنات بُعدَ قصر رئيس الأساقفة أو شاطئ آنكون.

---

(١) فرانسيسكو بولوغنيسي (١٨١٦-١٨٨٠): بطل قومي من بيرو شارك في معركة آريكا.
خوسيه فرانسيسكو دي سان مارتين (١٧٧٨-١٨٥٠): جنرال أرجنتيني شارك في حروب الاستقلال عن إسبانيا.
ألفونسو أوغارتي (١٨٤٧-١٨٨٠): بطل قومي من بيرو شارك في حرب المحيط الهادئ.

- ادخل. -قال غامبوا.

بدا الرواق ضيقًا، مُشرِق الجدران. دفع غامبوا بابًا، فرأى ألبِرتو مكتبًا يجلس خلفه رجلٌ في ثياب مدنية، وإلى جواره صورةٌ يظهر فيها الكولونيل.

- الكولونيل في انتظارك. -قال الرجل لغامبوا- تفضَّل بالدخول، سيادة الملازم.

- اجلسْ هناك. -قال غامبوا لألبِرتو- سوف تُستدعى بعد قليل.

جلس ألبِرتو أمام الرجل صاحب الثياب المدنية، الذي أخذ يراجع بعض الأوراق مُلوِّحًا بقلم الرصاص الذي استقرّ في يده، وكأنه يتمايل على وقع أنغام سرية. كان الرجل قصير القامة، مجهول الوجه، أنيق الثياب، يبدو وكأنه يضيق بياقة قميصه الصلبة. ظلّ رأسه يتحرَّك طوال الوقت، بينما اختلجَت تفاحة آدم تحت بشرته وكأنها كائنٌ صغير ثائر. حاول ألبِرتو أن يصغي إلى ما يجري على الجانب الآخر، غير أنه لم يسمع شيئًا. شرد ذهنه: ومضَت تيريسا تبتسم له مِن مكانها في محطة مدرسة رايموندي. ظلَّت تلك الصورة تلاحقه منذ أخذوا العريف مِن الزنزانة المجاورة. لم يرَ إلَّا وجه الفتاة، مُعلَّقًا أمام الجدران الشاحبة، جدران المدرسة الإيطالية، على حافة جادة آريكيپا. أما جسدها، فلم يتبيَّنه. أمضى ساعات وهو يحاول أن يتذكَّر جسدها كاملًا. وراح يتخيَّل من أجلها ثيابًا أنيقة، حليًّا، ويصفِّف شعرها تصفيفات غريبة. وإذا به يتضرَّج خجلًا في لحظة بعينها: «إنني ألعبُ لعبة تبديل ثياب الدمية، كما تفعل الفتيات!». تحقَّق مِن حقيبته وجيوبه، ولكن سدى: فهو لا يحمل ورقًا، ولا يستطيع أن يكاتبها. عند ذاك شرع يكتب رسائل مِن نسج الخيال، ويؤلِّف مقاطع حافلة بالصور المُفخَّمة التي يتحدَّث فيها عن المدرسة العسكرية والحبّ وموت العَبْد والشعور بالذنب والمستقبل. وفجأة،

سمع جرسًا يدقّ. تحدَّث المدني عَبْر الهاتف وهو يومئ برأسه وكأن مُحدِّثه قادر على رؤيته. وضع سماعة الهاتف برقَّة، ثم التفت إليه.

- هل أنت الطالب ألبِرتو فِرنانديس؟ تفضَّل بالدخول إلى مكتب الكولونيل، مِن فضلك.

تقدَّم إلى الباب. وطرق ثلاث مرات بمفاصل أصابعه، فلم يتلقَّ جوابًا. دفع الباب: كانت الحجرة شاسعة، مُضاءة بمصابيح النيون، فأحسَّ بعينَيْه تلتهبان عندما دخل إلى تلك الأجواء الزرقاء غير المُرتقَبة. وعلى بُعد عشرة أمتار، رأى ثلاثة ضُبَّاط جالسين على مقاعد مِن الجلد. ألقى نظرة دائرية حوله: فوجد مكتبًا مِن الخشب، وشهادات مُعلَّقة، ورايات، ولوحات، ومصباحًا ذا قائمة. خلا المكتب مِن الأبسطة: فتألَّقَت الأرضية المُشمَّعة التي انزلقَت البيادة فوقها وكأنه يسير على الثلج. سار ببطء شديد، خشية أن تزلّ قدماه. نظر إلى الأرض، فلم يرفع رأسه إلَّا حين رأى تحت عينَيْه ذراعَ مقعدٍ وساقًا في سروال كاكي. اتَّخذ وضع الانتباه.

- فِرنانديس؟ -سأل الصوت الذي يهدر تحت السماء المُلبَّدة بالغيوم بينما يؤدِّي الطُلَّاب المناورات العسكرية في الإستاد، ويتدرَّبون استعدادًا للعروض، ذلك الصوت الرفيع الزاعق الذي يجمِّدهم في أمكنتهم داخل قاعة المناسبات، ويتحدَّث إليهم عن الوطنية وعن روح التضحية- اسمك فِرنانديس ماذا؟

- فِرنانديس تِمپليه، سيدي الكولونيل. الطالب ألبِرتو فِرنانديس تِمپليه.

أخذ الكولونيل يراقبه. كان مُشرِقًا، مكتنزًا، وبدا شعره الرمادي مُملَّسًا بعناية، مُلتصِقًا برأسه.

- أي صلة قرابة تجمعك بالجنرال تِمپليه؟ -سأل الكولونيل.

حاول ألبِرتو أن يخمِّن ما الذي ينتظره بالحكم على ذلك الصوت، الذي جاء باردًا، وإن لم يكُن مُنذِرًا.

- لا تجمعني به صلة قرابة، سيدي الكولونيل. أعتقد بأن الجنرال تِمپليه مِن پيورا. أما أنا فمِن موكيغوا.

- أجل. إنه مِن الأقاليم. -قال الكولونيل. التفت، فتتبَّع ألبِرتو نظرته، حتى وجد قائد الوحدة ألتونا جالسًا على المقعد الآخر- وأنا أيضًا. وأغلب قادة الجيش. إنه أمر واقع، أفضل الضُبَّاط مِن الأقاليم. بالمناسبة، مِن أين أنت يا ألتونا؟

- مِن ليما، سيدي الكولونيل. وإن كنتُ أشعر بأنني مِن الأقاليم أيضًا. لأن عائلتي بالكامل من أنكاش.

حاول ألبِرتو أن يحدِّد موقع غامبوا، فلم يتسنَّ له ذلك. إذ جلس الملازم على المقعد الذي استقرّ ظهره إلى ألبِرتو: فلم يرَ منه إلَّا ذراعًا، وساقًا جامدة، وقدمًا تضرب الأرض بخفَّة.

- حسنًا، أيها الكاديت فِرنانديس. -قال الكولونيل، وقد اكتسب صوته قدرًا مِن الرصانة- سوف نتحدَّث الآن عن أمور أكثر جدية، وأوثق صلةً بالوضع الراهن. -كان الكولونيل مُستنِدًا بظهره إلى المسند الخلفي، وإن تقدَّم في تلك اللحظة حتى بلغ حافة المقعد: فتراءى بطنه كما لو أنه كائن قائم بذاته، يعيش تحت رأسه- هل أنت حقًّا طالب عسكرية، وشخص عاقل، ذكي، مُثقَّف؟ دعنا نفترض أنك تتحلَّى بتلك السمات. أقصد أنك ما كنتَ لتثير هذا الاضطراب وسط ضُبَّاط المدرسة كلهم بسبب أمرٍ تافه. وبالفعل، يدلّ التقرير الذي قدَّمه الملازم غامبوا على أن المسألة تبرِّر التدخُّل، لا مِن جانب الضُبَّاط وحسب، بل مِن جانب الوزارة والعدالة أيضًا. لقد اتَّهمتَ أحد زملائك بالقتل، حسبما أرى.

سعل باقتضاب، بشيء مِن الأناقة، وسكت لحظة.

- ولكني سرعان ما فكَّرت أن الطالب الذي وصل إلى الفرقة الخامسة لم يُعَدّ طفلًا، فعلى مدى الأعوام الثلاثة التي أمضاها في المدرسة العسكرية وجد ذلك الطالب ما يكفي ويفيض مِن الوقت حتى يصبح رجلًا. علمًا أن الرجل العاقل لا يتَّهم أحدًا بالقتل من دون أدلة قاطعة، دامغة. ما لم يكُن فاقد العقل أو جاهلًا بالشؤون القانونية، لا يدري ما الشهادة المُزوَّرة ولا يدري أن القذف جريمة يعاقب عليها القانون. لقد قرأتُ التقرير بالعناية التي تقتضيها المسألة. ومِن المُؤسِف أنني لم أجد للأدلة أثرًا في أي مكان أيها الكاديت. ما جعلني أفكِّر: إن ذلك الطالب رصين، حذِر، لا يريد أن يقدِّم الأدلة إلَّا في اللحظة الأخيرة. بل إنه يريد أن يسلِّمني إياها بصفة شخصية حتى أعرضها على المجلس. لقد أحسنتَ صنعًا، أيها الكاديت. ولهذا أرسلتُ في طلبك. أعطِني تلك الأدلة.

وتحت عينَي ألبِرتو، مضَت القدم تضرب الأرض، وتعلو وتهبط، بلا هوادة.

- سيدي الكولونيل. -قال- كل ما في الأمر أنني...

- أجل، أجل. -قال الكولونيل- أنت رجل، طالب في الفرقة الخامسة بمدرسة ليونسيو برادو العسكرية. وتعرف ماذا أنت فاعل. أعطِني تلك الأدلة.

- لقد أدليتُ بكل ما أعرفه، سيدي الكولونيل. كان النَّمِر يريد أن ينتقم مِن آرانا لأنه قد اتَّهم...

- في وقتٍ لاحق نتحدَّث عن ذلك. -قاطعه الكولونيل- الحكايات الطريفة مثيرة للاهتمام حقًّا. ولقد أثبتَت لنا الفرضيات أنك تتحلَّى بروحٍ خلَّاقة، ومخيلة آسِرة. -سكت الكولونيل، ثم كرَّر شاعرًا بالرضى عن نفسه-: آسِرة حقًّا. أما الآن، فدعنا نتحقَّق مِن المستندات. أعطِني جميع المستندات القانونية اللازمة.

- لا أملك أدلَّة، سيدي الكولونيل. -أقرّ ألبِرتو. جاء صوته وديعًا، مُرتجِفًا. عضّ شفته وهو يشجِّع نفسه- لم أقُل إلَّا ما أعرفه. ولكني مُتأكِّد. . .

- ماذا؟ -قال الكولونيل، بلفتة تنمّ عن الاندهاش- أتريد مني أن أصدِّق أنك لا تملك أدلَّة مُحدَّدة ودامغة؟ تحلَّ بقليل مِن الجدية أيها الكاديت، فليسَت هذه اللحظة الملائمة للمزاح. أصحيح أنك لا تملك مستندًا واحدًا صالحًا، ملموسًا؟ هيَّا، هيَّا.

- سيدي الكولونيل، لقد فكَّرتُ أن واجبي. . .

- آها! -تابع الكولونيل- إذن، فهي مزحة؟ يبدو لي ذلك رائعًا، فأنت تملك الحقّ في أن تتسلَّى، كما أن الفكاهة تنمّ عن روح الشباب، وتُعَدّ أمرًا صحيًّا. ولكن لكل شيء حدود. أنت في صفوف الجيش، أيها الكاديت. لا يمكنك أن تسخر من القوات المسلحة هكذا. والأمر لا يقتصر على الجيش، فاعلمْ أن المزاح يُدفَع ثمنه باهظًا في الحياة المدنية أيضًا. لو شئتَ أن تتَّهم أحدهم بالقتل، فلا بدّ أن يكون اتهامك مدعومًا بدليل. . . كيف أقولها؟ بدليل كافٍ. هو ذاك، أريد أدلة كافية. وأنت لا تملك أي صنف مِن الأدلَّة، لا كافية ولا غير كافية. وعلى الرغم من ذلك، فلقد جئتَ إلى هنا لتوجِّه اتهامًا خرافيًّا، مجانيًّا، وتلوِّث بالوحل اسم أحد الزملاء، واسم المدرسة التي علَّمَتك. لا تحملنا على الظنّ بأنك واشٍ، أيها الكاديت. مَن تحسبنا؟ ها؟ أتحسبنا حمقى، أم مُغيَّبين، أم ماذا؟ أتعرف أن أربعة مِن الأطباء ولجنة مِن خبراء السلاح قد تأكَّدوا أن الرصاصة التي أودَت بحياة ذلك الطالب تعيس الحظّ قد انطلقَت من البندقية الخاصة به؟ ألم يخطر على بالك أن رؤساءك الذين يفوقونك خبرةً ومسؤوليةً قد أجروا تحقيقًا شاملًا في مصرع ذلك الطالب؟ اصمت، لا تقُل شيئًا، ودعني أفرغ من حديثي. هل خطر على بالك

أننا سوف نلتزم الهدوء بعد حادثة كهذه؟ وأننا لن نتحرَّى ونحقِّق ونكتشف الأخطاء والسقطات التي أدَّت إلى تلك الحادثة؟ أتعتقد بأن النياشين العسكرية تسقط علينا مِن السماء؟ أتحسبنا -أنا والملازمين والرائد والعميد وقائد الوحدة- مُجرَّد ثلَّة مِن الحمقى، حتى نقف مكتوفي الأيدي عندما يلقى طالبٌ مصرعه في ظلّ هذه الملابسات؟ إنه لشيء مُخزٍ بحقّ، أيها الكاديت فِرنانديس. أقول «مُخزٍ»، كيلا أنعته بشيء آخر. فكّرْ لحظةً وأجبني. أليس شيئًا مُخزيًا؟

- بلى، سيدي الكولونيل. -قال ألبِرتو، وما هي إلَّا لحظة حتى شعر بأن حملًا قد انزاح عن صدره.

- مِن المُؤسِف أنك لم تتأمَّل ما حدث مِن قبل. -قال الكولونيل- مِن المُؤسِف أنني قد اضطُرِرتُ إلى التدخُّل بنفسي حتى تفهم مغبَّة تلك النزوة الخليقة بالمراهقين. والآن دعنا نتكلَّم عن شيء آخر، أيها الكاديت. لأنك قد أدرتَ مفاتيح آلةٍ جهنمية، وأنت لا تدري، آلة جهنمية أنت أول ضحاياها. إن لك مخيلة خصبة، أليس كذلك؟ لقد قدَّمتَ إلينا برهانًا دامغًا مِن فورك. ولكن الشيء المُؤسِف أن الأمر لم يقف عند قصة القتل، فلديّ هنا أدلة أخرى على خيالك، وإلهامك. سيادة قائد الوحدة، هلَّا ناولتَنا تلك الأوراق؟

رأى ألبِرتو قائد الوحدة ألتونا وهو يقوم. تميَّز بالطول الفارع، والقوام المتين، وبدا في غاية الاختلاف عن الكولونيل، حتى أطلق عليهما الطُلَّاب «البدين والنحيف». كان ألتونا رجلًا صموتًا، مُراوِغًا، قلَّما يُشاهَد في الثكنات أو الفصول. ذهب إلى المكتب، ثم عاد وفي يده حفنة مِن الأوراق. أحدث حذاؤه صريرًا، شأن بيادات الطُلَّاب. تناول الكولونيل الأوراق ورفعها إلى عينَيْه.

- أتعرف ما هذه الأوراق، أيها الكاديت؟

- كلّا، سيدي الكولونيل.

- بل إنك تعرف أيها الكاديت، بالطبع. انظرْ إليها.

تلقَّى ألبِرتو الأوراق، ولكنه لم يدرك حقيقتها حتى قرأ بضعة أسطر.

- والآن، هل تعرف ما هذه الأوراق؟

رأى ألبِرتو الساقَ تتراجع. ثم برز رأس إلى جوار المسند: نظر إليه الملازم غامبوا، فتضرَّج وجهه بعنف.

- بالطبع يعرف. -أردف الكولونيل، في بهجة- إنها مستندات، أدلة دامغة. دعنا نرَ، اقرأ لنا شيئًا مما ورد فيها.

ما لبث ألبِرتو أن استحضر معمودية الكلاب. فها هو ذا، لأول مرة منذ ثلاثة أعوام، يتملَّكه ذلك الشعور بالعجز والمهانة الشديدة، ذلك الشعور الذي اكتشفه عندما التحق بالمدرسة. وإن صارت الحال الآن أسوأ: فعلى الأقل، كانت المعمودية مشتركة.

- قلتُ لك أن تقرأ. -كرَّر الكولونيل.

قرأ ألبِرتو، باذلًا جهدًا كبيرًا. جاء صوته واهنًا، وتهدَّج في لحظات بعينها: «كانت ساقاها في غاية الامتلاء، يغطّيهما شعر كثيف، في حين بلغَت أردافها مِن الضخامة حدًّا جعلها تبدو أقرب إلى الحيوان مِنها إلى المرأة، ولكنها العاهرة الأكثر إقبالًا في المُربَّع السكني الرابع، لأن المُنحَلّين كلهم يقبلون عليها». سكت ألبِرتو. مُتوتّرًا، ظلَّ يترقَّب أن يأمره صوت الكولونيل بالاستمرار، في حين لزم الكولونيل الصمت. أحسّ ألبِرتو بإجهاد عميق. أورثه الشعور بالمهانة إجهادًا بدنيًّا، وأرخى عضلاته، وأطفأ دماغه، كما هو شأنه في تلك المسابقات التي تُقام في وكر پاولينو.

- ردّ لي هذه الأوراق. -قال الكولونيل. سلَّمه ألبِرتو إياها، فشرع الكولونيل يتصفَّحها، ببطء. وبينما هو يمرِّر الأوراق أمام

عينَيْه، مضى يحرِّك شفتَيْه، تاركًا بعض الهمهمات تنسلّ مِن فمه. سمع ألبِرتو شذرات مِن عناوين لا يكاد يتذكَّرها، بعضها كُتِب قبل عام: «لولا، العاهرة الضائعة»، «المرأة المجنونة والحمار»، «الساقطة والقوّاد».

- أتعرف ماذا يجب عليَّ أن أفعل بهذه الأوراق؟ -سأل الكولونيل وقد أغمض عينَيْه نصف إغماضة، وتراءى مُثقلًا بواجب شاقّ لا مفرّ منه. جاء صوته ينمّ عن ضيق، وشيء مِن المرارة-: حتى مجلس الضُبَّاط لستُ مُضطَرًّا إلى عقده، أيها الكاديت. بل يجب عليَّ أن أطردك إلى الشارع فورًا، عقابًا لك لأنك مُنحَلّ، وأن أتَّصل بوالدك حتى يأخذك إلى مستوصف طبي. ربما تمكَّن أطباء النفس من علاجك... أطباء النفس، هل تفهمني؟ إنها فضيحة بحقّ أيها الكاديت. مَن نذر نفسه لكتابة أشياء مِن هذا القبيل، فلا بدّ أن تكون له روح ضالة، منحرفة. لا بدّ أن يكون مِن حثالة الناس. إن هذه الأوراق تصم المدرسة وكل من فيها بالعار. هل لديك ما تقول؟ تكلَّم، تكلَّم.

- كلّا، سيدي الكولونيل.

- طبعًا. -قال الكولونيل- وماذا تملك أن تقول أمام مستندات تفضح التلبُّس بالجريمة؟ لا تملك أن تنطق ولو بكلمة واحدة. أجِبني بصراحة، مِن رجل إلى رجل: هل تستحقّ أن نطردك من المدرسة ونبلغ أسرتك بأنك مُنحَلّ ومُفسِد؟ نعم أم لا؟

- نعم، سيدي الكولونيل.

- لقد ضيَّعَتك هذه الأوراق، أيها الكاديت. أتعتقد بأن مدرسةً واحدة سوف تقبلك بعد أن تُطرَد مِن هنا عقابًا لك على فساد الأخلاق وضلال الروح؟ لقد ضيَّعَتك هذه الأوراق إلى الأبد. نعم أم لا؟

- نعم، سيدي الكولونيل.

- ماذا تفعل لو كنتَ مكاني، أيها الكاديت؟

- لا أعلم، سيدي الكولونيل.

- ولكني أنا أعلم، أيها الكاديت. لديَّ واجب أؤدّيه. -سكت هنيهة. بينما لان وجهه، وفارقَته الشراسة. انقبض جسده كاملًا، وتراجع في مقعده، فصغر حجم بطنه، واكتسب طابعًا بشريًّا. أخذ الكولونيل يحكّ ذقنه، هائمًا بعينَيْه في أرجاء الحجرة، وبدا مُستغرِقًا في أفكار متناقضة. لم يتحرَّك قائد الوحدة أو الملازم. وبينما راح الكولونيل يتأمَّل، وضع ألبِرتو تركيزه في تلك القدم التي ظلَّت مائلة، مُستنِدةً إلى الأرضية المُشمَّعة بطرف الكعب: وبلهفة، مضى يترقَّب أن يهبط طرف القدم ويبدأ في ضرب الأرض ضربًا موزونًا.

- أيها الكاديت فِرنانديس تِمپليه. -قال الكولونيل بصوتٍ رصين، فرفع ألبِرتو رأسه- هل أنت نادم على ما صنعت؟

- نعم، سيدي الكولونيل. -أجاب ألبِرتو، بلا تردُّد.

- أنا رجل مرهف المشاعر. -قال الكولونيل- وتلك الأوراق تورثني شعورًا بالخزي. إنها إهانة عصيَّة على الوصف، مُوجَّهة إلى المدرسة. اسمع، أيها الكاديت. أنت لم تدرس في إحدى المدارس النكرة، بل إنك قد تدرَّبتَ تدريبًا عسكريًّا، ولذا يجب عليك أن تسلك مسلك الرجال. أتفهم ما أقول؟

- نعم، سيدي الكولونيل.

- هل ستفعل كل ما تدعو إليه الضرورة حتى تصلح من نفسك؟ هل ستحاول أن تصبح طالبًا نموذجيًّا؟

- نعم، سيدي الكولونيل.

- لا بدّ أن أرى بعينَيّ حتى أصدِّق. -قال الكولونيل- إنني أرتكب خطأً، لأن الواجب يحتِّم عليّ أن أطردك إلى الشارع فورًا.

ولكني سوف أعطيك فرصةً أخيرة، لا مِن أجلك أنت، بل مِن أجل المُؤسَّسة المُقدَّسة، مِن أجل هذه العائلة الكبيرة التي ننتمي إليها، نحن أبناء مدرسة ليونسيو پرادو. سأعطيك فرصة أخيرة، ولكني سأحتفظ بهذه الأوراق وأضعك تحت الملاحظة. وفي نهاية العام، لو أخبرني رؤساؤك بأنك كنتَ أهلًا لثقتي، لو ظلَّ سجلُّك نظيفًا حتى ذلك الوقت، أحرقتُ هذه الأوراق وتناسيتُ هذه القصة الفاضحة. أما لو حدث غير ذلك، لو ارتكبتَ خطأ واحدًا (يكفي أن ترتكب خطأ واحدًا، أفهمت؟)، لطبَّقتُ عليك اللائحة، بلا رحمة. مفهوم؟

- نعم، سيدي الكولونيل. -خفض ألبِرتو عينَيْه وأردف قائلًا-: أشكرك، سيدي الكولونيل.

- هل تعلم أنني أفعل ذلك من أجلك؟

- نعم، سيدي الكولونيل.

- لا تزِد على ما قلتَ كلمةً واحدة. عُد إلى ثكنتك والتزم بالسلوك اللائق. كُن طالبَ عسكرية في مدرسة ليونسيو پرادو بحقّ، منضبطًا، مسؤولًا. يمكنك أن تنصرف.

أدَّى ألبِرتو التحية العسكرية ثم دار على عقبَيْه. كان قد قطع ثلاث خطوات صوب الباب عندما استوقفه صوت الكولونيل قائلًا:

- انتظرْ لحظة أيها الكاديت. بطبيعة الحال، سوف تلتزم بأقصى درجات الكتمان وتحتفظ لنفسك بما قيل هنا: مسألة الأوراق، وقصة القتل السخيفة المُختلَقة، وكل شيء. ولا تعاود اختلاق الأمور ما دمتَ تعرف الحقيقة. في المرة القادمة، قبل أن تلعب لعبة المُحقِّق، تذكَّرْ أنك في صفوف الجيش، المُؤسَّسة التي يحرص قادتها على التحقيق والبتّ في كل شيء كما ينبغي. لك أن تذهب.

عاود ألبِرتو ضرب أحد كعبَيْه بالآخر ثم خرج. ولكن الرجل صاحب الثياب المدنية لم ينظر حتى إليه. بدلًا مِن ركوب المصعد،

نزل ألبِرتو على الدَّرَج: الذي بدا مصقولًا كالمرايا، مثل كل شيء في ذلك البناء.

وفي الخارج، أمام نصب البطل التذكاري، تذكَّر أنه قد ترك الحقيبة وزيّ الخروج في الزنزانة. ذهب إلى نقطة الحراسة، بخطى وئيدة. تلقَّاه الملازم المُناوِب بإيماءة مِن رأسه.

- جئتُ أستردّ ثيابي، سيدي الملازم.

- ولماذا؟ -أجاب الضابط- أنت محجوز بأمر مِن غامبوا.

- لقد تلقَّيتُ أمرًا بالعودة إلى الثكنة.

- كلّا وكلّا. -قال الملازم- ألا تعرف اللائحة؟ لن تخرج مِن هنا حتى يخطرني الملازم غامبوا بذلك كتابةً. إلى الداخل!

- عُلِم، سيدي الملازم.

- أيها النقيب. -نادَى الضابط- ضعه مع الطالب الذي جيء به مِن زنزانة الإستاد. أحتاجُ إلى مساحة للجنود الذين عاقبهم الرائد بيسادا. -أخذ يحكّ رأسه وأردف-: لقد تحوَّل المكان إلى سجن، لا أكثر ولا أقلّ.

أومأ النقيب، صاحب القوام المتين والملامح الصينية. فتح باب الزنزانة دافعًا إياه بقدمه.

- إلى الداخل أيها الكاديت. -قال، ثم أردف بصوت خفيض-: الزم الهدوء. وعندما تتبدَّل دورية الحراسة، سوف أعطيك سيجارة.

دلف ألبِرتو إلى الزنزانة. وفي الداخل، كان النَّمِر جالسًا على السرير. ومضى ينظر إليه.

*

لم يرغب إغيراس النحيل في الذهاب تلك المرة، ولكنه ذهب رغمًا عنه، وكأنما قد حدَّثه توجُّسٌ بأن شيئًا لن يسير على ما يرام. قبل شهور، عندما أرسل إليه راخاس رسالة مفادها: «إما تعمل معي،

وإما لا تطأ بقدمَيْك أرض كاياو مرة أخرى، إن كنتَ تريد الاحتفاظ بوجهك سليمًا»، عندئذ قال لي النحيل: «قُضِي الأمر، لقد توقَّعتُ ذلك». سبق له العمل مع راخاس في الصبا. بل إن أخي والنحيل كانا من تلاميذه. ثم زُجّ براخاس في السجن، بينما استمرّ الآخران في العمل وحدهما. وبعد خمسة أعوام، خرج راخاس مِن السجن، وشكَّل عصابة أخرى، في حين ظلّ النحيل يتهرَّب منه، حتى عثر عليه اثنان من أفراد العصابة في حانة «كنز المرفأ» ذات يوم، فاقتاداه إلى راخاس عنوةً. أخبرني بأن أحدًا لم يتعرَّض له، بل إن راخاس قد عانقه قائلًا: «أحبّك كما لو كنتَ ابني». ثم سكرا معًا، وودَّع كل منهما الآخر بكل مودّة. ولكن ما كاد يمرّ أسبوع واحد حتى أرسل إليه ذلك التحذير. لم يرغب النحيل في العمل ضمن فريق، وقال إنها صفقة خائبة، ولكنه في الوقت نفسه لا يريد أن يعادي راخاس. قال لي: «سوف أقبل. على الرغم مِن كل شيء، فإن راخاس يفي بوعده. ولكنك لستَ مُرغَمًا على الموافقة. إن شئتَ نصيحتي، فعُدْ إلى أمِّك وادرسْ لتصبح طبيبًا. لا بدّ أنك قد ادَّخرتَ مبلغًا لا بأس به». لم يكُن لديّ سنت واحد، وأخبرتُه بذلك. «أتدري ما أنت؟»، سألني، «أنت ماجن، ماجن بحقّ. هل أنفقتَ المال كله في بيوت المتعة؟». رددتُ بالإيجاب. «ما زال أمامك الكثير لتتعلَّمه»، قال لي. «ينبغي للمرء ألَّا ينفق كل شيء على فتيات الليل. كان عليك أن تدَّخر القليل مِن المال. على كل حال، ماذا قرَّرت؟». قلتُ له إنني سوف أستمرّ معه. ليلتذاك ذهبنا إلى راخاس في حانة رثّة، حيث تقدِّم الشراب نادلة عوراء. كان راخاس عجوزًا مِن السامبو، يكاد السامع لا يفهم لكنته. ظلّ يطلب مزيدًا من شراب الپيسكو طوال الوقت. أما الآخرون، الذين بلغ عددهم خمسة رجال أو ستة، فكانوا مِن السامبو والصينيين والجبليين، وأخذوا يرمقون النحيل

شزرًا. ظلّ راخاس يتحدَّث إلى النحيل وحده، وقابل مزاحه بالقهقهة الرنانة. أما أنا فلم يكَد ينظر إليَّ. بدأنا في العمل معهم، فسار كل شيء على ما يرام في بادئ الأمر. أتينا على بيوت في ماغدالينا ولاپونتا وسان إسيدرو وأورانتيا وسالابيري وبارانكو، وإن استثنينا بيوت كاياو. كانوا يطلبون مني مراقبة المكان، ولم يحدث يومًا أن عُهِد إليَّ بالتسلُّل إلى الداخل حتى أفتح الباب مِن أجلهم. عند توزيع المال، كان راخاس يعطيني مبلغًا تعيسًا، وإن أهداني النحيل شيئًا من حصته في وقت لاحق. شكَّلنا ثنائيًّا، فغار منا باقي أفراد العصابة. ذات مرة، في أحد بيوت المتعة، دبّ شجارٌ بين النحيل وپانكراسيو السامبو بسبب فتاة ليل، فاستلّ پانكراسيو مدية وجرح ذراع صديقي. استحوذ عليَّ الغضب، وانقضضتُ عليه، فانضمّ إلينا سامبو آخر، وتشاجرنا. أمر راخاس بأن يبتعد عنا الآخرون وأن يتركوا لنا مساحةً للعراك، بينما انطلقَت فتيات الليل في الصراخ. ظلَّ كلٌّ منا يقدِّر حجم الآخر حينًا. في البدء أخذ السامبو يستفزّني ضاحكًا، «أنت الفأر وأنا القطّ»، مضى يقول لي، ولكني سدَّدتُ إليه ضربتَيْن مِن رأسي، وعندئذ اشتبكنا بحقّ. بعد ذلك دعاني راخاس إلى الشراب قائلًا: «أخلعُ لك القبعة. مَن علَّم هذا الفتى كيف يقاتل؟».

ومنذ ذلك الوقت صرتُ أشتبك مع رجال راخاس الصينيين والجبليين والسامبو لأتفه سبب، فيطرحونني أرضًا بركلة واحدة في بعض الأحيان، ولكني أتحمَّل وأسدِّد إليهم ضربات قليلة في أحيان أخرى. صرنا نتشاجر كلَّما سكرنا. أكثرنا مِن الشجار حتى توطَّدَت صداقتنا في نهاية المطاف. وصاروا يدعونني إلى الشراب ويأخذونني معهم إلى بيوت المتعة ودور السينما لمشاهدة أفلام الحركة. يومذاك ذهبنا إلى السينما أنا وپانكراسيو والنحيل. خرجنا من السينما، فوجدنا راخاس ينتظرنا وقد استحوذَت عليه حماسة جارفة. ذهبنا إلى

إحدى الحانات، وهناك قال لنا: «أمامنا فرصة تاريخية». أخبَرَنا بأن كاراپولكا قد اتَّصل به حتى يعرض عليه عملًا، فقاطعه إغيراس النحيل: «انسَ الأمر يا راخاس، وإلّا أكلونا أحياء. إنهم مِن الكبار في هذه اللعبة». لم يلقِ إليه راخاس بالًا، ومضى يوضح المُخطَّط. كان في غاية الزهو بنفسه لأن كاراپولكا قد اتَّصل به، مع الأخذ في الحسبان أنها عصابة كبيرة، يحسدها الجميع. عصابة يعيش أفرادها كما تعيش العائلات الكريمة، ويسكنون البيوت الفاخرة، ويمتلكون السيارات. أراد النحيل أن يجادله، فأخرسه الآخرون. كان مِن المُزمَع تنفيذ المُخطَّط في اليوم التالي. تراءى كل شيء في منتهى السهولة. وكما قال راخاس، التقينا في العاشرة ليلًا بوادي أرمينداريس، حيث وجدنا اثنين مِن رجال كاراپولكا، بثيابهم الأنيقة وشواربهم، يدخِّنان سجائر التبغ الأشقر، حتى يحسبهما المرء في طريقهما إلى إحدى الحفلات. مضينا نضيِّع الوقت حتى انتصف الليل، ثم مشينا إلى خطّ الترام، اثنين اثنين. وهناك التقينا رجلًا آخر مِن عصابة كاراپولكا. «كل شيء جاهز»، قال. «لا أحد هناك. لقد خرجوا مِن فورهم. دعونا نبدأ في الحال». كلَّفني راخاس بمراقبة المكان مِن خلف أحد الجدران، على بُعد مُربَّع سكني واحد مِن البيت. سألتُ النحيل: «مَن يتسلَّل إلى الداخل؟»، فأجابني: «راخاس وأنا ورجال كاراپولكا. أما الباقون فكلّهم سوف يراقبون المكان. هكذا يعملون. إنه ما يُطلَق عليه: العمل الآمن». خلا المكان حيث وقفتُ مِن الناس، حتى البيوت قد خلَت مِن الأضواء، فقلتُ في نفسي إن الأمر برمّته سرعان ما ينتهي. وعلى الرغم من ذلك، لزم النحيل الصمت وبدَت على وجهه أمارات المرارة في الطريق إلى هناك. لدى مرورنا بالمكان، أراني پانكراسيو البيت مُترامِي الأطراف، بينما قال راخاس: «لا بدّ أن في هذا البيت مِن

المال ما يكفي لجيش كامل». مرّ وقتٌ طويل. وإذا بي أسمع صوت صفير ودويّ رصاص ولعنات، فانطلقتُ راكضًا إليهم، ولكني أدركتُ أنهم قد وقعوا بالفعل: إذ وجدتُ ثلاثة رجال دورية على الناصية. درتُ على عقبي، ولذتُ بالهرب. ركبتُ الترام في ميدان مارسانو، ثم ركبتُ سيارة أجرة في ليما. وحين وصلتُ إلى الحانة، لم أجد سوى پانكراسيو. «لقد نُصِب لنا كمين، وأخبر كاراپولكا الوشاة بأمرنا»، قال لي، «أعتقد بأنهم قد أوقعوا بالجميع. رأيتُ راخاس والنحيل يتلقَّيان ضربًا مبرحًا على الأرض. بينما انطلق رجال كاراپولكا الأربعة ضاحكين، سوف يدفعون الثمن ذات يوم. أما الآن، فالأفضل لنا أن نختفي عن الأنظار». قلتُ له إنني لا أملك سنتًا واحدًا، فأعطاني خمسة صولات وقال لي: «انتقلْ إلى منطقة أخرى، ولا تعُد إلى هنا. سوف أذهب لتمضية الصيف خارج ليما».

ليلتذاك ذهبتُ إلى الأرض القفار في بيابيستا، حيث نمتُ في أخدود. أو بمعنى أصحّ استلقيتُ على ظهري، بينما رحتُ أنظر إلى العتمة وأنا أكاد أتجمَّد مِن شدة البرودة. وفي الصباح الباكر، ذهبتُ إلى ميدان بيابيستا، بعد أن انقطعتُ عن الذهاب إليه طوال عامَيْن. كان كل شيء على حاله، عدا باب بيتي، الذي وجدتُه مطليًّا. طرقتُ الباب، ولكن أحدًا لم يخرج. طرقتُ الباب بقوة أكبر، فسمعتُ أحدهم يصيح مِن الداخل: «لا تستعجل، اللعنة!». فتح لي رجل، فسألتُه عن سنيوره دوميتيلا. «لا أعرف حتى مَن تكون»، قال لي، «أنا الذي أسكن هنا، واسمي پِدرو كايفاس». ظهرَت إلى جواره امرأة، وقالَت: «سنيوره دوميتيلا؟ العجوز التي كانت تسكن وحدها؟». «نعم، أعتقد» أجبتُها. «لقد ماتت»، قالَت المرأة، «كانت تسكن هنا قبلنا. ولكن زمنًا طويلًا قد مرّ على ذلك». قلتُ لهما: «شكرًا». ثم جلستُ في الميدان، حيث أمضيتُ النهار كاملًا وأنا

أراقب باب بيت تيريسا، لعلّها تخرج مِن هناك. في الثانية عشرة تقريبًا خرج شابٌ من البيت. ذهبتُ إليه سائلًا: «أتعرف إلى أين انتقلَت السنيوره والفتاة اللتان كانتا تعيشان في بيتك مِن قبل؟». «لا أعرف شيئًا»، قال لي. ذهبتُ إلى بيتي القديم وطرقتُ الباب مرة أخرى. خرجَت المرأة، فسألتُها: «أتدرين أين دُفِنَت سنيوره دوميتيلا؟». «لا أدري»، قالت. «لم أعرفها. هل كانت من أقربائك؟». كدتُ أقول لها إنها أمّي، ولكني فكَّرتُ أن الوشاة ربما كانوا يبحثون عني، فقلتُ لها: «كلّا، أردتُ أن أعرف وحسب».

*

- مرحبًا. -قال النَّمِر.

لم يبدُ مُتفاجِئًا بلقائه هناك. أوصد النقيب الباب، فغرقَت الزنزانة في الغبش.

- مرحبًا. -قال ألبِرتو.

- ألديك سجائر؟ -سأل النَّمِر، الذي جلس على السرير مُستنِدًا بظهره إلى الجدار، فتمكَّن ألبِرتو مِن رؤية نصف وجهه بوضوح، إذ كان ذلك الجزء من وجهه في مسقط الضوء الآتي مِن النافذة. أما النصف الآخر فتراءى كالبقعة المبهمة.

- كلّا. -قال ألبِرتو- سوف يُحضِر لي النقيب سيجارة في وقت لاحق.

- لماذا احتُجِزتَ هنا؟ -سأل النَّمِر.

- لا أدري. وماذا عنك؟

- لأن واحدًا من أبناء العاهرات قد وشى بي إلى غامبوا وقال له بعض الأمور.

- مَن؟ وأي أمور؟

- اسمع... -قال النَّمِر، خافضًا صوته- مِن المُؤكَّد أنك

سوف تسبقني إلى الخروج مِن هنا. اصنع لي معروفًا. تعالَ، اقترب، كيلا يسمعنا أحد.

اقترب ألبِرتو مِن النَّمِر، ووقف على بُعد سنتيمترات منه، حتى تلامسَت ركبتاهما.

- قُل لكوبرا ومَوْجَة إن في الثكنة واشيًا. أريد منهما أن يكتشفا الفاعل. أتعرف ماذا قال لغامبوا؟

- كلّا.

- لماذا يظنّ أفراد القسم أنني هنا؟

- بسبب سرقة الاختبارات.

- أجل. -قال النَّمِر- لهذا السبب أيضًا. لقد أخبره الواشي بأمر الاختبارات، والحَلْقَة، وسرقة الثياب، والمقامرة، وتهريب المشروبات الروحية. كل شيء. لا بدّ من اكتشاف الفاعل. قُل لهما إنه لو افتضح أمرهما لتورَّطا في هذا المأزق معي. وأنت أيضًا، والثكنة بأكملها. لا بدّ أن الواشي مِن أفراد القسم، فلا أحد سواهم يعرف ذلك.

- سوف تُطرَد مِن المدرسة. -قال ألبِرتو- وقد تذهب إلى السجن.

- هكذا قال لي غامبوا. الأرجح أنهم سوف ينغِّصون حياة كوبرا ومَوْجَة أيضًا، بسبب الحَلْقَة. قُل لهما أن يتحقَّقا مِن الفاعل، ثم يدوِّنا اسمه في ورقة ويلقيا بها إليَّ مِن خلال النافذة. لو طُرِدتُ مِن المدرسة، فلن ألتقيهما مرة أخرى.

- وماذا تجني من ذلك؟

- لا شيء. -قال النَّمِر- لقد نغَّصوا حياتي بالفعل. ولكن، لا بدّ أن أنتقم.

- أنت وغد، يا نَمِر. -قال ألبِرتو- أتمنَّى أن تذهب إلى السجن.

تحرَّك النَّمِر حركة صغيرة: ظلّ جالسًا على الفراش، وإن فرد ظهره مِن دون أن يلامس الجدار، مُلتفِتًا برأسه بضعة سنتيمترات حتى يتمكَّن مِن النظر إلى ألبِرتو بعينَيْه. والآن ظهر وجهه كاملًا.

- هل سمعتَ ما قلتُ لك؟

- لا ترفع صوتك -قال النَّمِر- أتريد أن يحضر الملازم؟ ماذا دهاك؟

- أنت وغد. -همس ألبِرتو- قاتل. أنت الذي قتلتَ العَبْد.

تراجع ألبِرتو خطوةً إلى الوراء، مُتربِّصًا، ولكن النَّمِر لم يهاجمه، بل إن حركة واحدة لم تبدر منه. وفي ذلك الغبش الذي خيَّم على المكان، رأى ألبِرتو عينَيْه الزرقاوَيْن تلتمعان.

- كذب. -قال النَّمِر، خافضًا صوته أيضًا- إنه افتراء. لقد أخبروا غامبوا بذلك للنيل مني. يريد الواشي أن يؤذيني، إنه مُخنَّث، ألا توافقني؟ قُلْ لي، هل يظنّ جميع طُلَّاب الثكنة أنني قد قتلتُ آرانا؟

لم يردّ ألبِرتو.

- غير معقول. -قال النَّمِر- لا يمكن أن يظنّ أحدٌ أنني قد قتلتُه. كان آرانا مُجرَّد وغد بائس، يستطيع أي شخص أن يطرحه أرضًا بصفعة واحدة، فلماذا أقتله؟

- كان أفضل منك كثيرًا. -قال ألبِرتو. أخذا يتكلَّمان همسًا، حتى إن الجهد الذي بذله كلاهما كيلا يرفعا صوتهما قد جمَّد الكلمات وجعلها تأتي مُفتعلةً، مسرحيةً- أنت مُجرَّد قاتل، بل إنك أنت الوغد البائس. كان العَبْد فتى صالحًا، أما أنت فلا تدري ما الذي يعنيه ذلك. كان فتى صالحًا، لا يحتكّ بأحد. وظللتَ أنت

تضايقه طوال الوقت، ليل نهار. كان فتى طبيعيًّا عندما التحق بالمدرسة، فضيَّقتَ عليه الخناق أنت والآخرون حتى جعلتموه كالأبله. لمُجرَّد أنه غير قادر على الشجار. أنت بائس يا نَمِر. الآن يطردونك مِن المدرسة. أتدري أي حياة في انتظارك؟ حياة الإجرام. سوف يُزَجّ بك في السجن، عاجلًا أم آجلًا.

– هكذا قالت أمّي أيضًا. –فُوجِئ ألبِرتو، إذ لم يتوقَّع منه أن يفضي إليه بسرٍّ. ولكنه أدرك أن النَّمِر يتحدَّث إلى نفسه. جاء صوته قاتمًا، جافًا– حتى غامبوا قال لي ذلك. لا أدري فيما قد تهمّكم حياتي. ولكني لم أكُن أنا الوحيد الذي نغَّص حياة العَبْد. بل إن الجميع قد تعرَّض له، حتى أنت أيها الشَّاعِر. الكل ينغِّص الكل في هذه المدرسة. ومن سمح للآخرين بتنغيصه، فقد انتهى أمره. لا ذنب لي في ذلك. لا أحد يحتكّ بي لأنني أشدّ رجولة. ولا ذنب لي في ذلك.

– لستَ أشدّ رجولة من أحد. –قال ألبِرتو– أنت مُجرَّد قاتل، وأنا لستُ خائفًا منك. متى خرجنا من هنا رأيتَ بعينَيْك.

– أتريد أن تعاركني؟ –سأل النَّمِر.

– نعم.

– لا تستطيع. –قال النَّمِر– أخبرني، هل غضب مني طُلَّاب الثكنة جميعًا؟

– كلّا. –قال ألبِرتو– بل أنا وحدي. وأنا لستُ خائفًا منك.

– صه! لا ترفع صوتك. إن شئت، دعنا نتعارك في الشارع. ولكنك لا تستطيع أن تغلبني، أحذِّرك. أنت غاضب مني بلا سبب. لم أفعل شيئًا للعَبْد. كل ما في الأمر أنني قد ضايقته، شأني شأن الجميع. ولكني لم أضمر نيةً خبيثة، بل إنني قد فعلتُها على سبيل التسلية.

- وفيمَ يهمّ ذلك؟ لقد نغَّصتَ عيشه، فقلَّدك الآخرون. جعلتَ حياته مستحيلة. وأرديتَه قتيلًا.

- لا ترفع صوتك أيها الأحمق وإلَّا سمعوك. لم أقتله. عندما أخرج من هنا سوف أبحث عن الواشي، وأحمله على الاعتراف أمام الجميع بأن ما قال عني افتراء. وسترى أنها أكذوبة.

- ليست أكذوبة. -قال ألبِرتو- أنا أعرف.

- لا ترفع صوتك، اللعنة.

- أنت قاتل.

- صه!

- أنا الذي أبلغتُ عنك، يا نَمِر. أعرف أنك قد قتلتَه.

لم يتحرَّك ألبِرتو هذه المرة. أما النَّمِر، فانكمش فوق الفراش.

- أنت الذي أخبرتَ غامبوا بذلك؟ -سأل النَّمِر، ببطء شديد.

- نعم. أخبرتُه بكل ما تفعل، وبكل ما يجري في الثكنة.

- لماذا فعلتها؟

- لأن مزاجي قد أملى عليَّ ذلك.

- دعنا نرَ إن كنتَ رجلًا بحقّ. -قال النَّمِر وهو ينهض مِن مكانه.

مكتبة
t.me/soramnqraa

مكتبة
t.me/soramnqraa

٧

خرج الملازم غامبوا من مكتب الكولونيل، وحيًّا الحارس بإيماءة مِن رأسه. انتظر المصعدَ بضع ثوانٍ. ولمَّا طال انتظاره، اتَّجه إلى السلّم ونزل درجتَيْن درجتَيْن. وفي الفناء، تأكَّد له أن النهار قد صفا: إذ سطعَت السماء نقية، وتراءت في الأفق سحبٌ بيضاء جامدة تحوم فوق صفحة البحر البرَّاقة. مضى إلى ثكنات الفرقة الخامسة بالخطوة السريعة، ثم دخل إلى مكتب الأمانة، حيث كان الرائد غارّيدو جالسًا إلى مكتبه، مُتحفِّزًا كحيوان النيص. ألقى عليه غامبوا التحية مِن مكانه عند الباب.

- وماذا بعد؟ -سأل الرائد وهو يهبّ مِن مكانه بقفزة واحدة.

- لقد كلَّفني الكولونيل بأن أطلب منك أن تحذف التقرير الذي قدَّمتُه مِن السجلَّات، سيدي الرائد.

استرخى وجه الرائد، بينما ابتسمَت عيناه بارتياح بعد تجهُّم.

- طبعًا. -قال ضاربًا المكتب بيده- بل إنني لم أُدرِجه في السجلَّات مِن الأساس. كنتُ أعرف. ماذا جرى يا غامبوا؟

- سيدي الرائد، لقد سحب الطالبُ البلاغ المُقدَّم. ومزَّق الكولونيل التقرير. لا بدّ من نسيان المسألة، أعني جريمة القتل المزعومة، سيدي الرائد. أما بخصوص المسألة الأخرى، فلقد أمر الكولونيل بالتشديد على الطُّلَّاب.

- أكثر مما شدَّدنا عليهم بالفعل؟ -قال الرائد، ضاحكًا على الملأ- تعالَ يا غامبوا. انظر.

مدّ إليه ملفًا من الأوراق الحافلة بالأرقام والأسماء.

- هل رأيت؟ خلال ثلاثة أيام أعددنا مِن مُذكِّرات العقاب أكثر مما أعددناه طوال الشهر الماضي. ستون طالبًا محرومون من الإجازة، أي ثلث طُلَّاب الفرقة تقريبًا، تصوَّرا! للكولونيل أن يبقى هادئًا، سوف نقوِّم الجميع. أما الاختبارات، فلقد اتُّخِذَت التدابير اللازمة بشأنها. سوف أحتفظ بها في حجرتي، إلى أن تحين لحظة الاختبار. ودعهم يحاولوا الحصول عليها إن واتتهم الجرأة. لقد ضاعفتُ عدد الحرس والدوريات، وأمرتُ بأن يطلب ضُبَّاط الصفّ كشف حضور كل ساعة. كما أمرتُ بالتفتيش على الثياب والسلاح مرتَيْن كل أسبوع. أتظنّهم سوف يستمرّون في العبث؟

- أتمنَّى ألَّا يستمرّوا في ذلك، سيدي الرائد.

- مَن كان على حقّ؟ -قال الرائد، مُصوِّبًا سؤاله إلى الملازم مباشرةً، وقد ارتسمَت على وجهه أمارات النصر- أنت أم أنا؟

- لقد فعلتُ ما يمليه عليَّ الواجب. -قال غامبوا.

- أنت مُتخَم باللوائح. -قال الرائد- لا أنتقدك، يا غامبوا، ولكن ينبغي للمرء أن يتحلَّى بالحسّ العملي في الحياة. وفي بعض الأحيان، يُفضَّل نسيان اللائحة والاعتماد على حسن الإدراك وحده.

- أؤمن باللوائح. -قال غامبوا- دعني أعترف لك بأنني أحفظ اللوائح عن ظهر قلب. ولتعلم أنني لستُ نادمًا على أي شيء.

- أتريد أن تدخِّن سيجارة؟ -سأل الرائد. ثم تلقَّى غامبوا السيجارة. كان الرائد يدخِّن تبغًا أسود مستورَدًا، يحترق فينبعث منه دخان كثيف كريه. وللحظة، داعب الملازم تلك السيجارة البيضاوية قبل أن يضعها في فمه.

- كلنا مؤمنون باللائحة. -قال الرائد- ولكن لا بدّ للمرء أن يعرف كيف يفسِّرها. وقبل كل شيء، يجب علينا أن نكون واقعيين، نحن معشر رجال العسكرية، ولا بدّ لنا من التصرُّف وفق ما تقتضي الظروف. يجب علينا ألَّا نلوي أعناق الأمور حتى تلائم القوانين يا غامبوا. بل ينبغي لنا أن نكيِّف القوانين كي تلائم الأمور. وإلَّا صارت الحياة ضربًا مِن المحال. -رفَّت يد الرائد غارّيدو في الهواء، مفعمة بالإلهام- إن العناد حليفٌ خائب. ماذا تجني بالوقوف إلى جانب ذلك الطالب؟ لا شيء، لا شيء البتة، لم تجنِ شيئًا سوى الأذى. لو أنك قد أنصتَّ إليَّ، لتوصَّلتَ إلى النتيجة نفسها، وأعفيتَ نفسك مِن مشكلات كثيرة. لا تحسبني سعيدًا بما جرى. أنت تعرف أنني أقدِّرك حقّ قدرك. ولكن العميد غاضب منك بشدة، وسوف يحاول أن ينغِّص عيشك. حتى الكولونيل، لا بدّ أنه في غاية الاستياء.

- لا يهمّ. -قال غامبوا، على مضض- وماذا يمكن لهما أن يصنعا بي؟ لا ألقي إلى الأمر بالًا، لأنني مرتاح الضمير.

- بالضمير المرتاح يفوز المرء بملكوت السموات، ولكنه لا يحصل على النياشين دائمًا. -قال الرائد، بمودّة- على كل حال، سوف أبذل قصارى جهدي كيلا يؤثِّر عليك ما حدث. وماذا عن العصفورَيْن؟

- لقد أمر الكولونيل بأن يرجعا إلى الثكنة.

- اذهبْ إليهما، وقدِّم إليهما بعض النصائح. وليلزما الصمت إن أرادا العيش في سلام. لا أعتقد بأن تكون هناك مشكلة، فهما أشدّ اهتمامًا من الجميع بنسيان هذه القصة. ولكن، احترس من ذلك الفتى الذي تشمله بالحماية، لأنه وقح.

- الفتى الذي أشمله بالحماية؟ -سأل غامبوا- لم أنتبه إلى وجوده حتى الأسبوع الماضي.

خرج الملازم مِن دون أن يستأذن الرائد. كان فناء الثكنات خاليًا. ولكن سرعان ما يحين منتصف النهار، فيعود الطُّلَّاب من الفصول كما يتدفَّق النهر، ويهدر، ويفيض، فإذا الفناء خلية نحلٍ صاخبة. أخرج غامبوا الرسالة مِن حافظته، وأمسكها بضع ثوانٍ، ثم ردّها إلى الحافظة مرة أخرى، مِن دون أن يفتحها. «لو أنه ولد، فلن يلتحق بالعسكرية»، أخذ يفكِّر.

في نقطة الحراسة، كان الملازم المُناوِب يقرأ صحيفة، بينما جلس الجنود على الدكّة يتبادلون النظرات بعيون خاوية. دخل غامبوا، فوقف الجنود كالتماثيل المُتحرِّكة.

- صباح الخير.

- صباح الخير، ملازم غامبوا.

رفع غامبوا الكلفة في حديثه إلى الملازم الشاب. بينما عامله الآخر بقدرٍ من الإجلال، وهو الذي سبق أن خدم تحت إمرته.

- جئتُ مِن أجل طالبَي الفرقة الخامسة.

- حسنًا. -قال الملازم الآخر، باسمًا، بشوشًا، وإن ظهر على وجهه تعب وردية الليل- بالفعل، أراد أحد الطالبَيْن أن يخرج، ولكنه كان في حاجة إلى التصريح بالخروج. هل أُحضِرهما؟ كلاهما في الزنزانة اليمنى.

- معًا؟ -سأل غامبوا.

- نعم، لأن زنزانة الإستاد قد ازدحمَت بعدد مِن الجنود. هل كان يجب علينا أن نحتجز كلًّا منهما على حدة؟

- أعطِني المفتاح. سوف أتحدَّث إليهما.

فتح غامبوا باب الزنزانة ببطء، ولكنه وثب إلى الداخل كما يدخل المُروِّض إلى القفص الوحوش. رأى زوجَيْن مِن السيقان، تتأرجحان في مخروط الضوء المُتسلِّل عَبْر النافذة، وسمع الطالبَيْن

يلهثان بشدة. لم تكُن عيناه قد ألفَتا الغبش، فكاد لا يميِّز خيالَيْهما ومحيط وجهَيْهما. قطع خطوة نحوهما صارخًا:

- انتباه!

وقف كلاهما، في غير استعجال.

- متى دخل ضابطٌ أعلى رتبةً إلى المكان، يقف الأدنى رتبةً في وضع الانتباه. هل نسيتما؟ خصم ست نقاط من كليكما. أنزلْ يدك عن وجهك وقفْ في وضع الانتباه أيها الكاديت!

- لا يستطيع، سيدي الملازم. -قال النَّمِر.

أزاح ألبِرتو يده، ولكنه ما لبث أن أسند خده إلى راحة يده مرة أخرى. دفعه غامبوا نحو الضوء برفق. بدَت وجنة ألبِرتو مُتورِّمة بشدة، بينما علقَت الدماء المُتخثِّرة بأنفه وفمه.

- أنزلْ يدك. -قال غامبوا- دعني أرَ.

أنزل يده، فاختلج فمه. أحاطَت بعينه كدمة أرجوانية ضخمة. أما جفنه المُتهدِّل، فتراءى مُتغضِّنًا، وكأنما قد احترق. رأى غامبوا بقع الدماء مُتناثِرةً على قميص ألبِرتو المُموَّه، بينما تبعثر شعره وعلق به الغبار والعرق.

- اقتربْ.

أطاع النَّمِر. لم يترك الشجار على وجهه سوى آثار قليلة. ومع ذلك، راح أنفه يرتعش، وأحاطت بشفتيْه كمامة من الريق الجاف.

- اذهبا إلى المستوصف. -قال غامبوا- سوف أنتظركما في حجرتي. يجب عليَّ أن أتحدَّث إليكما.

خرج ألبرتو والنَّمِر. سمع الملازم المناوب وقع أقدامهما، فالتفت إليهما. وإذا بالابتسامة المُبهَمة المرتسمة على وجهه تغدو ذهولًا.

- قفا مكانكما! -صاح عليهما، وهو في حيرة مِن أمره- ماذا جرى؟ لا تتحرَّكا.

تقدَّم الجنود نحو الطالبَيْن، مُحدِّقين إليهما.

- اتركهما. -قال غامبوا. ثم التفت إلى الطالبَيْن آمرًا-: اذهبا.

غادر ألبِرتو والنَّمِر نقطة الحراسة. راقبهما الملازمان والجنود وهما يبتعدان في ذلك الصباح الرائق، ويسيران كتفًا إلى كتف، برأسَيْهما الجامدَيْن: مِن دون أن يتحدَّث أحدهما إلى الآخر أو ينظر إليه.

- لقد هشَّم وجهه. -قال الملازم الشاب- لا أفهم.

- ألم تسمع شيئًا؟ -سأله غامبوا.

- لم أسمع شيئًا. -أجاب الملازم الشاب، حائرًا- مع أنني لم أتحرَّك مِن هنا. -ثم التفت إلى الجنود سائلًا-: هل سمعتم شيئًا؟

أومأت الرؤوس الأربعة الداكنة نافية.

- لقد تشاجرا بلا صوت. -قال الملازم، وهو يتأمَّل ما جرى بشيء من الحماسة الرياضية، وقد زالَت عنه المفاجأة- لو عرفتُ لأوقفتُ كلًّا منهما عند حدِّه. يا له من شجار، إنهما كالديكة المصارعة! سوف يستغرق ذلك الوجه وقتًا طويلًا في التعافي. لماذا تشاجرا؟

- حماقات. -قال غامبوا- لا شيء ذا أهمية.

- كيف احتمل ذلك الطالب مِن دون أن يصرخ؟ -سأل الملازم- لقد شوَّه الآخر وجهه. لا بدّ أن يلتحق ذلك الأشقر بفريق المدرسة للملاكمة. أم أنه قد التحق به فعلًا؟

- كلّا. -قال غامبوا- على ما أعتقد. ولكنك على حقّ. لا بدّ أن يلتحق به.

*

يومذاك رحتُ أسير وسط الحقول، وفي واحد منها ناولَتني امرأةٌ خبزًا وقليلًا من الحليب. ثم أقبل الليل، فنمتُ في أخدود مرة أخرى، على مقربة من جادة پروغريسو. في هذه المرة استغرقتُ في النوم بحق، ولم أفتح عينَي إلَّا حين ارتفعَت الشمس عاليًا في السماء. لم أجد أحدًا بالقرب مني، وإن بلغَتني أصوات السيارات التي مرَّت مِن الجادة. أحسستُ بجوع شديد، وصداع، وقشعريرة، وكأنها بوادر الزكام. ذهبتُ إلى ليما سيرًا، وفي حوالي الثانية عشرة وصلتُ إلى ألفونسو أوغارتي. لم تخرج تيريسا مِن المدرسة وسط باقي الفتيات. مضيتُ أجوب وسط المدينة، في أمكنة حافلة بالناس: ميدان سان مارتين، طريق أونيون، جادة غراو. في المساء وصلتُ إلى منتزه لاريسيربا وقد أدركني التعب، وكدتُ أموت من فرط الإجهاد. شربتُ من مياه الصنابير في المنتزه، فجعلَتني أتقيَّأ. استلقيتُ على النجيل، وما هو إلَّا قليل حتى رأيتُ شرطيًّا يقترب مني، ويشير إليَّ عن بعد، فولَّيتُ هاربًا بأقصى سرعة، ولكنه لم يلاحقني. كان الوقتُ ليلًا حين وصلتُ إلى بيت أبي الروحي، في جادة فرانسيسكو پسارو. أحسستُ برأسي يكاد ينفجر، وبجسدي يرتجف كاملًا. لم يكُن الوقت شتاء، فقلتُ في نفسي: «لقد مرضت». وقبل أن أطرق الباب، جعلتُ أفكِّر: «ستخرج زوجته وتنكر وجوده. في هذه الحالة سأذهب إلى قسم الشرطة. فهناك يقدِّمون لي الطعام، على الأقل». وإن لم تكُن الزوجة هي التي استقبلَتني، بل أبي الروحي. فتح لي الباب، وظلّ يحدِّق إليّ مِن دون أن يتعرَّفني. لم يكُن قد مرّ على آخر مرة رآني فيها أكثر مِن عامَيْن. قلتُ له اسمي. في حين وقف هو يسدّ الباب بجسده. رأيتُ المكان مُضاء في الداخل، ورأيتُ رأسه، المستدير الأصلع. «أنت؟»، سألني. «غير معقول، يا بني، لقد ظننتُك فارقتَ الحياة أنت أيضًا». سمح لي بالمرور، وفي الداخل سألني: «ماذا بك يا فتى،

ماذا دهاك؟». قلتُ له: «يا أبي الروحي، معذرة، ولكني لم آكل شيئًا منذ يومَيْن». أخذ بذراعي مُنادِيًا زوجته. قدَّما لي حساء وشريحة لحم وفاصوليا وحلوى. ثم طرحا عليَّ أسئلة كثيرة. أخبرتُهما بالقصة الآتية: «لقد هربتُ من بيتي حتى أعمل مع أحدهم في الأدغال، حيث أمضيتُ عامَيْن في إحدى مزارع القهوة. طردني المالك لأن أموره لا تسير على ما يُرام، فجئتُ إلى ليما وأنا لا أملك سنتًا واحدًا». سألتُه عن أمّي، فأخبرني بأن نوبة قلبية قد أودَت بحياتها قبل ستة أشهر. «دفعتُ تكاليف الجنازة بنفسي»، قال لي. «لا تقلق. كانت جنازة لائقة». ثم أردف: «مبدئيًّا، اليوم تنام في الفناء الخلفي، وغدًا نرى ما العمل». ناولَتني المرأة غطاء ووسادة. وفي اليوم التالي، أخذني أبي الروحي إلى دكانه، وجعلني أعمل بائعًا خلف منضدة العرض. خلَّا الدكان إلَّا منا، أنا وهو. لم يدفع لي أجرًا، ولكنه وفَّر لي البيت والطعام، وأحسن معاملتي، على الرغم مِن العمل الشاقّ المتواصل الذي كلَّفني به. كنتُ أقوم قبل السادسة، فأُضطَرّ إلى كنس البيت كاملًا، وإعداد الفطور، وحمله إليهما في الفراش، ثم أذهب إلى السوق بقائمة المشتريات التي تعطيني المرأة إياها. وبعد ذلك أذهب إلى الدكان، حيث أمضي يومي كاملًا في العمل بائعًا. في البدء كان أبي الروحي يمضي وقته كاملًا في الدكان أيضًا، ثم بدأ يتركني وحدي مُطالِبًا بتقديم كشف الحساب ليلًا. وبعودتي إلى البيت، كنتُ أعدّ الطعام من أجلهما -إذ علَّمَتني المرأة كيف أطهو- ثم أخلد إلى النوم. لم أفكِّر في الرحيل، مع أنني قد سئمتُ نقص المال. اضطُرِرتُ إلى غشّ الزبائن إما بزيادة الأسعار وإما بالاختلاس من النقود المُتبقِّية حتى أشتري سجائر ناسيونال التي أدخِّنها في الخفاء. كانت تراودني رغبة في الخروج أحيانًا، إلى أي مكان، وإن استوقفني الخوف من الشرطة. ثم تحسَّنَت الأمور في وقت لاحق. اضطُرّ أبي

الروحي إلى السفر إلى الجبال، وأخذ ابنته معه. عرفتُ أنه مسافر، فشعرتُ بالخوف، وتذكَّرتُ أن زوجته تمقتني. مع أنها لم تعُد تحتكّ بي منذ انتقلتُ للعيش معهم، وصارت لا تخاطبني إلَّا لتملي عليَّ أمرًا. ولكنها تبدَّلَت منذ ذلك اليوم الذي غادر فيه أبي الروحي. صارت تلاطفني، وتحكي لي أمورًا، وتضحك. كنتُ أبدأ في تقديم كشف حساب لها عندما تذهب إلى الدكّان ليلًا، فتقول لي: «دعْ عنك ذلك، أعرف أنك أبعد ما تكون عن السرقة». ذات ليلة جاءت إلى الدكان قبل التاسعة، وبدَت في غاية التوتر. ما كدتُ أراها تدخل حتى أدركتُ نيتها. بدرَت منها كل اللفتات والضحكات والنظرات التي تليق بعاهرات المواخير في كاياو متى سكرن واستحوذَت عليهن الرغبة. راقني الأمر. وتذكَّرتُ المرات التي كانت تصرفني فيها كلَّما ذهبتُ لزيارة أبي الروحي، وقلتُ في نفسي: «لقد حانت ساعة الانتقام». كانت دميمة، بدينة، أطول مني قامةً. قالت لي: «اسمع، أغلق الدكان ولنذهب إلى السينما. أدعوك إلى هناك». ذهبنا إلى سينما في وسط المدينة، لأنها زعمَت بأن الفيلم الذي يُعرَض هناك رائع، ولكني أعرف أنها تخاف أن تُشاهَد معي في الحي، لأن أبي الروحي قد اشتهر بالغيرة. عرضَت السينما واحدًا مِن أفلام الرعب، فمضَت هي تتظاهر بالذعر، وتأخذ بكلتا يدَيّ، وتلتصق بجسدي، وتتلمَّسني بركبتها، وتضع يدها على ساقي ثم تتركها هناك كالساهية في بعض الأحيان. شعرتُ برغبة في الضحك. تصنَّعتُ البلاهة، ولم أستجِب لمحاولاتها. لا بدّ أنها قد استشاطت غضبًا. خرجنا من السينما، ورجعنا سيرًا. بدأت تحدِّثني عن النساء، فأخبرَتني بقصص ماجنة، وإن لم تتفوَّه بكلمات نابية. ثم سألَتني إن كانت لي غراميات. أنكرتُ، فقالت لي: «كاذب. الرجال كلهم سواء». بذلَت جهدًا كبيرًا لتجعلني ألاحظ أنها تعاملني بصفتي رجلًا. أردتُ أن أقول لها:

«تشبهين عاهرةً مِن هابي لاند تُدعَى إيما». وفي البيت سألتُها إن كانت تريدني أن أعدّ من أجلها العشاء، فقالت لي: «كلّا. ولكن دعنا نتسلَّ، فالمرء لا يتسلَّى في هذا البيت أبدًا. افتحْ قارورة مِن البيرة». ثم أخذَت تذمّ أبي الروحي، الذي كرهَته لأنه جشع، عجوز، أحمق، ولا أدري بكَم مِن الأوصاف راحت تنعته. سقَتني القارورة كلها وحدي. أرادَت أن تُسكِرني، لعلّني أوليها اهتمامًا. ثم شغَّلَت الراديو وقالت لي: «سوف أعلِّمك الرقص». أخذَت تضمّني إليها بكل ما أوتيت من قوة، فسمحتُ لها بذلك، ولكني ظللتُ أتصنَّع البلاهة. في النهاية سألَتني: «ألم تقبِّلك امرأةٌ قطّ؟». نفيت. «أتريد أن تجرِّب؟». جذبَتني وبدأت تقبِّل فمي. كانت جامحة، وأخذَت تقرصني وتدسّ لسانها الكريه حتى بلغ حلقي. ثم جذبَتني مِن يدي إلى حجرتها وخلعَت ثيابها. تعرَّت، فلم تعُد تبدو دميمة إلى هذا الحدّ، لأن جسدها ما زال مُحكَمًا. شعرَت بالخزي لأنني اكتفيتُ بالنظر إليها، ولم أقترب منها، فأطفأت المصباح. جعلَتني أنام معها في كل الأيام التي غاب خلالها أبي الروحي. «أحبُّك»، قالَت لي، «إنك تجعلني في غاية السعادة». كانت تذمّ زوجها طوال اليوم. أعطَتني نقودًا، واشترَت لي ثيابًا، وجعلَتني أذهب معهم إلى السينما كل أسبوع، حيث تمسك يدي في العتمة مِن دون أن ينتبه زوجها إلى ذلك. وعندما أخبرتُها برغبتي في الالتحاق بمدرسة ليونسيو پرادو العسكرية، وطلبتُ منها أن تقنع زوجها حتى يدفع مصاريف الدراسة مِن أجلي، كادت تفقد عقلها. انطلقَت تجذب شعرها وتنعَتني بالجاحد، ناكر الجميل. هدَّدتُها بأن أهرب، عندئذ وافقَت. وذات نهار، قال لي أبي الروحي: «أتدري يا فتى؟ لقد قرَّرنا أن نجعل منك رجلًا نافعًا. سوف أسجِّلك في المدرسة العسكرية».

*

- لا تتحرَّك حتى لو آلمك الجرح. -قال المُمرِّض- فلو تسلَّل إلى عينك، رأيتَ النجوم ظهرًا من فرط الألم.

رأى ألبِرتو الضمادة المُشبَّعة بالمادة البنية تقترب من وجهه، فكزّ على أسنانه. سرى في جسده ألمٌ حيوانيٌّ كالقشعريرة: وفتح ألبِرتو فمه صارخًا. ثم تركَّز الألم في وجهه. ومِن فوق كتف المُمرِّض، رأى النَّمِرَ بعينه السليمة: بينما راح الآخر ينظر إليه في غير اكتراث من مكانه على أحد المقاعد، في أقصى الطرف المقابل مِن الحجرة. تنشَّق أنفه روائح الكحول واليود التي جعلَته يحسّ بدوار، وبرغبة في القيء. تراءى المستوصف باللون الأبيض، بينما كان الضوء الأزرق الآتي من مصابيح النيون يتساقط على البلاط ثم يرتدّ إلى السقف. رفع المُمرِّض الضمادة، وشرع يبلِّل ضمادة أخرى، بينما هو يصفِّر بصوت خافت. أتؤلمه في هذه المرة بالقدر نفسه؟ لم يحسّ بأدنى قدر مِن الألم وهو يتلقَّى ضربات النَّمِر ويتلوَّى على أرض الزنزانة في صمتٍ، إن هو إلَّا شعور بالخزي. فبعد دقائق قليلة مِن بدء الشجار، شعر بالهزيمة. لم يكَد يلمس الآخر بقبضتَيه وقدمَيْه. كان يلتحم هو والنَّمِر، ولكن ما هي إلَّا لحظة حتى يُضطَرّ إلى أن يفلت ذلك الجسد الصلب المُذهِل في قدرته على التملُّص الذي كان ينقضّ عليه ثم يتراجع إلى الوراء، ذلك الجسد الذي ظلّ طوال الوقت حاضرًا، عصيًّا على الإمساك، قريبًا، غائبًا. أسوأ ما في الأمر ضربات الرأس. راح ألبِرتو يرفع مرفقَيْه، ويضرب بركبتَيْه، وينحني، ولكن سدى: إذ كان رأس النَّمِر ينهال على ذراعَيْه كالنيزك، فيباعد بينهما ويشقّ الطريق إلى وجهه، مُستحضِرًا في ذهن ألبِرتو صورة مطرقة وسندان، على نحوٍ مبهم. وهكذا سقط لأول مرة، حتى يلتقط أنفاسه. غير أن النَّمِر لم يمهل ألبِرتو فرصة ليقف على قدمَيْه، ولم يتوقَّف لحظةً حتى يتحقَّق مِن انتصاره: بل إنه انقضّ عليه وظلّ يضربه

بقبضتَيْن لا تكلّان، إلى أن تمكَّن ألبِرتو مِن القيام والهرب إلى ركن آخر مِن أركان الزنزانة. وما هي إلَّا ثوانٍ حتى سقط أرضًا للمرة الثانية، واعتلاه النَّمِر من جديد، ومضى يوسعه ضربًا بقبضتَيْه حتى فقد ألبِرتو الذاكرة. وحين فتح عينَيْه، وجد نفسه جالسًا على الفراش، إلى جوار النَّمِر. سمع صوت لهاثه. وفي تلك اللحظة، بدأ الواقع ينتظم من جديد، عندما تردَّد صوت غامبوا داخل الزنزانة.

- انتهى الأمر. -قال المُمرِّض- والآن، لا بدّ مِن الانتظار حتى يجفّ الجرح. بعد ذلك أضمِّدُ الجرح. ابقَ هادئًا، ولا تلمس وجهك بيدَيْك القذرتَيْن.

خرج المُمرِّض مِن الحجرة وهو ما زال يصفِّر بصوت خافت طوال الوقت. تبادل النَّمِر وألبِرتو نظرة. شعر بهدوء مثير للفضول. زال عنه الإحساس بالالتهاب، والغضب أيضًا. وعلى الرغم من ذلك، حاول أن يتكلَّم بنبرة عدوانية:

- إلامَ تنظر؟

- أنت واشٍ. -قال النَّمِر، وعيناه الزاهيتان تراقبان ألبِرتو بلا أدنى أثر للمشاعر- ذلك أحقر ما قد يتَّصف به الرجل. لا أشدّ خسةً وبشاعةً مِن ذلك. واشٍ! تصيبني بالغثيان.

- سوف أنتقم ذات يوم. -قال ألبِرتو- تشعر بأنك في غاية القوة، أليس كذلك؟ أقسم لك إنك سوف تأتي زاحفًا تحت قدمَي. أتدري ما حقيقتك؟ أنت مجرم. مكانك السجن.

- خير للوشاة مِن أمثالك ألَّا يُولَدوا مِن الأساس. -تابع النَّمِر، من دون أن يلقي بالًا إلى ما يقول ألبِرتو- ربما وقعتُ في ورطةٍ شديدة بسببك. ولكني سأخبر أفراد القسم وطُلَّاب المدرسة جميعًا بحقيقتك. يجب عليك أن تموت خزيًا بعد ما فعلت.

- أنا لا أشعر بالخزي. -قال ألبِرتو- وعندما أخرج مِن المدرسة، سوف أذهب إلى الشرطة وأبلغ بأنك قاتل.

- أنت مجنون. -قال النَّمِر، من دون انفعال- تعرف جيدًا أنني لم أقتل أحدًا. كلهم يعرفون أن العَبْد قد قتل نفسه عن طريق الخطأ. تعرف ذلك جيدًا، أيها الواشي.

- تبدو في غاية الهدوء، أليس كذلك؟ لأن الكولونيل والرائد والجميع مِن أمثالك، كلهم متواطئون معك، لأنهم عصابة مِن التعساء. لا يريدون مني أن أتحدَّث عما جرى. ولكني سوف أخبر الجميع بأنك قد قتلتَ العَبْد.

انفتح باب الحجرة، وجاء المُمرِّض يحمل ضمادة جديدة ولفافة مِن اللاصق. ضمَّد وجه ألبِرتو كاملًا، تاركًا فمه وإحدى عينَيْه. ضحك النَّمِر.

- ماذا بك؟ -سأل المُمرِّض- ممَّ تضحك؟

- لا شيء. -قال النَّمِر.

- لا شيء؟ وحدهم أصحاب الأمراض العقلية يضحكون مِن دون سبب، هل تعلم ذلك؟

- حقًّا؟ -قال النَّمِر- لم أكُن أعلم.

- انتهى الأمر. -قال المُمرِّض لألبِرتو، ثم أردف مُوجِّهًا حديثه إلى النَّمِر-: والآن تعالَ أنت.

جلس النَّمِر على المقعد الذي كان يشغله ألبِرتو. بينما بلَّل المُمرِّض قطعة قطن باليود وهو يصفِّر بمزيد مِن الحماسة. لم يُصَب النَّمِر إلَّا ببضعة خدوش في جبينه، وكدمة طفيفة في عنقه. بدأ المُمرِّض ينظِّف وجهه بتأنٍّ فائق. والآن راح يطلق صفيرًا محمومًا.

- سحقًا! -صرخ النَّمِر دافعًا المُمرِّض بكلتا يدَيْه- أيها الهندي الهمجي! حيوان!

ضحك ألبِرتو والمُمرِّض.

- لقد فعلتَها عن عمد. -قال النَّمِر وهو يغطِّي إحدى عينَيْه- أيها المُخنَّث.

- لماذا تتحرَّك؟ -قال المُمرِّض، مُقترِبًا منه- قلتُ لك إنه لو تسلَّل إلى عينك لأحرقك بشدة. -أرغمه على رفع وجهه- أنزلْ يدك، حتى يدخل الهواء إلى عينك، فيزول الإحساس بالاحتراق.

أنزل النَّمِر يده. احمرَّت عينه وامتلأت بالدموع. أخذ المُمرِّض يداويه برفق وقد أمسك عن الصفير، بينما أطلّ طرف لسانه مِن بين شفتَيْه وكأنه ثعبان وردي صغير. بلَّل موضع الإصابة بالميكروكروم، ثم وضع بضعة أشرطة مِن الضمادات. بعد ذلك نظَّف يدَيْه قائلًا:

- انتهى الأمر. والآن، وقّعا هذه الورقة.

وقَّع ألبِرتو والنَّمِر دفتر التقارير ثم خرجا والنهار لا يزال صافيًا. كان المرء ليقول إن الصيف قد حان أخيرًا، لولا النسيم الذي هبَّ منسابًا فوق الأرض الخلاء. تراءت السماء الرائقة في غاية العمق. مشيا عَبْر منصة العرض. بدا كل شيء مهجورًا، وإن سمعا أصوات الطُلَّاب وموسيقى الفالس الكريولي لدى مرورهما أمام قاعة الطعام. وفي البناء المُخصَّص للضُبَّاط، وجدا الملازم أوارينا.

- قفا مكانكما! -أمر الضابط- ما هذا؟

- لقد سقطنا، سيدي الملازم. -قال ألبِرتو.

- سوف تُحرَمان مِن الخروج شهرًا بهذه السحنة، على الأقل.

مضيا إلى الثكنات، مِن دون أن يتحدَّث أحدهما إلى الآخر. وجدا باب حجرة غامبوا مفتوحًا، ولكنهما لم يدخلا، بل وقفا أمام الباب، وكلاهما ينظر إلى الآخر.

- ماذا تنتظر لتطرق الباب؟ -سأل النَّمِر، أخيرًا- غامبوا شريكك.

طرق ألبِرتو الباب، مرة واحدة.

- ادخل. -قال غامبوا.

كان الملازم جالسًا، ممسكًا برسالة، ولكنه ما إن رآهما حتى سارع بالاحتفاظ بها. قام وأوصد الباب. وبلفتة حادة، أشار إلى الفراش:

- اجلسا.

جلس ألبِرتو والنَّمِر على الحافة. بينما سحب غامبوا مقعده واضعًا إياه أمامهما، وجلس في وضع مقلوب، مُتَّكِئًا بذراعَيْه على مسند المقعد. تراءى وجهه رطبًا، وكأنه قد اغتسل من فوره. بدَت عيناه متعبتَيْن، وحذاؤه قذرًا، وأزرار قميصه مفتوحة. نظر إليهما بتأنٍّ، مُستنِدًا بإحدى يدَيْه إلى وجنته، بينما راح يقرع ركبته بيده الأخرى.

- حسنًا. -قال، بعد لحظة، بلفتة تنمّ عن نفاد الصبر- تعرفان ما الخطب. أعتقد بأنني لستُ في حاجة إلى تذكيركما بما ينبغي عمله.

بدا عليه التعب والسأم: فجاءت نظرته قاتمة وصوته مغلوبًا.

- أنا لا أعرف شيئًا، سيدي الملازم. -قال النَّمِر- لا أعرف أكثر مما قلتَ لي بالأمس.

استجوب الملازمُ ألبِرتو بعينَيْه.

- لم أخبره بشيء، سيدي الملازم.

وقف غامبوا. وظهر جليًّا أنه يشعر بالضيق، وأنه مستاء مِن ذلك اللقاء.

- لقد قدَّم الطالبُ ألبِرتو فِرنانديس بلاغًا ضدك. أنت تعرف موضوع البلاغ. ولكن السلطات وجدَت الاتهام بلا أساس. -مضى يتكلَّم ببطء، باحثًا عن عبارات بلا طابع شخصي، مُقتصِدًا في الكلام. للحظات، كان فمه ينقبض ويتجهَّم حتى تغدو شفتاه وكأنهما

أخدودان صغيران- يجب ألَّا يأتي أحد على ذكر هذه المسألة مِن الآن فصاعدًا، لا هنا، ولا في الخارج، طبعًا. وإلَّا فربما أضرّ ذلك بالمدرسة وأساء إليها. أما وقد انتهى الأمر، فلسوف تعودان إلى القسم ابتداء مِن هذه اللحظة، وتلزمان أقصى درجات الكتمان. بل إن أدنى بادرة طيش من جانبكما سوف تُقابَل بالعقاب المُشدَّد. لقد كلَّفني الكولونيل شخصيًّا بأن أحذِّركما: لأنكما سوف تتحمَّلان العواقب لو تسرَّب حرفٌ واحد مما جرى.

أصغى النَّمِر إلى غامبوا خافضًا رأسه. ولكنه رفع إليه عينَيْه حين سكت الضابط.

- هل رأيتَ، سيدي الملازم؟ لقد قلتُ لك. إنه مُجرَّد افتراء مِن هذا الواشي. -أشار إلى ألبِرتو باحتقار.

- ليس افتراء. -قال ألبِرتو- أنت قاتل.

- اصمتا! -قال غامبوا- اصمتا، أيها الوغدان!

وإذا بألبِرتو والنَّمِر يستقيمان في مكانهما تلقائيًّا.

- أيها الكاديت ألبِرتو فِرنانديس... -قال غامبوا- لقد تراجعتَ عن كل الاتهامات المُوجَّهة إلى زميلك قبل ساعتَيْن، أمام عينَي. لا يمكنك أن تعود إلى مثل هذا الحديث، وإلَّا تلقَّيتَ عقوبةً قصوى. سوف أوقعها عليك بنفسي. يبدو لي أنني أتكلَّم بوضوح.

- سيدي الملازم... -تلعثم ألبِرتو- أمام الكولونيل، لم أعرف... أو بمعنى أصحّ، لم أتمكَّن مِن عمل شيء آخر. لم يمهلني فرصة لأي شيء. أضف إلى ذلك...

- أضف إلى ذلك أنك لا تملك أن تتَّهم أحدًا، ولا تملك أن تحاكم أحدًا. -قاطعه غامبوا- لو كنتُ أنا مدير المدرسة، لأصبحتَ أنت في الشارع الآن. وأتمنى أن تقلع عن كتابة تلك الأقاصيص الإباحية في المستقبل، إن شئت أن تنهي العام الدراسي بسلام.

- حسنًا، سيدي الملازم. ولكن لا شأن لذلك بالأمر. أنا. . .

- لقد تراجعتَ عن الاتهام أمام الكولونيل. ولهذا لا تفتح فمك مُجدَّدًا. -ثم التفت غامبوا إلى النَّمِر- أما أنت، فربما لم تكُن لك صلة بمقتل الطالب آرانا. ولكن المخالفات التي ارتكبتَها فادحة. أؤكِّد لك أنك لن تستهزئ بالضُبَّاط مرة أخرى. سوف أحرص على ذلك بنفسي. والآن انصرفا، ولا تنسيا ما قلتُ لكما.

خرج ألبِرتو والنَّمِر. ثم أوصد غامبوا الباب خلفهما. ومِن مكانهما في الرواق، سمعا الأصوات والموسيقى الآتية مِن قاعة الطعام، عن بعد. كانت مقطوعةُ مارينيرا قد أعقبَت الفالس. مشيا إلى منصة العرض. سكتَت الريح، فسكنَت الحشائش وانتصبَت في الأرض الخلاء. مضيا إلى الثكنة، ببطء.

- إن أولئك الضُبَّاط أوغاد. -قال ألبِرتو، من دون أن ينظر إلى النَّمِر- كلهم، حتى غامبوا. كنتُ أحسبه مختلفًا.

- هل اكتشفوا أمر الأقاصيص؟ -سأل النَّمِر.

- نعم.

- لقد وقعتَ في ورطة.

- كلّا. -قال ألبِرتو- لقد ابتزّني الضُبَّاط: التراجع عن الاتهام المُوجَّه إليك مقابل نسيان الأقاصيص الإباحية. هكذا أفهمني الكولونيل. لا يُعقَل أن يكونوا بمثل هذه الخسّة.

ضحك النَّمِر.

- هل جُنِنت؟ -قال- ومنذ متى يدافع الضُبَّاط عني؟

- ليس عنك. بل إنهم يدافعون بعضهم عن بعض. لا يريدون الزجّ بأنفسهم في المشكلات. إنهم ثلة من المُخنَّثين. لا يلقون لموت العَبْد أدنى بال.

- إنها الحقيقة. -أومأ النَّمِر- يُقال إنهم لم يسمحوا للأسرة

برؤيته وهو في المستوصف. هل تتصوَّر؟ أن يكون المرء في الرمق الأخير ولا يرى سوى الملازمين والأطباء! ما أتعسهم.

- حتى أنت لا تأبه لموته. -قال ألبِرتو- كل ما أردتَ أن تنتقم منه لأنه قد وشى بكابا.

- ماذا؟ -سأل النَّمِر مُتوقِّفًا، ناظرًا إلى عينَي ألبِرتو- ماذا قلت؟

- ماذا تعني بسؤالك؟

- هل أبلغ العَبْد عن كابا الجَبَلي؟ -توهَّجَت عينا النَّمِر تحت الضمادات.

- لا تكُن وغدًا. -قال ألبِرتو- ولا تكذب.

- أنا لا أكذب، اللعنة! لم أعرف أنه قد أبلغ عن كابا. لقد أحسن صنعًا بموته. عسى أن يموت الوشاة كلهم.

لم يرَه ألبِرتو جيدًا بعينه الوحيدة، ولم يتمكَّن من تقدير المسافة بدقة. مدّ يده إلى صدره مُحاوِلًا الإمساك به، ولكنه لم يجد سوى الخواء.

- أقسمْ إنك لم تعرف أن العَبْد قد أبلغ عن كابا. أقسمْ بأمّك. قُل: «عسى أن تموت أمّي لو كنتُ كاذبًا». أقسمْ.

- لقد ماتت أمّي. -قال النَّمِر- ولكني لم أكُن أعرف.

- أقسمْ لو كنتَ رجلًا.

- أقسمُ إنني لم أكُن أعرف.

- لقد ظننتُك تعرف، ولهذا قتلتَه. -قال ألبِرتو- أما لو أنك لم تكُن على علم بذلك حقًّا، فلقد وقعتُ في خطأ. سامحني يا نَمِر.

- لقد فات أوان الندم. -قال النَّمِر- ولكن حاول ألَّا تعود إلى الوشاية أبدًا. فلا أشدّ خسةً من الوشاة.

٨

جاؤوا بعد الغداء كالفيضان. سمع ألبِرتو صوتهم وهم يقتربون: اجتاحوا الأرض الخلاء، فسُمِع وقع أقدامهم فوق الأعشاب، وتعالى دبيب البيادات كالطبل المحموم في منصة العرض، وإذا بحريق مِن الصخب يندلع في فناء الفرقة، ومئات مِن البيادات المذعورة تطرق الأرض. وفجأة، عندما وصل الصوت إلى أقصى مداه، انفتح الباب على مصراعَيْه، وظهرَت أجساد ووجوه مألوفة على عتبة الثكنة. سمع عدة أصوات تنادي اسمه واسم النَّمِر في آن واحد. اجتاح الثكنةَ تيارٌ مِن طُلَّاب العسكرية، وانقسم إلى موجتَيْن تدفَّقَت كلتاهما مُسرِعة، اتَّجهَت الأولى نحوه والأخرى نحو القسم الخلفي، حيث استقرّ النَّمِر. تصدَّر بايانو جمع الطُلَّاب المُتَّجهين إليه. مضوا كلهم يشيرون والفضول يتوهَّج في عيونهم: أحسّ بأن تيارًا مِن الكهرباء قد سرى في جسده أمام كل هذه النظرات والأسئلة التي انطلقَت في آن واحد. ولثانية، حدَّثه انطباع بأنهم سوف يعدمونه. حاول أن يبتسم، ولكن سدى: لأنهم عاجزون عن رؤية وجهه الذي حجبَت الضمادة معظمه. مضوا ينعتونه بـ«دراكولا» و«المسخ» و«فرانكنشتاين» و«ريتا هيوارث». ثم جاء ذلك متبوعًا بوابل من الأسئلة. حاول أن يتكلَّم بصوت أجشّ، مُتهدِّج، وكأن الضمادة تخنقه. «لقد أُصِبت في حادثة»، غمغم. «لم أغادر العيادة حتى صباح اليوم». «مِن المُؤكَّد أنك

ستغدو أشدّ قبحًا مما كنت»، قال له بايانو، بمودّة. بينما راح آخرون يتنبَّؤون: «سوف تفقد إحدى عينَيْك، وعندئذ نطلق عليك الأعور بدلًا مِن الشَّاعِر». لم يطلبوا منه تفسيرًا واحدًا، كما لم يسأله أحد عن تفاصيل الحادثة، بل إن مسابقة ضمنية قد بدأت، وأخذ الجميع يتنافسون في البحث عن الألقاب والدعابات الصارخة ساخرين منه. «لقد صدمَتني سيارة»، قال ألبِرتو. «فسقطتُ على وجهي في جادة الثاني مِن مايو». أخذ الجمع المحيط به يتحرَّك، فذهب بعضهم إلى الأسِرَّة، واقترب بعضهم الآخر وهم يضحكون على ضمادته ضحكات رنانة. وفجأة قال أحدهم: «أراهن أن الأمر برمّته أكذوبة. لقد تشاجر النَّمِر والشَّاعِر»، وإذا بضحكة مدوية تهزّ الثكنة. فكَّر ألبِرتو في المُمرِّض بامتنان: لأن الضمادة التي أخفَت وجهه كانت حليفته، فلم يعُد أحد قادرًا على قراءة الحقيقة في قسمات وجهه. كان جالسًا على فراشه، وعينه الوحيدة تهيمن على بايانو، الذي وقف أمامه، وعلى أروسبيدي ومونتيس. رآهم مِن خلال الضباب. ولكنه حدس بوجود الآخرين، وسمع الأصوات التي راحت تسخر منه هو والنَّمِر، في غير اقتناع، ولكن بكثير من حسّ الدعابة. «ماذا فعلتَ بالشَّاعِر يا نَمِر؟»، سأل أحدهم. «أيها الشَّاعِر، هل تقاتل بالأظافر كالنساء؟»، سأل آخر. والآن مضى ألبِرتو يحاول تمييز صوت النَّمِر وسط الضوضاء، فلا استطاع أن يميِّز صوته، ولا تمكَّن من رؤيته: إذ اعترضَت طريقه خزائن الثياب، والأسِرّة، وأجساد الزملاء. استمرَّت النكات. وطغى على باقي الأصوات صوتُ بايانو الذي جاء كالفحيح السامّ الغادر. كان بايانو النيغرو مفعمًا بالإلهام، فأطلق وابلًا مِن السخرية اللاذعة والمزاح.

وإذا بصوت النَّمِر يهيمن على الثكنة فجأة: «كفى! كفاكم إزعاجًا». ما لبث الصخب أن خفت، وما عادَت تُسمَع إلَّا ضحكات

مقتضبة هازئة، مُفتعَلة، خجلى. وبعينه الوحيدة -التي أخذ يفتحها ويغمضها بطريقة تبعث على الدوار- رأى ألبِرتو جسدًا يتحرَّك بالقرب مِن سرير بايانو، ويتسلَّق مُستنِدًا بذراعَيْه إلى السرير العلوي: ارتفع الصدر والخصر والساقان بسلاسة، والآن استقرّ الجسد فوق خزانة الثياب، وغاب عن عين ألبِرتو، الذي ما عاد يرى إلَّا القدمَيْن الطويلتَيْن والجورب الأزرق المُتهدِّل بإهمال على البيادة التي كانت بلون الشكولاتة، مثل خشب الخزانة. ما زال الآخرون لم ينتبهوا إلى شيء، في حين استمرَّت الضحكات المقتضبة، المُتملِّصة، المختلسة. سمع ألبِرتو كلمات أروسپيدي الهادرة، فلم يتخيَّل أن شيئًا استثنائيًّا قد وقع، ولكن جسده قد أدرك ذلك: فتوتَّر، والتصقَت كتفه بالجدار إلى حدّ الألم. انطلق أروسپيدي يكرِّر، صائحًا: «توقَّف يا نَمِر! إياك والصراخ يا نَمِر. مهلًا!». ران صمتٌ مطبق. والآن التفتَت أنظار القسم كاملًا إلى الرقيب أروسپيدي، وإن عجز ألبِرتو عن النظر إلى عينَيْه: إذ منعَته الضمادات مِن رفع رأسه. وبعين السايكلوب، رأى ألبِرتو البيادة الجامدة، ثم عتمة الجفن الداخلية، فالبيادة مرة أخرى. مضى أروسپيدي يكرِّر عدة مرات، في سخط: «توقَّف يا نَمِر! مهلًا يا نَمِر!». سمع ألبِرتو احتكاك أجساد: بينما نهض الطُلَّاب الذين كانوا مستلقين على الأسِرَّة، ومدّوا أعناقهم إلى خزانة بايانو.

- ماذا يجري؟ -سأل النَّمِر أخيرًا- ما الخطب يا أروسپيدي؟ ماذا دهاك؟

جامدًا في مكانه، أخذ ألبِرتو ينظر إلى الطُلَّاب الأقرب إليه: فبدَت عينه وكأنها بندول يتأرجح مِن أعلى إلى أسفل، من أقصى الثكنة إلى أقصاها، مِن أروسپيدي إلى النَّمِر.

- دعنا نتحدَّث. -صاح أروسپيدي- لدينا أمور كثيرة نريد أن

نخبرك بها. وقبل كل شيء، إياك والصراخ. أفهمت يا نَمِر؟ لقد وقعَت أمور كثيرة في الثكنة منذ أرسلك غامبوا إلى الزنزانة.

- لا يروقني أن يتحدَّث إليَّ أحد بهذه النبرة. -أجاب النَّمِر واثِقًا، ولكن بصوت خافت، حتى إن كلماته ما كانت لتُسمَع إن لم يسكت باقي الطُلَّاب- لو شئتَ أن تتكلَّم معي، فالأفضل لك أن تنزل عن هذه الخزانة، وأن تأتي إلى هنا. كما يليق بالناس المُهذَّبين.

- لستُ مِن الناس المُهذَّبين. -صاح أروسپيدي.

«إنه يستشيط غضبًا»، فكَّر ألبِرتو. «يكاد يموت مِن فرط الغضب. لا يرغب أروسپيدي في الاشتباك مع النَّمِر، بل يريد أن يذيقه الشعور بالخزي أمام الجميع».

- بلى، أنت مُهذَّب. -قال النَّمِر- بطبيعة الحال، فأبناء ميرافلوريس كلهم مُهذَّبون، من أمثالك.

- الآن أتحدَّث إليك بصفتي رقيبًا يا نَمِر. لا تحاول أن تفتعل شجارًا، لا تكُن جبانًا يا نَمِر. لاحقًا نفعل كل ما تريد. أما الآن، فدعنا نتكلَّم. لقد وقعَت هنا أمور شديدة الغرابة حالما زُجّ بك في الزنزانة، أتسمعني؟ أتدري ماذا حدث؟ يمكن لأي شخص أن يخبرك بما حدث. لقد جُنّ ضُبَّاط الصفّ والملازمون فجأة، فحضروا إلى الثكنة، وراحوا يفتِّشون في خزائن الثياب، وأخرجوا أوراق اللعب والقوارير والخطافات، فسقط على رؤوسنا وابل من مُذكِّرات العقاب. وأصبح أفراد القسم كلهم مُضطرّين إلى الانتظار طويلًا قبل الخروج إلى الشارع، يا نَمِر.

- وماذا بعد؟ -سأل النَّمِر- ما شأني بذلك؟

- أما زلتَ تسأل؟

- نعم. -قال النَّمِر، هادئًا- ما زلتُ أسأل.

- أنت الذي هدَّدتَ كوبرا ومَوْجَة بأنهما لو أوقعا بك، نغَّصتَ

أفراد القسم كلهم. ولقد فعلتَ يا نَمِر. أتعرف ما حقيقتك؟ أنت واشٍ. لقد نغَّصتَ الجميع. أنت خائن، جبان. أتحدَّث باسم الجميع عندما أقول لك إنك لا تستحقّ حتى أن نهشِّم وجهك. أنت مثير للغثيان، يا نَمِر. لم يعُد أحد يخاف منك. هل تسمعني؟

مال ألبِرتو قليلًا، مُتراجِعًا برأسه إلى الوراء، فتمكَّن مِن رؤية أروسپيدي واقفًا فوق خزانة الثياب، حيث بدا أطول قامة. تناثر شعره. كان طويل الذراعَيْن والساقَيْن، ما جعله يبدو أشد نحافة. وقف مُباعِدًا بين قدمَيْه، وضمّ قبضتَيْه، بينما اتَّسعَت عيناه بشدَّة، وتوهَّجَت فيهما الهستيريا. ماذا ينتظر النَّمِر؟ ومرة أخرى، رأى ألبِرتو المشهد عَبْر ضباب مُتقطِّع: لأن عينه أخذَت ترفّ بلا هوادة.

- تقصد أنني واشٍ. -قال النَّمِر- أليس هذا ما تقصد؟ تكلَّم يا أروسپيدي. أهذا ما تقصد، أنني واشٍ؟

- لقد قلتُها بالفعل. -صاح أروسپيدي- ولستُ أنا الوحيد. بل إن جميع أفراد الثكنة يقولونها يا نَمِر. أنت واشٍ.

ما لبث أن تعالى وقع خطوات طائشة، وانطلق أحدهم يركض وسط الثكنة، وسط خزائن الثياب والطُلَّاب الذين تجمَّدوا في أمكنتهم، وتوقَّف تحديدًا في الزاوية التي هيمنَت عليها عينه الوحيدة. كان صاحب تلك الخطوات هو كوبرا.

- انزلْ، انزلْ أيها المُخنَّث. -صاح كوبرا- انزلْ!

على مقربة مِن خزانة الثياب، أخذ رأسه الأشعث يتمايل وكأنه خوذة من الريش على بُعْد سنتيمترات قليلة من البيادة التي كاد الجورب الأزرق المُتهدِّل يحجبها. «أعرف...»، فكَّر ألبِرتو. «سوف يمسك بقدمَيْه ويطرحه أرضًا». ولكن كوبرا لم يرفع يدَيْه، وإنما اكتفى بتحدِّي أروسپيدي.

- انزلْ، انزلْ!

- اغرب عن وجهي يا كوبرا. -قال أروسپيدي، مِن دون أن ينظر إليه- أنا لا أتكلَّم معك. اذهب. لا تنسَ أنك حتى أنت قد ارتبتَ في أمر النَّمِر.

- يا نَمِر... -قال كوبرا، ناظرًا إلى أروسپيدي بعينَيْه الدقيقتَيْن المُتوهِّجتَيْن- لا تصدِّقه! لم أرتَب في أمرك سوى لحظة واحدة، والآن تراجعتُ عن ذلك. قُلْ له إن الأمر برمّته أكذوبة، وإنك سوف تقتله. أروسپيدي، انزلْ من مكانك لو كنتَ رجلًا.

«إنه صديقه»، فكَّر ألبِرتو. «أما أنا فلم أجرؤ على الدفاع عن العَبْد هكذا».

- أنت واشٍ يا نَمِر. -أكَّد أروسپيدي- دعني أكرِّرها. أنت واشٍ حقير.

- إن هذا رأيه وحده، يا نَمِر. -صاح كوبرا- لا تصدِّقه، يا نَمِر. لا أحد يفكِّر أنك واشٍ، بل إن أحدًا لا يجرؤ على ذلك. قُل له إن الأمر برمّته أكذوبة، ومزّق وجهه.

جلس ألبِرتو على الفراش، فلامس رأسه السياج. باتت عينه جمرةً ملتهبة، واضطُرّ إلى إغماضها معظم الوقت. كان يفتحها، فيرى رأس كوبرا المنتفش وقدمَي أروسپيدي على مقربة شديدة.

- دعْ عنك ذلك، يا كوبرا. -قال النَّمِر، فجاء صوته هادئًا وئيدًا طوال الوقت- لا أحتاج إلى مَن يدافع عني.

- يا شباب. -صرخ أروسپيدي- ها أنتم ترون بأعينكم. إنه هو الواشي. ولا يجرؤ حتى على الإنكار. إنه واشٍ جبان. لقد سمعتَني يا نَمِر، أليس كذلك؟ أقول عنك إنك واشٍ جبان.

«ماذا ينتظر؟»، أخذ ألبِرتو يفكِّر. تفجَّر الإحساس بالألم تحت الضمادة قبل لحظات، والآن سرى في وجهه كاملًا. ولكنه كاد لا يحسّ به. سلَّم أمره، وظلَّ ينتظر بلهفة أن يفتح النَّمِر فمه، ويدلي

باسمه أمام الثكنة كلها، مُلقِيًا به كما تُلقَى الفضلات للكلاب. وعندئذ يلتفت إليه الجميع، بين سخطٍ وذهول. ولكن النَّمِر قال، ساخرًا:

- مَن يقف إلى جانب ابن ميرافلوريس هذا؟ لا تكونوا جبناء، اللعنة، أريد أن أعرف مَن يقف إلى جانبه ضدي.

- لا أحد، يا نَمِر. -صرخ كوبرا- لا تلقِ إليه بالًا. ألا ترى أنه مُخنَّث حقير؟

- كلهم. -قال أروسپيدي- انظر إلى وجوههم تعرف يا نَمِر. كلهم يحتقرونك.

- لا أرى إلّا وجوه الجبناء. -قال النَّمِر- لا أرى إلّا وجوه المُخنَّثين، ضعاف القلوب.

«لا يجرؤ»، فكَّر ألبِرتو. «يخشى أن يوجِّه إليَّ الاتهام».

- واشٍ! -صرخ أروسپيدي- واشٍ! واشٍ!

- دعنا نرَ. -قال النَّمِر- يصيبني جبنكم بالغثيان. لماذا لا يرفع أحد صوته سواه؟ لا تخافوا هكذا.

- ارفعوا أصواتكم يا شباب. -قال أروسپيدي- أخبروه بحقيقته في وجهه. أخبروه.

«لن يرفعوا أصواتهم»، أخذ ألبِرتو يفكِّر. «لن يجرؤ أحد». مضى أروسپيدي يردِّد: «واشٍ، واشٍ»، بطريقة محمومة، فانضمّ إليه حلفاء مجهولون، من شتّى أركان الثكنة، مُردِّدين الكلمة بصوت خافت، بأفواه شبه مُطبَقة. امتدَّت الهمهمة كما يحدث في دروس اللغة الفرنسية، وبدأ ألبِرتو يميِّز بعض النبرات، صوت بايانو الحادّ، والصوت المُترنِّم لكينيونيس ابن مدينة تشيكلايو، وباقي الأصوات البارزة في الجوقة التي طغى صوتها وبات قويًّا. نهض وألقى نظرة حوله: فرأى الأفواه تنفتح وتُطبَق بالحركة نفسها. وقف أمام ذلك

الاستعراض مشدوهًا. وفجأة، تلاشى خوفه مِن أن ينطلق اسمه في هواء الثكنة فتتحوَّل إليه كل مشاعر الكراهية التي انصبَّت على النَّمِر في تلك اللحظات. بل إن فمه بدأ يغمغم، بصوت خافت، خلف الضمادات المُتواطِئة: «واشٍ، واشٍ!». ثم أغمض عينه، التي استحالَت جرحًا ملتهبًا، ولم يعُد يرى شيئًا مما يجري، حتى صار الصخب مُدوِّيًا: وتحت وطأة الصدمات والدفعات، ارتجفَت الخزائن وأطلقَت الأسِرّة صريرًا، وأخلَّت الشتائم بتناغم الجوقة وإيقاعها. وعلى الرغم مِن ذلك، فلم يكُن النَّمِر هو البادئ. في وقت لاحق، عرف أن كوبرا هو من فعلها: إذ أمسك بقدمَي أروسپيدي وطرحه أرضًا. عند ذاك وحسب تدخَّل النَّمِر، فانطلق راكضًا مِن أقصى الثكنة بغتةً. لم يستوقفه أحد، وإن استمرّ الجميع يردِّدون اللازمة نفسها، ويصرخون بقوة أكبر كلَّما نظر إلى عينَي أحدهم. سمحوا له بالوصول إلى موقع أروسپيدي وكوبرا، اللذين راحا يتمرَّغان على الأرض، وقد غاص كلٌّ منهما بنصف جسده تحت سرير مونتيس، وتجمَّدا في مكانهما عندما بدأ النَّمِر يركل الرقيب أروسپيدي بوحشية، وكأنه جوال رمل، من دون أن ينحني. تذكَّر ألبِرتو الأصوات الكثيرة التي تعالَت بعد ذلك، والانطلاقة المفاجئة: جاء الطُّلَّاب إلى وسط الثكنة مِن كل الأركان. أما هو فترك جسده يسقط على السرير تجنُّبًا للضربات، بينما رفع ذراعَيْه وكأنهما درعٌ يحتمي به. ومِن هناك، مِن مكمنه في الفراش، رأى طُلَّابَ القسم ينقضّون على النَّمِر واحدًا تلو آخر، دفقة تلو دفقة. رأى حفنةً من الأيدي تنتزعه من مكانه، وتبعده عن أروسپيدي وكوبرا، وتطرحه على أرض الرواق. تعالى الصياح رأسيًّا، بينما لمح ألبِرتو وجوه بايانو وميسا وبالديبيا وروميرو وسط الأجساد المُكوَّمة، وسمعهم يحثّون بعضهم بعضًا -«أوسعوه ضربًا!»، «واشٍ حقير!»،

«اسحقوه!»، «يحسب نفسه شجاعًا، ذلك المُخنَّث الكبير!»- بينما راح يفكِّر: «سوف يقتلونه، ويقتلون كوبرا معه». ولكن الحال لم تستمرّ طويلًا، فما هو إلّا قليل حتى دوَّى في الثكنة صفير وسُمِع صوت ضابط الصفّ ينادي بالاصطفاف ويطلب تدوين أسماء الثلاثة الأواخر في القسم، فإذا بالصخب والمعركة ينتهيان وكأنما بفعل السحر. خرج ألبِرتو راكضًا، فوصل بين أوائل المُصطفّين. ثم التفت مُحاوِلًا تحديد مواقع أروسپيدي والنَّمِر وكوبرا، فلم يجد أيًّا منهم. وقال أحدٌ إنهم: «قد ذهبوا إلى الحمام. الأفضل ألَّا يرى أحد وجوههم حتى يغتسلوا. وكفانا فوضى».

*

خرج الملازم غامبوا مِن حجرته، وتوقَّف لحظةً في الرواق حتى يمسح جبينه بالمنديل. سال عرقه. انتهى من كتابة رسالة إلى زوجته قبل قليل، والآن مضى إلى نقطة الحراسة حتى يسلِّم الرسالة إلى الملازم المناوب بغرض إرسالها ضمن بريد اليوم. وصل إلى منصة العرض، ثم اتَّجه إلى لاپِرليتا وهو لا يكاد يفكِّر في ما هو فاعل. ومِن مكانه في الأرض الخلاء، رأى پاولينو يفتح بأصابعه القذرةِ أرغفةَ الخبز التي سوف يبيعها محشوة بالنقانق خلال الاستراحة. لماذا لم يُتَّخذ إجراء واحد ضد پاولينو، مع أن غامبوا قد أشار في تقريره إلى تهريب السجائر والمشروبات الروحية الذي يمارسه ذلك الهجين؟ هل كان پاولينو هو مُستأجِر لاپِرليتا الحقيقي أم مُجرَّد واجهة؟ نحَّى تلك الخواطر جانبًا، وهو يشعر بالضيق. نظر إلى ساعته: خلال ساعتَيْن تنتهي خدمته، ويغدو حرًّا لأربع وعشرين ساعة. إلى أين يذهب؟ لم يتحمَّس لفكرة الانزواء على نفسه في ذلك البيت المُنعزِل في بارانكو، وإلَّا تملَّكه القلق، والضجر. يستطيع أن يزور بعض الأقرباء الذين طالما استقبلوه في بهجةٍ مُعاتِبين لأنه لا

يُكثِر من الزيارة. ربما ذهب إلى السينما ليلًا. لطالما عرضَت دور السينما في بارانكو أفلام الحروب والعصابات. لقد دَرَج على الذهاب إلى حفلات السينما الصباحية والمسائية مع روسا أيام الآحاد، وهو لا يزال طالب عسكرية، فيشاهدان الفيلم أكثر مِن مرة في بعض الأحيان. كان يسخر من الفتاة التي تتعذَّب بأفلام الميلودراما المكسيكية، بينما هي تفتِّش عن يده وسط العتمة وكأنها تلتمس مِنه الحماية، فيترك ذلك الاتصال المفاجئ في نفسه أثرًا قويًّا، ويثيره سرًّا. مرَّت ثمانية أعوام تقريبًا. لم يكُن يستحضر ذكريات الماضي قطّ، حتى بضعة أسابيع مضَت، بل إنه كان يشغل أوقات الفراغ بوضع المُخطَّطات مِن أجل المستقبل. لقد تحقَّقَت الأهداف التي وضعها نصب عينَيْه حتى الآن، ولم ينتزع منه أحدٌ ذلك المركز الذي حصل عليه حين تخرَّج في المدرسة العسكرية. فلماذا بات يفكِّر في شبابه دائمًا، بشيء مِن المرارة، منذ أن ظهرَت تلك المشكلات الأخيرة؟

- ماذا أقدِّمُ إليك، سيدي الملازم؟ -سأل پاولينو وهو يحيِّيه بانحناءة مِن رأسه.

- كولا.

أثار مذاق الشراب الحلو الغازي في نفسه إحساسًا بالغثيان. هل كان الأمر يستحقّ أن ينذر ساعات طوالًا لحفظ تلك الصفحات الجافة، وأن يبذل في دراسة القوانين واللوائح بقدر ما بذل من الجهد في دروس الاستراتيجيات واللوجستيات والجغرافيا العسكرية؟ «النظام والانضباط قِوام العَدل»، أخذ غامبوا يتلو، وعلى شفتَيْه ابتسامة مريرة، «فكلاهما أداة لا غنى عنها في الحياة المشتركة الرشيدة. يتحقَّق النظام والانضباط بالملاءمة بين الواقع والقوانين». أرغمهم الرائد مونتيرو على أن يحفظوا حتى مُقدِّمات اللائحة. نعته

الطُّلَّاب بـ«حارس القانون»، لأنه مُولَع بالاستشهاد بالقوانين. «إنه أستاذ ممتاز، وضابط عظيم. أما زال يتعفَّن في حامية بورخا العسكرية؟»، تساءل غامبوا. بعد عودته مِن أكاديمية تشوريوس الحربية، كان غامبوا يُقلِّد لفتات الرائد مونتيرو. انتُدِب إلى آياكوتشو، وسرعان ما اشتهر بالصرامة. أطلق عليه الضُبَّاط «القاضي»، بينما أطلق عليه الجنود «الحازم». سخروا من صرامته، وإن علم أنهم، في قرارة أنفسهم، يشعرون نحوه بإجلال مشوب بالإعجاب. كانت كتيبته الأفضل تدريبًا، والأشدّ انضباطًا. بل إنه لم يُضطَرّ حتى إلى عقاب الجنود، فبالتدريب الصارم وبعض التنبيهات يبدأ كل في شيء في السير على ما يُرام. وحتى الآن، سهُل على غامبوا فرض الانضباط بقدر ما سهُل عليه الالتزام به. حسب أنه سوف يجد الشيء نفسه في المدرسة العسكرية. أما الآن، فبدأ يرتاب في ذلك. كيف يثق برؤسائه مغمض العينَيْن بعد ما حدث؟ ربما كان من الحكمة أن يحذو حذو الآخرين. لا شكّ في أن الرائد غارّيدو على حقّ: فلا بد أن يتعقَّل في تفسير اللوائح، ويهتمّ بسلامته ومستقبله فوق كل شيء. تذكَّر واقعةً جرَت بينه وبين أحد العرفاء بعد أن أُلحِق بمدرسة ليونسيو پرادو بقليل. كان العريف جبليًّا وقحًا، يضحك في وجهه إذا عنَّفه. ذات مرة، صفعه غامبوا على وجهه، فتمتم العريف قائلًا: «لو كنتُ طالبًا لما ضربتَني، سيدي الملازم». لم يكُن ذلك العريف غبيًّا إلى هذا الحدّ، على الرغم من كل شيء.

دفع ثمن الكولا، ثم عاد إلى منصة العرض. صبيحة ذلك اليوم حرَّر غامبوا أربعة تقارير أخرى بشأن سرقة الاختبارات وقوارير المشروبات الروحية التي عُثِر عليها والمقامرة في الثكنات والهروب مِن المدرسة. مِن الناحية النظرية، يجب أن يمثل أكثر مِن نصف طُلَّاب القسم الأول أمام مجلس الضبَّاط. من الممكن أن تُفرَض

عقوبات مُشدَّدة عليهم جميعًا، وأن يُطرَد بعضهم أيضًا. لم تتناول التقارير التي حرَّرها سوى القسم الأول. في حين لم يعُد تفتيش باقي الثكنات مُجدِيًا: إذ وجد الطُلَّاب مِن الوقت ما يكفي ويفيض للتخلُّص من أوراق اللعب وقوارير الشراب أو إخفائها. لم يشِر غامبوا في التقارير التي حرَّرها إلى باقي الكتائب ولو على سبيل التلميح. فليتدبَّر ضُبَّاط هذه الكتائب أمرهم. قرأ الرائد غارّيدو التقارير الماثلة أمامه، بمظهر ينمّ عن الشرود. ثم سأله:

- وما جدوى هذه التقارير يا غامبوا؟

- سيدي الرائد، أتسألني عن جدواها؟ لا أفهم.

- لقد أُغلِقَت القضية. واتُّخِذَت جميع التدابير اللازمة.

- لقد أُغلِقَت قضية الطالب ألبِرتو فِرنانديس، سيدي الرائد، أما باقي القضايا فلم تُغلَق.

بدرَت مِن الرائد لفتة تشي بالضيق. تناول التقارير مرة أخرى، ثم أخذ يراجعها. بينما استمرّ فكَّاه في المضغ المجاني المُذهِل، بلا كلل.

- غامبوا... أقصد، ما جدوى الأوراق؟ لقد قدَّمتَ إليَّ تقريرًا شفويًّا. فلماذا تكتب كل هذا؟ لقد عاقبنا أفراد القسم الأول كلهم تقريبًا. إلى أين تريد أن تصل؟

- لو انعقد مجلس الضُبَّاط، لدعَت الضرورة إلى وجود تقارير مكتوبة، سيدي الرائد.

- آها. -قال الرائد- إذن فأنت لم تنزع عن رأسك فكرة انعقاد المجلس، حسبما أرى. أتريد أن نفرض العقوبات على أفراد الفرقة كلهم؟

- لم أقدِّم تقريرًا إلَّا بشأن كتيبتي، سيدي الرائد. أما باقي الكتائب فليسَت مِن اختصاصي.

- حسنًا. -قال الرائد- ها أنت قد قدَّمتَ إليَّ التقارير. والآن، انسَ الأمر واتركه بين يدَيّ. سوف أتولّى كل شيء.

غادر غامبوا. وابتداءً مِن تلك اللحظة، تفاقم ذلك الشعور الذي كان يلاحقه، الشعور بخمود الهمة. في تلك المرة، عزم على ألَّا يشغل نفسه بتلك القصة من جديد، وألَّا يبادر بشيء. «الليلة يجدر بي أن أسكر تمامًا»، مضى يفكِّر. ذهب إلى نقطة الحراسة، وسلَّم الرسالة إلى الضابط المناوب طالبًا منه أن يرسلها عن طريق البريد المُسجَّل. خرج مِن نقطة الحراسة، فرأى عند باب البناء الإداري قائدَ الوحدة ألتونا، الذي أشار إليه حتى يقترب منه.

- مرحبًا يا غامبوا. -بادره قائلًا- تعالَ، سوف أرافقك.

لطالما لقي غامبوا مِن قائد الوحدة مودّةً غامرة، وإن اقتصرَت علاقتهما على الخدمة حصريًا. مضيا إلى قاعة الطعام الخاصة بالضُبَّاط.

- يجب عليَّ أن أبلغك بخبر مؤسف يا غامبوا. -مشى قائد الوحدة عاقدًا يدَيْه خلف ظهره- إنها معلومات خاصّة، من صديق إلى صديق. أنت تفهم ما أعنيه، أليس كذلك؟

- بلى، سيدي قائد الوحدة.

- العميد مستاء منك بشدة يا غامبوا. والكولونيل أيضًا. وما بدر منك يستحقّ أن يُقابل بهذا الشعور. ولكن تلك مسألة أخرى. على كل حال، أنصحك بأن تسارع بالتحرُّك في نطاق الوزارة. لقد طُلِب نقلك على وجه السرعة. أخشى أن المسألة قد بلغَت طورًا مُتقدِّمًا، ولم يعُد أمامك وقت طويل. صحيح أن سجلّ خدماتك سوف يوفِّر لك الحماية. ولكن النفوذ مفيد جدًّا في مثل هذه الحالات، كما تعلم.

«لن يروقها مطلقًا أن تغادر ليما، الآن»، فكَّر غامبوا. «سوف

أُضطَرّ إلى تركها لبعض الوقت هنا، مع أسرتها، حتى أعثر على بيت وخادمة».

- شكرًا جزيلًا، سيدي قائد الوحدة. -قال- ألا تعرف الوجهة التي يُحتمَل أن أُنقَل إليها؟

- لن أندهش لو نُقِلتَ إلى واحدة من الحاميات العسكرية في الأدغال. أو إلى مرتفعات لايونا. لا تُجرَى انتقالات في هذا الوقت مِن العام، ولا تبقى مواقع شاغرة إلَّا في الحاميات العسكرية الشاقّة، فلا تهدر الوقت. ربما انتُدِبتَ إلى إحدى المدن المهمة، مثل آريكيبا أو تروخيو. ولكن لا تنسَ أن ما أخبرُك به أمر سرّي، مِن صديق إلى صديق. لا أريد مشكلات.

- لا تقلق، سيدي قائد الوحدة. -قاطعه غامبوا- ومرة أخرى، شكرًا جزيلًا.

*

رآه ألبِرتو يخرج مِن الثكنة: قطع النَّمِر الرواق، من دون أن يلقي بالًا إلى النظرات الحاقدة أو الساخرة التي رمقه بها الطُلَّاب وهم يدخِّنون أعقاب السجائر في أسِرّتهم، ويلقون الرماد في قطع مِن الورق أو في علب الثقاب الخاوية. مشى ببطء، مِن دون أن ينظر إلى أحد. مضى ناظرًا إلى أعلى حتى وصل إلى الباب، وفتحه بإحدى يدَيْه، ثم أوصده خلفه بعنف. لمح ألبِرتو وجه النَّمِر بين اثنتَيْن من خزائن الثياب، فتساءل مرة أخرى كيف يُعقَل أن يظلّ ذلك الوجه بلا خدش واحد بعد ما جرى. وعلى الرغم من ذلك، فهو ما زال يعرج في سيره قليلًا. يوم حدثَت الواقعة، قال أوريوستي في قاعة الطعام مُؤكِّدًا: «أنا الذي أصبتُه بالعرج». ولكن، في اليوم التالي، ادَّعى بايانو ذلك الشرف لنفسه، وبالمثل فعل نونييس، وريبيا، وحتى غارسيا الهزيل. أخذوا يتجادلون في تلك المسألة صياحًا، على

مرأى من النَّمِر، وكأنهم يتحدَّثون عن أحد الغائبين. أما كوبرا، فلقد تورَّم وجهه وأُصيب بخدشٍ غائرٍ دامٍ حول عنقه. فتَّش عنه ألبِرتو بعينَيْه: فوجده مُستلقيًا على سريره، وقد تمدَّدَت رِيشَة على جسده، وراحت تلعق الخدش بلسانها الكبير الضارب إلى الحمرة.

«الغريب أنه لا يتحدَّث حتى إلى كوبرا»، فكَّر ألبِرتو. «أتفهَّمُ أن يقاطع مَوْجَة، الذي ولَّى هاربًا يومذاك، ولكن ماذا عن كوبرا الذي دافع عنه وتعرَّض للضرب المبرح مِن أجله؟ إن هذا النَّمِر جاحد». وفوق ذلك، يبدو أن أفراد القسم قد نسوا أن كوبرا قد تدخَّل في ما جرى، فهم يتحدَّثون إليه ويمازحونه كما في سابق عهدهم، ويمرِّرون إليه أعقاب السجائر عندما يدخِّنون معًا. «الغريب أنهم لم يتَّفقوا في ما بينهم على تجاهل النَّمِر»، فكَّر ألبِرتو. «وكان الأفضل لهم أن يتَّفقوا». يومذاك، راقبه ألبِرتو عن بعد، في أثناء الاستراحة. هجر النَّمِرُ الفناء الذي يؤدِّي إلى الفصول، وأخذ يتمشَّى في الأرض الخلاء وهو يركل الحصى بقدمَيْه، واضعًا يدَيْه في جيبَيْه. اقترب منه كوبرا، ومشى إلى جواره. لا شكّ في أن شجارًا قد ثار بينهما: إذ انطلق كوبرا يهزّ رأسه ويلوِّح بقبضتَيْه. بعد ذلك مضى مُبتعِدًا عنه. وفي الاستراحة الثانية، فعل النَّمِر الشيء نفسه. في هذه المرة، اقترب منه مَوْجَة، ولكنه ما كاد يصل إليه حتى قابله النَّمِر بدفعةٍ مِن يدَيْه، فرجع مَوْجَة أدراجه إلى الفصول، وقد تضرَّج وجهه. في أثناء الدروس، كان الطُلَّاب يتجاذبون أطراف الحديث، ويتبادلون الشتائم، ويبصقون بعضهم على بعض، ويتراشقون بالقذائف الورقية، ويقاطعون الأساتذة بالصهيل والصياح والزمجرة والمواء والنباح: وعادَت الحياة مرة أخرى إلى مجراها الطبيعي، على علم الجميع بوجود شخص منفيٍّ بينهم. كان النَّمِر يمضي ساعات الدروس عاقدًا ذراعَيْه على مكتبه، شاخصًا بعينَيْه الزرقاوَيْن إلى السبورة، فلا يفتح

فمه، ولا يدوِّن ملاحظة واحدة، ولا يلتفت برأسه إلى أحد الزملاء. «يبدو أنه هو الذي يتجاهلنا»، فكَّر ألبِرتو. «وأنه هو الذي يعاقب أفراد القسم». منذ ذلك اليوم، ظلَّ ألبِرتو ينتظر أن يذهب إليه النَّمِر مُطالِبًا بتفسير، ويرغمه على أن يكشف للآخرين حقيقة ما جرى. بل إن ألبِرتو قد فكَّر في كل ما سوف يخبر به باقي أفراد القسم حتى يُبرِّر البلاغ الذي قدَّمه. ولكن النَّمِر قابله بالتجاهل، شأنه شأن الآخرين. عند ذاك افترض ألبِرتو أن النَّمِر يخطِّط لانتقام نموذجي.

قام مُتَّجِهًا إلى خارج الثكنة، بينما حفل الفناء بالطُّلَّاب. حانت الساعة المبهمة، الحائرة، التي يتساوى فيها الليل والمساء، وكأن كلًّا منهما يحيِّد الآخر. تساقط ما يشبه الظلّ مُشوِّهًا منظر الثكنات، مُحافِظًا على هيئة الطُّلَّاب الذين التفعوا بالمعاطف الثقيلة، وإن طمس قسمات الوجوه، وأسبغ تلك الدرجة المُوحَّدة من الرمادي على الفناء، الذي كان في الأصل رصاصيًّا فاتحًا، وعلى الجدران والأرض الخلاء المهجورة ومنصة العرض القريبة من اللون الأبيض. حتى الحركات والأصوات قد زيَّفها الضوء المخادع: فبدا أن الجميع يسيرون بسرعة أكبر أو أقل في ذلك الضوء المحتضر، ويتكلَّمون بصوت خافت، أو يتهامسون، أو يصرخون. كان اثنان من الأجساد يتقاربان، فيبدو للناظر وكأنهما يداعبان بعضهما بعضًا أو يتشاجران. مضى ألبِرتو إلى الأرض الخلاء رافعًا ياقة المعطف. لم يسمع صوت الأمواج، لا بدّ أن البحر قد هدأ. كان كلَّما وجد جسدًا مُمدَّدًا على العشب يبادره سائلًا: «النَّمِر؟»، فإما لا يجيبه الآخر وإما يكيل له السباب: «لستُ النَّمِر، ولكن إن كنتَ تبحث عن قضيب ضخم، فإليك واحدًا! خُذ!». ذهب إلى حمام الفصول. وعند عتبة المكان الغارق في الظلمات -حيث التمعَت بضع نقاط حمراء على المراحيض- صاح: «يا نَمِر!». لم يتلقَّ جوابًا، ولكنه أدرك أن

الجميع ينظرون إليه: إذ تحرَّكَت نقاط النار المُتوهِّجة. عاد إلى الأرض الخلاء مُتَّجِهًا إلى الحمامات القريبة مِن لاپِرليتا: تلك التي لا يستخدمها في الليل أحد لأنها موبوءة بالجرذان. رأى نقطة مضيئة وخيالًا من مكانه عند الباب.

- النَّمِر؟

- ما الخطب؟

دخل ألبِرتو وأضرم عود ثقاب. وجد النَّمِرَ واقفًا، يصلح وضع الحزام، وقد خلا المكان إلَّا منه. ألقى ألبِرتو عود الثقاب المُتفحِّم.

- أريد أن أتحدَّث إليك.

- ليس لدينا شيء واحد نتحدَّث عنه. -قال النَّمِر- اغرب عن وجهي.

- لماذا لم تخبرهم بأنني أنا الذي أبلغتُ غامبوا عنهم.

أطلق النَّمِر ضحكته التي تشي بالاحتقار، وتخلو مِن البهجة، تلك الضحكة التي لم يكُن ألبِرتو قد سمعها منذ وقعَت الأمور الأخيرة كلها. وفي العتمة، سمع دبيب أقدام متناهية الصغر تركض بسرعة مذهلة. «الجرذان تخاف من ضحكته»، مضى يفكِّر.

- أتحسب الناس كلهم مثلك؟ -سأل النَّمِر- أنت مخطئ. لستُ واشيًا، ولا أتحدَّث إلى الوشاة. اذهب مِن هنا.

- أتتركهم يظنّون بأنك أنت الفاعل؟ -فُوجِئ ألبِرتو بنفسه وهو يتحدَّث إليه باحترام، في ما يشبه المودّة- لماذا؟

- لقد علَّمتُهم جميعًا كيف يصبحون رجالًا. -قال النَّمِر- أتحسبني أكترث لأمرهم؟ لا يهمّني حتى لو غرقوا كلهم في الخراء. لا أكترث لما يظنّون هم، أو أنت. اغرب عن وجهي.

- يا نَمِر، لقد جئتُ باحثًا عنك حتى أعرب لك عن أسفي على ما حدث. -قال ألبِرتو- أنا آسف بشدة.

- هل ستبكي؟ -سأل النَّمِر- الأفضل ألَّا تكلِّمني مرة أخرى. قلتُ لك إنني لا أريد أن أعرف عنك شيئًا.

- لا تتصرَّف هكذا. -قال ألبِرتو- أريد أن أكون صديقًا لك. لقد قلتُ لهم إنني أنا الذي أبلغتُ عنهم، لا أنت. فلنكُن صديقَيْن.

- لا أريد أن أكون صديقًا لك. -قال النَّمِر- أنت مُجرَّد واشٍ تعيس، تصيبني بالغثيان. اذهب مِن هنا.

في هذه المرة أذعن ألبِرتو. لم يعُد إلى الثكنة. وإنما تمدَّد فوق الحشائش في الأرض الخلاء، حتى انطلقَت الصفارة إيذانًا بموعد الطعام.

خاتمة

«هوذا الاضمحلال يهيمن على كل ذرّية».

كارلوس خيرمان بيلي

وصل الملازم غامبوا إلى باب أمانة الفرقة بينما راح الرائد غارّيدو يضع دفترًا في إحدى الخزائن، وقد أولاه ظهره. كانت ربطة العنق مشدودة إلى حدٍّ جعل قميصه يبدو مُجعَّدًا. بادره غامبوا قائلًا «صباح الخير»، فالتفت إليه الرائد.

- مرحبًا يا غامبوا. -قال باسمًا- هل أنت مُستعِدّ للرحيل؟

- نعم، سيدي الرائد. -دخل الملازم إلى الحجرة، بزيّ الخروج. خلع القبعة: فظهر خطٌّ رفيع يطوِّق جبينه وصدغَيْه ومُؤخَّر عنقه في دائرة تامة- لقد ودَّعتُ الكولونيل وقائد الوحدة والعميد. لم يعُد ينقصني إلَّا أن أودِّعك.

- متى يحين موعد السفر؟

- غدًا، في الصباح الباكر. ولكن ما زالت أمامي أشياء كثيرة أؤدِّيها.

- لقد ارتفعَت درجات الحرارة. -قال الرائد- ينتظرنا صيفٌ حار في هذا العام، سوف نحترق. -ضحك- ولكن ذلك لا يهمّك في شيء، فسيَّان الصيف والشتاء في لاپونا!

- دعنا نتبادل المواقع، ما دمتَ لا تحبّ القيظ. -قال غامبوا مازحًا- هكذا أبقى في موقعك وتذهب أنت إلى خولياكا.

- ما كنتُ لأفعلها مقابل ذهب العالَم كله. -قال الرائد ممسكًا بذراعه- تعالَ، أدعوك إلى كأس مِن الشراب.

خرجا. وعلى باب إحدى الثكنات، وجدا طالبًا يعدّ كومةً من الثياب. كان يحمل شارات أمناء الثكنات الأرجوانية.

- لماذا تغيَّب هذا الطالب عن الدرس؟ -سأل غامبوا.

- لا يمكنك أن تسيطر على طباعك. -قال الرائد، مبتهجًا- ماذا يهمّك الآن من أمر الطُّلَّاب؟

- أنت على حقّ، سيدي الرائد. يكاد الأمر يغدو عادة سيئة.

دخلا إلى مطعم الضُبَّاط، فطلب الرائد بيرة. ملأ الكأسَيْن بنفسه. وشرب كلٌّ منهما في صحة الآخر.

- لم أذهب إلى لاپونا أبدًا. -قال الرائد- ولكني أعتقد بأنها ليسَت بالمكان السيئ. يمكن الذهاب إليها بالقطار أو السيارة مِن خولياكا. ومن هناك يمكن أن يهرب المرء في رحلة إلى آريكيپا، بين حين وآخر.

- أجل. -قال غامبوا- سوف أتعوَّد الحال.

- آسفٌ لك بشدة. -قال الرائد- أقدِّرك حقّ قدرك يا غامبوا، وإن لم تصدِّقني في ما أقول. تذكَّرْ أنني قد حذَّرتُك. أتعرف تلك المقولة؟ «مَن لعِب مع الصغار...». ولا تنسَ في المستقبل أن المرء لا يلقي دروسًا في اللوائح على الرؤساء، بل على المرؤوسين.

- لا أحبّ أن يشفق عليَّ الآخرون، سيدي الرائد. لم ألتحق بالعسكرية حتى أنعم بحياة يسيرة. سيان عندي حامية خولياكا والمدرسة العسكرية.

- ذلك أفضل كثيرًا. حسنًا، دعنا لا نتجادل. في صحتك.

شربا ما تبقَّى من البيرة في الكأسَيْن، ثم ملأهما الرائد مِن جديد. تراءَت الأرض الخلاء مِن خلال النافذة. وبدَت الحشائش

أعلى وأوضح. مرَّت الفِكّونة عدة مرات وهي تركض في هياجٍ شديد، وتتلفَّت إلى كل الجوانب بعينَيْها المفعمتَيْن بالذكاء.

- إنه القيظ. -قال الرائد، مشيرًا إلى الحيوان بإصبعه- لم تألف القيظ. في الصيف الماضي كاد يجنّ جنونها.

- سوف أرى فِكّونات كثيرة. -قال غامبوا- ولعلّني أتعلَّم لغة الكيتشوا المحلية.

- هل لديك زملاء في خولياكا؟

- مونيوس. إنه الزميل الوحيد هناك.

- مونيوس الحمار؟ إنه رجل طيب. ولكنه سكّير ضائع!

- أريد أن أطلب منك معروفًا، سيدي الرائد.

- بالطبع يا رجل، قُلْ ولا تتردَّد.

- إنه أحد الطُلَّاب. أحتاج إلى أن أتكلَّم معه على انفراد، في الشارع. هلَّا أعطيتَه إذنًا بذلك؟

- كم تستغرق؟

- نصف ساعة في أقصى تقدير.

- آها! -قال الرائد، وقد رسم على وجهه ابتسامة خبيثة- آها!

- إنها مسألة شخصية.

- لاحظتُ ذلك. هل ستضربه؟

- لا أدري. -قال غامبوا، باسمًا- ربما.

- ألبِرتو فِرنانديس؟ -سأل الرائد، بصوت خافت- الأمر لا يستحقّ العناء. يمكن النيل منه بطرق أفضل. سوف أتولَّى أمره بنفسي.

- ليس هو. -قال غامبوا- بل الآخر. على كل حال، لم يعُد في وسعك أن تفعل له شيئًا.

- لا شيء؟ -قال الرائد، في جديَّة بالغة- وماذا لو رسب هذا العام؟ أيبدو لك ذلك شيئًا هينًا؟

- لقد فات أوان ذلك. -قال غامبوا- بالأمس انتهَت الاختبارات.

- لا يهمّ. -قال الرائد- ليس للأمر أدنى أهمية، فالشهادات لم تصدر حتى الآن.

- هل أنت جادّ في ما تقول؟

استعاد الرائد مزاجه الرائق دفعةً واحدة:

- أمزحُ يا غامبوا. -قال ضاحكًا- لا تخَف. لن أرتكب شيئًا مُجحِفًا. خذ الطالب وافعل به ما يحلو لك. ولكن، إياك وأن تمسّ وجهه. لا أريد مزيدًا من الفوضى.

- أشكرك، سيدي الرائد. -اعتمر غامبوا القبعة- والآن يجب عليَّ أن أذهب. أراك قريبًا، أتمنَّى.

شدّ كلٌّ منهما على يد الآخر. ذهب غامبوا إلى الفصول، وهناك تكلَّم مع أحد ضُبَّاط الصف، ثم رجع إلى نقطة الحراسة، حيث كان قد ترك حقيبته. خرج الملازم المناوب للقائه.

- غامبوا، لقد وصل تلغراف مِن أجلك.

فتح التلغراف وقرأه سريعًا. ثم احتفظ به في جيبه. جلس على الدكّة، فقام الجنود وتركوه جالسًا وحده. تجمَّد مكانه، شارد النظرات.

- أخبار سيئة؟ -سأله الضابط المناوب.

- كلّا، كلّا. -قال غامبوا- شؤون عائلية.

أشار الملازم إلى واحد مِن الجنود حتى يعدّ القهوة، وسأل غامبوا إن كان يريد فنجانًا، فقبل بإيماءة مِن رأسه. ما هي إلّا لحظة

حتى ظهر النَّمِر عند باب نقطة الحراسة. شرب غامبوا القهوة دفعة واحدة، ثم قام:

- سوف يخرج هذا الطالب معي للحظات. -قال غامبوا لضابط الحراسة- لديه إذن من الرائد.

أخذ حقيبته وخرج إلى جادة لاكوستانيرا. مشى فوق الأرض المُعبَّدة، على حافة الهاوية. مضى النَّمِر في أثره، على مسافة بضع خطوات. مضيا قدمًا إلى جادة لاسپالميراس. وحين غابت المدرسة عن ناظرَيْهما، ترك غامبوا حقيبته أرضًا. ثم أبرز ورقةً من جيبه.

- ماذا تعني هذه الورقة؟ -سأله.

- كل شيء في غاية الوضوح، سيدي الملازم. -أجاب النَّمِر- ليس لديَّ ما أضيفه.

- لم أعُد ضابطًا في المدرسة. -قال غامبوا- لماذا توجَّهتَ إليَّ أنا بهذا الكلام؟ لماذا لم ترسله إلى رائد الفرقة؟

- لا أريد أن أعرف عن الرائد شيئًا. -قال النَّمِر، وقد شحب قليلًا، وتهرَّبَت عيناه الزاهيتان مِن نظرات غامبوا. لم يكُن هناك أحد بالقرب منهما. تعالى هدير البحر قريبًا جدًّا. مسح غامبوا جبينه وأزاح القبعة إلى الوراء: فظهر الخطّ الرفيع تحت حافة القبعة، أشدّ حمرةً وعمقًا من باقي الخطوط المرسومة على جبينه.

- لماذا كتبتَ هذا الكلام؟ -كرَّر سؤاله- لماذا فعلتَها؟

- لا أهمية لذلك. -قال النَّمِر، بصوت رقيق، وديع- كل ما يجب عليك عمله أن تأخذني إلى الكولونيل. لا أكثر.

- أتحسب أن الأمور سوف تُحَلّ بكل سهولة كما حدث في المرة الأولى؟ -سأل غامبوا- أتحسب ذلك؟ أم أنك تريد أن تتسلَّى على حسابي؟

- لستُ غبيًّا. -قال النَّمِر، ثم حانت منه لفتة ازدراء- ولكني لا

أخشى أحدًا، سيدي الملازم، فلتعلم ذلك. لا أخشى الكولونيل ولا غيره. لقد دافعتُ عنهم مِن طُلَّاب الفرقة الرابعة عندما التحقوا بالمدرسة. كانوا يرتعدون خوفًا مِن المعمودية، ويرتجفون كالنساء، فعلَّمتُهم أن يصبحوا رجالًا. ولكنهم قد غدروا بي عند أول فرصة. إنهم... أتدري؟ إنهم مُجرَّد ثلة من التعساء، الخونة. تلك هي حقيقتهم. كلهم. لقد سئمتُ المدرسة، سيدي الملازم.

- كفاك حكايات من نسج الخيال. -قال غامبوا- صارحني بالحقيقة، لماذا كتبتَ هذه الورقة؟

- يحسبونني واشيًا. -قال النَّمِر- أتفهم ما أقول؟ لم يحاولوا حتى التأكُّد مِن الحقيقة، لم يفعلوا شيئًا. ما كاد المسؤولون يفتِّشون خزائن الثياب حتى غدر بي أولئك الجاحدون. هل رأيتَ جدران الحمامات؟ «النَّمِر واشٍ»، «النَّمِر جبان»، في كل مكان. مع أنني قد فعلتُ ما فعلتُ مِن أجلهم، هذا أسوأ ما في الأمر. وماذا جنيتُ؟ قُلْ لي، سيدي الملازم. لا شيء، أليس كذلك؟ لقد فعلتُ كل شيء مِن أجل القسم. لا أريد أن أبقى معهم دقيقة أخرى. كانوا في مقام عائلتي، لعلّ ذلك هو السبب الذي جعلني أشدّ نفورًا منهم الآن.

- ليس صحيحًا. -قال غامبوا- أنت كاذب. لو كنتَ تأبه لرأي رفقائك إلى هذا الحدّ، فهل تفضِّل أن يعرفوا عنك أنك قاتل؟

- ليس الأمر أنني أكترث لرأيهم. -قال النَّمِر وقد صمّ أذنَيْه- الشيء الذي يصيبني بالغثيان هو الجحود، لا أكثر.

- لا أكثر؟ -سأل غامبوا، راسمًا على وجهه ابتسامة ساخرة- للمرة الأخيرة أطلبُ منك أن تصارحني بالحقيقة. لماذا لم تخبرهم بأن الطالب ألبِرتو فِرنانديس هو الذي أبلغ عنهم؟

تقلَّص جسد النَّمِر كله، وكأنما قد بُوغِت بوخزة في أحشائه.

- ولكن ألبِرتو أمره مختلف. -قال، بصوت أجشّ، بمشقة-

الأمر يختلف، سيدي الملازم. لقد غدر بي الآخرون لأنهم مُجرَّد جبناء. أما هو، فلقد أراد أن ينتقم للعَبْد. يظلّ واشيًا، ولطالما كان ذلك شيئًا مثيرًا للشفقة، ولكنه قد فعل ما فعل انتقامًا لصديقه، ألا ترى الفارق، سيدي الملازم؟

- اذهب. -قال غامبوا- لستُ على استعداد لإهدار مزيد من الوقت معك. لا تهمّني أفكارك عن الوفاء والانتقام.

- أنا عاجز عن النوم... -تلعثم النَّمِر- إنها الحقيقة، سيدي الملازم، أقسمُ لك بكل مُقدَّس. لم أكُن أعرف ما الذي يعنيه أن يعيش المرء منسحقًا. لا تغضب وحاول أن تفهمني، لم أطلب منك الكثير. كلهم يقولون: «إن غامبوا أشدّ الضُبَّاط صرامة، ولكنه العادل الوحيد بينهم»، فلماذا لا تنصت إلى ما أقول؟

- حسنًا. -قال غامبوا- هأنذا أنصت إليك. لماذا قتلتَ ذلك الفتى؟ ولماذا كتبت هذه الورقة؟

- لأنني قد أخطأتُ بشأن الآخرين، سيدي الملازم. أردتُ أن أخلِّصهم من ذلك الفتى. فكّرْ في ما حدث، ترَ أن أي شخص في موقعي كان عرضة للوقوع في مثل هذا الخطأ. لقد تسبَّب في طرد كابا لمُجرَّد أن يخرج إلى الشارع بضع ساعات، لم يهمّه أن يخرِّب حياة أحد رفقائه لمُجرَّد أن يحصل على إذن بالخروج. أي شخص في موقعي كان ليشمئز من ذلك.

- ولماذا عدلتَ الآن عن رأيك؟ -سأل الملازم- لماذا لم تخبرني بالحقيقة عندما استجوبتُك؟

- لم أعدل عن رأيي. -قال النَّمِر- كل ما في الأمر أنني... -تردَّد لحظةً، ثم حانَت منه إيماءة وكأنها لنفسه- الآن صرتُ أتفهَّم العَبْد أفضل مِن ذي قبل. فهو لم يجد فينا رفقاء، وإنما أعداء. ألم أقُل لك إنني لم أكُن أعرف ما الذي يعنيه أن يعيش المرء منسحقًا؟

كلنا قد ضيَّقنا عليه الخناق، وأسرفنا في ذلك، إنها عين الحقيقة، ولقد تمادَيتُ أنا أكثر مِن الآخرين. لا أستطيع أن أنسى وجهه، سيدي الملازم. أقسمُ لك إنني، في قرارة نفسي، لا أدري كيف فعلتُ ما فعلت. لقد خطر لي أن أضربه، وأروِّعه. ولكني رأيتُه صبيحة ذلك اليوم هناك، على الجبهة، مرفوع الرأس، فصوَّبتُ إليه. أردتُ أن أنتقم للقسم. وكيف أعرف أن الباقين أسوأ منه، سيدي الملازم؟ أعتقد بأن الأفضل أن أذهب إلى السجن. لقد تنبَّأ لي الجميع بتلك النهاية... أمّي، وحتى أنت. الآن يمكنك أن تبقى مرتاح البال، سيدي الملازم.

- لا أستطيع أن أتذكَّره. -قال غامبوا، فنظر إليه النَّمِر حائرًا- أقصد، لا أتذكَّر حياته طالبًا في المدرسة العسكرية. أتذكَّر الباقين بوضوح، سلوكهم في التدريبات الميدانية، وطريقتهم في ارتداء الزي العسكري. أما آرانا، فلا أتذكَّره. مع أنه قد أمضى ثلاثة أعوام في كتيبتي.

- لا تقدِّم إليَّ النصائح. -قال النَّمِر، وقد اختلط عليه الأمر- لا تقُل لي شيئًا، أتوسَّل إليك. لا يروقني أن...

- لم أكُن أتحدَّث إليك. -قال غامبوا- لا تقلق، لم أفكِّر في أن أقدِّم إليك نصيحةً واحدة. اذهب. عُدْ إلى المدرسة. لديك إذن بالخروج نصف ساعة فحسب.

- سيدي الملازم. -قال النَّمِر. ولثانية، ظلّ فاغر الفم، ثم كرَّر-: سيدي الملازم...

- لقد انتهَت قضية آرانا. -قال غامبوا- والجيش لا يريد أن تُقال كلمة أخرى عن تلك المسألة. ولا يمكن لشيء واحد أن يبدِّل ذلك. بل إن قيام الطالب آرانا من بين الأموات أسهل مِن إقناع الجيش بأنه قد وقع في خطأ.

- ألن تأخذني إلى الكولونيل؟ -سأله النَّمِر- لو فعلتَ لما أرسلوك إلى خولياكا، سيدي الملازم. لا تنظر إليَّ هكذا، أتحسبني لم أدرك أنك قد وقعتَ في ورطة بسبب تلك المسألة؟ خذني إلى الكولونيل.

- أتعرف ما الأهداف عديمة الجدوى؟ -سأل غامبوا.

- ماذا تقول؟ -غمغم النَّمِر.

- متى استسلم العدو وبات منزوع السلاح، فلا يليق بمقاتل أهل للمسؤولية أن يطلق عليه النار. ليس هذا لأسباب أخلاقية فحسب، بل لأسباب عسكرية واقتصادية أيضًا. حتى في الحرب يجب ألَّا يسقط القتلى من دون جدوى. أنت تفهم ما أعنيه، اذهبْ إلى المدرسة، واعملْ جاهدًا في المستقبل حتى لا يذهب موت الطالب آرانا هدرًا.

مزَّق الورقة التي كانت في يده وألقاها على الأرض.

- اذهب. -أردف- لقد اقتربَت ساعة الغداء.

- ألن تعود، سيدي الملازم؟

- كلّا. -قال غامبوا- ربما التقينا ذات يوم. وداعًا.

التقط حقيبته ومضى مبتعدًا عَبْر جادة لاسپالميراس، في اتجاه بيابيستا. ظلّ النَّمِر ينظر إليه لحظةً. ثم لملم بقايا الورق المتناثرة عند قدمَيْه. كان غامبوا قد مزَّق الورقة نصفَيْن، فبات من السهل أن تُقرَأ لو ضُمّ الشطران بعضهما إلى بعض. فُوجِئ بالعثور على ورقة أخرى مُمزَّقة فضلًا عن ورقة الدفتر التي كان النَّمِر قد دوَّن فيها: «سيدي الملازم غامبوا: أنا الذي قتلتُ العَبْد. يمكنك أن تقدِّم تقريرًا بذلك وأن تأخذني إلى الكولونيل». أما الشطران الآخران فكانا يؤلِّفان تلغرافًا جاء فيه: «قبل ساعتَيْن وُلِدَت بنت. روسا بخير حال. مبارك. ستصلك رسالة. أندريس». مزَّق الأوراق نتفًا صغيرة وراح ينثرها

ماضيًا إلى الجرف. وفي طريقه عرَّج على بيت ضخم يضمّ حديقة خارجية شاسعة. كان ذلك هو البيت الذي سرق فيه لأول مرة. تابع سيره حتى وصل إلى لاكوستانيرا. نظر إلى البحر المترامي تحت قدمَيْه. تراءى البحر أقل رماديةً من المعتاد. أما الأمواج فكانت تتكسَّر على الضفة، ولا تلبث أن تموت.

*

سطع ضوء أبيض ثاقب، وكأنه ينبعث من أسطح البيوت ويتصاعد رأسيًّا إلى السماء الخالية من السحب. أحسّ ألبِرتو بأن عينَيْه سوف تتفجَّران من شدة الضوء المنعكس لو أمعن النظر إلى واحدة من تلك الواجهات ذات النوافذ الواسعة التي تمتصّ أشعة الشمس وتعكسها وكأنها قطع إسفنج مُتعدِّدة الألوان. سال العرق من جسده تحت القميص الحريري الخفيف. اضطُرّ إلى مسح وجهه بالمنشفة طوال الوقت. خلَت الجادة مِن المارة، وذلك شيء غريب: فعادة ما يكون موكب السيارات المُتَّجِهة إلى الشواطئ قد انطلق بحلول تلك الساعة. نظر إلى ساعته: فلم يرَ الوقت، وإنما بقيت عيناه مأخوذتَيْن بذلك البريق المذهل الآتي من العقارب، والدائرة، والمفتاح، والسلسلة الذهبية. كانت ساعة رائعة الجمال، من الذهب الخالص. ليلة أمس، قال له پلوتو في منتزه سالاسار: «تبدو وكأنها ساعة توقيت»، فأجابه قائلًا: «إنها ساعة توقيت بالفعل! وإلَّا فلماذا تحسبها مُزوَّدة بأربعة عقارب ومفتاحَيْن؟ أضف إلى ذلك أنها مقاومة للماء والصدمات». لم يصدِّقه الآخرون، فخلع الساعة وقال لمارسيلا: «ألقيها إلى الأرض حتى يروا!». لم تواتِها الجرأة، فراحت تطلق صيحات قصيرة حادة، بينما أخذ پلوتو وإيلينا وإميليو وبيبيه وپاكو يشجِّعونها. «حقًّا؟ هل ألقيها حقًّا؟». «نعم»، قال لها ألبِرتو، «هيا، ألقيها أخيرًا!». أفلتَت الساعة، فسكت الجميع،

وتمنَّت سبعة أزواج من العيون المُتلهِّفة أن تتحطَّم الساعة وتغدو ألف شظية. ولكن كل ما في الأمر أنها قد ارتدَّت عن الأرض قليلًا. ثم التقطها ألبِرتو: فوجدها لم تُمَسّ، ولم يصِبها خدش واحد، بل إنها ما زالت تعمل. بعد ذلك غمس الساعة بيده في نافورة المنتزه الصغيرة حتى يثبت لهم أنها مقاومة للماء. ابتسم ألبِرتو، ومضى يفكِّر: «اليوم أغتسلُ في لاإرادورا والساعة حول معصمي». كان والده، حين أهداه الساعةَ عشية عيد الميلاد، قد أخبره بأنها: «مكافأة على التقديرات الممتازة في الاختبارات. أخيرًا أصبح أداؤك يليق باسم العائلة. أشكّ في أن تكون لأحد أصدقائك ساعة كهذه. لك أن تفتخر بذلك». وبالفعل، صارت الساعة محور الحديث الذي دار في المنتزه ليلة أمس. «إن أبي خبير في الحياة بحقّ»، فكَّر ألبِرتو.

انعطف إلى جادة بريمابيرا. شعر بالسرور والحماسة وهو يسير وسط تلك البيوت الشاسعة ذات الحدائق الوارفة، بينما غمره بريق الأرصفة. تسلَّى بمشهد نباتات الضوء والظلّ المُتسلِّقة التي تزحف صعودًا على جذوع الأشجار أو تختلج فوق الأغصان. «الصيف بديع»، فكَّر. «غدًا يأتي يوم الإثنين، ولكن اليوم وغدًا سيَّان. سوف أقوم في التاسعة، وأمرُّ بمارسيلا، ثم نذهب إلى الشاطئ، وفي المساء أذهب إلى السينما، وفي الليل إلى المنتزه. وهكذا يوم الثلاثاء، والأربعاء، والخميس، وكل يوم حتى نهاية الصيف. بعد ذلك لن أُضطَرّ إلى العودة إلى المدرسة، بل إنني سوف أعدّ حقائبي. وأنا مُتأكِّد مِن أن الولايات المُتَّحِدة سوف تسحرني»، أخذ يفكِّر. ومرة أخرى، نظر إلى الساعة التي أشارت عقاربها إلى التاسعة والنصف. ما دامت الشمس ساطعة في هذه الساعة، فكيف تغدو في الثانية عشرة؟ «إنه يوم رائع للذهاب إلى الشاطئ»، فكَّر. مضى يحمل

بيده اليمنى ثياب السباحة ملفوفةً في منشفة خضراء تتخلّلها خطوطٌ بيضاء. اتّفق مع پلوتو على أن يمرّ به في العاشرة، ولكن ألبِرتو قد وصل مُبكِّرًا. لطالما وصل إلى لقاءات الحيّ مُتأخِّرًا، قبل التحاقه بالمدرسة العسكرية. والآن انقلبَت الحال، وكأنه يودّ أن يستردّ الوقت الضائع. لم يصدِّق أنه قد أمضى صيفَيْن حبيسًا في بيته، من دون أن يرى أحدًا! ولكن الحيّ قريب جدًّا، وفي يده أن يخرج أي صباح، فيذهب إلى ناصية كولون ودييغو فيرّيه، ويستأنف صداقاته ببضع كلمات. «مرحبًا. لم أتمكَّن من رؤيتكم في هذا العام بسبب المدرسة الداخلية. أمامي ثلاثة أشهر مِن الإجازات التي أودّ أن أقضيها معكم، مِن دون أن أفكِّر في العقوبات ورجال العسكرية والثكنات». ولكن، فيمَ يهمّ الماضي الآن وقد بسط النهارُ حوله واقعًا مضيئًا يشمله بالحماية، الآن وقد تراءت الذكريات السيئة كالثلوج التي أذابَتها الحرارة الضاربة إلى الصفرة؟

غير صحيح، لأن ذكرى المدرسة ما زالَت توقظ في نفسه شعورًا لا مفرّ منه، شعورًا قاتمًا، مُنفِّرًا، يخيِّم عليه فتنقبض روحُه كما تنقبض أوراق نبتة المِموزة إذا لمسها البشر. ولكن ذلك الشعور بالضيق بات أسرع وأسرع زوالًا، وكأنه حبة رمل عابرة تتسلَّل إلى العين. لقد تعافى الآن. قبل شهرَيْن، كان يتعكَّر مزاجه لوقت طويل، وتلاحقه مشاعر الحيرة والاستياء طوال اليوم، كلَّما لاحَت في ذاكرته مدرسة ليونسيو پرادو. أما الآن، فصار قادرًا على استحضار ذكريات كثيرة وكأنها مشاهد في أحد الأفلام. وبات يمضي أيامًا كاملة لا يتذكَّر خلالها وجه العَبْد.

بعد أن عَبَر جادة پِتيت توار، عرَّج على البيت الثاني، وأطلق صفيرًا. فاضَت حديقة المدخل بالأزهار، وتلألأ النجيل الرطب. «سأنزل حالًا!»، صاح صوت فتاة. تلفَّت إلى كل جانب، فلم يجد

أحدًا. لا بدّ أن مارسيلا قد صارَت على الدَّرَج الآن. أتسمح له بالدخول؟ عزم ألبِرتو على دعوتها إلى نزهة حتى الساعة العاشرة، وهكذا يتمشَّيان صوب خطّ الترام، تحت أشجار الجادة. يمكنه أن يقبِّلها. ظهرَت مارسيلا في نهاية القسم الخلفي مِن الحديقة، جاءت ترتدي سروالًا وبلوزة فضفاضة مُخطَّطة باللونَيْن الأسود والأحمر القاني. ابتسمَت له، فقال ألبِرتو في نفسه: «ما أجملها!». تجلَّى التوازن بين دكنة عينَيْها وشعرها، وبين بياض بشرتها الشاهق.

- مرحبًا. -قالت مارسيلا- لقد جئتَ قبل موعدك.

- لو شئتِ يمكنني أن أغادر. -قال. شعر بأنه يملك زمام نفسه. في البدء، ولا سيما في الأيام التي أعقبَت ذلك الحفل حيث طلب من مارسيلا أن تواعده، أحسّ بقليل مِن الرهبة في عالَم طفولته الذي عاد إليه بعد انقطاع معتم باعد بينه وبين تلك الأشياء الجميلة طوال ثلاثة أعوام. أما الآن، فلقد أصبح واثِقًا مِن نفسه طوال الوقت، قادرًا على المزاح بلا توقُّف، والنظر إلى الآخرين نظرة الندّ إلى الندّ، بل وبشيء مِن التفوُّق في بعض الأحيان.

- أبله. -قالت له.

- هلَّا ذهبنا في جولة؟ ما زال أمام پلوتو نصف ساعة.

- حسنًا. هيَّا بنا. -قالت مارسيلا. ورفعَت إصبعها إلى صدغها. إلَامَ تلمِّح؟- أبي وأمي نائمان. ذهبا إلى حفل في آنكون ليلة أمس. ولم يعودا حتى ساعة مُتأخِّرة جدًّا. بينما عدتُ أنا مِن المنتزه قبل التاسعة.

ابتعدا عن البيت بضعة أمتار، فأمسك ألبِرتو بيدها.

- هل رأيتِ الشمس الساطعة! -قال- إنها رائعة للذهاب إلى الشاطئ.

- يجب عليَّ أن أخبرك بشيء. -قالت مارسيلا. نظر ألبِرتو

إليها فوجد أنها قد رسمَت ابتسامة فاتنة في شقاوتها، بينما أطلّ من وجهها أنفٌ دقيق جريء. فكَّر ألبِرتو: «إنها رائعة الجمال».

- ماذا؟

- ليلة أمس تعرَّفتُ بحبيبتك.

أهي مزحة؟ ما زال لم يألف الوضع تمام الألفة، وكان يشعر بالضياع والعمى في بعض الأحيان، متى لمَّح أحدهم تلميحًا يفهمه أبناء الحيّ كلهم إلَّا هو. وفي هذه الحالة لا يتمكَّن مِن الردّ على المزاح بمثله: فكيف يمازحهم بدعابات الثكنات؟ دهمَته صورة مُخزِية: رأى فيها النَّمِر وكوبرا يبصقان على العَبْد الذي شُدّ وثاقه إلى أحد الأسِرّة.

- مَن؟ -سأل، بحذر.

- تيريسا. -قالت مارسيلا- تلك التي تسكن في لينسيه.

أما القيظ الذي كان ألبِرتو قد نسي أمره، فلقد حضر فجأةً، وكأنه شيء عدواني، ساحق، ذو سطوة مُطلَقة. أحسّ بالاختناق.

- أتقولين تيريسا؟

ضحكَت مارسيلا:

- لماذا تحسب أنني قد سألتُك أين تعيش؟ -تكلَّمَت بنبرة انتصار، مزهوةً ببطولتها- لقد أخذني بلوتو إلى هناك بسيارته، بعد أن غادرنا المنتزه.

- إلى بيتها؟ -تلعثم ألبِرتو.

- نعم. -قالت مارسيلا، وعيناها السوداوان تتوهَّجان- أتدري ماذا فعلت؟ طرقتُ الباب. وفتحَت لي بنفسها. سألتُها إن كانت سنيوره غريلوت تعيش هناك. تعرف مَن أقصد، أليس كذلك؟ إنه اسم جارتي. -سكتَت لحظة- وهكذا وجدتُ مُتَّسعًا مِن الوقت لرؤيتها.

حاول أن يرسم على وجهه ابتسامة. ثم قال، بصوت خافت: «أنتِ مجنونة». ولكن ذلك الشعور بالضيق قد دهمه مرة أخرى. شعر بالإهانة.

- قُلْ لي، هل وقعتَ في حبّ تلك الفتاة؟ -سألَت مارسيلا، بصوت في غاية العذوبة والخبث.

- كلّا. -قال ألبِرتو- بالطبع لا. ولكن تلك أشياء حدثَت وأنا طالب في المدرسة.

- إنها قبيحة. -قالت مارسيلا، وقد انزعجَت بحدّة- مُبتذَلة وقبيحة.

على الرغم من الارتباك، شعر ألبِرتو بالرضى عن نفسه، وأخذ يفكّر: «إنها تحبّني بجنون. وتكاد تموت مِن فرط الغيرة».

- تعرفين أنني لا أحبّ سواك. ولم أحبّ أحدًا كما أحبُّك.

ضمَّت مارسيلا يده بيدها، فوقف مكانه. مدّ ذراعه إلى كتفها حتى يجذبها إليه، غير أنها تمنَّعَت مُتلفِّتةً بوجهها، مُتلصِّصةً بعَينَيْها المرتابتَيْن على الأمكنة المحيطة. لم يكُن هناك أحد. لامس ألبِرتو شفتَيْها بشفتَيْه برقّة. ثم تابعا سيرهما.

- ماذا قالَت لكِ؟ -سأل ألبِرتو.

- هي؟ -ضحكَت مارسيلا ضحكة نقية، رائقة- لا شيء. قالَت لي إن سنيوره لا أدري ما اسمها تعيش هناك. أخبرَتني باسم في منتهى الغرابة، حتى إنني لا أذكره. وجد پلوتو الأمر في غاية الطرافة. وبدأ يقول أشياء مِن مكانه في السيارة، بينما أوصدَت هي الباب. وهذا كل شيء. هل عاودتَ رؤيتها؟

- كلّا. -قال ألبِرتو- بالطبع لا.

- قُلْ لي، هل كنتما تتمشّيان معًا في منتزه سالاسار؟

- لم أجد حتى ما يكفي من الوقت لذلك. لم أرَها سوى بضع مرات، إما في بيتها وإما في ليما. لم أرَها في ميرافلوريس قطّ.

- ولماذا خاصمتَها؟ -سألَت مارسيلا.

جاء سؤالها على غير المُتوقَّع: فتح ألبِرتو فمه، ولكنه لم يقُل شيئًا. وكيف يفسِّر لمارسيلا شيئًا هو نفسه لا يفهمه تمام الفهم؟ لقد شكَّلَت تيريسا جزءًا مِن تلك الأعوام الثلاثة التي أمضاها في المدرسة العسكرية، وكانت واحدة مِن تلك الجثث الهامدة التي لا يجدر به أن يردّها إلى الحياة.

- لا شيء. -قال- كل ما في الأمر أنني قد تخرَّجتُ، فأدركتُ أنها لا تروقني، ولم أعاود رؤيتها.

وصلا إلى خطّ الترام، وسارا عَبْر جادة ريدوكتو. وضع ذراعه على كتفها: أحسَّ تحت يده بنبضات بشرتها الناعمة الدافئة التي يجب عليه أن يلمسها بحذر، وكأنها على وشكّ أن تتفتَّت. لماذا أخبر مارسيلا بقصة تيريسا؟ كل أبناء الحيّ يتكلَّمون عن عشيقاتهم، حتى مارسيلا قد واعدَت فتى مِن سان إسيدرو. لم يرِد أن يترك في نفسها انطباعًا بأنه مبتدئ. لقد اكتسب قدرًا مِن الوجاهة في الحي لأنه عائدٌ مِن مدرسة ليونسيو پرادو، وصار يُنظَر إليه بوصفه الابن الضال الذي عاد أدراجه إلى البيت بعد أن عاش مغامرة حافلة. ماذا كان يحدث لو أنه لم يلتقِ فتيان الحي ليلتذاك، على ناصية شارع دييغو فيرّيه؟

- إنه شبح! -قال پلوتو- أجل، إنه شبح بحقّ!

عانقه بيبيه، وابتسمَت له إيلينا، بينما راح تيكو يقدِّمه إلى آخرين لا يعرفهم، وقالت مولي: «لم نرَه منذ ثلاثة أعوام، لقد نسينا»، ونعته إميليو بـ«الجاحد» بينما هو يربِّت على ظهره بمودة.

- إنه شبح! -كرَّر پلوتو- ألا تخافون منه؟

جاء بثياب مدنية، في حين استلقَت ثيابه العسكرية على أحد المقاعد، وتدحرجَت قبعته على الأرض. كانت أمّه قد خرجَت، فأثار البيتُ الخالي في نفسه شعورًا بالحنق، وراودَته رغبةٌ في التدخين. لم يمضِ على حريته أكثر مِن ساعتَيْن. أما الاحتمالات اللامتناهية التي يمكن أن يشغل بها وقته، فلقد أورثَته شعورًا بالحيرة. «سوف أذهب لأشتري السجائر»، فكَّر. «وبعد ذلك أذهب إلى تيريسا». خرج، واشترى السجائر، غير أنه لم يستقلّ الإكسپريس، وإنما راح يجوب شوارع ميرافلوريس طويلًا، وكأنه سائح أو شريد: جادة لاركو، كاسر الأمواج، دياغونال، منتزه سالاسار. وفجأةً، وجد نفسه أمام بيبيه وپلوتو وإيلينا، وحلقة كبيرة من الوجوه الباسمة التي استقبلَته بالترحاب.

- لقد وصلتَ في الوقت المناسب. -قالت مولي- كان ينقصنا فتى واحد للذهاب في جولة إلى تشوسيكا. والآن اكتمل العدد، وصرنا ثمانية أزواج.

ظلّوا يتجاذبون أطراف الحديث حتى أقبل الليل، واتَّفقوا على الذهاب إلى الشاطئ في اليوم التالي معًا. وبعد أن ودَّعهم، رجع ألبِرتو إلى بيته، سائرًا ببطء، مستغرقًا في مشاغل حديثة العهد. قالت له مارسيلا (ما اسمها بالكامل؟ لم يسبق له أن رآها قطّ. كانت تعيش في جادة پريمابيرا، ثم انتقلَت إلى ميرافلوريس في الآونة الأخيرة): «ولكنك سوف تأتي معنا على كل حال، أليس كذلك؟». بليت ملابس السباحة الخاصة به، واضطُرّ إلى إقناع أمّه بأن تشتري له ملابس جديدة في اليوم التالي، في أول ساعات النهار، حتى يلبسها لأول مرة في لا إرادورا.

- أليس هذا شيئًا رائعًا؟ -قال پلوتو- إنه شبح مِن لحم ودم!

- بلى. -قال الملازم أوراينا- ولكن اذهب إلى سيادة الرائد بسرعة.

«الآن لم يعُد في يده أن يفعل شيئًا»، فكَّر ألبِرتو. «لقد تلقَّينا شهادة الدرجات. وسوف أخبره بحقيقته في وجهه». ولكنه لم يفعل، وإنما اتَّخذ وضع الانتباه وأدَّى التحية باحترام. ابتسم له الرائد، مُتفرِّسًا في زيِّه الرسمي. «هذه آخر مرة أرتديه فيها»، فكَّر ألبِرتو. ولكنه لم يتحمَّس لإمكانية الرحيل عن المدرسة إلى الأبد.

- حسنًا. -قال الرائد- امسح التراب عن حذائك. واذهبْ إلى مكتب الكولونيل في الحال.

صعد الدَّرَج وهاجسٌ يحدِّثه بكارثة وشيكة. سأله الرجل صاحب الثياب المدنية عن اسمه، ثم عجَّل بفتح الباب من أجله. كان الكولونيل جالسًا إلى مكتبه. في هذه المرة أيضًا وقف مذهولًا أمام بريق الأرض والجدران والأشياء. حتى بشرة الكولونيل وشعره بَدَوَا وكأنه قد دهنهما بالشمع.

- ادخل، ادخل أيها الكاديت. -قال الكولونيل.

ظلّ ألبِرتو مُضطرِبًا. أي شيء تخفيه تلك النبرة الودود وتلك النظرة الدمثة؟ هنَّأه الكولونيل على أدائه في الاختبارات. «أرأيت؟»، قال له. «بقليل مِن الجهد يجني المرء مكافآت جمَّة. لقد حصلتَ على تقديرات ممتازة». لم يقُل ألبِرتو شيئًا، وإنما تلقَّى المديح جامدًا، مُتربِّصًا. «في الجيش يسود العدل، طال الأجل أم قصُر»، أكَّد الكولونيل، «إنه شيء مُتأصِّل في المنظومة، لا بدّ أنك قد أدركتَ ذلك عن تجربة شخصية. دعنا نرَ، أيها الكاديت ألبِرتو فِرنانديس: لقد كنتَ على وشك أن تخرِّب حياتك، وتلوِّث اسم عائلة كريمة عريقة وتصمها بالعار. ولكن الجيش أعطاك فرصة أخيرة. لستُ نادمًا على الوثوق بك. أعطِني يدك، أيها الكاديت».

لمس ألبِرتو بيده كتلةً من اللحم الرخو، الإسفنجي. «لقد بدأتَ صفحة جديدة»، أردف الكولونيل. «صفحة جديدة، أجل. ولهذا استدعيتُك. قُلْ لي، ماذا خطَّطتَ من أجل المستقبل؟». قال له ألبِرتو إنه سوف يغدو مهندسًا. «أحسنت»، قال الكولونيل. «أحسنتَ كثيرًا، فالوطن في حاجة إلى التقنيين. أحسنتَ صنعًا، إنها مهنة مفيدة. أتمنَّى لك حظًّا سعيدًا». عند ذاك ابتسم له ألبِرتو في خجل قائلًا: «لا أعرف كيف أشكرك، سيدي الكولونيل. شكرًا جزيلًا، شكرًا جزيلًا». «يمكنك أن تنصرف الآن»، قال له الكولونيل. «آه، ولا تنسَ التسجيل في رابطة الخريجين. من الضروري أن يظلّ الطُلّاب على صلة بالمدرسة، فكلنا معًا نشكِّل عائلةً كبيرة». وقف المدير، ثم أوصله إلى الباب، وهناك فحسب تذكَّر شيئًا. «صحيح...»، قال، راسمًا خطًّا بيده في الهواء. «كدتُ أنسى تفصيلةً صغيرة». اتَّخذ ألبِرتو وضع الانتباه.

- أتذكر تلك الأوراق؟ تعرف عمَّا أتحدَّث، عن ذلك الشيء المؤسف.

خفض ألبِرتو رأسه، وغمغم قائلًا:

- أجل، سيدي الكولونيل.

- لقد وفيتُ بعهدي. -قال الكولونيل- أنا رجل صادق. لن يلطِّخ سجلّك شيء في المستقبل. لقد تخلَّصتُ من تلك المستندات.

أعرب له ألبِرتو عن امتنانه بحرارة، ثم ابتعد وهو يحني رأسه: بينما ابتسم له الكولونيل مِن مكانه عند عتبة المكتب.

- إنه شبح. -قال پلوتو- ولكنه مفعم بالحياة والنشاط!

- كفى! -قال بيبيه- كلنا في غاية السعادة بعودة ألبِرتو، ولكن اتركْ لنا فرصة حتى نتكلَّم.

- لا بدّ لنا أن نتفق على النزهة. -قالت مولي.

- طبعًا. -قال إميليو- في الحال.

- نزهة مع شبح. -قال بلوتو- يا له مِن شيء رائع!

مشى ألبِرتو عائدًا إلى بيته، مستغرقًا في ذاته، ذاهلًا، والشتاء المحتضر يودِّع ميرافلوريس بضبابٍ مفاجئ خيَّم على ارتفاع مُتوسِّط بين الأرض وقمم الأشجار في جادة لاركو. خفتَت أضواء أعمدة الإنارة حين غشيها الضبابُ الذي انتشر الآن في كل مكان، وأذاب الأشياء والأشخاص والذكريات: وجه آرانا، وجه النَّمِر، الثكنات، العقوبات، كل هذا لم يعُد مِن الحاضر، في حين رجع إلى ذاكرته جمع منسيٌّ من الفتيان والفتيات. مضى يتجاذب أطراف الحديث هو وتلك الصور، صور الأحلام، في المربع الصغير المفروش بالعشب على ناصية دييغو فيرّيه، فبدا وكأن شيئًا واحدًا لم يتبدَّل، وجد اللغة واللفتات مألوفة، والحياة في غاية التناغم والسلاسة. ومرّ الوقت خاليًا مِن الأوجال، عذبًا، مثيرًا، كهاتين العينَيْن الداكنتَيْن، عينَي الفتاة المجهولة التي أخذَت تمزح معه في مودَّة، تلك الفتاة ضئيلة القوام، الرقيقة، ذات الصوت الرائق والشعر الأسود. لم يُفاجأ أحد برؤيته هناك من جديد، وقد صار بالغًا. كلهم كبروا، رجالًا ونساء، وظهروا أكثر استقرارًا في العالَم، ولكن الأجواء لم تتبدَّل، فميَّز ألبِرتو مشاغل الماضي، الرياضة والحفلات والسينما والشواطئ والحبّ والفكاهة المُهذَّبة والشقاوة الراقية. غرقَت حجرته في العتمة. مُستلقِيًا على ظهره في الفراش، مضى ألبِرتو يحلم مفتوح العينَيْن. كانت ثوانٍ قليلة تكفي حتى يستقبله ذلك العالَم الذي قد هجره، ويفتح له أبوابه، ويحتضنه مرة أخرى من دون سؤال، وكأن المكان الذي شغله وسطهم ظلّ محجوزًا من أجله بحرص شديد طوال الأعوام الثلاثة الماضية. ها هو ذا قد استردّ مستقبله.

- ألم تخجل؟ -سألَت مارسيلا.

- ممَّ أخجل؟

- من الخروج معها إلى الشارع.

أحسّ بالدماء تتدفَّق إلى وجهه. كيف يوضح لها أنه كان أبعد ما يمكن عن الشعور بالخجل، بل إنه قد شعر بالزهو لأنه يخرج مع تيريسا أمام الجميع؟ كيف يوضح لها أن الشيء الوحيد الذي أخجله آنذاك تحديدًا أنه لم يكُن مثل تيريسا، أنه لم يكُن مِن لينسيه أو باخو إلپوينتيه؟ كيف يوضح لها أنه قد شعر آنذاك بالخزي لأنه مِن ميرافلوريس ويدرس في مدرسة ليونسيو پرادو؟

- كلّا. -قال- لم أخجل.

- إذن، فلقد وقعتَ في حبّها. -قالت مارسيلا- أكرهك.

ضمّ يدها. تلامس خصراهما، وعَبْر ذلك الاتصال العابر أحسّ ألبِرتو بدفقة مِن الرغبة. توقَّف مكانه.

- كلّا. -قالَت- ليس هنا، ألبِرتو.

ولكنها لم تمانع، فاستطاع أن يقبِّل ثغرها قبلةً مُطوَّلة. تباعدَت شفتاهما، فبدا وجه مارسيلا مأخوذًا وعيناها مُتوهِّجتَيْن.

- وماذا عن أبوَيْك؟ -سألَته.

- أبواي؟

- ما رأيهما فيها؟

- لا شيء. لم يعرفا بأمرها.

كانا في ممشى ريكاردو پالما، حيث مضيا في منتصف الدرب، تحت الأشجار السامقة التي ظلَّلَت أجزاء مِن الممشى. كان هناك بعض المارة، وبائعة أزهار تحت إحدى المظلّات. أفلت ألبِرتو كتفَ مارسيلا، ثم أمسك بيدها. وعلى مسافة بعيدة، تراءى رتلٌ مُتَّصِل من السيارات المُتَّجِهة إلى جادة لاركو. «إنهم ذاهبون إلى الشاطئ»، فكَّر ألبِرتو.

- وهل يعرفان بأمري؟ -سألَت مارسيلا.

- نعم. -أجاب- وهما في غاية السعادة. يقول أبي إنكِ رائعة الجمال.

- وماذا عن أمّك؟

- وأمّي أيضًا.

- حقًّا؟

- نعم، بالطبع. أتعرفين ماذا قال أبي منذ أيام؟ قال لي أن أدعوكِ لتذهبي معنا في نزهة إلى شواطئ الجنوب ذات أحدٍ، قبل أن أسافر. أبي وأمّي وأنتِ وأنا.

- ها أنت تفعلها، وتعود إلى هذا الحديث. -قالت.

- أوه، ولكني سأرجع كل عام. وسأقضي الإجازة كاملة هنا، ثلاثة أشهر من كل عام. كما أن فترة الدراسة قصيرة جدًّا. الولايات المُتَّحِدة تختلف عن هنا، فكل شيء هناك أسرع، وأكفأ.

- ألبِرتو، لقد وعدتَني بألّا تأتي على ذكر السفر. -قالت مُحتَجَّة- أكرهك.

- سامحيني. -قال- لم أتعمَّد ذلك. أتعرفين أن علاقة أبي وأمّي قد تحسَّنَت كثيرًا الآن؟

- أجل. لقد أخبرتَني. ألم يعُد أبوك يخرج أبدًا؟ هو الملوم في كل شيء. لا أفهم كيف تحتمله أمّك.

- الآن صار أهدأ من ذي قبل. -قال ألبِرتو- إنهما يبحثان عن بيت أكثر راحةً. ولكن أبي يهرب أحيانًا، ولا يظهر إلّا في اليوم التالي. إنه حالة ميؤوس منها.

- أنت لا تشبهه، أليس كذلك؟

- لا أشبهه. -قال ألبِرتو- فأنا في غاية الجدية.

نظرَت إليه نظرةً حانية. بينما راح ألبِرتو يفكِّر: «سوف أجتهد في الدراسة وأغدو مهندسًا بارعًا، ثم أعود إلى هنا وأعمل مع أبي، وأمتلك سيارة ذات سقف مُتحرِّك وبيتًا ضخمًا مرفقًا بمسبح، وأتزوَّج مارسيلا، وأصبح «دُون جوان»، وأذهب كل سبت إلى غريل بوليڤار حتى أرقص، وأسافر كثيرًا. وبعد أعوام قليلة لا أتذكَّر أنني قد درستُ في ليونسيو پرادو».

- ماذا بك؟ -سألَت مارسيلا- فيمَ تفكِّر؟

وصلا إلى ناصية جادة لاركو، حيث أحاط بهما الناس: كانت النساء يرتدين البلوزات والتنانير ذات الألوان الزاهية، وينتعلن الأحذية البيضاء، ويعتمرن القبعات المصنوعة من القشّ، ويضعن نظارات الشمس على العيون. وفي السيارات ذات الأسقف المُتحرِّكة، شُوهِد رجال ونساء بثياب السباحة يتجاذبون أطراف الحديث ويضحكون.

- لا شيء. -قال ألبِرتو- لا يروقني أن أتذكَّر المدرسة العسكرية.

- لماذا؟

- لقد أمضيتُ حياتي في المدرسة مُعاقَبًا. لم يكُن ذلك بالشيء المبهج.

- منذ أيام سألني أبي عن السبب الذي جعلك تلتحق بتلك المدرسة. -قالَت.

- من أجل تقويمي. قال أبي إنني أستطيع خداع الكهنة، أما رجال العسكرية فلا.

- أبوك مهرطق.

مشيا في جادة آريكيپا. وعند تقاطع الثاني مِن مايو، صاح عليهما أحدهم مِن سيارة حمراء: «أهلًا، أهلًا، ألبِرتو، مارسيلا».

وجدا مُتَّسعًا من الوقت لرؤية الفتى الذي حيَّاهما بإشارة مِن يده، فردَّا له التحية.

- هل عرفت؟ -سألَت مارسيلا- لقد تشاجر هو وأورسولا.

- آه، حقًّا؟ لم أكُن أعرف.

أخبرَته مارسيلا بتفاصيل الانفصال. لم يفهم جيدًا، بل إنه راح يفكِّر في الملازم غامبوا من دون قصد. «لا بدّ أنه ما زال في لاپونا. لقد أحسن معاملتي، ولهذا استُبعِد عن ليما. كل هذا لأنني كنتُ جبانًا. ربما فاتته فرصة الترقِّي، وظلّ برتبة ملازم أعوامًا طوالًا. لمُجرَّد أنه قد صدَّقني».

- أتسمعني، أم لا؟ -سألَت مارسيلا.

- بالطبع. -قال ألبِرتو- وماذا بعد؟

- اتَّصل بها عشرات المرات، ولكنها ما إن تتعرَّف صوته حتى تنهي الاتصال. لقد أحسنَت صنعًا، ألا توافقني؟

- بطبيعة الحال. -قال- لقد أحسنَت صنعًا بحقّ.

- أتفعل شيئًا من هذا القبيل؟

- كلّا. -قال ألبِرتو- أبدًا.

- لا أصدِّقك. -قالَت مارسيلا- الرجال كلهم أنذال.

كانا في جادة پريمابيرا. وعلى مسافة بعيدة، رأيا سيارة پلوتو، الذي أشار إليهما مِن مكانه عند الرصيف بلفتات مُتوعِّدة. جاء يرتدي قميصًا أصفر زاهيًا، وسروالًا باللون الكاكي يصل إلى الكاحلَيْن، وينتعل حذاء موكاسين وجوربًا بلون القشدة.

- أنتما وقحان! -صاح عليهما- وقحان!

- أليس لطيفًا؟ -قالت مارسيلا- كم أحبّه!

انطلقَت مارسيلا راكضةً نحو پلوتو الذي تظاهر بأنه يذبحها، بحركة مسرحية. ضحكَت، فكأن ضحكتها نبعٌ يلطِّف النهار

المشمس. ابتسم ألبِرتو لپلوتو، الذي سدَّد إلى كتفه ضربة مفعمة بالمودة.

- لقد ظننتُ أنك قد اختطفتَها يا أخي. -قال پلوتو.

- انتظرا لحظة. -قالَت مارسيلا- سوف أُحضِر ملابس السباحة.

- أسرعي وإلَّا تركناك. -قال پلوتو.

- أجل. -قال ألبِرتو- أسرعي وإلَّا تركناك.

*

- وماذا قالَت لك هي؟ -سأل إغيراس النحيل.

تجمَّدَت مكانها، واستغرقَت في الذهول. أما هو فراح يفكِّر، ناسيًا الكدر الذي اعتراه لحظةً: «ما زالت تذكر». وفي الضوء الرمادي الذي تساقط برقّة، كالرذاذ الخفيف، على ذلك الشارع الواسع المستقيم في لينسيه، تراءى كل شيء مِن رماد: المساء، والبيوت العتيقة، والمارة الذين ساروا مقتربين أو مبتعدين بخطى هادئة، وأعمدة الإنارة المتطابقة، والأرصفة المتباينة، والغبار العالق في الهواء.

- لا شيء. استغرقَت في النظر إليَّ وقد اتَّسعَت عيناها ذعرًا، وكأنها خائفة مني.

- لا أصدِّق. -قال إغيراس النحيل- لا أصدِّق ما تقول. لا بدّ أنها قالَت لك شيئًا. «مرحبًا!» أو «كيف سارت حياتك؟» أو «كيف حالك؟»، على الأقل... أو شيء مِن هذا القبيل.

كلّا، لم تقُل له كلمةً واحدة حتى تحدَّث إليها مرة أخرى. توجَّه إليها بالحديث، فجاءت كلماته الأولى متسارعة، مُتسلِّطة: «تيريسا، أتذكرينني؟ كيف حالك؟». ابتسم النَّمِر، مُؤكِّدًا أن ذلك اللقاء قد خلا من المفاجآت، فإن هو إلَّا لقاء عابر، سطحي، خالٍ من

الألغاز. ولكنه قد تكبَّد عناءً بالغًا حتى يرسم تلك الابتسامة على وجهه، وتسلَّل إلى معدته إحساس غير مألوف بالضيق -كتلك الفطريات البيضاء ذات الرؤوس الضاربة إلى الصفرة التي تُولَد في الأخشاب الرطبة فجأةً-، ثم دهم ذلك الإحساس ساقَيْه المُتلهِّفتَيْن للتراجع خطوةً إلى الوراء أو التقدُّم خطوةً إلى الأمام أو إلى الجانبَيْن، ويدَيْه اللتَيْن استبدَّت بهما رغبةٌ في الغوص داخل جيبَيْه أو لمس وجهه. الشيء الغريب أن خوفًا حيوانيًّا قد سكن قلبه، وكأن تلك النزوات قد تنتهي بكارثة مُحقَّقة إن صارت أفعالًا.

- وأنت، ماذا فعلت؟ -سأل إغيراس النحيل.

- قلتُ لها مرة أخرى: «مرحبًا، تيريسا. ألا تذكرينني؟».

وعندئذ أجابَتني:

- طبعًا أذكرك. ولكني لم أتعرَّفك حين رأيتُك.

التقط أنفاسه. في حين ابتسمَت له تيريسا، ومدَّت يدها. تلامسَت يداهما لحظةً قصيرة، فلم يحسّ بأصابع الفتاة إلَّا قليلًا، ولكن جسده كاملًا قد هدأ، وتلاشى الإحساس بالضيق والخوف، كما زال الاضطراب عن أطرافه.

- يا للتشويق! -قال إغيراس النحيل.

كان يقف عند أحد النواصي ويتلفَّت حوله شاردًا بينما يقدِّم إليه البائع مُثلَّجات الشكولاتة والفانيليا. توقَّف ترام ليما-تشوريوس مُطلِقًا صريرًا قصيرًا إلى جوار السقيفة الخشبية، على بُعد خطوات، فتحرَّك أولئك الذين كانوا ينتظرون على الرصيف الإسمنتي محتشدين أمام الباب المعدني حتى سدّوا طريق الخروج، واضطُرّ الركاب إلى التدافع لشقّ طريقهم نزولًا. ظهرَت تيريسا أعلى السلّم تسبقها امرأتان تحملان عبوات كثيرة. وفي وسط ذلك الحشد، بدَت وكأنها

فتاة يحدق بها الخطر. ناوله البائع المُثلَّجات، فمدّ يده، ثم أطبقها، وإذا بشيء ينفلت. سقطَت كرة المُثلَّجات فوق حذائه، أمام عينَيْه. «اللعنة!»، قال بائع المُثلَّجات، «أنت الملوم، ولن أعطيك غيرها». ركل الهواء بقدمه، فحلَّقَت كرة المُثلَّجات بضعة أمتار. دار على عقبَيْه مُتَّجِهًا إلى أحد الشوارع، ولكن ما هي إلَّا ثوانٍ حتى وقف مكانه، مُلتفِتًا برأسه، وآخر عربات الترام تتلاشى عند المنعطف. عاد راكضًا. وعن بُعد، رأى تيريسا تسير وحدها. مضى في أثرها مُتخفِّيًا خلف المشاة، مُفكِّرًا: «الآن تدخل إلى أحد البيوت، فلا أعاود رؤيتها أبدًا». عند ذاك اتَّخذ قراره: «سوف أدور حول المُربَّع السكني، وإن التقيتُها عند الناصية ذهبتُ إليها». أخذ يركض ببطء في أول الأمر، ثم انطلق وكأن مسًّا من الجنون قد أصابه. تعثَّر برجلٍ وهو ينعطف في أحد الشوارع، فأخذ الرجل يكيل السباب لأمِّه مِن مكانه على الأرض. توقَّف وهو يختنق، ويتفصَّد عرقًا. مسح جبينه بيده. ومن بين أصابعه، تأكَّد لعَينَيْه أن تيريسا قادمة نحوه.

- وماذا بعد؟ -سأل إغيراس النحيل.

- تحدَّثنا. -قال النَّمِر- تجاذبنا أطراف الحديث.

- لوقت طويل؟ -سأل إغيراس النحيل- لكم مِن الوقت؟

- لا أدري. -قال النَّمِر- قليلًا، على ما أعتقد. رافقتُها إلى بيتها.

مشيا معًا، هي على الجانب الداخلي مِن الرصيف، وهو على حافة الطريق. سارت تيريسا ببطء، وهي تلتفت إليه بين حين وآخر. وجد نظرتها أكثر إشراقًا، وعينَيْها أكثر ثقةً مِن ذي قبل. بل إنه قد لمس في عينَيْها جرأة، للحظات.

- مرَّت أربعة أعوام تقريبًا، أليس كذلك؟ -قالَت تيريسا- أو ربما أكثر.

- بل خمسة أعوام. -قال النَّمِر، ثم خفض صوته قليلًا-: وثلاثة أشهر.

- العمر يطير. -قالَت تيريسا- سرعان ما يمضي بنا العمر.

ضحك النَّمِر وهو يقول في نفسه: «لقد أصبحَت امرأة».

- وكيف حال أمّك؟ -سألَت.

- ألم تعرفي؟ لقد ماتَت.

- إنها حجَّة مُقنِعة. -قال إغيراس النحيل- وماذا فعلَت هي؟

- توقَّفَت. -أجاب النَّمِر، والسيجارة بين شفتَيْه، ناظرًا إلى مخروط الدخان الكثيف الذي ينفثه مِن فمه، بينما راحت إحدى يدَيْه تنقر الطاولة القذرة- قالَت: «أنا آسفة بشدّة! يا للمسكينة!».

- كان عليكَ أن تقبّلها وتقول لها شيئًا في تلك اللحظة. -قال إغيراس النحيل- إنها اللحظة المثالية.

- أجل. -قال النَّمِر- يا للمسكينة!

لزما الصمت، واستأنفا سيرهما. وضع يدَيْه في جيبَيْه، ناظرًا إليها بطرف عينه. ثم قال لها فجأة:

- أردتُ أن أتحدَّث إليكِ. أقصد، منذ زمن. ولكني لم أعرف لكِ مكانًا.

- آه! -قال إغيراس النحيل- إذن، فلقد تجرَّأت!

- أجل. -قال النَّمِر، ناظرًا إلى الدخان بشراسة- أجل.

- أجل. -قالت تيريسا- لم أرجع إلى بيابيستا منذ انتقلنا. قبل زمن بعيد.

- أردتُ أن أعتذر لك. -قال النَّمِر- أقصد، عمَّا جرى على الشاطئ، في تلك المرة.

لم تقُل شيئًا، ولكنها نظرَت إليه وقد اعترَتها المفاجأة. خفض النَّمِر عينَيْه هامسًا:

- أقصد، أعتذر لأنني قد أهنتُك.

- لقد نسيتُ ذلك. -قالت تيريسا- إنه شيء صبياني، الأفضل ألَّا نتذكَّره. أضفْ إلى ذلك أنني قد شعرتُ بالأسف عندما أمسك بك رجل الشرطة. أجل، حقًّا. -مضَت ترنو إلى الأمام، في حين أدرك النَّمِر أنها لا ترى سوى الماضي، الذي ينبسط في ذاكرتها كمروحة اليد- مساء ذلك اليوم ذهبتُ إلى بيتك وأخبرتُ أمَّك بكل شيء. ذهبَت تسأل عنك في قسم الشرطة، فقيل لها إنهم قد أطلقوا سراحك. أمضَت ليلتها كاملة في بيتي، باكية. ماذا جرى؟ لماذا لم ترجع؟

- وتلك أيضًا لحظة ملائمة. -قال إغيراس النحيل، الذي أتى على كأس البيسكو من فوره، ولكنه ظلّ يرفعها قرب فمه بإصبعَيْه- إنها لحظة في غاية العاطفية، وفق ما يبدو لي.

- أخبرتُها بكل شيء. -قال النَّمِر.

- ماذا تعني بكل شيء؟ -سأل إغيراس النحيل- هل أخبرتَها بأنك قد جئتَ إليَّ بوجه يليق بكلبٍ مضروب، وبأنك صرتَ لصًّا، ماجنًا؟

- نعم. -قال النَّمِر- أخبرتُها بأمر السرقات كلها، أقصد السرقات التي أتذكَّرها. كل شيء عدا الهدايا، ولكنها خمَّنَت، في الحال.

- أنت. . . -قالَت تيريسا- تلك الهدايا كلها، أنت الذي كنتَ ترسلها.

- آه. . . -قال إغيراس النحيل- لقد أنفقت نصف مكاسبك في الماخور والنصف الآخر على الهدايا التي كنتَ تشتريها مِن أجلها. يا لك مِن فتى!

- كلّا. -قال النَّمِر- كدتُ لا أنفق شيئًا في بيت المتعة، إذ لم تكُن النساء يتقاضين مني أجرًا.

- ولماذا فعلتَ ذلك؟ -سألَت تيريسا.

لم يجِب النَّمِر، الذي أخرج يدَيْه من جيبَيْه، لاهيًا بأصابعه.

- هل كنتَ واقعًا في حبّي؟ -سألَت تيريسا، فنظر إليها. لم يتضرَّج وجهها، وإنما وشَت تعابيرها بالهدوء، وبقليلٍ مِن الفضول.

- أجل. -قال النَّمِر- ولهذا تهجَّمتُ على فتى الشاطئ.

- هل شعرتَ بالغيرة؟ -سألَت تيريسا، فلمس في صوتها الآن شيئًا أورثه شعورًا بالحيرة: حضورًا مبهمًا، كيانًا غير مُرتقَب، مُراوِغًا، مُكابِرًا.

- أجل. -قال النَّمِر- لهذا أهنتُك. هل صفحتِ عني؟

- أجل. -قالَت تيريسا- ولكن، كان ينبغي لك أن تعود. لماذا لم تبحث عني؟

- لأنني شعرتُ بالخزي. -قال النَّمِر- ولكني عدتُ ذات مرة، عندما أُلقِي القبض على النحيل.

- لقد تحدَّثتَ إليها عني أيضًا! -قال إغيراس النحيل، مزهوًا بنفسه- إذن فلقد أخبرتَها بكل شيء حقًّا.

- ولكنكِ لم تكوني هناك. -قال النَّمِر- بل إنني وجدتُ آخرين في بيتك. وفي بيتي أيضًا.

- لطالما فكَّرتُ فيك. -قالَت تيريسا. ثم أردفَت، مفعمةً بالحكمة-: أتدري؟ ذلك الفتى الذي ضربتَه على الشاطئ... لم أعاود رؤيته من جديد.

- ولو مرة واحدة؟ -سأل النَّمِر.

- ولو مرة واحدة. -قالت تيريسا- لم يعُد إلى الشاطئ. -انطلقَت مُقهقِهةً، وبدا أنها قد نسيت قصة السرقات والمواخير.

ابتسمَت عيناها لاهيتَيْن، خاليتَيْن مِن المشاغل- مِن المُؤكَّد أنه قد خاف منك، وحسب أنك سوف تضربه مرة أخرى.

- لقد كرهتُه. -قال النَّمِر.

- أتذكر عندما كنتَ تنتظرني في موعد الخروج مِن المدرسة؟ - سألَت تيريسا.

أومأ النَّمِر، سائرًا على مقربة شديدة منها، وذراعه تلامسها بين حين وآخر.

- لقد ظنَّت الفتيات الأخريات أنك تواعدني. -قالَت تيريسا- وأطلقن عليك «العجوز». لأنك كنتَ تبدو في غاية الجدية طوال الوقت...

- وماذا عنك؟ -سأل النَّمِر.

- صحيح. -قال إغيراس النحيل- سؤال وجيه. ماذا فعلَت هي طوال تلك الفترة؟

- لم تنهِ دراستها في المدرسة. -قال النَّمِر- وإنما بدأت تعمل سكرتيرة في أحد المكاتب. وما زالت تعمل هناك.

- وماذا أيضًا؟ -سأل إغيراس النحيل- كم دبّورًا في حياتها؟ كم عشيقًا؟

- واعدتُ فتى واحدًا. -قالَت تيريسا- لعلّك تذهب وتضربه هو أيضًا.

ضحك كلاهما. كانا قد قطعا عدة جولات حول المُربَّع السكني. توقَّفا لحظةً عند الناصية، ومِن دون أن يقترح أحدهما ذلك، بدأت جولة جديدة.

- رباه! -قال النحيل- هنا بدأت الأمور تسير على ما يُرام. هل أخبرَتك بشيء آخر؟

- لقد أخلف ذلك الفتى موعده معها. -قال النَّمِر- ولم يعُد

إليها. ثم رأته ذات يوم يتنزّه ممسكًا بيد فتاة ثرية، سليلة أسرة، أتفهمني؟ تقول إنها لم تنَم في تلك الليلة، وفكَّرَت في الالتحاق بديرٍ للراهبات.

ضحك إغيراس النحيل مُقهقِهًا. أفرغ كأسًا أخرى مِن الپيسكو، وأشار إلى النادل حتى يملأ كأسه مِن جديد.

– لقد أحبَّتك الفتاة. ليس عليك أن تفعل المزيد. –قال إغيراس النحيل– وإلّا، فما كانت لتخبرك بذلك قطّ. لأن النساء في منتهى الكبرياء. وأنت، ماذا فعلت؟

– من دواعي سروري أن ذلك الفتى قد أخلف موعده معك. –قال النَّمِر– لقد أحسن صنعًا. حتى تعرفي كيف شعرتُ حين ذهبتِ إلى الشاطئ مع ذلك الفتى الذي ضربتُه.

– وماذا قالَت هي؟ ماذا قالت؟ –سأل النحيل.

– لديك نزعة قوية إلى الانتقام. –قالَت تيريسا.

تظاهرَت بأنها تهمّ بضربه، ولكنها لم تُنزِل يدها التي رفعَتها مازحةً، وإنما أبقَتها مُعلَّقةً في الهواء. وإذا عيناها طليقتان، تتحدَّيانه بجرأة مفعمة بالجذل. أمسك النَّمِر تلك اليد التي تهدِّده، فتركَته تيريسا يجذبها إليه، مُتَّكِئةً بوجهها على صدره. وبيدها الحرّة، عانقَته.

– كانت أول مرة أقبِّلها. –قال النَّمِر– قبَّلتُها عدة مرات، في الفم. وهي أيضًا قبَّلَتني.

– مفهوم يا رفيق. –قال النحيل– مفهوم، طبعًا. وبعد كم من الوقت تزوَّجتما؟

– بعد وقت قصير. –قال النَّمِر– خمسة عشر يومًا.

– يا للاستعجال! –قال النحيل. أمسك كأس الپيسكو بيده مرة

أخرى، ومضى يُحرِّكها بذكاء: فكان السائل الشفَّاف يميل إلى الحافة ثم ينحسر.

- في اليوم التالي ذهبَت لتنتظرني في المكتب. تجوَّلنا لبعض الوقت ثم ذهبنا إلى السينما. في تلك الليلة قالَت لي إنها قد أخبرَت خالتها بكل شيء، وإن خالتها قد غضبَت غضبًا عارمًا، وأرادت منها أن تتوقَّف عن مقابلتي.

- يا للوقاحة! -قال إغيراس النحيل. عَصَر نصف ليمونة في فمه، والآن مضى يقرِّب شفتَيْه مِن كأس البيسكو، بنظرة محمومة، نهِمة- وماذا فعلتَ أنت؟

- طلبتُ مِن البنك أن أتلقَّى راتبي مُقدَّمًا. المدير رجل طيب. أعطاني إجازة أسبوعًا. وقال لي: «يروقني أن أشاهد الناس وهم ينتحرون. تزوَّج وكفى. يوم الإثنين المقبل يجب عليك أن تكون هنا، في تمام الساعة الثامنة».

- كلِّمني قليلًا عن تلك الخالة المُبارَكة. -قال إغيراس النحيل- هل ذهبتَ للقائها؟

- في وقت لاحق. -قال النَّمِر- ولكن في تلك الليلة، ليلة أخبرَتني بأمر خالتها، طلبتُ من تيريسا أن تتزوَّجني.

- موافقة. -قالَت تيريسا- أنا موافقة. ولكن، ماذا عن خالتي؟

- فلتأكل خراء! -قال النَّمِر.

- أقسمْ لي إنك قد قلتَ لها ذلك بالحرف الواحد! -قال إغيراس النحيل.

- أجل. -قال النَّمِر.

- لا تتفوَّه بالشتائم أمامي. -قالَت تيريسا.

- إنها فتاة لطيفة. -قال إغيراس النحيل- بالحكم على ما

أخبرتَني به، أرى أنها فتاة لطيفة. لم يكُن يجدر بك أن تقول ذلك عن خالتها.

- الآن صارت تجمعني بالخالة علاقة طيبة. -قال النَّمِر- مع أنها قد صفعَتني على وجهي حين ذهبنا لرؤيتها بعد الزواج.

- لا بدّ أنها امرأة حادة المزاج. -قال إغيراس النحيل- أين عقدتَ الزواج؟

- في أواتشو. رفض الكاهن أن يزوِّجنا نظرًا إلى غياب شهادة خلوّ الموانع ومتطلبات أخرى لا أعرف عنها شيئًا. مررتُ بوقت عصيب.

- أتخيَّل، أتخيَّل. -قال إغيراس النحيل.

- ألا ترى أنني أكاد أختطفها؟ -قال النَّمِر- ألا ترى أنني أكاد أفلس تمامًا؟ كيف تريد مني أن أنتظر ثمانية أيام؟

كان باب حجرة المُقدَّسات مفتوحًا، وتبيَّن النَّمِر خلف رأس الكاهن الأصلع جزءًا من جدار الكنيسة: حيث النذور الفضية تتلألأ على الجصّ القذر الحافل بالندوب. عقد الكاهن ذراعَيْه على صدره، ويداه تلتمسان الدفء تحت إبطَيْه، كالطيور إذا التمسَت الدفء في الأعشاش. بينما وشَت عيناه بالطيبة والشقاوة معًا. كانت تيريسا مع النَّمِر، بفم مُتلهِّف، وعينَيْن خائفتَيْن. وإذا بها تجهش بالبكاء فجأة.

- رأيتُها تبكي، فثارَت ثائرتي! -قال النَّمِر- وأطبقتُ على مُؤخَّر عنق الكاهن بيدي.

- غير معقول! -قال النحيل- مُؤخَّر عنقه؟

- أجل. -قال النَّمِر- كادَت عيناه تخرجان من محجرَيْهما مِن شدة الاختناق.

- أتعرفان كم يكلِّف ذلك؟ -سأل الكاهن وهو يحكّ عنقه.

- شكرًا، يا أبت. -قالَت تيريسا- شكرًا جزيلًا، يا أبت العزيز.

- كم؟ -سأل النَّمِر.

- كم لديك؟ -سأل الكاهن.

- ثلاثمئة صول. -قال النَّمِر.

- نصف هذا المبلغ. -قال الكاهن- ليس من أجلي، بل مِن أجل المساكين الذين أرعاهم.

- عقد زواجنا. -قال النَّمِر- وتصرَّف كما يليق، فاشترى من ماله الخاص قارورة نبيذ، شربناها في حجرة المقدسات. ثم أُصيبَت تيريسا بدوار طفيف.

- وماذا عن الخالة؟ -سأل النحيل- حدّثني عنها، أستحلفك بأغلى ما عندك.

- في اليوم التالي عدنا إلى ليما وذهبنا للقائها. قلتُ لها إننا قد تزوَّجنا وأطلعتُها على قسيمة الزواج التي أعطانا الكاهن إياها، فإذا بها تصفعني على وجهي. غضبَت تيريسا وقالَت لها: «أنتِ أنانية، لئيمة». وفي النهاية، أجهشَت كلتاهما بالبكاء. قالت العجوز إننا سوف نهجرها، وإنها سوف تموت كما تنفق الكلاب. وعدتُها بأن تعيش معنا، عندئذ هدأت ونادَت الجيران قائلةً بضرورة الاحتفال بالعرس. ليست شريرة، بل كثيرة الامتعاض، ولكنها لا تحتكّ بي.

- ما كنتُ لأستطيع العيش مع امرأة عجوز. -قال إغيراس النحيل، الذي فقد الاهتمام بقصة النَّمِر فجأة- لقد عشتُ مع جدتي في طفولتي. كانت مجنونة، تمضي يومها كاملًا وهي تتحدَّث إلى نفسها، وتطارد دجاجًا لا وجود له. كانت تملأ نفسي خوفًا. وكلَّما رأيتُ امرأة عجوزًا تذكَّرتُ جدّتي. لا أستطيع العيش مع النساء العجائز، فكلهن مجنونات قليلًا.

- ماذا ستفعل الآن؟ -سأل النَّمِر.

- أنا؟ -سأل إغيراس النحيل، مُتفاجِئًا- لا أدري. مبدئيًّا، سوف أسكر. وبعد ذلك نرى. أريد أن أتجوَّل قليلًا. لم أرَ الشارع منذ وقت طويل.

- إن شئت، فتعالَ إلى بيتي حتى تجد شيئًا. -قال النَّمِر.

- أشكرك. -قال إغيراس النحيل، ضاحكًا- ولكن بالتفكير في الأمر مليًّا، لا يبدو لي ذلك مناسبًا. قلتُ لك إنني لا أستطيع العيش مع العجائز. ولا بدّ أن زوجتك تكرهني. الأفضل ألَّا تعرف حتى أنني قد خرجت. سأمرّ بك في المكتب ذات يوم حتى نشرب بضع كؤوس معًا. أعشق التحدُّث إلى الأصدقاء. ولكن لا يمكننا أن نلتقي كثيرًا. لقد أصبحتَ رجلًا جادًّا، وأنا لا أختلط بالرجال الجادّين.

- أتستمرّ في الشيء نفسه؟ -سأل النَّمِر.

- أتقصد السرقة؟ -انقبض وجه إغيراس النحيل- أعتقد. هل تعرف السبب؟ لأن العنزة تحنّ إلى الجبال دائمًا، كما قال كوليبيه. ولكن يجدر بي أن أغادر ليما في الوقت الحالي.

- أنا صديقك. -قال النَّمِر- أخبرني لو كان في يدي أن أساعدك.

- في يدك أن تساعدني... -قال النحيل- ادفعْ ثمن الشراب، فأنا مفلس تمامًا.

تمَّت

مكتبة
t.me/soramnqraa

كلمة المؤلف
في الذكرى الخمسين للرواية[1]

[الرواية الأولى]

[. . .] إنها روايتي الأولى، التي بدأتُ أكتبها قبل أربعة وخمسين عامًا على وجه التحديد. في مكان لا يبعد عن هنا كثيرًا. في نزل يقع بشارع الدكتور كاستيلو. جئتُ إلى مدريد آنذاك حتى أحصل على درجة الدكتوراه في جامعة كومپلوتينسيه. والفضل في ذلك يرجع إلى منحة دراسية مُقدَّمة من جامعة سان ماركوس الوطنية وبنك الشعب، منحة «خابيير پرادو» التي أتاحت لي الوقت اللازم حتى أتمكَّن من الكتابة.

جئتُ إلى مدريد تحدوني آمالٌ عظمى، انصبَّت كلها، بطريقة ما، على أول الجهود الأدبية الكبرى التي بذلتُها. وأصفها بـ«الكبرى» نظرًا إلى الوقت الذي استغرقتُ في كتابة هذا العمل، وإلى كل آلام

---

(١) ألقى ماريو بارغاس يوسا الكلمة الواردة هنا أمام الأكاديمية المَلَكية الإسبانية في العشرين من يونيو عام ٢٠١٢، بمناسبة الذكرى الخمسين لرواية «المدينة والكلاب»، واحتفالًا بصدور طبعة تذكارية خاصة عن الأكاديمية، مُزوَّدة بالفهارس والمسارد والشروحات التي أفادَت في تقديم هذه الترجمة بقدر ما أفادَت سائر المراجع والمصادر التي استندنا إليها.

الرأس التي أصابني بها. من المُؤكَّد أنكم تعرفون أن الكاتب لا يكتفي بالاستناد إلى المخيلة وحدها أبدًا. ذلك أن المخيلة في حاجة إلى «المادة الخام» التي تنطلق منها إلى عالَم الخيال. الأمر الذي ينطبق على رواياتي الأولى أيضًا، بطبيعة الحال.

لقد أودعتُ في هذه الرواية مغامرةً عشتُها عامَي ١٩٥٠ و١٩٥١ في مدرسة ليونسيو پرادو العسكرية، مسرح أحداث القصة. هناك عشتُ واحدة من تلك المغامرات التي لم أكُن قد عشتُها حتى ذلك الوقت إلَّا عَبْر الروايات، التي بدأتُ أقرأها منذ أول الطفولة، منذ تعلَّمتُ القراءة، فكان لها شديد الأثر على طفولتي. مِن المُؤكَّد أن رسالتي كاتبًا قد وُلِدَت مِن مشاعر الحماسة والبهجة والسعادة التي منحَتني إياها تلك الآلة السحرية، عندما شرعتُ أترجمُ الكلمات إلى صور، كلمات الروايات التي بدأتُ أقرأها وأنا لا أزال طفلًا صغيرًا. أعتقد بأنني قد أمضيتُ طفولتي كاملةً وأنا أحلم بأن أعيش في مرةٍ من المرات مغامرةً كتلك التي لم أعِشها آنذاك إلَّا بطريقة غير مباشرة، بفضل سالغاري وكارل ماي وجول فيرن وألكسندر دوما وفيكتور هوغو...

[المدرسةُ صورةٌ مُصغَّرة للمجتمع]

أما المغامرة التي عشتُها آنذاك، فهي مدرسة ليونسيو پرادو العسكرية، التي مثَّلَت مُؤسَّسةً فريدة من نوعها، وصورةً مُصغَّرةً للمجتمع البيروفي بكل ما ينطوي عليه من تنوُّع وتوتُّر وعنف وتعقيدات وطموحات وعادات وغياب للتفاهم. في تلك الحقبة، كان المجتمع البيروفي -شأن كثير من مجتمعات أمريكا اللاتينية- مُقسَّمًا إلى قطاعات راكدة، حيث لا تعرف كل فئة من المجتمع إلَّا أقل القليل عن باقي الفئات، وحيث يكاد ينعدم التواصل بينها. ولذا

فمن شأن طفل أو شاب ينتمي إلى الطبقة المُتوسِّطة ويقيم بجوار ليما -كما في حالتي- ألَّا يعرف إلَّا قليلًا عن البلد الذي وُلِد وعاش فيه. وألَّا يعرف شيئًا عن العالَم الهندي، على سبيل المثال. إذ لم يكُن المرء يرى الهنود أو يسمع حديثًا بلغة الكيتشوا المحلية إلَّا فيما ندر، بخلاف ما آلَت إليه الحال في يومنا هذا. ومِن شأن طفل كهذا أن يجهل بكثير من الأمور عن باقي المناطق التي تنقسم إليها بيرو... كالحياة في الجبال، والحياة في الأدغال. أما في حال لم يخرج من ليما، فهو لن يعرف إلَّا أقل القليل عن الحياة في الأقاليم ومدن الأقاليم وقراها. في تلك الحقبة، كادت تنعدم المُؤسَّسات التي يُمثِّل فيها بيرو كاملًا، من المنظور الاجتماعي. ولكن مدرسة ليونسيو پرادو كانت من تلك الاستثناءات القليلة، لأنها مدرسة قومية، خاضعة لنظام عسكري، كما يتَّضح مِن الاسم، حيث يدرس الطُلَّابُ الأعوامَ الثلاثة الأخيرة من المرحلة الثانوية. في واقع الأمر، خضعَت المدرسة لإدارة وتنظيم الجيش... سلاح المشاة.

توافد إلى المدرسة فتيان من كل الطبقات الاجتماعية في بيرو، وحتى الطبقة البرجوازية الراقية، وإن لم يكثُر عدد الطُلَّاب المُنتَمين إليها، الذين غالبًا ما يرسلهم آباؤهم إلى المدرسة نظرًا إلى صعوبة تهذيب أولئك الفتيان. لم يدرِ الآباء كيف يقوِّمون أبناءهم، فخُيِّل إليهم أن النظام العسكري قادر على ذلك. كما التحق بالمدرسة كثير من شباب الطبقة المُتوسِّطة الطامحين إلى الاستمرار في العسكرية، والانضمام إلى الجيش... سلاح البحرية، أو سلاح الطيران... ما جعل المدرسة بالنسبة إليهم بوابة عبور إلى العسكرية. كما كثُر الطُلَّاب القادمون من القطاعات الأشدّ تواضعًا في بيرو -أصحاب البشرة السوداء، والخلاسيون، والهنود-، الذين تسنَّى لهم الالتحاق بالمدرسة بفضل منظومة كبيرة سخية للمنح الدراسية. كان عدد

الحاصلين على المنح الدراسية آنذاك يُقدَّر بقرابة مئة طالب، سُمِح لهم الالتحاق بالمدرسة مجانًا. توافد إلى مدرسة ليونسيو پرادو العسكرية فتيان من كل أرجاء بيرو، لأنها الوحيدة من نوعها في تلك الحقبة. بعد ذلك أُنشِئَت مدارس أخرى مثلها في الأقاليم. وإن كانت ليونسيو پرادو هي الوحيدة آنذاك. ولذا توافد إليها طُلَّاب من جنوب البلاد ووسطها وشمالها، من الجبال والأدغال والساحل. ما جعل المدرسة العسكرية صورةً مُصغَّرة حقيقية للمجتمع البيروفي. وبطبيعة الحال، ذهب كل فتى إلى المدرسة مُحمَّلًا بعالَمه الخاص، وأحكامه الاجتماعية والعرقية المسبقة، وأحقاده وضغائنه أيضًا. ما أفضى إلى استنساخ جميع التوتُّرات وأشكال العنف وسط المراهقين بصورة مُصغَّرة، تلك الأشياء التي اكتشفتُها هناك بعد أن كنتُ جاهلًا بها.

[مِن أعماق بيرو]

لم يكُن الالتحاق بمدرسة ليونسيو پرادو العسكرية تجربةً مُحبَّبة إلى نفسي، وإنما تجربة كريهة. لقد شقيتُ كثيرًا بالدراسة في المدرسة الداخلية، واكتشفتُ جمال الحريَّة وبشاعة الأسر. شقيتُ كثيرًا بالانضباط الذي فُرِض علينا بصرامة وحزم شديدَيْن. كما شقيتُ بالعنف الذي مثَّل الوضع اليومي للحياة في المدرسة. بعد أعوام طوال، وفي معرض حديثي إلى بعض الزملاء مِن خريجي ليونسيو پرادو، لاحظتُ كم تختلف ذكريات كلٍّ منا لأشكال العنف التي تألَّفَت منها حياة المدرسة، فكثيرٌ منهم يذكرونها بوصفها شيئًا مُسلِّيًا. كما أنهم لم يجدوا في ذلك شكلًا من أشكال العنف، وإنما شقاوة عادية مألوفة تليق بالمراهقين، ولا سيما في مكان منغلق على ذاته. في حين لم يلاحظ طُلَّاب آخرون أن ما يجري هناك قد يُعتبَر عنفًا من

الأساس. أما أنا، فلقد وجدتُه كذلك. على سبيل المثال، أذكر كم كان يختلف الشجار هناك عنه في مدرسة لا سال التي سبق أن درست بها. كانت شجارات الطُّلَّاب في مدرسة لا سال تليق بالفرسان، فتجد أطراف الشجار ينتظرون بعضهم بعضًا بانتهاء الدرس، ثم يذهبون إلى ملعب كرة القدم، ويضعون بعض القواعد التي يحترمها الأطراف. وأخيرًا ينتهي الشجار بالضربة الأولى أو الثانية، في حين لا يسمح المشاهدون بأن يتفاقم الوضع أبدًا. أما في مدرسة ليونسيو پرادو، فكاد الشجار يغدو معركة حياة أو موت، حيث يتعارك الأطراف وسط تشجيع المشاهدين المُتعطِّشين للدماء حتى النهاية. كان المرء يشعر بأن تلك الشجارات لا تنشأ عن خصومات أو منافسات صغيرة أبدًا، بل عن شيء ضارب في العمق والبُعْد، شيء ينبع مِن أعماق بيرو بحقّ، ويظهر هناك، طافيًا على السطح، في طقوسنا التي جاءت نسخةً مُقلَّدةً هزليةً من الطقوس العسكرية التي كانت تشكِّل جزءًا أساسيًّا من الحياة في المدرسة، بطبيعة الحال. عشنا كما يعيش رجال العسكرية. وكان يُفترَض بنا أن نفكِّر ونتصرَّف مثلهم أيضًا، مع أن أغلب الطُّلَّاب ما زالوا في طور الطفولة، أو في أول المراهقة. ما جعل ذلك الانضباط وتلك الطقوس وتلك اللوائح كلها تنحرف وتغدو مُشوَّهةً على مستوى الطُّلَّاب. وفي كثير من المرات، أسفر ذلك عن معاناة وألم وقسوة في غاية الشدّة.

لم تكُن بالتجربة المُحبَّبة إلى نفسي، كما سبق أن قلت. ولكن بالنظر إليها عن بُعْد، أجد ذاتي في غاية الامتنان لمدرسة ليونسيو پرادو العسكرية، لأنها قد كشفَت لي حقيقة البلد الذي قد وُلِدتُ فيه. وجعلَتني، بطريقة ما، أعيش بنفسي تلك المشكلات الهائلة التي شهدها المجتمع البيروفي: انعدام التفاهم وغياب التواصل والعنف المُستتِر والعنف الصريح.

[التفرُّغ للكتابة]

على كل حال، كانت تلك مغامرتي الكبرى، كما سبق أن قلت. ومِن موقعي في المدرسة العسكرية، حلمتُ بأن أكتب روايةً ذات يوم، مُغتنِمًا تلك التجربة... أن أكتب روايةً تضمّ تلك المغامرة. بحلول ذلك الوقت، عرفتُ أن القراءة والكتابة أحبّ الأشياء إلى نفسي في هذه الحياة. وإن لم يُخيَّل إليَّ أنني سوف أتمكَّن من تكريس نفسي للكتابة ذات يوم، بطبيعة الحال... للكتابة وحدها. من حسن الحظّ أن ذلك الوضع قد تبدَّل الآن. أما بالنسبة إلى شابٍّ وجد في نفسه نزعةً أدبيةً آنذاك، فكان من الصعب عليه أن يتخيَّل نفسه وقد استطاع أن ينذر حياته كاملةً لحرفة الكتابة خلال تلك الحقبة في بيرو، وفي كثير من بلدان أمريكا اللاتينية على الأرجح، بل وربما في إسبانيا أيضًا. لم يبدُ أن لتلك الحرفة مكانةً في المجتمع، بخلاف غيرها من المهن الحرّة. لم يبدُ ممكنًا أن يجني المرء قوته مِن الكتابة، وأن يعيش على قلمه بحقّ. ولذا لم أجرؤ حتى على التفكير في إمكانية التفرُّغ للكتابة وحدها ذات يوم. مضيتُ أفكِّر في مهن قد تلائم رسالتي الحقيقية بطريقة ما... كالمحاماة، طبعًا. ثم فكَّرتُ في التدريس والصحافة. ولكن ما ظهر بوضوح أن الشغف الذي تملَّكني آنذاك -ذلك الشغف النهم، الجارف، المستمرّ- كان هو الأدب. حلمتُ بالانتهاء من دراستي والحصول على تلك المنحة الدراسية، فشاء لي الحظّ أن أحصل عليها. كانت تلك المنحة تسمح للمرء أن يعيش عامًا كاملًا من دون أن يفعل شيئًا سوى التفرُّغ التام للدراسة والقراءة والكتابة. ولذا وجدتُ الحضور إلى مدريد شيئًا على درجة استثنائية من الأهمية. لم تستغرق دروس الدكتوراه بجامعة كومبلوتينسيه أكثر من بضع ساعات في الصباح، وهكذا استطعتُ أن أنذر الليل والمساء لكتابة هذه الرواية، التي

أودعتُ فيها تجربتي طالبًا بمدرسة ليونسيو پرادو، بطبيعة الحال، وتجربتي قارئًا أيضًا. أعتقد بأن هذا ما يفعله كل كاتب، ذلك أنه لا يكتفي بإدراج الصور المعيشة، المحفوظة بالذاكرة، بل إنه يُدرِج الصور المقروءة أيضًا.

[الروايات الكبرى]

أعتقد بأن حفنةً من الكُتَّاب قد شغلوا تلك المنزلة المهمة التي احتلَّتها تجربتي بمدرسة ليونسيو پرادو وأنا أكتب «المدينة والكلاب». أرى أنني قد اكتشفتُ الطموحَ باعتباره مُكوّنًا أساسيًّا في الرواية حين طالعتُ «تيرانت الأبيض» لجوانوت مارتورل[١]، التي قرأتها وأنا في جامعة سان ماركوس مدفوعًا إلى ذلك بروح المعارضة، لأن أستاذ أدب «العصر الذهبي»[٢] قد أقصَى روايات الفروسية بازدراء شديد، وزعم بأنها كتب فوضوية، تفتقر إلى الترتيب، بل إنها على قدرٍ من المجون أيضًا، فمررنا بها كالسائرين على الجمر الملتهب، ومن ثمّ اتَّجهنا مباشرةً إلى كتب أكثر أهمية. أما ذلك الاحتقار الذي قُوبِلَت به روايات الفروسية، فلقد أورثني شعورًا بالفضول. وهكذا قصدتُ مكتبة سان ماركوس، تلك المكتبة العتيقة، ذات الأجواء الحميمة، الملأى ببيوت العناكب، وطلبتُ إحدى روايات الفروسية، فشاء لي الحظّ الرائع أن أتلقَّى من أمينة المكتبة [نسخةً مِن «تيرانت الأبيض»] في طبعتها الصادرة عام ١٩٤٨، تلك التي أعدّها الأستاذ الكبير

(١) «تيرانت الأبيض»: روايةُ فروسية من تأليف الكاتب الفالنسي جوانوت مارتورل (١٤١٣-١٤٦٥).

(٢) «العصر الذهبي» أو «القرن الذهبي»: عصر ازدهار الأدب والفكر والفن في إسبانيا، الذي امتدّ من أواخر القرن الخامس عشر وحتى أواخر القرن السابع عشر طبقًا لتقديرات بعض المُؤرِّخين.

مارتين دي ريكيه، الخبير في رواية الفروسية لجوانوت مارتورل. تركَت الروايةُ في نفسي أثرًا هائلًا. وتأثَّرتُ أشدّ ما تأثَّرتُ بالطموح المذهل المفرط لتلك الرواية التي لمستُ فيها إصرارًا على أن تحكي كل شيء: أن تحكي المغامرات الملحمية التي خاضَتها الشخصيات، والحياة في القصور والقلاع، بل إن الرواية تتسلَّل حتى إلى حجرات النوم، وتكشف حميمية العلاقات الغرامية بسلاسة وحريَّة مفاجئتَيْن... تبدو الروايةُ هزليةً حينًا، وعاطفيةً حينًا. كما أنها تحطِّم الأنماط الجامدة لروايات الفروسية. فعلى سبيل المثال، لا يلقى البطلُ في الختامِ ميتةً بطولية تليق بفرسان روايات الفروسية. بل إنه يلقى حتفه إثر سقوطه عن صهوة الجواد، أو تحت وطأة المرض...

على كل حال، لقد اكتشفتُ مع هذا العمل أهمية المقدار والكمّ في الرواية، التي أعتقد بأنها اللون الأدبي الوحيد حيث يرقى عنصرُ الكمّ إلى أهمية الجودة، بل إنه يُعَدّ مُكوّنًا أساسيًّا مِن مُكوّنات الجودة. وهكذا اكتشفتُ أن الروايات الكبرى لم تكُن «كبرى» بالمعنى النوعي فحسب، بل وبالمعنى المادي أيضًا... الروايات الكبرى من قبيل «دون كيخوته» أو «الحرب والسلام»، دعْ عنك «الكوميديا البشرية» لبلزاك أو «الوقائع القومية» لـ[بينيتو پيريث] غالدوس... إنها روايات كبرى بالمعنى المادي للكلمة، روايات تطمح إلى الإحاطة بمزيد من مجالات التجربة، ومزيد من مستويات الواقع. وأعتقد بأن ذلك من الأشياء التي حفَّزتني وأنا أكتب «المدينة والكلاب»، التي حاولتُ أن أحكي فيها أمورًا كثيرة وأن أكتب حياةَ مجتمعٍ بالكامل، من شتّى الزوايا، ومن شتّى وجهات النظر.

[أثر فوكنر]

كما أعتقد بأن الأشياء التي تعلَّمتُها بقراءة روايات الكُتَّاب الأمريكان مِن «الجيل الضائع» قد شغلَت عندي مكانةً في غاية الأهمية وأنا أكتب هذه الرواية: همينغواي، و[جون] دوس باسوس... ولا سيما فوكنر، الذي أعتقد بأنه الكاتب الأشدّ تأثيرًا في رواية أمريكا اللاتينية. لقد علَّمني فوكنر أهمية الشكل. بل إنه كان أول كاتب أقرأ أعماله ممسكًا بالورقة والقلم الرصاص، في محاولة مني لكشف طلاسم ذلك الثراء المذهل، وتلك الهندسة المعمارية الكامنة في قصصه، حتى أكتشف كيف يتلاعب بالمنظور ويقفز في الزمن، وكأن الزمن مكانٌ يمكن التنقُّل فيه إلى الخلف وإلى الأمام، لخلق تلك الأجواء الفريدة التي اتَّسمَت بها رواياته... وكيف يمكن للبناء والسردِ إضفاء تعقيد ورهافة وغموض، حتى على المواقف الأشدّ تفاهةً في بعض الأحيان. وكيف أن عالَمَ الرواية عالَمٌ خاصّ، يمثِّل العالَم الواقعي، بطريقة ما... ولكنه لا يقتصر على تصويره أو تقديم شهادة عنه أبدًا، بل إنه يخلق عالَمًا موازيًا، مختلفًا. أما بُعْد ذلك العالَم عن عالَم الواقع، فيقدم لنا منظورًا في غاية الثراء لفهم عالَم الواقع بشكل أفضل. أعتقد بأنني قد وجدتُ في فوكنر مُعلِّمًا شديد الأهمية وأنا أكتب «المدينة والكلاب»، حيث استخدمتُ كثيرًا من تلك التقنيات التي تعلَّمتُها بقراءة روايات فوكنر.

[اكتشاف فلوبير]

كما أعتقد بأن اكتشافَ فلوبير قد وقع من نفسي موقعًا شديد الأهمية. لقد اكتشفتُ فلوبير عامَ ١٩٥٩، حالما وصلتُ إلى باريس، إذ قرأتُ «مدام بوفاري». كانت تلك واحدة من القراءات الأشدّ تأثيرًا في نفسي. ومن بين أشياء أخرى، أظهرَت لي تلك القراءة أي صنف

من الكُتَّاب أريد أن أكون. إن «مدام بوڤاري» رواية واقعية، لأن القارئ يميِّز كل ما يحدث فيها بصفته جزءًا من واقع تجربتنا، بطريقة ما. وعلى الرغم من ذلك، فبالتأمُّل في الرواية عن كثب، وإخضاعها لفحصٍ دقيق، نجدها أبعد ما تكون عن الواقعية، ونكتشف أن ما يبدو في الرواية واقعًا، إنما هو في حقيقة الأمر واقع خاصّ، مُستقِلّ، مختلف، لأنه منسوج بالكامل من كلمات وأفكار تنتظم وتنسجم بما يسمح لها بالتحرُّر من الواقع حقًّا، ومن ثمّ تفرض واقعًا آخر، هو الواقع المُستَقِلّ، السامي، الذي ينطوي عليه الخيال المُوفَّق.

بقراءة فلوبير اكتشفتُ أنه حتى لو وُلِد المرء بلا موهبة فهو لا يزال قادرًا على أن يصنع موهبته بنفسه، عن طريق الانضباط والمثابرة والعناد، ما دامت لديه نزعة جارفة إلى الكتابة مثل فلوبير. إنه الدرس الذي يتعلَّمه المرء من رسائله. ولذا أعتقد بأن مراسلات فلوبير خير قراءة للكاتب المبتدئ، ولا سيما الرسائل المكتوبة خلال الأعوام الخمسة التي استغرقَتها كتابة «مدام بوڤاري». إنها حالة فريدة من نوعها في تاريخ الأدب، حيث نتتبَّع تكوين تلك الرواية خطوةً بخطوة، ويومًا بيوم، بفضل رسائل فلوبير إلى عشيقته لويس كوليه، حتى وكأننا نتلصَّص على المُؤلِّف ونختلس النظر من فوق كتفه إلى ذلك العمل اليومي.

في تلك المراسلات نرى كيف ابتنى فلوبير لنفسه موهبةً لم يملكها في البدء: عن طريق السعي والإلحاح في طلب ذلك، والإقبال على العمل وكأنه يقدِّم نفسه كل يومٍ قربانًا على الورقةِ حيث ينشد الكمال ويبحث عن «الكلمة المثالية» («le mot juste»)، أي الكلمة التي تُقرَأ بصوت مسموع فلا تقع موقعًا ثقيلًا من الأذن، وإنما تنساب إليها كالموسيقى.

قرأتُ مراسلات فلوبير وأنا أكتبُ «المدينة والكلاب» -الرواية التي كثيرًا ما تعذَّبتُ معها بذلك الشعور الذي حدَّثني بأنني أفتقر إلى الموهبة اللازمة لإنجاز الرواية كما حلمتُ بها-، فقدَّمَت لي تلك القراءة مساعدةً هائلة، وبثَّت في نفسي الطمأنينة التي أفتقدها كلَّما بدأت في كتابة رواية. لهذا أعتقد بأن فلوبير من أصحاب التأثير الأغنى والأشدّ ثراءً. الأمر الذي لا يقتصر على المتعة الجارفة التي شعرتُ بها حين قرأتُ رواياته، بل إنه يمتدّ ليشمل أشياء كثيرة علَّمني إياها بشأن عمل الكاتب.

[البحث عن ناشر]

بدأتُ أكتب هذه الرواية هنا، في مدريد، وانتهيتُ منها في باريس. ثم بدأتْ رحلةُ البحث عن ناشر. حتى في تلك الحقبة كان أمرًا شديد الصعوبة أن يتمكَّن شابّ مبتدئ مِن نشر كتاب. بل إن بيرو قد خلَت مِن دور النشر آنذاك. واقتصر النشر على بعض أصحاب المكتبات الذين يُصدِرون كتابًا بين حين وآخر، فيُضطَرّ الكاتب إلى الإسهام في تكاليف الطبعة، التي لا تكاد تُوزَّع، ويصبح لزامًا عليه أن يهديها إلى الأهل والأصدقاء ما دام يبحث عن قُرَّاء. هكذا كانت حال الكُتَّاب. ولقد حاولت، وبذلتُ عدة مساعٍ، غير أنها لم تؤتِ ثمارًا. حتى كان أن اقترح عليَّ شخصٌ -يجب عليَّ أن أذكر اسمه كلَّما تحدَّثتُ عن قصة «المدينة والكلاب»، هو الفرنسي كلود كوفون، الباحث في الدراسات الهِسبانية- أن أرسل المخطوط إلى كارلوس بارال، وقال لي إن: «في برشلونة دار نشر صغيرة، ولكنها تسعى إلى نشرِ الآداب الحديثة في إسبانيا، ومدِّ آفاق ذلك العالَم الضيِّق، عالَم الأدب الإسباني في الوقت الراهن، عن طريق الترجمات. كما أنها تبذل جهودًا مهمة لمواكبة العصر بحقّ. . .».

قال لي ذلك الصديق: «دعنا نرسل إليه المخطوط». وقد فعلنا. وبعد شهور تلقَّيتُ تلغرافًا غيَّر حياتي. جاء التلغراف بتوقيع كارلوس بارال، الذي قال فيه: «سأكون في باريس يوم كذا. دعنا نتحدَّث. انتهيتُ من قراءة روايتك. وأنا مُهتَمٌّ بها للغاية». قابلتُه في فندق پون رويال. أما ذلك الحديث الذي جمعني به، فلقد وقع من نفسي موقعًا استثنائيًّا. قال لي كارلوس بارال إنه قد أحبّ الرواية كثيرًا. وإنه مِن المُستحسَن أن نقدِّم المخطوط لجائزة «بيبليوتيكا بريبي» تحسُّبًا لمشكلات الرقابة التي سوف تواجهنا، علمًا أنه لو فازت الرواية بالجائزة لأصبحَت مساومة الرقابة للحصول على التصاريح اللازمة أكثر سهولة. وقد كان.

[مفاوضات الرقابة]

حصلَت الرواية على جائزة «بيبليوتيكا بريبي». وبدأتْ مفاوضات الرقابة، التي استمرَّت قرابة عام كامل. كان الأمر عسيرًا. أما جهود كارلوس بارال لتجاوز تلك العقبة، التي كانت في غاية الصعوبة آنذاك، فتصلح لكتابة رواية أخرى بحقّ.

وفي النهاية سُمِح بنشر الرواية، على أن نغيِّر ثماني عبارات فحسب. ولكن كارلوس بارال ردّ تلك العبارات إلى أصلها ابتداءً من الطبعة الثانية مِن «المدينة والكلاب»، بالشجاعة المعهودة فيه. من حسن الحظّ أن أحدًا لم ينتبه إلى ذلك. وهكذا كانت الطبعات المُتداوَلة وفيةً للرواية كما كتبتُها.

أما ما تحقَّق للرواية بعد ذلك، فأنتم على علم به. لم يكُن لي أن أحلم بذلك يومًا. لقد عاشت الرواية كل هذه الأعوام، ولم تمُت، كما تموت أغلب الروايات المنشورة. وها هي الآن، في هذه الطبعة التي تملأ نفسي زهوًا وامتنانًا.

[خيبةُ الأملِ مادةً للكتابة]

وعلى سبيل التأمُّل الأخير، ربما كان عليَّ أن أعرب عن امتناني، لا لأولئك الذين أسهموا في هذا الكتاب بطريقة أو بأخرى، وإنما لرسالتي [الأدبية] نفسها، تلك الرسالة الرائعة التي استطعتُ أن أنذر لها شطرًا لا بأس به مِن حياتي، بمساعدة أشخاص أسخياء، من حسن الحظّ... إنها رسالة استثنائية، لأنها تذود عن المرء في وجه الشدائد. أعتقد بأن الكاتب يملك القدرة على أن يتّخذ من أسوأ المصائب التي تحلّ به مادةً للكتابة. وكذلك الأمور الجيدة، بطبيعة الحال. ولكن الأشياء الرديئة والأمور بالغة السوء تشكِّل مادة الكتابة الأكثر خصوبة لدى الكاتب عندما يتخيَّل القصة.

أما قدرة الكاتب على أن يتَّخذ مِن الشقاء وخيبة الأمل والإخفاق مادةً للكتابة، فتُعَدّ طريقةً من طرائق التحصُّن في وجه الألم. وعلى الرغم من الأعوام الطوال التي أمضيتُها كاتبًا، فما زلتُ أجد في تجربة الكتابة غموضًا شديدًا. إن الكتابةَ طقسٌ غريب، حيث يبدو العقل مُسيطِرًا في البدء، ولكن سرعان ما تخرج الأمور عن السيطرة وتنطلق عَبْر طرقات غير مُرتقَبة. ومِن المُؤكَّد أن الكُتَّاب جميعًا [قد عاشوا] تلك اللحظة التي تكاد ترقى إلى حدّ السحر والإعجاز: حين يكتشف المرء أنه قد حكى أكثر مما أراد. أو حكى أمورًا بطريقة شديدة الاختلاف عما قد فكَّر فيه. وأن شيئًا قد تجلَّى هناك، ولم يعُد في إمكان الكاتب أن يعالجه بطريقة عشوائية، فلا بدّ له من احترام ذلك الشيء، لأن صورةً من صور الحياة قد انبثَقت، وللحياة إيقاعها الخاص ومنظومتها الخاصة. ولو طاوع الكاتب تلك المنظومة وتبعها، صارت مهمة الكتابة عمليةً في غاية الإثراء والتعقيد والتسلية، بكل تأكيد. وفي تلك العملية، بينما يودع المرء في نصوصه المخيلة والخيال، فإنه يتلقَّى من الآخرين أشياء كثيرة.

[تأويلات][1]

أعتقد بأن العنصر التلقائي، اللاعقلاني، يلعب دورًا شديد الأهمية في الكتب السردية الأدبية. ولهذا السبب تحديدًا قد يرى القارئ أو الناقد أوضح مما يرى الكاتب، وقد يفهم عمله بأدقّ مما يفهمه الكاتب نفسه، في كثير من الأحيان. ومَن قرأ المقالات المنشورة ضمن هذه الطبعة، وجد للرواية تأويلات في غاية الاختلاف، والتناقض أحيانًا. ولكني ما كنتُ لأجرؤ على أن أقول أيها أصحّ، وأيها أدقّ، وأيها أوفى لما أردتُ أن أكتب. لقد تعلَّمتُ مع هذه الرواية بالتحديد أن قراءة المُؤلِّف لكتاباته لا هي الأدقّ ولا الأكثر واقعية أبدًا.

صدر الكتاب، وبدأ يُترجَم إلى لغات أخرى، الأمر الذي أورثني دهشةً بالغة. وكانت سعادتي جارفة حين تُرجِم إلى الفرنسية، ضمن مجموعة إصدارات أشرف عليها روجيه كايوا، الناقد والكاتب الفرنسي المرموق، فذهبتُ إليه مُعبِّرًا عن امتناني لأنه قد اتَّخذ قراره بنشر روايتي ضمن مجموعته. توجَّهتُ إلى مكتب اليونيسكو حيث يعمل، فاستقبلني بحفاوة بالغة، وأدلى ببضعة تعقيبات على الرواية. وفي معرض حديثه، أخبرني بشيء لاقى عندي اهتمامًا كبيرًا، ولمستُ فيه واحدًا من أكثر الأمور أصالةً في هذه الرواية، إذ قال إن: «النَّمِر ينسب لنفسه جريمةً لم يرتكبها، لمُجرَّد أن يستردّ مكانةَ القائد التي فقدها بعد أن كان يحظى بها وسط زملائه». أخبرتُه بأن النَّمِر لا ينسب لنفسه جريمة القتل، بل إنه قد ارتكبها، وإنه هو الذي

(١) نؤكِّد على أهمية الانتهاء من المتن قبل قراءة المقطع القادم، مع الأخذ في الحسبان أنه يكشف بعض التفاصيل المهمة التي لا يُرفَع عنها الستار إلَّا قرب ختام الرواية.

قتل العَبْد. فإذا بردّ فعله يتركني في حالة من الذهول، عندما قال لي: «كلَّا، كلَّا، أنت لم تفهم الرواية التي كتبتَها!» [ضحكات]. «إنه ينسب لنفسه تلك الجريمة. وذلك هو الشيء الذي يضفي عظمةً تراجيديةً على تلك الشخصية. إنه شيء بديهي، واضح كل الوضوح. فكّرْ في الأمر!». ولقد بلغ من الإقناع حدًّا جعلني، من ذلك الوقت فصاعدًا، أقول: «كلَّا، كلَّا، إنه ينسب إلى نفسه جريمة لم يرتكبها!» [ضحكات].

كانت تلك أول مرة ألتقي فيها قارئًا أذكى مني في الحكم على ما قد كتبتُ بنفسي، ولكنها لم تكُن الأخيرة. إنها عظمة الأدب، الذي يمثِّل صورةً من صور الحياة، ولكنه قد ينطوي على مضامين وتجلِّيات تتمرَّد على السيطرة العقلانية المحضة للمبدع في بعض الأحيان، مثله كمثل الحياة. وفي اعتقادي أنه من الأسباب التي تجعل الأدب على هذه الدرجة من الأهمية تحديدًا، ذلك أنه لا يرمي إلى المتعة وحسب، بل وإلى فهم الحياة أيضًا.

أختمُ حديثي من حيث بدأت، مُعبِّرًا عن خالص امتناني لجميع المُؤسَّسات والأشخاص الذين جعلوا صدور هذه الطبعة شيئًا ممكنًا. وأشكركم جميعًا، بكل تأكيد، لأنكم قد رافقتموني في هذه الذكرى، الذكرى الخمسين لـ«المدينة والكلاب». شكرًا جزيلًا. [تصفيق].

ماريو بارغاس يوسا

مدريد، ٢٠ يونيو ٢٠١٢

مكتبة
t.me/soramnqraa

فهرس المحتويات

- مُقدِّمة المؤلف ٥
- كلمة المترجم ٧
- الجزء الأول ٩
- الجزء الثاني ٢٥٩
- خاتمة ٤٨٧
- كلمة المؤلف في الذكرى الخمسين للرواية ٥٢٥

هذا الكتاب

لقد أودعتُ في هذه الرواية مغامرةً عشتُها عامَي ١٩٥٠ و١٩٥١ في مدرسة ليونسيو پرادو العسكرية، مسرح أحداث القصة. هناك عشتُ واحدة من تلك المغامرات التي لم أكُن قد عشتُها حتى ذلك الوقت إلّا عَبْر الروايات، التي بدأتُ أقرأها منذ أول الطفولة، منذ تعلّمتُ القراءة، فكان لها شديد الأثر على طفولتي. مِن المُؤكّد أن رسالتي كاتبًا قد وُلِدَت مِن مشاعر الحماسة والبهجة والسعادة التي منحَتني إياها تلك الآلة السحرية، عندما شرعتُ أترجمُ الكلمات إلى صور، كلمات الروايات التي بدأتُ أقرأها وأنا لا أزال طفلًا صغيرًا. أعتقد بأنني قد أمضيتُ طفولتي كاملةً وأنا أحلم بأن أعيش في مرةٍ من المرات مغامرةً كتلك التي لم أعِشها آنذاك إلّا بطريقة غير مباشرة، بفضل سالغاري وكارل ماي وجول فيرن وألكسندر دوما وفيكتور هوغو...

مكتبة
t.me/soramnqraa

ISBN 978-9922221533
9 789922 221533

الغلاف : سكينة صلوّن